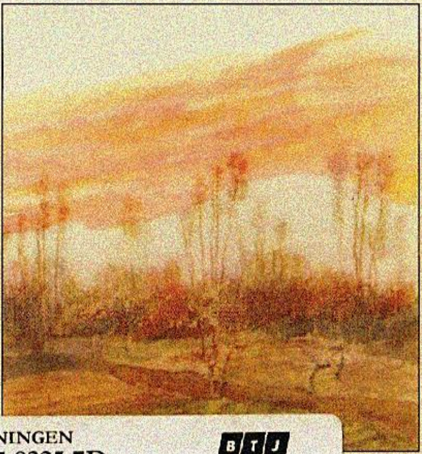
أورهان باموك

ثلج

رواية



أورهان باموك: **ثلج**

Poeten Ka, med tolv år i exil i Tyskland i bagaget, kommer till Kars dels med förhoppningen att återse en tidigare flickvän, dels för att skildra den våg av självmord som begåtts av unga kvinnor i staden.

أورهان باموك

ثـلـج

رواية

ترجمة: عبد القادر اللي

منشورات الجمل

ولد أورهان باموك عام ١٩٥٢ في اسطنبول / تركيا. درس الهندسة المعمارية والصحافة في المدرسة الأمريكية. وبعد إقامة طويلة في الولايات المتحدة الامريكية يقيم اليوم في اسطنبول. يعتبر واحداً من الكتّاب الاكثر شعبية في تركيا اليوم.

أورهان باموك: **ثلج**، رواية، ترجمة: عبد القادر اللي، الطبعة الأولى

Postfach ... any
Tel: 02... 53
E-M...

GARMYAN
Distribution
Kurdish Books & Music
M. Garmyani
www.garmyan.com
E-mail info@garmyan.com
Tel. 00 46 739 949 296

انتباهنا لأطراف الأشياء الخطرة،
اللص النزيه، القاتل الرحيم،
الملحد المؤمن بالخرافات.

روبرت برونغ، معروض الخوري بلوغرام

السياسة في عمل أدبي أمر فظ مثل مسدس ينطلق وسط حفلة موسيقية، ولكنها أمر لا يمكن لنا تجاهله. الآن سنأتي على ذكر أشياء بشعة جداً...

ستردهال، دير بارما

أزيلوا الشعب، حطموه، أسكتوه، لأن تنوير أوروبا أهم بكثير من الشعب.

دستوفسكي، ملاحظات عمل الأخوة كارامازوف

لقد غدا الغربي الذي في داخلي قلقاً.

جوزيف كونراد، تحت عيون الغرب

[١]

صمت الثلج

الدخول إلى قارص

كان الرجل الجالس وراء سائق الحافلة مباشرة يفكر بصمت الثلج. يقول لو كان /صمت الثلج/ الذي يشعر به في داخله بداية قصيدة.

لحق بالحافلة التي ستأخذه من أرضروم إلى قارص في اللحظة الأخيرة. بعد سفر دام يومين في حافلة وسط عاصفة ثلجية من اسطنبول وصل إلى كراج أرضروم. وبينما كان يمشي في الممرات القذرة والباردة يحمل حقيبته، محاولاً معرفة المكان الذي تنطلق منه الحافلات التي ستقلّه إلى قارص، قال له أحدهم ثمة حافلة على وشك الانطلاق، ولأن المعاون على حافلة الموديل القديم (ماغيروس) لا يريد فتح (الباكاج) الذي أغلقه مرة أخرى، قال له: «مستعجلين» لهذا السبب حمل معه حقيبة اليد الكبيرة ماركة (باللي)، الكرزية الداكنة الموضوعة الآن بين رجليه. كان المسافر الجالس بجانب النافذة يرتدي معطفاً رمادياً اشتراه من (كاوفهوف) في (فرانكفورت) قبل خمس سنوات. ولنقل من الآن بأن هذا المعطف الجميل ذا الوبر الناعم سيكون بالنسبة إليه مصدر خجل وقلق من جهة، ومصدرَ طمأنينةٍ من جهة أخرى خلال الأيام التي سيقضيها في قارص.

بعد انطلاق الحافلة مباشرة فتح المسافر الجالس بجانب النافذة عينيه «معتقداً أنه سيرى شيئاً جديداً». وبينما كان يتفرج على أحياء أرضروم المتطرفة، ودكاكين السمانة الصغيرة والفقيرة، والمخابز، وداخل المقاهي المهلهلة بدأ الثلج بالندف. كانت ندف الثلج أكبر وأقوى من تلك التي كانت

تندف طوال الطريق من اسطنبول إلى أرضروم. لو لم يكن المسافر الجالس بجانب النافذة متعباً من السفر، وانتبه إلى ندف الثلج الكبيرة التي تندف من السماء مثل ريش الطير، لاستطاع أن يشعر باقتراب عاصفة ثلجية قوية، ولكان من المحتمل أن يفهم منذ البداية أنه سينطلق في سفر يغير حياته كلها، ويعود.

ولكن، لم تخطر العودة بباله أبداً. حين بدأ يحل المساء، ركزّ عينيه على السماء التي بدت أكثر إضاءة من الأرض، ولم يكن يرى في ندف الثلج التي تكبر تدريجياً وتتناثر مع الرياح إشارات كارثة تقترب، بل كان يتفرج عليها وكأنها إشارات لعودة السعادة والصفاء المتبقية من طفولته في النهاية. المسافر الجالس بجانب النافذة عاد إلى اسطنبول المدينة التي عاش فيها سنوات طفولته وسعادته بعد غياب اثنتي عشرة سنة قبل أسبوع إثر موت أمه. بقي هنالك أربعة أيام، وبرزت له سفرة قارص هذه التي لم تكن بالحسبان. كان يشعر بأن الثلج الجميل جداً يمنحه سعادةً أكثر من سعادته برؤية اسطنبول بعد تلك السنوات كلها. كان شاعراً، وفي قصيدة كتبها قبل سنوات، وقليلاً مايعرفها القارئ التركي قال فيها بأن الثلج يندف مرة واحدة في أحلامنا خلال الحياة.

وبينما كان الثلج يندف طويلاً صامتاً كما يندف في أحلامه، تطهر المسافر الجالس بجانب النافذة بمشاعر البراءة والصفاء التي بحث عنها بلهفة على مدى سنوات، وآمن بهذه الدنيا بتفاؤل يجعله يشعر وكأنه في بيته. بعد قليل عمل ما، لم يعمله منذ زمن طويل، ولم يخطر بباله. لقد نام في مقعده. لنستفد من نومه، ولنقدم حوله بعض المعلومات. كان يعيش في ألمانيا حياة منفيّ سياسي على مدى اثنتي عشرة سنة، ولكنه لم يكن في أي وقت كثير التعلق بالسياسة. الشعر هو تعلقه الأساسي وما يشغل فكره كله. هو في الثانية والأربعين من عمره، عازب، ولم يتزوج أبداً.

لا يُنتبه إلى طوله وهو يتلوى في مقعده، ولكنه يُعَدُّ طويل القامة بالنسبة إلى الأتراك. بشرته قاتمة، وقد اصفرت أكثر نتيجة السفر، وشعره خرنوبي. محب للوحدة، وخجول. لو عرف أن رأسه قد مال على كتف المسافر الذي بجانبه بعد نومه بقليل نتيجة اهتزاز الحافلة، ومال فيما بعد إلى صدره بخجل كثيراً. المسافر الذي انهار جسده فوق جاره حسن النية، وهوإنسان مستقيم

ولهذا السبب فهو قدري دائماً كأبطال تشيخوف ذوي الحياة الخاصة الجامدة والفاشلة بسبب هذه الخصوصيات. سنعود فيما بعد إلى موضوع القدر كثيراً. اسم المسافر الذي أدرك أنه لن ينام طويلاً بسبب جلسته غير المريحة هذه (كريم ألاقوش أوغلو)، ولكن لأنه لايحب هذا الاسم يفضل مناداته بالحرفين الأولين من اسمه وكنيته (كا)، ولأخبركم فوراً بأنني هذا ما سأفعله في الكتاب. بطلنا، منذ سنوات المدرسة كان يعاند في كتابة اسمه على أوراق الامتحان والوظائف (كا)، وكان يوقع على ورقة التفقد في الجامعة باسم (كا)، وفي هذا الموضوع كان يأخذ بعين الاعتبار الشجار مع معلميه، وموظفي الدولة في كل مرة. لأن هذا الاسم الذي فرضه على أمه وعائلته وأصدقائه نشره في كتبه الشعرية. كان لاسم (كا) في تركيا، وبين الأتراك في ألمانيا شهرة قليلة وسحرية. الآن، كالسائق الذي تمنى للمسافرين سفراً بالسلامة إثر الخروج من مركز انطلاق أرضروم، أضيف أنا: مع السلامة يا كا الحبيب... ولكنني لا أريد أن أخدعكم: أنا صديق قديم لـ (كا)، وما سيقع له في قارص أعرفه قبل أن أبدأ بهذه الحكاية.

بعد خورسان انحرفت الحافلة نحو الشمال إلى قارص. وفي إحدى الطرق الصاعدة المتلوية ظهرت فجأة عربة خيل، وحين ضغط السائق بقوة على المكابح استيقظ كا فوراً. لم يستغرق كثيراً دخوله جو الوحدة والتعاون المتشكل في الحافلة. حين تبطئ الحافلة في المنعطفات وعلى أطراف المنحدرات الصخرية كان ينهض على قدميه لرؤية الطريق بشكل أفضل كالمسافرين الذين يجلسون في الخلف على الرغم من جلوسه وراء السائق مباشرة. ويشير بإصبعه إلى زاوية غابت عن انتباه المسافر الذي يمسح الزجاج المغشى أمام السائق باندفاع المساعدة (لم ينتبه إلى المساعدة) وحين ازداد تراكم الثلج، ولم تعد المسّاحات تستطيع مسح الزجاج الأمامي المبيض تماماً، كان كالسائق يحاول إيجاد الطريق الذي لم يعد بادياً أبداً.

لأن الثلج بنى على شاخصات الطريق فلم تعد تقرأ. حين تراكم الثلج جيداً أطفأ السائق الأضواء البعيدة. وبينما كان الطريق يظهر بشكل أوضح في شبه القمة، أظلم داخل الحافلة. المسافرون وسط المخاوف ينظرون إلى أزقة القرى الفقيرة تحت الثلج، والمصابيح الذاوية للبيوت المهلهلة ذات الطابق

الواحد، وإلى طرق القرى البعيدة التي أُغلقت طرقها منذ الآن، والمنحدرات التي تنيرها المصابيح بشكل غير واضح، دون أن يتكلموا فيما بينهم. إذا تكلموا فهم يتكلمون همساً.

الجار الذي سقط في حضنه كا كان نائماً. سأله بهمس عن الهدف من زيارته لقارص. كان من السهل فهم أن كا ليس قارصياً.

همس كا قائلاً: «أنا صحفي».. هذا لم يكن صحيحاً. «أنا ذاهب من أجل انتخابات البلدية، والنساء المنتحرات» هذا صحيح.

قال جاره في المقعد بمشاعر قوية لم يستطع معرفة ما إذا كانت مشاعر اعتزاز أم خجل: «لقد كتبت صحف اسطنبول كلها أن رئيس بلدية قارص قد قتل، وأن النساء ينتحرن.»

لقد تكلم كا بشكل متقطع طوال السفر مع هذا القروي الوسيم النحيل الذي سيلتقيه بعد ثلاثة أيام في قارص في شارع خالد باشا المغطى بالثلج بينما كانت عيناه تدمعان. لأن المشفى في قارص قليل التجهيز، أخذ أمه إلى أرضروم، وهو يعمل بتربية الماشية في إحدى القرى القريبة من قارص، وهو يكسب عيشه بصعوبة ولكنه ليس متمرداً، وهو ليس حزينا من أجل نفسه، بل من أجل بلده ـ لأسباب سرية لم يشرحها لكا ـ وعلم أنه مسرور لمجيء شخص متعلم مثل كا من اسطنبول من أجل هموم قارص. في كلماته البسيطة، وعزة نفسه في أثناء حديثه جانب أصيل دفع كا لاحترامه.

شعر كا بأن وجود الرجل يمنحه طمأنينة. هذه الطمأنينة من النوع الذي لم يشعر به كا في ألمانيا على مدى اثنتي عشرة سنة، ويتذكرها في الأوقات التي يسعد بها لشعوره بالشفقة وتفهمه لشخص أضعف منه. في أوقات كهذه يحاول النظر إلى العالم بعين رجل يشعر نحوه بالشفقة والمحبة. حين فعل كا هذا قلّ خوفه من العاصفة الثلجية غير المنتهية، وفهم أنهم لن يتدحرجوا إلى أحد المنحدرات، وأن الحافلة ستصل إلى شوارع قارص ولو متأخرة قليلاً.

حين دخلت الحافلة شوارع قارص المغطاة بالثلج في الساعة العاشرة، أي بتأخير ثلاث ساعات لم يستطع كا معرفة المدينة. ولم يعرف بناء محطة القطارات الذي ظهر أمامه في يوم ربيعي حين أتى إلى هنا قبل عشرين سنة بواسطة قطار بخاري، ولم يستطع إيجاد فندق الجمهورية الذي يوجد في كل

غرفة من غرفه هاتف، والذي جلبه إليه الحوذي بعد أن جوّله المدينة كلها. كأن كل شيء محي تحت الثلج وضاع. عربة أو عربتا خيل في مركز الانطلاق تذكران بالماضي، ولكن المدينة أكثر هماً وفقراً مما رآه كا وتذكره. رأى كا من نافذة الحافلة التي بنى عليها الجليد الأبنية البيتونية التي أنشئت شبيهاتها في كل مكان من تركيا خلال السنوات العشر الأخيرة، ولوحات (البلغسي غلاس) المتشابهة في كل مكان، وملصقات الانتخابات المعلقة على الحبال المشدودة بين طرفي الشارع.

فور نزوله من الحافلة وملامسة قدمه الثلج الناعم دخل من كمي بنطاله برد قارس. بينما كان يسأل عن فندق (ثلج بلاس) الذي حجز فيه بواسطة الهاتف من اسطنبول رأى وجوهاً مألوفة بين المسافرين الذين يناولهم المعاون حقائبهم، ولكنه لم يستطع معرفة هؤلاء الأشخاص تحت الثلج.

في مطعم (الوطن الأخضر) الذي ذهب إليه بعد أن رتب وضعه في الفندق رآهم من جديد. رجل حفر الزمان عليه آثاره، متعب ولكنه مازال وسيماً ومتباهياً، وبجانبه امرأة تبدو وكأنها زوجته بدينة ولكنها حيوية. تذكرها كا. كانا في اسطنبول يعملان في مسرح سياسي كثير الشعارات في السبعينيات.

اسم الرجل: (صوناي ظائم). وبينما كان ينظر إليهما شارداً شبه المرأة بإحدى زميلاته في المدرسة الابتدائية. رأى كا الرجال الآخرين على الطاولة ببشراتهم الشاحبة والميتة الخاصة بأوساط المسرحيين. ما عمل هذه الفرقة المسرحية الصغيرة في هذه المدينة المنسية في هذه الليلة الشباطية المثلجة؟ وقبيل خروجه من هذا المطعم الذي كان يداوم عليه الموظفون ذوو العقادات قبل عشرين سنة اعتقد كا أنه رأى وراء طاولة أخرى أحد الأبطال اليساريين حاملي السلاح في السبعينيات. ذاكرته أيضاً محيت تحت الثلج مثل قارص المقفرة والشاحبة ومطعمها.

أبسبب الثلج ليس ثمة أحد في الشوارع، أم أنه لا يوجد أحد في أي وقت على هذه الأرصفة المتجمدة؟ قرأ بتمعن ملصقات الانتخابات على الجدران، وإعلانات مدارس الدورات التعليمية والمطاعم، والملصقات المضادة للانتحار التي علقتها المحافظة وكتب عليها: «الإنسان إبداع الله،

والانتحار كفر». رأى كا في المقاهي(*) شبه الممتلئة، والتي بنى الجليد على نوافذها جموع الشباب متابعي التلفاز. رؤية الأبنية الحجرية القديمة ذات البنية الروسية التي جعلت لقارص مكانة خاصة في ذاكرته أدخلت الراحة إلى نفسه ولو قليلاً.

فندق (ثلج بلاس) أحد الأبنية الروسية الظريفة المبنية وفق الطراز المعماري البلطيقي. ويدخل إلى الفندق من تحت قنطرة مفتوحة على باحة، وهو بناء بطابقين ذو نوافذ ضيقة ومرتفعة طولانياً. شَعَرَ كا بانفعال غير واضح حين كان يعبر من تحت هذه القنطرة التي صمّمت مرتفعة لتعبر من تحتها عربات الخيول. ولكنه كان متعباً بحيث لم يتوقف عند هذا الأمر. ولأضف أيضاً أن هذا الانفعال يتعلق بأحد الأسباب التي جعلت كا يأتي إلى قارص: حين زار كا جريدة الجمهورية في اسطنبول قبل ثلاثة أيام التقى صديق شبابه (طانر)، وقد شرح لكا بأن انتخاباتٍ بلدية ستجري في قارص، وغير هذا فإن الفتيات في قارص كما في باطمان أصبن بمرض انتحار عجيب، وإذا أراد أن يكتب في هذا الموضوع، ويرى تركيا الحقيقية ويعرفها اقترح عليه الذهاب إلى قارص، ومنحه بطاقة صحفي مؤقتة لهذا العمل الذي لم يتحمس له أحد، وأضاف بأن زميلتهما في الجامعة (إيبك) الجميلة في قارص. وعلى الرغم من انفصالها عن مختار فهي هناك في فندق (ثلج بلاس) تعيش مع والدها وأختها. حين كان يستمع كا لكلمات طانر الذي يقدم للجمهورية تحليلات سياسية تذكر جمال إيبك.

شعر كا بالراحة بعد أن قدم له المفتاح جاويت الكاتب المتابع التلفزيون في بهو الفندق المرتفع السقف، وصعد إلى الغرفة ذات الرقم ٢٠٣ في الطابق الثاني. استمع إلى نفسه بانتباه. لم يكن عقله ولا قلبه مهتماً بوجود إيبك في الفندق، على عكس ما خشي منه طوال الطريق.

كاد يموت خوفاً من وقوعه في العشق نتيجة الإحساس الغريزي القوي عند الذين يتذكرون سلسلة الآلام والخجل فقط من حياتهم العاطفية المحدودة.

في منتصف الليل، كان مرتدياً منامته. في غرفته المظلمة فتح الستارة قليلاً قبل دخوله السرير. وتفرج على تساقط ندف الثلج الكبيرة غير المتوقف.

(*) الاسم في الأصل التركي مشتق من الشاي، وليس من القهوة.

[٢]

مدينتنا مكان مطمئن

الأحياء البعيدة

أيقظ الثلج لديه شعور صفاء منسي بتغطيته قذر المدينة وطينها وظلمتها. ولكن كا فقد هذا الشعور بالامتنان من الثلج بعد اليوم الأول الذي قضاه في قارص. الثلج هنا شيء متعب وممل ودافع إلى اليأس. فطوال الليل لم يتوقف عن السقوط. في الصباح كان يمشي كا في الشوارع، ويجلس في المقاهي المليئة بالأكراد العاطلين عن العمل، ويلتقي الناخبين حاملاً ورقة وقلماً مثل صحفي متعلق بعمله، ويتسلق طرق الأحياء الفقيرة العمودية والمتجاورة، وفي أثناء لقائه رئيس البلدية الأسبق، ومعاون المحافظ، وأقرباء الفتيات المنتحرات لم يهدأ الثلج أبداً. مشهد الشوارع الثلجية كان يبدو له من نافذة أحد البيوت الآمنة في حي (نيشان طاش) حين كان صغيراً كأنه قطعة من حكاية، والآن يبدو له كملجأ أخير وسط أحلامه التي حملها عبر سنوات حول حياة شخص من الطبقة الوسطى، وبداية فقر نهايته يائسة لا يريد مجرد تخيله.

صباحاً، وبينما كانت المدينة قد استيقظت للتو، ودون أن يعير اهتماماً للثلج الهاطل سار بسرعة منحدراً من شارع أتاتورك، متجهاً نحو أحياء الأكواخ، نحو أحياء قارص الأفقر إلى حي (تحت القلعة). وبينما كان يتقدم مسرعاً من تحت أشجار البلوط و (الزعرور) المتجلدة الأغصان، وبينما كان ينظر إلى الأبنية الروسية القديمة والمهترئة والبارزة من شبابيكها مداخن المدافئ، وإلى الثلج الهاطل وسط الكنيسة الأرمنية ذات الألف عام والناهضة وسط مستودعات الحطب، ومحطة الكهرباء، وإلى الكلاب القوية النابحة على

كل من يعبر الجسر الحجري ذي الخمسة قرون فوق نهر قارص المتجمد، وإلى الأدخنة المتصاعدة رفيعة من الأكواخ الصغيرة لحي (تحت القلعة) والبادية تحت الثلج وكأنها مفرغة تماماً ومتروكة، تَكَدَّرَ إلى حد تجمعت فيه الدموع في عينيه. ثمة طفلان ـ صبي وبنت ـ أرسلا إلى المخبز في الطرف الآخر من الوادي، وفي حصنهما خبز ساخن يتضاحكان سعيدين وهما يتناهران، ابتسم لهما كا. الكدر الذي حفر آثاره في داخله غير ناجم عن الفقر أو اليأس بل هو ناجم عن شعور غريب بالوحدة سيعاني منه فيما بعد. وهذا الكدر موجود في دكاكين المصورين ذات الواجهات الفارغة، وفي نوافذ المقاهي المتجلدة والمليئة بالعاطلين عن العمل الذين يلعبون الورق، والساحات الفارغة المغطاة بالثلج. كأن المكان هنا قد نسيه الجميع والثلج يهطل إلى نهاية الحياة بصمت.

مرّ الصباح على كا وهو محظوظ، وقُوبِلَ كصحفي اسطنبولي شهير يتوق الجميع لمعرفته ومصافحته.. فتح الجميع أبوابهم له من معاون المحافظ وحتى الأشخاص الأفقر وتحدثوا. قدَّم كا للقارصيين السيد سردار مُصدِرُ (جريدة مدينة سرهات) التي تبيع ثلاثمائة وعشرين نسخة، ومرسل الأخبار المحلية إلى جريدة الجمهورية (أغلبها لاينشر). فور خروج كا من الفندق صباحاً كان أول عمل له إيجاد هذا الصحفي العتيق عند باب جريدته والمزود باسمه في اسطنبول على أنه (مراسلنا المحلي)، وفهم بسرعة بأنه يعرف قارص كلها. الأسئلة التي ستسأل لـ كا مئات المرات على مدى ثلاثة أيام سيقضيها في قارص سألها أولاً السيد سردار.

«أهلاً بكم في مدينتنا مدينة سرهات يا أستاذ. ولكن ما عملكم هنا؟!».

قال كا بأنه جاء لمتابعة الانتخابات، ولعله يكتب مقالاً حول الفتيات المنتحرات.

قال الصحفي: «يُبالَغُ في أمر الفتيات المنتحرات كما في باطمان. لنذهب إلى السيد قاسم معاون مدير الأمن، وليعلموا بمجيئكم خشية من أي شيء».

كانت عادة مراجعة الأمن للقادمين إلى البلدة ـ حتى ولو كانوا صحفيين أجانب ـ منحدرة منذ عام ١٩٤٠. لم يعارض كا هذا لأنه منفي سياسي عائد

إلى البلدة بعد سنوات طويلة، ولشعوره بوجود فدائيي حزب العمال الكردستاني حتى لو لم يحكِ بهذا.

عبرا المدينة بشكل قطري خلال خمس عشرة دقيقة تحت الثلج النادف بطيئاً مارين من سوق الجملة الخاص بالفواكه ومن شارع ناظم قرة بكر الذي تصطف فيه متجاورة دكاكين البيطاريين وبائعي قطع التبديل، ومن أمام المقاهي التي يتابع عاطلوها عن العمل التلفاز والثلج الهاطل، ودكاكين باعة مشتقات الحليب حيث تعرض اسطوانات جبنة القشقوان الضخمة.

في الطريق توقف السيد سردار برهة وأشار لـ كا إلى الزاوية التي أطلق فيها النار على رئيس البلدية السابق. بحسب إحدى الإشاعات فإن القضية قضية بلدية بسيطة، فقد أطلق النار على رئيس البلدية بسبب أمره بهدم شرفة بنيت بشكل مخالف. ألقي القبض على القاتل وسلاحه معه بعد الجريمة بثلاثة أيام في مخزن التبن التابع لبيته في قريته التي هرب إليها. وعلى مدى الأيام الثلاثة شاعت إشاعات جعلت الناس لايؤمنون بداية بأن هذا هو القاتل، وقد أحدث السبب البسيط للجريمة شعوراً بالإحباط.

مديرية أمن قارص بناء طويل ذو ثلاثة طوابق. وهو أحد الأبنية الحجرية القديمة المصطفة طوال شارع (فائق بيك)، والمتبقية من أغنياء الروس والأرمن والمستخدمة بغالبيتها أبنية حكومية. وبينما كانا ينتظران معاون مدير الأمن أشار السيد سردار إلى السقف المزخرف وقال بان البناء يعود إلى تاريخ ١٨٧٧ ـ ١٩١٨ في الفترة الروسية، وكان قصر أحد الأغنياء الأرمن مؤلفاً من أربعين غرفة، وفيما بعد تحول إلى مستشفى روسي.

خرج السيد قاسم معاون مدير الأمن ذو الكرش الكبيرة إلى الممر، وأدخلهما إلى غرفته. فهم كا بسرعة بأنه لايقرأ جريدة الجمهورية التي يجدها يسارية، ومديح شاعرية أحدهم لم يترك لديه انطباعاً إيجابياً، ولكنه خجل من إبداء هذه الآراء أمام السيد سردار لأنه صاحب أكثر الصحف المحلية توزيعاً. حين أنهى السيد سردار كلامه قال لكا: «هل تريد حماية؟».

«كيف؟».

«نفرز لكم أحد رجالنا المدنيين. ترتاحون».

قال كا مرتبكاً كأنه مريض اقترح عليه الطبيب السير بعد الآن باستخدام العكاز: «هل أحتاج إلى هذا؟».

«مدينتنا مكان مطمئن. طردنا الإرهابيين الانفصاليين.. ولكن للحيطة».

قال كا: «إذا كانت المدينة مكاناً مطمئناً فلا أحتاج» وأراد في داخله أن يكرر معاون مدير الأمن بأن المدينة مكان مطمئن، ولكن السيد قاسم لم يكررها.

بداية ذهبا إلى الأحياء الأفقر في شمال المدينة وهي (تحت القلعة) و(بيرم باشا). وتحت الثلج الهاطل دون توقف كان السيد سردار يطرق أبواب الأكواخ المبنية بالحجارة، وبلوك بقايا الفحم، وصفائح التوتياء ذات التعرجات، ويسأل النساء اللواتي يفتحن الباب عن رجل البيت، وإذا عرفنه يحادثهن بنبرة تمنح الثقة قائلاً بأن هذا الصحفي الشهير صديقي جاء إلى قارص من اسطنبول بمناسبة الانتخابات، ولكنه لن يكتب عن الانتخابات فقط بل عن مشاكل قارص وأسباب انتحار الفتيات، وبأنهن إذا أفضين له بما يعانين منه يكون الأمر أفضل. بعضهن يفرحن لاعتقادهن بأن القادمين مرشحو رئاسة البلدية حاملين صفائح زيت دوار الشمس، أو صناديق الصابون، أو ربطات البسكويت والمعكرونة. واللواتي يقررن إدخالهما إلى البيت بدافع من كرم الضيافة يقلن لكا ألا يخاف من الكلب النابح. بعضهن يعتقدن أن هذه مداهمة أمنية أو عملية تفتيش من تلك المستمرة على مدى سنوات فيفتحن الباب متوجسات، وحين يدركن بأن القادمين ليسوا من الدولة فيلتففن بالصمت. أما أسر الفتيات المنتحرات (استطاع كا خلال فترة قصيرة معرفة ست وقائع) فقد أفدن بأن بناتهن لم تشتكين من شيء، وقد دهشوا للحادثة، وحزنوا كثيراً.

في غرف أرضياتها ترابية، أو مغطاة بسجادة آلية صغيرة بقدر كف، باردة مثل الثلج، وعلى مقاعد مطاولة قديمة، وكراسي مائلة، ووسط أطفال يبدو بأن عددهم يزداد مع الانتقال من بيت إلى بيت يتدافعون ويلعبون بألعاب بلاستيكية مكسرة (سيارات، دمى ذات ذراع واحد) وزجاجات وصناديق أدوية وعلب شاي فارغة، ومدافئ حطب يحرّك داخلها باستمرار لكي تسخن، ومدافئ كهربائية تتغذى بكهرباء غير شرعية وأمام تلفزيونات مفتوحة باستمرار ولكن صوتها مغلق استمعا إلى هموم قارص اللا متناهية وحكايات الفقر

والطرد من العمل والفتيات المنتحرات. حكوا لكا حكاياتهم الشخصية وكأنها هموم البلد والدولة. أمهات يشتكين أن أولادهن عاطلون عن العمل، وباكيات لوقوع أبنائهن في السجن، أو لعملهم مكيسين في الحمامات مدة أثنتي عشرة ساعة في اليوم ويشبعون عائلاتهم المؤلفة من ثمانية أشخاص بصعوبة. وعاطلون عن العمل مترددون في الذهاب إلى المقهى بسبب ثمن كأس الشاي شاكين من سوء حظهم ومن الدولة والبلدية. في إحدى نقاط هذه الحكايات وهذا الغضب كله، وعلى الرغم من الضوء الأبيض الداخل عبر النوافذ شعر كا بأن البيوت التي يدخلها ويخرج منها قد حلّ عليها الظلام وأنه يصعب عليه معرفة أشكال أغراضها. والأنكى من ذلك أن هذا العمى نفسه هو الذي يجبره على لفت نظره إلى الخارج نحو الثلج النادف وكأنه ستارة شفافة، أو شكل من أشكال صمت الثلج يهبط على عقله، ويقاوم عقله وذاكرته حكايات الفقر والبؤس.

واستمع أيضاً لحكايات المسنين والتي لن تخرج إحداها من عقله حتى موته. ليس الفقر واليأس وعدم التفهم ما جذب كا لهذه الحكايات. كما أنه ليس عدم تفهم الأباء والأمهات بضرب بناتهم وعدم السماح لهن بالخروج إلى الشارع، كما أنه ليس ضغط الأزواج الغيورين والطفرانين. الأمر الأساسي الذي أخاف كا وأدهشه هو دخول حالات الانتحار إلى الحياة اليومية العادية فجأة دون إبلاغ أو مراسم.

مثلاً فتاة على وشك أن تخطب قسراً لصاحب مقهى عجوز، تناولت طعام عشائها كالعادة مع أبيها وأمها وأخوتها الثلاثة وجدتها لأبيها، وبعد أن جمعت الصحون المتسخة مع إخوتها كالعادة أيضاً وهم يتضاحكون ويتدافعون، بعد أن ذهبت لجلب الحلوى من المطبخ خرجت إلى الباحة، ودخلت من النافذة إلى غرفة أبيها وأمها، وأطلقت النار على نفسها بواسطة بندقية صيد لأبيها. الأب والأم اللذان وجدا جسد ابنتهما المتلوي وسط الدماء، وكانا يعتقدان أنها في المطبخ،لم يفهما سبب انتحارها، كما لم يستوعبا انتقالها من المطبخ إلى غرفة النوم. فتاة أخرى في السادسة عشرة من عمرها تعاركت بشد الشعر مع أختيها حول القناة التي سيتابعنها، ومن ستمسك جهاز التحكم عن بعد، وبعد أن تلقت كفين قاسيين من أبيها الذي جاء للفصل

بينهن، دخلت إلى غرفتها، وصبت في جوفها زجاجة مبيد زراعي وكأنها تشرب زجاجة مياه غازية من نوع (مورتالين). أخرى في الخامسة عشرة تزوجت نتيجة حب، ووضعت ولداً قبل ستة أشهر، وقد يئست من ضرب زوجها المسحوق والعاطل عن العمل، وبعد شجار عادي دخلت إلى المطبخ، وأقفلت الباب خلفها، وعلى الرغم من صراخ زوجها وهو يكسر الباب لأنه أدرك ما تفعله شنقت نفسها بمحاولة واحدة بواسطة حبل وكلابة كانت قد أعدتهما من قبل.

ثمة سرعة ويأس في تلك الحكايات وفي الانتقال بين الموت وسيرورة الحياة العادية سحر كا. الكلابات المثبتة في السقف، والأسلحة الملقمة بالرصاص من قبل، وزجاجات المبيد المجلوبة من غرفة جانبية إلى غرفة النوم تثبت أن الفتيات المنتحرات قد حملن منذ وقت طويل في دواخلهن فكرة الانتحار.

بدأ يظهر انتحار الفتيات والنساء الشابات فجأة في باطمان التي تبعد عن قارص مئات الكيلومترات وعلى الرغم أن انتحار الذكور على المستوى العالمي يبلغ ثلاثة أو أربعة أضعاف الانتحار عند الإناث، فإن بلوغ نسبة انتحار الإناث في باطمان ثلاثة أضعاف نسبة انتحار الذكور، وهي تساوي أربعة أضعاف نسبة الانتحار على المستوى العالمي لفت بداية نظر موظف شاب يعمل في مؤسسة إحصاء الدولة في أنقرة، والخبر الصغير الذي نشره في جريدة الجمهورية لم يجعل أحداً في تركيا يهتم به. علمت بالخبر جرائد ألمانيا وفرنسا واهتمت به، وذهب مراسلوها في تركيا إلى باطمان. وحين نشروا تحقيقاتهم في بلدانهم، اهتمت الجرائد التركية بالانتحارات، وجاء كثير من الصحفيين المحليين والأجانب إلى المدينة. وبحسب رأي موظفي الدولة المهتمين بالقضية فإن هذا الاهتمام والنشر زاد من تشجيع أكثر بعض الفتيات على الانتحار. وأفاد معاون المحافظ الذي تحدث إليه كا بأن الانتحار في قارص لم يبلغ إحصائياً مستوى باطمان، وأنه لا يعارض «الآن» لقاءه مع عائلات الفتيات المنتحرات، ورجاه ألا يستخدم كثيراً معها كلمة «انتحار»، وألا يقدم القضية لجريدة الجمهورية مبالغاً فيها. وقد بدأت التحضيرات لمجيء هيئة مؤلفة من اختصاصي نفساني، وشرطي، ووكيل نيابة وأحد

مسؤولي الشؤون الدينية من باطمان إلى قارص، وقد علقت منذ الآن ملصقات تناهض الانتحار، أمرت إدارة الشؤون الدينية بطبعها، كتب عليها: «الإنسان إبداع الله، والانتحار كفر»، وقد وصلت إلى المحافظة كراسات دينية بالعنوان نفسه ليتم توزيعها. ولكن معاون المحافظ لم يكن واثقاً من أن هذه الإجراءات الاحترازية ستحول دون الانتحار الذي بدأت جائحته في قارص خلال فترة قريبة، ويخشى أن تؤدي «الإجراءات الاحترازية» نتيجة عكسية. لأن كثيراً من الفتيات يعتبرن قرار الانتحار نوعاً من ردة الفعل نحو الدولة المعارضة للانتحار، ونحو الآباء، والرجال، والوعاظ بقدر أخبار الانتحار.

قال معاون المحافظ لكا: «من المؤكد أن سبب الانتحار هو اليأس المفرط. لا شبهة في هذا، ولكن لو كان اليأس سبباً حقيقياً للانتحار لانتحرت نصف نساء تركيا.» وقد قال معاون المحافظ ذو الشارب الشبيه بالفرشاة، والوجه السنجابي لكا مباهياً بأن النساء غاضبات من الدولة والأسر وصوت الدين الذكوري لتلقينهن عبارة «لا تنتحرن» لهذا السبب يجب وضع امرأة على الأقل في الهيئة التي تقوم بالحملة المناهضة للانتحار، وقد أبلغ أنقرة خطياً بهذا الأمر.

فكرة أن الانتحار مرض سار مثل الوباء ظهرت أولاً إثر مجيء فتاة من باطمان إلى قارص. وقد تحدث كا إلى خال البنت بعد الظهر في حي أتاتورك تحت أشجار (الزعرور) في باحة مغطاة بالثلج (لم يدخلوه إلى البيت) وهو يدخن سيجارة، وقد ذكر الخال أن ابنة أخته ذهبت عروساً إلى باطمان قبل سنتين وهناك عملت في شؤون البيت من الصباح حتى المساء، وقد باتت حماتها تؤنبها باستمرار لأنها لا تنجب، ولكن هذه الأمور ليست أسباباً كافية للانتحار، وقد أخذت فكرة أن النساء كلهن ينتحرن من باطمان، وكانت المرحومة تبدو هُنا في قارص عند عائلتها مسرورة جداً. لهذا السبب، صباح اليوم الذي كانت ستعود فيه إلى باطمان دهشوا كثيراً حين وجدوها ميتة في الفراش وبجانب رأسها علبتان من الدواء ابتلعتهما، ورسالة.

بعد شهر من حادثة هذه الفتاة التي نقلت فكرة الانتحار من باطمان إلى قارص قلدتها أولاً ابنة خالتها وهي في السادسة عشرة من عمرها. سبب هذا الانتحار الذي وعد كا أباها وأمها الباكيين بأن يكتب في الجريدة تفاصيل

قصتها كلها هو قول أحد المعلمين للفتاة في الصف بأنها ليست بكراً. وبعد فترة قصيرة انتشرت هذه الإشاعة في قارص كلها. ترك الفتاة خطيبها، كما انقطع الخطاب الكثيرون الذين كانوا يأتون إلى بيتها. وفي هذه الأثناء بدأت تقول لها أمها: «مهما كان فإنك لن تتزوجي» وبينما كانوا جميعاً يتابعون في التلفاز مشهد عرس بدأ الأب السكران يبكي، فسرقت الفتاة حبوب النوم من صندوق جدتها، وابتلعتها جميعها، ونامت (بقدر ما فكرة الانتحار سارية، بقدر ما طريقتها سارية). وإثر معرفة الطب الشرعي بأن الفتاة المنتحرة بكر قام والدها ـ كما قام المعلم المشيع للشائعة ـ بتوجيه التهمة لقريبتها المنتحرة القادمة من باطمان. ولأنهم يريدون من كا أن ينشر في خبره بأنه تبين عدم صحة الاتهام، وأن يفضح المعلم الذي نشر هذه الكذبة، فقد شرحوا له انتحار ابنتهم بالتفصيل.

الأمر الذي أوقع كا في يأس عجيب من هذه الحكايات كلها هو أن الفتيات المنتحرات لم يجدن فرصة للخلوة سوى من أجل الانتحار. حتى الفتيات المنتحرات بحبوب النوم كن يقتسمن الغرفة مع غيرهن حتى وهن يمتن بشكل سري. كا الدارس للآداب الغربية، والناشئ في (نيشان طاش) في اسطنبول كلما فكر بانتحاره كان يشعر بضرورة إيجاد زمن طويل من أجل تحقيق هذا، ومكانٍ، وغرفةٍ لا يطرق بابها أحد على مدى أيام.

كلما غاص كا بخيالات انتحاره الذي سيجري ببطء مع هذه الحرية وحبوب النوم والوسكي خاف من تلك الوحدة غير المحدودة هناك، وهذا ما جعله لا يفكر بشكل جدي بالانتحار في أي وقت.

الوحيدة التي أيقظت بانتحارها شعور الوحدة هذا لدى كا هي «ذات الإشارب» التي شنقت نفسها قبل شهر وأسبوع. كانت هذه إحدى فتيات معهد التربية اللواتي منعن بداية من الدخول إلى الصفوف بسبب عدم نزع الإشارب، وبعد ذلك منعن من الدخول إلى المعهد بموجب قرار صادر في أنقرة. كانت أسرتها هي الأسرة الأقل فقراً بين الأسر التي تحدث إليها كا. وبينما كان كا يشرب الكوكاكولا التي أخرجها أبوها من ثلاجة دكان السمانة ـ الذي يمتلكه ـ علم بأن الفتاة قبل أن تنتحر فتحت موضوع الانتحار لأسرتها وصديقاتها. لعل الفتاة تعلمت وضع غطاء الرأس من أمها وأسرتها، وقد علمت بأن هذا الأمر

سمة الإسلام السياسي من الإداريين المؤيدين للمنع في المعهد، ومن صديقاتها المقاومات نزع الإشاربات. ولأنها رفضت نزع غطاء الرأس على الرغم من ضغوط والديها أوشكت أن تنفصل من المعهد الذي منعتها الشرطة من دخوله لعدم تحقيق شرط الدوام. وحين رأت أن بعض زميلاتها تراجعن عن المقاومة وكشفن رؤوسهن، وبعضهن وضعن شعراً مستعاراً بدأت تقول لأبيها وزميلاتها: «ليس ثمة شيء له معنى في هذه الحياة»، «لا أريد أن أعيش». ولأنه في تلك الأيام قد بدأت في قارص مؤسسة الشؤون الدينية التابعة للدولة والإسلاميون معها بتوزيع الإعلانات باليد، وإلصاق الملصقات التي تفيد بأن الانتحار من أكبر المحرمات،لم يخطر ببال أحد أن هذه الفتاة المتدينة يمكنها أن تقتل نفسها. تابعت هذه الفتاة التي تدعى (تسليمة) في ليلتها الأخيرة المسلسل التلفزيوني المدعو ماريانا صامتة، وحضَّرت الشاي، وقدمته لأبيها وأمها، وانزوت في غرفتها، وبعد أن توضأت وأقامت صلاتها، سَرَحَتْ بأفكارها مدة، وبعد أن قرأت أدعية شنقت نفسها بإشاربها الذي علقته بحلقة المصباح.

[٣]

أعطوا أصواتكم لحزب الله

الفقر والتاريخ

كان الفقر بالنسبة إلى كا ـ حين كان صغيراً ـ هو المكان الذي تنتهي عنده حياة الطبقة الوسطى التي يعيشها في نيشان طاش والمكونة من أب محام، وامرأة ربة منزل، وأخت أصغر منه حلوة، وخادمة مخلصة، والمفروشات والمذياع والستائر، وعند انتهاء حدود «البيت» تبدأ حدود الدنيا الأخرى. كان لا يمكن أن تمسه الأيدي، ولأنه ظلام مخيف فكان لتلك الدنيا الأخرى بعدٌ (ميتا فيزيقي) في خيالات طفولة كا. وعلى الرغم من عدم تغّير هذا البعد كثيراً في الجزء الآخر المتبقي من حياته، فإنه حين قرر الانطلاق فجأة مسافراً إلى قارص كان من الصعب تفسير حركته بنوع من العودة إلى الطفولة. على الرغم من وجود كا بعيداً عن تركيا فهو يعرف أن قارص في السنوات الأخيرة هي المنطقة الأكثر فقراً ونسياناً. حين عاد من فرانكفورت التي عاش فيها اثنتي عشرة سنة، كانت رؤيته لشوارع اسطنبول التي سار فيها مع أصدقاء طفولته كلها، ودكاكينها، وسينماتها قد تغيرت من قمتها إلى قاعدتها، وزالت، وفقدت روحها، وهذا ما استفز في داخله إرادة البحث عن الطفولة والصفاء في مكان آخر. لهذا يمكن القول إنه اختار سفرة قارص من أجل مقارنة الطبقة الوسطى المحدودة التي تركها في طفولته مع الفقر. مع أنه حين رأى في دكاكين قارص أحذية رياضية ماركة (غيسلافد)، ومدافئ ماركة (فيزوف)، وصناديق جبنة قارص المدورة المؤلفة من ستة مثلثات ـ وهي أول شيء عرفه عن قارص في طفولته ـ وكان قد استعمل هذه الأشياء في طفولته ولم يعد

يراها في اسطنبول، استمتع كثيراً إلى حد أنه نسي الفتيات المنتحرات، وشعر بالطمأنينة لوجوده في قارص.

وعند الظهر انفصل كا عن الصحفي السيد سردار، وبعد أن قابل البارزين من حزب مساواة الشعوب، والآذريين العلويين تجول وحده في المدينة تحت ندف الثلج الكبيرة. مشى في شارع أتاتورك، وعبر الجسور، وبينما كان يتجه إلى الأحياء الأفقر مهموماً، نظر إلى جبال (صارب) الغائبة في ذلك الصمت غير المخرب سوى بنباح الكلاب. كأن زمناً غير محدد انتشر على القلعة السلجوقية والآثار التاريخية التي لا يمكن فصلها عن الأكواخ، وحين شعر بعدم انتباه أحد إلى الثلج الهاطل طفحت عيناه بالدموع. تفرج على الشباب الذين يبدو أنهم في المرحلة الثانوية يلعبون كرة القدم في ضوء المصابيح العالية التي تنير مستودع الفحم والفسحة المجاورة لحديقة حي يوسف باشا المنزوعة أراجيحه، والمكسرة سحيلاته. وبينما كان يستمع إلى صراخ الشباب وتبادلهم الشتائم وقد خفت درجة صوتهم في الثلج شعر بقوة بالضوء الأصفر المنبعث من المصابيح العالية، والبعد عن كل شيء في هذه الزاوية من العالم تحت الثلج النادف ظهرت بداخله فكرة الله.

كان هذا في البداية عبارة عن صورة أكثر مما هي فكرة، ولكنه بينما كان يتجول مسرعاً في غرف المتحف نظر شارداً، ثم مع محاولته التذكر كان أمامه ما هو غير واضح مثل رسم لا يمكن أن يجسده. كان كشعور يظهر ويختفي في لحظة أكثر مما هو رسم، ولكن هذه الحال يعيشها كا أول مرة.

نشأ كا وسط أسرة جمهورية علمانية في اسطنبول. لم يتلق أي تعليم إسلامي خارج دروس الدين التي تلقاها في المرحلة الابتدائية. عندما بدأت تظهر خيالات كهذه داخله في أحيان متقطعة لم يسيطر عليه الأرق كما لم يشعر بدافع شاعري للذهاب وراء هذا الارتجاف. كان على الأغلب يولد في داخله فكرة متفائلة بأن العالم مكان جميل يمكن الفرجة عليه.

في غرفة الفندق الذي عاد إليه من أجل الدفء والنوم قليلاً قلّب الكتب التي أحضرها معه من اسطنبول حول تاريخ قارص شاعراً بهذا الشعور السعيد، وتداخل في عقله هذا التاريخ الذي ذكّره بحكايات طفولته مع ما استمع إليه طوال اليوم.

في أحد الأزمان عاش في أحد قصور قارص ـ التي تذكّر كا ولو من بعيد بسنوات طفولته ـ رجل غني من الطبقة الوسطى، كان يقيم حفلات البالو، والولائم التي تستمر أياماً. وكان هؤلاء الناس يستمدون قوتهم من كون قارص في أحد الأيام كانت على طريق جورجيا وتبريز والقوقاز وتفلس ـ أي من التجارة ـ ولأنها نقطة متطرفة مهمة بين أهم إمبراطوريتين انهارتا في القرن الماضي وهما روسيا القيصرية والدولة العثمانية، ومن الجيوش الضخمة التي وضعتها الإمبراطوريات في هذا المكان وسط الجبال لحمايتها. في المرحلة العثمانية عاش في هذا المكان أقوام مختلفون، مثلاً الأرمن الذين ما زالت كنائسهم التي أنشؤوها قبل ألف سنة تقف بعظمتها، والعجم الذين هربوا من جيوش المغول وإيران، والروم المتبقين من الدولتين البيزنطية والبونتوسية، والجيورجيون، والأكراد، وكل أنواع أقوام الجركس. وبعد أن استسلمت القلعة التي عمرها خمسمائة سنة للجيش الروسي عام ١٨٧٨ نفي قسم من المسلمين، ولكن غنى المدينة واختلاطها استمر. وفي المرحلة الروسية بينما كانت تتراجع قصور الباشوات والحمامات والأبنية العثمانية في حي (تحت القلعة) المقام على سفوح القلعة أنشأ بناؤو القيصر في السهل جنوب نهر قارص مدينة جديدة مؤلفة من خمسة شوارع رئيسة توازي بعضها بعضاً وبينها أزقة عمودية تماماً عليها وقد غنيت بسرعة. هذه المدينة التي كان يلتقي فيها القيصر الكسندر الثالث حبيبته السرية، ويخرج منها إلى الصيد، قدم لها الروس دعماً مالياً كبيراً لإنشائها من جديد لأنها مناسبة لمخططاتهم بالنزول إلى الجنوب نحو البحر المتوسط، والسيطرة على طرق التجارة. هذه المدينة التي جاءها كا قبل عشرين سنة وسحرته بشوارعها، وأحجار أرصفتها الضخمة، وأشجار الكستناء والزعرور التي زرعتها الجمهورية التركية أضحت حزينة جرّاء حروبها القومية والقبلية واحترقت أبنيتها الخشبية وهدمت ولم تعد مدينة عثمانية.

وبعد حروب، ومجازر، وتطهير عرقي وتمردات لا تنتهي، وبعد أن سقطت بيد الأرمن والروس، وحتى بيد الجيش الإنكليزي في إحدى الفترات، وبعد أن صارت قارص لفترة قصيرة دولة مستقلة، دخل إلى المدينة في تشرين الأول من عام ١٩٢٠ الجيش التركي بقيادة ناظم قرة بكر الذي نَصِبَ فيما بعد

تمثالاً له في ساحة المحطة. الأتراك الذين دخلوا مرة أخرى إلى المدينة بعد ثلاث وأربعين سنة أعجبوا بالمخطط الجديد المنسجم مع البنية القيصرية، وسكنوا فيها، ولأن الثقافة التي جاء بها القياصرة إلى المدينة متوافقة مع انفعال الجمهورية نحو التغريب فأيدوها بداية، ولأنهم لا يعرفون أكبر من العسكر أطلقوا على شوارعها الخمسة أسماء باشوات خمسة من تاريخ قارص.

هذه هي سنوات التغريب التي شرحها مباهياً وغاضباً السيد مظفر رئيس بلدية أسبق من حزب الشعب، كانت تقام فيها حفلات راقصة في المراكز الشعبية، ومسابقات تزلج على الجليد تحت الجسر الحديدي الذي رآه كا صباحاً حين مرَّ عليه ووجد أنه صدئ في كثير من أمكنته، ومسرحيون يأتون من أنقرة لتمثيل تراجيديا الجمهوريين القارصيين، وكان الأغنياء السابقون يتنزهون وهم يرتدون المعاطف ذات ياقات الفراء على زلاجات تجرها خيول مجرية مزينة بالورود والأشياء البراقة، وكانت تقام آخر الرقصات في حفلات بمرافقة عزف البيانو والأوكورديون، والكلارنت تحت أشجار (الأقاقيا) في حديقة الشعب من أجل دعم فريقهم لكرة القدم، ويمكن لفتيات قارص أن يتجولن صيفاً وسط المدينة بألبسة قصيرة الأكمام وهن راكبات على الدراجات الهوائية، وحين كان الشباب يذهبون إلى الثانويات متزلجين على الجليد، وهم يضعون ربطة عنق الفراشة ويرتدون الجاكيتات مفعمين بانفعال الجمهورية مثل كثير من الشباب. حين حاول المحامي السيد مظفر وضع ربطة العنق الفراشة التي كان يضعها أيام الثانوية بعد سنوات بعد أن عاد مرشحاً لرئاسة البلدية، وفي أثناء انفعالات الانتخابات في قارص، قال له أصدقاؤه في الحزب بأن هذا الأمر «الداعي إلى السخرية» يؤدي إلى ضياع الأصوات، ولكنه لم يطاوعهم.

كان هنالك علاقة بين الشتاءات اللامتناهية وانحساراتها وبين انحطاط المدينة، وفقرها، وحزنها. وبعد أن قدم رئيس البلدية الأسبق رؤيته حول الشتاءات الجميلة الماضية، وتحدث عن الممثلات شبه العاريات المدهونات بالبودرة القادمات من أنقرة لتمثيل مسرحية يونانية، انتقل بحديثه إلى عمل مسرحي انقلابي مثلته مجموعة من الشباب كان هو بينهم في أواخر الأربعينيات في المركز الشعبي وقال: «يحكي العمل عن يقظة فتاة ذات غطاء

أسود، وفي النهاية تكشف رأسها وتترك الغطاء». وفي نهاية الأربعينيات جلبوا غطاء الرأس اللازم للمسرحية من أرضروم «لأنهم بحثوا في قارص، ونشروا الخبر في كل مكان لكنهم لم يجدوا» ثم أضاف السيد مظفر: «أما الآن فإن الأغطية، والملاحف، والإشاربات تملأ شوارع قارص، وينتحرن لعدم استطاعتهن الدخول إلى الدروس وعلى رؤوسهن ذلك العلم رمز الإسلام السياسي».

وكما في كل مقابلة لكا في قارص، سكت عن الأسئلة المتصاعدة في داخله حول موضوع نهوض الإسلام السياسي، والفتيات ذوات الإشاربات. بالشكل نفسه لم يتوقف عند عرض الشباب الناريين المناهض للغطاء في الأربعينيات على الرغم من عدم وجود امرأة واحدة تتغطى في قارص. كما أنه لم يعر انتباهاً للنساء المغطيات، أو ذوات الإشاربات اللواتي رآهن طوال اليوم وهو يتجول في شوارع المدينة، لأنه لن يستطيع على مدى أسبوع الحصول على معلومات مثقف علماني وعاداته التي تمكنه من خلال نظرة واحدة إلى كثرة النساء المغطيات رؤوسهن استنتاج نتائج سياسية. كما أنه منذ صغره لم يكن يعير اهتماماً للنساء المغطيات أو ذوات الإشاربات. لأنه في أوساط المغرّبين الاسطنبولية التي قضى كا طفولته فيها لم تكن هنالك من تغطي رأسها إلا القادمة من جوار اسطنبول لبيع العنب. مثلاً كان هنالك واحدة تأتي من كروم (قرطل)، أو زوجة بائع الحليب، أو واحدة من طبقة اجتماعية أدنى.

أما حول الأصحاب السابقين لفندق (ثلج بلاس) الذي يقيم فيه كا فقد استمعتُ فيما بعد إلى حكايات كثيرة: بروفيسور في الجامعة معجب بالغرب أرسله القيصر إلى منفى أخف من سيبريا، أرمني يعمل بتجارة العجول، وملجأ أيتام رومي... وليكن صاحبه من يكن فإن هذا البناء الذي يمتد عمره إلى مائة وعشر سنوات كأبنية قارص الأخرى بني بحيث توضع فيه مدافئ تسمى (بتش) تدفئ واجهاته الأربع، وكل مدفأة منها تدفئ أربع غرف في آن واحد. ولكن الأتراك في عصر الجمهورية لم يستطيعوا تشغيل أية واحدة منها، لذلك قام صاحب البيت التركي الأول الذي حوله إلى فندق بوضع مدفأة ضخمة من (الفونط) في البهو وراء الباب مباشرة، وفيما بعد ركب للغرف تدفئة مركزية.

بينما كان كا متمدداً في سريره سارحاً في خيالاته قرع الباب، فنهض من

حيث يتمدد بمعطفه، وفتحه. جاويت الكاتب الذي قضى يومه كله بجانب المدفأة يتابع التلفاز، جاء ليخبره بما نسيه حين قدّم له المفتاح.

«نسيت قبل قليل. السيد سردار صاحب جريدة مدينة سرهات ينتظركم لأمر عاجل.»

نزلا معاً إلى البهو. حين كان كا يهم بالخروج توقف لحظة: دخلت إيبك من الباب المجاور لطاولة الاستقبال وكانت أجمل بكثير مما تخيله كا. تذكّر كا فوراً جمال تلك المرأة أيام الجامعة. بدايةً تصافحا مثل بورجوازيين اسطنبوليين متحولين إلى غربيين، وبعد تردد خفيف مالا برأسيهما إلى الأمام وتعانقا دون أن يقربا جزئي جسميهما السفليين.

قالت إيبك مبتعدة قليلاً بجسدها، وبصراحة أدهشت كا: «أعرف أنك ستأتي» وبينما كانت تركز بصرها إلى وسط عيني كا أضافت: «هاتفني طانر وأخبرني».

«جئت من أجل انتخابات البلدية والفتيات المنتحرات».

قالت إيبك: «كم ستبقى؟ بجانب فندق آسيا ثمة محل للمعجنات اسمه الحياة الجديدة. أنا مشغولة مع أبي الآن. لنلتق هناك في الواحدة والنصف ونتحدث.»

كان كا يشعر بغرابة هذا المشهد لأنه جرى في قارص وليس في اسطنبول، (مثلاً في بيه أوغلو). ولم يستطع تحديد نسبة ارتباكه الناجمة عن جمال إيبك. بعد أن خرج إلى الشارع ومشى فترة تحت الثلج فكر بحسن جلبه لهذا المعطف.

وبينما كان يسير نحو الجريدة قالت له أحاسيسه، مع قلبه بالحدة غير المخطئة نفسها، بما يمكن لعقله أن يعترف به أبداً: أولاً: بقدر ما أن سبب مجيء كا من فرانكفورت إلى اسطنبول من أجل اللحاق بتشييع أمه فقد جاء من أجل إيجاد فتاة تركية بعد اثنتي عشرة سنة من الوحدة. ثانياً: جاء كا من اسطنبول إلى قارص لأنه يؤمن سراً بأن إيبك هي الفتاة التي سيتزوجها.

لو أن صديقاً قوي الحدس قال له الفكرة الثانية هذه لما غفر له كا في أي وقت، كما أنه سيدين نفسه خجلاً طوال حياته لصحة هذا الاحتمال. كان كا

من (الأخلاقيين) جعل نفسه يؤمن بأن السعادة الكبرى هي عدم قيام الإنسان بأي شيء من أجل سعادته الشخصية. فوق هذا فإنه لا يستطيع مواءمة البحث عن واحدة يعرف عنها القليل جداً بنيّة الزواج منها مع تعليمه الغربي الراقي. على الرغم من هذا حين وصل إلى جريدة مدينة سرهات لم يكن يشعر بالأرق. لأن لقاءه الأول مع إيبك في خياله عندما كان قادماً من اسطنبول في الحافلة مَرَّ بشكل حسن.

كانت جريدة مدينة سرهات بعد شارع في أسفل الفندق الذي يقيم فيه كا، والمساحة التي تغطيها شؤون التحرير والمطبعة أكبر من غرفة كا الصغيرة في الفندق بقليل. بواسطة قاطع خشبي قسمت إلى قسمين وعلِّق فيها صور أتاتورك، وتقويمات، ونماذج بطاقات دعوة، والصّور التي طلب السيد سردار التقاطها لكبار رجال الدولة ومشاهير الأتراك الذين قدموا إلى قارص، وصورة مؤطرة لأول عدد من الجريدة صدرَ قبل أربعين سنة. في الخلف كانت تعمل بشكل ممتع آلة تيبو كهربائية ذات ذراع بدالة صُنعت قبل مائة وعشر سنوات في شركة (باومان) في (لايبزغ) اشتغلت في هامبورغ ربع قرن، وفي مرحلة حرية النشر بعد المشروطية الثانية بيعت إلى اسطنبول عام ١٩١٠، وهناك بعد أن عملت خمساً وأربعين سنة، وحين كانت ستحول إلى خردة، جلبها والد السيد سردار إلى قارص بواسطة القطار عام ١٩٥٥. السيد سردار يبصق على إصبع يده اليمنى ويغذي الآلة بالورق وابنه الذي في الثانية والعشرين من عمره يجمع بيده اليسرى بمهارة لأن سلة الجمع كسرت قبل إحدى عشرة سنة في أثناء شجار أخوة، وفي هذه الأثناء أيضاً يمكنه تحية كا بلمح البصر. والابن الثاني الذي لم يشبّهه كا لأبيه بل لأمه التي ارتسمت في خياله لحظتئذ ذات عينين مرفوعتي الطرفين ووجه قمري، قصيرة القامة وبدينة؛ جلس خلف طاولة العمل السوداء الداكنة من الصباغ وبين مئات العينات وأعداد هائلة من الدروج الصغيرة وسط حروف الرصاص المختلفة الأبعاد، والقوالب والكليشيهات يُنَضِّدُ يدوياً إعلاناً بدقة خطاط تخلى عن هذه الدنيا وصبّره حبره لعدد الجريدة الذي سيصدر بعد ثلاثة أيام.

قال السيد سردار: «إنكم ترون تحت أي ظرف تخوض صحافة شرق الأناضول صراع العيش» في اللحظة ذاتها انقطع التيار الكهربائي. وحين

توقفت آلة الطباعة وغمر الدكان ظلام سحري رأى كا جمال بياض الثلج الهاطل في الخارج.

قال السيد سردار: «كم واحدة صارت؟» ثم أشعل شمعة، وأجلس كا على كرسي في المكتب في القسم الأمامي.

«مائة وستين يا أبي».

«حين تأتي الكهرباء اعمل ثلاثمائة وأربعين. لدينا اليوم ضيوف مسرحيون.»

كانت تباع جريدة مدينة سرهات في مكان واحد من قارص وهو مقابل مسرح الشعب، ويمر عشرون شخصاً من هناك يشترونها، ولكن بحسب مايقوله السيد سردار مباهياً فإنه بفضل الاشتراكات يصل البيع إلى ثلاثمائة وعشرين نسخة. مئتان من هذه الاشتراكات هي المحلات ودوائر الدولة في قارص التي يضطر السيد سرهات لمديحها. الاشتراكات الثمانون الباقية هي لأشخاص «مهمين وشرفاء» أصحاب كلمة مسموعة في الدولة ولم يقطعوا علاقاتهم مع المدينة على الرغم من تركهم لها وإقامتهم في اسطنبول.

جاءت الكهرباء ورأى كا في جبين السيد سردار عَرَقاً غاضباً بارزاً في جبهته.

قال السيد سردار: «بعد أن تركتمونا التقيتم مع أناس خطأ، وحصلتم على معلومات خاطئة حول مدينتنا مدينة سرهات.»

قال كا: «كيف عرفت إلى أين ذهبت؟»

قال الصحفي: «الشرطة تتعقبكم بالطبع. ونحن لضرورة العمل نتنصت إلى مكالمات الشرطة بوساطة هذا اللاسلكي. ثمانون بالمائة من الأخبار التي ننشرها في جريدتنا تقدمها لنا المحافظة ومديرية الأمن. مديرية الأمن كلها تعرف بأنكم تسألون الجميع عن سبب تخلف قارص إلى هذا الحد، وعن سبب فقرها، وعن أسباب انتحار فتياتنا.»

كان قد استمع إلى عدد من الأحاديث عن سبب وقوع قارص من هذه الدرجة من الفقر مثل انخفاض التجارة مع السوفييت أيام الحرب الباردة، وإغلاق أبواب الجمارك؛ وسيطرة العصابات الشيوعية على البلد عام ١٩٧٠ وتهديدها للأغنياء وخطفهم؛ وذهاب الأغنياء الذين جمعوا مقداراً من رأس

المال كلهم إلى اسطنبول وأنقرة؛ نسيان الله والدولة لقارص؛ الصراع غير المنتهي بين تركيا أو أرمينيا. .

قال السيد سردار: «أنا قررت أن أخبركم بحقيقة الأمر.»

بنباهة وتفاؤل لم يشعر (كا) بهما على مدى سنوات فهم فوراً بأن أساس الموضوع يدعو إلى الخجل. وأساس الموضوع بالنسبة إليه كان في ألمانيا أيضاً يدعو إلى الخجل، ولكنه خبأ خجله عن نفسه. ولأنه يمكنه أن يقبل هذه الحقيقة بسبب أمل السعادة الذي يشعر به.

قال السيد (سردار) وكأنه يبوح بسرّ: «نحن كنا هنا جميعاً أخوة. ولكن في السنوات الأخيرة بدأ كل شخص يقول أنا آذري، أنا كردي أنا تركي. من المؤكد أنه يوجد هنا من كل القوميات. ونقول أيضاً يوجد تركميين، وقرة ببكين. وهم أخوة للآزاريين. ونحن نسمي الأكراد عشائر، ولم يعرفوا فيما مضى كرديتهم. المحليون المنحدرون من العثمانيين لم يقل أحدهم مباهياً: أنا محليّ. وكان هنالك تركمان، ومن لاظ، البوسوف وألمان نفاهم قيصر روسيا، ولا أحد يباهي بانتمائه أمام أحد. ونشرت هذه المباهاة كلها إذاعة تفلس الشيوعية من أجل تقسيم تركيا وهدمها. والآن الجميع أفقر، وأكثر مباهاة.»

حين وصل السيد سردار إلى قرار بأن كا قد تأثر، انتقل إلى موضوع آخر. جماعة الدين تتجول على البيوت بيتاً بيتاً، وتأتي إلى بيتك ضيفةً وتقدم للنساء مواعين وقدوراً، وآلات عصر برتقال، وصناديق صابون وبرغل، ومنظفات غسيل، وتؤسس في الأحياء الفقيرة صداقات بسرعة، وتقارب بين النساء، وتعلّق على أكتاف الأطفال الصغار دبابيس ذهبية. وتقول أعطوا أصواتكم لحزب الرفاه ـ حزب الله، وتقول أيضاً إن سبب هذا الفقر والبؤس الذي حل علينا هو أننا ابتعدنا عن طريق الله. الرجال يكلمون الرجال، والنساء يتكلمن مع النساء. يكسبون ثقة العاطلين عن العمل الغاضبين مجروحي الكرامة. يُفرِح العاطلون عن العمل نساءهم اللواتي لا يجدن ما يطبخنه في المساء، بعد ذلك يوعدون بهدايا جديدة ويجعلونهم يقسمون بأنهم سيعطون أصواتهم لهم. لا يقتصرون على كسب احترام الأفقر، والعاطل عن العمل المهان صباحَ مساء، بل طلاب الجامعة الذين لا يدخل إلى بطونهم أكثر

من صحن حساء يومياً، والعمال المياومين، وحتى أصحاب الدكاكين لأنهم أكثر من الجميع نشاطاً واستقامة.

قال صاحب جريدة مدينة سرهات بأن رئيس البلدية لم يقتل لأنه «عصري» وحاول إزالة العربات التي تجرها الخيول (لأنه قتل، فلم تكتمل محاولته هذه فقط)، بل جذب كره الجميع بسبب الرشوة والفساد. إن الأحزاب الجمهورية المنقسمة على ذاتها بسبب قضايا الثأر القديمة، والفصل القومي والعرقي، والداخلة في تنافس هدام بين يسار ويمين لم يستطع أحدها تقديم مرشح قوي. قال السيد سردار: «لا يوثق سوى بشرف مرشح حزب الله. وهذا المرشح هو السيد مختار الزوج السابق (لأيبك) ابنة السيد طورغوت صاحب الفندق الذي يقيمون فيه. إنه خفيف العقل قليلاً ولكنه كردي. الأكراد هنا يشكلون أربعين بالمائة من السكان سيكسب الانتخابات حزب الله.»

الثلج الذي بدأ يندف بغزارة أشد أيقظ في كا الإحساس بالوحدة مجدداً، وكان يرافق الإحساس بالوحدة هذا شعور توجس من أن حياة التحول نحو الغرب في تركيا والتي نشأ وعاش وسطها في اسطنبول قد وصلت إلى نهايتها. وتراءى له أن الشوارع التي عاش فيها طفولته، والأبنية القديمة الظريفة المتبقية من قرن والتي يسكن بعضها أصدقاؤه كلها تخربت، أشجار طفولته جفت وقطعت، وأغلقت دور السينما خلال عشر سنوات، وحولت إلى دكاكين ضيقة ومظلمة متراصفة لصناعة الألبسة الجاهزة، وهذا لا يعني نهاية طفولته كلها فقط، بل نهاية خياله بالعيش في اسطنبول من جديد. وخطر بباله أنه لو ترسخ في تركيا نظام شريعة قوي لن تستطيع أخته الخروج إلى الشارع دون تغطية رأسها. في ضوء النيون المنبعث من مصابيح جريدة مدينة سرهات نظر إلى ندف الثلج الكبيرة الساقطة بطيئاً وتخيل أنه عاد إلى فرانكفورت مع إيبك، يتسوقان معاً أحذية نسائية من الطابق الثاني في (كاوفهوف) حيث اشترى معطفه الرمادي الذي يلتف به بقوة.

«كل شيء هو جزء من الحركة الإسلامية الدولية التي تريد أن تجعل تركيا شبيهة بإيران»

قال كا: «والفتيات المنتحرات أيضاً هكذا؟»

«إننا نتلقى إخبارات بأنهن مع الأسف خدعن، ولأن الفتيات حساسات أكثر، وخشية من زيادة الانتحار أكثر ولما تفرضه علينا مسؤوليتنا لا نكتب عن هذا. يقال بأن (كحلياً) ـ الإرهابي الإسلامي الشهير ـ موجود في مدينتنا، من أجل توجيه ذوات الإشاربات الانتحاريات.»

«أليس الإسلاميون ضد الانتحار؟»

لم يُجِبْ السيد سردار عن هذا. حين توقفت آلة الطباعة، وخيّم الصمت، بدأ كا يتفرج على الثلج النادف في الخارج بشكل رهيب. القلق المتصاعد تدريجياً لأنه سيلتقي إيبك بعد قليل مناسب تماماً للشعور بالهم لهموم قارص من أجل التغلب على الخوف، ولكن كا الآن يفكر بإيبك فقط، ويريد تحضير نفسه للقاء في محل المعجنات، لأن الساعة الآن تشير إلى الواحدة وعشرين دقيقة.

شاعرنا الشهير كا في قارص

شاعرنا كا المعروف في تركيا كلها جاء البارحة إلى مدينتنا مدينة سرهات.

وقد حاز على تقدير البلد كله من خلال كتبه: (الرماد) و (مندلينا)، و(جرائد المساء)، وشاعرنا الشاب الفائز بجائزة (بهجت نجاتي غول) جاء إلى مدينتنا مندوباً عن جريدة الجمهورية من أجل تغطية الانتخابات. كان الشاعر كا منذ سنوات عديدة في مدينة فرانكفورت الألمانية يبحث في الشعر الغربي.

قال كا: «إن اسمي صُفّ بشكل خاطئ، يجب أن يكون حرف (ا) صغيراً» وفور قوله هذا ندم فقال بإحساس المدان: «إنه جميل»

قال السيد سردار: «يا أستاذ، بحثنا عنك لأننا لم نكن واثقين من اسمكم» ثم نادى على أولاده موبخاً دون ارتباك «ابني! انظر يا ابني، كتبتما اسم شاعرنا خطأ» وشعر كا بأن هذا ليس أول انتباه على خطأ تنضيد «صححوه الآن فوراً».

قال كا: «ما الضرورة لهذا» وهذه المرة رأى التنضيد الصحيح لاسمه في السطر الأخير لأكبر خبر.

في مسرح الشعب
ليلة الظفر لفرقة صوناي ظائم

لاقى عرض ليلة البارحة على خشبة مسرح الشعب الذي قدمته فرقة صوناي ظائم الشهيرة على صعيد تركيا كلها بنصوصها الشعبية الأتاتوركية التنويرية اهتماماً وانفعالاً كبيرين، وقد قطع بالتصفيق وعبارات الإعجاب العرض الذي استمر حتى منتصف الليل وحضره معاون المحافظ ونائب رئيس البلدية ومسؤولو المدينة الكبار. القارصيون الذين ملؤوا مسرح الشعب متعطشون لعرض مسرحي من هذا النوع، تمكنوا من متابعة العرض في بيوتهم أيضاً. لأن تلفزيون سرهات قارص في تاريخه الممتد إلى سنتين حقق بثه الحي الأول مقدماً هذا العمل الرائع للقارصيين جميعاً في اللحظة ذاتها. وبهذا حقق تلفزيون سرهات قارص أول بث حي من خارج استديوهاته، ولأنه لا يمتلك عربة نقل حي بعد فقد مد كابلاً من مركزه في شارع خالد ثابت إلى مسرح الشعب حيث الكاميرا وصل طوله إلى عرض شارعين. ولكي لا يتأثر بالثلج مرر القارصيون أصحاب المروءة الكابل من بيوتهم (مثلاً طبيبنا للأسنان السيد فاضل، أخذ الكابل من شرفته الأمامية، ومده نحو الباحة الخلفية). ويريد القارصيون أن يتكرر هذا البث الحي الناجح في فرص أخرى. وقال مسؤولو تلفزيون سرهات قارص إنه بفضل هذا البث الحي الأول من خارج الاستديو قدم أصحاب المحلات في قارص للتلفزيون إعلاناتهم. وفي العرض الذي شاهدته مدينة سرهات كلها كان هنالك توليفة من النصوص الأتاتوركية، ومشاهد من أجمل الأعمال المسرحية الشهيرة التي أثمرت عن التنوير الغربي، والألاعيب النقدية للإعلانات التي تقرض ثقافتنا، ومغامرات حارس مرمانا القومي الشهير (فورال)، وأشعار أتاتورك، وآخر قصيدة كتبها شاعرنا الشهير كا الذي يزور مدينتنا بعنوان (ثلج) قرأها بنفسه. غير هذا هنالك إعداد جديد للعمل التنويري العظيم المكتوب في أولى سنوات الجمهورية المسمى: «إما الوطن أو الملحفة» باسم جديد هو: «إما الوطن أو الإشارب».

«ليس لدي قصيدة عنوانها: ثلج، ومساء لن أذهب إلى المسرح. سيظهر أن خبركم خاطئ.»

«لا تكونوا واثقين إلى هذا الحد. لا تستهينوا بنا لأننا كتبنا الخبر قبل أن

تجري الوقائع كثيرون اعتقدوا بأن مانقوم به ليس صحافة، بل كهانة، ولكن بعد جريان الوقائع بالشكل الذي كتبناه لم يستطيعوا إخفاء دهشتهم. كثير من الحوادث تحققت لأننا قدمنا خبرها بشكل مسبق فقط. هذه هي الصحافة الحديثة. أنا واثق أنكم بداية ستكتبون قصيدة بعنوان (ثلج) بعد ذلك ستذهبون لإلقائها لكي لايؤخذ من يدنا حق أن نكون حداثويين في قارص ولكي لاتكسروا بخاطرنا».

وبين إعلانات التجمعات الانتخابية، وأخبار البدء بتطبيق اللقاح القادم من أرضروم على طلاب الثانوية، وقيام البلدية بتقديم تسهيل جديد للقارصيين بتأجيل ديون فواتير الماء شهرين، قرأ كا خبراً آخر لم ينتبه إليه للوهلة الأولى بين تلك الأخبار.

الثلج قطع الطرق

الثلج النادف على مدى يومين أغلق المواصلات كلها مع العالم. بعد أن أغلق البارحة صباحاً طريق (أردهان)، أغلق بعد الظهر طريق (صاري قمش). وبسبب تراكم الثلوج والجليد في منطقة (يول غتشماز) أغلق الطريق المؤدي إلى أرضروم وهذا ما جعل حافلة شركة يلماظ الذاهبة إلى أرضروم تعود إلى قارص. وقد أعلنت الأرصاد الجوية بأن موجة البرد القادمة من سيبريا وندف الثلج الكبيرة ستستمر ثلاثة أيام أخرى. وستعاني قارص على مدى ثلاثة أيام من عزلة كما كان يجري أيام الشتاء القديمة. وهذه فرصة لإعادة ترتيب أنفسنا.

لحظة نهوض كا للخروج قفز السيد سردار من مكانه، وأمسك الباب لكي يسمعه ما سيقول أخيراً. قال: «من يعلم ماذا سيحكي لكم السيد طورغوت وابنته! إنهم أناس أحادثهم بحرارة في الأماسي ولكن لاتنسوا: زوج إيبك خانم السابق هو مرشح حزب الله لرئاسة البلدية. يقولون إن أختها التي جلبتها هي وأبوها لتدرس هنا والمدعوة (قديفة) هي أشد الفتيات ذوات الإشاربات نضالاً. أبوها شيوعي سابق! لم يفهم حتى اليوم شخص واحد في المدينة كلها سبب مجيئهم إلى هنا قبل أربع سنوات في أسوأ أيام قارص».
على الرغم من سماع كا كثيراً من الأشياء الجديدة التي تقلقه دفعة واحدة، ولكنه لم يبال.

[٤]

هل أتيتم إلى هنا حقيقة

من أجل الانتخابات والانتحارات؟

كا وإيبك في محل الحياة الجديدة للمعجنات

على الرغم من علمه بالخبر السيّيء وهو يسير من شارع فائق بيك نحو محل الحياة الجديدة للمعجنات تحت الثلج لماذا كان على وجه كا ابتسامة غير واضحة تماماً؟ تصدح في أذنيه «روبيرتا» لـــ «بيبنو دي كابري» ويرى نفسه رومانتيكياً ومكدراً مثل بطل رواية تورغينيف ذاهباً للقاء المرأة التي تخيلها على مدى سنوات. كان كا يحب تورغينيف ورواياته الظريفة الذي يحلم من أوربا ببلده الذي تركه مستهيناً به ومتعباً من بدائيته، ومن الأسئلة غير المتناهية. ولكن لأقل الحقيقة: لم يحلم بإيبك على مدى سنوات كما في رواية تورغينيف. لقد تخيل امرأة مثل إيبك فقط. ولعلها خطرت بباله في بعض الأحيان. ولكنه حين علم بأنها انفصلت عن زوجها بدأ يفكر بها. والآن يريد إغلاق فجوة عدم تخيله لها بالموسيقى التي يسمعها ورومانتيكية تورغينيف، من أجل أن يستطيع تأسيس علاقة حقيقية وعميقة مع إيبك.

لكنه حين دخل إلى محل المعجنات وجلس معها إلى الطاولة نفسها فقد رومانتيكية تورغينيف التي في رأسه. إيبك أيضاً أجمل مما كانت عليه حين رآها في الفندق ومما كانت أيام الجامعة. واقعية جمالها وشفتاها المصبوغتان بشكل خفيف، ولون بشرتها الذاوي، وبريق عينيها، وحالتها القريبة من القلب جعلت كا مرتبكاً. بدت إيبك فجأة قريبة من القلب، وطبعاً كان كا يخشى ألا تكون كذلك. وهذا ما أشعل الدرجة الثانية من مخاوفه في الحياة بعد خشيته من كتابة شعر سيّيء.

قال قلقاً من فتح موضوع ما: «في الطريق رأيت العمال يسحبون كابل البث الحي من تلفزيون سرهات قارص إلى مسرح الشعب، كأنهم يشدون حبل غسيل». ولكنه لم يبتسم لخجله من الظهور مستهيناً بنواقص حياة الأطراف.

بقيا فترة يبحثان عن موضوعات مشتركة يمكنهما الحديث فيها بشكل مطمئن كأي اثنين قررا التفاهم بنية حسنة. حين ينتهي الموضوع تبتسم إيبك موجدة موضوعاً آخر. الثلج النادف، وفقر قارص، ومعطف كا، وإيجاد كل منهما الآخر قد تغير قليلاً جداً، وعدم ترك التدخين، والأشخاص الذين قابلهم كا في اسطنبول البعيدين عنها كلاهما... وكون أميّهما ماتتا، ودفنتا في مقبرة (فيري كوي) في اسطنبول قربهما من بعضهما بعضاً كما أرادا. وبالراحة المؤقتة التي شعرا بها نتيجة كونهما من البرج نفسه ـ حتى لو كانت مصطنعة ـ تحدثا عن مكانة أميهما في حياتهما (باختصار)، وعن أسباب هدم محطة القطار في قارص (مدة أطول)، وعن كون محل المعجنات الذي يجلسان فيه كنيسة أرثوذكسية حتى عام ١٩٦٧ ووضع باب الكنيسة المهدومة في المتحف، وعن القسم الخاص بالمجازر التي ارتكبها الأرمن بحق الأتراك (بعض السياح يعتقدون أن هذا المكان للمجازر التي ارتكبها الأتراك بحق الأرمن، ولكنهم بعد ذلك يفهمون أنه عكس ذلك)، وعن نادل محل المعجنات شبه الأصم وشبه الشبح، وعن عدم بيع القهوة في مقاهي قارص لغلائها على العاطلين عن العمل وعن الرؤى السياسية للصحيفة التي يجول صاحبها كا، والصحف المحلية الأخرى (كلها تؤيد الجيش، والحكومة القائمة) وعدد الغد من جريدة مدينة سرهات الذي أخرجه كا من جيبه.

حين بدأت إيبك تقرأ الصفحة الأولى من الجريدة بانتباه شديد خشي كا من أنها لايمكن أن تفكر مجرد التفكير بالعيش في ألمانيا مثل أصدقائه القدامى الذين قابلهم في اسطنبول، وبالنسبة له فإن الأمر الحقيقي الوحيد لتركيا هو عالمها السياسي البائس الذي يكوي القلوب. نظر كا طويلاً إلى يديها الصغيرتين، وإلى وجهها الظريف الذي مازال بالنسبة إليه جميلاً إلى درجة مدهشة.

سألت إيبك «كم سنة حُكِمْت، وبأية مادة؟» بعد ذلك ابتسمت مشفقة.

أخبرها كا. في أواخر السبعينيات كانت الصحف السياسية الصغيرة في تركيا تستطيع كتابة كل شيء، وكل شخص يحاكم، ويصدر بحقه حكم وفق هذه المادة من قانون العقوبات فيفخر بها الشخص. ولكن لم يكن يدخل أحد إلى السجن، لأن الشرطة لم تتناول الموضوع بجدية وتبحث عن مدراء التحرير والكتاب والمترجمين الذين يغيرون عناوينهم. فيما بعد حين حدث الانقلاب العسكري بدأ يعتقل الذين غيروا عناوينهم أيضاً تدريجياً، وبسبب مقالة سياسية لم يكتبها، ونشرها على عجل دون أن يقرأها حُكم كا، وهرب إلى المانيا.

سألته إيبك: «هل لاقيت صعوبات في ألمانيا؟».

قال كا: «ما حماني هو عدم استطاعتي تعلم الألمانية. لقد قاوم جسمي الألمانية، وفي النهاية حمى صفائي وروحي.».

حكى كا حكايته التي لايعرفها أحد عن الصمت الذي دفن نفسه فيه وعدم كتابته الشعر على مدى أربع سنوات وهو خائف أن يكون مضحكاً لشرحه كل شيء، ولكنه سعيد لاستماع إيبك له.

«في المساء عادة وفي شقتي المستأجرة الصغيرة القريبة من محطة القطار، وعند نافذتها المطلة على سقوف فرانكفورت كنت أتذكر اليوم الذي خلفته ورائي بنوع من الصمت، وهذا ما يجعلني أكتب الشعر. فيما بعد حين سمع المهاجرون الأتراك بأنني شاعر حظيت بقليل من الشهرة في تركيا، كما سمعت بالبلديات التي تعمل على جذب الأتراك، والمكتبات، والمدارس من الدرجة الثالثة، والجماعات التي تريد أن تعرف أبناءها بشاعر يكتب بالتركية بدأت تدعوني لإلقاء الشعر».

يركب كا أحد القطارات الألمانية المعجب بدقة مواعيدها ونظامها من فرانكفورت وينظر عبر مرآة النافذة المدخنة إلى أبراج الكنائس الظريفة في البلدات البعيدة، وإلى الظلمة في قلب غابات السنديان، وأثناء مرور الأطفال ذوي البنية السليمة وعلى ظهورهم حقائبهم. المدرسية يشعر من جديد بالصمت نفسه، ويشعر بأنه في بيته لعدم معرفته لغة هذا البلد، ويكتب شعراً. وإذا لم يكن ذاهباً إلى مدينة أخرى لإلقاء الشعر يخرج صباحاً في الساعة الثامنة من بيته ويسير على طول شارع كايزر، ويدخل إلى مكتبة البلدية في

شارع (زايل) ويقرأ الكتب. «هناك كتب انكليزية تكفيني لو عشت عشرين عمراً» ويقرأ بطمأنينة روايات القرن التاسع عشر التي كان يدوخ إعجاباً بها، وشعراء الرومانتيكية الانكليزية، وكتب حول تاريخ الهندسة، وأدلة المتاحف وكل ما يحب مثل طفل يعرف بأن الموت بعيد جداً. يقلب الصفحات في مكتبة البلدية، وينظر إلى الموسوعات القديمة، ويتوقف عند الصفحات ذات الصور، ويعيد قراءة روايات تورغينيف وفي هذه الأثناء على الرغم من سماعه ضجيج المدينة كان كا يسمع صمت القطارات في داخله. مساء، يغير طريقه، وبينما يتقدم على طول نهر (ماين) ماراً من أمام المتحف اليهودي، وحين يعبر المدينة من طرفها هذا إلى طرفها ذاك في نهاية الأسبوع كان يسمع الصمت نفسه.

قال كا: «بعد فترة شغل ذلك الصمت مكاناً واسعاً في حياتي إلى حد أنني لم أعد أسمع ذلك الضجيج المقلق حينما أرتعش من أجل كتابة قصيدة. ولم أكن أحادث الألمان أبداً. كما لم تعد علاقتي جيدة بالاتراك الذين يعتبرونني مثقفاً سخيفاً وشبه مجنون. لم أكن ألتقي أحداً، أو أكلم أحداً، أو أكتب الشعر أيضاً».

«ولكن الجريدة تقول بأنك ستلقي أخر قصيدة لك هذا المساء.».

«ليس لدي قصيدة أخيرة لألقيها».

لايوجد غيرهما في محل المعجنات سوى شاب ضئيل، وآخر متوسط العمر نحيل متعب يعمل صابراً على شرح أشياء ما له، يجلسان في زاوية معتمة بعيدة في الطرف الآخر من محل المعجنات بجانب النافذة. في النافذة الضخمة التي خلفها يبدو الثلج نادفاً قطعاً كبيرة وقد سقط عليه ضوء النيون الزهري المنبعث من اسم المحل وهذا ما يجعل الرجلين الجالسين بعيداً والمنجرفين في حديث مكثف جزءاً من فلم أسود وأبيض رديء.

قالت إيبك: «أختي الصغرى قديفة لم تنجح أول سنة في امتحانات الدخول إلى الجامعة. في السنة الثانية استطاعت النجاح بالدخول إلى معهد المعلمين هنا. الجالس هناك ورائي النحيل في الطرف البعيد هو مدير المعهد. عندما بقيت أختي وحيدة بعد موت أمي بحادث سير، قرر أبي أن يجلبها إلى هنا لحبه الشديد لها. بعد أن أتى أبي إلى هنا قبل ثلاث سنوات انفصلتُ عن

مختار، وسكنا معاً بناء فندقنا الذي تُسمع فيه تنهيدات الموتى، وتعج فيه الأشباح شراكة مع أقربائنا. نحن نعيش في ثلاث من غرفه.

لم يحدث أي تقارب بين كا وإيبك في سنوات الجامعة والمنظمة اليسارية. حين بدأ كا يسير في ممرات كلية الآداب المرتفعة السقوف وهو في السابعة عشرة من عمره انتبه مثل كثير غيره إلى إيبك بفضل جمالها. في السنة التالية رآها زوجة لصديقه من المنظمة نفسها الشاعر مختار: كلاهما كان قارصياً.

قالت إيبك: «أخذ مختار من أبيه وكالة بيع شركتي (آي غاز) و(أرتشلك). وفي السنوات التي تلت عودتنا إلى هنا بدأ يأخذني إلى الأطباء في أرضروم واسطنبول لأننا لم ننجب. وانفصلنا لهذا السبب. ولكن مختاراً منح نفسه للدّين بدل أن يتزوج مجدداً.

قال كا: «لماذا كل شخص يمنح نفسه للدين؟».

لم تجب إيبك. نظرا فترة إلى التلفاز الأبيض والأسود والمعلق على الجدار.

قال كا: «لماذا ينتحر الجميع في هذه المدينة؟».

قالت إيبك: «ليس الجميع. تنتحر الفتيات والنساء الشابات فقط. الرجال يمنحون أنفسهم للدين، والنساء ينتحرن».

«لماذا؟»

رمقته إيبك بنظرات أشعرت كا بأن بحثه السريع عن جواب لسؤاله يحمل فظاظة.

سكت قليلاً.

قال كا: «عليّ أن التقي مختاراً من أجل تحقيق الانتخابات الصحفي».

نهضت إيبك فوراً، وذهبت إلى جانب صندوق المحاسبة، وتحدثت بالهاتف وحين عادت قالت وهي تجلس: «إنه حتى الخامسة في مركز المحافظة للحزب. إنه ينتظرك».

حين خيّم الصمت، سيطر على كا الارتباك. لولا أن الطرق مغلقة لسافر في أول حافلة هارباً من هنا.

شعر بألم عميق لأمسيات مدينة قارص وأناسها المنسيين. التفتت عيناه تلقائياً نحو الثلج. كلاهما تفرج على الثلج مدة طويلة، وعمل هذا كمن لديه وقت لهذا وغير مبال بالحياة. كان يشعر كا بنفسه مأزوماً جداً.

سألت إيبك: «هل أتيتم إلى هنا حقيقة من أجل مقالة الانتخابات والانتحارات؟»

قال كا: «لا. علمت بأنك انفصلت عن مختار في اسطنبول. جئت إلى هنا لأتزوج منك».

للحظة ضحكت إيبك، وكأن هذه أغنية ممتعة، ولكن قبل مرور وقت طويل امتقع وجهها بالاحمرار. بعد صمت طويل، شعر بأن عيني إيبك تريان كل شيء على حقيقته. كانت عينا إيبك تقول: «ليس لديك الصبر حتى على إخفاء هذا قليلاً، وتقترب مني وتربكني بظرافة. لقد أتيت إلى هنا ليس لأنك تحبني، أو أنك تفكر بي بشكل خاص بل لأنك علمت بطلاقي، وتذكرت جمالي، ولأنك ترى أن عيشي في قارص نقطة ضعف لدي».

خجل كا وهو عازم على معاقبة إرادة السعادة الوقحة، وفكر بأن إيبك فكرت بأمر مؤلم لكليهما: «يجب أن تكون فكرت بأن الشيء الذي يربطنا يجب أن يكون ما نتوقعه من الحياة». ولكن إيبك قالت شيئاً مغايراً تماماً لما تخيله.

قالت: «أنا آمنت دائماً بأنك ستكون شاعراً جيداً، أبارك لك كتبك».

على جدران المكان هنا، كما في المقاهي والمطاعم وصالات الفنادق لم تعلق صور جبال قارص التي يفخر بها القارصيون، بل تعلق مناظر جبال الألب في سويسرة. النادل العجوز الذي جلب إليهما الشاي قبل قليل يجلس وسط الصواني المليئة بالمعمول والشكولا المتلامعة وسط الأوراق الدهنية والبراقة المتلامعة تحت ضوء المصباح الشاحب بجانب الخزنة وجهه باتجاههما، وظهره نحو الطاولات الخلفية ويتابع التلفاز الأسود والأبيض المعلق على الجدار سعيداً. كالمستعد لرؤية كل شيء عدا عيني إيبك ركز على الفيلم المعروض في التلفاز. في الفيلم ممثلة تركية شقراء ترتدي (مايو) وتهرب على الشاطئ الرملي، وثمة رجلان بشاربين يهرعان خلفها. فجأة

نهض الرجل الضئيل الجالس وراء الطاولة المظلمة في طرف محل المعجنات، ووجه مسدسه الذي بيده نحو مدير المعهد، وبدأ يقول مالم يستطع كا سماعه.

أدرك كا بأن السلاح قد انطلق حين كان المدير يجيبه. وفهم هذا ليس من صوت السلاح الذي لم يتأكد من سماعه له، بل فهمه على الأغلب من الاهتزاز الشديد لجسد المدير نتيجة انغراز الرصاصة فيه، ومن سقوطه عن الكرسي.

إيبك أيضاً التفت، وهي الآن تتفرج على المشهد الذي رآه كا للتو. نهض الرجل الضئيل من مكانه واتجه نحو المدير الساقط على الأرض، ووجه إليه سلاحه. كان يقول المدير له بعض الأشياء أيضاً. لأن صوت التلفاز مفتوح لايفهم ما يقوله المدير. وبعد أن أطلق الرجل الضئيل ثلاث رصاصات إلى جسد المدير في لحظة واحدة خرج من باب خلفه واختفى.

قالت إيبك: «لنخرج. علينا ألا ننتظر هنا».

صرخ كا بصوت ضعيف: «ألحقوا!» بعد ذلك قال: «لنتصل بالشرطة». ولكنه لم يتحرك من مكانه. بعد ذلك هرع راكضاً خلف إيبك. لم يكن ثمة أحد عند باب محل الحياة الجديدة للمعجنات ذي المصراعين، كما أنه ليس ثمة أحد أيضاً على الدرج الذي نزلاه مسرعين.

فجأة وجدا نفسيهما على الرصيف المثلج، وبدأا المسير مسرعين. وكان كا يعتقد بأن أحداً لم يرهما خارجين من هناك، وهذا يريحه، لأنه يشعر كأنه هو الذي ارتكب الجريمة. وكأنه قد نال عقاباً يستحقه لطلبه بلسانه الزواج وشعر بالخجل والندم عليه. لم يكن يريد أن يقابل أحداً وجهاً لوجه.

عندما وصلا إليزاوية شارع كاظم قرة بكر كان كا خائفاً من أشياء كثيرة، ولكنه شعر بسعادة نتيجة التقارب الصامت المتولد بينه وبين إيبك لاشتراكهما بسرّ. ارتبك كا حين رأى في عينيه دموعاً في مرآة دكان الحلاق التي تعكس ضوء المصباح العاري الذي ينير صناديق البرتقال والتفاح عند باب خان خليل باشا.

قالت: «مدير المعهد لم يكن يدخل الفتيات ذوات الإشاربات إلى الدروس، لهذا السبب قتلوا الرجل المسكين».

قال كا: «لنبلغ الشرطة» وتذكر أن هذه الجملة في زمن ما كان اليساريون يكرهونها.

«كيفما كان سيفهمون كل شيء. ولعلهم من الآن يعرفون كل شيء. مركز المحافظة لحزب الرفاه هناك في الأعلى، في الطابق الثاني» وأشارت إيبك إلى مدخل الخان. «احك ما رأيته لمختار لكي لايرتبك حين تفاجئه تشكيلات المخابرات القومية. غير هذا، عليّ أن أقول لك: مختار يريد أن يتزوجني من جديد، لاتنس هذا في أثناء حديثك معه».

[٥]

أستاذي، هل أستطيع أن أسألك سؤالاً؟

الحديث الأول والأخير بين القاتل والمقتول

كان ثمة جهاز تسجيل صوت سري مربوط بلاصق عريض إلى جسم مدير المعهد الذي أطلق عليه النار في صدره ورأسه الرجل الضئيل في محل الحياة الجديدة للمعجنات تحت أنظار كا وإيبك. لقد وَضَعَ الجهاز المستورد ماركة غرونديغ على جذع مدير المعهد العناصر النبيهون لشعبة تشكيلات المخابرات القومية في قارص. وقد فرضت هذا التصرف تهديدات شخصية تلقاها المدير لعدم إدخاله الفتيات ذوات الإشاربات إلى المعهد والدروس من جهة، والمعلومات التي حصلت عليها المخابرات المدنية في قارص من الأوساط الدينية، ولكن المدير المؤمن بالقدر كمتدين على الرغم من علمانيته رأى أنه من الأفضل أن يسجل صوت الأشخاص الذين يهددونه ليلقى القبض عليهم فيما بعد أفضل من وجود حارس مثل الدب يلازمه. وفي محل الحياة الجديدة للمعجنات الذي دخله دون تخطيط مسبق لتناول المعمول بالجوز الذي يحبه كثيراً، حين رأى رجلاً غريباً يقترب منه شغّل جهاز التسجيل كما يفعل في ظروف كهذه. وحصلتُ على تفريغ الشريط المخرج من جهاز التسجيل الذي لم ينقذه، ولم يتضرر الشريط على الرغم من إصابته برصاصتين من أرملته التي بقيت عيناها دامعتين حتى بعد سنوات ومن ابنته عارضة الأزياء الشهيرة.

«مرحباً يا أستاذي، هل عرفتموني؟» / «لا، لم أستطع»/ «وأنا أيضاً أعتقد هذا يا أستاذي. لأننا لم نتعارف. حاولت مساء البارحة واليوم مقابلتكم

ولكنني لم أستطع. البارحة طردتني الشرطة عند باب المعهد. وإذا كنت قد نجحت اليوم بالدخول فإن سكرتيرتكم لم تسمح لي بمقابلتكم. وأنا أردت اعتراضكم عند الباب قبل الدخول إلى الصف. في تلك الأثناء رأيتموني. هل تتذكرون يا أستاذي؟» / «لم أستطع التذكر»/ «لا تتذكرون أنكم رأيتموني أم لم تتذكروني؟» / «ماذا كنتم تريدون أن تبحثوا معي؟»/ «في الحقيقة أريد أن أبحث معكم كل المواضيع على مدى ساعات وأيام. أنتم إنسان محترم، متعلم، مثقف، بروفيسور في الزراعة. أما نحن فمع الأسف لم نستطع الدراسة. ولكنني في موضوع معين قرأت كثيراً. وهذا هو الموضوع الذي أردت بحثه معكم. أستاذي، عفوكم، أنا لا آخذ وقتكم، أليس كذلك؟» / «استغفر الله»/ «عفواً، عن إذنكم، هل أستطيع الجلوس يا أستاذي، لأنه موضوع متشعب»/ «تفضلوا، أرجوكم» (صوت سحب الكرسي والجلوس) / «إنكم تتناولون المعمول بالجوز يا أستاذي. لدينا في طوقاط أشجار جوز ضخمة. هل ذهبتم إلى طوقاط؟» / «مع الأسف، لا.»/ «حزنت كثيراً يا أستاذي. إذا جئتم أرجو أن تنزلوا عندي. لقد قضيت عمري كله، سنواتي الست والثلاثين أمضيتها في طوقاط. طوقاط جميلة جداً. وتركيا أيضاً جميلة جداً. (فترة صمت) ولكن مع الأسف نحن لا نعرف بلدنا، ولا نحب إنساننا. حتى إننا نعد احترام هذا البلد وهذا الشعب وخيانته شطارة. أستاذي عفوكم، هل يمكنني أن أطرح عليكم سؤالاً. أنتم غير ملحدين أليس كذلك؟» / «لست ملحداً.»/ «يقولون عنكم هذا، ولكنني لا أضع أي احتمال لأن يكون شخص مثلكم متعلم يمكنه أن ينكر وجود الله ـ حاشاه ـ. لا ضرورة لقول هذا، ولكنكم لستم يهودياً، أليس كذلك؟» / «لست يهودياً»/ «أنتم مسلمون؟» / «مسلم والحمد لله»/ «إنكم تضحكون يا أستاذي، ولكن أجيبوني بشكل جدي إذن عن سؤالي هذا. لأنني من أجل أن أحصل على جواب منكم عن هذا السؤال أتيت إلى هنا من طوقاط في هذا الثلج والشتاء» / «كيف سمعتم بي في طوقاط؟»/ «جرائد اسطنبول لا تكتب أنكم لم تدخلوا فتياتنا المتسترات المرتبطات بدينهن وكتابهن إلى الدروس هنا في قارص، إنها مشغولة بسفالات الفتيات عارضات الأزياء في اسطنبول. ولكن لدينا في طوقاط إذاعة إسلامية تدعى (بيرق)، وهي تذيع أخبار الأمكنة التي يظلم فيها المؤمنون في بلدنا» /

«أنا لا أظلم المؤمنين، لأنني أخاف الله.»/ «يا أستاذي، أنا على الطرقات في الثلج والعواصف على مدى يومين. فكرت بكم في الحافلات دائماً، صدقوا أنني كنت أعرف بأنكم ستقولون: أنا أخاف الله. وتخيلت أنني عندئذ سأسألكم هذا السؤال: إذا كنتم يا حضرة البروفيسور نوري يلماظ تخافون الله، وإذا كنتم يا أستاذي تؤمنون بأن القرآن كلام الله، إذن قل لي ما رأيك بالآية الكريمة الجميلة الحادية والثلاثين من سورة النور.» /«نعم، هذه الآية تبين بشكل واضح بأن على النساء أن يغطين رؤوسهن حتى يخفين وجوههن.»/ «جميل جداً، لقد قلتم هذا بصدق، تسلم يا أستاذي! في هذه الحالة هل أستطيع أن أطرح هذا السؤال: كيف توفق بين أمر الله هذا، وعدم إدخال فتياتنا المحجبات إلى المعهد؟»/ «عدم إدخال الفتيات المغطيات الرأس إلى الدروس، وحتى إلى المعهد أمر دولتنا العلمانية.»/ «أستاذي، عفوكم، هل يمكنني أن أطرح هذا السؤال: هل أمر الدولة أكبر من أمر الله يا أستاذي؟»/ «سؤال جميل. ولكن هذه أمور منفصلة في دولة علمانية»/ «تكلمتم بشكل صحيح يا أستاذي، لأقبل يدكم يا أستاذي. لا تخافوا يا أستاذي، هاتوها، هاتوها، انظروا! سأقبلها بشغف. أوف الله يرضى عنكم. فهمتم مقدار احترامي لكم. والآن لطفاً، هل يمكنني أن أطرح سؤالاً؟» / «تفضلوا، رجاء!»/ «أستاذي، حسنٌ، هل العلمانية تعني الإلحاد؟» / «لا.»/ «في هذه الحالة لماذا لا تدخل فتياتنا المؤمنات المؤديات واجباتهن الدينية إلى الدروس بذريعة العلمانية؟»/ «والله يا بني، لا يمكن الوصول إلى نتيجة بمناقشة هذه الأمور. تناقش هذه الأمور في تلفزيونات اسطنبول طوال اليوم، ماذا يحدث؟ لا الفتيات ينزعن أغطية رؤوسهن، ولا الدولة تقبلهن بحالتهن هذه في الدروس.»/ «حسنٌ أستاذي، هل يمكنني طرح سؤال؟ تفضلوا عليّ! بالعفو سلب حق التعليم لفتياتنا المغطيات رؤوسهن، بناتنا المربيات بألف جهد وجهد، المجتهدات، المربيات، المطيعات هل يتوافق مع الدستور، وحرية التربية والعقيدة؟ هل يقبل هذا ضميركم، لطفاً قولوا لي يا أستاذي؟»/ «لو كانت تلك الفتيات مطيعات إلى هذا الحد فيكشفن عن رؤوسهن. ابني، ما اسمك، عنوانك، أين تعمل؟»/ «أستاذي، أنا أعمل على الموقد في مقهى (شنلر) المجاور تماماً لحمام (بروانة) المشهور في طوقاط. هناك أنا مسؤول

عن الموقد وعن أباريق خمير الشاي. اسمي غير مهم. أستمعُ إلى إذاعة (بيرق) طوال اليوم. أحياناً يشغل بالي ظلم لحق بالمؤمنين، ويا أستاذي ولأنني أعيش في دولة ديمقراطية، وإنسان حر يعيش على هواه، أركب الحافلة قاصداً الشخص الذي شغل عقلي حيثما كان في تركيا، وأسأله مباشرة وجهاً لوجه عن هذا الظلم. لهذا السبب لطفاً أجيبوا عن سؤالي هذا يا أستاذي. هل أمر الدولة أكبر من أمر الله؟» / «لا يمكن الوصول إلى نتيجة في هذا النقاش يا ابني. في أي فندق تنزل؟»/ «هل ستبلغون عني الشرطة؟ لا تخف مني يا أستاذي. أنا لست منتسباً إلى أي منظمة دينية. وأكره الإرهاب، وأؤمن بالجدل الفكري وحب الله. لهذا السبب ـ على الرغم من أنني عصبي جداً ـ لم أوجه إلى أحد ولو لكشة في نهاية الجدل الفكري. لهذا أريدك أن تقدم لي جواباً على سؤالي هذا. أستاذي، عفوكم، على الرغم من البيان الواضح في سورتي الأحزاب والنور من القرآن الكريم كلام الله ألا يعذبكم ضميركم نتيجة معاناة الفتيات اللواتي تظلموهن على أبواب الجامعات؟» / «يا بني، القرآن الكريم أيضاً يأمر بقطع يد السارق، ولكن دولتنا لا تقطعها، لماذا لا تعارض هذا؟»/ «جواب جميل جداً يا أستاذي. لأقبل يدك. ولكن هل ذراع السارق وشرف المرأة أمر واحد؟ بحسب الإحصاءات التي قام بها الأمريكي الزنجي المسلم البروفيسور (مارتن لوتر كينغ) فإن حوادث الاغتصاب في الدولة الإسلامية حيث النساء متسترات تنخفض نسبتها حتى تكاد تنتهي، أما حوادث التحرش فتكاد لا تصادف. لأن المرأة المتسترة وسط ملحفة، كأنها بواسطة ثيابها تقول للرجال: لطفاً لا تتحرشوا بي. أستاذي، لطفاً، هل يمكنني أن أطرح سؤالاً: أتريدون إيقاع أنفسكم ـ تفضلوا بالعفو ـ موقع القواد؟» بدفعكم النساء المغطيات الرأس خارج المجتمع بمنعهن من التعليم، وبكشف الرأس وجعل الشعر تاجة وتحقيق ثورة جنسية كما جرى في أوروبا، وجعل شرف المرأة رخيصاً / «ابني، أنا تناولت المعمول، لا تؤاخذني، أنا ذاهب»/ «اجلس مكانك يا أستاذي. أجلس ولا تجعلني استخدم هذا. يا أستاذي، هل تراه؟»/ «مسدس؟» / «نعم يا أستاذي، لا تؤاخذني، أنا قطعت كل هذه الطرق من أجلكم. لست مخبولاً. فكرت بأنه يمكن لكم ألا تستمعون إليّ، فاتخذت تدبيري.» / «ابني، ما اسمكم؟» /

«وحيد سوزمة، سالم فشمكان، ما أهمية هذا يا أستاذي. أنا بطل مجهول مدافع لا اسم له عن المكافحين من أجل إيمانهم والمعرضين للظلم في هذه الدولة العلمانية المادية. لست منتسباً إلى أية منظمة. أحترم حقوق الإنسان، ولا أحب العنف أبداً. لهذا السبب أضع مسدسي في جيبي، ولا أريد منكم سوى الإجابة عن سؤالي.» / «حسنٌ.» / «أستاذي، بداية إثر أمر صدر عن أنقرة اعتبرتم الفتيات المستغرقة تربيتهن سنواتٍ طويلة، وهن أحداق عيون آبائهن وأمهاتهن، الذكيات، المجتهدات، والأوائل في صفوفهن غير موجودات، وعاملتموهن على هذا الأساس. إذا كتبت اسمها في جدول التفقد محوتموه لأنها مغطاة الرأس. إذا كان هنالك سبع فتيات إحداهن مغطاة الرأس يجلسن مع أستاذهن فتُعتبر أن المتسترة غير موجودة، ويُطلب لهن ستة أقداح من الشاي. أبكيتم الفتيات المعتبرات غير موجودات. وهذا لم يكف. بأمر جديد قادم من أنقرة لم تدخلوهن إلى الصفوف بداية، ورميتموهن إلى الممرات، بعد ذلك رميتموهن من الممرات خارج الأبواب. عندما وقفت بضع الفتيات البطلات الصامدات غير الكاشفات رؤوسهن أمام المعهد وهن يرتجفن من البرد من أجل التعبير عن همهن، اتصلتم هاتفياً طالبين الشرطة.» / «نحن لم نطلب الشرطة.» / «أستاذي، لا تخف لأن في جيبي مسدساً فتكذب عليّ. بأي ضمير استطعتم النوم مساء اليوم الذي جرجرت فيه الشرطة الفتيات للتوقيف. هذا هو سؤالي.» / «طبعاً إن غطاء الرأس هو رمز، وجعله لعبة سياسية أحزن بناتنا أكثر.» / «أية لعبة هذه يا أستاذي؟ إحدى الفتيات اضطرت للاختيار بين دراستها وشرفها فسيطر عليها القلق، ومع الأسف انتحرت. هل هذه لعبة؟» / «يا ابني! أنت غاضب جداً، ولكن لم يخطر ببالك أن وصول قضية الإشارب إلى هذه الحالة السياسية يكمن وراءها قوى خارجية تريد إضعاف تركيا بتقسيمها إلى قسمين؟» / «لو أنك أدخلت الفتيات إلى المعهد هل كان سيبقى هنالك ما يدعى فتاة إشارب!» / «وهل هذا بإرادتي وحدي يا بني؟ هذه مطالب أنقرة. زوجتي أيضاً مغطاة.» / «أستاذي دع عنك المداهنة وأجب عن سؤالي الذي طرحته قبل قليل.» / «أي سؤال؟» / «هل يعذبكم ضميركم؟» / «أنا أب أيضاً يا بني، طبعاً أنا أحزن من أجل تلك الفتيات.» / «اسمع، أنا أعرف جيداً كيف أسيطر على نفسي، ولكنني

رجل عصبي. إذا نفر الدم إلى رأسي سينقطع الفيلم. حين كنت في السجن ضربت رجلاً لأنه لم يغط فمه وهو يتثاءب، وربيت المهجع كله، وتخلصوا جميعهم من العادات السيئة، وبدؤوا بالصلاة. والآن لا تَتَلَوَّ، وأجب عن سؤالي. أنا ماذا قلتُ قبل قليل؟» / «ماذا قلت يا ابني، انزل هذا المسدس.» / «أنا لم أسألك عما إذا كان لديك ابنة، وعما إذا كنت قد حزنت.» / «عفوكم يا ابني، ماذا سألتم؟» / «لا تخف من المسدس وتداهنني الآن. تذكر ما سألتك إياه...» (صمت) / «ماذا سألتم؟» / «سألتك عما إذا كان ضميرك يعذبك يا عديم الإيمان» / «طبعاً يعذبني.»/ «إذن لماذا تفعل هذا يا عديم الشرف» / «يا بني، أنا معلم بعمر والدك. وهل يوجد في القرآن الكريم أمر يقول وجهوا المسدس إلى كباركم وأهينوهم؟» / «أنت لا تذكر القرآن الكريم، فهمت. ثم لا تتلفت هكذا إلى يمينك ويسارك كأنك تتسول مساعدة، وإذا صرخت فلن أرحمك، وسأطلق النار عليك. هل فهمت الآن؟» / «فهمت» / «إذن، أجب عن سؤالي هذا: ماذا يستفيد البلد إذا كشفت الفتيات المغطيات رؤوسهن. قل سبباً يقبله قلبك وضميرك. قل مثلاً إنهن إذا كشفن رؤوسهن ستضعنا أوربا موضع الإنسان أكثر من السابق. على الأقل سأفهم قصدك، ولن أطلق النار عليك، وسأطلقك.» / «يا سيد، يا ابني. لدي ابنة، ورأسها مكشوف. وبالشكل الذي لا أتدخل فيه مع أمها المغطاة الرأس، لا أتدخل بشأنها أبداً.» / «لماذا كشفت ابنتك رأسها، هل تريد أن تصبح فنانة؟» / «لم تقل لي شيئاً كهذا. إنها تدرس العلاقات العامة في أنقرة. ومع الأسف صرت بسبب قضية الإشارب هذه هدفاً، وحين عانيت من الضيق، وتعرضت للافتراءات والتهديد، ونداً لأصحاب الحق الغاضبين مثلك، ولأعدائي قدمت لي ابنتي الدعم الكبير. اتصلت بي من أنقرة....» / «تقول أرجوك يا بابا تماسك، هل أصير فنانة؟» / «لا يا بني، لا تقل هذا. تقول يا بابا أنا لا أجرؤ على الدخول إلى صف كل بناته مغطيات الرأس، في هذه الحالة سأتغطى حتى لو لم أكن أرغب بهذا.» / «حسنٌ، بماذا يضر لو تغطت دون إرادة؟» / «والله أنا لا أناقش هذه الأمور. طلبتم مني تقديم سبب» / «أي أنك يا عديم الشرف تجعل الشرطة تضرب الفتيات المتسترات، الملبيات لأمر الله، والمؤمنات بالهراوات، وتظلمهن، وتدفعهن إلى الانتحار

من أجل خاطر ابنتك.» / «السبب الذي طرحته ابنتي هو في الوقت نفسه سبب لكثير جداً من النساء التركيات.» / «إذا غطت تسعون بالمائة من نساء تركيا رؤوسهن، فأي سبب هذا سيزعج؟ إنك تفاخر بتعرية ابنتك. يا عديم الشرف، يا ظالم، ضع هذا في رأسك، أنا لستُ بروفيسوراً، ولكنني قرأت أكثر منك بكثير في هذا الموضوع» / «يا سيد، لطفاً لا توجهوا سلاحكم نحوي. أعصابكم تتوتر، إذا أطلق لعلكم فيما بعد ستحزنون.» / «لماذا سأحزن. أنا أصلاً قطعت كل هذه الطرق في هذه الثلوج والقيامة على مدى يومين من أجل تنظيف الدنيا من كافر. يقول القرآن الكريم بأنه واجب على المؤمن قتل الظالم ومن يقدم على الظلم. ولأنني حزنت عليك سأعطيك فرصة أخيرة. قل لي سبباً واحداً يقبله ضميرك لكشف الفتيات المسترات رؤوسهن ونثره. اسمع. أقسم لك بأنني حينئذ لن أطلق النار عليك.» / «إذا رفعت المرأة غطاء رأسها ستكون داخل المجتمع أكثر راحة، وأكثر احتراماً.» / «لعل هذا ممكن لابنتك التي تريد أن تصير فنانة. ولكن على العكس فإن التستر حمى المرأة من التحرش والاغتصاب، والاستهانة، وجعلها تستطيع الخروج إلى المجتمع براحة أكبر. وقد عبرت كثير من النساء اللواتي تغطين فيما بعد وبينهن راقصة هزّ البطن السابقة (ملاحات شاندرا) بأن الغطاء يُخرج المرأة من كونها أداة مسكينة مزينة تخاطب المشاعر الحيوانية للرجال، وتنافس النساء الأخريات في الجاذبية. وكما عبر البروفيسور الزنجي الأمريكي مارتن كينغ، لو كانت إليزابث تايلر قد تغطت في العشرين سنة الأخيرة من حياتها لما خجلت من بدانتها ووقعت في مشافي المجانين، وكانت ستغدو سعيدة. عفوكم يا أستاذي، أيمكنني أن أطرح سؤالاً: لماذا تضحك؟ / يا بني المحترم! صدقوا أنني لا أضحك. وإذا كنت قد ضحكت فمن توتر الأعصاب.» / «لا. ضحكت عن إيمان» / «يا سيد بني، قلبي مليء بالشفقة على الشابات المعذبات لإيمانهن بقضيتهن مثلي مثلك ومثل الفتيات ذوات الإشاربات.» / «لا تداهن دون جدوى. أنا لا أعاني من أي ألم، ولكنك الآن ستعاني لأنك ضحكت على الفتيات المنتحرات. بما أنك ضحكت فإنك لن تندم. في هذه الحالة لأعلمك بالوضع فوراً. لقد حكمت عليك عدالة المجاهدين الإسلامية منذ زمن بالموت، واتخذ القرار في طوقاط نتيجة

التصويت بالإجماع، وأرسلوني للتنفيذ. لو أنك لم تضحك، لو أنك نادم لعلني. كنت سأعفو عنك. خذ هذه الورقة، واقرأ قرار إعدامك. . . (صمت) اقرأه بصوت عال دون بكاء مثل النساء، هيا يا عديم الشرف، وإلا سأطلق النار عليك فوراً» / «أنا الملحد البروفيسور نوري يلماظ، يا بني المحترم، أنا لست ملحداً. .» / «هيا، اقرأ» / «يا بني، عندما سأقرأ هل ستطلق النار عليّ؟» / «إذا لم تقرأ سأطلق النار عليك. هيا، اقرأ» / «لقد ظلمت لكوني أداة لمخطط غربي سري لجعل الجمهورية التركية العلمانية خادمة للغرب وتجريدها من كرامتها، وجعلها ملحدة، وطبقت هذا الظلم على الفتيات المؤمنات المتعلقات بدينهن لأنهن لم يكشفن عن رؤوسهن، ولم يخرجن عن كلام القرآن الكريم، وفي النهاية لم تستطع إحدى الفتيات المؤمنات تحمل الألم فانتحرت. . . يا بني المحترم، عن إذنكم لدي اعتراض هنا، وابلغوا الهيئة التي أرسلتكم بهذا رجاء. تلك الفتاة لم تنتحر لعدم السماح لها بالدخول إلى المعهد أو لضغط أبيها، وبحسب ما أبلغتنا به تشكيلات المخابرات القومية فقد شنقت نفسها نتيجة ألم العشق.» / «ولكنها لم تذكر هذا في الرسالة التي تركتها قبيل أن تموت.» / «وحتى ألجأ إلى عفوكم لأقول يا بني ـ لطفاً أنزلوا هذا المسدس ـ إن تلك الفتاة الجاهلة فقدت بكارتها قبل أن تتزوج مع شرطي يكبرها بخمسة وعشرين عاماً دون تفكير، وبعد هذا حين قال لها الرجل بأنه لا يستطيع الزواج منها لأنه متزوج، ولا ينوي الزواج منها نهائياً. . .» / «اسكت يا سافل. ذاك العمل يمكن أن تعمله ابنتك العاهرة.» / «لا تعملها يا بني! لا تعملها يا صغيري. إذا أطلقت عليّ النار سيسود مستقبلك أنت أيضاً.» / «قل بأنك نادم.» / «أنا نادم يا ابني، لا تطلق النار.» / «افتح فمك لأدخل فوهة المسدس. . . والآن اضغط على الزناد من فوق إصبعي كأي عديم إيمان، ولكن على الأقل ستفطس بشرف.» (صمت) / «يا ابني، انظر إلى أي حالة سقطت، بهذا العمر أبكي. أتوسل إليك، لا تشفق عليّ، أشفق على نفسك. أنت أيضاً يا للأسف على شبابك ستصير قاتلاً.» / «في هذه الحالة اضغط أنت على الزناد، واعلم أنت أيضاً بالألم الناجم عن الانتحار» / «يا ابني، أنا مسلم وضد الانتحار!» / «افتح فمك. (صمت) لا تبك. . . ألم يخطر ببالك أنك في يوم من الأيام ستحاسب. لا تبك وإلا سأطلق عليك

النار» / (صوت النادل العجوز من بعيد) «يا سيدي، هل تريدون أن أجلب لكم الشاي إلى تلك الطاولة؟» / «لا، لا أريد. سأنهض الآن» / «لا تنظر إلى النادل! تابع قراءة قرار إعدامك» / «يا بني، اعفُ عني»/ «أقول لك: اقرأ.» / «أنا خجل مما فعلته كله، ولكي يعفو عني الله جل جلاله..» / «هيا اقرأ..» / «يا بني المحترم، دع هذا العجوز يبكي. دعني أفكر للمرة الأخيرة بزوجتي وابنتي.» / «فكر بالفتيات اللواتي ظلمتهن. إحداهن أصيبت بنوبة عصبية. أربع منهن طردن من المعهد وهن في الصف الثالث. إحداهن انتحرت. ونتيجة ارتجافهن من البرد عند باب المعهد أصبن جميعهن بالحمى، وسقطن في الفرش، وانحرفت حياتهن جميعاً.» / «أنا نادم جداً يا بني المحترم. ولكن هل يستاهل هذا الأمر قتل واحد مثلي لتتحول إلى قاتل. فكر بهذا.» / «حسنٌ» (صمت) «أنا فكرت يا أستاذي، اسمعوا ما خطر ببالي» / «ماذا؟» / «أنا من أجل إيجادك وتنفيذ عقوبتك قضيت يومين في مدينة قارص البائسة هذه أتجول خاوي اليدين. واعتقاداً بأن النصيب لم يقسم لي، قطعت تذكرة العودة إلى طوقاط، وبينما كنت أشرب آخر قدح من الشاي...» / «يا بني إذا كنت تفكر بإطلاق النار عليّ والهرب بآخر حافلة ذاهبة إلى طوقاط، فإن الطرق مغلقة بالثلوج. حافلة الساعة السادسة لن تنطلق. بعد ذلك لا تندم.» / «لحظة عودتي أرسلك الله إلى محل الحياة الجديدة للمعجنات هذا. أي أن الله لا يعفو عنك، فهل أنا سأعفو عنك؟ قل كلمتك الأخيرة. وكبّر.» / «اجلس على كرسيك يا بني. هذه الدولة ستقبض عليكم جميعاً، وتشنقكم.» / «كبّر» / «اهدأ يا بني. اجلس. فكر مرة أخرى. لا تضغط عليه، قف.»

(صوت سلاح. قرقعة كرسي) «لا تفعلها يا بني!» (صوت طلقتين أخريين. صمت. أنين. صوت التلفاز. سلاح من جديد. صمت.)

[٦]

العشق والدين والشعر

حكاية مختار الحزينة

حين تركته إيبك عند باب خان خليل باشا وعادت إلى الفندق صعد درج الطابقين مسرعاً، ولم يذهب إلى مركز المحافظة لحزب الرفاه، وقضى وقتاً بين العاطلين عن العمل والأجراء وبين السيقان في ممر الخان. مازالت صورة مدير المعهد المضروب بالنار وهو ينازع الروح حية أمام عينيه، ويشعر بندم وذنب. في داخله إحساس بضرورة أن يحدث أحداً ما بالهاتف، مثلاً: معاون مدير الأمن الذي كلمه صباحاً، أو اسطنبول إما جريدة الجمهورية أو أحد معارفه، ولكنه لم يستطع إيجاد زاوية يتكلم منها بالهاتف للازدحام في المقاهي ودكاكين الحلاقين.

وهكذا ولج من الباب الذي كتب فوقه على لوحة «جمعية محبي الحيوانات». ثمة هاتف في هذا المكان ولكنه مشغول. ثم إنه لم يعد واثقاً إذا ما كان يريد أن يتكلم بالهاتف أم لا. انتقل إلى الطرف الآخر من الجمعية عبر باب موارب حيث هنالك صور ديكة معلقة على جدران صالة، وفي الوسط حلبة صغيرة. في صالة مصارعة الديكة شعر كا متوجساً بأنه يعشق إيبك وأن البقية الباقية من حياته سترتسم وفق هذا العشق.

أحد محبي الحيوانات الأغنياء التواقين لصراع الديكة في ذلك اليوم وتلك الساعة يذكر جيداً أن كا دخل إلى الجمعية، وجلس على أحد مقاعد الفرجة حول حلبة وهو يفكر. وهناك شرب كا قدحاً من الشاي وقرأ قواعد صراع الديكة المكتوبة بحروف ضخمة على الجدران.

لا يمكن فحص الديك المجلوب إلى الحلبة من قبل صاحبه.

الديك الملقى أرضاً إذا سقط ثلاث مرات وتوقفت حوصلته عن الحركة يخسر نهائياً.

إذا كُسرت إصبعه الخلفية أو ثلاثة أظفار يعطى دقيقة للمعالجة.

الديك الساقط أرضاً ينهض ويتابع الصراع إذا وطئ الديك الخصم على رقبته.

إذا قطعت الكهرباء ينتظر خمس عشرة دقيقة، وإذا لم تأت يلغى الصراع.

في الساعة الثانية والربع حين خرج من جمعية محبي الحيوان كان كا يفكر كيف يمكنه أن يخطف إيبك من مدينة قارص هذه، ويهربان. مركز المحافظة لحزب الرفاه في الطابق نفسه. السيد مظفر رئيس البلدية الأسبق من حزب الشعب على مبعدة دكانين، والآن يطفئ أنوار مكتبه (بينهما مقهى الأصدقاء وخياطة الأخضر).

الزيارة التي عملها صباحاً تهيأت لكا بأنها غدت في زمن ماض بعيد، ودخل إلى مركز الحزب وهو مستغرب أن يكونا في بناء واحد، وطابق واحد.

آخر مرة رأى فيها كا مختاراً كانت قبل اثنتي عشرة سنة. وبعد أن تعانقا انتبه إلى أن بطنه كبر، وشعره شاب وتساقط، ولكنه كان يتوقع أنه على هذا النحو. ليس لمختار أية خصوصية كما كان أيام الجامعة، وفي طرف فمه سيجارة يدخنها منذ تلك الأيام.

قال كا: «قتلوا مدير معهد المعلمين.»

قال: «لم يمت. أذيع الخبر الآن. كيف عرفت أنت؟»

قال كا: «كان جالساً مثلنا في محل الحياة الجديدة للمعجنات حيث اتصلت بك إيبك» وشرح الحادثة كما عاشها.

قال مختار: «هل اتصلتم بالشرطة؟ ماذا فعلتم بعد ذلك؟»

قال كا بأن إيبك عادت إلى البيت، وهو جاء إلى هنا.

قال مختار: «بقي للانتخابات خمسة أيام. فهل أننا سنكسب، لذلك تجرب الدولة كل شيء من أجل أن تحيك على رأسنا ما يعوقنا. سياسة حزبنا

على مستوى تركيا كلها هي تبني قضية أخواتنا ذوات الإشاربات. والآن يطلق النار على السافل الذي يمنع الفتيات من الدخول إلى المعهد، والشاهد الموجود في مكان الحادث لا يبلغ الشرطة، ويأتي فوراً إلى هنا، إلى مركز حزبنا.» وأضاف متلبساً حالة من الظرافة: «لطفاً، اتصل من هنا بالشرطة، واشرح لهم كل شيء.» ومد نحوه سماعة الهاتف كصاحب بيت يباهي بتقديم ضيافة. حين تناول كا السماعة، كان مختار ينظر إلى دفتر ويطلب الرقم.

قال كا: «أنا أعرف السيد كاظم معاون مدير الأمن.»

وبشك واضح يدفع إلى التوتر العصبي قال: «من أين تعرفه؟»

وبينما كان كا يقول: «الصحفي السيد سردار أخذني إليه أولاً هذا الصباح» وصلت عاملة المقسم كا في لحظة بمعاون مدير الأمن. شرح كا ما عاشه وشهده في محل الحياة الجديدة للمعجنات كما حصل. طرد مختار رجلين متسرعين أهوجين عجيبين، وبتصرف غير متقن لإبداء الظرافة قرّب اذنه، وأراد الاستماع إلى المكالمة مع كا. ولكي يسمع جيداً قرب كا السماعة من أذنة. الآن وجه كل منهما يشعر بأنفاس الآخر. كا يعرف السبب الذي جعله يشاركه بالاستماع إلى مكالمة معاون مدير الأمن، ولكنه شعر بأن هذا أفضل. عرّف معاون مدير الأمن مرتين بجسد المعتدي الضئيل ولم يتكلم عن وجهه الذي لم يره.

قال صوت الضابط الموحي بحسن نية: «تعالوا إلى هنا بأسرع ما يمكن لكي نأخذ إفادتكم.»

قال كا: «أنا في مركز حزب الرفاه، سآتي دون تأخير.»

خيمت برهة صمت.

قال الضابط: «لحظة»

سمع كا ومختار الضابط يهمس مع أحدهم مبعداً فمه عن السماعة.

قال الضابط: «عدم المؤاخذة، سألت عن السيارة المناوبة. لن يهدأ هذا الثلج. بعد قليل سنرسل سيارة سيأخذونكم من مركز الحزب.»

حين أغلق الهاتف قال مختار: «حسن قولك بأنك هنا. كيفما كان فهم يعرفون. إنهم يتنصتون على كل الأمكنة. لا أريد أن تفهمني خطأ بحديثي الذي بدا اتهامياً.»

عبر داخل كا إحساس بالغضب من النوع الذي كان يشعر به إزاء السياسيين الذين كانوا يرونه بورجوازياً من نيشان طاش. وكان أولئك الشبان في الثانوية يتربصون ببعضهم بعضاً موقعاً كل طرف الآخر موقع المنيوك. وتحولت هذه الفعاليات في السنوات اللاحقة إلى شكل ألاعيب جعل كل طرف عدوه السياسي مخبراً للشرطة. وبسبب خشية كا من الوقوع في وضع المشير من سيارة شرطة إلى البيت الذي سيداهم، ابتعد دائماً عن السياسة. أما الآن على الرغم من قيامه بعمل من هذا النوع سيستهين به مختار المرشح عن حزب شريعة، ولو حدث قبل عشر سنوات لوقع كا في مأزق إيجاد عذر أو ذريعة له.

رن الهاتف، فتحه مختار بلبوس المسؤول، ودخل مساومة شديدة مع مسؤول تلفزيون قارص سرهات حول سعر إعلان دكان بيع الأدوات المنزلية الكهربائية الذي سيبث ضمن النقل الحي هذا المساء.

أغلق الهاتف. كطفلين متخاصمين لا يعرفان ما سيقولانه سكتا. وكل ما لم يتكلما به خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية تم الحديث به في خيال كا.

بداية قال كلّ منهما للآخر في خياله: «عاش كل منا الآن نوعاً من حياة المنفى، وبما أننا لسنا ناجحين ظافرين سعيدين فإن الحياة أمر صعب! لا يكفي أن يكون المرء شاعراً... لهذا السبب فقد أثرت علينا ظلال السياسة.» بعد أن قيل هذا مرة، لم يستطيعا دون تجريب قول هذا أيضاً: «حين لم تكف سعادة الشعر، تولدت الحاجة إلى ظل سياسي». كا الآن يستهين أكثر قليلاً بمختار.

كا مسرور لأن مختار على عتبة انتصار في الانتخابات، وهو ممنون قليلاً من نفسه لأنه شاعر متوسط الشهرة ـ أفضل من لا شيء ـ على صعيد تركيا. ولكن كما أن كلاً منهما لن يستطيع الاعتراف بهذا الامتنان، فهما أيضاً لا يمكن أن يفتح الواحد للآخر الموضوع الأساسي الكبير، وهو مخاصمة كل واحد منهما للحياة. أي الحدث الأسوأ، وهو قبولهما الهزيمة في الحياة، واعتيادهما على ظلم العالم الذي لا يرحم. وحاجة كل منهما لإيبك للخروج من هذا الوضع أخاف كا.

قال مختار مبدياً ابتسامة غير واضحة تماماً: «بلغني أنك ستقرأ آخر

قصيدة لك هذا المساء في سينما المدينة.»

نظر كا بعداء إلى هذا الرجل الذي كان في يوم ما زوجاً لإيبك وإلى عينيه الشهلاوين اللتين لا تضحكان أبداً.

قال مختار: «هل التقيت فاخر في اسطنبول» الابتسامة واضحة هذه المرة.

استطاع كا أن يبتسم معه هذه المرة. كما أن هنالك جانباً حنوناً ومحترماً في ابتسامتيهما. كان فاخر بعمرهما ومدافعاً غير متهاون أبداً عن الشعر الغربي. لقد درس في سانت جوزف، ويُقال إنه بالنقود التي أخذها من أبيه الغني والمجنون والخارج من القصر يذهب كل سنة إلى باريس، ويملأ حقيبته بكتب الشعر التي يشتريها من مكتبات سانت جيرمان، ويجلبها إلى اسطنبول وينشر في المجلة التي يصدرها وفي سلاسل شعرية ترجمات لهذه الكتب، وقصائده، ومجموعات شعرية للشعراء الأتراك الحداثويين عن دار النشر التي يمتلكها وقد أفلسها. ومقابل احترام الجميع لجانبه هذا فإن أشعاره التي يكتبها بتركية أصيلة مصطنعة متأثراً بالشعراء الذين ترجم لهم ينقصها الإلهام وهي سيئة وغير مفهومة.

قال كا بأنه لم يلتق فاخر في اسطنبول.

قال مختار: «كانت لي رغبة كبيرة لأن يعجب فاخر بشعري. ولكنه كان يستهين بأمثالي معتبراً أننا لا نعمل من أجل الشعر الخالص، بل بالفلكلور والجماليات المحلية. مرت السنون، وحدثت انقلابات عسكرية، وكل شخص دخل إلى السجن وخرج، وأنا أيضاً كالجميع تشتت من هنا إلى هناك مثل المصروعين. تغير الناس الذين اتخذتهم مثلاً لي، وضاعت الأشياء التي أردت أن يعجب بي أعجب من خلالها، ولم يتحقق ما أردته لا في الشعر ولا في الحياة. وعدت إلى قارص لأن هذا أفضل من البقاء في اسطنبول تعيساً، قلقاً، دون نقود. أخذت دكان أبي الذي كنت أخجل منه في زمن ما. وهذا أيضاً لم يسعدني. استهنت هنا بالناس، وقطبت وجهي عندما التقيتهم كما كان يفعل فاخر إزاء شعري. كأن المدينة، والناس هنا في قارص ليسوا حقيقيين. كل شخص هنا يريد إما أن يموت أو ينسحب ذاهباً. ولكن بالنسبة لي لم يبق لي مكان أذهب إليه. كأنني نفيت إلى خارج التاريخ، وخارج الحضارة. كانت

الحضارة بعيدة إلى حد أنني لم أستطع حتى تقليدها. كما أن الله لم يمنحني ولداً أتخيل أنه عمل ما لم أستطع عمله يكون في يوم ما صاحب شخصية حداثوية غربية دون حمل أي شعور بالانسحاق.»

كان كا مستمتعاً بابتسامات مختار الخفيفة التي تنطلق وكأنها ضوء صادر عن داخله ساخراً من ذاته.

«أشرب مساءً، وآتي متأخراً إلى البيت كي لا أتشاجر مع جميلتي إيبك. كل شيء كان مثل إحدى ليالي قارص التي يتجمد فيها كل شيء حتى الطيور الطائرة. في وقت متأخر خرجت آخر واحد من خمارة (يشيل يورت)، وكنت ماشياً نحو البيت الذي كنا نسكنه معاً ـ إيبك وأنا ـ في شارع (أوردو). لا يستغرق هذا الطريق أكثر من عشر دقائق، ولكنها بالنسبة إلى قارص مسافة طويلة. ولأنني شربت عرقاً زيادة ضعت في طريق هو عبارة عن خطوتين. لم يكن ثمة أحد في الشوارع. كانت قارص تشبه مدينة مهجورة كما هي دائماً في الليالي الباردة. الأبواب التي طرقتها إما أبواب بيوت أرمن لم يعش فيها أحد منذ ثمانين عاماً، أو أن سكانها تحت طبقات اللحف مثل الحيوانات التي في سباتها الشتوي لا تريد الخروج من جحورها.

فجأة أعجبت بهذه المدينة المهجورة بحالتها الخاوية هذه. كان ينتشر في جسدي شعور ممتع بالنوم نتيجة المشروب والبرد. وأنا قررت أن أترك هذه الحياة بصمت، إما مشيت أربع أو خمس خطوات أو لم أمشها، تمددت تحت شجرة على الرصيف المتجلد وبدأت أنتظر النوم والموت. الموت في ذلك البرد والرأس سكران عمل لا يستغرق أكثر من أربع أو خمس دقائق. وبينما كان ثمة نوم لطيف يتجول في عروقي ظهر أمام عيني ولدي الذي لم يأت بأي شكل. فرحت كثيراً: كان ذكراً، وكبر، ويربط ربطة عنق، حالته لم تكن تشبه موظفينا ذوي ربطات العنق، كان مثل الأوربيين. حين كاد يقول لي شيئاً توقف، وقبل يد رجل مسن. كان يشع من ذلك الرجل المسن النور على كل الأرجاء. فجأة سقط ضوء على عيني تماماً حيث أتمدد، وأيقظني. نهضت واقفاً وأنا أشعر بالندم والأمل. نظرت، وإذا على مقربة مني فتح باب مُضاء، وبعضهم يدخل ويخرج. استمعت إلى الصوت الصادر من داخلي ولحقت بهم. قبلوني بينهم، وأدخلوني إلى بيت مضاء ودافئ. ولم يكن هنالك أناس

وجوههم ذاوية قطعوا أملهم بالحياة كالقارصيين، فوق هذا فهم قارصيون، حتى إنني كنت أعرفهم. فهمت أن هذا هو البيت الذي سمعت إشاعات عن أنه تكية سرية للشيخ الكردي حضرة سعد الدين أفندي. سمعت من أصدقاء في الشرطة بأن مريدي الشيخ المتزايد عددهم يومياً نزلوا بناء على دعوته من القرية في الجبل إلى قارص، وجذبوا الفقراء المساكين العاطلين عن العمل، واليائسين من القارصيين إلى الذكر في تكيتهم، ولكنني لم أعر انتباهاً لهذا الأمر إذ أن الشرطة لن تسمح بفاعلية مناهضة للنظام الجمهوري كهذه. والآن أصعد درج هذا الشيخ وعيناي تدمعان. لقد حدث ما كنت أخاف منه على مدى سنوات، وما كنت أراه أيام إلحادي ضعف وتخلف: أعود إلى الإسلام. في الحقيقة أنني كنت أخاف من هؤلاء الشيوخ المتخلفين الذين ترسم كاريكاتوراتهم بلحى مدورة وجُبب، والآن وأنا أصعد سلالمهم بإرادتي أبكي مشهشهاً. كان الشيخ رجلاً جيداً. سألني عن سبب بكائي. طبعاً لن أقول بأنني أبكي لوقوعي بين مشايخ رجعيين ومريديهم. فوق هذا كنت خجلاً كثيراً من رائحة العرق التي تفوح من فمي كأنها تطلق من مدخنة. قلت بأنني أضعت مفتاحي. خطر ببالي بأن علاقة مفاتيحي سقطت حيث تمددت من أجل أن أموت. قفز المريدون ذوو القبعات الطولانية الذين بجواره للبحث عن مفاتيحي في الشارع حين كان هو يشير إلى المعنى المجازي للمفتاح، وأرسلهم للبحث عنه. حين بقينا وحدنا ابتسم لي بشكل جميل. ارتحت حين أدركتُ أن هذا هو الرجل المسن الطيب القلب الذي حلمت به قبل قليل.

قبلت يد هذا الرجل صاحب القداسة باندفاع قلبي لأنه بدا لي مثل وليّ. عمل شيئاً دهشت له كثيراً. هو أيضاً قبل يدي. انتشرت في داخلي طمأنينة لم أشعر بها منذ سنوات. فهمت بسرعة بأنني أستطيع أن أحكي له كل شيء، وعن حياتي كلها. وهو أيضاً سيدلني على طريق الله جل جلاله الذي كنت أصلاً أعرف وجوده بقلبي أيام الإلحاد. وهذا كان يسعدني بشكل مسبق. وجدوا مفتاحي. في تلك الليلة عدت إلى بيتي ونمت. صباحاً خجلت من هذه التجربة كلها. تذكرت ما جرى لي وكأنه خيال بعيد، ولم أرغب أساساً بتذكره. أقسمت لنفسي ألا أعود ثانية إلى التكية. كنت أخشى من لقاء المريدين الذين رأوني في التكية تلك الليلة في مكان ما، وهذا ما كان

يربكني. ولكن في ليلة أخرى في أثناء عودتي من خمارة (الوطن الأخضر) قادتني قدماي تلقائياً إلى هناك. وعلى الرغم من شعوري بالخيبة والندم طوال النهار، فقد استمر هذا في الليالي اللاحقة. كان الشيخ يجلسني في أقرب مكان إليه، ويستمع إلى همومي، ويرسخ محبة الله في قلبي. كنت أبكي دائماً وأشعر نتيجة هذا بالطمأنينة. ولكي أخفي ذكر التكية مثل سر في النهار، أحمل أكثر الصحف التي أعرفها علمانية وهي الجمهورية، وأحكي هنا وهناك مشتكياً من انتشار المتدينين أعداء الجمهورية، وعن أسباب عدم عقد جمعية الفكر الأتاتوركي اجتماعاتها.

استمرت هذه الحياة المزدوجة حتى سألتني إيبك: هل هناك امرأة أخرى؟ اعترفت بكل شيء باكياً. وهي أيضاً بكت وهي تقول: هل صرت دينياً؟ هل ستجعلني أربط رأسي؟ أقسمت لها بأنني لن أطلب منها طلباً كهذا. ولأن ما جرى لنا أشعرني بأنه شيء يشبه السقوط في الفقر، قلت لها بأن كل شيء في الدكان يسير على ما يرام، وأن المدافئ الكهربائية الجديدة (أرتشلك) تباع بشكل جيد على الرغم من انقطاع الكهرباء، لكي تشعر بالراحة. في الحقيقة كنت سعيداً لأنني أستطيع إقامة الصلاة في البيت. بدأت أمامي حياة جديدة.

وبعد صحوة قليلة، كتبت بإلهام مفاجئ قصيدة عظيمة. شرحت فيها خيبة أملي، وخجلي وحب الله المتصاعد في قلبي، وطمأنينتي، وأول صعود لي سلالم شيخي المباركة، والمعنى الحقيقي الإعجازي للمفتاح. لم يكن فيها أي نقص. أقسم أنها ليست أقل من شعر ذلك الشاعر الغربي الأحدث والأكثر عصرية الذي ترجمه فاخر. أرسلتها له فوراً مع رسالة. انتظرت ستة أشهر، لم تنتشر في مجلة (حبر أخيليوس) التي كان يصدرها في تلك الأثناء. في أثناء ذلك الانتظار كتبت ثلاثة قصائد أخرى. وقد أرسلتها خلال مدد زمنية يفصل بين الواحدة والأخرى شهران. انتظرت سنة على أحر من الجمرلم ينشر أي منها.

لم تكن أسباب تعاسة حياتي في تلك المرحلة عدم إنجابي ولداً حتى تلك الفترة، ولا مقاومة إيبك تلبية الضرورات الإسلامية، ولا استهانة أصدقائي القدامى العلمانيين واليساريين لأنني صرت دينياً. في الحقيقة إن

وجود كثير من أمثالي العائدين إلى الإسلام بانفعال يجعلهم لا يهتمون كثيراً بالأمر. أكثر ما هزني هو عدم نشر هذه القصائد التي أرسلتها إلى اسطنبول. في بداية كل شهر موعد صدور العدد كانت الأيام والساعات لا تعرف المرور، كنت كل شهر أخفف عن نفسي بالتفكير بأن إحدى القصائد ستنشر في هذا العدد. لا يمكن مقارنة الحقيقة التي في تلك القصائد إلا بالحقيقة التي في الشعر الغربي. وكنت أعتقد بأن فاخر فقط هو الذي يستطيع القيام بهذا في تركيا.

بدأت أبعاد الظلم الذي تعرضت إليه والغضب بتسميم السعادة التي منحني إياها الإسلام. صرت أفكر بفاخر وأنا في الجامع أقيم الصلاة، وأنا تعيس من جديد. قررت أن أفاتح شيخي بضيقي ولكنه لم يفهم الشعر الحديث و(رين تشار) والجملة المقسومة من منتصفها، و(ملارمي) و(جوبرت)، وصمت الشطر الفارغ.

هذا ما هز ثقتي بشيخي. وفي الحقيقة إنه لا يفعل سوى أنه يكرر إلى حوالي ثمانية أو عشر جمل مثل: حافظ على نظافة قلبك. إن شاء الله ستخرج من هذا التخبط بواسطة حب الله.. ولا أريد أن أغبط الرجل حقه، لم يكن رجلاً بسيطاً، هو صاحب معلومات بسيطة فقط. بدأ الشيطان الذي في داخلي والباقي من أيام إلحادي والذي نصفه عقلاني ونصفه ذرائعي ـ بدأ ـ بوخزي. أمثالي لا يمكن أن يجدوا الطمأنينة إلا في حزب سياسي يتعاضد فيه أصحاب القضايا المتشابهة من أجل قضية معينة. وهكذا فهمت بأن مجيئي إلى هنا، إلى الحزب، سيعطيني حياة معنوية أعمق وأكثر دلالة من تلك التي في التكية. التجربة الحزبية التي اكتسبتها في سنوات الماركسية أفادتني كثيراً في حزبي الذي يعطي أهمية للدين والمعنوية.

سأل كا: «مثل ماذا؟»

انقطع التيار الكهربائي، وحل صمت طويل.

قال مختار فيما بعد في جو محمل بالأسرار: «انقطعت الكهرباء»، وجلس كا في الظلام دون حراك، ودون أن يجيبه.

[٧]

الإسلام السياسي هو الاسم الذي أطلقه علينا الغربيون والعلمانيون

في مركز الحرب، وفي مديرية الأمن، ومرة أخرى في الشوارع

ثمة جانب يدفع إلى الخشية في جلوسهما في الظلام دون أن يتكلما بشيء ولكن كا يرجح هذه الخشية على تكلّف الحديث مع مختار كصديقين قديمين في النور. الشيء الوحيد الذي يربطه بمختار هو إيبك ويريد أن يتحدث معه حولها، وفي الوقت نفسه يخشى إظهار أنه عاشق لها. الشيء الآخر الذي يخاف منه هو أن يحكي مختار حكايات أخرى، وهكذا سيجده مخبولاً أكثر من خبله هذا الذي وجده عليه، وسيؤثر على الإعجاب الذي يريد أن يشعر به نحو إيبك لأنها بقيت متزوجة من رجل كهذا طوال تلك السنين.

لهذا السبب ارتاح كا حين فتح مختار في وسط أزمة إيجاد موضوع سيرةَ أصدقائه اليساريين القدامى، والمنفيين السياسيين إلى ألمانيا. وإثر سؤال مختار، أتى باسماً على ذكر (الملاطيلي طوفان) ذي الشعر الأجعد بأنه كان يكتب في زمن ما «مقالات حول العالم الثالث في المجالات»، بأنه جُن. وحكى له بأن آخر مرة رآه فيها كان في محطة القطار المركزية في شتوتغارت حاملاً عصا طويلة، وفي نهايتها خرقة رطبة، ويصفر وهو يمسح الأراضي راكضاً. لأن كالم يتضايق من كلامه سأله مختار عن محمود الذي كان يؤنبه باستمرار. قال كا بأنه انضم إلى جماعة خير الله أفندي الشرعية، وبالحرص الذي كان يشاجر فيه من أجل اليسار في يوم ما، يشاجر الآن في ألمانيا من أجل الجماعة والجامع الذي سيسيطر، وعن آخر، تذكره أيضاً كا باسماً وهو

سليمان المحبب، وقد عاش من مال وقف كنيسة فتحت أحضانها للمنفيين السياسيين من العالم الثالث في بافيرا، وقد أُسكنوا في مدينة (تراونشتاين) وتضايق إلى حد أنه أتى إلى تركيا على الرغم من معرفته بأنه سيدخل السجن. وتذكرا حكمت الذي قتل بشكل غريب وهو يعمل سائقاً في برلين، وفاضل المتزوج من أرملة ضابط نازي عجوز ويدير معها (بنسيون)، وطارق النظري الذي عمل في هامبورغ مع المافيا التركية وصار غنياً. أما صادق الذي كان يعمل في طيّ المجلات التي تخرج من المطبعة وكان مع مختار وكا وطانر وإيبك هو الآن رئيس عصابة تعمل بتهريب العمال إلى ألمانيا عبر جبال الألب. ويقال بأن (محترم) يعيش حياة تحت أرض سعيدة مع عائلته في إحدى محطات المترو الخاوية غير المستخدمة بسبب نظام المترو الخاص ببرلين والحرب الباردة والجدار. حين يتقدم القطار مسرعاً بين محطتي (كروزبرغ) و(الكساندر بلاتز) يقف الاشتراكيون الأتراك المتقاعدون الذين في القاطرات وقفة الحداد مثل توقف لصوص اسطنبول القدماء حين يصلون إلى (أرناؤوط كوي) ناظرين إلى التيار البحري تحية للقاتل المأجور الأسطوري الذي فقد مع سيارته وفي لحظة التحية حتى لو كان المنفيون السياسيون لا يعرفون بعضهم بعضاً يرمقون بأطراف أعينهم رفاقهم الذين يحيون بطل قضية أسطوري فقيد. رأى (كا) (روحي) الذي كان ينتقد رفاقه اليساريين لعدم اهتمامهم بعلم النفس، في برلين في قاطرة كهذه، وقد علم من عملية قياس تأثير الدعاية لنوع من (البيتنر) بالبسطرمة التي يفكر بتسويقها للعمال المهاجرين العاملين بالحد الأدنى من الأجور، أنها مناسبة. أسعد المنفيين السياسيين الذين عرفهم كا في ألمانيا (فرهات)، فقد انضم إلى حزب العمال الكروستاني، وبانفعال قومي يهاجم مكاتب الخطوط الجوية التركية، ويظهر في CNN وهو يرمي زجاجات المولوتوف إلى قنصليات تركيا، ويتعلم الكروية متخيلاً الشعر الذي سيكتبه في يوم ما. أما بعض الأسماء الأخرى التي سأل عنها مختار بتوق عجيب إما أن كا قد نسي أصحابها منذ زمن طويل، أو سمع أنهم انضموا إلى عصابات صغيرة، أو يعملون مع المخابرات السرية، أو دخلوا في أعمال ظلامية وأزيلوا عن الوجود مثل كثيرين أمثالهم وفقدوا، أو أنهم قتلوا بصمت وأُلْقُوا في قناة.

وفي ضوء لهب الكبريت الذي أشعله صديقه القديم رأى الأغراض بما يشبه الخيال في مركز المحافظة للحزب، وطاولة صغيرة قديمة، ومدفأة كاز نهض، ثم ذهب نحو النافذة، وتفرج على الثلج النادف بإعجاب.

كان الثلج يندف ببطء ندفاً كبيرة تشبع العيون. ثمة جانب قوي يمنح للإنسان ثقة وطمأنينة في بطء ندف الثلج وامتلائه، وبياضه المتوضح جيداً تحت ضوء أزرق لا يعرف من أي مكان من المدينة ينبعث، وفي هذا الجانب ثمة ظرافة تجعل كا مندهشاً. تذكر كا المساءات المثلجة في طفولته. وفي اسطنبول أيضاً كانت تنقطع الكهرباء نتيجة الثلج والعواصف، وكان يسمع في بيته همس تمنيات «الله يحمينا» التي كانت تسرع خفقان قلب كا الطفل، ويشعر بالسعادة لأن له عائلة. تفرج حزيناً على حصاني عربة تتقدم بصعوبة تحت الثلج: كان لا يستطيع أن يرى في الظلام سوى رأسي الحيوانين يهتزان إلى اليمين وإلى اليسار بتوتر.

«مختار، أما زلت حتى الآن تذهب إلى شيخك الأفندي؟»

قال مختار: «حضرة سعد الدين أفندي؟ أحياناً! لماذا؟»

«ماذا يمنحك؟»

«قليل من الصداقة، وقليل من الشفقة وإن كانت غير مستمرة. وهو عالم.»

ولكن كا أحس بأنه ثمة إحباط في صوت مختار وليس فرح. وقال معانداً من أجل الكلام: «أنا أعيش حياة وحدة شديدة في ألمانيا. في منتصف الليل حين أنظر إلى أسطح أبنية فرانكفورت أشعر أن هذه الحياة كلها وهذا العالم لم يوجد للاشيء. وأشعر في داخلي بمجموعة أصوات.»

«ماذا تشبه تلك الأصوات؟»

قال كا خجلاً: «لعلي أشعر بها لأنني تقدمت في السن، وأخاف من الموت. لو كنتُ كاتباً لكتبت عن نفسي: (الثلج يذكر كا بالله)، ولكن لا أدري إن كان هذا صحيحاً. صمت الثلج يقربني من الله.»

قال مختار متعجلاً، ومنجرفاً وراء أمل خاطئ: «بعد سنوات الإلحاد اليساري التي عشتها تبين لي أن المتدينين، واليمينيين، والمحافظين المسلمين

في هذا البلد جيدون جداً. يمكنك أن تجدهم. وأنا واثق بأنهم سيعجبونك جيداً.»

«هكذا إذن؟»

«أولاً إن رجال الدين هؤلاء كلهم متواضعون، مرنون، متفهمون. لا يستهينون بالشعب فوراً كأولئك الذين تحولوا إلى غربيين. وهم مشفقون، ومهمومون. إذا عرفوك أحبوك، ولا يطعنون بأحد. يعرف كا وبشكل مسبق بأن الإيمان بالله وحده في تركيا وحده ليس الفكرة الأقدس لدى الإنسان، ولقاء مع المبدع الأكبر، بل هو قبل كل شيء دخول إلى جماعة أو أوساط معينة، ولكن رغم هذا فإن حديث مختار عن فوائد الجماعة غير المتطرق لله وللإيمان الفردي أشعره بالإحباط. لهذا السبب شعر بأنه يستهين بمختار. ولكنه بينما كان ينظر من النافذة التي يسند جبينه إليها قال لمختار أمراً آخر تماماً بإحساس غريزي.

«مختار! يبدو لي بأنك ستستهين بي وتشعر بالإحباط لو أنني بدأت أؤمن بالله.»

«لماذا؟»

«لأن الفرد المؤمن بالله وحده صار غريباً، ووحيداً ويخيفك. إنك تجد أن رجلاً غير مؤمن في جماعة موثوق أكثر من رجل مؤمن وحده. بالنسبة إليك فإن الرجل الوحيد أسوأ، وأبأس من رجل غير مؤمن.»

قال مختار: «أنا أشعر بوحدة شديدة»

أشفق كا وتألم عليه لأنه استطاع أن يقول هذه العبارة بكل هذا الصدق والإقناع. والآن يشعر بأن ظلمة الغرفة تخلق نوعاً من الاعتياد بالنسبة إليه، وإلى مختار أيضاً. «لن أكون متديّناً، ولكن هل تعرف السبب الذي يخيفك من أن أكون متديناً أقيم في اليوم خمس صلوات؟ أنت لا تتمسك بالدين والجماعة إلا إذا أخذوا أمثالي من العلمانيين والملحدين أمور الدولة والتجارة على عاتقهم. لا يمكن للإنسان أن يتعبد براحة ضمير في هذا البلد دون الثقة باجتهاد ملحد في أعمال خارج الدين تقود التجارة مع الغرب والسياسة على أكمل وجه.»

«ولكنك لست رجلَ دولة وتجارة خارج الدين. يمكنني أن آخذك إلى حضرة الأفندي الشيخ حين تشاء.»

قال كا: «لقد أتت شرطتنا غالباً.»

نظر الإثنان من فاصل الزجاج المتجلد في أكثر من مكان بصمت إلى مدنيين نزلا من سيارة الشرطة ببطء تحت الثلج.

قال مختار: «سأطلبُ منك شيئاً الآن. بعد قليل سيأتي هؤلاء الرجال إلى هنا، وسيأخذاننا إلى مركز الشرطة. لا يمكن أن يوقفوك. سيأخذون إفادتك ويتركونك. عد إلى فندقك. مساء سيدعوك صاحب الفندق السيد طورغوت إلى الطعام. عليك أن تذهب. وهنالك طبعاً ستكون ابنته الفضولية. حينئذ أريدك أن تقول هذا. هل تسمعني؟ قل له إنني أريد أن أتزوج إيبك مجدداً! كان طلبي منها تغطية رأسها، وارتداء ألبسة تناسب القواعد الإسلامية طلب خاطئ. وقل بأنني لن أعود لتصرفات زوج ريفي غيور ذي رؤية ضيقة. وإنني نادم وخجل من الضغوط التي مارستها عليها في أثناء زواجنا!»

«ألم تقل هذا لإيبك من قبل؟»

«قلته، ولكن لم أجد فائدة. لعلها لا تصدقني لأنني رئيس فرع حزب الرفاه في المحافظة. أنت رجل مختلف لأنك قادم من اسطنبول وحتى من ألمانيا. إذا قلتَ هذا ستصدق.»

«كون زوجتك دون غطاء رأس ألا يضعك في موقف سياسي حرج كونك رئيس فرع حزب الرفاه في المحافظة؟»

قال مختار: «بعد أربعة أيام سأنجح في الانتخابات بإذن الله وأصير رئيس بلدية، ولكن الأهم من هذا شرحك أنت عن ندمي لايبك. لعلني سأكون حتى تلك الساعة رهن التوقيف. هل تعمل هذا من أجلي يا أخي؟»

للحظة تردد كا، بعد ذلك قال: «أعمله»

عانق مختار كا، وقبله من خديه. شعر كا بإحساس ما بين الشفقة والقرف، واستهان بنفسه لأنه ليس فطرياً وصريحاً مثل مختار.

قال مختار: «أرجو أن تعطي بيدك قصيدتي هذه لفاخر في اسطنبول. إنها القصيدة التي ذكرتها قبل قليل، عنوانها: (درج)».

بينما كان كا يضع القصيدة في جيبه دخل إلى الغرفة ثلاثة رجال مدنيين. في يدي اثنين منهما مصابيح يدوية ضخمة. كانوا مستعدين وتواقين، ويفهم من حالتهم أنهم يعرفون جيداً ما يفعله كا ومختار هنا. فهم كا أنهم من تشكيلات المخابرات القومية. رغم هذا سألوا كا عن عمله هنا وهم ينظرون إلى هويته. قال كا لهم إنه جاء من اسطنبول لكتابة مقالة لجريدة الجمهورية عن الانتخابات البلدية، والنساء المنتحرات.

قال أحد العناصر: «إنهن ينتحرن أصلاً من أجل أن تكتبوا لجرائد اسطنبول.»

قال كا معانداً: «لا، ليس من أجل هذا.»

«لماذا إذن؟»

«إنهن ينتحرن بسبب التعاسة.»

«نحن أيضاً تعساء ولكننا لا ننتحر.»

من جهة أخرى يفتحون خزائن مركز المحافظة للحرب، يخرجون الأدراج ويفرغونها على الطاولة، ويبحثون في الملفات في ضوء المصابيح اليدوية. قلبوا طاولة مختار من أجل أن ينظروا تحتها عما إذا كان هنالك سلاح.

جروا إحدى الخزانات إلى الأمام وفتشوا خلفها. تصرفوا مع كا بشكل أفضل بكثير من تصرفهم مع مختار.

«حين رأيت أن المدير قد أطلق عليه النار لماذا أتيت إلى هنا ولم تذهب إلى الشرطة؟»

«لدي موعد هنا.»

«من أجل ماذا؟»

قال مختار بصوت معتذر: «نحن صديقان قديمان من أيام الجامعة. زوجتي وصاحبة فندق (ثلج بلاس) الذي يقيم فيه. قبل الاعتداء بقليل اتصلوا بي إلى هنا، إلى مركز الحزب وحددوا موعداً. ويمكنك التأكد من هذا لأن المخابرات تتنصت على هواتف حزبنا.»

«من أين تعرفون أننا نتنصت على هواتفكم؟»

قال مختار دون ارتباك: «أنا أسف. أنا لا أعرف، ولكنني أتوقع. لعلني مخطئ.»

كان كا يشعر بأن موقف مختار المنكسر إزاء عدوانية الشرطة وإهاناتهم، ودفعهم ووخزهم واعتياده على قسوة الدولة كأنها أمر طبيعي مثل انقطاع التيار الكهربائي وكون الطرقات طينية بأنه نوع من برودة الأعصاب والانسحاق وشعر باحترام نحوه لأنه لا يتمتع بهذه المرونة والمواهب.

وبعد تفتيش طويل لمركز الحزب في المحافظة، وقلب الملفات رأساً على عقب، وربط بعضها بخيوط وملء أكياس بها، وإملاء محضر تفتيش، وبينما كانا يجلسان في المقعد الخلفي لسيارة الشرطة صامتين مثل تلميذين مذنبين رأى انسحاق مختار ذاته في يديه البيضاوين الموضوعتين بهدوء على ركبتيه مثل الكلاب المسنة السمينة. وبينما كانت سيارة الشرطة تتقدم في شوارع قارص المثلجة والمظلمة تفرجا حزينين على الأضواء البرتقالية الشاحبة المتسربة من نوافذ البيوت الأرمنية المفتوحة ستائرها نصف فتحة، والمسنين الماشين ببطء على الأرصفة المتجلدة وحاملين بأيديهم أكياساً بلاستيكية، وواجهات البيوت القديمة الفارغة الوحيدة بقدر حياتهما. عُلّقت ملصقات عرض المساء على خشبة إعلانات مسرح الشعب. مازال العمال الذين يمدون كابل النقل عبر الشوارع يعملون. ثمة جو انتظار عصبي في مركز انطلاق الحافلات بسبب انقطاع الطرق.

تقدمت سيارة الشرطة ببطء تحت الثلج الذي تبدو ندفه كبيرة كما في الحكايات والتي تبدو بعين كا شبيهة بندف الثلج في لعب الأطفال المليئة بالماء والتي يطلقون عليها اسم «عاصفة الثلج». طوال هذه السفرة القصيرة جداً والمستغرقة سبع أو ثماني ثوان بسبب قيادة السائق البطيئة والحذرة تقابلت عينا كا مع عيني مختار الجالس بجانبه مرة واحدة وفهم من نظرات صديقه القديم الحزينة والداعية إلى الهدوء بأنهم الآن في مديرية الأمن سيضربون مختاراً، أما هو فلن يمسونه شاعراً بالخجل والراحة الداخلية.

وشعر الصديق من النظرات التي لن ينساها حتى بعد سنوات طويلة بأن كا يعتبر أن مختاراً يستحق الضرب الذي سيضربه بعد قليل. على الرغم من إيمان مختار المطلق بأنه سينجح في الانتخابات البلدية التي ستجري بعد أربعة

أيام، ولكن في عينيه توكلاً ونظرة آسفة مسبقاً لما سيجري، وفهم كا بأن مختاراً يفكر على هذا النحو: «لأنني مازلت مصّراً على العيش في هذه الزاوية من العالم، وحتى لأنني انجرفت وراء الحرص على السلطة فإنني أستحق الضرب الذي سأضربه بعد قليل والذي سأحاول في أثنائه أن أتغاضى عن إهانة كرامتي، وأعرف هذا لذلك أنا أرى نفسي أقل منك. وأنت أيضاً لطفاً لا تنظر إلى عيني صافعاً لي بخجلي.»

عندما توقفت الحافلة الصغيرة في باحة مديرية الأمن المغطاة بالثلج لم يفصلوا مختاراً عن كا، ولكنهم تصرفوا معهما بشكل مختلف كثيراً. لقد عاملوا كا باعتباره صحفياً شهيراً مؤثراً قادماً من اسطنبول إذا كتب ضدهم يمكن يحصل لهم بعض الهموم، وشاهداً جاهزاً للتعاون معهم. أما في معاملتهم مع مختار فقد كان هنالك جو مهين كأنهم يقولون له: «هذا أنت من جديد!» كما ظهروا كأنهم يلتفتون إلى كا قائلين: «ما عمل واحد مثلكم مع شخص كهذا؟». اعتبر كا ببراءة أن له جزءاً من مسؤولية في التصرفات المهينة لمختار واعتباره دون عقل (أتعتقد أنهم سيسلمونك هذه الدولة؟) ومرتبك (عليك أن تتبنى حياتك أولاً). ولكنه فيما بعد بكثير فهم أن مايوحى به أمر مختلف جداً.

أخذوا كا إلى غرفة مجاورة فترة ليتعرف على المعتدي الضئيل الذي أطلق النار على مدير المعهد، وعرضوا عليه حوالي مائة صورة بالأسود والأبيض مجموعة من الأرشيف. كان يوجد هنا صور كل شخص أوقفته قوى الأمن ولو مرة واحدة من قارص وجوارها من المنتمين للإسلام السياسي. أكثرهم شباب أكراد قرويون، ولكن بينهم باعة وخطباء مساجد وحتى طلاب جامعات ومعلمين وأتراكاً سنّة. عرف كا من صور الشباب الناظرين إلى آلة تصوير الأمن غاضبين ومهمومين وجهي شابين رآهما مصادفة في هذا اليوم الذي قضاه في قارص. ولكن لم يكن من الممكن أن يتعرف على المعتدي الذي يعتقد أنه أكبر سناً وأضأل حجماً من هذه الصور بالأسود والأبيض.

حين عاد إلى الغرفة الثانية رأى مختاراً جالساً على الكرسي دون المسند نفسه وقد برزت انحناءة ظهره، وأن أنفه يدمي والدم نفر إلى إحدى عينيه. بعد أن عمل مختار حركة أو اثنتين خجلاً أخفى وجهه جيداً بمنديله. وفي

الصمت تخيل كا بأن مختاراً تطهّر عبر هذا الضرب من العذاب والإحساس بالذنب مما تعانيه بلده من فقر وخبل.

قبل يومين من تلقي كا الخبر الذي سيكون أكثر ما يتعسه في حياته كلها ـ في هذه المرة سقط في موقع مختار ـ سيتذكر هذا الخيال حتى ولو كان خبلاً.

بعد دقيقة من التقاء نظره بنظر مختار أخذوا كا إلى الغرفة المجاورة من جديد لأخذ إفادته. في أثناء استخدام الشرطي الشاب للآلة الكاتبة ماركة (ريمنغتن) شقيقة تلك التي كان يضرب عليها أبوه المحامي في الأمسيات التي كان يجلب شغله فيها إلى البيت عندما كان صغيراً، وبينما كان يشرح كا كيف أُطلقت النار على مدير معهد المعلمين كان يفكر بأنهم أَرَوه مختاراً لكي يخيفوه.

حين أطلقوا سراحه بعد قليل لم يغب وجه مختار المدمى عن عينيه مدة طويلة. قديماً لم يكن من السهل أن تضرب شرطة الأماكن الريفية المحافظين. ولكن مختاراً ليس من حزب يميني وسط مثل حزب الوطن الأم، بل من فكر يحاول أن يكون إسلامياً متطرفاً. وقد شعر أيضاً بأن لشخصية مختار أيضاً علاقة بالوضع. سار مطولاً تحت الثلج. جلس على جدار في منطقة تحت شارع أوردو. في ضوء مصباح الشارع الشاحب تفرج على الأولاد المتزلجين في الطريق الصاعد، ودخن سيجارة. كان متعباً من العنف والحرمان الذي شهده طوال النهار، ولكن أملَ البدء بحياة جديدة جداً بحب إيبك يتململ في داخله.

بعد قليل، بينما كان يسير تحت الثلج مجدداً، وجد نفسه على الرصيف مقابل محل الحياة الجديدة للمعجنات. سيارة الشرطة الواقفة أمام واجهة المحل المكسور زجاجها ينطفئ ويشعل ضوؤها الكحلي منيراً وبشكل ممتع الشرطة الذين في محل المعجنات، وازدحام الأولاد الذين يتفرجون، والثلج النادف فوق قارص كلها بصبر إلهي. كا أيضاً دخل وسط الزحام، ورأى أن الشرطة في محل المعجنات ما زالت تسأل النادل العجوز عن أمور ما.

أحدهم لكز كتف كا بحركة متوجسة: «حضرتكم الشاعر كا، أليس كذلك؟»

كان شاباً ذا وجه طفولي طيب، وعينين خضراوين واسعتين «اسمي

نجيب. أعرف أنكم أتيتم إلى قارص من أجل الكتابة لجريدة الجمهورية حول انتخابات قارص والفتيات المنتحرات، وقد التقيتم مع عدد من الجماعات ولكن ثمة شخص مهم في قارص يجب أن تلتقوه.»

«من؟»

«هل تنسحب جانباً؟»

أحب كا تلك الحالة المحملة بالأسرار التي يتلبسها الشاب. انسحبا إلى المقصف الحديث «المشهور عالمياً بشراباته وسحلبه»

«غير مرخص لي بالبوح باسم الشخص الذي يجب أن تلتقوه إلا إذا قبلتم لقاءه.»

«كيف أقبل لقاء شخص قبل أن أعرف من هو؟»

قال نجيب: «الأمر هكذا، لأن ذلك الشخص متخفٍ. أنا لا أستطيع البوح لكم عن سبب تخفيه وممن قبل قبولكم لقاءه.»

قال كا: «حسنٌ، أنا أقبل لقاءه» وأضاف متلبساً شخصية خارجة من الروايات المصورة: «أتمنى ألا يكون هذا فخاً.»

قال نجيب وبشخصية كأنها خارجة من الروايات المصورة أيضاً: «إذا لم تثق بالناس فلن تستطيع عمل شيء.»

قال كا: «أنا أثق بكم. من هو الشخص الذي يجب أن ألتقيه؟»

«ستلتقيه بعد أن تعرف اسمه، ولكنك ستخبئ مكان تخفيه مثل سر. فكر مجدداً الآن. هل أقول لك من هو؟»

قال كا: «نعم، وأنتم أيضاً ثقوا بي.»

قال نجيب منفعلاً وكأنه يذكر اسم بطل أسطوري: «اسم ذلك الشخص (كحلي)(*)» وحين لم يتلق أية ردة فعل من كا شعر بخيبة أمل «ألم تسمعوا به وأنتم في ألمانيا؟ إنه شهير جداً في تركيا.»

قال كا بتأثير المهدئ: «أعرف. أنا جاهز للقائه.»

(*) من الشائع في تركيا استخدام الأسماء التركية بالألوان، وهنالك شخص في الواقع اسمه أخضر يعمل عمليات مسلحة وتفجيرات لصالح الدولة. (المترجم).

قال نجيب: «ولكنني لا أعرف أين هو. حتى إنني لم أره في حياتي كلها.»

للحظة تبادلا النظر متبادلين الشك والابتسامة.

قال نجيب: «شخص آخر سيأخذك إلى (كحلي). المهمة الموكلة إلي هي أن أقابلك بالشخص الذي سيأخذك إليه.»

سارا معاً من شارع (كاظم بيك الصغير) منحدرين تحت أعلام الانتخابات الصغيرة، وبين الملصقات. حركات الشاب المتوترة والطفلية، وجذعه النحيل ذكرت كا بأمور من شبابه، وأشعرته بقرب منه. فجأة قبض على نفسه متلبساً برؤية العالم بعيني الشاب.

سأل نجيب: «ماذا سمعتم عن (كحلي) في ألمانيا؟»

قال كا: «قرأت في الصحف التركية أنه مقاتل من الإسلام السياسي. وقرأتُ أموراً أخرى سيئة عنه».

قاطع كلامه نجيب متسرعاً: «الإسلام السياسي اسم أطلقه الإعلام الغربي والعلماني علينا نحن المسلمين الجاهزين لخوض المعارك في سبيل ديننا. أنتم علمانيون، ولكن لطفاً لا تُخدعوا بالكذب الذي نشره عنه الإعلام العلماني. هو لم يقتل أحداً حتى في البوسنة حيث ذهب للدفاع عن أخوته المسلمين، وحتى في غروزني حيث عُوِّق بانفجار قنبلة روسية.»

أُوقف كا في إحدى الأطراف: «أترى هذا الدكان في الطرف الآخر؟ مكتبة التبليغ... إنها لجماعة الوحدة، ولكن إسلاميي قارص كلهم يلتقون فيها. الشرطة تعلم هذا كالجميع. لها جواسيس بين طاولات عرض الكتب. أنا طالب في ثانوية الأئمة والخطباء. دخولنا إلى هناك ممنوع، نعاقب عقوبة انضباط لو دخلنا، ولكنني سأرسل خبراً إلى الداخل. بعد ثلاث دقائق سيخرج شاب طويل القامة، مُلتح، يضع على رأسه طربوشاً أحمر مطاولاً. اتبعه. إذا لم يكن خلفه شرطة مدَينة سيقترب منك، ويأخذك إلى حيث يجب. هل فهمت؟ ليكن الله بعونك.»

في لحظة غاب نجيب وسط ندف الثلج الكثيف. شعر كا في داخله بمحبة نحوه.

[٨]

المنتحر كافر

حكاية (كحلي) ورستم

بينما كان كا ينتظر مقابل مكتبة التبليغ تسرّع نَدْفُ الثلج. لحظة أن قرر كا العودة إلى فندقه لضجره من نفض الثلج المتراكم على رأسه وجسمه، ومن الانتظار انتبه إلى الشاب الطويل الملتحي يمشي على الرصيف المقابل تحت ضوء مصباح الشارع الشاحب. سار وضربات قلبه تتسرع حين رأى أن الطربوش الطويل الأحمر على رأسه تحول بسبب الثلج إلى أبيض.

سارا على طول شارع كاظم قرة بكر الذي وَعَدَ مرشحُ رئاسة البلدية من حزب الوطن الأم بتخصيصه للمشاة فقط مقلداً المرشحين الاسطنبوليين، انعطفا نحو شارع (فائق بيك) وبعد زقاقين انحرفا يميناً، ووصلا إلى ساحة المحطة. ضاع شكل تمثال كاظم قرة بكر القائم وسط الساحة تحت الثلج متحولاً إلى شكل من أشكال المثلجات الكبيرة. حين رأى كا أن الشاب الملتحي قد دخل إلى بناء المحطة هرع خلفه راكضاً. لم يكن ثمة أحد في قاعات الانتظار. شعر بأن الشاب قد صعد إلى الرصيف وتبعه. وفي المكان الذي انتهى عنده الرصيف بدا له الشاب وسط الظلام أمامه، فسار متوجساً على طول السكة الحديدية. خطر بباله أنه لو أطلق عليه النار هنا فوراً فإن أحداً لن يجد جسده قبل الربيع. وصل إلى مواجهة الشاب الملتحي المعتمر الطربوش.

قال الشاب: «لايوجد أحد خلفنا. ومازال بإمكانك التراجع. أما إذا أردت أن تأتي معي فعليك أن تمسك لسانك عما ستراه بعد الآن. لا يمكنك

مطلقاً أن تبوح ولا بأي شكل بكيفية قدومك إلى هنا. الموت نهاية الخونة.»

ولكن كلمته الأخيرة هذه لم تُخِفْ كا، لأن له صوتاً رفيعاً إلى حد يمكن القول بأنه مضحك. سار بمحاذاة السكة الحديد، وعبر من جانب صومعة الحبوب، وبعد أن دخلا إلى زقاق (ياهنيلر) المجاور مباشرة لمكان سكن العسكريين، أشار الشاب صاحب الصوت الرفيع إلى البناء الذي سيدخله كا، وشرح له أي جرس سيقرع. وقال: «لا تقلل احترامك أمام المعلم، ولا تقاطعه، وعندما ينتهي عملك اخرج دون مماطلة.»

وهكذا علم كا بأن لكحلي اسماً مستعاراً آخر بين المعجبين به وهو: «المعلم». وفي الحقيقة فإن كا لا يعلم عن (كحلي) إلا القليل جداً غير كونه من الإسلام السياسي، وأنه مشهور. وكان كا قد قرأ قبل سنوات طويلة في الجرائد التركية التي وصلت إليه في ألمانيا بأنه مرتبط بجريمة قتل. ثمة كثيرون من تيار الإسلام السياسي قتلوا أشخاصاً، ولكن أحداً منهم ليس شهيراً. ما جعل كحلي شهيراً هو الادعاء بأنه قتل مذيعاً سفيهاً ذا صوت أنثوي يقدم برنامج مسابقات يمنح جوائز نقدية في قناة تلفزيونية صغيرة، ويرتدي ثياباً براقة لماعة ملونة، ويطرح ممازحات فضائحية، وعادية، ويهين بشكل دائم «الجهلة». المذيع الساخر المدعو (غونر بنر) والمغطى وجهه بالشامات، وفي زلة لسان في أثناء أحد برامج المسابقات المبثوث على الهواء مباشرة، وبينما كان يسخر من متسابق فقير، خجول نطق بعبارة لا تليق بحضرة الرسول، وحينما بدأ يُنسى غضب بعض المتفرجين المتدينين الناعسين أرسل كحلي إلى صحف اسطنبول رسائل، وهدد بأنه سيقتله إذا لم يعلن التوبة ويعتذر في البرنامج نفسه. لعل صحف اسطنبول المعتادة على تهديدات من هذا النوع لن تهتم بهذه الرسالة، ولكن قناة تلفزيونية صغيرة تنهج سياسة علمانية استفزازية أظهرت (كحلياً) في أحد برامجها من أجل تقديم مقولة إن الإسلاميين السياسيين حاملو الأسلحة قد وصلوا إلى حد من السعر، وأعاد هو تهديده مبالغاً به. وإثر نجاح هذا البرنامج، بدأ يرضى بالظهور في قنوات تلفزيونية أخرى بدور «الإسلامي المسعور حامل الساطور». وفي هذه الأثناء التي بدأت فيها شهرته تتصاعد، أعلنت النيابة العامة أنها تبحث عنه بتهمة «التهديد بالقتل»، وبدا (كحلي) بالتخفي. أما (غونر بنر) الذي رأى اهتمام الرأي العام

بالقضية، صار كل يوم ينطُّ بشكل غير متوقع متحدياً بقوله: «بأنه لا يخاف من المنحرفين الرجعيين أعداء الجمهورية وأتاتورك.» وبعد يوم وجد في غرفة الفندق الفخم الذي يقيم فيه في إزمير التي قصدها من أجل برنامجه ميتاً خنقاً بربطة عنقه ذات رسم كرة البحر التي يضعها من أجل البرنامج. وعلى الرغم من إثبات (كحلي) بأنه في اليوم نفسه والساعة نفسها كان يقدم محاضرة في مدينة مانيسا دعماً لفتيات الإشاربات، فقد هرب من الإعلام الذي نشر القضية وشهره على صعيد تركيا كلها، واستمر بالتخفي. وقد غاب (كحلي) عن الأنظار مدة طويلة لأن قسماً من الصحافة الإسلامية أيضاً هاجمته بما لا يقل عن الإعلام العلماني مقدمة الأسباب أنه أظهر الإسلام السياسي مدمى الأيدي، وبالتالي فهو ألعوبة الإعلام العلماني، ويسرُّ من الشهرة والإعلام بما لا يليق بإسلامي، وهو عميل للمخابرات المركزية الأمريكية. في هذه الأثناء نشرت في الأوساط الإسلامية بأنه قاتل ببطولة ضد الصرب في البوسنة، وضد الروس في غروزني، ولكن ثمة قائلين بأن هذا الكلام كذب أيضاً.

التواقون لمعرفة ما يفكر فيه (كحلي) حول هذه المواضيع، يمكنهم مطالعة الصفحة الخامسة والمقطع الذي يبدأ بكلمة «أريد» من الفصل الخامس والثلاثين المعنون «أنا لست عميل أحد»، والعنوان الفرعي: «كا وكحلي في الزنزانة» من كتابنا هذا إذ يحكي باختصار قصة حياته، ولكنني لست واثقاً من صدق كل ما قاله بطلنا هناك. كثير من الكذب المطلق حوله، ووصول بعض الشائعات التي تتناوله إلى نوع من الأسطورة يجد أرضية خصبة في جو كحلي السري. كما أنه يمكن اعتبار أن الصمت الذي لفه حول نفسه جاء نتيجة الانتقاد الشديد الذي وجهته الأوساط الإسلامية بعد شهرته الأولى، وأنه اعتبر الانتقادات الموجهة له حول عدم ظهور المسلم كثيراً في الإعلام العلماني الصهيوني البورجوازي، صحية، ولكننا وكما سنرى في حكايتنا بأن (كحلياً) في الحقيقة يحب الحديث للإعلام.

أما الإشاعات حول مجيئه إلى قارص لا تتوافق بغالبيتها كما يحدث في الإشاعات التي تنتشر فجأة في الأمكنة الصغيرة. يقول البعض بأن كحلياً جاء إلى قارص من أجل حماية قاعدة منظمة كردية إسلامية انهارت قيادتها في ديار بكر نتيجة مداهمات الدولة، وانكشاف بعض أسرارها، ولكن في الحقيقة ليس

للمنظمة المذكورة في قارص سوى بضعة مجاذيب. ويشاع بين العناصر المسالمة وصاحبة النوايا الطيبة في كلا طرفي القوميين الماركسيين الأكراد والإسلاميين الأكراد بأن كحلياً جاء لتهدئة صراع بدأ بينهما وكبر في المحافظات الشرقية. بدأت الاحتكاكات بين الإسلاميين الأكراد والقوميين الماركسيين الأكراد بالملاسنة وتبادل الشتائم والضرب بالأيدي ومشاجرات الأزقّة، وتحولت في كثير من المدن إلى تبادل الطعن بالسكاكين والضرب بالساطورات، أما في الأشهر الأخيرة فقد بدؤوا بإطلاق النار قاتلين بعضهم بعضاً، وتحقيق كل طرف مع الآخر باستخدام التعذيب (كل طرف يستخدم أساليب مثل تقطير النايلون المذاب وعصر الخصيتين) والخنق. كما أن كثيرين ممن يقولون عن هذا الصراع بأنه «مفيد للدولة» يدعون بأن كحلياً يتجول على البلدات لاستطلاع رأي القاعدة لتشكيل هيئة وساطة، ولكن أعداءه يعتبرونه غير مناسب لهذه المهمة الصعبة، والمهمة بسبب النقاط المظلمة التي في حياته وعمره الشاب. وقد نشر الإسلاميون الشباب بأنه جاء إلى قارص من أجل تنظيف (فارس الديسك)(*) والمقدم «اللماع» المرتدي ألبسة لماعة والسافر بشكل موارب من الإسلام، ويقدم ممازحات غير مؤدبة حوله في تلفزيون قارص سرهات المحلي في قارص، لهذا السبب فإن مقدم البرامج الآذري الأصل والمدعو (حاقان أوغوظ) صار يذكر كل فترة الله وأوقات الصلاة. وهنالك من يتخيل أن كحلياً يتحرك في تركيا باعتباره أداة الارتباط في تركيا لشبكة إرهاب إسلامية دولية. ووصل الأمر إلى اعتبار كحلياً خطط لوحدات أمنية واستخبارية لشبكة مدعوماً سعودياً من أجل قتل بعض العاهرات من الآلاف اللواتي يأتين من دول الاتحاد السوفييتي السابق إلى تركيا من أجل تيئيسهن. كما أن كحلياً لم ينفِ شائعات تقول إنه جاء إلى قارص من أجل المنتحرات أو من أجل ذوات الإشاربات، أو من أجل الانتخابات. وعدم ظهوره في أي مكان، وعدم إجابته عن أية مقولة من هذه المقولات المشيّعة حوله أو تكذيبها تمنح جواً محملاً بالأسرار يشيع السرور بين أوساط طلاب

(*) اسم جديد لمهنة منتشرة في الإذاعات والتلفزات، وتعني المذيع الذي يرافق الأغنيات المذاعة.

مدارس الأئمة والخطباء الشباب. إنه لا يظهر في أزقة قارص ليس لأنه مختبئ عن الشرطة بل لكي لا يخرب هذا الجو الأسطوري، وهذا ما يخلق شكاً في موضوع وجوده في المدينة أو عدم وجوده.

قرع كا الجرس الذي دله عليه ذو الطربوش الأحمر المطاول. فهم كا بسرعة أن الرجل القصير الذي فتح له باب شقة البناء، واستقبله هو الرجل الذي أطلق الرصاص على مدير معهد المعلمين في محل الحياة الجديدة للمعجنات قبل ساعة ونصف. فور رؤيته الرجل بدأ قلبه يخفق.

قال الرجل القصير رافعاً يديه في الهواء، مظهراً كفيه: «عدم المؤاخذة. في السنتين الأخيرتين حاولوا ثلاث مرات قتل معلمنا. سأفتشكم.»

وباعتياد مستمر من سنوات الجامعة فتح كا ذراعيه نحو جانبيه للتفتيش. بينما كانت يدا الرجل الضئيل الصغيرتان تتجولان فوق القميص وعلى الظهر باحثتين بدقة عن سلاح، خشي كا من الانتباه إلى سرعة خفقان قلبه. بعد ذلك مباشرة انتظمت دقات قلب كا، وشعر بأنه أخطأ. لا، الرجل هذا الذي رآه لم يكن أبداً ذلك الرجل الذي أطلق النار على مدير معهد المعلمين. لا يبدو هذا الرجل المحبب المتوسط العمر المذكر (بإدوارد ج. روبنسون) يمتلك التصميم الذي يمكنه من إطلاق النار على أحدهم، ولا السلامة الجسدية.

سمع كا شهشهات بكاء طفل وصوت أم حلو تتحدث معه.

قال: «هل أخلع حذائي؟» ودون انتظار الجواب بدأ يخلع حذائه.

وفي الوقت نفسه قال صوت: «نحن هنا ضيوف. لا نريد أن نكون حملاً على صاحب البيت.»

عندئذ انتبه كا إلى وجود شخص آخر في بهو البيت الصغير. على الرغم من فهمه بأن هذا الرجل هو كحلي، ولكن جانباً آخر منه بقي شاكاً لأنه حضر نفسه لمشهد لقاء أكثر تأثيراً. دخل كحلي إلى غرفة فقيرة فيها تلفزيون أسود وأبيض كان مفتوحاً مسبقاً. هنالك طفل صغير أدخل يده حتى الرسغ في فمه، أمه التي كانت تغيّر له وتحكي معه كلمات كردية حلوة، وتتابع بجدية، وامتنان كحلياً أولاً وكا القادم من خلفه ثانياً بطرف عينيها. وكما في البيوت الروسية القديمة لم يكن ثمة ممر انتقلا إلى غرفة ثانية.

كان عقل كا متعلقاً بكحلي. رأى سريراً يصل ترتيبه إلى عناية جندي،

ومنامة مخططة بالأزرق مطوية بعناية وموضوعة إلى جانب المخدة، ومنفضة سجائر كتب عليها (ارسين للكهرباء)، وعلى الجدار تقويماً ذا مناظر من البندقية، ونافذة عريضة مفتوحة المصراعين تطل على أضواء مدينة قارص المهمومة تحت الثلج.

زرقة عينيه تقترب من لون كحلي لا يمكن رؤيته في عيني تركي. أسمر، دون لحية، شاب أكثر مما كان يتوقع كا، بشرته بيضاء شاحبة وأنفه مدبب بحيث يثير الدهشة. تبدو وسامته أكثر من عادية. له جاذبية نابعة من ثقته بنفسه. ليس في حالته أو موقفه أو مظهره جانب يشبه الشكل الذي رسمته له الصحافة العلمانية: في يده مسبحة، وفي يده الأخرى سلاح، ملتحٍ، ريفي، شريعي عدواني.

«لا تخلعوا معطفكم قبل أن تدفئ المدفأة الغرفة.. إنه معطف جميل. من أين اشتريتموه؟»

«من فرانكفورت»

قال كحلي مركزاً نظره إلى السقف، وغائصاً في الأفكار: «فرانكفورت... فرانكفورت.»

قال بأنه «في زمن ما» حكم وفق المادة ١٦٣ من الدستور لأنه ينشر فكر تأسيس نظام حكم يعتمد على الدين، لهذا السبب هرب إلى ألمانيا.

خيّم صمت. شعر كا بضرورة الحديث عن أمور ما، وقد ارتبك لأنه لم يخطر بباله ما يقوله. شعر بان كحلياً تكلم من أجل تهدئته.

«حينما كنت في ألمانيا، وفي أية مدينة أزور فيها الجمعيات الإسلامية: فرانكفورت، ما بين دوم والمحطة في كولن، أو في أحياء هامبورغ الغنية، وأينما سرت، بعد فترة أفصل في عقلي أي ألماني ألتقيه في الطريق، وأركز تفكيري عليه. ليس المهم ما أفكر به أنا حوله، أتخيل ما يمكن أن يفكر به حولي وأعمل على رؤية كل شيء يتعلق بي: هندامي وألبستي، وحركاتي، ومشيتي، وتاريخي، ومن أين أنا قادم وإلى أين ذاهب، ومن أكون بعينيه. إنه شعور سيّيء جداً، ولكنني اعتدت عليه، لم أكن أشعر بالإهانة: كنت أفهم كيف يهان أخوتي... في أكثر الأحيان الأوربي لا يهين. نحن ننظر إليه فنهين أنفسنا. الهجرة لا تتم من أجل الهرب من الظالم الذي في البيت فقط، بل تتم

من أجل الوصول إلى أعماق أرواحنا. وفي أحد الأيام لا بد أن يعود من أجل تحرير الذين لم يستطيعوا ترك بلدهم لعدم توفر الجرأة لديهم، والذين يشتركون بالجريمة. أنت لماذا أتيت؟»

كان كا ساكتاً. كان يقلقه تجريد الغرفة وفقرها، وجدرانها غير المدهونة والمتساقط طلاؤها الاسمنتي، ودخول ضوء المصباح العاري القوي المعلق في السقف إلى عينيه مباشرة.

قال كحلي: «لا أريد أن أقلقك بأسئلة يوم القيامة. كان المرحوم الملا قاسم أنصاري يقول للغرباء الذين يزورونه حيث تنزل عشيرته على ضفة دجلة: أنا مسرور لتعارفنا، ترى لصالح من تتجسسون؟»

قال كا: «لصالح جريدة الجمهورية..»

«هذا أعرفه. ولكن الذي يدفعني إلى الشك اهتمامهم بقارص إلى حد إرسالهم رجلاً إلى هنا.»

قال كا: «أنا تطوعت. وقد سمعت بأن صديقي القديم مختار وزوجته هنا.»

صحح كحلي ناظراً باهتمام إلى عيني كا قائلاً: «انفصلا. أكنت تعرف هذا؟»

قال كا: «أعرف» وصار شديد الحمرة. وفكر في تلك اللحظة بأن كحلياً شعر بكل ما جرى فشعر كا نحوه بالكراهية.

«هل ضربوا مختاراً في مديرية الأمن؟»

«ضربوه»

قال كحلي متلبساً لبوساً عجيباً: «هل كان يستحق الضرب؟»

قال كا مرتبكاً: «لا. طبعاً لا يستحق.»

«لماذا لم يضربوك؟ هل أنت مسرور من نفسك؟»

«أنا لا أعرف لماذا لم يضربوني؟»

قال كحلي: «تعرف. أنت بورجوازي اسطنبولي. هذا يفهم فوراً من بشرتك ونظراتك. لابد أنهم قالوا لأنفسهم: لا بد من وجود معارف له فوق. ومن الواضح أن مختاراً ليس له علاقات، أو قوة كهذه، وهذا واضح من

حالته، ويعرفون هذا. وأصلاً إن مختاراً دخل السياسة ليستطيع أن يكون واثقاً من نفسه مثلك في مواجهتهم. ولكن عليه أن يثبت لهم أنه إذا نجح في الانتخابات يستطيع استيعاب الضرب الذي ضربته إياه الدولة وهضمه من أجل أن يستطيع الجلوس على كرسي المسؤولية. لهذا السبب فهو ممتن من الضرب الذي ضُربه.»

لم يكن كحلي يضحك، حتى ان ثمة تعبير حزن على وجهه.

قال كا: «لا أحد يمتن للضرب الذي يضربه» وشعر بنفسه مقابل كحلي بأنه عادي وسطحي.

ظهر على وجه كحلي تعبير يقول: والآن لنتحدث في موضوعنا الأساسي. قال «سمعت بأنك التقيت بأسر الفتيات المنتحرات. لماذا التقيت بها؟»

«لعلني أكتب مقالاً حول هذا الموضوع.»

«في جرائد الغرب؟.»

قال كا بمتعة تفوق مفاجئ: «في جرائد الغرب.» مع أنه ليس ثمة من يعرفه يمكن أن ينشر له في الجرائد الألمانية، فأضاف نادماً: «وفي تركيا أيضاً في جريدة الجمهورية.»

قال كحلي: «لا تهتم الجرائد التركية ببؤس شعبها وآلامه إذا لم يهتم الغربيون. الحديث عن البؤس والانتخابات عيب، وكأنهم يتصرفون بهذا تصرفات معاصرة. حينئذ أنت أيضاً ستضطر لنشر مقالتك في الصحف الغربية. أنا لهذا السبب أردت أن ألتقيك: احذر من الكتابة عن الفتيات المنتحرات في الداخل والخارج! الانتحار ذنب عظيم! كلما أبديت اهتماماً ينتشر هذا المرض أكثر! خاصة أن آخر فتاة منتحرة هي فتاة مسلمة مشاركة في (مقاومة الإشاربات) وهذا أكثر قتلاً من السم.»

قال كا: «ولكن هذا صحيح. الفتاة قبل أن تنتحر قيل أنها توضأت، وصلت. وفتيات مقاومة الإشاربات يكنن احتراماً كبيراً لها.»

قال كحلي: «الفتاة المنتحرة ليست مسلمة. ولا يمكن أن يكون صحيحاً أنها قاومت من أجل غطاء رأسها. إذا نشرت هذا الخبر الكاذب ستنتشر مقولة بين الفتيات المسلمات المقاومات بأنه ثمة يأس من المرتدات، ومن

المسكينات اللواتي يضعن شعراً مستعاراً، ومن ضغوط الشرطة والآباء والأمهات. هل أتيت إلى هنا من أجل هذا الأمر؟ لا تشجع أحداً على الانتحار. إن الفتيات الواقعات بين حب الله من جهة، وعائلاتهن ومدارسهن من جهة أخرى تعيسات، ووحيدات إلى حد أنهن سيقلدن جميعهن تلك القديسة المنتحرة.»

«نائب المحافظ أيضاً طلب مني عدم المبالغة بالانتحارات في قارص.»

«لماذا قابلت نائب المحافظ؟»

«التقيت الشرطة أيضاً لكي لا تقلقني طوال اليوم.»

قال كحلي: «إنهم يقابلون بامتنان شديد خبَرَ: الفتيات المتسترات المطرودات من المعهد ينتحرن.»

قال كا: «أنا أكتب ما أعرفه.»

«إنك لا تومىء بكلامك هذا إلى محافظ الدولة العلماني فقط، بل إليّ أيضاً. ثم إنك تلمح لي بأن المحافظ العلماني والإسلامي السياسي لا يريدان الكتابة عن انتحار الفتيات.»

«نعم!»

«إن تلك الفتاة لم تنتحر لأنها لم تُدخل إلى المعهد، بل انتحرت من أجل قضية عشق. إذا كتبت عن انتحار عشق عادي لفتاة متسترة، وانحلالها لارتكابها المحرم سيغضب منك الإسلاميون الشباب في مدارس الأئمة والخطباء. قارص مكان صغير.»

«أريد أن أسأل هذا للفتيات أيضاً.»

قال كحلي: «بهذا تفعل حسناً. اسأل الفتيات لوجه الله عما إذا كن يردن أن ينشر في الجرائد الألمانية أنهن يئسن مما جرى لهن في أثناء مقاومتهن فانتحرن، ومتن كافرات.»

قال كا معانداً: «سأسألهن!» ولكنه خاف.

قال كحلي: «لقد دعوتك من أجل أن أقول لك شيئاً آخر. قبل قليل أطلق النار على مدير معهد إعداد المعلمين أمام عينيك... وهذا نتيجة غضب المسلمات الناجم عن قمع الدولة للفتيات المتسترات. ولكن القضية طبعاً هي

استفزاز قامت به الدولة. بداية استخدموا المدير المسكين أداة لظلمهم، بعد ذلك جعلوه هدفاً لمجذوب لكي يتهموا المسلمين.»

سأل كا بدقة صحفي: «هل تؤيد الحادثة أم تدينها؟»

قال كحلي: «أنا لم آت قارص من أجل السياسة أتيتُ من أجل إيقاف انتشار الانتحار في قارص.»

وفجأة أمسك كا من كتفيه، وسحبه نحوه، وقبله من خده. «أنت درويش وهب سنوات عمره لعذابات الشعر. لا يمكن أن تكون أداة للمسيئين للمسلمين والمظلومين. كما وثقت بك أنا، أنت أيضاً وثقت بي، وجئت إلى هنا في هذا الثلج. لكي أشكرك سأحكي لك حكاية فيها عبرة» وركز عينيه في عيني كا بجو نصفه تمثيلي ونصفه جدي.

«هل أحكي؟»

«احك»

«في قديم الزمان، يقال إنه كان هنالك في إيران بطل عاطل عن العمل ومقاتل لا يكل. الجميع يعرفه ويحبه. ولنسمه نحن أيضاً رستم كمحبيه. في أحد الأيام بينما كان رستم يصطاد ضيّع طريقه بداية، بعد ذلك فقد حصانه وهو نائم. وحين أراد البحث عن حصانه (رقش) دخل أراضي العدو، إلى طوران. ولكن لأن صديقه سبقه عرفوه، وعاملوه معاملة جيدة. استضافه شاه طوران ونظّم له احتفالاً. بعد الطعام وانسحابه إلى غرفته، دخلت عليه ابنة الشاه، وباحت له بعشقها. وقالت بأنها تريد أن يكون لها ولد منه. خدعته بجمالها ولسانها، ومارسا الحب. صباحاً ترك رستم للولد الذي سيولد إشارة منه، اسوارةً وعاد إلى بلده. حين علم الولد ـ أسموه سوهراب، ولنسمه نحن أيضاً هكذا ـ بعد سنوات طويلة من أمه أن أباه هو رستم الأسطوري قال: سأذهب إلى إيران، وسأنزل شاه إيران الظالم كايكاووس عن عرشه وأجلس مكانه... بعد ذلك سأعود إلى هنا، إلى طوران، وسأنزل شاه طوران افراسياب الظالم مثل كايكاووس وأحل محله! حينئذ سنحكم ـ أبي رستم وأنا ـ إيران وطوران ـ أي العالم كله ـ بعدل! هكذا حكى سوهراب البريء الطيب القلب، ولكنه لم يستطع إدراك أن أعداءه أمكر منه وأخبث. دعمه افراسياب شاه طوران لأنه سيحارب إيران، ولكي لا يتعرف إليه أبوه دسوا في جيشه

الجواسيس. وبعد حيل، ودسائس، ولعبة القدر السيئة، والمصادفات السرية التي ساقها الله جل جلاله، تقابل رستم وابنه ووراء كل منهما جيشه، ولم يتعرف أحدهما إلى الآخر لأنهما كانا وسط الدروع. رستم الذي وسط الدروع أخفى دائماً شخصيته لكي لا يستجمع المحارب الذي أمامه قواه كلها. أما صاحب القلب الطفولي سوهراب الذي لا ترى عيناه سوى إجلاس والده على العرش لم ينتبه إلى من يقاتل. وهكذا قفز صاحبا الروحين الطيبتين، المحاربان العظيمان، الأب والابن ساحبين سيفيهما وجنود كل منهما خلفه يتفرجون عليه»

سكت كحلي. قبل أن يلقي نظرة إلى عيني كا قال كطفل: «على الرغم من قراءتي هذه الحكاية مئات المرات يبدأ قلبي بالخفقان وأشعر بالقشعريرة حين أصل إلى هذا المكان منها. لا أدري لماذا. بداية أضع نفسي مكان سوهراب الذي كان على وشك قتل أبيه. من يريد قتل أبيه؟ أية روح تحتمل ألم هذا الذنب وثقله! خاصة أني أضع نفسي مكان سوهراب الجريء! حينئذ ستكون أفضل طريقة لقتل الأب هي أن تتم دون أن ينتبه إلى هذا.»

«بينما أفكر في هذا يبدأ المحاربان وسط الدروع بالمبارزة، وبعد صراع دام ساعات لم يستطع أحدهما التغلب على الآخر، فانسحبا وسط العرق والدم. وفي ليلة اليوم الأول يتعلق عقلي بالأب بقدر تعلقه بسوهراب. وحين أقرأ بقية الحكاية انفعل وكأنني أقرؤها أول مرة، وأتخيل متفائلاً بأن الأب والابن غير المستطيعين التغلب على بعضهما بعضاً سيخرجان بطريقة ما مما هما فيه.»

«في اليوم الثاني يصطف الجيشان مقابل بعضهما بعضاً، ومرة أخرى يقفز الأب والابن وسط الدروع إلى الأمام ويبدأ صراع لا يرحم. وبعد مبارزة طويلة يضحك الحظ ـ أو وهذا هو الحظ؟ ـ لسوهراب فيسقط رستم عن حصانه، ويقفز فوقه. سحب خنجره، وبينما كان سيوجه إلى أبيه الطعنة القاتلة عن قرب، لحقوا به، وقالوا: ليس هنالك عادة أخذ رأس المحارب العدو من أول مرة في إيران. لا تقتله فهذه سفالة فلا يقتل سوهراب أباه.»

«حين أقرأ هذا المقطع تتداخل الأمور في عقلي، ويمتلئ قلبي بالحب لسوهراب. ما معنى القدر الذي رآه الله مناسباً للوالد والولد؟ في اليوم الثالث

تنتهي المبارزة بسرعة عكس ما أتوقعه تواقاً. رستم يسقط سوهراب عن الحصان، وبمحاولة واحدة يغرز سيفه في صدره فيقتله. سرعة الحدث مدهشة بقدر رعبها. حين فهم رستم من الإسوارة أن الذي قتله هو ابنه يسقط على ركبتيه، ويحتضن جسد ابنه المدمى، ويبكي.»

«في هذه النقطة من الحكاية أنا أيضاً أبكي: أنا أبكي لأنني فهمت معنى موت المسكين سوهراب أكثر من تعاطفي مع مشاعر رستم. سوهراب الذي ينطلق من محبة أبيه يقتل على يده. في هذه النقطة يحل الشعور العميق والناضج لألم رستم الوقور المرتبط بالقواعد والتقاليد محل محبة سوهراب الولد الطيب القلب. على طول الحكاية تنتقل محبتي وإعجابي من سوهراب المتمرد إلى رستم صاحب القوة والمسؤولية»

حين صمت كحلي لحظة، شعر كا بالغيرة منه لإمكانية حكيه حكاية، بإيمان أية حكاية.

قال كحلي: «ولكنني حكيت هذه الحكاية الجميلة ليس من أجل أن أريك كيف أعطي معنى لحياتي، بل من أجل التعبير عن نسيانها. هذه الحكاية التي تعود إلى ألف سنة على الأقل هي من شاهنامة الفردوسي. في زمن ما كان هنالك ملايين الناس من تبريز إلى اسطنبول، ومن بوسنة إلى طرابزون يعرفون هذه الحكاية، وبتذكرهم لها يدركون معنى حياتهم مثل الذين يفكرون في الغرب بقاتل الأب في أوديبوس، ومثل عقدة العرش والموت في ماكبث. ولكن بسبب الإعجاب بالغرب الآن نسي الجميع هذه الحكاية. أخرجت الحكايات القديمة من الكتب المدرسية. واليوم ليس ثمة مكتبة تستطيع شراء الشاهنامة منها! لماذا؟»

سكت قليلاً.

قال كحلي: «إنكم تفكرون على النحو التالي: هل يمكن للإنسان أن يقتل رجلاً من أجل جمال هذه الحكاية؟ أليس كذلك؟»

قال كا: «لا أعرف.»

قال كحلي: «فكر إذن.» وخرج من الغرفة.

[٩]

عفوكم، هل انتم ملحدون؟

غير مؤمن لا يريد قتل نفسه

حين خرج كحلي فجأة من الغرفة مرَّ كا بفترة تردد. بداية اعتقد بأن كحلياً سيعود فوراً، وسيعود من أجل سؤال كا عن الموضوع الذي قال له: «فَكِّر!» فيه. بعد ذلك مباشرة أدرك أن الوضع ليس بهذا الشكل: وبشكل استعراضي، وعجيب قليلاً تركت له رسالة. هل كان هذا تهديداً.

ولكن كا شعر بنفسه غريباً عن البيت أكثر من شعوره بأنه شخص مهدد. لم يستطع رؤية الأم وطفلها في الغرفة المجاورة. خرج من الباب دون أن يراه أحد. في داخله ثمة ما يدفعه لنزول الدرج راكضاً.

كان الثلج يهبط ببطء بحيث تهيأ لكا بأن ندف الثلج معلقة في الهواء. هذا الإحساس بالبطء الذي يمنح انطباعاً بتوقف الزمن أشعر كا بتغيير أشياء كثيرة، وأن زمناً طويلاً قد دمر، مع أن لقاءه مع كحلي لم يستمر سوى عشرين دقيقة فقط.

عبر على طول السكة الحديد تحت الثلج، ومن جانب صومعة الحبوب التي تشبه شبحاً عملاقاً وأبيض، ثم دخل إلى المحطة عائداً من الطريق الذي جاء منه. في أثناء عبوره من المحطة القذرة والفارغة رأى كلباً معقوف الذيل، ويهزه بتحبب قادماً نحوه. كان كلباً أسود، وعلى جبينه بقعة دائرية بيضاء. رأى في صالة الانتظار القذرة ثلاثة شبان يقدمون كعكة للكلب. أحدهم كان نجيباً، ركض قبل أصدقائه نحو كا. قال: «احذروا من سؤال كيف عرفنا أنا وزملائي في المدرسة بأنكم ستمرون من هنا! أقرب زملائي إلي لديه سؤال

مهم جداً سيسألكم عنه. سيكون فاضل سعيداً إذا كان لديكم الوقت، ويمكنكم تخصيص دقيقة له.»

قال كا: «حسنٌ» وسار نحو المقعد الذي يجلس عليه الشابان.

الملصقات التي خلفهم تذكر بالأهمية التي أعطاها أتاتورك للسكك الحديد، وتخيف الدولة فيها الفتيات المحاولات الانتحار، نهض الشابان وصافحا كا. وأما الآن فقد سيطر عليهم شعور بالتعرض للاعتقال.

قال نجيب: «قبل أن يسألك فاضل سؤاله سيحكي لك مسعود قصة سمعها.»

بينما كان نجيب يحكي الحكاية كان كا يتفرج على الكلب الأسود الراكض في المحطة القذرة وشبه المظلمة.

بدأ نجيب قائلاً: «تمر أحداث القصة في ثانوية أئمة وخطباء في اسطنبول، وأنا أيضاً سمعت هذا. مدير إحدى ثانويات الأئمة والخطباء المهلهلة في أحد الأحياء المتطرفة، دخل إلى إحدى الأبنية العالية التي نراها في التلفزيون والمدعوة ناطحات سحاب المبنية حديثاً في اسطنبول من أجل عمل له علاقة بوظيفته. دخل إلى مصعد كبير، وصعد إلى الأعلى. كان في المصعد رجل أطول منه وأصغر سناً، اقترب منه وعرض عليه كتاباً كان بيده. ولكي يفتح الصفحات أخرج من جيبه سكيناً مُطَعَّمَةً بالصَّدف من أجل فتح صفحات الكتاب، وقال بعض الكلمات. حين وصل إلى الطابق التاسع عشر نزل المدير. ولكن في الأيام التالية، بدأ ينتابه شعور غريب. صار يخاف من الموت، لا يجد في نفسه اندفاعاً للقيام بأي شيء، ويفكر دائماً بالرجل الذي رآه في المصعد. يقال إنه رجل متدين ذهب إلى تكية للطريقة الجراحية آملاً بإيجاد دواء لعلته. شيخ شهير استمع لما يجول بخاطره حتى الصباح، بعد ذلك وضع تشخيصه. قال: لقد فقدت إيمانك بالله، وفوق هذا إنك غير منتبه إلى نفسك متفاخر بهذا الأمر! هذه العلة انتقلت إليك من الرجل الذي في المصعد. أنت صرت ملحداً. وإذا كان المدير قد حاول إنكار هذا الأمر دامع العينين، فإن جانباً صادقاً في قلبه فهم جيداً أن ما قاله الشيخ صحيح جداً. وبينما كان يضايق التلميذات الصغيرات الجميلات، اللواتي ينفردن بأمهاتهن، كان يضبط نفسه وهو يسرق نقود معلم يشعر بالغيرة نحوه. فوق هذا فإن

المدير يفاخر بهذا الذنب الذي يرتكبه: يجمع المدرسة كلها ويقول لهم بأن الناس لا يستطيعون أن يكونوا أحراراً مثله بسبب إيمانهم الأعمى، والطقوس التافهة، ويقول بأن كل شيء مباح، ويدخل في حديثه كلمات أفرنجية كثيرة، ويشتري بالنقود التي يسرقها الألبسة الأوروبية الأحدث طرازاً، ويقيسها ويعمل كل هذا وهو يستهين بكل شخص من الآخرين، ويعتبرهم (متخلفين). وهكذا قام تلاميذ من المدرسة باغتصاب إحدى زميلاتهم الجميلات، وضربوا معلم القرآن المسنّ، وبدؤوا بالتمرد. وكان المدير يبكي في بيته ويريد أن ينتحر من جهة، ولكن من جهة أخرى ينتظر آخرين يقتلونه لأنه لا يمتلك الجرأة الكافية للقيام بهذا. ومن أجل تحقيق هذا الهدف بدأ يكفر بحق حضرة رسولنا ـ حاشاه ـ أمام أكثر طلاب المدرسة تَدَيّناً. ولكنهم فهموا أنه ضيّع عقله فلم يمسوه. خرج إلى الشوارع، وصار يقول: إن الله غير موجود ـ حاشاه ـ ويجب أن تُحَول الجوامع إلى (ديسكوتيكات) ولا يمكن أن نكون أغنياء إلا إذا صرنا جميعنا مسيحيين مثل الغربيين. أراد الإسلاميون الشباب أن يطلقوا عليه النار ولكنه اختبأ. وحين لم يجد حلاً ليأسه، ورغبته بالانتحار عاد إلى ناطحة السحاب نفسها، وقابل الرجل الطويل نفسه في المصعد. ابتسم له الرجل مبدياً أنه يعرف كل ما جرى له، وأراه غلاف الكتاب الذي كان بيده، وقال له بأن حل مشكلة الإلحاد أيضاً في هذا الكتاب. مَدَّ المدير يديه المرتجفتين نحو الكتاب، ولكن الرجل الطويل غَرَزَ فَتّاحَةَ الكتب المطعمة بالصدف في قلب المدير قبل أن يتوقف المصعد.»

حين انتهت الحكاية تذكر أنه سمع حكاية شبيهة بها من الإسلاميين الأتراك في ألمانيا. الكتاب المليء بالأسرار في نهاية حكاية نجيب ترك مجهولاً، ولكن مسعوداً ذكر اسم كاتب أو اثنين يهوديين، وعدد من كتاب الزوايا من كبار أعداء الإسلام السياسي لم يسمع بهم كا ـ أطلق النار على أحدهم بعد ثلاث سنوات ومات ـ يدفعون الإنسان إلى الإلحاد. قال مسعود: «الملحدون المخدوعون من قبل الشيطان هم مثل المدير التعيس في هذه الحكاية يتجولون بيننا باحثين عن السعادة والطمأنينة. هل توافقون على هذه الرؤية؟»

«لا أدري.»

قال مسعود غاضباً قليلاً: «كيف لا تعرفون. ألستم ملحدين؟»

قال كا: «لا أعرف»

«إذن قولوا لي: هل تؤمنون بأن الله تعالى خلق هذا العالم كله، وكل شيء، وهذا الثلج النادف ندفاً ندفاً في الخارج، أم لا تؤمنون؟»

قال كا: «الثلج يذكرني بالله.»

سأل مسعود مُصّراً: «نعم، ولكن هل تؤمنون بأن الثلج خلقه الله؟»

خيم صمت. رأى كا الكلب الأسود يقفز من الباب المفتوح على الصالة نحو الخارج، ويركض مستمتعاً في ضوء مصابيح النيون الشاحبة تحت الثلج النادف.

قال مسعود: «إنك لا تجيب. إذا عرف الإنسان الله وأحبه لا يشك بوجوده. وهذا يعني أنك في الحقيقة ملحد، ولكنك لا تقول هذا لأنك تخجل منه. هذا كنا نعرفه من البداية. لهذا السبب أريد أن أسألك سؤالاً باسم فاضل. هل تعاني من الألم مثل الملحد المسكين الذي في الحكاية؟ هل تريد أن تقتل نفسك؟»

قال كا: «مهما كنتُ قلقاً فأنا أخاف من الانتحار.»

قال فاضل: «لأي سبب. هل لأن الدولة تمنعه باعتبار أن الإنسان أشرف المخلوقات؟ وهذا يفسرونه بشكل خاطئ على أن الإنسان رائعة فنية. لطفاً قولوا لماذا تخافون من الانتحار؟»

قال نجيب: «استميحكم لإلحاح أصدقائي. لمعنى هذا السؤال في نفس فاضل مكانة خاصة.»

قال فاضل: «هل هذا يعني أنك تريد الانتحار لعدم احتمالك الأرق والتعاسة؟»

قال كا بغضب خفيف: «لا.»

قال مسعود: «لا تخفوا عنا شيئاً، لطفاً. نحن لا نسيء إليكم لأنكم ملحدون.»

خيّم صمت مشحون بالتوتر. نهض كا على قدميه. كان لا يريد إظهار أن الخوف مسيطر عليه. مشى.

قال فاضل: «هل أنتم ذاهبون؟ توقفوا، لطفاً.» حين توقف كا، تجمد دون استطاعته قول شيء.

قال نجيب: «أنا سأحكي بالنيابة عنه. نحن الثلاثة عاشقون لفتيات الإشاربات اللواتي وضعن حياتهن كلها في سبيل إيمانهن. تستخدم الصحافة العلمانية اسم «فتيات الإشاربات» عنهن. أما بالنسبة إلينا فهن فتيات مسلمات، ويجب على الفتيات المسلمات كلّهن أن يبذلن حياتهن في سبيل إيمانهن.»

قال فاضل: «والرجال أيضاً.»

قال نجيب: «طبعاً. أنا عاشق (هجران)، ومسعود يحب (هاندا). أما فاضل فكان عاشقاً لتسليمة ولكن تسليمة ماتت، أو انتحرت. ولكننا لا نؤمن نحن بأن فتاة مسلمة تبذل حياتها كلها في سبيل إيمانها يمكن أن تنتحر.»

قال كا: «يمكن أن تكون لم تعد تحتمل الآلام التي تعاني منها. أسرتها ضغطت عليها لكي تكشف رأسها، وفُصِلَتْ من المدرسة.»

قال نجيب منفعلاً: «ليس ثمة ضغط يكفي لجعل الإنسان يرتكب محرّماً. نحن لا نستطيع النوم ليلاً من الانفعال خشية أن تفوتنا صلاة الصبح، وهذا يعني ارتكاب المحرم. كل مرة نهرع إلى الجامع في وقت أبكر. شخص يؤمن بهذا الجيشان يمكن أن يقدم على عمل أي شيء لكي لا يرتكب المحرمات. حتى إنه عند الضرورة يرضى بسلخ جلده وهو حي.»

نط فاضل قائلاً: «نحن نعرف. إنكم التقيتم أسرة تسليمة. هل يؤمنون هم بأنها انتحرت؟»

«يؤمنون. تابعتْ مسلسل (ماريانا) مع أبيها وأمها، بعد ذلك توضأت، وصلّت.»

قال فاضل بصمت: «تسليمة لا تتابع المسلسلات أبداً.»

قال كا: «هل كنتم تعرفونها أنتم؟»

قال فاضل خجلاً: «لم أتعرف عليها شخصياً، ولم نتكلم. رأيتها في إحدى المرات من بعيد، وهي أصلاً مغطاة جيداً. ولكنني طبعاً أعرفها روحياً. الإنسان يعرف الشخص الذي يعشقه أكثر من الآخرين. كنت أشعر بهذا في داخلي كما أشعر بنفسي. تسليمة التي أعرفها لا تنتحر.»

«لعلكم لم تعرفوها بما يكفي.»

قال مسعود مستعرضاً الفتوة: «لعل الغربيين أرسلوك إلى هنا لكي تتستر على قاتل تسليمة.»

قال نجيب: «لا، لا. نحن نثق بكم. لقد قال كبارنا عنكم إنكم شاعر درويش. ولأننا نثق بكم كثيراً أردنا أن نسألكم عن موضوع يشعرنا بالتعاسة. فاضل يعتذر باسم مسعود.»

قال فاضل: «أنا أعتذر» كان وجهه شديد الحمرة، وفجأة اغرورقت عيناه.

مرر مسعود لحظة المصالحة صامتاً.

قال نجيب: «نحن فاضل وأنا أخوان بالدم. في كثير من الأحيان نفكر بالأمر نفسه، وكل منا يعرف ما يفكر به الآخر. فاضل لا يهتم بالسياسة أبداً. والآن هو وأنا نرجوك. نحن كلانا نعترف بأن تسليمة ارتكبت محرماً بانتحارها نتيجة ضغوط أبيها وأمها والدولة. أمر مؤلم، ولكن فاضلاً يفكر أحياناً بأن الفتاة التي عشقها ارتكبت محرماً، وقتلت نفسها. أما إذا كانت تسليمة ملحدة سرياً، وإذا كانت ملحدة منحوسة لا تعرف أنها ملحدة كما في الحكاية، وإذا كان انتحارها بسبب إلحادها فهذا سيكون انهياراً بالنسبة إلى فاضل. لأنه في هذه الحالة سيكون عاشقاً لملحدة. يمكنكم وحدكم إزالة هذا الشك الكبير الذي في داخلنا، أنتم يمكن أن تريحوا فاضل. هل فهمتم ما نفكر به؟»

قال فاضل بعينين متوسلتين: «هل أنتم ملحدون؟ إذا كنتم ملحدين فهل تقتلون أنفسكم؟»

قال كا: «في الأيام التي شعرت فيها أنني أكثر إلحاداً لا أشعر بدوافع الانتحار أبداً.»

قال فاضل مبدياً راحة: «فشكراً كثيراً لأنك أجبتنا إجابة صادقة. قلبكم ممتلئ بالطيب، ولكنكم تخافون من الإيمان بالله.»

كان كا يرى أن مسعوداً ينظر إليه بعداوة، لذلك كان يريد أن يبتعد. كأن عقله تعلق بمكان بعيد. يشعر بأن في داخله إرادة بعيدة، خيالاً مرتبطاً بها يتململان، ولكنه لا يستطيع التركيز على هذا الخيال بسبب الحركة من حوله. فيما بعد سيفكر كثيراً بتلك الدقائق. وسيدرك أن ذلك الخيال الذي يجول في

عقله يتغذى بشوق لإيبك بقدر إيمانه بالله والموت. مع هذا، في اللحظة الأخيرة أضاف مسعود أمراً آخر.

قال نجيب: «لطفاً لا تفهمونا خطأً. نحن لا نعترض على كون الإنسان ملحداً. كان للملحدين مكان دائم في المجتمع الإسلامي.»

قال مسعود: «ولكن يجب أن تكون مقابرهم منفصلة. نوم ملحد في مقبرة واحدة مع المؤمنين يعذب أرواحهم. بعض الملحدين الذين استطاعوا إخفاء عدم إيمانهم بالله أخذوا على عاتقهم إقلاق المؤمنين ليس على مدى الحياة فقط، بل في مقابرهم أيضاً. وكأن عذاب النوم في مقبرة واحدة حتى يوم القيامة لا يكفي، سنواجه رهبة مقابلة ملحد منحوس حين ننهض من مقابرنا يوم القيامة.. السيد الشاعر كا، لم تخفوا أنكم في يوم ما كنتم من الملحدين. ولعلكم هكذا حتى الآن. إذن قولوا لنا من هو الذي يجعل هذا الثلج يندف؟ ما هو سر هذا الثلج؟»

فكر كا: ماذا أفعل في هذه الدنيا؟ كم تبدو ندف الثلج مسكينة من بعيد؟ كم هي حياتي مسكينة أيضاً؟ الإنسان يعيش ويهترئ، ثم يزول. فكر بأنه يزول من جهة، وبأنه موجود من جهة أخرى. كان يحب الطريق الذي تسلكه حياته مثل ندف ثلج، ويتابعه بحب وكدر. كان لأبيه رائحة حلاقة، تذكرها. قدما أمه في الشحاط وهي تحضر الإفطار في المطبخ في أثناء شمه تلك الرائحة، فرشاة شعر، وشراب السعال الحلو باللون الزهري الذي يسقى له بعد أن يستيقظ ليلاً وهو يسعل، الملعقة التي في فمه، كل هذه الأشياء الصغيرة التي صنعت حياته كلها مجتمعة عبارة عن ندفة ثلج.

وهكذا سمع كا ذلك النداء العميق الذي يسمعه الشعراء الحقيقيون الذين يشعرون بالسعادة في لحظات الإلهام من حياتهم فقط. بعد أربع سنوات، هذه أول مرة تخطر بباله قصيدة: كان واثقاً من وجود القصيدة، وجوّها، وأدائها، وقوتها إلى حد امتلاء قلبه بالسعادة. قال للشبان الثلاثة إنه مستعجل وخرج من بناء المحطة الفارغ وشبه المظلم. عاد إلى فندقه مسرعاً وهو يفكر تحت الثلج بالقصيدة التي سيكتبها.

[١٠]

لماذا هذه القصيدة جميلة؟

الثلج والسعادة

فور دخوله إلى غرفة الفندق خلع كا معطفه. فتح دفتره المسطر مربعاتٍ ذا الجلد الأخضر الذي جلبه من فرانكفورت، وبدأ يكتب القصيدة التي ألهمت له كلمة كلمة. كان يشعر بنفسه مرتاحاً، وكأن أحداً ما يهمس في أذنه بالقصيدة وهو يكتبها، ولكنه أيضاً وهب نفسه كلها وانتباهه لما يكتب. ولأنه لم يكتب قصيدة من قبل بإلهام كهذا، ودون انقطاع، فقد شعر بطرف من عقله بالشك في قيمة ما كتبه. ولكنه مع كتابة الأشطر يرى بمنطقه هذا الشعر كاملاً بكل ما له، وهذا ما زاد انفعاله وسعادته. كانت توقفاته قليلة جداً، ويترك بعض فراغات الكلمات وكأنه لم يسمعها جيداً، وهكذا كتب أربعة وثلاثين بيتاً.

بنيت القصيدة مع كثير من الأمور التي خطرت بباله في الوقت نفسه: الثلج النادف، المقابر، الكلب الأسود الراكض سعيداً في بناء المحطة، كثير من ذكريات طفولته، وفي طريق العودة إلى الفندق خطواته المتسارعة بشعور ما بين السعادة والارتباك مع تجلي صورة إيبك أمامه. عنون القصيدة: «ثلج». فيما بعد حين فكر بالطريقة التي كتب فيها تلك القصيدة سيخطر بباله بلورة ثلج، إذا كانت تلك البلورة تريه بشكل ما حياته، فقد قرر بأن هذا الشعر يجب أن يكون في نقطة تفسير منطق الحياة. من الصعب تحديد ما إذا كان قد اتخذ تلك القرارات في تلك اللحظة كما كتب القصيدة، أو أنها جاءت نتيجة التناظر السري للحياة في أثناء محاولته فك أسرار كتابه.

حين كان كا على وشك إنهاء القصيدة ذهب نحو النافذة، وبدأ يتفرج صامتاً على ندف الثلج الكبيرة النادفة بظرافة. شعر بأنه إذا تفرج على الثلج فسينهي القصيدة كما يجب تماماً. وقرع الباب، فتحه كا، ونسي البيتين اللذين كان على وشك تذكرهما، ولن يتذكرهما في قارص نهائياً. كانت إيبك بالباب، قالت له: «ثمة رسالة لك» وقدمتها له.

أخذ كا الرسالة، ورماها جانباً دون أن ينظر إليها، وقال: «أنا سعيد جداً».

كان يؤمن بأن لا أحد يمكنه القول: «أنا سعيد جداً» غير الناس العاديين، ولكنه لم يخجل الآن. قال لايبك: «ادخلي. إنك جميلة جداً.»

دخلت إيبك براحة العارفة غرف الفندق كأنها في بيتها. تهيأ لكا أن الزمن الذي مَرّ قَرَّبَهما من بعضهما بعضاً.

قال كا: «لا أدري كيف حصل هذا. لعل هذا الشِّعر جاءني بسببك.»

قالت إيبك: «يقال إن وضع مدير معهد المعلمين سيّيء.»

«عيشُ شخص تعتقد أنه مات خَبَرٌ جيد.»

«الشرطة تداهم مهاجع مبيت الجامعة، والفنادق. جاؤوا إلينا أيضاً وفتشوا الدفاتر، وسألوا عن المقيمين في الفندق واحداً واحداً.»

«ماذا قلتِ عني؟ هل قلت لهم بأننا سنتزوج؟»

«أنت لطيف جداً. ولكن عقلي ليس هناك. أوقفوا مختاراً، وضربوه. بعد ذلك أطلق سراحه.»

«أرسل لك رسالة معي: إنه جاهز لعمل أي شيء تريدينه من أجل أن يتزوج منك مجدداً. وهو نادم ألف مرة لأنه ضغط عليك من أجل أن تتغطي.»

قالت إيبك: «أساساً إن مختار يقول لي هذا كل يوم. ماذا فعلت بعد أن تركتك الشرطة؟»

قال كا: «تجولت في الشوارع...» وقد أبدى لحظة تردد.

«نعم، تكلم!»

«أخذوني إلى كحلي. وعليّ ألا أخبر أحداً بهذا.»

قالت إيبك: «عليك ألا تخبر أحداً. كما أنه عليك ألا تذكرنا، أو تذكر أبي أمامه.»

«هل التقيته من قبل؟»

«في زمن ما كان مختار معجباً به، وله دخلة إلى بيتنا. ولكن عندما قرر مختار أن يكون مع الإسلام الأكثر اعتدالاً وديمقراطية ابتعد عنه.»

«يقول إنه جاء إلى هنا من أجل الفتيات المنتحرات.»

قالت إيبك: «عليك أن تخاف منه، وألا تذكره. وثمة احتمال كبير لوجود لواقط صوت للشرطة في المكان الذي يقيم فيه.»

«لماذا لا يقبضون عليه إذن؟»

«حين يكون الأمر لصالحهم يقبضون عليه.»

قال كا: «لنهرب أنت وأنا من مدينة قارص هذه.»

كانت خشية من قرب التعاسة واليأس تتصاعد في داخله، وهذا ما كان يشعر به حين يكون سعيداً جداً أيام الطفولة والشباب.

فيما بعد لكي لا تكون السعادة القادمة كبيرة كان كا يرغب بإنهاء لحظات السعادة بانهماك كبير. لهذا السبب كان يعتقد وهو منجرف بذلك الإنهماك أكثر من العشق أن إيبك سترفضه، وأن التقارب بينهما سيتبدد في لحظة، وستنتهي هذه السعادة التي لا يستحقها برفض واستهانة يستحقهما. حدث العكس تماماً. اندست به إيبك ليحضنها، وتبادلا القبل بشوق مستمتعين من إمساك كل منهما الآخر، واحتضانه، وانقلبا على السرير كل منهما إلى جانب الآخر. خلال فترة قصيرة بدأ كا يشعر بانفعال جنسي عنيف، جعله في حالة عكس ما كان عليه متشائماً قبل قليل، فبدأ يتخيل بأنهما يخلعان ثيابهما برغبة وتفاؤل غير محدودين، ويتبادلان ممارسة الحب مطولاً.

ولكن إيبك نهضت على قدميها. وقالت: «أنت ممتعٌ جداً، وأنا أيضاً أريد أن أمارس معك الحب، ولكنني لم أكن مع أحد منذ ثلاث سنوات، لست جاهزة.»

قال كا في داخله: وأنا أيضاً منذ أربع سنوات لم أمارس الحب مع أحد. وشعر بأن إيبك قرأت هذا في وجهه.

قالت إيبك: «حتى لو صرت جاهزة، أنا لا أستطيع ممارسة الحب وأبي قريب إلى هذا الحد، وأنا معه في بيت واحد.»

قال كا: «وهل يجب أن يخرج أبوك من الفندق من أجل أن تدخلي معي السرير عارية؟»

«نعم، وقليلاً جداً ما يخرج من الفندق لأنه لا يحب شوارع قارص المتجلدة.»

قال كا: «حسنٌ، لئلا نمارس الحب الآن، ولكن لنتبادل القبل.»

«حسنٌ»

انحنت إيبك على كا الجالس على حافة السرير، وقبّلتهُ مطوّلاً بجد ودون السماح له بالاقتراب.

فيما بعد، عندما شعر كا بأنهما لن يتعانقا قال كا: «لأقرأ لك قصيدتي، هل تتوقين لهذا.»

«اقرأ هذه الرسالة أولاً، جلبها إلى الباب شاب.»

فتح كا الرسالة، وقرأها بصوت مرتفع:

«ابني السيد كا أفندي. إذا كان من غير المناسب أن أخاطبكم بابني فاغفروا لي. لقد رأيتكم ليلة الأمس في حلمي. كان الثلج يندف في حلمي، وكل ندفة تنزل على العالم نوراً. وحين قلت خيراً إن شاء الله بدأ الثلج الذي رأيته في حلمي يندف أمام نافذتي بعد الظهر. لقد عبرتم من أمام بيتي المتواضع في شارع البيطرة ـ رقم ١٨. لقد نقل لي السيد مختار أفندي الذي عبر من امتحان لجناب الله المعنى الذي منحتموه لهذا الثلج. طريقنا واحد. انتظركم يا سيدي. التوقيع: سعد الدين جوهر.»

قالت إيبك: «الشيخ سعد الدين. اذهب إليه بسرعة. ومساء تأتي لتجلس معنا إلى الطعام بوجود أبي.»

«لماذا من الضروري أن ألتقي المضروبين في عقولهم في قارص كلهم؟»

«قلت لك: عليك أن تخاف من كحلي، ولكن لا تقل بسرعة إنه مضروب في عقله. والشيخ أيضاً ماكر، ليس مخبولاً.»

«أريد أن أنساهم كلهم. هل أقرأ لك قصيدتي الآن؟»

«اقرأ»

جلس كا إلى طرف الطاولة وبدأ يلقي القصيدة التي كتبها منفعلاً وواثقاً، وتوقف بسرعة. قال لإيبك: «تعالي إلى هنا. أريد أن أرى وجهك وأنا ألقي» عاد إلى القراءة وهو ينظر بطرف عينه إلى إيبك. بعد قليل سأل كا: «جميلة؟» قالت إيبك: «نعم، جميلة» قرأ أيضاً كا، ومرة أخرى سأل: «جميلة؟» وقالت إيبك: «جميلة» وحين أنهى قراءتها سأل كا: «ما الذي وجدته جميلاً فيها؟» قالت إيبك: «لا أعرف، ولكنني وجدتها جميلة جداً.» «ألم يكن مختار يقرأ لك الشعر؟» «لم يكن يقرأ.» قرأ كا القصيدة من جديد منفعلاً وسأل مجدداً في الأماكن نفسها: «جميلة؟» وقال عدة مرات: «جميلة جداً أليس كذلك؟» وقالت إيبك: «نعم، جميلة جداً»

كان كا سعيداً إلى حد أنه يبدو كما في قصيدة له في مرحلة مبكرة. الولد بأنه ينشر «إلى محيطه ضوءاً ممتعاً وغريباً» وكان يسعده رؤية انعكاس قسم من هذا الضوء إلى إيبك. والتزم بقواعد «الزمان دون جاذبية أرضية» واحتضن إيبك مجدداً، ولكن المرأة ابتعدت بظرافة.

«اسمع الآن: اذهب إلى الأفندي الشيخ فوراً. إنه شخص مهم جداً هنا. إنه مهم أكثر مما تتصور: كثير من الأشخاص يقصدونه، حتى العلمانيون يقصدونه. قائد اللواء يذهب إليه، ويقال بأن زوجة المحافظ تذهب إليه، وهنالك من يذهب إليه من الأغنياء والعسكريين. إنه مؤيد للدولة. حين قال بأنه على الفتيات الجامعيات والمتسترات أن يكشفن رؤوسهن في الدروس لم ينبس حزب الرفاه بكلمة نحوه. في مكان مثل قارص، إذا دعاك شخص قوي كهذا لا يمكنك أن ترفضه.»

«وهل أنت أرسلتِ إليه المسكين مختاراً؟»

«هل تخشى من كشفه مخافة الله التي في داخلك، وجعلك متديناً بتخويفك؟»

قال كا: «أنا سعيد جداً الآن. لستُ بحاجة للدين، ولم آتِ إلى تركيا من أجل هذا الأمر. ثمة أمر وحيد يأخذني إلى هناك: عشقك... هل سنتزوج؟»

جلست إيبك على حافة السرير، وقالت: «اذهب إذن إلى هناك.» ونظرت إلى كا نظرة ساحرة وممتعة. «ولكن انتبه. ليس هنالك من يضاهيه في إيجاد نقطة انكسار وضعف في روحك والنفاذ منها إلى داخل الإنسان مثل جني.»

«ماذا سيفعل لي؟»

«سيتحدث إليك، وفجأة سيرمي بنفسه إلى الأرض. وسيدعي أن كلمةً عاديةً تقولها هي علم كبير، وأنك على قدر كبير من المعرفة. حتى إن البعض يعتقد بأنه يسخر منهم! ولكن قدرة حضرة الشيخ الأفندي تكمن هنا. ويعمل هذا بحيث أنك تؤمن بأنه مؤمن بأنك على قدر كبير من المعرفة، وفي الحقيقة إنه يؤمن بهذا من كل قلبه. ويتصرف معك وكأن في داخلك شخصاً أسمى منك بكثير. بعد فترة تبدأ أنت أيضاً برؤية هذا الجمال في داخلك: وبما أنك لم تنتبه للجمال الذي في داخلك تشعر بأنه جمال الله، وتسعد. والحياة جميلة في الحقيقة بجواره. وستصبح محباً لسيدك الشيخ الذي يقربك من هذه السعادة. وطوال هذه الفترة فإن جانباً آخر من عقلك سيهمس لك بأن كل هذه ألاعيب الأفندي الشيخ، وأنت في الحقيقة مجرد مسكين بائس مخبول. وبقدر ما فهمت من مختار، فإنه لن يبقي لديك القوة التي تجعلك تؤمن بجانبك السيّيء والبائس ذاك. وتغدو مسكيناً وتعيساً إلى حد أنك تعتقد أنه ليس ثمة من ينقذك من حالتك هذه غير الله. في هذه الأثناء فإن إرادة روحك التي لا تعرف عقلك تقاوم قليلاً في البداية. وهكذا تدخل في الطريق الذي أشار إليه معتقداً أنك لا يمكن أن تقف على قدميك إلا بهذا الشكل. من أكبر مهارات حضرة الشيخ الأفندي جعل البائس الذي أمامه يشعر بأنه أقدس مما هو عليه بكثير لأن غالبية رجال مدينة قارص هذه يعرفون جيداً أنه لا يوجد في تركيا أكثر منهم بؤساً وفقراً وفشلاً. وهكذا في النهاية تؤمن بشيخك أولاً، وبالإسلام الذي أنسوك إياه ثانياً. وهذا ليس سيئاً كما يبدو من ألمانيا أو كما يدعي المثقفون العلمانيون. تصبح مثل الجميع، وتشبه شعبك، وتتحرر ولو قليلاً من التعاسة.»

قال كا: «أنا لستُ تعيساً.»

«التعيس إلى هذا الحد في الحقيقة ليس تعيساً. لأن الناس هنا ثمة ما

يسلّون به أنفسهم متمسكين به، ولهم آمالهم. لا يوجد هنا مستهزئون كالذين في اسطنبول. الأعمال هنا أبسط.»

«أنا ذاهب الآن لأنكِ تريدين هذا. أين شارع البيطرة؟ ما المدة التي سأقضيها هناك؟»

قالت إيبك: «ابق حتى تشعر بالراحة الداخلية. ولا تخف من الإيمان.» ساعدت كا بارتداء المعطف سألته: «هل المعلومات الإسلامية محافظة على نفسها في ذاكرتك؟ هل تتذكر الأدعية التي تعلمتها في المدرسة الابتدائية؟ كي لا تخجل.»

قال كا: «حين كنتُ طفلاً كانت تأخذني الخادمة إلى جامع (تشويكية). وكانت تذهب من أجل لقاء الخادمات الأخريات أكثر مما تذهب من أجل العبادة. وبينما كنّ يتبادلن القيل والقال في انتظار وقت الصلاة كنت أتدحرج مع الأولاد الآخرين على السجاد. وقد حفظت جيداً غيباً الأدعية كلها من أجل كسب الاعتبار في عيني الأستاذ الذي كان يصفعنا على وجوهنا، ويمسكنا من قميصنا من الخلف ويضرب رأسنا على كتاب (الديانة) المفتوح على المقعد الخشبي، من أجل أن يحفّظنا الفاتحة. تعلمتُ كل ما تعلمناه في المدرسة حول الإسلام، ولكنني نسيته كله» وقال كا باسماً: «الشيء الوحيد الذي أعرفه عن الإسلام اليوم هو فيلم الرسالة الذي لعب بطولته أنطوني كوين. منذ فترة عرضوه في ألمانيا على القناة التركية بالألمانية ولا أدري لماذا. في المساء، أنتِ هنا أليس كذلك؟»

«نعم»

قال كا: «لأنني أريد أن أقرأ لك قصيدتي مرة أخرى» ثم أضاف وهو يضع الدفتر في جيب معطفه: «هل ترينها جميلة»

«جميلة جداً في الحقيقة.»

«ما الجميل فيها؟»

قالت إيبك وهي تفتح الباب وتخرج: «لا أدري، جميلة جداً.»

احتضنها بسرعة، وقبلها من شفتيها.

[١١]

هل هنالك الله آخر في أوربا؟

كا والأفندي الشيخ

بعد خروج كا من الفندق ثمة من رآه ذاهباً ركضاً نحو شارع البيطرة تحت الثلج وأعلام الدعاية الانتخابية. كان سعيداً إلى حد أن سينما قوة خياله بدأت تعرض فيلمين في آن واحد كما كان يشعر في لحظات السعادة الزائدة حين كان طفلاً. في الأول كان يمارس الحب مع إيبك في مكان ما من فرانكفورت، وهو ليس بيته. كان يرى باستمرار هذا الخيال وأحياناً يكون مكان ممارستهما الحب في غرفة الفندق في قارص. في سينما عقله الأخرى تُعرض خيالات وكلمات حول البيتين الشعريين الأخيرين من قصيدة «ثلج».

بداية دخل إلى مطعم (الوطن الأخضر) من أجل السؤال عن العنوان. بعد ذلك جلس إلى إحدى الطاولات لأن الزجاجات الموضوعة على الرفوف بجانب صورة أتاتورك ومناظر السويد الثلجية منحته إلهاماً، وبتصميم شخص مستعجل جداً طلب (عرقاً) وجبنة بيضاء وحمص محمص. المذيع في التلفزيون يقول بأن التحضيرات كلها من أجل أول بث مباشر سيتم من خارج الاستديو في تاريخ قارص على وشك أن تنتهي، ويلخص بعض الأخبار المحلية والقومية. معاون المحافظ طلب عدم ذكر مدير معهد المعلمين المضروب بالنار لكي لا تستفز العداوات ويكبر الأمر، ومنعه. وحتى انتبه كا إلى هذه الأمور كلها شرب قدحين مزدوجين من العرق كما يشرب الماء.

بعد أن شرب قدح العرق الرابع سار لمدة أربع دقائق، وفتح باب التكية من الأعلى بشكل آلي. بينما كان كا يصعد الدرج شبه العمودي تذكر قصيدة

مختار «الدرج» التي ما زالت في جيب سترته. كان واثقاً أن كل شيء سيسير بشكل جيد، ولكنه شعر شعور طفل يقشعر جسده في أثناء دخوله إلى عيادة الطبيب على الرغم من إيمانه بأن الطبيب لن يحقنه بإبرة. فور صعوده إلى الأعلى ندم على مجيئه: شعر باهتزاز عميق على الرغم من العرق.

فور رؤية الأفندي الشيخ لكا شعر فوراً بذلك الخوف الذي في قلبه. وفهم كا أيضاً أن الشيخ رأى خوفه. ولكن ثمة شيئاً في الشيخ جعل كا لا يخجل من خوفه. كان ثمة مرآة ذات إطار محفور من خشب الجوز معلقة على جدار الفسحة التي ينتهي إليها السلم. بداية رأى الأفندي الشيخ في تلك المرآة. كان داخل البيت مزدحماً كصندوق سمك. الغرفة دافئة من الزفير وحرارة الإنسان. فجأة وجد كا نفسه يقبل يد الأفندي الشيخ، وجرى كل هذا بلمح البصر، لم يركز كا انتباهه على محيطه وعلى الازدحام الذي في الغرفة.

ثمة ازدحام يزيد عدده عن عشرين شخصاً جاؤوا للانضمام إلى الذكر البسيط الذي يقام مساء كل ثلاثاء، والاستماع إلى حديث الشيخ، والفضفضة عن همومهم. هنالك بعض أصحاب مرابط الأغنام، والدكاكين والمقاهي، وشاب شبه مشلول، ومدير شركة نقل ركاب أحول وصديقه العجوز، والحارس الشاب لمؤسسة الكهرباء، وبواب مشفى قارص على مدى أربعين سنة، وعدة أشخاص آخرين يعتقدون بأن الجلوس إلى جانب الأفندي الشيخ سعادة.

بعد أن قرأ الشيخُ تردد كا كله من وجهه قبل يده بحركة استعراضية. وقد عمل هذا وكأنه يقبل يداً لطفل محبب أكثر مما هو للتعبير عن الاحترام. استغرب كا كثيراً على الرغم من توقعه بأنه سيعمل هذا. وتحت أنظار الجميع، ولمعرفته أن الجميع يستمع بانتباه، قال الشيخ:

«نوّرك الله لأنك لبيت دعوتي. لقد رأيتك في حلمي. وكان الثلج يندف.»

قال كا: «وأنا أيضاً رأيتكم في حلمي يا حضرة الشيخ. وقد جئت إلى هنا لأكون سعيداً.»

قال الشيخ: «أسعدتنا ولادة شعورك بأن السعادة هنا.»

قال كا: «أنا أخاف هنا في هذه المدينة. لأنكم غرباء جداً بالنسبة إليّ.

لأنني خشيت دائماً من مشايخ هكذا، ولم أكن أريد تقبيل يد أحد، كما لم أرد لأحد أن يقبل يدي.»

قال الشيخ: «لقد فاتحت أخانا مختار بالجمال الذي في داخلك. بماذا يذكرك هذا الثلج المبارك النادف؟»

انتبه كا إلى أن الشخص الجالس عند طرف البساط الذي يجلس عليه الشيخ، وعند طرف النافذة مباشرة هو مختار: كان على جبينه وأنفه ضماد جروح. ووضع على عينيه نظارة سوداء زجاجتاها كبيرتان مثل المسنين المصابين بالعمى نتيجة مرض تقرح في الوجه. كان يبتسم لكا ولكن لا يبدو بأنها ابتسامة ود.

قال كا: «لقد ذكرني الثلج بالله. وذكرني بجمال هذا العالم وأسراره، ولأن الحياة في الحقيقة سعادة.»

حين توقف لحظة رأى أن الجمع الذي في الغرفة قد وجه أبصاره نحوه. وتوترت أعصابه نتيجة إبداء الشيخ سعادة مستمرة، فسأل: «لماذا دعوتموني إلى هنا؟»

قال الشيخ: «استغفر الله. مما حكاه لنا السيد مختار اعتقدنا بأنكم تبحثون عن صديق تريدون أن تفتحوا قلبكم له وتحادثونه.»

قال كا: «حسنٌ، لنتحدث. أنا قبل مجيئي إلى هنا شربت ثلاث أقداح عرق من شدة الخوف.»

قال الشيخ متصنعاً أنه مندهش جداً، فاتحاً عينيه: «لماذا تخافون منا؟» كان رجلاً بديناً ولطيفاً، ورأى كا أن الذين حوله قد ابتسموا من كل قلوبهم: «ألن تقولوا لنا عن سبب خوفكم منا؟»

قال كا: «أقول، ولكنني لا أريد أن تغضبوا.»

قال الشيخ: «لن نغضب. تفضلوا، اجلسوا إلى جانبي. معرفة مخاوفكم أمر هام جداً بالنسبة إلينا.»

كانت شخصية الشيخ نصف جدية ونصف ممثلة جاهزة لإضحاك مريديها في كل لحظة. وفور جلوس كا المسرور من هذا الجو شعر بأنه يريد أن يقلد. قال: «أنا أريد ـ وبحسن نية كطفل ـ أن يتطور بلدي، ويتحرر شعبي،

ويعبر عن رأيه، ولكن ديننا بدا لي دائماً أنه ضد هذا الأمر. لعلني مخطئ. ولعلني الآن مفرط بالشرب لذلك أعترف بهذا.»

«استغفر الله.»

«ترعرعت في اسطنبول ـ نيشان طاش في وسط اجتماعي راق. أردت أن أكون كالأوربيين. ابتعدت حياتي عن الدين لإدراكي بعدم إمكانية أن أكون أوربياً، ومع الله الذي يدخل النساء وسط ملاحف ويغطي وجوههن في آن واحد. حين ذهبت إلى أوربا شعرت بإمكانية وجود الله المختلف تماماً عن الله الذي يتحدث عنه الملتحون والرجعيون وأبناء المناطق النائية.»

قال الشيخ ممازحاً، ومداعباً ظهر كا: «وهل هنالك الله آخر في أوربا؟»

«أنا أريد إلهاً لا يفرض علي أن أخلع حذائي وأقبل يد أشخاص معينين، وأجلس على ركبتي أمامهم من أجل الوقوف في حضرته، إلهاً يفهم وحدتي.»

قال الشيخ: «الله واحد، ويرى كل شيء، ويفهم الجميع، ووحدتك أيضاً. إذا آمنت به، وأدركت أنه يرى وحدتك فلا تشعر بأنك وحيد.»

قال كا شاعراً بأنه يخاطب من في الغرفة كلهم: «صحيح جداً يا حضرة الأفندي الشيخ. لا أستطيع الإيمان بالله لأنني وحيد، ولأنني لا أومن بالله لا أستطيع التحرر من وحدتي. ماذا عليّ أن أفعل؟»

خاف من صمت الشيخ لأنه شعر جيداً في جانب آخر من عقله بأنه بدأ يتجول في المناطق الخطرة على الرغم من كونه سكراناً، وشعوره بسعادة عميقة غير متوقعة لأنه يفضي بما يجول بخاطره لشيخ حقيقي.

قال الشيخ: «هل تريد مني حقيقة أن أنصحك؟ نحن أشخاص وصفتموهم بأنهم ملتحون رجعيون ريفيون. وإذا حلقنا لحانا فلا مناص من أننا قرويون.»

قال كا: «وأنا قروي، وأريد أن أكون قروياً أكثر، وأن أُنسى في أقصى مكان غير معروف تحت الثلج في هذا العالم» وقبل مجدداً يد الشيخ. وسرّ لأنه انتبه إلى أنه يقوم بهذا دون أن يستصعب الأمر. ولكن جانباً آخر في عقله ما زال غريباً، وشخصاً مختلفاً تماماً لهذا شعر بأنه يستهين بحالته.

قال مجدداً: «اعذروني، لقد شربت قبل أن آتي إلى هنا. شعرت على

مدى حياتي بالذنب لعدم إيماني بإله غير المتعلمين، والخالات المغطيات رؤوسهن والأعمام الحاملين سبحاتهم، والفقراء. وثمة جانب غرور في عدم إيماني. ولكنني أريد الإيمان بالله الذي يندف هذا الثلج الجميل في الخارج. ثمة إله يركز على التوازن السري للعالم، يجعل الإنسان أكثر حضارة وظرافة.»

قال الشيخ: «طبعاً موجود.»

«ولكن ذلك الله غير موجود هنا بينكم. إنما هو هناك في الليل الخاوي، والظلام وفي ندف الثلج التي تندف على قلب مسكين.»

«إذا أردت أن تجد الله وحدك فاذهب ليملأ الثلج في الليل قلبك بمحبة الله. لئلا نكون قد أعقنا طريقك. ولكن لا تنس أن المغرورين المعجبين بأنفسهم فقط يبقون وحدهم. الله لا يحب المغرورين. طرد الشيطان من الجنة لأنه مغرور.»

سيطر على كا الخوف نفسه الذي سيخجل منه فيما بعد. وكان غير مسرور مما سيتكلمون به عنه بعد خروجه. قال: «ماذا أفعل يا حضرة الأفندي الشيخ؟» كان سيقبل يده مجدداً لكنه تراجع. شعر بأنه قد ظهر تردده وسكره، وأنه مستهان به. «أريد أن أؤمن بالله الذي تؤمنون به، وأن أكون مواطناً بسيطاً مثلكم، ولكن عقلي ملخبط بسبب الغربي الذي في داخلي.»

قال الشيخ: «كونك حسن النية إلى هذا الحد بداية جيدة. تعلم بداية أن تكون متواضعاً.»

قال كا: «ماذا علي أن أفعل من أجل هذا» ومرة أخرى كان في داخله شيطان ساخر.

قال الشيخ: «مساء بعد الإفطار يجلس كل شخص يريد أن يتحدث على هذه الديوانة التي أجلسك عليها هذه، وكل شخص أخٌ للآخر.»

شعر كا بأن الجميع الذين يجلسون على الكراسي، والفرش اصطفوا بالدور للجلوس مكانه. شعر بالاحترام لهذا الدور الخيالي أكثر من الشيخ، ولشعوره بأن وقوفه في آخر هذا الدور وانتظاره دوره هو العمل الأفضل له كأوربي، نهض، وقبّل يد الشيخ مرة أخرى، وجلس على الفراش في الطرف الأبعد.

كان الذي بجانبه رجل لطيف قصير القامة أضراسه ملبسة بالذهب يدير

مقهى في شارع (اينونو). كان الرجل قصير إلى حد كبير، وعقل كا أيضاً ملخبط إلى حد كبير إلى حد اعتقاده بأن الرجل جاء إلى الشيخ ليجد له حلاً من أجل ضآلة حجمه. عندما كان صغيراً كان ثمة قزم أكابر جداً في نيشان طاش، وفي كل مساء يشتري باقة بنفسج أو زهرة قرنفل واحدة من الغجر في ساحة نيشان طاش. وقال كا للرجل الضئيل الذي بجانبه بأنه رآه اليوم حين كان ماراً من أمام مقهاه، ولكنه مع الأسف لم يستطع الدخول، وهو سيدخل في الغد. فجأة شارك في الحديث مدير شركة نقل الركاب الأحول، وقال هامساً بأنه كان في يوم من الأيام تعيساً جداً بسبب قضية فتاة، وترك نفسه للمشروب وبلغ مبلغ العصيان بدرجة عدم الاعتراف بالله، ولكن هذا كله مضى، ونسيه. وقبل أن يسأله كا: «هل تزوجتم من الفتاة؟» قال صاحب الشركة: «فهمنا بأن الفتاة غير مناسبة لنا.»

بعد ذلك تحدث الشيخ ضد الانتحار: استمع الجميع صامتين، وبعضهم هازين رؤوسهم، وتحدثوا هم الثلاثة متهامسين فيما بينهم. قال الرجل الضئيل «هنالك بعض الانتحارات الأخرى. ولكن الدولة تخفي الأمر كما تخفي الأرصاد الجوية حالة الجو عند البرد الشديد لكي لا تخرب معنويات الناس. إنهم يزوجون البنات للموظفين المسنين، ولرجال لا يحبونهن من أجل النقود». قال مدير شركة نقل الركاب: «زوجتي في البداية حين عرفتني لم تحبني.» وعدَّ كلاً من البطالة، والغلاء، وانعدام الأخلاق واللا إيمان أسباباً للانتحار. كان كا يجد نفسه مرائياً لأنه يعطي الحق لكل ما قيل. أيقظ مدير شركة نقل الركاب صديقه المسن حين بدأ يغفو. خيم صمت طويل. شعر كا بأن طمأنينة تتصاعد في داخله: كانوا بعيدين عن مركز العالم إلى حد أن أحداً لن يخطر بباله أن يذهب إلى هناك. وتحت تأثير ندف الثلج النادفة في الخارج وكأنها معلقة في الهواء يتهيأ للإنسان أنه يعيش خارج الجاذبية الأرضية.

بينما لم يكن أحد يهتم به ألهم كا بقصيدة جديدة. كان دفتره معه. وبالتجربة التي كسبها من القصيدة الأولى وهب نفسه للصوت المتصاعد داخله. هذه المرة كتب قصيدته المؤلفة من ستة وثلاثين بيتاً دفعة واحدة دون أن يهرب منه بيت واحد. لم يكن واثقاً كثيراً من قصيدته لأن رأسه مخدر قليلاً بسبب العرق. ولكنه نهض بدافع إلهام جديد، وطلب إذن الشيخ، ورمى

بنفسه في الخارج. حين جلس على درجات سلم التكية المرتفعة وقرأ دفتره رأى أنها متكاملة بشكل لا يقل عن الأولى.

كتب كا القصيدة بالأدوات التي عاشها وشاهدها قبل قليل. في أربعة أبيات ثمة محاورة مع شيخ حول وجود الله. وتحمل القصيدة نظرة كا المليئة بالذنب «لإله الفقراء»، وأفكاراً حول بنية الحياة ومعنى العالم السري والوحدة، ورجلاً ذا سن ذهبية، وآخر أحول، وقزماً محترماً بيده قرنفلة يذكرونه بحياته كلها. فكر قائلاً: «ما معنى هذا كله؟» وهو مندهش من جمال ما كتب. ولأنه وجد ما كتبه جميلاً وجد أن أدواته وحياته الخاصة مدهشة. ما معنى الجمال في الشِعر؟

آلية إنارة السلم أصدرت صوتاً: تك، وصار كل شيء حالك الظلمة. وحين وجد الزر وأشعل المصابيح ونظر مجدداً إلى الدفتر خطر بباله عنوان القصيدة. كتب فوقها: «التوازن السري». وفيما بعد سيجد أن إيجاده هذا العنوان بشكل مبكر إلى هذا الحد دليلاً على أن هذه القصيدة ـ مثلها مثل العالم ـ ليست من تصميمه، وسيضع قصيدته في علم المعرفة كقصيدته الأولى.

[١٢]

ما معنى الآلام الكثيرة التي يعاني منها الفقراء

إذا كان الله غير موجود؟

حكاية نجيب وهجران

في أثناء عودته من تكية حضرة الشيخ إلى فندقه تحت الثلج كان يفكر بأنه سيرى إيبك بعد قليل. وبينما كان في شارع خالد باشا وقع وسط الجمهرة الانتخابية لحزب الشعب بداية، وبين الطلاب الخارجين من دورة الإعداد لامتحان الدخول إلى الجامعة ثانياً: كانوا يتحدثون عن متابعة التلفاز مساء، وغباوة أستاذ الكيمياء، ويوخزون بعضهم بعضاً بغدر كما كنا نفعل كا وأنا في ذلك العمر. رأى عند باب بناء فتاة صغيرة تبكي وهي خارجة من عيادة طبيب الأسنان التي في الأعلى، ويمسكها من يدها أبوها وأمها. فهم من ألبستهم بأنهم يعيشون بصعوبة ولكنهم أخذوا ابنتهم التي يرتجفون خوفاً عليها إلى طبيب خاص وليس إلى مستوصف الدولة لإيمانهم بأنه سيؤلمها بشكل أقل. ومن باب مفتوح ومن داخل دكان يبيع جوارب نسائية، ومعكرونة وأقلام تلوين، وبطاريات، وأشرطة تسجيل سمع أغنية «روبرتا» (لبيبينو دي كاربي) التي كان يستمع إليها من الإذاعة عندما كان يذهب إلى البوسفور في صباحات أيام الشتاء في سيارة عمه. ومن العاطفة المتصاعدة داخله اعتقد أنها قصيدة جديدة فدخل إلى أول مقهى، وجلس إلى أول طاولة فارغة، وأخرج دفتره وقلمه.

بعد أن نظر بعينيه المغرورقتين فترة إلى الصفحة الفارغة وبيده القلم فهم كا أنه ليس ثمة قصيدة آتية، ولكنه لم يزعزع تفاؤله. على جدران المقهى

المليء بالعاطلين عن العمل والطلاب مناظر سويسرا إضافة إلى ملصقات مسرح، وكاريكاتورات وأخبار مقصوصة من الجرائد، وإعلان شروط مسابقة لقبول موظفين وجدول مباريات نادي قارص الرياضي لهذا العام. أشير إلى نتائج المباريات الملعوبة وأغلبها منتهية بالخسارة بأقلام مختلفة. أحدهم كتب بجانب نتيجة المباراة مع نادي أرضروم المنتهية بنتيجة ٦ ـ ١ كتب هذه الشطور التي ستدخل كما هي إلى قصيدة «الإنسانية كلها والنجوم» التي سيكتبها كا وهو جالس في (مقهى الأخوة المحظوظين):

لو خرجت أمنا من الجنة واحتضنتنا بين ذراعيها
لو تركها أبونا عديم الإيمان يوماً دون ضرب
فهذا لا يساوي شيئاً، سييبس خراؤك، وتجف روحك، ولا أمل
اسحب السيفون ليذهب الشخص إذا وقع في مدينة قارص.

بينما كان يكتب هذه الرباعية على دفتره بروح مرحة جاء نجيب من إحدى الطاولات الخلفية وعلى وجهه تعابير فرح لم يعتقد كا بأنه سيراها، وجلس إلى طاولته.

قال نجيب: «أنا مسرور جداً لرؤيتك. هل تكتب قصيدةً؟ أنا أعتذر عن أصدقائي الذين قالوا عنك ملحداً. إنها المرة الأولى التي يرون فيها ملحداً. ولكنك لا يمكن أن تكون ملحداً لأنك إنسان جيد جداً.»

بداية تحدث كا بأمور أخرى لا تهمهما: هربوا من المدرسة لحضور مسرح هذا المساء، ولكنهم سيجلسون في المقاعد الخلفية لأنهم طبعاً لا يريدون أن «يتعرف إليهم» مديرهم من خلال البث المباشر. كان سعيداً جداً لهروبه من المدرسة. سيلتقي بأصدقائه في مسرح الشعب. ويعرف أن كا سيلقي قصيدة هناك. الجميع في قارص يكتبون الشعر ولكن كا هو أول شاعر عرفه في حياته ينشر أشعاره. وهل يمكن أن يقدم له الشاي؟ قال كا إنه مستعجل.

قال نجيب: «إذن سؤال واحد. سأسألك السؤال الأخير. وهدفي ليس عدم احترامك مثل أصدقائي. أنا أتوق لهذا كثيراً.»

«نعم»

بداية أشعل سيجارة بيدين متوترتين:

«إذا كان الله غير موجود فهذا يعني أن الجنة غير موجودة. هذا يعني أن الملايين الذين قضوا حياتهم بالحرمان والفقر والانسحاق لن يذهبوا إلى الجنة. في هذه الحالة ما معنى هذه الآلام كلها التي يعاني منها الفقراء؟ لماذا نعيش؟ ولماذا نتحمل كل هذه الآلام دون هدف؟»

«الله موجود، والجنة موجودة.»

«لا، إنك تقول هذا لكي تخفف عني، لأنك تشفق علينا. حين تعود إلى ألمانيا ستعود إلى الاعتقاد بعدم وجود الله.»

قال كا: «منذ سنوات طويلة هذه أول مرة أكون فيها سعيداً جداً. لِمَ لا أؤمن بما تؤمن؟»

قال نجيب: «إنك تنتمي إلى المجتمع الراقي الاسطنبولي، وهؤلاء لا يؤمنون بالله في أي وقت. وهم يرون أنفسهم فوق الشعب لأنهم يؤمنون بما يؤمن به الأوربيون.»

قال كا: «لعلني كنت من المجتمع الراقي الاسطنبولي، ولكنني في ألمانيا مسكين لا أحد يعطيه قرشاً. أنا مسحوق هناك.»

حين نظر إليه نجيب بعينيه الجميلتين نظرة متوترة، شعر كا بأن الشاب يعيد النظر في حياته الخاصة، ويدركها. قال: «لماذا أغضبت الدولة وهربت إلى ألمانيا إذن؟» وحين رأى أن كا حزين، قال: «مهما يكن! لو كنتُ غنياً لخجلت من نفسي، وآمنت بالله أكثر.»

قال كا: «في يوم ما سنصبح كلنا أغنياء إن شاء الله.»

«كل شيء ليس بسيطاً كما تعتقد بأنني أعتقد. أنا لستُ بسيطاً إلى هذا الحد. ولا أريد أن أكون غنياً. أريد أن أكون شاعراً وكاتباً. أنا أكتب رواية خيال علمي. لعلها ستنشر في إحدى الجرائد المحلية في قارص، (الهراوة) مثلاً. ولكنني أريد أن تنشر روايتي في جرائد اسطنبول التي تبيع بالآلاف وليس في جريدة تبيع خمساً وسبعين نسخة. ملخص الرواية معي. إذا قرأتها لك هل تقول لي عما إذا كان يمكن نشرها في اسطنبول؟»

نظر كا إلى ساعته.

قال نجيب: «قصيرة جداً»

في تلك اللحظة تماماً انقطع التيار الكهربائي، ودفنت قارص كلها بالظلام. هرع نجيب تحت ضوء الموقد وأخذ شمعة من فوق القاطع. أشعلها، ونقط منها على الصحن وألصقها، ووضعها على الطاولة.

وبصوت مرتجف، وانفعال في بعض الأحيان، وهو يبلع ريقه كل برهة قرأ ورقة مجعلكة أخرجها من جيبه.

في عام ٣٥٧٩، وفي كوكب (غزالي) غير المعروف الآن، الناس أغنياء جداً، والحياة أريح مما نعيشه نحن اليوم، ولكنهم عكس ما يعتقد الماديون فلم يتخلوا عن معتقداتهم قائلين: «أصبحنا أغنياء». على العكس كان الجميع تواقين لمواضيع الوجود والعدم، الإنسان والعالم، الله وعباده. لهذا السبب فقد فتحت في زاوية بعيدة من الكوكب ثانوية للعلوم الإسلامية والخطابة لا يقبل فيها إلا الطالب الذكي والمجتهد. في هذه الثانوية صديقان حميمان: بإيحاء من كتب (نجيب فاضل) التي كتبها قبل ١٦٠٠ سنة المتناولة قضية الشرق والغرب المحافظة على حيويتها أطلق الصديقان حافظا أسرار بعضهما بعضاً على نفسيهما اسمين مستعارين هما: نجيب وفاضل. قَرَآ أعظم أعمال الأستاذ الكبير: الشرق العظيم مرات عديدة. كانا يلتقيان في المهجع خفية عن الجميع على سرير فاضل العلوي. يدخلان تحت اللحاف، ويتمددان متجاورين، ويتفرجان على ندف الثلج الزرقاء التي تغيب حين تسقط على السقف الكريستالي مشبهينها بكواكب تزول، ويتهامسان حول معنى الحياة، وما سيفعلانه في المستقبل.

حاول سيئو القلوب بممازحتهم المدفوعة بالغيرة إلقاء الظلال على هذه الصداقة الصافية، وفي أحد الأيام حدث هذا. في الوقت نفسه عشقا معاً بنتاً بكراً تدعى هجران شعّت في مدينة نائية. معرفتهما بأن أبا الفتاة ملحد لم يخلصهما من هذا العشق اليائس، بل على العكس أجج تعلقهما بها. وأدركا بقلبيهما كليهما بأن أحدهما زائد عن الكوكب الأحمر ويجب أن يموت، وتواعدا على هذا الوعد: الذي يموت أولاً سيعود بعد مدة مهما كان بعدها بعدد السنوات الضوئية ليخبر الباقي في الدنيا بالموضوع الذي يشغل بالهم أكثر وهو الحياة ما بعد الموت.

أما من الذي سيموت وكيف فهذا ما لم يستطيعا أن يقرراه. لأن كلاً منهما يعتبر أن تضحيته بنفسه في سبيل سعادة الآخر هي السعادة الحقيقية. إذا قال نجيب مثلاً لنمسك شريطاً كهربائياً بيد عارية في الوقت نفسه، يعتبر فاضل أنها حيلة ماكرة من أجل أن يضحي به، ويعتبر أن مأخذ الكهرباء الذي في طرفه يسحب كهرباء أقل. في إحدى الليالي فجأة انتهى التردد من هذا النوع المستمر شهوراً، والمعطي لكل منهما آلاماً كبيرة: حين عاد نجيب من درسه المسائي وجد الحبيب مضروباً بقسوة بالرصاص على سريره.

في العام التالي تزوج نجيب من هجران، وفي ليلة العرس أدرك أن الاتفاقية التي عقدها مع صديقه ستتحقق، أي أن شبح فاضل سيعود في أحد الأيام. وقد قالت له هجران بأنها كانت عاشقة لفاضل، وأنها بكت على مدى أيام حتى غدت عيناها مثل صحني دم، وأنها تزوجت منه لأنه يشبه فاضل وهو صديقه. وهكذا لم يمارسا الحب، ومنعا عن نفسيهما الحب إلى حين عودة فاضل.

ولكن مع مرور السنوات بدأت روحاهما، وبعد ذلك بدأ جسداهما يحسّان برغبة شديدة. مساء أحد الأيام التي شعّا فيه إلى مدينة قارص الصغيرة في الأرض لم يستطيعا الإمساك بنفسيهما من ممارسة الحب كالمجانين. كأنهما نسيا فاضل الذي كان يعذب ضميريهما كآلام الأسنان. لم يكن في قلبيهما سوى شعور متصاعد بالذنب، وهذا أخافهما. فجأة نهضا من الفراش معاً معتقدين بأنهما سيختنقان بإحساس خوق ممزوج بالغرابة. في تلك اللحظة أضيئت تلقائياً شاشة التلفاز التي أمامهما، وهناك ظهر مشهد فاضل لماعاً وبراقاً كخيال. كان هنالك على جبينه وتحت شفته السفلية آثار جروح الرصاصات التي أطلقت عليه يوم قتل وما زالت طازجة، مدماة.

قال فاضل: «أنا وسط الآلام. لم يبق مكان أو زاوية في الدنيا الآخرة لم أزرها (قال نجيب: سأكتب عن تفضيلات هذه الرحلات مستلهماً الفتوحات المكية للغزالي، وكتابات ابن عربي.) لقد حظيت بأكبر تقديرات ملائكة الله، وصعدت إلى أمكنة من العرش يعتقد أن أحداً لا يمكنه الوصول إليها، ورأيت العذاب المخيف الذي يتعرض له الملحدون والمغرورون الذين يسخرون من معتقدات شعوبهم، والمستعمرون الوضعيون في جهنم، ولكنني لم أستطع أن

أكون سعيداً. لأن عقلي هنا، عندكم.»

استمع الزوجان للخيال التعيس خائفين.

«ما أتعسني! على مدى سنوات وسعادتكما ليست كما رأيتكما الآن. على العكس أريد سعادة نجيب أكثر مما أريد سعادتي. لأن كلاً منا أحب الآخر كصديق لم نستطع بأي شكل أن نقتل أنفسنا أو نقتل بعضنا بعضاً. ولأن كل واحد منا يعطي أهمية لحياة الآخر أكثر من حياته التففنا بدرع الخلود. ياللسعادة التي تمنحها هذه المشاعر. ولكن موتي وأنا مؤمن بهذا الشعور أثبت لي أنني كنت مخطئاً.»

صرخ نجيب قائلاً: «لا. لم أعط في أي وقت أهمية لحياتي أكثر من حياتك»

قال خيال فاضل: «لو كان هذا صحيحاً لما مت، ولما تزوجت أنت من هجران. أنا مت لأنك أردت موتي سراً، وحتى أخفيت هذا عن نفسك.»

وإذا كان نجيب قد عارض هذا بشدة، فإن الخيال لم يصدقه.

قال الخيال: «ما يقلقني في الدنيا الآخرة ليس الشك بأنك أردت موتي، بل تفكيري بأن لك إصبعاً بإطلاق النار على جبيني بغدر وأنا نائم في سريري ليلاً، وخوفي من أنك اتفقت مع أعداء الشريعة»

قال الخيال: «ثمة طريق واحد من أجل أن تخلصني من هذا القلق وأستطيع الدخول إلى الجنة، ولكي تخلصني أيضاً من اشتباهي بارتكابك هذا الذنب المخيف. عليك أن تجد قاتلي. على مدى سبع سنوات وسبعة أشهر لم يجدوا مشتبهاً به واحداً. أريد القصاص ممن له إصبع بقتلي أو نيّة. إذا لم يعاقب ذلك السافل فليس أمامكم راحة في هذه الدنيا المؤقتة التي تعتقدون أنها الدنيا الحقيقية.»

ودون استطاعة الزوجين الاعتراض لدهشتهما، وبكائهما غاب الخيال عن الشاشة.

سأل كا: «إيه، ماذا حدث؟»

قال نجيب: «لم أستطع إعطاء قرار حول نهايتها. إذا كتبت هذه الحكاية فهل تباع؟» حين رأى أن كا ساكت، أضاف فوراً: «أنا أكتب كل سطر من

سطورها بما أؤمن به من كل قلبي أصلاً. عن ماذا تحكي هذه الحكاية برأيك؟ بماذا شعرت وأنا أقرؤها؟»

«فهمت مرتعشاً بأنك مؤمن بكل قلبك أن هذه الحياة ما هي إلاّ تحضير للحياة الأخرى.»

قال نجيب منفعلاً: «نعم. أؤمن. ولكن هذا غير كاف. الله يريدنا أن نكون في هذه الدنيا أيضاً سعداء. أما هذا فيا لصعوبته.»

سكتا وهما يفكران بهذه الصعوبة.

وفي اللحظة نفسها عاد التيار الكهربائي. أما الذين في المقهى فلم ينبسوا وكأن الكهرباء ما زالت مستمرة بالانقطاع. بدأ صاحب المقهى بلكم التلفزيون الذي لم يشتغل.

قال نجيب: «نحن نجلس منذ عشرين دقيقة. أفراد جماعتي سينفجرون من القلق.»

قال كا: «من هم جماعتك؟ وهل فاضل بينهم؟ وهل هذه أسماؤكم الحقيقية؟»

قال نجيب بأداء محملاً بالأسرار: «من المؤكد أن اسم نجيب في الحكاية مثل اسمي مستعار. لا تسأل أسئلة الشرطة. أما اسم فاضل فلا يمكن أن يمشي في أمكنة كهذه. الأكثر إيماناً بالإسلام هو الفاضل، وهو أكثر شخص نثق به في الحياة. ولكن إذا أصيب بعدوى السياسة فإنه يخاف من تسجيله في سجله، وطرده من المدرسة. له عم في ألمانيا، سيأخذه إلى هناك، وكل منا يحب الآخر كثيراً جداً كما في الحكاية. وإذا قتلني شخص ما فأنا واثق أنه سيثأر لي. وفي الحقيقة أننا أقرب مما نحن عليه في الحكاية. ومهما كنا بعيدين عن بعضنا بعضاً فإن أحدنا يقول ما يفعله الآخر في تلك اللحظة.»

«ماذا يفعل فاضل الآن؟»

قال نجيب، متخذاً موقفاً عجيباً: «هم م م م. إنه يقرأ في المهجع»

«من هي هجران؟»

«اسمها الحقيقي مختلف، كأسمائنا. ولكن اسم هجران ليس الاسم

الذي تطلقه هي على نفسها، بل هو اسم نحن أطلقناه عليها. البعض يكتبون لها رسائل حب وقصائد بشكل مستمر، ولكنهم لا يرسلونها إليها من الخوف. لو كان لي ابنة لتمنيت أن تكون مثلها جميلة وذكية وجريئة. هي قائدة فتيات الإشاربات، لاتخاف من شيء، وصاحبة شخصية. في الحقيقة أنها كانت في البداية دون دين تحت تأثير أبيها الملحد. كانت تعمل عارضة أزياء في اسطنبول، وتظهر في التلفاز عارضة مؤخرتها وفخذيها. جاءت إلى هنا من أجل دعاية لشامبو ستعرض في التلفاز. تسير في شارع (الغازي أحمد مختار باشا) وهو أجمل شارع في قارص، وأفقر وأقذر شارع في آن واحد، وتقف الكاميرا أمامها فجأة، وتحرك شعرها الخرنوبي الطويل حتى خصرها وتلوح به كالعلم، وتقول: على الرغم من قذر مدينة قارص الجميلة فإن شعري متلامع دائماً بفضل (بلنداكس). وكانت ستعرض الدعاية على العالم كله، ويضحك منا العالم كله. في هذه الأثناء تتعرف إليها فتاتان من معهد المعلمين كانتا على رأس المقاومة في قضية غطاء الرأس ـ تتعرفان عليها ـ من التلفزيون ومن صورها في جرائد القيل والقال التي كتبت عن سفالتها التي عاشتها مع أبناء اسطنبول الأغنياء، وكانتا تشعران سراً بإعجاب شديد بها، فدعياها لشرب الشاي. ذهبت هجران لتسخر منهما. وهنا تضايقت من الفتيات بسرعة، وقالت: طالما أن دينكن ـ نعم لم تقل ديننا، بل قالت دينكن ـ يمنعكن من إظهار شعركن، والدولة تمنعكن من تغطيته، فاعملن مثل فلان ـ هنا ذكرت اسم نجم أجنبي من موسيقى الروك ـ احلقن شعوركن من جذورها، وضعن في أفواهكن حلقات حديدية! عندئذ سيهتم بكن العالم كله! وكانت فتاتانا مسكينتين إلى حد أنهما ضحكتا معها لسخريتها هذه! استمدت هجران جرأة من هذا الأمر، وقالت لهما: انزعا هذه الخرقة عن رأسيكما الجميلين لأنها تأخذكما إلى ظلمات القرون الوسطى. وهمّت بنزع الإشارب عن رأس الفتاة المندهشة أكثر، فبقيت تلك اليد في تلك اللحظة دون حركة. رمت نفسها فوراً على الأرض واعتذرت من الفتاة ـ أخوها أغبى الأغبياء في صفنا ـ وفي اليوم التالي جاءت مرة أخرى، وفي اليوم الذي بعده جاءت مرة أخرى، وبقيت معهما ولم تعد إلى اسطنبول. إن هذه القديسة هي التي جعلت من الإشارب راية سياسية لامرأة الأناضول المسحوقة المسلمة، صدقني.»

سأله كا: «لماذا إذن لم تشر إليها في حكايتك سوى أنها بكر. لماذا لم يخطر ببال نجيب وفاضل أن يسألا هجران عن رأيها قبل أن يقتلا نفسيهما في سبيلها؟»

رفع نجيب عينيه الجميلتين اللتين سيمزقهما الرصاص بعد ساعتين وثلاث دقائق إلى الأعلى في محاذاة الشارع، وهو ينظر شارداً إلى الثلج النادف بهدوء مثل قصيدة عتمة الليل، وخيم صمت موتر للأعصاب. بعد ذلك همس نجيب قائلاً: «هاهي. هاهي.»

«من؟»

«هجران! في الشارع!»

[١٣]

أنا لا أناقش ملحداً في ديني

مسير مع قديفة تحت الثلج

كانت داخلة إلى الشارع. ترتدي معطفاً بنفسجياً. على وجهها نظارة سوداء تجعلها تشبه أبطال أفلام الخيال العلمي. على رأسها غطاء رأس دون خصوصية كالذي رأى كا آلاف النساء يضعنه منذ طفولته حتى الآن أكثر من كونه إشارياً رمزَ الإسلام السياسي. حين انتبه أن المرأة الشابة متوجهة نحوه نهض كا على قدميه كالتلميذ في الصف الذي ينهض عندما يدخل المعلم.

قالت المرأة: «أنا قديفة أخت إيبك الأصغر.» وابتسمت بشكل خفيف ثم أضافت: «الجميع ينتظرونكم من أجل طعام العشاء. طلب مني والدي أن أحضركم.»

قال كا: «كيف عرفتم أنني هنا؟»

قالت قديفة دون أن تضحك: «الجميع في قارص يعلمون بكل شيء وفي كل لحظة. يكفي أن يحدث هذا الشيء في قارص.»

ظهر على وجهها تعبير شعور بالألم: لم يستطع كا فهم هذا. عَرّفها على نجيب قائلاً: «صديقي وهو شاعر وروائي.» تبادلا النظر دون أن يتصافحا. فسر كا هذا بالتوتر. وبعد مدة طويلة أعاد النظر فيما حدث فاستنتج أن الإسلاميين لا يتصافحون بسبب «التستر». غدا نجيب ناصع البياض وكان ينظر إليها كما ينظر إلى هجران القادمة من الفضاء، ولكن حالة قديفة وموقفها عاديين إلى حد أن أحداً في المقهى لم يلتفت لينظر إليها. ولم تكن جميلة كأختها.

ولكن كا شعر بسعادة كبيرة حين كان يسير معها تحت الثلج في شارع أتاتورك. حين كان ينظر إلى وجهها النظيف والبسيط وغير الجميل كوجه أختها والمؤطر بغطاء الرأس، وإلى عينيها الشهلاوين مثل عيني أختها، وانتبه إلى حديثها الطليق، ووجدها جذابة وفَكَّرَ بأنه يخون أختها منذ الآن.

بداية بدآ الحديث بالأرصاد الجوية بشكل غير متوقع. كانت قديفة على علم بتفاصيل الأخبار التي يعلم بها حتى المسنون الذين لا يستطيعون ملء يومهم إلا بتقسيمه والاستماع إلى الإذاعة. وشرحت بأن موجة التيار البارد الناجمة عن ضغط منخفض والقادمة من سيبريا ستستمر يومين آخرين وإذا استمر هذا الندف يمكن ألا تفتح الطرق على مدى اليومين القادمين، وأن ارتفاع الثلج في (صاري قمش) صار ١٦٠ سم، وبأن القارصيين لا يؤمنون بالأرصاد الجوية، ودائماً تبدل الدولة في درجات الحرارة من ٥ ـ ٦ درجات من أجل عدم تخريب معنويات الناس، وهذه من أكثر الإشاعات المتبادلة في قارص (وكا لن يفتح هذا الموضوع لأحد). وكانت في أثناء طفولتها مع إيبك تريدان أن يندف الثلج في اسطنبول أكثر دائماً: يثير فيها الثلج الشعور بجمال الجياة وقصرها، ويثير فيها أيضاً بأن الناس جميعهم متشابهون في الحقيقة على الرغم من العداوات كلها، وأن العالم والزمان واسعان وعالم الإنسان ضيق. لهذا السبب يندس الناس إلى بعضهم بعضاً عندما يندف الثلج. كأن الثلج يندف فوق العداوات والحرص والغضب، ويقربهم من بعضهم بعضاً.

سكتا قليلاً. لم يصادفا أحداً وهما يسيران صامتين في زقاق الشهيد جنكيز طوبِل الذي أغلقت دكاكينه كلها. بقدر ما كان كا يشعر بالسرور لمسيره مع قديفة تحت الثلج بقدر ما شعر بالارتباك. ركز عينيه على واجهة دكان منارة في آخر الشارع: كأنه يخشى من عشقه لقديفة إذا التفت ونظر إلى وجهها أكثر. هل كان عاشقاً لأختها الكبرى؟ في داخله إرادة عقلانية لأن يكون عاشقاً لها بجنون، هذا ما يعرفه. حين وصلا إلى نهاية الزقاق، شاهدا في (مشرب النشوة للبيرة) صوناي ظائم والفرقة المسرحية كلها يشربون بحرارة قبل بدء العرض بعشرين دقيقة وكأنهم يشربون لآخر مرة في حياتهم، خلف الواجهة المضاءة المعلق عليها ورقة دفتر كتب عليها: «بمناسبة العرض المسرحي المسائي أجل السيد زهني سفوك مرشح رئاسة البلدية عن حزب الحرية اجتماعه.»

حين رأى كا الإعلان المطبوع على ورقة صفراء بين الإعلانات على واجهة مشرب البيرة وقد كتب عليه: «الإنسان إبداع الله والانتحار كفر» سأل قديفة عما تفكر به حول انتحار تسليمة.

قالت قديفة بغضب خفيف: «يمكنك الآن أن تحكي عن تسليمة في صحف اسطنبول وألمانيا باعتبارها حكاية غريبة.»

قال كا: «أنا أتعرف على قارص حديثاً، وكلما عرفتها أشعر بأنني لن أستطيع أن أشرح ما يدور فيها خارجها. تغرورق عيناي بالدموع لخيبة حياة الإنسان وتحمله الآلام للاشيء.»

قالت قديفة: «الملحدون الذين لم يتألموا فقط يفكرون بأن الآلام تحتمل للا شيء. والملحدون حين يعانون من الآلام قليلاً لا يحتملون عدم الإيمان فترة طويلة، وفي النهاية يؤمنون.»

قال كا بعناد منحه إياه المشروب: «ولكن تسليمة في النقطة الأخيرة من الألم انتحرت، وماتت دون إيمان.»

«نعم إذا كانت تسليمة قد ماتت منتحرة فهذا يعني أنها ماتت مرتكبة ذنباً. لأن الآية الكريمة التاسعة والخمسين من سورة النساء تمنع الانتحار بشكل واضح. ولكن انتحار صديقتنا وارتكابها ذنباً لا يعني نقصان المحبة العميقة التي تكاد أن تصل إلى مرتبة العشق والتي نكنها لها في قلوبنا.»

قال كا لقديفة محاولاً التأثير عليها: «تقولين بأنه يمكننا أن نحب بقلوبنا بائسة أقدمت على عمل يلعنه الدين؟ هل تريدين القول بأننا نؤمن بالله بعقولنا وليس بقلوبنا مثل الغربيين الذين لم يعودوا بحاجة إليه؟»

قالت قديفة واثقة من نفسها: «القرآن الكريم أمر الله. والأوامر المحددة والواضحة أمور لا يمكننا أن نناقشها نحن العباد. وهذا بالتأكيد لا يعني أنه ليس في ديننا مكان للنقاش. ولكن لطفاً اعذروني فأنا لا أناقش ديني مع ملحد، وحتى إنني لا أناقشه مع علماني.»

«معك حق».

وأضافت قديفة: «لست من الإسلاميين الأفاقين الذين يحاولون الشرح للعلمانيين بأن الدين الإسلامي هو في الحقيقة دين علماني.»

قال كا مرة أخرى دون أن يبتسم: «معك حق أيضاً.»

سارا فترة صامتين. هل يمكن له أن يعشقها بدل أختها؟ كان كا يعرف جيداً أنه لن يشعر بجاذبية جنسية من امرأة تضع غطاء رأس، ولكنه على الرغم من هذا لم يستطع ألا يلهي نفسه بهذه الفكرة السريّة.

حين خرجا إلى ازدحام شارع (قرة ضاغ) بدأ الحديث من الشعر. ومدخل ساذج أضاف بأن نجيب أيضاً شاعر، وسألها عما إذا كانت تعرف أن لها معجبين إلى حد العبادة في ثانوية الأئمة والخطباء باسم هجران.

«باسم ماذا؟»

لخص كا الحكايات الأخرى المحكية حول هجران.

قالت قديفة: «ليس في هذه الحكاية ما هو صحيح. كما أنني لم أسمعها من طالبات ثانوية الأئمة والخطباء اللواتي أعرفهن.» وبعد عدة خطوات قالت مبتسمة: «ولكنني سمعت حكاية الشامبو من قبل» وذكرت بأن أول من اقترح على فتيات الإشاربات حلاقة رؤوسهن بالموسى لكي يجذبن اهتمام وسائل الإعلام الغربية صحفي غني مكروه في اسطنبول. ثم أضافت: «ثمة أمر واحد صحيح في هذه الحكايات: نعم، لقد ذهبت أول مرة إلى صديقاتي المسميات فتيات الإشاربات من أجل السخرية منهن! وكان ثمة فضول داخلي. حسنٌ: ذهبت بفضول ساخر.»

«بعد ذلك ماذا حدث؟»

«جئت إلى هنا لأن علاماتي جعلتني أُقبَل في معهد المعلمين، ولأن أختي الأكبر بالأصل هنا. بالنتيجة فإن تلك الفتيات زميلاتي في الصف، وستذهب إلى بيوتهن حين يدعونك حتى لو كنت غير مؤمن. في رؤيتي يومئذ ثمة شعور بأنهن على حق. آباؤهن وأمهاتهن هكذا ربوهن. حتى إن الدولة التي تدرس التربية الدينية تدعم هذا الموقف. الفتيات اللواتي قالوا لهن على مدى سنوات: غطوا رؤوسكن! يقولون لهن: إكشفن رؤوسكن لأن الدولة تريد هذا. وأنا غطيت رأسي في أحد الأيام من أجل التضامن السياسي فقط. كنت أخاف مما أفعله، ومن جهة أخرى ابتسم. لعل هذا لتذكري بأنني ابنة أبي الملحد المعارض الأزلي للدولة. حين ذهبت إلى هناك كنت واثقة من

أنني أعمل هذا ليوم واحد: كان ذاك عبارة عن ذكرى سياسية حلوة، وموقف حرية يمكن تذكره بعد سنوات باعتباره ممازحة. ولكن الدولة والشرطة والجرائد المحلية هاجمتني، وهذا ما جعلني لا أستطيع إبراز الجانب الساخر والشبيه باللعب، ولم أتمكن من الانسحاب وبذريعة أننا قمنا بمظاهرة دون إذن أدخلونا إلى السجن. حين خرجت من السجن بعد يوم لو أنني قلت: إنني تراجعت، وأنا أصلاً منذ البداية غير مؤمنة! ستبصق قارص كلها في وجهي. أما الآن فأنا أعرف أن الله هيأ لي كل ذلك القمع لكي أجد الطريق الصحيح. في أحد الأيام كنتُ مثلك ملحدة ـ لا تنظر إليّ هكذا ـ أشعر بأنك تشفق علي.»

«أنا لا أنظر إليك هكذا؟»

«تنظر. أنا لا أشعر بنفسي مضحكة أكثر منك، كما لا أشعر بأنني متفوقة عليك. اعرف هذا.»

«ماذا يقول أبوك حول هذا كله؟»

«نحن نتدبر أمورنا. ولكن الأمور تنجر إلى مكان لا يمكن فيه تدبرها وأنا خائفة جداً من هذا، لأننا نحب بعضنا بعضاً كثيراً. في البداية افتخر بي أبي كثيراً، وتصرف كأن ذهابي إلى المعهد مغطاة الرأس أسلوب خاص جداً من التعبير عن التمرد. وقف معي ناظراً إلى المرآة ذات الإطار البرونزي الباقية من زمن أمي وتفرج على وضع الإشارب على رأسي، وقبلني حين كنا مقابل المرآة. على الرغم أننا قليلاً جداً ما نتكلم، ولكن ما هو مؤكد: كان يحترم ما قمت به لا لأنها حركة إسلامية، بل لأنها حركة ضد الدولة. كان لسان حاله يقول: هذا ما يليق بابنتي، ولكنه كان مثلي خائفاً سراً. حين حبسونا أعرف أنه خاف وندم. وادعى بأن الشرطة السياسية لا تعمل هذا من أجلي، بل ما زالت تلاحقه هو. عناصر تشكيلات المخابرات القومية التي كانت تصنف اليساريين والديمقراطيين الذين كانوا كثيرين جداً هنا بدؤوا الآن بتشطيب الإسلاميين، وهذا ما يجعل بدايتهم مع ابنة يساري قديم مفهومة. كان هذا يصعّب علي أن أخطو خطوة تراجعية، وأبي يضطر لتقديم الدعم لي في كل خطوة أخطوها، ولكن هذا يصعب تدريجياً. هنالك بعض المسنين يسمعون بعض الأصوات المنبعثة من البيت مثل طقطقة المدفأة، وثرثرة زوجته غير

المنتهية حول بعض المواضيع، وصرير مزلاج الباب، ولكن عقولهم لا تنتبه أبداً لتلك الأصوات: وهذا ما يفعله أبي إزاء مقاومتي مع فتيات الإشاربات. يريد أن يثأر لنفسه عبر جعل إحدى تلك الفتيات اللواتي يأتين إلى بيتنا ملحدة، ولكن سرعان ما تتحول الأمور في النهاية إلى مجاملات في مناهضة الدولة. ولأن الفتيات لا ينكسرن لأبي، وأرى أن ردودهن ناضجة فأعمل اجتماعات في البيت. هذا المساء ستأتي إحدى الفتيات، وتدعى (هاندا). ونتيجة ضغوط أهلها عليها بعد انتحار تسليمة قررت أن تكشف رأسها، ولكنها لا تستطيع تطبيقه. أحياناً يقول أبي أن هذا كله يذكره بأيامه القديمة حين كان شيوعياً. ثمة نوعان من الشيوعية: مغرورون يريدون جعل الشعب جيداً، وتطوير البلد، وثمة بريئون يدخلون إلى هذا العمل بدافع من مشاعر العدالة والمساواة. المغرورون متعلقون بعقدة السلطة، ويقدمون النصح للجميع، ولا يأتي منهم سوى المساوئ. أما البريئون فلا يسيئون إلا لأنفسهم: هذا الأمر الوحيد الذي يعملونه أصلاً. بينهما يريدون بشعور الذنب مشاركة الفقراء آلامهم، يعيشون ما هو أسوأ. كان أبي معلماً. طردوه من الوظيفة، عذبوه واقتلعوا أحد أظافره، ونوّموه في السجن. أدار دكان قرطاسية لسنوات طويلة مع أمي، واشتغلا بالفوتوكوبي، وترجم بعض الروايات عن الفرنسية، كما أنه جاب على أبواب البيوت باباً باباً مسوقاً موسوعة بالتقسيط. في الأوقات التي كنا فيها تعساء جداً ونعاني من الحرمان، وأحياناً دون أي مناسبة يحتضننا باكياً. ويخشى كثيراً من وقوع سوء لنا عندما جاء رجال الشرطة إلى الفندق إثر إطلاق النار على مدير معهد المعلمين بدأ يخاف. وقيل لهم هذا. انتهى إلى أذني بأنكم قابلتم كحلياً. لا تخبروا أبي بهذا.»

قال كا: «لن أخبره.» وتوقف لينفض الثلج عن جسمه ورأسه. «ألم نكن سائرين بهذا الاتجاه، نحو الفندق؟»

«يمكن الذهاب من هنا أيضاً. لا الثلج يهدأ، ولا الأمور التي يمكن الحديث حولها تنتهي. لأريك زقاق القصابين أيضاً. ماذا يريد كحلي منكم؟»

«لا شيء.»

«هل ذكرنا، أي ذكر أبي أو أختي؟»

رأى على وجه قديفة تعبيراً عن القلق، قال: «لا أذكر.»

«الجميع يخافون منه. ونحن أيضاً نخاف. هذه الدكاكين كلها هي دكاكين مشاهير القصابين.»

سأل كا: «كيف يقضي والدك يومه؟ ألا يخرج من الفندق ـ بيتكم أبداً؟»

«هو يدير الفندق. يوجه الأوامر للجميع، للمشرف، والمنظف، والمرأة التي تغسل، وخدم الفندق. ونحن أيضاً أختي وأنا نراقب. قليلاً ما يخرج أبي. ما هو برجكم؟»

قال كا: «الجوزاء. يقال إن الجوزاء يكذب كثيراً، ولكنني لا أعرف.»

«ما الذي لا تعرفونه؟ هل هو أنكم تكذبون كثيراً، أم أنكم لا تعرفون أنكم كذبتم؟»

«إذا كنت تؤمنين بالأبراج فعليك أن تستنتجي من مكان ما أن اليوم يوم خاص جداً بالنسبة إليّ.»

«نعم، قالت هذا أختي. قالت إنك كتبت اليوم قصيدة.»

«هل تخبرك أختك بكل شيء؟»

«لدينا هنا تسليتان. الحديث حول كل شيء، ومتابعة التلفاز. ونتحدث في أثناء متابعة التلفاز، كما نتابع التلفاز ونحن نتحدث. أختي جميلة جداً أليست كذلك؟»

قال كا باحترام: «نعم، جميلة جداً.» ثم أضاف بتربية: «ولكنك أنت أيضاً جميلة؟ والآن هل ستخبرينها بهذا؟»

قالت قديفة: «لن أخبرها. ليكن سراً بيننا. كتم الأسرار بداية الصداقة الجيدة.»

نفضت الثلج المتراكم على معطفها المطري البنفسجي الطويل.

[١٤]

كيف تكتبون الشعر؟

على طعام العشاء. حول العشق والحجاب والانتحار

رأيا ازدحاماً ينتظر أمام باب مسرح الشعب من أجل «العرض» الذي سيبدأ بعد قليل، على الرغم من نَدْفِ الثلج البادي أنه لن يتوقف، اجتمع على أمل المتعة عاطلون عن العمل وشباب يرتدون قمصاناً وسترات خرجوا من مهاجع النوم أو البيوت، أولاد هربوا من بيوتهم على الرصيف أمام باب البناء الممتد عمره إلى مائة وعشر سنوات. ثمة أسر معها أولادها أيضاً. رأى كا أول مرة في قارص مظلة سوداء مفتوحة. تعرف قديفة أن في البرنامج قصيدة لكا، ولكنه لن يذهب، وقال مغلقاً الموضوع بأن لا وقت لديه.

شعر بأن قصيدة جديدة توحى إليه. سار مسرعاً إلى الفندق محاولاً عدم الكلام. وبذريعة أنه سيرتب نفسه قبل الطعام صعد مسرعاً إلى غرفته، وخلع معطفه، وجلس إلى الطاولة الصغيرة، وكتب مسرعاً. الموضوع الأساسي للقصيدة هو الصداقة وحفظ الأسرار. كان يدخل إلى القصيدة الثلج كما تدخل النجوم وتفاصيل اليوم السعيد الخاص، وبعض عبارات قديفة كما وردت تماماً على لسانها. وكان كا يتفرج على أشطر الأبيات مستمتعاً ومنفعلاً كأنه يتفرج على رسم. طور ما تحدث به مع قديفة إلى منطق عقلي سري، وفي القصيدة المعنونة «صداقة النجوم» تناول موضوع وجود نجم لكلِّ إنسان، ولكل نجم صديق، ولكل إنسان نجمه الذي يشبهه، وشبيه به، وهذا الشبيه هو كاتم أسراره. وعلى الرغم من شعوره بداخله بموسيقى الشعر وتكامله فإن بقاء بعض الأشطر والكلمات ناقصة سيفسره بانشغاله بإيبك وتأخره عن الطعام والسعادة الزائدة.

حين انتهت القصيدة عبر من بهو الفندق إلى الجناح الصغير الذي يسكنه أصحاب الفندق. وهنا على رأس الطاولة التي تتوسط الغرفة الواسعة المرتفعة السقف يجلس السيد طورغوت وابنتاه إيبك وقديفة. ثمة فتاة ثالثة على طرف آخر من الطاولة المغطاة بغطاء بنفسجي أنيق أدرك كا بسرعة أنها هاندا صديقة قديفة. رأى مقابلها السيد سردار الصحفي. وشعر من خلال عبثية المائدة وجمالها الغريب واجتماع هذه المجموعة الصغيرة التي تبدو سعيدة من اجتماعها، ومن حركات الخادمة الكردية زاهدة المبدية سعادة ومهارة من خلال ذهابها إلى المطبخ الذي بالخلف وعودتها منه مسرعة ـ شعر ـ بأن مائدة السيد طورغوت وبناته المسائية هذه غدت عادة تمتد إلى زمن طويل.

قال السيد طورغوت وهو ينهض على قدميه: «طوال اليوم وأنا أفكر فيكم، وطوال اليوم وأنا مشغول البال عليكم، أين تأخرتم؟» وفجأة اقترب منه وعانقه مما جعل كا يعتقد بأنه سيبكي. ثم قال بأداء تراجيدي: «يمكن أن تحدث أمور سيئة في كل لحظة.»

وبعد أن جلس حيث أشار له على طرف الطاولة المقابل له مباشرة، واحتسى حساء العدس الساخن الموضوع أمامه منفعلاً، وبدأ الرجلان الآخران اللذان على المائدة بشرب العرق، واتجه انتباه الجميع إلى شاشة التلفاز الموضوع على مبعدة خلفه قام كا بما أراد أن يقوم به منذ مدة طويلة، ونظر إلى وجه إيبك الجميل متملياً.

ولأن السعادة الواسعة غير المعترفة بحدود كتبها كا فيما بعد في دفتره فإنني أعرفها بالتفصيل: ذراعاه ورجلاه تتحركان دون توقف مثل الأطفال السعداء، وكان يتململ نافد الصبر كأنه مضطر للحاق في اللحظة الأخيرة بالقطار الذي سيأخذه مع إيبك إلى فرانكفورت. وبدأ يتخيل بأن ضوءاً ينبعث من مصباح طاولته التي يعمل عليها في شقته الصغيرة في فرانكفورت يشبه الضوء الذي يسقط على كتب السيد طورغوت وجرائده ودفاتر فندقه وفواتيره وطاولة عمله المبعثرة تماماً سيسقط على وجه إيبك.

بعد ذلك بقليل رأى قديفة تتطلع إليه. حين التقى وجهه بوجهها الأقل جمالاً من وجه أختها بدا للحظة ما يشبه تعابير الغيرة على وجهها، ولكن ـ قديفة بابتسامة كاتمة أسرار ـ نجحت بإخفاء هذا خلال لحظة.

كان الذين حول المائدة يتطلعون بأطراف عيونهم في أوقات متفرقة إلى التلفزيون المفتوح في الخلف. بدأ للتو النقل الحي للأمسية من مسرح الشعب. وحين بدأ الممثل الطويل مثل العصا والذي رآه كا في الليلة الأولى حين نزل من الحافلة بين أفراد الفرقة المسرحية بتقديم الأمسية وهو يتمايل إلى اليمين وإلى اليسار، فجأة غير السيد طورغوت المشهد بواسطة جهاز التحكم الذي بيده. نظروا مطولاً إلى المشهد الأسود والأبيض المعكر ذي النقط البيضاء غير المفهوم.

قالت إيبك: «بابا، لماذا تتابعون هذا الآن؟»

قال أبوها: «هنا يندف الثلج على الأقل فهو مشهد صحيح خبر حقيقي. كما أنك تعرفين بأن متابعتي قناة واحدة مدة طويلة يجرح كرامتي.»

قالت قديفة: «إذن أغلقوا التلفاز لطفاً يا بابا. إننا هنا نعيش أمراً آخر يجرح كرامتنا جميعاً.»

قال أبوها خجلاً: «احكوا هذا لضيفنا. عدم معرفته به يقلقني»

قالت هاندا: «وأنا أيضاً.» لها عينان غاضبتان، جميلتان بشكل غير طبيعي، واسعتان. سكت الجميع لحظة.

قالت قديفة: «احكي أنت يا هاندا. ليس هنالك ما يخجل في هذا الأمر.»

قالت هاندا: «على العكس، ثمة كثير مما يخجل، لهذا السبب أريد أن أحكي.» فجأة أشرق وجهها بنشوة غريبة. ابتسمت كأنها تتذكر ذكرى ممتعة، وقالت: «اليوم أربعينية انتحار صديقتنا تسليمة. كانت تسليمة الأكثر إيماناً بيننا في الصراع من أجل دينها ومن أجل كلام الله. كان غطاء الرأس بالنسبة إليها لا يعني محبة الله فقط، بل يعني إيمانها وكرامتها أيضاً. لم يخطر ببال أحد بأنها يمكن أن تنتحر. كان والداها في البيت ومدرسوها في المعهد يضغطون عليها دون رحمة من أجل أن تكشف رأسها، ولكن تسليمة كانت تقاوم. كانت على وشك أن تفصل من المعهد الذي درست فيه ثلاث سنوات وهي على أبواب التخرج. في أحد الأيام حاصر بعض الرجال من مديرية الأمن أباها السمان، وقالوا له: إذا لم تكشف ابنتك رأسها وتأتِ إلى المعهد سنغلق دكانك، ونطردك من قارص. لهذا السبب هدد الأب تسليمة بالطرد من البيت

بداية، وعندما لم يؤد هذا إلى شيء خطط لتزويجها من شرطي أرمل في الخامسة والأربعين من عمره. حتى إن الشرطي بدأ يتردد على الدكان حاملاً الأزهار. ونفرت تسليمة من هذا الرجل الذي أسمته (العجوز صاحب العينين المعدنيتين) إلى حد قولها لنا بأنها ستكشف رأسها لكي لا تتزوج من هذا الرجل. ولكنها لم تكن تستطيع بأي شكل تنفيذ قرارها هذا. بعضنا وافقها على قرارها لكي لا تتزوج من صاحب العينين المعدنيتين، وبعضنا قال لها: هددي والدك بالانتحار. وكنت المقترحة هذا الاقتراح عليها أكثر من غيري، لأنني كنت لا أريد أن تكشف تسليمة رأسها. كثيراً ما قلت لها: الانتحار خير من كشف المرأة رأسها. كنت أقول هذا مجرد كلام. كنا نفكر بأن انتحار النساء الذي نقرأ عنه في الجرائد ناجم عن عدم الإيمان، والتعلق بالحياة المادية، ويأس العشق، ونعتقد بان كلمة الانتحار ستخيف أباها. لم أكن أضع أي احتمال لانتحار تسليمة لأنها فتاة مؤمنة. ولكن حين سمعنا بأنها شنقت نفسها صدقتُ هذا قبل الجميع. لأنني شعرت بإمكانية إقدامي على الانتحار فيما لو كنت مكان تسليمة.»

بدأت هاندا بالبكاء. سكت الجميع. ذهبت إيبك إلى جوار هاندا، وقبلتها ومسحت بيدها عليها. انضمت قديفة إليها: تعانقت الفتيات. وقال السيد طورغوت الذي بيده جهاز التحكم كلماتٍ حلوة. ولكي لا تبكي شارك الجميع بالممازحة. وكمن يريد إلهاء طفل صغير لفت السيد طورغوت النظر إلى الزرافة التي ظهرت على الشاشة. والأكثر من هذا، كطفل جاهز للهو نظرت هاندا بعينيها الدامعتين إلى الشاشة. تابع الجميع فترة طويلة زوج الزرافات المتقدم سعيداً كما في أفلام العرض البطيء في مكان بعيد جداً، لعله في قلب أفريقيا، وسط الظلال في أراض مشجرّة، ناسين حياتهم كلها.

فيما بعد، قالت قديفة لكا: «بعد انتحار تسليمة قررت هاندا أن تكشف رأسها، وأن تعود إلى المدرسة لكي لا تحزن أباها وأمها أكثر. يا لما تحملا من مصاعب وحرمان لتربيتها وكأنها يربيان ولداً وحيداً. حلم أبوها وأمها دائماً بأنها سترعاهما في المستقبل. هاندا ذكية جداً.» قالت هذا بصوت حلو كأنها تهمس، ولكنها كانت تتكلم بحيث تسمعها هاندا. والفتاة الدامعة العينين كانت تستمع إليها كالجميع وهي تنظر إلى الشاشة. «نحن في البداية حاولنا إقناعها

بعدم ترك مقاومة فتيات الإشاربات، ولكننا حين فهمنا أن كشف رأسها أفضل من انتحارها قررنا أن نساعد هاندا. من الصعب جداً على فتاة عرفت أن غطاء الرأس أمر الله، ورغبت به باعتباره راية أن تنزعه فيما بعد وتخرج بين الناس. لقد أغلقت هاندا على نفسها الباب منذ أيام تريد التركيز في أمر قرارها هذا.»

انكمش كا كالآخرين شاعراً بالذنب، ولكن عندما لامس ذراعه ذراع إيبك نشر في داخله سعادة. بينما كان السيد طورغوت يغيّر الأقنية بسرعة، أسند كا ذراعه إلى ذراع إيبك باحثاً عن السعادة ذاتها. حين بادلته إيبك ذات الفعل نسي الحزن الذي على المائدة. ظهرت على شاشة التلفاز أمسية مسرح الشعب. شرح الرجل الطويل مثل عصا عن اعتزازه بأن يكون جزءاً من أول بث حي في تاريخ قارص. وبينما كان يقرأ برنامج الأمسية ذكر حكايات ذات عبرة، اعترافات حارس المرمى الوطني، سطوراً مخجلة من تاريخنا السياسي، مشاهدَ من شكسبير وفيكتور هيغو، اعترافات غير متوقعة، سفالات، أسماء لا تنسى من المسرح والسينما التركية، ممازحات، أغنيات، ومن بين المفاجآت المخيفة سمع كا اسمه يقرأ باعتباره: «شاعرنا الأكبر الذي عاد بصمت إلى بلدنا بعد غياب سنوات طويلة.» أمسكت إيبك يد كا من تحت الطاولة.

قال السيد طورغوت: «سمعت أنك لا تريد الذهاب إلى هناك مساء»

قال مسنداً ذراعه أكثر إلى إيبك: «أنا هنا مسرور جداً، وممنون جداً يا سيدي.»

قالت هاندا: «في الحقيقة أنا لا أريد أن أخرب سعادتكم.» الجميع تقريباً خافوا منها، «ولكنني في الحقيقة جئت هذا المساء إلى هنا من أجلكم. أنا لم أقرأ أي كتاب من كتبكم، ولكن يكفيني أنكم شاعر ذهبتم إلى ألمانيا، ورأيتم العالم. قولوا لي لطفاً، هل كتبتم شعراً في الأيام الأخيرة؟»

قال كا: «في قارص ألهمت بالعديد من القصائد.»

«اعتقدت أن بإمكانكم إخباري بكيفية التركيز على موضوع معين. لطفاً قولوا لي هذا: كيف تكتبون الشعر؟ أليس هذا عملية تركيز؟»

في الأمسيات الشعرية التي أقيمت في ألمانيا للقراء الأتراك هذا أكثر سؤال تطرحه النساء على الشعراء، ولكن كا ارتعش كما في كل مرة يطرح عليه هذا السؤال وكأنه يُسأل سؤالاً خاصاً جداً. قال: «لا أعرف كيف يكتب

الشعر. الشعر الجيد كأنه يأتي من الخارج، من مكان بعيد» رأى أن هاندا تنظر إليه مشتبهة بجوابه. «ماذا تفهمون من عملية التركيز، قولي لطفاً.»

«أبذل جهودي طوال اليوم، ولكن ما يتجسد أمام عيني هو ما لم أرد تجسده. تتجسد حالتي دون غطاء رأس. ويتجلى أمام عيني ما أريد أن أنساه.»

«مثل ماذا؟»

«عندما ازداد عدد الفتيات المغطيات رؤوسهن أرسلوا إلينا امرأة من أنقرة لكي تقنعنا. (امرأة الإقناع) تلك التقت بنا واحدةً واحدة مدة طويلة في غرفة. سألتنا مئات الأسئلة مثل: هل يضرب أبوك أمَك؟ كم أخ أنتم؟ كم ليرة يكسب أبوك في الشهر؟ ماذا كنت ترتدين قبل وضع الإشارب؟ هل تحبين أتاتورك؟ أية صور معلقة على جدران بيتكم؟ كم مرة تذهبين إلى السينما في الشهر؟ هل المرأة والرجل متساويان بالنسبة إليك؟ من أكبر: الله أم الدولة؟ هل تعرضت للتحرش داخل البيت؟ وكتبت أجوبتنا على أوراق، وملأت استمارات خاصة بنا. كانت شفتاها مصبوغتين وكذلك شعرها. رأسها مكشوف، أنيقة جداً كما في مجلات الأزياء، ولكنها لا أدري كيف، بسيطة جداً. في الحقيقة أننا أحببناها على الرغم أنها أبكت بعضنا... بعضنا قال لنفسه إن شاء الله لا تلتاث بقذارة قارص وطينها. فيما بعد بدأت أراها في أحلامي، ولكنني لم أهتم بداية. أما الآن فكلما تخيلتُ أنني سأكشف شعري وأسبله وأمشي بين الناس أرى نفسي (امرأة الإقناع). أنا أيضاً صرت أنيقة مثلها أنتعل حذاء ذا كعبين رفيعين، وارتدي ثياباً مكشوفة أكثر من ثيابها، والشباب يهتمون بي. وهذا يسعدني من جهة، ويخجلني من جهة أخرى.»

قالت قديفة: «لا تحكي عن خجلك إن أردت يا هاندا.»

«لا، سأحكي. لانني أخجل في خيالي ولكنني لا أخجل من خيالي. في الحقيقة لا أؤمن بأنني عندما أكشف رأسي سأصير امرأة تريد إثارة الشباب، ومتعلقة جداً بشهواتها. لأنني سأكشف رأسي دون أن أؤمن بما أفعل. ولكنني أعرف أن الإنسان يمكن أن تجرفه أحاسيس الشهوة في الحالات التي لا يؤمن بها واللحظات التي يعتقد أنه لا يريدها. جميعنا نساء ورجالاً في حياتنا اليومية نرتكب الذنوب مع أرواح نعتقد أننا لا نريدها أبداً. أليس هذا صحيحاً؟»

قالت قديفة: «كفى يا هاندا.»

«أليس هذا صحيحاً؟»

قالت قديفة «لا» والتفتت نحو كا: «قبل سنتين كانت هاندا ستتزوج من شاب كردي وسيم جداً. ولكن الشاب دخل السياسة، وقتلوه...»

قالت هاندا غاضبة: «كشف رأسي لا علاقة له بهذا. سبب عدم استطاعتي كشف رأسي هو عدم استطاعتي التركيز وتصور حالتي مكشوفة الرأس. في كل محاولة من محاولات التركيز إما أن أرى حالتي قد تحولت إلى غريبة سيئة مثل (امرأة الإقناع)، أو امرأة متعلقة بشهواتها. لو أنني استطعت تصور نفسي داخلة من باب المعهد مكشوفة الرأس، وأسير في الممرات، وأدخل إلى الصف سأجد في نفسي ـ إن شاء الله ـ القوة لأقوم بهذا العمل، وسأغدو حرة عندئذ. لأنني سأكون قد كشفت رأسي بإرادتي ورغبتي، وليس تحت ضغط الشرطة. ولكنني لا أستطيع التركيز على تلك اللحظة.»

قالت قديفة: «لا تهتمي بتلك اللحظة إلى هذا الحد. حتى لو أنك انهرت في تلك اللحظة فأنت دائماً روحنا هاندا التي نعرفها.»

قالت هاندا: «لا. إنكم تدينونني، وتستهينون بي لأنني قررت الانفصال عنكم وكشف رأسي.» والتفت إلى كا: «أحياناً تتبدى أمام عيني فتاة تدخل إلى المعهد مكشوفة الرأس، وتتقدم في الممرات، وتدخل إلى صفنا الذي اشتقت إليه كثيراً. حتى إنني في تلك اللحظة أشم رائحة الممرات وأتذكر هواء الصف الثقيل. وفي تلك اللحظة أرى تلك الفتاة عبر النافذة التي تفصل الصف عن الممر، فأدرك أن تلك الفتاة ليست أنا وأبدأ بالبكاء.»

اعتقد الجميع أن هاندا ستبكي من جديد.

قالت هاندا: «أنا لا أخاف كثيراً من أن أكون فتاة أخرى. ما يخيفني هو عدم استطاعتي العودة إلى حالتي الراهنة، ونسيانها. الإنسان في الحقيقة يمكن أن ينتحر لهذا السبب.» التفتت إلى كا وقالت بأداء استفزازي: «هل أردتم أن تنتحروا في لحظة ما؟»

«لا، ولكن الإنسان يمكن أن يفكر بهذا الموضوع بعد قضية النساء في قارص.»

«إرادة الانتحار بالنسبة لكثير من الفتيات اللواتي في وضعنا يعني امتلاكنا

لأجسادنا. تنتحر الفتيات المخدوعات الفاقدات بكارتهن، والباكرات المزوجات لرجال لايردنهم. ويرين انتحارهن إرادة البراءة والصفاء. هل كتبتم شعراً حول الانتحار؟» التفتت إلى إيبك بدافع غريزي: «هل ضايقت ضيفكم كثيراً؟ ليقل لي لماذا أتاه الشعر في قارص، وأدعه براحته.»

«حين أشعر أن الشعر يأتي يمتلئ قلبي بالشكر لمرسله لأنني أصير سعيداً جداً.»

«وهل هو الذي يجعلكم تركزون على الشعر؟ ومن هو؟»

«على الرغم من عدم إيماني فإنني أشعر بأنه يرسل إليّ الشعر.»

«ألا تؤمنون بالله، أم أنكم لا تؤمنون بأنه يرسل إليكم الشعر؟»

قال كا ملهماً: «الشعر يرسله إليّ الله.»

قال السيد طورغوت: «لقد رأى هنا كيف تتصاعد الحركة الدينية. ولعلهم هددوه... خاف وبدأ يؤمن بالله.»

قال كا: «لا، هذا ينبع من قلبي. أريد أن أكون مثل كل شخص هنا.»

«خفتم. أنا أدينكم.»

صرخ كا في الوقت نفسه قائلاً: «نعم، أنا خائف. وخائف جداً.»

نهض على قدميه كأن مسدساً مصوباً إليه. وهذا ما قاد الذين حول المائدة إلى الاضطراب وصرخ السيد طورغوت: «أين؟» وكأنه يشعر بسلاح موجه إليه. وقالت هاندا لنفسها: «أنا لا أخاف. ولا أهتم بشيء.»

ولكنها كانت تنظر إلى وجه كا كالآخرين لكي تحدد وجهة الخطورة. وبعد سنوات قال لي الصحفي السيد سردار بأن وجه كا كان أبيض كالكلس ولكن لم يكن تعبيراً عن الخوف أو الدوخان، بل هنالك تعابير سعادة عميقة على وجهه. أما الخادمة فقد تمادت شارحة لي بعناد بأن ضوءاً قد ولد، وأغرق كل شيء بالنور. كان كا منذ ذلك اليوم في نظرها بمرتبة قديس. أحد الذين في الغرفة قال في تلك اللحظة: «جاء إلهام الشعر» وقابل كل من هنالك هذا الأمر بانفعال وخوف يتجاوز ما يشعر به فيما لو كان ثمة سلاح موجه إليه.

وبينما كان يحاول تقييم ما يجري ممسكاً دفتراً وقلماً كان توتر الانتظار في الغرفة يشبه جلسات تحضير الأرواح التي شهدناها حين كنا صغاراً. أمسيات تلك الجلسات التي تنظمها والدة أحد أصدقائنا في أحد الشوارع الخلفية من منطقة نيشان طاش، البدينة التي ترملت في سن مبكرة قبل خمسة وعشرين عاماً كانت تحضرها ربات بيوت تعيسات وعازف بيانو شلت أصابعه، ونجمة سينما متوسطة العمر صابرة كنا نسأل عنها قائلين: «وهل ستأتي هي أيضاً.» وأختها التي تدوخ كل فترة، وعميد متقاعد يحاول إقامة علاقة مع النجمة، وكنا نحضر كا وأنا مع صديقنا الذي يمررنا من الغرفة الخلفية إلى الصالة بهدوء. وكان أحدهم يقول: «أيتها الروح إذا جئت فأعلمينا.» ثم يخيم صمت طويل، بعد ذلك تصدر خربشة غير واضحة تماماً، وصرير كرسي، وأنين، أو صوت رفسة قوية لقائمة الطاولة أحياناً، وأحدهم كان يقول خائفاً: «جاءت الروح.». ولكن كا لم يكن كمن قابل روحاً. مشى نحو باب المطبخ. كان على وجهه تعبير سعادة.

قال السيد طورغوت: «شرب كثيراً. ساعدوه.»

هرعت إيبك إليه، وكأن تلك العبارة قيلت موجهة إليها. جلس كا على كرسي بجانب باب المطبخ، وأخرج من جيبه دفتره وقلمه.

قال: «لا أستطيع الكتابة وأنتم واقفون تتفرجون علي هكذا.»

قالت إيبك: «لآخذك إلى غرفة في الداخل.»

إيبك في المقدمة، وكا وراءها يعبران من المطبخ الذي تفوح منه رائحة ذكية حيث تصب زاهدة القطر على القطايف، ومن غرفة باردة، ثم يدخلان إلى غرفة شبه مظلمة في الخلف.

أشعلت إيبك المصباح، قالت: «هل تستطيع أن تكتب هنا؟»

رأى كا غرفة نظيفة، وسريرين مرتبين. وعلى طاولة صغيرة تستخدمها الأختان باعتبارها كوميدينة وطاولة في آن واحد رأى عصارتي كريم، وأحمر شفاه، ومجموعة زجاجات كولونيا صغيرة وزيت لوز ومشروباً ليس فاخراً، وكتباً، وحقيبة ذات سحاب مليئة بالفراشي، وعلبة شيكولا سويسرية مليئة بالأقلام، وخرزات الحسد، وعقوداً وأساور. جلس على السرير المجاور للنافذة المتجلدة.

قال: «يمكنني أن أكتب هنا. ولكن لا تتركيني وتذهبي.»

«لماذا؟»

بداية قال كا: «لا أعرف» وبعد ذلك قال: «أنا خائف.»

في هذه الأثناء بدأ بكتابة القصيدة التي تبدأ من صورة علبة شيكولا جلبها عمه من سويسرا حين كان طفلاً. كان على العلبة مناظر سويسرية كما على جدران مقاهي قارص. وبحسب الملاحظات التي دونها كا من أجل أن يفهم القصائد التي «أتته» في قارص، ويصنفها، ويدخلها نظاماً معيناً فقد خرج من الصندوق الذي في القصيدة ساعة لعبة سيدرك بعد يومين أنها منذ طفولة إيبك. وكان سيفكر كا بقول بعض الأمور حول زمن الطفولة وزمن الحياة انطلاقاً من هذه الساعة.

قال كا لإيبك: «لا أريدك أن تتركيني أبداً. لأنني أعشقك بشكل رهيب.»

قالت إيبك: «إنك تكاد لا تعرفني.»

قال كا بأداء تربوي: «ثمة نوعان من الرجال. الأول قبل أن يعشق عليه أن يعرف كيف تأكل الفتاة السندويش، وكيف تمشط شعرها، وبأي التفاهات تفكر، وممّ يغضب أبوها، والحكايات التي تحكي عنها، والأساطير التي تحاك. أما الثاني ـ وأنا من هذا النوع ـ يجب أن يعرف قليلاً جداً عن الفتاة كي يعشق.»

«أي أنك تعشقني لأنك لا تعرف عني شيئاً؟ وهل ترى بأن هذا عشقاً؟»

قال كا: «هكذا يكون العشق الذي يمكن للإنسان أن يقدم له كل ما يملك.»

«سينتهي العشق حين تعرف كيف آكل السندويش، وبماذا يتعلق تفكيري.»

«ولكن حينئذ سيتعمق القرب بيننا متحولاً إلى رغبة تلفّ جَسَدَينا، وسعادة تربط بيننا، وذكريات.»

قالت إيبك: «لا تنهض، اجلس على حافة السرير. أنا لا أستطيع تبادل القبل مع أحد تحت سقف واحد مع أبي.» ولكنها لم تعارض قبلات كا في

البداية. ثم قالت دافعة كا: «حين يكون أبي في البيت لا أستمتع.»

مرة أخرى ضغط عليها كا، وقبلها من شفتيها، ثم جلس على حافة السرير: «علينا أن نتزوج بأسرع ما يمكن، ونذهب هاربين من هنا. أتدرين كم سنكون سعداء في فرانكفورت؟»

خيم صمت.

«كيف تعشقني رغم أنك لا تعرفني؟»

«لأنك جميلة.. ولأنني أتخيل بأننا سنكون سعداء معاً... ولأنني أستطيع البوح لك بكل شيء دون خجل. أنا أتخيل أننا دائماً نمارس الحب.»

«ماذا كنت تفعل في ألمانيا؟»

«كنت مشغولاً بما لم أستطع كتابته من شعر، وكنت أمارس العادة السرية دائماً... الوحدة مشكلة غرور. الإنسان يدفن برائحة نفسه بشكل من أشكال الغرور. سؤال الشاعر الحقيقي هو دائماً نفسه. إذا كان سعيداً مدة طويلة سيكون سافلاً. وإذا استمر فترة طويلة تعيساً فلن يجد في نفسه القوة التي تحافظ على حيوية الشعر... يتزامن الشعر الحقيقي والسعادة في فترة قصيرة جداً. بعد مدة إما أن تسفّل السعادة الشعر والشاعر، أو أن الشعر الحقيقي يخرب السعادة الحقيقية. صرت خائفاً جداً من العودة إلى فرانكفورت والتعاسة.»

قالت إيبك: «ابق في اسطنبول.»

نظر كا بانتباه قال هامساً: «هل تريدين أن تعيشي في اسطنبول؟». الآن يريد برغبة شديدة أن تطلب إيبك منه شيئاً.

شعرت المرأة أيضاً بهذا، فقالت: «لا أريد شيئاً.»

كان كا يشعر بأنه تسرع. كما كان يشعر بأنه لا يمكنه البقاء في قارص إلا مدة قصيرة جداً، وبعد فترة قصيرة لن يستطيع التنفس هنا، وليس أمامه سوى أن يسرع. أصغيا إلى أصوات الحديث غير الواضحة تماماً المنبعثة من الداخل، وإلى (الحنتور) العابر من أمام النافذة ساحقاً الثلج. كانت إيبك واقفة عند باب الغرفة، تمشط شعرها بفرشاة علقت بيدها وهي سارحة. قال كا: «هنا كل شيء فقير ويائس يجعل الإنسان ينسى أن يطلب واحدة مثلك. هنا

الإنسان لا يمكنه أن يحلم بالعيش، بل بالموت فقط. . . هل ستأتين معي؟» لم تجب إيبك.

قال كا: «إذا كنت ستجيبين إجابة سيئة فلا تقولي شيئاً.»

قالت إيبك وهي تنظر إلى الفرشاة: «لا أعرف. إنهم ينتظروننا في الداخل.»

قال كا: «ثمة ما يحاك في الداخل. أنا أشعر بهذا، ولكنني لم أستطع فهم ما يجري. اشرحي لي أنت.»

قطع التيار الكهربائي. حين لم تتحرك إيبك، أراد كا أن يعانقها، ولكن خشيته من العودة إلى ألمانيا وحيداً لفته، فلم يستطع الحركة.

قالت إيبك: «لا يمكنك أن تكتب شعراً في هذا الظلام. لنذهب.»

«ما هو أكثر ما تريديني أن أفعله لكي تحبيني؟»

قالت إيبك: «كن نفسك» وخرجت من الغرفة.

كان كا سعيداً من الجلوس هناك إلى حد أنه نهض بصعوبة. جلس لحظة في الغرفة الباردة قبل المطبخ، وهناك في ضوء الشمعة المرتجف كتب على دفتره الأخضر القصيدة التي في عقله بعنوان: «علبة الشوكولا»

حين نهض على قدميه كان وراء إيبك. حين أقدم على حركة يريد من خلالها احتضان إيبك، والاندساس في شعرها فجأة تداخل كل شيء في عقله كما في الظلام.

رأى كا في ضوء الشمعة الذي في المطبخ أن إيبك وقديفة متعانقتان التف ذراع كل منهما حول رقبة الأخرى متعانقتين كأنهما عاشقان.

قالت قديفة: «طلب مني أبي أن أتفقدكما.»

«حسنٌ يا روحي.»

«لم يكتب شعراً؟»

قال كا وهو يخرج من الظلام: «كتبت. ولكنني الآن أريد أن أساعدكما.»

في ضوء الشمعة المرتجف لم ير أحداً. وبلمح البصر ملأ قدحاً بالعرق، وشربه دون ماء. حين سالت الدموع من عينيه ملأ لنفسه بسرعة كأس ماء.

حين خرج من المطبخ وجد نفسه في ظلمة شحار دامس. رأى طاولة الطعام المضاءة بشمعة فمشى. التفت الذين حول المائدة مع الظلال التي على الجدران.

قال السيد طورغوت: «هل استطعتم كتابة القصيدة؟» بداية بقي صامتاً عدة لحظات أراد من خلالها أن يبدي عدم اهتمامه.

«نعم»

«مبروك» وناول كا كأس عرق، وملأه «حول ماذا؟»

«هنا أعطي الحق لكل من ألتقيه وأحدثه. الخوف الذي كان يتجول خارجاً حين كنت في ألمانيا دخل الآن إلى نفسي.»

قالت هاندا بأداء العارف: «أفهمكم جيداً.»

ابتسم لها كا ممتناً. أراد أن يقول لها: «لا تكشفي رأسك يا حلوتي.»

قال السيد طورغوت: «إذا كنتم تقصدون بقولكم: هنا أعطي الحق لكل من ألتقيه وأحدثه، بأنكم آمنتم بالله عند الأفندي الشيخ، فأريد أن أصحح لكم هذا. الأفندي الشيخ لا يمثل الله في قارص!»

قفزت هاندا معارضة: «من يمثل الله هنا؟»

ولكن السيد طورغوت لم يغضب منها. كان معانداً وميالاً للصراع، ولكنه رقيق القلب إلى حد أنه لن يستطيع أن يكون ملحداً غير مهادن. شعر كا بأن السيد طورغوت يخشى من تهدم عادات عالمه الخاص وزوالها بقدر خشيته من تعاسة ابنتيه. وهذا ليس ارتباكاً سياسياً، بل ارتباك فقدان مكانه في مركز الطاولة التي تمثل متعته الوحيدة ويجلس إليها كل يوم مع ابنتيه وضيوفه للحديث ساعات في السياسة والأخذ والرد حول وجود الله أو عدم وجوده.

جاء التيار الكهربائي، وأضيئت الغرفة فجأة. لقد اعتيد على انقطاع التيار الكهربائي ومجيئه إلى حد أن أحداً لا يطلق صيحة فرح كما كان يجري أيام طفولته في اسطنبول، كما أنه لا يحدث انهماك سعيد بقولك انظر إلى الغسالة، هل تعطلت أو: أنا سأنفخ على الشموع. أشعل السيد طورغوت التلفاز وبدأ يبحث عن قناة بواسطة جهاز التحكم. قال كا للفتيات هامساً بأن قارص مكان صامت بشكل غير عادي.

قالت هاندا: «لأننا هنا نخاف حتى من أصواتنا.»

قالت إيبك: «هذا صمت الثلج.»

بشعور الهزيمة نظر الجميع مطولاً إلى التلفاز الذي تتغير فيه القنوات ببطء. عندما تلامست يده ويد إيبك تحت الطاولة فكر كا بأنه هنا يمكنه أن يقضي أيامه في عمل صغير، وفي المساء يمسك بيد إيبك، ويتابع التلفاز المربوط بهوائي صحن، ويقضي أيامه سعيداً.

[١٥]

لكل منا شيء أساسي يريده من الحياة

في مسرح الشعب

بعد سبع دقائق بالضبط من تفكيره بإمكانية قضاء حياته كلها مع إيبك في قارص وأن يكون سعيداً، ركض كا تحت الثلج وحده إلى مسرح الشعب للمشاركة في الأمسية وكأنه ذاهب إلى الحرب، وقلبه يخفق بقوة. في الدقائق السبع هذه تطور كل شيء في الحقيقة بسرعة مفهومة جداً.

بداية فتح السيد طورغوت الشاشة على النقل الحي الذي يجري في مسرح الشعب. وحين شعر الجميع من خلال الضجة الصاخبة التي سمعوها بأن أموراً غير عادية تجري هناك ـ وهذا يثير فيهم رغبة الخروج عن حياة الريف ولو لليلة من جهة، ويخيفهم باحتمال وقوع شيء سيّيء من جهة أخرى ـ شعر الجميع من تصفيق الجمهور المتململ وصراخه بوجود توتر بين مسؤولي المدينة الجالسين في الصفوف الأمامية، والشباب الجالسين في الصفوف الخلفية. ولأن الكاميرا لا تصور الصالة كلها دفع الفضول الجميع لمعرفة ما يجري.

كان على الخشبة حارس مرمى الفريق الوطني الذي كانت تركيا كلها تعرفه في وقت مضى. ولم ينه حكاية الهدف الأول الذي أكله في مباراة وطنية تراجيدية جرت قبل خمسة عشر عاماً مع انكلترا، ودخل مرماه أحد عشر هدفاً، ظهر الرجل النحيل كالعصا مقدم الأمسية، وفهم حارس المرمى أن هذا كالفاصل الإعلاني الذي يقدم في التلفزيون القومي. وقرأ المقدم الذي أمسك اللاقط بيده إعلانين (وصلت بصطرمة من قيصري إلى سمانة طاضال في شارع

فوزي باشا، بدأ التسجيل للدورات الليلية في مدرسة العلم للتحضير للجامعة) وأعاد البرنامج الفني، وذكر اسم كا بأنه سيقرأ قصيدته، ثم نظر إلى الكاميرا بوجه مكدر وأضاف:

«ولكن عدم رؤية شاعرنا الكبير الذي أتى من ألمانيا إلى مدينة سرهات بيننا حتى الآن في الحقيقة أحزن القارصيين»

قال السيد طورغوت فوراً: «عدم ذهابكم بعد هذا معيب جداً.»

قال كا: «ولكنهم لم يسألوني عما إذا كنت سأشارك في الأمسية.»

قال السيد طورغوت: «العادة هنا هكذا. لو دعوكم لما ذهبتم. والآن عليكم أن تذهبوا لكي لا تسقطوا في وضع الاستهانة بهم.»

وباندفاع غير متوقع قالت هاندا: «نتابعكم من هنا.»

في اللحظة نفسها فتح الباب، وقال الشاب الذي يتسلم الاستقبال ليلاً: «مات مدير معهد المعلمين في المشفى.»

قال السيد طورغوت: «مسكين هذا المخبول» ثم ركز نظره على كا وأضاف: «لقد بدأ المتدينون بتنظيفنا واحداً واحداً. إذا أردتم أن تنقذوا أرواحكم فمن الأفضل أن تؤمنوا أكثر بالله في أسرع وقت ممكن. لأنني أخشى أنه بعد مدة قصيرة سيكون من غير الممكن لمتدين معتدل أن ينقذ ملحداً سابقاً.»

قال كا: «معكم حق. وأنا أصلاً قررت أن انفتح لحب الله الذي شعرت به في أعماق قلبي على مدى حياتي.»

من ناحية فهم أن هذا قيل بشكل ساخر فقد فهمه الجميع، ولكن بالنسبة إلى الذين حول الطاولة ـ لثقتهم بأن كا قد سكر تماماً ـ فإن جوابه الجاهز يمكن أن يكون قد فكر فيه من قبل.

في هذه الأثناء اندست زاهدة قرب الطاولة حاملة بمهارة كبيرة قِدْراً كبيراً بيد، ومغرفة من الألمنيوم تعكس ضوء المصباح، وبحنان أم ابتسمت، وقالت:

«الدي حساء لشخص في فقرها. حرام، يجب ألا يرمى. أي فتاة تريده.»

التفت كا مع إيبك وهاندا وقديفة اللواتي قلن بأن الخوف هو الذي يمنعه من الذهاب إلى مسرح الشعب، إلى الخادمة وشاركوها ابتسامتها.

في تلك اللحظة قال كا لنفسه: «إذا قالت إيبك: أنا. فإنها ستذهب معي إلى فرانكفورت وسنتزوج، وفي هذه الحالة سأذهب إلى مسرح الشعب وألقي قصيدة: ثلج.»

بعد ذلك مباشرة قالت إيبك: «أنا» ودون إظهار أي نشوة مدت طبقها نحوها.

تحت ندف الثلج الكبيرة النادفة في الخارج شعر كا بأنه غريب عن هذه المدينة، وانه سينسى هذه المدينة فور تركه لها، ولكن هذا الشعور لم يستمر طويلاً. سيطر عليه شعور بالكدر. إنه يشعر بقوة بوجود نظام سري لم يستطع منطق الحياة حله، وبتوق عميق لحل هذا المنطق ووصوله إلى السعادة، ولكنه في تلك اللحظة لم يشعر بقوة كافية بإرادة تلك السعادة.

كان الشارع العريض الممتد أمامه حتى مسرح الشعب، والذي ترفرف فوقه أعلام الدعاية الانتخابية، والمغطى بالثلج فارغاً تماماً، ومن خلال مجاري المزاريب العريضة المتجلدة، وجمال الأبواب ونقوش الجدران، وواجهات الأبنية الرصينة التي عاشت يومها في زمن ما شعر كا بأن هنالك من عاش سعيداً هنا (الأرمن الذين يعملون بالتجارة في تفلس؟ الباشوات العثمانيون الذين يجمعون الضريبة من مرابط المواشي)، وحتى إنهم عاشوا حياة ملونة في هذه الأبنية القديمة. الجميع ممن حول المدينة إلى مركز حضاري متواضع من الأرمن، والروس، والعثمانيين وأتراك بداية الجمهورية تركوها مغادرين وكأن الشوارع خاوية لأنه لم يأت أحد مكانهم، ولكنها على عكس المدن المهجورة فإن هذه الشوارع الخاوية تثير الخوف في الإنسان. نظر كا بإعجاب إلى ركام الثلج على أغصان شجر الزعرور البلوط، وإلى الجليد المتدلي على أعمدة الكهرباء التي تسقط عليها أضواء شبه برتقالية شاحبة من مصابيح الشارع، وضوء النيون المنبعث من وراء واجهات المحلات التي تجلّد زجاجها. يندف الثلج في صمت سحري يكاد أن يكون مقدساً، لم يكن يسمع غير وقع أقدامه غير الواضح، وتنفسه السريع. لم يكن ثمة كلب ينبح. كأن العالم وصل إلى نهايته، وكل شيء يراه الآن، والعالم كله ركز

انتباهه على ندف الثلج. تابع كا حول مصباح شارع شاحب بعض ندف الثلج التي تنزل ببطء نحو الأسفل، وبعضها تصعد بشكل حاسم نحو الأعلى، نحو الظلام. وقف تحت سقيفة محل (قصر تصوير آيدن)، وتحت ضوء مائل إلى الأحمر منبعث من داخل لوحة الإعلان التي يتدلى منها الجليد ركز انتباهه كله لحظة على ندف ثلج حطت على كم معطفه.

هبت ريح، ودبت حركة، وعندما انطفأ فجأة نور (قصر تصوير آيدن) المائل إلى الحمرة، كأن شجرة الزعرور التي في الطرف المقابل اسودت. رأى الازدحام أمام مسرح الشعب، وحافلة الشرطة الصغيرة المنتظرة على مبعدة، والذين يتفرجون على الزحام بين باب المقهى المقابل نصف المفتوح وعتبتها.

فور دخوله إلى صالة المسرح شعر بالدوار نتيجة الصخب والحركة التي في الداخل. في الهواء رائحة كحول كثيفة، وأنفاس ودخان سجائر. في الأطراف ثمة أشخاص كثيرون واقفون على أقدامهم، وفي إحدى الزوايا ثمة بسطة شاي تباع فيها أيضاً مياه غازية وكعك. رأى كا شباباً يتهامسون عند باب المراحيض الذي تفوح منه رائحة تشبه رائحة التفسخ. عبر من جانب رجال الشرطة مرتدين البذات الزرقاء، وبجوارهم إلى الأمام قليلاً المدنيون الواقفون حاملو أجهزة اللاسلكي. ثمة طفل يمسكه أبوه من يده يتفرج مركزاً انتباهه على حركة حبات الحمص المحمص التي ألقاها في زجاجة المياه الغازية غير مبال بالصخب.

رأى كا أحد الواقفين على الأطراف يلوح له بيده منهمكاً، ولكنه لم يكن واثقاً مما إذا كان التلويح له.

«عرفتكم من معطفكم وأنتم بعيدون.»

حين رأى كا وجه نجيب عن قرب عبرت إلى قلبه محبة عميقة. تعانقا بقوة.

قال نجيب: «كنت أعرف أنكم ستأتون. سررت كثيراً. هل يمكنني أن أطرح عليكم سؤالاً بسرعة؟ ثمة أمران مهمان في عقلي.»

«أمر واحد، أم أمران؟»

قال نجيب: «أنتم ذكي جداً، إلى درجة إدراككم بأن الذكاء ليس كل

شيء.» وسحب كا إلى زاوية تمكنهما من الحديث براحة أكثر: «هل قلتم لهجران أو قديفة بأنني أعشقها، وأنها المعنى الوحيد في حياتي؟»

«لا.»

«خرجتم معاً من المقهى، وذهبتم. ألم تأتوا على ذكري؟»

«قلت لها بأنك من ثانوية الأئمة والخطباء.»

«غير هذا ألم تقل هي شيئاً؟»

«لم تقل.»

خيم صمت.

قال نجيب باذلاً جهداً كبيراً: «أتفهّم عدم تحدثكم عني بأمور أخرى». ثم بلع ريقه، وتابع: «لأن قديفة تكبرني بأربع سنوات لم تنتبه إليّ. لعلكما تكلمتما بأشياء لا يمكن البوح بها. حتى إنها يمكن أن تكون قد فتحت مواضيع سياسية سريّة. أنا لا أسأل عن هذه. لدي فضول لمعرفة شيء واحد، وهذا بالنسبة إليّ مهم جداً. والجزء المتبقي من حياتي يتوقف عليه. حتى لو لم تنتبه قديفة إليّ ـ ثمة احتمال كبير بأن انتباهها سيستغرق سنوات، وستتزوج مع الزمن ـ فإن الجواب الذي ستجيبني به إما أن يجعلني عاشقاً لها طوال حياتي، أو يمكّنني أن أنساها الآن. لطفاً، قولوا لي هذا دون تردد؟»

قال كا بأداء رسمي: «أنا أنتظر سؤالكم.»

«هل تحدثتم بأمور سطحية؟ أي بالتفاهات التي في التلفزيون، وبالإشاعات الصغيرة التافهة، وبالأشياء الصغيرة التي يمكن شراؤها بالنقود. هل تفهمونني؟ هل قديفة إنسانة عميقة لا تعطي أهمية للسطحي والتافه كما تبدو، أم أنني عشقتها دون جدوى؟»

قال كا: «لا. لم نتحدث بأمور سطحية.»

كان يرى بأن الإجابات التي أجابه بها تحدث أثراً هداماً عليه، وكان يقرأ من وجهه أيضاً أن الشاب يعمل على استجماع قوته بمجهود يفوق قوى الإنسان.

«ولكنكم رأيتم أنها إنسانة غير عادية.»

«نعم».

«هل يمكن أن تكون عاشقاً لها؟ لأنها جميلة جداً. ثم إنها صاحبة قرار بشكل لا يمكن رؤيته في أي امرأة تركية.»

قال كا: «أختها الأكبر أجمل، إذا كانت المسألة مسألة جمال.»

قال نجيب: «ما هي المسألة إذن؟ ما الحكمة من جعل الله (جل جلاله) لي دائم التفكير بقديفة؟»

فتح عينيه الخضراوين اللتين ستفتت إحداهما بعد إحدى وخمسين دقيقة إلى أقصاها بطفولة أثارت في كا الدهشة.

قال كا: «لا أعرف.»

«لا. إنك تعرف، ولكنك لا تتكلم.»

«لا أعرف.»

قال نجيب وكأنه يساعد في الأمر: «المهم استطاعة قول كل شيء. لو استطعت أن أكون كاتباً، لأردت أن أستطيع قول ما لم يقل. هل يمكنك أن تقول لي كل شيء ولو لمرة واحدة؟»

«اسأل.»

«لكل منا ما يريده من الحياة، وما هو أساسي، أليس كذلك؟»

«صحيح.»

«ما هو بالنسبة لك؟»

سكت كا، وابتسم.

قال نجيب بمباهاة: «ما أريده بسيط جداً. أريد الزواج من قديفة، والعيش في اسطنبول وأن أكون أول كاتب خيال علمي إسلامي في العالم. أعرف أن هذا مستحيل، ولكن على الرغم من هذا أريده. أنا لا أنزعج منك لأنك لا تبوح بما تريده، لأنني أتفهمك. أنت مستقبلي. أنا أفهم هذا من نظرتك إلى حدقتي عيني. أنت أيضاً ترى فيَّ شبابك، ولهذا السبب تحبني.»

ظهر على طرف شفته ابتسامة سعيدة وماكرة، وخاف كا من هذا.

«في هذه الحالة أنت هو أنا قبل عشرين سنة؟»

«نعم. في رواية الخيال العلمي التي سأكتبها سيكون فيها مشهد على النحو التالي بالضبط. عدم المؤاخذة، هل يمكنني أن أضع يدي على

جبينكم؟» أحنى كا رأسه إلى الأمام قليلاً. وبراحة من قام بهذا العمل من قبل وضع نجيب راحة يده على جبين كا:

«والآن سأقول لك ما كنت تفكر به قبل عشرين عاماً.»

«مثلما فعلت مع فاضل.»

«أنا أفكر معه في اللحظة ذاتها بالأمر نفسه. أما معك فهنالك فرق في الزمن. لطفاً اسمع الآن: في يوم شتوي، كنت في الثانوية، يندف الثلج، وكنت وسط الأفكار. كنت تشعر بقلبك بصوت الله، ولكنك تعمل على نسيانه. تشعر بأن كل شيء متكامل، ولكنك تغمض عينيك اللتين تشعرانك بهذا لأنك تعتقد بأن هذا يجعلك أكثر تعاسة وذكاء. كنت محقاً. لأنك تعرف أن التعساء الأذكياء فقط يستطيعون كتابة شعر جميل. من أجل أن تكتب شعراً جميلاً أخذت بعين الاعتبار آلام عدم الإيمان ببطولة. ولكن لم يخطر ببالك بعد أنك ستبقى وحيداً في العالم كله عندما تفقد هذا الصوت.»

قال كا: «حسنٌ، أنت محق. هكذا كنت أفكر. وهل أنت الآن تفكر هكذا؟»

قال نجيب: «كنت أعرف أنك ستسألني هذا فوراً. ألا تريد أن تؤمن بالله أنت أيضاً؟ إنك تريد، أليس كذلك؟» فجأة سحب يده الباردة التي تقشعر كا عن جبينه: «يمكنني أن أقول لك أشياء كثيرة في هذا الموضوع. أنا أسمع صوتاً في داخلي يقول لي أيضاً: لا تؤمن بالله. لأنه لا يمكن الإيمان بعشق بوجود شيء إلا إذا شعرت شاكاً، أو فضولياً بعدم وجوده، هل تفهم هذا؟ حين أفهم أن استطاعتي البقاء في الحياة يتم بإيماني بوجود الله الجميل أفكر: ترى لو لم يكون الله موجوداً فماذا سيحدث، كما فكرت عندما كنت صغيراً: ماذا يحدث لو مات أبي وأمي؟ حينئذ يتجلى أمام عيني شيء: منظر. ولإدراكي بأنني استمد القوة من محبة الله لا أخاف، وأتفرج عليه بفضول.»

«اشرح لي ذلك المنظر.»

«هل ستدخله إلى شعرك؟ لا ضرورة لأن تمنح اسمي لقصيدتك. بالمقابل أريد منك شيئاً واحداً.»

«نعم!»

«في الأشهر الستة الأخيرة كتبت ثلاث رسائل لقديفة. لم أوُدِعْ أياً منها البريد. ليس لأنني أخجل، بل لأن الذين في البريد سيفتحونها ويقرؤونها. لأن نصف قارص شرطة مدنية. نصف هذا الازدحام هكذا. جميعهم يراقبوننا. والأنكى من هذا فإن جماعتنا أيضاً يراقبوننا.»

«من تقصد بجماعتنا؟»

«الإسلاميون الشباب كلهم في قارص. إنهم يتوقون لمعرفة ما أتحدث به إليك. لقد أتوا إلى هنا لإحداث مشكلة، لأنهم يعرفون أن العلمانيين والعسكر سيحولون هذه الأمسية إلى استعراض عضلات. سيمثلون تلك التمثيلية القديمة المعروفة «الغطاء» ويستهينون بفتيات الإشاربات. أنا في الحقيقة أكره السياسة، ولكن أصدقائي على حق بتمردهم. إنهم يشتبهون بي لأنني لستُ نارِيّاً مثلهم. لا أستطيع إعطاءك الرسائل. أي في هذه الأثناء، والجميع ينظرون إلينا. أريدك أن توصلها لقديفة.»

«الآن لا أحد ينظر. أعطنيها فوراً، فيما بعد تشرح لي المنظر.»

«الرسائل هنا ولكنها ليست معي. خفت من التفتيش عند الباب. يمكن أن يفتشني أصدقائي أيضاً. لنلتق مرة أخرى بعد عشرين دقيقة في دورة المياه التي في آخر الممر المؤدي إلى طرف الخشبة.»

«وهل ستشرح لي المنظر حينئذ؟»

قال نجيب: «أحدهم قادم إلى هنا» هرب بعينيه «أعرفه. لا تنظر أبداً إلى تلك الجهة. واعمل كأننا نتكلم بشكل عادي دون حميمية زائدة.»

«حسنٌ»

«قارص كلها تتوق لمعرفة سبب مجيئك إلى هنا. إنهم يعتقدون أنك قادم بمهمة سرية كلفتك بها دولتنا، وحتى إنهم يفكرون بأن القوى الغربية أرسلتك. أرسلني أصدقائي إلى هنا لأسألك عن هذا. هل الشائعات صحيحة؟»

«لا.»

«ماذا أقول لهم؟ لماذا أتيت إلى هنا؟»

«لا أعرف.»

«تعرف. ولكنك لا تستطيع القول بسبب الخجل.» صمت، ثم قال نجيب: «جئت إلى هنا لأنك تعيس.»

«كيف فهمت هذا؟»

«من عينيك: لم أر أحداً ينظر بتعاسة مثلك أبداً... الآن أنا لست سعيداً أبداً، ولكنني شاب. التعاسة تمنحني قوة. في هذا العمر أفضل أن أكون تعيساً على أن أكون سعيداً. يمكن للمخبولين السيئين في قارص فقط أن يكونوا سعداء. ولكنني عندما أصل إلى عمرك أريد أن تكون لي سعادتي التي أتمسك بها.»

قال كا: «تعاستي تحميني من الحياة. لا تهتم لأجلي.»

«ما أجمل هذا. لم تغضب، أليس كذلك؟ في وجهك شيء جيد يجعلني أتمكن من قول كل شيء يخطر ببالي، وحتى أتفه الأمور. إذا قلت هذه الأشياء لأصدقائي فسيسخرون مني فوراً.»

«حتى فاضل؟»

«فاضل مختلف. هو يثأر لي من المسيئين إليّ، ويعرف بما أفكر. الآن احك أنت قليلاً. الرجل ينظر إلينا.»

قال كا: «أي رجل؟» نظر إلى الازدحام المتجمع وراء الجالسين: رجل رأسه مثل الأجاص، شابان وجهاهما فيهما اندفاعات جلدية. وشبان مقطبو الوجوه فقيرو الألبسة، والآن جميعهم ملتفتون نحو الخشبة، وبعضهم يهتز مثل السكارى.

تمتم كا قائلاً: «لستُ الوحيدَ الشارب هذا المساء.»

قال نجيب: «هم يشربون من التعاسة. أما أنتم فقد شربتم من أجل احتمال السعادة التي تخبئونها داخلكم.»

في آخر كلامه اختلط فجأة مع الزحام. لم يكن كا واثقاً من أنه سمعه بشكل صحيح. أما داخل رأسه فكان مرتاحاً كأنه يستمع إلى موسيقى ممتعة على الرغم من الضجيج والصراخ في الصالة. أحدهم لوح له بيده. هنالك عدة مقاعد فارغة حجزت «للفنانين» بين المتفرجين. أحد عمال الخشبة من مجموعة المسرح نصفه فتوة ونصفه أكابر أجلس كا.

ما رآه كا على الخشبة في تلك الليلة رأيته أنا بعد سنوات من أشرطة الفيديو التي أخرجتها من أرشيف تلفزيون قارص سرهات. كانت تُمثِّل تمثيلية صغيرة على الخشبة تسخر من دعاية لبنك، ولكن كا لم يفهم أين هو الهجاء وأين هو التمثيل في المشهد لعدم متابعة التلفاز في تركيا منذ سنوات طويلة. تمكن من استنتاج أن الرجل الذي دخل إلى البنك لإيداع النقود هو متصنع الانتماء إلى الأكابر وتقليد الغرب بشكل مبالغ به كثيراً. ومن أجل القادمين من قرى صغيرة ونائية في قارص، والنساء ومسؤولي الدولة الذين لا يمرون على المقاهي قدّم صوناي ظائم هذه التمثيلية عبر فرقته البرختية، والباختينية بإبرازات لأمور غير مؤدبة، وأكابرية الرجل الغريب الأطوار الذي تناول بطاقة السحب الآلي للنقود حولها إلى تصرفات لوطي جعل المشاهدين يكادون يختنقون من القهقهة. وفي المشهد الآخر انتبه كا في اللحظة الأخيرة إلى أن الرجل ذا الشنب الذي يأخذ دور المرأة التي تصب على رأسها شامبو (كيليدور) وكريم الشعر هو صوناي ظائم. وكما يعمل صوناي بلبوس المرأة حين يريد أن يريح الجموع الفقيرة والغاضبة من مقاهي الرجال المتطرفة «بمواقف معادية للرأسمالية» فيوجه الشتائم الفاضحة من جهة ويعمل وكأنه يُدخل زجاجة (شامبو الكوليدور) الطويلة في ثقبه الخلفي. فيما بعد بينما كانت (فوندا أَسَرْ) زوجة صوناي تقلّد دعاية (سجق) محبوبة تناولت حلقة قائلة: «حصان أم حمار؟» واستعبرت وزنها بحركة غير مؤدبة وهي في حالة نشوة، وقبل التمادي هربت من خشبة المسرح. بعد ذلك صعد إلى الخشبة فورال، حارس المرمى المشهور في الستينيات، وحكى كيف دخل مرماه أحد عشر هدفاً في مباراة وطنية أقيمت في اسطنبول مع فريق انكلترة، وعن قصص الحب التي عاشها في الفترة نفسها مع الفنانات الشهيرات، وعن التآمر مع الخصوم الرياضيين وقد تابع هذا بمتعة الشعور بالألم، وبجو المسكنة الذي يتمتع به التركي.

[١٦]

حيث لا يوجد الله

المنظر الذي رآه نجيب و قصيدة كا

مرت عشرون دقيقة، وعندما دخل كا إلى دورة المياه في آخر الممر البارد رأى أن نجيباً قد جاء خلفه مباشرة إلى جانب المتبولين. بداية انتظرا كشخصين لا يعرفان بعضهما بعضاً أمام الأبواب المقفلة للقواطع الخلفية. رأى كا النحت البارز على شكل وردة وأوراقها في سقف دورة المياه المرتفع.

حين فرغت دورة المياه دخلا. انتبه كا إلى أن رجلاً مسناً دون أسنان قد رآه. بعد أن سحب المزلاج من الداخل قال نجيب: «لم يرونا». عانق كا فرحاً. وبحركات ماهرة داس بقدمه المنتعلة حذاءً رياضياً على بروز، وارتفع، ومد يده، ووجد المظروفات فوق خزان السيفون. نزل إلى الأرض. نفخ الغبار عن المظروفات بعناية، ونظفها.

قال: «حين ستعطي هذه الرسائل لقديفة أريدك أن تقول لها شيئاً. فكرت بهذا كثيراً. في اللحظة التي ستقرؤها لن يبقى لدي أمل، أو توقع يتعلق بقديفة في الحياة. أريدك أن تقول هذا لقديفة بشكل واضح جداً.»

«إذا كانت ستعلم بأنه لا يوجد أي أمل لحظة علمها بعشقك لها لماذا تعلمها بهذا إذن؟»

قال نجيب: «أنا لا أخاف من الحياة ومما أتعلق به مثلك» وقلقَ من تكدر كا «هذه الرسائل هي مناصي الوحيد: في إحداها أقول بأنني لا أستطيع العيش دون حب كبير لجمال ما، وفي أخرى أقول بأنني يجب أن أحب

بسعادة. ولكن عليّ بداية أن أخرج قديفة من عقلي. هل تعرف لمن سأمنح حبي كله من بعد قديفة؟»

قدم له الرسائل.

سأل كا: «لمن؟» بينما كان يضعها في جيب معطفه.

«لله»

«احك لي عن المنظر الذي رأيته.»

«قبل كل شيء افتح النافذة. الرائحة سيئة جداً هنا.»

ضغط كا بقوة على مزلاج نافذة التواليت الصدئة الصغيرة وفتحها. تفرجا على ندف الثلج النازل وسط الظلام ببطء وصمت كأنهما يشهدان حدوث معجزة.

قال نجيب هامساً: «كم هو جميل هذا العالم!»

قال كا: «بالنسبة إليك ما هو الجانب الأجمل للحياة؟»

خيم صمت. ثم قال نجيب وكأنه يقدّم سراً: «كلها!»

«ولكن أليست الحياة هي التي تتعسنا؟»

«تتعسنا، ولكن هذا ذنبنا، وليس ذنب الحياة أو خالقها.»

«احك لي عن ذلك المنظر.»

قال نجيب: «بداية ضع يدك على جبيني، وقل لي مستقبلي.» وحلق بعينيه اللتين سيمزقهما أحدهم مع مخه بعد ست وعشرين دقيقة. «أريد أن أعيش طويلاً وأستمتع بحياتي كثيراً، وأعرف أن أشياء جميلة كثيرة ستمر عليّ. ولكن بماذا سأفكر بعد عشرين سنة؟ لا أعرف، وهذا ما أتوق لمعرفته.»

وضع كا راحة كفه اليمنى على بشرة جبين نجيب الناعمة «آه، كرمى لله!» وسحب يده ممازحاً كأنه لامس شيئاً حاراً جداً «ثمة حركات كثيرة هنا»

«احك»

قال: «بعد عشرين سنة، أي في الأيام التي تبلغ فيها السابعة والثلاثين من عمرك ستفكر بالمساوئ كلها أي بفقر الفقراء وغبائهم، وبغنى الأغنياء وذكائهم، وبالفظاظة والعنف واللاروحانية، أي بأسباب كل شيء يثير فيك

إرادة الموت والشعور بالذنب، وتفكير كل شخص مثل كل شخص، وفي النهاية ستفهم هذا. لهذا السبب ستجد أن كُلّ أخلاقيٍّ يغدو مخبولاً، ويموت في هذا المكان، وهذا سيشعرك بأنه لا يمكن أن يكون المرء جيداً إلا إذا كان سيئاً وعديم أخلاق. ولكنك ستفهم أيضاً بأن هذا سيؤدي إلى نتيجة مخيفة. لأنني أشعر بهذه النتيجة تحت يدي المرتجفة..»

«ما هي؟»

«أنت ذكي جداً. وأنت تعرف من الآن ما هي. لهذا السبب أريدك أن تقولها أنت في البداية.»

«ما هي؟»

«في الحقيقة شعورك بالذنب ناجم عن معاناتك من بؤس الفقراء وتعاستهم، وأنا أعرف ذلك.»

قال نجيب: «ألن أكون مؤمناً بالله ـ حاشاه ـ حين أموت أنا؟»

«لن يكون هذا في ليلة واحدة كما حدث مع المدير الملحد في المصعد! سيكون الأمر بطيئاً إلى حد أنك لن تنتبه إليه. سيكون الأمر على نحو رجل ينتبه إلى نفسه في صباح أحد الأيام بعد إفراطه بشرب العرق بأنه مات ببطء، وأنه في العالم الآخر منذ سنوات طويلة.»

«هل هو أنت؟»

سحب كا يده عن جبينه «على العكس تماماً. أنا بدأت أؤمن بالله تدريجياً وببطء منذ سنوات. وكان الأمر بطيئاً إلى حد أنني لم أنتبه إلى نفسي إلا عندما جئت إلى قارص. لهذا السبب أنا سعيد هنا، وأستطيع كتابة الشعر.»

قال نجيب: «إنك تبدو لي الآن سعيداً وذكياً جداً. سأسألك هذا السؤال: هل يمكن للإنسان معرفة المستقبل حقيقة؟ وحتى إن لم يعرف، هل يمكنه الإيمان بأنه يعرف، ويشعر بالطمأنينة؟ سأضع هذا في رواية الخيال العلمي الأولى التي أكتبها.»

قال كا: «بعض الناس يعرفون. السيد سردار صاحب جريدة مدينة سرهات كتب عما سيحدث في هذه الليلة ونشره من زمن. انظر» ونظرا معاً

إلى الجريدة التي أخرجها كا من جيبه: «. . . . وقد قطع السحر بالتصفيق والصراخ في أكثر من مكان.»

قال نجيب: «يجب أن يكون هذا هو الذي يسمى سعادة. لو كتبنا في الجرائد ما سنشهده من قبل، وإذا عشنا مستغربين الجماليات التي كتبنا عنها، لكنا شعراء حياتنا الخاصة. تكتب الجريدة بأنك ستقرأ آخر قصيدة لك. أي قصيدة تلك؟»

قرع باب القاطع. طلب كا من نجيب أن يشرح له ذلك «المنظر»

قال نجيب: «سأشرحه الآن. ولكن عليك ألا تقول لأحد بأنك سمعته مني. حميميّتي الزائدة معك لا تروق لهم.»

قال كا: «لن أقول لأحد. اشرح بسرعة.»

قال نجيب منفعلاً: «أنا أحب الله كثيراً. وأحياناً أسأل نفسي دون إرادتي: لو لم يكن الله موجوداً ـ حاشاه ـ ماذا كان سيحدث؟ فيتبدى أمام عيني منظرٌ مخيف.»

«نعم.»

«أنظر إلى ذلك المنظر ليلاً في الظلام من نافذة. في الخارج ثمة جداران مرتفعان مصمتان يشبهان جدران القلاع. كأنهما قلعتان متقابلتان! بينهما دهليز ضيق يمتد أمامي مثل شارع وأنا أنظر إليه خائفاً. إنه شارع قذر وطيني مثل قارص والله غير موجود هناك، ولكن لونه بنفسجي! ثمة شيء وسط الشارع يقول لي: قف! ولكنني أنظر إلى طرف الشارع، إلى نهاية هذه الدنيا. هناك شجرة. إنها شجرة عارية، وآخر شجرة. فجأة تقلب حمراء قانية لأنني أنظر إليها، وتبدأ بالاشتعال. في تلك اللحظة أشعر بالذنب لأنني أتوق لمعرفة المكان الذي لا يوجد فيه الله. إثر هذا تعود الشجرة الحمراء إلى لونها السابق. بينما كنت أقول لنفسي لن أنظر مرة أخرى، لم أتمالك نفسي وأنا أنظر إليها. وتعود الشجرة الوحيدة في نهاية العالم إلى الاحمرار، وتبدأ بالاشتعال. ويستمر هذا حتى الصباح.»

سأل كا: «لماذا يخيفك هذا المنظر إلى هذا الحد.»

«لأنه يخطر ببالي ـ بوسوسة الشيطان ـ إمكانية أن يكون ذلك المنظر من هذا العالم. ولكن الشيء الذي يتبدى أمام عيني يجب أن يكون شيئاً أتخيله.

لأنه لو كان هذا المكان الذي حكيت عنه من هذه الدنيا فهذا يعني أن الله غير موجود ـ حاشاه ـ، وبما أن هذا غير صحيح فلا يبقى سوى احتمال واحد وهو أنني غير مؤمن بالله. وهذا أسوأ من الموت.»

قال كا: «أفهمك.»

«نظرت إلى الموسوعة فوجدت أن كلمة ملحد آتية من الأصل اليوناني (athos). وتلك الكلمة لا تعني الشخص الذي لا يؤمن بالله، بل تعني الشخص الوحيد الذي تركته الآلهة. وهذا يبيّن أن الإنسان لا يمكن أن يكون ملحداً في أي وقت. لأن الله لا يتركنا هنا حتى لو أردنا ذلك. ولكي يكون الإنسان ملحداً عليه قبل كل شيء أن يكون غربياً.»

قال كا: «أنا أريد أن أكون غربياً ومؤمناً في آن واحد.»

«الشخص الذي يتركه الله، شخصٌ وحيد حتى لو ذهب كل يوم إلى المقهى وتضاحك مع أصدقائه ولعب الورق، ومازح زملاءه في الصف مقهقهاً، وقضى أيامه كلها بالأحاديث مع أصدقائه.»

قال كا: «ولكن يمكنه أن يكون حبيباً حقيقياً وأن يوجد ما يسليه.»

«يجب أن تحبك مثلما تحبها في هذه الحالة أيضاً.»

حين قرع الباب مرة أخرى عانق نجيب كا، وقبله من خديه كما يقبّل الطفل وخرج. رأى كا أحدهم ينتظر، ولكنه في هذه الأثناء هرع إلى التواليت الآخر. أغلق كا الباب بالمزلاج مجدداً، ودخن سيجارة وهو ينظر إلى الثلج الرائع النادف في الخارج. تذكر كا المنظر الذي شرحه نجيب كلمة كلمة كما يتذكر قصيدة. وشعر أن بإمكانه كتابة المنظر الذي رآه نجيب على دفتره مثل الشعر إذا لم يأت أحد من (Borlock).

الرجل القادم من بورلوك! كان هذا موضوعنا الأدبي المحبب الذي ناقشناه كا وأنا أياماً طويلة حتى منتصف الليل في آخر سنة من الثانوية. كل من يعرف الأدب الإنكليزي يعرف الملاحظة التي دونها (coleridge) في بداية قصيدته (كوبيلاي خان). في بداية تلك القصيدة ذات العنوان الفرعي: «مقطوعة شعر جزء من خيال رؤي في حلم»

يشرح coleridge في بداية القصيدة أنه نام تحت تأثير علاج يتناوله بسبب المرض (في الحقيقة إنه تعاطى أفيوناً من أجل الكيف) وأنه رأى في

نومه العميق جمل هذا الكتاب الذي كان يقرؤه قبيل أن ينام على شكل حلم رائع، وتحولت إلى شيء مادي، إلى قصيدة. قصيدة رائعة تكونت تلقائياً دون بذل أي مجهود ذهني. الأكثر من هذا أن coleridge يتذكر هذه القصيدة الرائعة كلها كلمة كلمة فور استيقاظه. يخرج قلماً وحبراً وورقة، ويبدأ بتوق وسرعة بكتابة تلك القصيدة شطراً شطراً. كتب أشطر القصيدة الشهيرة التي نعرفها. بعد ذلك قرع الباب، نهض، وفتح. كان ذلك القادم رجلاً من مدينة بورلوك، جاء من أجل مسألة دين نقود. وبعد أن صرف الرجل عنه عاد coleridge إلى طاولته مسرعاً فوجد أنه نسي بقية القصيدة، ولم يبق في عقله سوى جوها العام وبعض كلماتها المتفرقة.

ولأن أحداً لم يأت من بورلوك ليشتت أفكار كا كان محافظاً على القصيدة في عقله عندما دُعي إلى الخشبة. كان أطول من جميع الذين على الخشبة. والمعطف الرمادي الذي يرتديه يميزه عن الجميع.

فجأة انقطع الضجيج في الصالة. لم يسكتْ بعض الطلبة المسعورين، والعاطلين عن العمل، والسياسيين الإسلاميين المحتجين لأنهم لا يعرفون ما الذي سيحتجون عليه، وما الذي سيضحكون منه. الموظفون الجالسون في الصفوف الأمامية، ورجال الشرطة الذين راقبوا كا طوال اليوم، ومعاون المحافظ، ومعاون مدير الأمن، والمدرسون يعرفون أنه شاعر. ارتعش المقدم الطويل من الصمت. مذيع كأنه خرج من «البرامج الثقافية» التلفزيونية سأل كا: «حضرتكم شاعر. تكتبون الشعر. هل كتابة الشعر صعبة؟» وفي نهاية هذا الحديث القصير الإجباري الذي أتمنى أن أنساه كلما تابعتُ شريط الفيديو لم يفهم الذين في الصالة ما إذا كانت كتابة الشعر صعبة أم لا، ولكنهم فهموا أن كا قد جاء من ألمانيا.

بعد ذلك سأل المذيع: «كيف وجدتم قارصنا الجميلة؟»

بعد لحظة تردد قال كا: «جميلة جداً، وفقيرة جداً، وحزينة جداً.»

ضحك تلميذان من مدرسة الأئمة والخطباء من الخلف. واحد آخر صرخ قائلاً: «روحك هي الفقيرة.». ستة أو سبعة أشخاص استمدوا جرأة من هذا الموقف فبدؤوا بالصراخ. نصفهم كان يضحك، ونصفهم الآخر لم يفهم شيئاً مما يقال. فيما بعد، حين ذهبتُ إلى قارص حكى لي السيد طورغوت

بأن هاندا بكت إثر هذا الكلام وهي تتابع التلفاز. قال المذيع: «إنكم تمثلون الأدب التركي في ألمانيا.»

أحدهم صرخ قائلاً: «ليقل لنا لماذا أتى إلى هنا.»

قال كا: «جئت لأنني كنتُ تعيساً جداً. هنا أنا أسعد. أرجوكم استمعوا، سأقرأ قصيدتي الآن.»

بعد لحظة دهشة وصخب بدأ كا يقرأ قصيدته. بعد سنوات حين حصلت على شريط الفيديو تابعت صديقي بإعجاب وحب. إنها المرة الأولى التي أراه فيها يلقي الشعر أمام جمهور كبير. وكشخص يسير منتبهاً وهادئاً كان يتقدم مشغول البال. كم كان بعيداً عن التصنّع! وغير توقفه مرتين كأنه يستذكر شيئاً، فقد ألقى القصيدة مرتاحاً دون انقطاع.

حين انتبه نجيب إلى أن ما قاله حول موضوع «حيث لا يوجد الله» في شرحه «للمنظر» قد دخل بكل كلمة من كلماته إلى القصيدة، نهض على قدميه حيث يجلس وكأنه مسحور، ولكن كا لم يغير سرعته المذكرة بندف الثلج. سمع تصفيق شخص أو شخصين. أحدهم نهض من الصفوف الخلفية وبدأ الصراخ، ثم انضم إليه آخرون. كان غير مفهوم ما إذا كانوا يردون على أشطر الشعر أم أنهم تضايقوا. وإذا لم نحسب ظله الذي سيسقط بعد قليل على ستارة خضراء كانت ستغدو تلك المشاهد هي المرة الأخيرة التي تمكنت فيها من رؤية صديقي منذ سبع وعشرين سنة.

[١٧]

«إما الوطن أو الإشارب»

تمثيلية حول فتاة أحرقت غطاءها

بعد قصيدة كا قدم المقدم التمثيلية التي ستمثل وهو يسير على الخشبة بحركات مبالغ فيها وعلى أنها أكبر عرض في الأمسية: «إما الوطن أو الإشارب»

سمعت من الصفوف الوسطى والخلفية حيث يجلس طلاب مدارس الأئمة والخطباء ضجيجاً لعدة اعتراضات، وصفيراً لشخص أو اثنين، وصراخ عدة أشخاص: «يووووو»، وتصفيق موافقة عدة أشخاص من الموظفين الجالسين في الصفوف الأمامية. أما الجمهور الذي يملأ الصالة فينتظر بفضول أو احترام ما سيحدث. فقرات الفرقة المسرحية السابقة «الخفيفة»، وتقليد (فوندا أسر) غير المؤدب للدعايات، ورقص هز البطن بمناسبة وغير مناسبة، وتقديمها مع صوناي ظائم شخصية رئيسة حكومة سابقة مع زوجها المرتشي كل ذلك لم يفتر همتهم كما حدث مع بعض الموظفين في الصفوف الأمامية، بل على العكس فقد أمتعهم.

«إما الوطن أو الإشارب» أيضاً أمتعت الجمهور، ولكن تدخلات طلاب مدارس الأئمة والخطباء، وارتفاع أصواتهم باستمرار بعث على الضيق. في تلك الأثناء لم تفهم الحوارات المقدمة على الخشبة نهائياً. ولكن هذه التمثيلية البدائية، و«التي انقضت موضتها» والتي استمرت عشرين دقيقة لها بنية درامية قوية بحيث يفهم حتى الصم والبكم كل شيء فيها.

١ ـ امرأة مغطاة كلها بغطاء أسود تسير في الشوارع وتحدّث نفسها مفكرة. وهي تعيسة لسبب ما.

٢ ـ تكشف المرأة غطاءها وتعلن تحررها. والآن هي دون غطاء سعيدة.

٣ ـ لأسباب متنوعة تعارض هذه الحرية أسرتها وخطيبها وأقرباؤها وبعض الرجال المسلمين الملتحين، ويريدون إعادة تغطيتها. إثر هذا وفي لحظة غضب تحرق المرأة غطاءها.

٤ ـ يعارض المشعوذون ذوو اللحى المدورة حاملو المسابح بأيدهم هذا التصرف المعاند، وفي لحظة شدهم لهذه المرأة من شعرها لقتلها. . . .

٥ ـ ينقذها جنود الجمهورية الشباب.

كانت هذه المسرحية القصيرة قد مثلت مرات عديدة جداً في مدارس الأناضول ومراكزه الشعبية ما بين أواسط الثلاثينيات والحرب العالمية الثانية بتشجيع من الدولة التي تعمل على التغريب لإبعاد المرأة عن الغطاء وعن الضغوط الدينية، ولكنها نسيت إثر ديمقراطية عام ١٩٥٠ وانخفاض حدة الثورة الأتاتوركية. وحين التقيت فوندا إسر في أحد استديوهات الدوبلاج في اسطنبول بعد سنوات قالت لي بأنها تفخر بان أمها لعبت هذا الدور نفسه في ثانوية (كوتاهية) عام ١٩٤٨، ولكنها مع الأسف لم تعش السعادة الحقة نفسها مرة أخرى في قارص بسبب الأحداث التي نشبت فيما بعد. وعلى الرغم من حالتها المنسية تلك التي ترى لدى ممثلي المسرح من يأس وتعب وانهيار بتأثير المخدرات، فقد ضغطت عليها كثيراً لتحكي لي ما جرى في تلك الليلة بالتفصيل. ولأنني تحدثت مع كثير من الأشخاص الذين شهدوا تلك الليلة فإنني أدخل فوراً في التفاصيل.

كان المتفرجون القارصيون مالئو مسرح الشعب مندهشين في المشهد الأول. عنوان: «إما الوطن أو الإشارب» جعلهم يتوقعون مسرحية معاصرة وسياسية، وغير واحد أو اثنين من المسنين لم يتوقع أحد امرأة مغطاة. كان في أذهانهم الإشارب رمز الإسلام السياسي. ومسير تلك المرأة غير المعروفة وسط الغطاء بمباهاة وتصميم وهي ترتفع وتنخفض جعل البعض يتوقف عندها، احترمها حتى الموظفون «الراديكاليون» الذين يستهينون بالألبسة الدينية. أحد تلاميذ مدارس الأئمة والخطباء النبهاء توقع من هي تلك الملفوفة بالغطاء فأطلق قهقهة أثارت غضب الجالسين في الصفوف الأمامية.

في المشهد الثاني حين بدأت المرأة المغطاة بقفزة التنوير والتحرر، وكشفت غطاءها الأسود، كان الجميع في اللحظات الأولى خائفين! ويمكننا أن نفسر هذا بخوف الجميع وصولاً إلى العلمانيين المغربين من النتائج التي ستولدها أفكارهم! وفي الحقيقة إن هؤلاء راضون ومن زمن باستمرار كل شيء في قارص على ما هو عليه لأنهم يخافون من السياسيين الإسلاميين. فهم، فلا يخطر ببالهم أن يعملوا ما كان يعمل في السنوات الأولى للجمهورية بنزع الغطاء عن المغطيات تحت ضغط الدولة، فهم يفكرون «بالاكتفاء بعدم تغطية غير المغطيات تحت ضغط الإسلاميين أو الخوف منهم كما جرى في إيران».

فيما بعد قال السيد طورغوت لكا: «في الحقيقة إن الأتاتوركيين الجالسين في الصفوف الأولى ليسوا أتاتوركيين، إنهم جبناء!». كان الجميع خائفين من غليان العاطلين عن العمل والجهلاء ـ وليس الدينيون فقط ـ من خلع امرأة مغطاة ثيابها ببرود على خشبة المسرح. ولكن على الرغم من هذا فإن معلماً من الجالسين في الصفوف الأمامية نهض على قدميه وبدأ يصفق لفوندا أسر وهي تخلع غطاءها بحركات ظريفة وحازمة. ولكن هذا التصرف لم يكن عملاً سياسياً من أجل الحداثة، وقد قام بهذا لأنه شعر بالدوار لرؤية ذراعيها العاريين الممتلئين وكتفيها وصدرها العاري، وهو أساساً سكران. رد بعض الشباب من الصفوف الخلفية غاضبين على هذا المعلم الوحيد الفقير.

لم يسر الموقف الجمهوريين الذين في الصفوف الأولى أيضاً. وحين لم تظهر من تحت الغطاء فتاة ريفية بريئة ذات نظارة، ومنورة الوجه ومصممة على القراءة، وظهرت فوندا إسر راقصة هز البطن تلخبطت عقولهم. وهل هذا يعني أن العاهرات وعديمات الأخلاق فقط ينزعن غطاءهن؟ في هذه الحالة هذه مقولة الإسلاميين. سُمع نائب المحافظ يصرخ في الصفوف الأولى: «خطأ، هذا عمل خاطئ.» واشتراك آخرين معه يمكن أن يكون مراءاة فقط لم تقنع فوندا إسر. وبينما كان الذين في الصفوف الأولى يتفرجون مقدرين فتاة الجمهورية المنورة المدافعة عن تحررها وقلقين عليها سُمع تهديد أو اثنان من تجمع طلاب مدرسة الأئمة والخطباء، ولكن هذا لم يخف أحداً. لم يُخفْ أبداً الذين في الصفوف الأولى، وفهم نائب المحافظ، والسيد كاظم معاون مدير الأمن النشيط والجريء الذي شكل عبئاً على حزبيي العمل الكردستاني

في يوم من الأيام، والضباط الآخرون، ومدير المصالح العقارية، ومدير الثقافة الذي كان عمله جمع أشرطة التسجيل الكردية وإرسالها إلى أنقرة (جلب معه زوجته، وابنته، وأولاده الأربعة وقد جعلهم يربطون ربطات عنق، وثلاثة من أولاد أخوته.)، وبعض الضباط المرتدين ثيابهم المدنية مع زوجاتهم ـ لم يخافوا أبداً من ضجيج بعض شباب مدرسة الأئمة والخطباء الذين لا يعرفون قدرهم ويريدون افتعال مشكلة. ويمكن القول أيضاً بأنهم واثقون بالشرطة المدنية الموزعة في كل مكان من الصالة، وبأفراد الشرطة ذوي البزات الرسمية الموزعين على أطراف الصالة، وحسبما قيل أيضاً بالجنود المنتظرين خلف الخشبة. ولكن أهم ما في الأمر هو نقل الأمسية مباشرة عبر التلفزة، فعلى الرغم أنه بث محلي ولكن هذا يجعلهم يشعرون بأن تركيا كلها وأنقرة تتابعهم. أركان الدولة في الصفوف الأمامية ـ كالجمهور كله في الصالة ـ يتابعون ما يجري على الخشبة وفي زاوية من زوايا عقولهم يفكرون بأن التلفاز يبث ما يجري على الخشبة، لهذا يظهرون أنفسهم أكثر ظرافة وسحراً مما هم عليه إزاء السفالات، والتعليقات السياسية، والتصرفات العبثية الجارية عل الخشبة. حتى تلك اللحظة ثمة من يلتفت كل برهة إلى كاميرا التلفزة للتأكد مما إذا كانت تعمل، كالذين يلوحون بأيديهم من الخلف، وهنالك أيضاً من لا يتحرك من مكانه حتى ولو كان في أبعد نقطة من الصالة خائفاً وقائلاً لنفسه: «الرحمة، إنهم يتفرجون علينا.» وكون الأمسية تنقل عبر التلفزيون المحلي على الهواء مباشرة فغالبية القارصيين لا يجلسون في بيوتهم لمتابعتها بل هذا ما أثار فيهم رغبة الذهاب إلى المسرح للفرجة على التلفزة التي تقوم بعملية النقل.

وضعت فوندا إسر الغطاء الذي نزعته قبل قليل في قدر نحاسي كبير على الخشبة كما لو أنها تضع غسيلاً، وصبت بنزيناً فوقه بعناية كأنها تصب كلور غسيل، وبدأت بخفقه. وبالمصادفة وُضِعَ البنزين في زجاجة كلور ماركة عاكف التي كانت ربات البيوت القارصيات يستعملنه على نطاق واسع وهذا ما جعل قارص كلها، وليس الذين في الصالة فقط يعتقدون بأن الفتاة المتمردة غيرت رأيها وجلست تفرك غطاءها بهدوء وهذا ما أراح الجميع بشكل عجيب.

أحدهم من الصفوف الخلفية صرخ قائلاً: «اغسليه يا فتاتي، افركيه جيداً.» صدر ضحك، وحزن الموظفون الذين في الأمام من هذا الأمر، ولكن هذا رأي كل من في الصالة. آخر صرخ قائلاً: «أين مسحوق غسيله (أومو)؟»

هؤلاء من شباب مدارس الأئمة والخطباء. ولأنهم أضحكوا من في الصالة بقدر ما أقلقوهم فلم يتأجج الغضب نحوهم. أكثر من في الصالة مثل الموظفين الجالسين في الصفوف الأمامية يريدون أن تمر هذه التمثيلية السياسية التي مضى وقتها، والبرجوازية الصغيرة والاستفزازية دون الوصول إلى إزعاج. كثير من الأشخاص الذين حدثتهم بعد سنوات طويلة أخبروني بأنهم شعروا بالمشاعر نفسها: قال أحد الموظفين لطالب كردي فقير: القارصيون الذين في مسرح الشعب يريدون أن يعيشوا تجربة مختلفة، ويريدون أن يلهوا قليلاً. ولعل بعض طلاب مدرسة الأئمة والخطباء الغاضبين ينوون تخريب الأمسية، ولكن لم يكن يخاف منهم حتى تلك اللحظة.

أما فوندا إسر فقد جعلت من الغسيل الذي كثيراً ما نراه في الدعايات أداة تسلية، وأطالت بالعمل مثل ربة بيت. وفي الوقت المقرر أخرجت الغطاء من القدر، وعرضته على المتفرجين كما لو أنها ستنشره على الحبل، وفتحته مثل الراية. وأمام نظر الجمهور المندهش لعدم معرفته بما سيجري أخرجت قداحة من جيبها، وأشعلت الغطاء من أحد حوافه. خيم صمت للحظة. وسمع صوت اللهب الذي لف الغطاء كأنه انفجر. وأنيرت الصالة كلها بضوء غريب ومخيف.

كثير من الأشخاص نهضوا على أقدامهم خوفاً.

لم يكن أحد يتوقع هذا. خاف حتى العلمانيون غير المهادنين قيد شعرة. حين رمت المرأة الغطاء الملتهب أرضاً خاف البعض أن يأخذ اللهب خشب الأرضية الممتد عمره إلى مائة وعشر سنوات مضت، ومعه الستائر المخملية المرقعة المتسخة الباقية من أغنى سنوات قارص. ولكن غالبية الذين في الصالة شعروا بأن السهم انفلت من القوس لذلك سيطر عليهم الرعب. صار من الممكن أن يحدث كل شيء. تناهى إلى الأسماع انفجار الضجيج والصخب من بين طلاب الأئمة والخطباء. بعد ذلك سمعت أصوات يووووه، وصراخ، وصيحات غضب.

أحدهم صرخ قائلاً: «يا أعداء الدِّين غير المؤمنين بالله، أنتم عديمو إيمان ملحدون» الذين في الصفوف الأمامية مندهشون حتى تلك اللحظة. وإذا كان المعلم نفسه الوحيد والجريء قد نهض وقال: «اسكتوا، وتفرجوا.» ولكن أحداً لم يستمع إليه. حين فُهِمَ أن صيحات يووووه، والصراخ وإطلاق الشعارات لن يهدأ، وأن الأحداث ستكبر هبت عاصفة من التخبط. فجأة نهض الدكتور نوزات مدير الصحة في المحافظة وجر معه متجهاً نحو باب الخروج أبناءه ذوي السترات وربطات العنق، وابنته ذات الشعر المجدول وزوجته ذات الهندام الأفضل التي ارتدت فستاناً من الكريم بلون الطاووس. نهض تاجر الجلود الغني القارصي القادم من أنقرة لمتابعة شؤون أعماله السيد صادق مع صديقه منذ أيام المدرسة الابتدائية من حزب الشعب المحامي السيد ثابت. أما كا الذي رأى أن الخوف سيطر على الصفوف الأمامية فبقي حيث يجلس لا يدري ما يفعله: فكر بأن ينهض لأنه يخشى من نسيانه القصيدة التي ما زالت في عقله ولم يستطع كتابتها على دفتره الأخضر بعد نتيجة الأحداث التي على وشك الحدوث والصخب والضجة. غير هذا يريد الخروج من المسرح والذهاب إلى إيبك. في اللحظة ذاتها اقترب السيد رجائي مدير الهاتف الذي تحترم قارص كلها ثقافته ولباقته من الخشبة التي تعج بالدخان.

صرخ قائلاً: «يا ابنتي أعجبنا كثيراً بتمثيليتك الأتاتوركية، ولكن أنهي الأمر. انظري الجميع قلقون، وسينفجر الناس.»

وخلال فترة قصيرة انطفأ الغطاء المرمي على الأرض. والآن ستقرأ فوندا أسر بين الدخان المنولوج أكثر ما يفاخر به كاتب «إما الوطن أو الغطاء» الذي صدر نصه ضمن منشورات المراكز الشعبية عام ١٩٣٦. بعد أربع سنوات من الأحداث التقيت كاتب: «إما الوطن أو الغطاء» في اسطنبول وقد بلغ الثانية والتسعين من عمره ولكنه ما زال متماسكاً، وبينما كان يؤنب أحفاده (هم في الحقيقة أحفاد أبنائه) المتقافزين فوقه قال لي متأسفاً أن عمله هذا (الذي لا علم له بتمثيله في قارص، ولا بالأحداث التي نجمت عن ذلك) قد نسي من بين أعماله (أتاتورك قادم، مسرحيات أتاتوركية للثانويات، ذكرياته.. الخ) وكان قد وصل في الثلاثينيات إلى نقطة أن فتيات الثانوية والموظفين كانوا يصفقون له وقوفاً بعيون دامعة.

أما الآن فلم يعد يُسمع غير إطلاق تلاميذ الأئمة والخطباء صيحات (يوووووه) وصراخ الغضب والتهديد. على الرغم من الصمت المحمل بالذنب والخوف أمام الصالة فقليل من الأشخاص استطاعوا فهم كلمات فوندا إسر. لعلها لم تسمع كلماتها حول سبب إلقاء الفتاة الغاضبة غطاءها، وإن جوهر الناس، والقوميات ليس في ألبستها، بل في روحها، ويجب أن نتحرر من رمز التخلف الغطاء والإشارب والطربوش واللفة، وهذه ضرورة للركض إلى جانب القوميات المتحضرة والمعاصرة، إلى أوربا. ولكن الجواب الغاضب المناسب للوضع الصادر من الصفوف الخلفية سُمع في الصالة كلها.

«أنت أيضاً اركضي عارية إلى أورباك، اركضي عارية!»

سمع تصفيق وقهقهة مؤيدة لهذا حتى من أمام الصالة. وهذا جعل الذين في الصفوف الأولى تخيب آمالهم على الأكثر، ويسبب لهم الخوف. وكا أيضاً في هذه الأثناء نهض من مكانه مع كثير من الأشخاص. كان يصدر صوت عن كل رأس، يصدر عن الصفوف الخلفية صراخ غاضب، بعضهم يتقدم نحو الباب محاولاً النظر إلى الخلف، أما فوندا إسر فمازالت تلقي القصيدة التي يستمع إليها قليل من الأشخاص.

[١٨]

لا تطلقوا النار، البنادق محشوة

الانقلاب الذي على الخشبة

بعد ذلك حدث كل شيء بسرعة كبيرة. ظهر على الخشبة مشعوذان ملتحيان بلحيتين مدورتين، يضعان على رأسيهما قبعتين، يحملان حبلاً للشنق وسكينين ويبدوان في كل ما يتصرفانه أنهما يريدان معاقبة فوندا إسر لأنها تحدت أمر الله بنزع غطائها وإحراقه.

حين وقعت فوندا إسر بين أيديهما تلوت بحركات شبه جنسية مقززة للنفس من أجل التخلص منهما. في الحقيقة لم تكن تؤدي دور بطلة التنوير، بل كانت تتصرف مثل «المرأة التي تتعرض للاغتصاب» الدور الذي كثيراً ما أدته في المسرح الجوال على المناطق النائية. وطأطأت رأسها كضحية باعتياد، ولم تلبِّ نظرتها المتوسلة، ونداؤها للجانب الجنسي في المتفرجين الرجال الانفعال المرجو. أحد المشعوذين المدوّري اللحى (قبل قليل عمل مكياج الأب بغباء) جرها من شعرها ومددها على الأرض، والآخر بموقف يذكر حضرة إبراهيم وتقديمه ابنه أضحية في رسوم عصر النهضة، أسند الخنجر إلى رقبتها. وكان في هذا المشهد كثير من الانفعالات المخيفة «لتمرد المتدينين والرجعيين» المنتشر على نطاق واسع بين أوساط المثقفين والموظفين في السنوات الأولى للجمهورية.

وقف «الرجلان من أنصار الشريعة» مع فوندا إسر في هذا الموقف المهم مدة ثماني عشرة ثانية دون أن يخرباه. ولأن الجمهور في الصالة خرج عن طوره خلال هذه الفترة قال لي كثير من القارصيين الذين التقيتهم فيما بعد أن

الثلاثة بقوا هكذا مدة أطول بكثير مما هي عليه. الأمر الذي أغضب طلاب الأئمة والخطباء لم يكن بشاعة «المتدينين المشعوذين» اللذين ظهرا على الشاشة، وشرهما، وكونهما عبارة عن كاريكاتيرين أو عدم رسم معاناة الفتيات اللواتي يضعن الإشاربات عبر التي نزعت غطاءها، بل شعورهم بأن هذه التمثيلية كلها عبارة عن استفزاز جريء. إثر هذا حين صرخوا وصاحوا، ورموا أشياء على الخشبة ـ نصف برتقالة، قطعة بساط ـ مفرغين غضبهم فهموا أنهم سقطوا في فخ نصب لهم، ويأسهم جعل غضبهم يزداد. لهذا السبب فإن صاحب التجربة السياسية الأكبر بينهم، القصير، عريض المنكبين، الطالب في الصف الأخير عبد الرحمن أوز (حين أتى والده من سيواس بعد ثلاثة أيام لاستلام جثته كتب اسمه بشكل مختلف) عمل على تهدئة زملائه، وإسكاتهم وإجلاسهم في أمكنتهم، ولكنه لم ينجح أبداً. التصفيق المنبعث من الزوايا الأخرى للصالة، ومن بين الفضوليين العاديين، وصياح (يوووه) منح الطلاب الغاضبين مزيداً من الجرأة. الأهم من هذا: شعور الإسلاميين الشباب الذين ما زالوا حتى وقتئذ «دون تأثير» نسبة إلى المحافظات المجاورة لقارص بأن صوتهم الموحد وجرأتهم قد بعثت الخوف بين أركان الدولة والعسكريين الذين في الصفوف الأولى أدهشهم وأسعدهم. وبينما ينقل التلفاز هذه الحادثة للمدينة كلها فلا يمكن أن يتركوا هذا الاستعراض العضلي دون الاستمتاع به. وهكذا نسي فيما بعد أنه ثمة رغبة بالتسلية وراء هذا الصخب والضجيج المتصاعد بسرعة. ولأنني تفرجت على شريط الفيديو مرات عديدة رأيت بعض التلاميذ يضحكون وهم يطلقون الشعارات والشتائم، كما وجدت أن التصفيق، وصراخ (يووووه) التشجيعي قد أطلقه مواطنون عاديون يريدون التسلي في نهاية أمسية «مسرحية» غير مفهومة، ويريدون أيضاً التعبير عن ضيقهم. سمعت أيضاً من يقول: «لو أن الذين في الصفوف الأمامية لم يأخذوا الصخب والضجيج الجماعي على محمل الجد زيادة عن الحد، ويرتبكوا، لما حدث أي من الأحداث اللاحقة.» هنالك من قال أيضاً: «إن الموظفين الكبار المرتبكين خلال الثواني الثماني عشرة والناهضين، والأغنياء كانوا على علم بما سيحدث لهذا السبب جمعوا أسرهم وغادروا، وكل شيء خطط له مسبقاً في أنقرة.»

في هذه الأثناء خرج كا من الصالة مدركاً بخوف أن القصيدة التي في عقله ينساها نتيجة الضجيج والصخب. في اللحظة ذاتها ظهر على الخشبة المنقذ الذي سيخلص فوندا إسر من المعتدين «الرجعيين» ذوي اللحى المدورة: كان هذا الشخص هو صوناي ظائم، وقد وضع على رأسه قبعة من النوع الذي كان يضعه أتاتورك وأبطال حرب التحرير على رؤوسهم، ويرتدي بزة عسكرية تعود إلى أعوام الثلاثينيات. وفور دخوله إلى الخشبة بخطى واثقة (دون إظهار أنه يعرج بشكل خفيف) خاف المتدينان الملتحيان، ورميا نفسيهما على الخشبة. المعلم الوحيد المسن نفسه نهض على قدميه وصفق لصوناي بقوته كلها، وصرخ شخص أو شخصان: «عاش، دمت لنا». وحين سقط عليه ضوء قوي بدا صوناي ظائم للقارصيين أنه مثل رائعة قادمة، من عوالم أخرى.

الجميع انتبه إلى وسامته وثقافته. الجانب الذي جعله جذاباً بين الطلاب اليساريين في أدوار شخصيات مثل تشي غيفارا، روبسبير، أنور باشا الانقلابي هو القسوة، والتصميم، والموقف التراجيدي والخجل، والجمال القريب قليلاً من الأنوثة. وقد أفنته جولات الأناضول التي تقهر الإنسان واستهلكته، وشوهت قدمه. قرب سبابة يده اليمنى المرتدية قفازاً أبيض إلى تحت ذقنه بقليل وليس إلى شفتيه بحركة ظريفة وقال: «أسكتوا» لم يكن ثمة ضرورة لهذا، لأن هذه الكلمة لم نكن في النص من جهة، ولأن الصالة كلها أصلاً كانت قد سكتت. الواقفون أيضاً جلسوا فوراً وسمعوا عبارة أخرى:

«وسط الآلام!»

غالباً قيلت هذه العبارة بشكل مجزوء لأنه لم يفهم أحد مَنْ هي وسط الآلام. قديماً كان يخطر بالبال: الشعب والقومية، حين تذكر هذه العبارة، أما الآن لم يستطع القارصيون فهم من هي وسط الآلام: هل ما تفرجوا عليه طوال هذه الأمسية، أم هم أنفسهم، أم فوندا إسر، أم الجمهورية؟ ورغم هذا فإن الشعور الذي أومأت إليه العبارة صحيح. لقد دفنت الصالة كلها بصمت الخوف الممزوج بالهموم.

قال صوناي ظائم: «أيها الشعب التركي الشريف والعزيز! لا أحد يستطيع ثنيك عن انطلاقك الكبير والأصيل على طريق التنوير. لا تهتم. لا

يمكن أبداً للرجعيين والقاذورات، ولذوي العقول العنكبوتية أن تضع معرقلاً لعجلة التاريخ. لتكسر الأيدي الممتدة بسوء إلى الجمهورية والحرية والتنوير.»

لم يُسمع إلا بالكاد الجواب الساخر الذي أجابه صديق نجيب الجريء والمنفعل الجالس إلى جانبه بعد مقعدين. مع أنه يوجد في الصالة صمت عميق ممزوج بالإعجاب. الجميع يجلسون دون حركة مثل الشمع. لقد سكت الجميع منتظراً كلمة أو اثنتين تمنحان للأمسية معنى، حكاية أو حكايتين سيحكونها مساء في بيوتهم متظاهرين بالمعرفة. في اللحظة نفسها ظهر جنديان عند طرفي الستارة. فجأة دخل من الباب الخلفي ثلاثة آخرون وساروا بمحاذاة المقاعد، وصعدوا إلى الخشبة منضمين إليهما. بداية أخاف القارصيين مسيرُ الممثلين بين الجمهور كما يحدث في المسرحيات المعاصرة، بعد ذلك أمتعهم. وفي اللحظة ذاتها أيضاً دخل إلى الخشبة راكضاً ولدٌ مراسل يضع على عينيه نظارة، عرفه المتفرجون وتضاحكوا. كان هذا (نظارة) المحبب والواعي ابن أخ الوكيل العام لتوزيع الصحف المقابل مسرح الشعب، ولأنه يقف في الدكان طوال اليوم تعرفه قارص كلها. اقترب من صوناي ظائم، وعندما انحنى هو، همس في أذنه بشيء ما.

رأت قارص كلها أن صوناي ظائم حزن مما سمعه.

قال صوناي ظائم: «علمنا أن مدير معهد المعلمين قد توفي في المشفى. هذه الجريمة السافلة ستكون آخر اعتداء على الجمهورية والعلمانية وتركيا.»

وقبل أن يستوعب من في الصالة هذا الخبر السيّيء، أنزل الجنود الذين على الخشبة بنادقهم عن أكتافهم، ولقموها، وصوبوها نحو الجمهور. وبسرعة، وضجيج مرتفع أطلق كل منهم طلقة.

يمكن التفكير بأن هذا تخويف حلو، كما يمكن اعتبارها إشارة لخبر مؤلم مرسل من عالم خيالي داخل التمثيل. شعر القارصيون قليلو التجربة في المسرح بأن هذا طراز حديث في التجديد المسرحي قادم من الغرب.

ولكن انبعثت من بين المقاعد حركة قوية واهتزاز. الخائفون من ضجيج الأسلحة ربطوا سبب هذا الاهتزاز بخوف الآخرين. حاول شخص أو اثنان النهوض من أمكنتهما، انكمش الذين على الخشبة «الرجعيان الملتحيان» أكثر.

قال صوناي ظائم: «لا أحد يتحرك!»

في اللحظة ذاتها لقّم الجنود مجدداً بنادقهم، وصوبوها مرة أخرى نحو الجمهور. في هذه اللحظة نهض على قدميه الطالب الجريء القصير الجالس على مبعدة مقعدين من نجيب، وردد شعاراً:

«يسقط العلمانيون غير المؤمنين بالله. يسقط الفاشيون عديمو الإيمان.»

أطلق الجنود نار بنادقهم مجدداً.

مرة أخرى شعر من في الصالة بالاهتزاز والخوف مع الانفجار.

بعد ذلك مباشرة شوهد الطالب الذي أطلق الشعار قبل قليل أنه قد انهار في مقعده، وبالسرعة نفسها نهض على قدميه، وعمل حركة غير متوازنة بيده. بعض الأشخاص الذين ضحكوا طوال الأمسية لعبث طلاب الأئمة والخطباء وغرابتهم ضحكوا من هذا كما ضحكوا لسقوط الطالب بين الصفوف بحركة غريبة مثل ميت حقيقي.

في بعض الأمكنة من الصالة استفاق البعض على أن النار المصوبة عليهم حقيقية مع الدفعة الثالثة من الإطلاق. وعلى عكس الطلقات الفارغة التي يشعر بها الإنسان بالسمع فقط، فقد شعروا بها بمعداتهم أيضاً كما يحدث في الليالي التي يلاحق فيها الجنودُ المخربين. صدر عن المدفأة الألمانية الضخمة ماركة (بوهيم) التي تدفئ الصالة منذ أربع وأربعين سنة صوت غريب. ولأن اسطوانات مدخنتها المصنوعة من الصفيح قد ثقبت بدأت تدخن مثل إبريق شاي غاضب. انتبه إلى شخص نهض من الصفوف الوسطى وسار نحو الخشبة رأسه مدمى، كما شُعر برائحة البارود. بدأ يشعر ببداية تخبط، ولكن غالبية من في الصالة دون حراك صامتين مثل أصنام. تغلغل في الصالة الشعور بالوحدة الذي يشعر به الإنسان حينما يرى كابوساً. السيدة نورية مدرّسة الأدب التي اعتادت على حضور عروض مسرح الدولة كلها حين تذهب إلى أنقرة نهضت من مكانها في الصف الأول لأنها أعجبت بواقعية المؤثرات الصوتية وصفقت أول مرة. في هذه الأثناء نهض نجيب مثل تلميذ يطلب الإذن بالكلام.

بعد ذلك مباشرة أطلق الجنود بنادقهم للمرة الرابعة. بحسب التقرير الذي

عمل عليه المفتش الرائد المرسل من أنقرة للبحث في الأحداث، وحَضّره بدقة وسرية، واستغرق البحث به أسابيع فقد توفي شخصان بالرصاص في أثناء إطلاق النار. أحدهما نجيب الذي سقط مصاباً برصاصتين في جبينه وعينه، ولأنني سمعت أقاويل أخرى حول هذا الموضوع لن أستطيع القول بأنه قد مات في تلك اللحظة. إذا كان الجالسون في الصفوف الأمامية والوسطى قد اتفقوا على نقطة هي أن نجيباً انتبه إلى الرصاص المطلق في الهواء في الدفعة الثالثة، وقد فسّر هذا على مختلف. قبل ثانيتين من إطلاق النار عليه، وبصوت سمعه أشخاص كثيرون (ولكنه لم يسّجل على شريط الفيديو) قال:

«توقفوا، لا تطلقوا النار، الأسلحة محشوة.»

وهكذا عُبّر عن الأمر الذي عرفه كل من في الصالة بقلبه، ولم يرد قبوله بعقله. في الإطلاق الأول للأسلحة أصابت إحدى الرصاصات الخمس المنطلقة أوراق الغار المصنوعة من الجبس في أعلى أحد الأقسام الخاصة التي تابع فيها فيلماً قبل ربع قرن آخر قنصل سوفييتي مع كلبه. لأن الكردي من (سيرت) الذي أطلق سلاحه لم يرد قتل أحد. رصاصة أخرى. بقلق مماثل، وبشيء من الجهل هذه المرة أصابت سقف المسرح، ونزل الكلس الممتد عمره إلى مائة وعشرين سنة مع قطع الدهان إلى الأسفل مثل الثلج فوق الجمهور المرتبك. رصاصة أخرى انغرزت في السياج الخشبي في المؤخرة تماماً، تحت المرتفع الذي نصبت عليه كاميرا النقل المباشر، والذي كانت تتمسك فيه الفتيات الأرمنيات الفقيرات الحالمات في زمن ما حين يحضرن لمشاهدة الفرق المسرحية، والبهلوانات، وأوركسترا الحجرة القادمة من موسكو بتذاكر رخيصة وقوفاً على أقدامهن. الرصاصة الرابعة ذهبت نحو زاوية بعيدة عن كاميرا النقل المباشر مخترقة مسند أحد المقاعد الخلفي وانغرزت في كتف السيد محي الدين صاحب محل بيع قطع تبديل جرارات وآلات زراعية والقادم مع زوجته وأختها الأرملة. في اللحظة الأولى وتحت تأثير قطع الكلس المتساقط من السقف اعتقد أن شيئاً ما قد سقط عليه فنظر نحو الأعلى. الرصاصة الخامسة حطمت الزجاجة اليسرى لنظارة الرجل العجوز الجالس وراء الطلاب الإسلاميين بقليل، وقد أتى إلى قارص من طرابزون لرؤية حفيده الذي يخدم في الجندية، ودخلت إلى مخه، وقتلته بصمت دون أن ينتبه أحد

إلى موته وخرجت من مؤخرة رقبته، وارتخى على مسند المقعد وبقيت يد الولد الكردي البالغ اثنتي عشرة سنة الذي كان يبيع بيضاً وبعض المأكولات بين الصفوف في إحدى البيضات الطريات في الكيس.

أنا أكتب هذه التفاصيل لتفسير سبب عدم تحرك غالبية الجمهور في مسرح الشعب على الرغم من إطلاق النار نحوه. وقد شوهد أن الطالب الذي أصيب إثر الرمي الثاني في صدغه ورقبته، وفوق قلبه بقليل على أنه جزء ممتع من اللعبة المخيفة. إحدى الرصاصتين الأخريين أصابت صدر تلميذ في مدرسة الأئمة والخطباء (كانت ابنة خالته أول «المنتحرات» في المدينة) وكان جالساً في الخلف دون إصدار مزيد من الأصوات، والأخرى أصابت مينا الساعة المغطاة بالغبار والعنكبوت والتي لم تشتغل منذ ستين سنة والمعلقة على الجدار فوق مكان آلة العرض السينمائي بمترين. وانغراز رصاصة أخرى في المكان نفسه مع الدفعة الثالثة من الرمي، والتي لم تميز حتى مساء اليوم الثاني، ودون التزام أحد الجنود المجيدي التصويب بالقسم على القرآن ثبت للرائد المفتش أنه تهرب من قتل أحدهم. وفي تقرير الرائد حول قضية مماثلة وهي: «إسلامي مندفع آخر قد قتل يعمل في الوقت نفسه لصالح شعبة قارص لتشكيلات المخابرات القومية، وهو عميل مجتهد محب لمهمته». فقد بيّن ضمن قوسين أن طلب أسرته تعويضاً من خلال دعوى رفعتها ضد الدولة لا يستند إلى مستند قانوني. من الصعب تفسير قتل الرصاصتين الأخيرتين للسيد رضا المحبوب في أوساط قارص المحافظة والمتدينة كلها الذي أقام سبيلاً في حي (وسط القلعة) وخادمه الذي يقوم مقام عكازه الذي يتكئ عليه، وتطلع أغلب الجمهور إلى الجنود الذين يلقمون بنادقهم مجدداً على الرغم من أنينهما ونزاعهما الروح في المقاعد الوسطى. قال صاحب مربط مواشي لم يسمح بذكر اسمه على الرغم من مرور كل هذه السنوات: «فهمنا أن شيئاً مخيفاً جرى للجالسين في الصفوف الخلفية. وتفرجنا على ما يجري دون نبس لأننا خفنا إذا تحركنا من مكاننا، ولفتنا النظر أن يصيبنا السوء نحن أيضاً».

لم يستطع الرائد المفتش تحديد المكان الذي أصابته إحدى رصاصات الدفعة الرابعة من الإطلاق. إحدى الرصاصات أصابت بائعاً شاباً أتى إلى قارص من أنقرة لتسويق موسوعات وألعاب صالونات بالتقسيط (سيموت بعد

ساعتين من النزف). رصاصة أخرى فتحت ثقباً كبيراً في جدار مقاسم الفرجة الخاصة المطل على الصالة وكان في عام ١٩٠٠ يجلس فيه (كريكور جزمجيان) أحد أغنياء الأرمن، تاجر جلود حين يأتي إلى المسرح مع زوجته الملفوفة بالفراء. الرصاصتان الأخريان اللتان اخترقتا إحدى عيني نجيب الخضراوين وجبينه النظيف العريض ـ بحسب ادعاء مبالغ به ـ لم تقتلاه فوراً، وبحسب ما حكي فيما بعد فإن الشاب نظر لحظة إلى الخشبة وقال: «أنا أرى!».

بعد إطلاق النار الأخير هذا انكمش الراكضون نحو الباب، ومطلقو الصرخات، والصائحون. المصور الذي يدير النقل المباشر يجب أن يكون قد ألقى بنفسه إلى أسفل جدار، لأن كاميراه التي كانت تتحرك يميناً ويساراً قد توقفت الآن. كان متابعو التلفاز القارصيون لا يستطيعون سوى رؤية الازدحام الذي على الخشبة، والمتفرجين المحترمين الصامتين في الصفوف الأمامية. ولكن على الرغم من هذا فإن قسماً كبيراً من المدينة فهم من خلال أصوات الأسلحة والصراخ، والضجيج والصخب المسموعة عبر جهاز التلفزة بأن أمراً غريباً يجري في مسرح الشعب. حتى الذين بدؤوا يتناومون في منتصف الليل حين وجدوا أن المسرحية مملة، تعلقت عيونهم بالشاشات بعد صوت الأسلحة المنطلق على مدى ثماني عشرة ثانية.

كان صوناي ظائم صاحب تجربة إلى الحد الذي يجعله يستشعر لحظة الاهتمام هذه، فقال: «أيها الجنود الأبطال، نفذوا مهمتكم!». وبحركة ظريفة التفت نحو فوندا إسر التي ما زالت متمددة على الخشبة، وانحنى نحوها بشكل مبالغ به ماداً يده لها. أمسكت المرأة يد مخلصها، ونهضت على قدميها.

الموظف المتقاعد في الصف الأول نهض على قدميه، وصفق لهما. شاركه بهذا بضعة أشخاص من الصفوف الأمامية. صدر صوت تصفيق عدة أشخاص من الخلف. إما من الخوف، أو الإعتياد على التصفيق مع أي تصفيق. أما بقية الصالة فقد كانت صامتة مثل جليد. كان كل شخص كأنه يصحو من السكر. بعضهم على الرغم من رؤيتهم الأجساد المنازعة للروح بدؤوا بالابتسام بشكل غير واضح تماماً براحة التقرير بأن كل شيء جزء من

عالم التمثيل الذي على الخشبة. بعضهم رفعوا رؤوسهم من الزوايا التي ألقوا أنفسهم إليها، إذ أخافهم صوت صوناي.

قال صوت مؤنب: «هذه ليست تمثيلية، إنها بداية انقلاب. سنعمل كل شيء من أجل وطننا. ثقوا بالجيش التركي الشريف! خذوا هؤلاء أيها الجنود.»

جنديان أخذا «الرجعيين» الملتحيين اللذين على الخشبة. وبينما كان الجنود الآخرون يلقمون بنادقهم وينزلون إلى وسط المتفرجين، قفز رجل غريب إلى الخشبة. غريب لأنه ليس جندياً كما أنه ليس ممثلاً، ويُفهم هذا من حركاته المتسرعة غير اللائقة، والبعيدة عن الجمال. كثير من القارصيين تطلعوا إليه آملين بأن يقول إن كل شيء كان مزاحاً.

صرخ قائلاً: «عاشت الجمهورية! عاش الجيش، عاشت القومية التركية! عاش أتاتورك!» كانت قد بدأت الستارة بالانسدال بهدوء. وتقدم مع صوناي ظائم خطوتين إلى الأمام وبقي أمام الستارة من طرف الصالة. كان حاملاً مسدساً صنع (قرق قلعة) ومرتدياً ألبسة مدنية وينتعل بوطاً عسكرياً. قال: «يسقط المشعوذون!» ثم نزل من الدرج إلى وسط المتفرجين. ظهر خلفه شخصان يحملان بندقيتين. بينما كان الجنود يعتقلون تلاميذ مدرسة الأئمة والخطباء ركض هؤلاء المسلمين الثلاثة نحو باب الخروج بحزم وهم يطلقون الشعارات دون النظر إلى المتفرجين الذين يتطلعون إليهم بعيون خائفة.

كانوا سعداء جداً، ومنفعلين جداً. لأنه تم إعطاء قرار حول انقلاب قارص هذا الصغير، وانضمامهم إلى اللعبة بعد مناقشات ومساومات طويلة. طوال اليوم عارض هذا صوناي ظائم الذي عُرّف إليهم في الليلة الأولى لأنه اعتقد بأن المغامرين المسلمين المنخرطين في أعمال ظلامية سيوسخون «العمل الفني» الذي سيقدمه على الخشبة، ولكنه لم يستطع في اللحظة الأخيرة معارضة ضرورة وجود من يستطيع استخدام السلاح ضد الجهلاء الذين لا يفهمون الفن. وقيل إنه بعد عدة ساعات ندم كثيراً على هذا القرار، وأنه يشعر بعذاب الضمير لأن هؤلاء الرجال ذوي الهيئات الرثة أراقوا الدماء، ولكن هذه أيضاً مجرد أقاويل مثل كثير غيرها.

حين ذهبت إلى قارص بعد سنوات طويلة قال لي السيد مختار الذي

جولني في مسرح الشعب الذي تهدم نصفه وتحول نصفه الآخر إلى مستودع لوكالة (آرتشلك) وهو صاحب هذا الدكان بأن جرائم عديدة ارتكبت في قارص منذ زمن الأرمن حتى الآن، وحدثت مساوئ ومجازر متهرباً من الإجابة عن أسئلتي حول الرعب في تلك الليلة والأيام التي تلتها. وإذا كنت أريد إسعاد الناس الفقراء الذين يعيشون هنا قليلاً، فعلي عندما أعود إلى اسطنبول أن أكتب عن هواء قارص النظيف وجوها الجميل، وطيب أهلها وليس عن ذنوبها الماضية. في صالة المسرح المحولة إلى مستودع مظلم وعفن، وبين أشباح الثلاجات والغسالات والمدافئ أراني الأثر الوحيد المتبقي من تلك الليلة: كان ذلك هو الثقب الكبير الذي فتحته الرصاصة في جدار المقسم الخاص الذي كان يتفرج منه على المسرح (كريكور جزمجيان).

[١٩]

كم كان جميلاً أيضاً الثلج الذي يندف!

ليلة الانقلاب

في أثناء إسدال ستارة المسرح كان الراكض في مقدمة الرجال السعداء الثلاثة الخارجين وهم يصيحون حاملين البنادق والمسدسات تحت النظرات الخائفة للجمهور هو صاحب الاسم المستعار (ز. دميرقول) صحفي شيوعي سابق. كان في السبعينيات في المنظمات الشيوعية المؤيدة للسوفييت كاتباً وشاعراً، وعلى الأكثر شوهد «حارساً». ضخم البنية. بعد الانقلاب العسكري عام ١٩٨٠ هرب إلى ألمانيا. بعد هدم جدار برلين عاد إلى تركيا بإذن خاص من أجل الدفاع عن الجمهورية والدولة الحديثة ضد الفدائيين الأكراد و «المطالبين بتطبيق الشريعة». الشخصان اللذان معه هما من مجموعات القوميين الأتراك الذين كان يخوض (ز. دميرقول) ضدهم صراعاً مسلحاً في أزقة اسطنبول ليلاً في عامي ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠، ولكن فكر الدفاع عن الدولة وَحَّدَ روح المغامرة لديهم الآن. وبحسب رأي البعض فإنهم جميعاً عملاء للدولة منذ البداية. أما الذين كانوا ينزلون الدرج خائفين مسرعين لمغادرة مسرح الشعب في أسرع وقت ممكن فلأنهم لا يعلمون أبداً من هؤلاء تصرفوا معهم وكأنهم جزء من المسرحية التي ما زالت مستمرة.

حين خرج (ز. دميرقول) من المسرح ورأى الثلج قد بنى كثيراً بدأ يخبط الأرض بقدميه مثل طفل فرح، وأطلق عيارين ناريين في الهواء، وصرخ قائلاً: «عاشت القومية التركية، عاشت الجمهورية.»

الجمهور الذي كان يتوزع أمام الباب انسحب إلى الأطراف. البعض نظر

إليهم مبتسماً وخائفاً. والبعض وقف كأنه يعتذر لأنه خرج إلى بيته باكراً. ركض (ز. دميرقول) مع صديقيه صاعدين عبر شارع أتاتورك. كانوا يطلقون الشعارات، ويتكلمون كالسكارى بصوت مرتفع كالصراخ منتشين. المسنون الذين يتقدمون مستندين بعضهم إلى البعض الآخر وهم يغوصون في الثلج ويخرجون، وآباء الأسر ذات الأولاد المندس بعضهم إلى البعض الآخر في حالة تردد صفقوا لهم.

الثلاثي المنتشي وصل إلى خلف كا في زاوية شارع كاظم بيك الصغير. ولأنه انتبه إليهم شوهد كا وقد أفسح لهم الطريق منسحباً إلى الرصيف تحت شجرة (الزعرور) وكأنه يفسح الطريق لسيارة.

ناداه (ز. دميرقول) قائلاً: «يا سيد شاعر. عليك أن تقتلهم قبل أن يقتلوك. فهمت؟»

في هذه الأثناء نسي كا القصيدة التي لم يستطع كتابتها حتى حينئذ، والتي سيسميها «حيث لا يوجد الله».

كان (ز. دميرقول) وصديقاه يسيرون صاعدين في شارع أتاتورك. ولكي لا يسير كا خلفهم انحرف نحو اليمين إلى شارع (قرة ضاغ) وانتبه إلى أنه لم يبق في عقله شيء من القصيدة.

كان في داخله شعور بالذنب وخجل كالذي كان يشعر به عند خروجه من الاجتماعات السياسية حين كان شاباً. لم يكن كا يخجل لأنه فقط ابن البورجوازية الغنية التي تعيش في نيشان طاش في تلك الاجتماعات، بل لأن أغلب ما كان يحكى في تلك الاجتماعات مليء بالمبالغات الطفولية. وعلى أمل عودة القصيدة التي نسيها إلى عقله لم يعد إلى الفندق مباشرة، وقرر أن يطيل طريقه.

رأى بعض الفضوليين المرتبكين مما رأوه في التلفاز فخرجوا إلى النوافذ. من الصعب تحديد كم كان يعرف كا من الأمور المخيفة التي جرت في المسرح. قبيل خروجه من بناء المسرح كان قد بدأ إطلاق نار الأسلحة، ولكن من الممكن أن يكون قد اعتقد بأن إطلاق النار و (ز. دميرقول) وصديقيه جزء من المسرحية.

كان انتباهه كله مركزاً على القصيدة التي نسيها. وحين شعر بأن قصيدة أخرى تلهم له، جعلها تنتظر في زاوية من زوايا عقله ريثما تتطور وتنضج.

تناهى إلى سمعه صوت إطلاق عيارين ناريين من بعيد. وقبل أن تتردد أصداؤهما في الثلج تلاشيا. كم كان يندف الثلج جميلاً؟ كم هي كبيرة الندف! وكم هي حازمة! وصمت كأنه لن ينتهي! كان شارع (قرة ضاغ) العريض تحت ثلج يصل إلى الركبة صاعداً، وهو يتلاشى داخل الليل المظلم. أبيض ومحملاً بالأسرار! لم يكن ثمة أحد في بناء البلدية الجميل المؤلف من ثلاثة طوابق والباقي من زمن الأرمن. الجليد النازل عن أغصان شجرة (زعرور) يتوحد مع الثلج المتراكم على سيارة غير مرئية، وقد صنع ستارة مخرمة نصفها من الثلج ونصفها من الجليد. عبر كا من أمام نافذة مظلمة خلعت أخشابها لبيت أرمني فارغ ذي طابق واحد. وبينما كان يستمع إلى صوت تنفسه ووقع أقدامه شعر أول مرة بقوة في داخله تجعله يستطيع أن يدير ظهره إلى نداء الحياة والسعادة الذي يشعر كأنه يسمعه أول مرة.

لم يكن ثمة أحد في الحديقة الصغيرة التي فيها تمثال أتاتورك مقابل دار المحافظة. كما أن كا لم يلاحظ أية حركة أمام مبنى المالية الباقي من عهد الروس وأكثر أبنية قارص ترفاً. بعد الحرب العالمية الأولى وقبل سبعين سنة عندما انسحب جنود القيصر وجنود السلطان من المنطقة كان هذا المكان مركز الدولة المستقلة التي أسسها الأتراك، ومجلسها. كان مقابله بناء أرمني قديم داهمه الجنود الإنكليز لأنه كان قصر الرئاسة للدولة البائدة تلك. ولأنه اليوم قصر المحافظ فهو محمي جيداً، ودون أن يقترب من البناء انحرف يميناً منعطفاً نحو الحديقة. نزل قليلاً من أمام بناء أرمني آخر جميل وحزين كالأبنية الأخرى فجأة رأى دبابة تبتعد بطيئة وصامتة كما لو أنها في حلم من جانب قطعة الأرض الفارغة. ثمة شاحنة عسكرية إلى الأمام أكثر، قرب مدرسة الأئمة والخطباء. ومن خلال قلة الثلج عليها أدرك كا أنها جاءت للتو. أُطلِقَ عيار ناري. قفل كا عائداً. ودون أن يري نفسه لرجال الشرطة الذين يحاولون أن يتدفؤوا داخل البراكة التي قد تجلّد زجاجها، نزل عبر شارع (أوردو). أدرك أنه لا يمكن أن يبني القصيدة الجديدة التي في رأسه، والذكرى المرتبطة بها إلا إذا عاد إلى غرفته في الفندق دون أن يخرج أبداً من صمت الثلج هذا.

كان وسط الطريق الصاعد. تناهى إليه صخب من الرصيف المقابل. أبطأ كا. ثمة شخصان يرفسان باب مديرية الهاتف.

ظهرت وسط الثلج مصابيح سيارة. بعد ذلك سمع كا الصوت الخافت لعجلاتها التي لُفّت عليها الجنازير. خرج من السيارة السوداء المدنية رجل ذو هيبة رآه كا حين كان يفكر في النهوض في المسرح مع شخص مسلح على رأسه قبعة صوفية.

كان جميعهم أمام الباب. بدأ نقاش. فهم كا من أصواتهم ومن خلال ضوء مصباح الشارع أن الذين عند الباب هم (ز. دميرقول) وصديقاه.

قال أحدهم: «كيف لا يوجد معك مفتاح؟ ألست المدير العام للهاتف؟ ألم يجلبوك إلى هنا لتقطع الهاتف؟ كيف تنسى مفاتيحك؟»

قال المدير العام: «هواتف المدينة لا تقطع من هنا، بل تقطع من المركز الجديد في شارع المحطة.»

قال (ز. دميرقول): «هذا انقلاب. ونحن نريد الدخول إلى هنا. ويمكن الذهاب إلى المكان الآخر إذا أردنا. موافق؟ أين المفتاح؟»

«يا ابني هذا الثلج سيتوقف بعد يومين، وتفتح الطرق، بعد ذلك ستحاسبنا الدولة جميعنا.»

قال (ز. دميرقول): «نحن الدولة التي تخاف منها. أتفتح فوراً؟»

«لا أفتح الباب دون أمر مكتوب!»

قال (ز. دميرقول): «سنرى الآن» وأخرج مسدسه، وأطلق عيارين في الهواء: «خذوه، واسندوه إلى الجدار، إذا أصر على موقفه سنطلق عليه النار.»

لم يؤمن أحد بكلامه، ولكن على الرغم من هذا فإن رجُلي (ز. دميرقول) اللذين يحملان البنادق جرّا السيد رجائي إلى جدار مديرية الهاتف. ولكي لا تؤذي الرصاصات النافذة التي خلفه نهروه ليبتعد نحو اليمين. ولأن الثلج ناعم جداً هنالك سقط السيد المدير على الأرض. اعتذروا منه، وأمسكوه من يده، وأنهضوه. فكوا ربطة عنقه، وربطوا يديه إلى الخلف. في هذه الأثناء كانوا يتحدثون فيما بينهم. قالوا بأن قارص ستنظف من خونة الوطن حتى الصباح.

إثر أمر (ز. دميرقول) لقموا البنادق، واصطفوا مقابل السيد رجائي مثل مجموعة تنفيذ الإعدام. في تلك اللحظة بالضبط تناهت أصوات أسلحة. (كان هذا إطلاق نار للتخويف فتحه الجنود في حديقة مكان إقامة طلاب مدرسة الأئمة والخطباء) سكت الجميع منتظرين. الثلج الذي ندف طوال النهار يكاد أن يتوقف. كان ثمة جمال فوق عادي، وصمت سحري. بعد برهة قال أحدهم بأن لديه الحق باختيار (لم يكن هذا اختياراً أبداً) تدخين سيجارة أخيرة. وضعوا سيجارة في فم السيد رجائي، وأشعلوها بواسطة قداحة. ولأنهم تضايقوا في أثناء تدخين المدير السيجارة بدؤوا بكسر باب مديرية الهاتف بأحذيتهم العسكرية وأعقاب بنادقهم.

قال المدير من حيث هو جانباً: «ارحموا مال الدولة. فكوني سأفتحه.»

بينما كانوا يلجون إلى الداخل تابع كا طريقه. كان يسمع في أحيان متباعدة أصواتَ أسلحة، ولكنه لم يكن مهتماً لها أكثر من نباح الكلاب. وجه انتباهه بكل قوته نحو جمال الليل غير المتحرك. توقف برهة أمام بيت أرمني فارغ قديم. بعد ذلك توقف متفرجاً باحترام أمام خرابة كنيسة، والجليد النازل من أغصان شبح شجرة في حديقتها. كان يرى كا كل شيء تحت أضواء شوارع المدينة الصفراء الشاحبة الميتة كأنه قد خرج من حلم حزين، وهذا أشعره بالذنب. من جهة أخرى كان ممتلئاً بالشكر لهذا الصمت وهذا البلد المنسي لأنهما ملآ داخله بالشعر.

على مبعدة منه ثمة ولد على الرصيف يقول: «سأذهب لأرى ما يحدث.» وثمة أم غاضبة مطلة من النافذة تؤنب ابنها وتناديه ليدخل إلى البيت. مر كا بينهما. في زاوية شارع فائق بيك رأى اثنين بعمره يخرجان مرتبكين من دكان بائع أحذية أحدهما ضخم، والثاني نحيل مثل طفل. منذ اثنتي عشرة سنة يقولان لزوجتيهما مرتين في الأسبوع بأنهما «ذاهبان إلى المقهى» ويلتقيان سراً في هذا الدكان ذي رائحة اللاصق، علما من تلفزيون الجار الذي في الأعلى المفتوح دائماً بأنه قد أعلن منع التجول، وهذا ما جعل الارتباك يسيطر عليهما. بعد أن انحرف كا نحو شارع فائق بيك، ونزل قاطعاً زقاقين انتبه إلى وجود دبابة أمام دكان يطل على بسطة سمك نهري مقابل لباب الصفيح. كانت الدبابة مثل الزقاق وسط الصمت، وهي ثابتة دون حركة مثل

ميت، وهذا ما جعله يعتقد بأنها فارغة. ولكن غطاءها فتح، وامتد رأسٌ من داخلها طلب منه أن يعود إلى بيته بسرعة. سأله كا عن طريق فندق (ثلج بلاس). قبل أن يجيبه الجندي رأى مكتب جريدة مدينة سرهات المظلم، وعرف طريق العودة.

ملأ دفء الفندق ونور صالة المدخل نفسه فرحاً. أدرك من وجوه الزبائن المرتدين مناماتهم والمدخنين وهم يتابعون التلفاز أن هنالك أشياء غير عادية قد حدثت. ولكنه كطفل يقفز من فوق الموضوع الذي لم يحبه كان عقله ينزلق بخفة وحرية من فوق كل شيء. دخل إلى جناح السيد طورغوت بهذه الخفة. المجموعة كلها ما زالت حول الطاولة تتابع التلفاز. حين رأى السيد طورغوت كا نهض على قدميه. وقال له بنبرة مؤنبة بأنه تأخر، وقلقوا عليه. كان يتحدث بأمر آخر حين التقيت عينا كا بعيني إيبك.

قالت إيبك: «قرأت قصيدتك بشكل جميل جداً. لقد فخرت بك.»

أدرك كا فوراً بأنه لن ينسى هذه اللحظة حتى آخر عمره. كان سعيداً إلى حد أنه يمكن أن تطفح عيناه بالدموع لولا أسئلة الفتاتين الأخريين، وحالة السيد طورغوت المعذبة قلقاً.

قال السيد طورغوت: «الجنود يقومون بأعمال ما غالباً.» وهو يعاني من اتخاذ قرار فيما إذا كان سيفرح، أو يشغل باله.

كانت المائدة في غاية الفوضى. أحدهم نفض رماد سيجارته في قشرة برتقال (المندلينا). غالباً إيبك هي التي قامت بهذا العمل. العمة منيرة وهي عمة أبيه الشابة والبعيدة في أثناء طفولته كانت تعمل هذا. وكانت أم كا تستهين بها على الرغم من عدم توقفها عن قول كلمة: «سيدتي» في أثناء حديثها لها.

قال السيد طورغوت: «أعلنوا منع التجول. ماذا حدث في المسرح؟ احكوا لنا!»

قال كا: «السياسة لا تهمني أبداً.»

فهم الجميع وعلى رأسهم إيبك بأنه قال هذا موافقاً لصوت منبعث من داخله، ولكن على الرغم من هذا شعر بالذنب.

الآن يريد الجلوس هنا فترة طويلة دون أن يتحدث بشيء وهو ينظر إلى إيبك. ولكن «جو ليلة الانقلاب» الذي في البيت أقلقه. لا لأنه يذكره

بالذكريات السيئة بليالي الانقلابات العسكرية التي عاشها في طفولته، بل لأن كل شخص يسأله عن أمر ما. هاندا تمددت نائمة في إحدى الزوايا. قديفة تنظر إلى التلفاز الذي لا يريد كا أن يتابعه. السيد طورغوت مسرور لحدوث أمور غريبة ولكنه مرتبك.

جلس كا فترة بجانبه وأمسك بيد إيبك، وطلب منها أن تصعد إلى الأعلى، إلى غرفته. حين آلمه عدم اقترابها منه أكثر صعد إلى غرفته. كان ثمة رائحة خشب مألوفة. علّق معطفه على مزلاج خلف الباب. أنار المصباح الصغير المجاور لرأس السرير: التعب لم يهز جسده وجفونه مثل هزة منبعثة من تحت الأرض فقط بل هز الغرفة والفندق. لهذا السبب حين كان يكتب بسرعة على دفتره القصيدة الجديدة التي الهمت له شعر بأن الأبيات امتداد للسرير الذي يجلس على حافته، وبناء الفندق، ومدينة قارص الثلجية، والعالم كله.

سمّى قصيدته «ليلة الانقلاب». تبدأ القصيدة من ليالي الانقلابات العسكرية التي عاشها في طفولته باستيقاظ العائلة كلها وجلوسها بالمنامات مستمعة للإذاعة والموسيقى العسكرية، ولكن بعد ذلك يعود إلى طعام العيد الذي يتناولونه معاً. لهذا السبب فكر فيما بعد بأن القصيدة لم تنبع من انقلاب معاش، بل من الذاكرة، وهكذا سيضعها على نجمة الثلج. القضية المهمة في الشعر تتعلق بإمكانية تغطية جزء من عقل الشاعر لسيطرة الكارثة على العالم. ولكنه الآن لا يستطيع سوى تخيل الشاعر الذي يمكنه القيام بهذا: هذا هو العمل الصعب على الشاعر! بعد أن أنهى كا القصيدة أشعل سيجارة، ونظر إلى الخارج عبر النافذة.

[٢٠]

ليكن خيراً للوطن والشعب

الليل في أثناء نوم كا، والصباح

نام كا بعمق مدة عشر ساعات وعشرين دقيقة بالضبط. رأى في حلمه أن الثلج يندف. وقبل هذا بقليل جداً بدأ مجدداً ندف الثلج في الشارع الأبيض الذي يُرى من الستارة المرفوعة قليلاً، وفي ضوء المصباح الشاحب الذي يضيء اللوحة الوردية المكتوب عليها (فندق ثلج بالاس) بدا الثلج ناعماً أكثر مما هو معتاد: لأن نعومة هذا الثلج السحرية، والغريبة تمتص أصوات الأسلحة المطلقة في أزقة قارص استطاع كا أن ينام بهذه الطمأنينة طوال الليل.

مع أن مهاجع نوم طلاب ثانوية الأئمة والخطباء المداهمة برفقة دبابة وشاحنتين عسكريتين على بعد شارعين نحو الأعلى. لم يحدث تبادل إطلاق النار عند الباب الرئيس الذي ما زال يُظهر حتى الآن دِقَة حرفيي الحدادة الأرمن ومهارتهم، بل حدث عند الباب الخشبي المؤدي إلى مهجع الصف الأخير وقاعة الاجتماعات بداية أطلق الجنود الرصاص من الحديقة الثلجية إلى الظلام، نحو الأعلى بهدف التخويف. ولأن عناصر الإسلام السياسي الأنشط شاركوا في أمسية مسرح الشعب، واعتقلوا هناك فإن الباقين في المهاجع إما قليلو الخبرة، أو غير المهتمين، ولكنهم ثاروا مما رأوه في التلفاز، وأقاموا متراساً من الطاولات والمقاعد خلف الأبواب، ورددوا الشعارات وصرخوا: «الله أكبر» وهم ينتظرون. ولأن طالباً أو طالبين مجنونين حاولا إلقاء السكاكين والشوكات التي سرقاها من المطعم نحو الجنود من نافذة دورة المياه، واللعب بالمسدس الوحيد الذي بين أيديهما فقد أطلقت الأسلحة مجدداً في الصراع

هنا، وسقط ميتاً طالب جميل الجسم والوجه نحيل متلقياً رصاصة في جبينه. طلاب المدرسة المتوسطة الذين بكى أغلبهم، والمرتدون مناماتهم انضموا إلى هذه المقاومة من أجل القيام بعمل ما فقط. لم ينتبه سوى قليل جداً من الأشخاص في المدينة لهؤلاء المنضمين إلى الصراع والمدماة أعينهم ووجوههم من قبل أن يركّبوا في الحافلات لأخذهم إلى مديرية الأمن تحت الضرب.

غالبية المدينة مستيقظة، ولكن انتباه الناس غير موجه إلى النوافذ والشوارع، مازال حتى لحظتئذ موجهاً نحو التلفاز. في مسرح الشعب وعبر البث المباشر قال صوناي ظائم هذه ليست مسرحية، ما يجري هو انقلاب، وبينما كان الجنود يجمعون محدثي الضجيج في الصالة، ويحملون الجثث والجرحى على النقالات، صعد معاون المحافظ السيد (أُمّان) الذي تعرفه قارص كلها إلى الخشبة، وبنبرته الرسمية والمتوترة والباعثة على الثقة المألوفة، وبقليل من الضيق ـ لعله نتيجة أول ظهور له في «بث مباشر» ـ أعلن أنه فرض حظر التجول في قارص حتى الساعة الثانية عشرة من يوم الغد. وبسبب عدم خروج أحد إلى الخشبة التي أفرغها فإن المتابعين القارصيين لم يروا عبر العشرين دقيقة التالية على الشاشة سوى ستارة خشبة مسرح الشعب. بعد ذلك حدث انقطاع في البث. بعد ذلك عادت ستارة الخشبة القديمة نفسها للظهور مرة أخرى. بعد مدة بدأت الستارة تفتح ببطء، وبُدِئ بعرض «الأمسية» كلها على التلفاز من جديد.

خلق هذا الوضع خوفاً لدى غالبية المتفرجين القارصيين الجالسين مقابل أجهزة التلفزة العاملين على فهم ما يجري. الذين في حالة بين النوم والصحو، وشبه السكارى دخلوا في حالة اختلاط زمني لا يمكن الخروج منها، وشعروا بأن الأمسية وحوادث الموت ستعود للحدوث مرة أخرى. بعض المتفرجين غير المهتمين بالجانب السياسي للأحداث رأوا في إعادة البث هذا فرصة جديدة تفيد في فهم ما جرى في قارص في تلك الليلة كما فعلت أنا بعد سنوات وتابعوا بانتباه.

وهكذا حين كان يتابع المتفرجون القارصيون فوندا إسر رئيسة حكومة سابقة، واستقبالها الزبائن الأمريكان باكية، أو سخريتها من فيلم دعائي، ثم هز بطنها منتشية، كانت مجموعة خبيرة من الأمن تداهم مركز المحافظة لحزب

المساواة بين الشعوب الواقع في خان خليل باشا، واعتقل الرجل الوحيد الموجود هناك وهو المستخدم الكردي، وجمع كل ما في الخزائن والأدراج من دفاتر وأوراق. ورجال الشرطة ذوو العربة المصفحة نفسها جمعوا أعضاء هيئة إدارة الحزب في المحافظة الذين تعرفوا إليهم خلال مداهمة الليلة السابقة وعرفوا طريق بيوتهم، واعتقلوهم بتهمة الانفصالية، والقومية الكردية.

لم يكونوا وحدهم قوميين أكراد في قارص. في الصباح الباكر أخرج من سيارة أجرة محروقة ماركة (مراد) في أول طريق (ديغور) قبل أن تغطى بالثلج ثلاث جثث، وبحسب بلاغ قوى الأمن فإنها لناشطين من حزب العمال الكردستاني. قيل إن هؤلاء الشبان الثلاثة حاولوا التسلل إلى المدينة قبل أشهر، ونتيجة الارتباك الذي سيطر عليهم إزاء أحداث المساء قرروا الهرب إلى الجبال بواسطة سيارة أجرة، وإن معنوياتهم انهارت حين رأوا أن الطريق مغلق بالثلج، وحين نشب شجار بينهم انتحر الجميع بواسطة القنابل التي ألقوها على بعضهم بعضاً. ولم يُؤخذ بعين الاعتبار معروض أُم أحد الشبان الثلاثة الميتين وهي عاملة تنظيف في المستوصف والتي تقول فيها بأن رجالاً مسلحين مجهولين طرقوا باب بيتهم وأخذوه، وكذلك معروض الأخ الأكبر لسائق سيارة الأجرة الذي يقول فيه بأن أخاه ليس قومياً كردياً، وحتى إنه ليس كردياً أصلاً.

في الحقيقة إن قارص كلها في تلك الساعة فهمت بأن انقلاباً قد حدث من خلال الدبابتين المتجولتين في المدينة ببطء مثل شبحين مظلمين، أو أن أشياء غريبة تدور، ولكن لم يكن ثمة شعور بالخوف لأن كل شيء حدث برفقة مسرحية تعرض في التلفاز، وثلج نادف دون توقف أمام النوافذ كما في الحكايات القديمة. كان الذين يعملون في السياسة فقط قلقين.

مثلاً السيد سعد الله الذي يحترمه أكراد قارص كلهم وهو صحفي وباحث في الفنون الشعبية ولأنه شهد في حياته كثيراً من الانقلابات العسكرية، فور سماعه خبر منع التجول من التلفاز جهز نفسه لأيام السجن التي شعر باقترابها. رتب بهدوء في حقيبته منامته ذات المربعات الزرقاء التي لا يستطيع النوم من دونها، ودواء البروستات، وحبوب النوم، وقبعته وجواربه الصوفية، وصورة ابنته التي في اسطنبول وفي حضنها حفيده وهي مبتسمة، وبعد أن

وضع تحضيرات الكتاب الذي يعمل عليه حول المرثيات الكردية، جلس يشرب الشاي مع زوجته ويتابع هز فوندا إسر بطنها للمرة الثانية من التلفاز منتظراً. وبعد منتصف الليل بكثير، حين قرع الباب، ودَّع زوجته، وحمل حقيبته وفتح الباب حين لم يجد أحداً خرج إلى الزقاق المثلج وفي ضوء مصابيح الشارع بلون احتراق الكبريت السحري بينما كان يتذكر مستغرباً تزلجه على الجليد في وادي قارص حين كان صغيراً وسط جمال صمت الزقاق المغطى بالثلج قتل برصاص أطلقه مجهولون على رأسه وصدره.

يفهم من إيجاد جثث أخرى عندما ذاب الثلج جيداً بعد أشهر أن جرائمَ أخرى قد ارتكبت في تلك الليلة. وأنا من أجل ألا أُحزن قرائي أكثر سأعمل على عدم البحث في هذه الجرائم كما فعلت الصحافة القارصية الحذرة. وحول الإشاعات التي تقول بأن (ز. دميرقول) وأصدقاءه قد ارتكبوا تلك الجرائم «المجهولة الفاعل» فإنها غير صحيحة بالنسبة للتي ارتكبت في الساعات الأولى من الليل على الأقل. فهم نجحوا بقطع الهواتف ولو كان هذا في وقت متأخر، وداهموا تلفزيون قارص، وتأكدوا من تأييده للانقلاب، ومع اقتراب نهاية الليلة بذلوا جهودهم وبشكل عقدة مرضية لإيجاد «مطرب شعبي سرهاتي وبطولي ذي صوت جهوري» لأن الانقلاب ولكي يغدو انقلاباً حقيقياً يجب أن تُغنى أغاني سرهات والبطولة في الإذاعة والتلفزة.

وبعد أن بحثوا في الثكنات والمستشفيات، والثانوية العلمية، والمقاهي التي تفتح حتى الصباح وجدوا هذا المغني الشعبي نهاية بين الإطفائيين المناوبين. بداية شعر أنه سيعتقل، وحتى سيرمى بالرصاص. كان صوته المنبعث من تلفزيون صالة الفندق والمنساب بين الجدران، والطبقة الجصية فوقها، وبين الستائر أول ما سمعه كا حين استيقظ من النوم. كان ثمة نور ثلج غريب يسقط بقوة غير عادية عبر النافذة المرفوعة ستائرها قليلاً إلى غرفته الصامتة والمرتفعة الجدران. نام جيداً، وارتاح، ولكنه ومن قبل أن ينهض من سريره يدرك أن في داخله شعوراً بالذنب يحبط تصميمه ويوهن قوته. وكزبون فندق عادي غسل وجهه وحلق لحيته، مستمتعاً بوجوده في مكان آخر وحمام آخر، ثم خلع منامته، وارتدى ثيابه، وأخذ المفتاح المربوط بثقالة من الفونط، ونزل إلى صالة الفندق.

عندما رأى المغني في التلفاز، وانتبه إلى الصمت الذي يدفن المدينة داخله (كان الذين في الصالة يتحدثون همساً) فهم ما جرى مساء البارحة، وكل شيء خبأه عقله عنه. ابتسم ببرود للولد الذي في الاستقبال، وكمسافر مستعجل لا ينوي أبداً إضاعة وقته في هذه المدينة التي خربت نفسها بالعنف والعقد السياسية، عبر فوراً إلى صالة الطعام المجاورة. أراد أن يتناول إفطاره. رأى في إحدى الزوايا (سماوراً) عليه غلاية شاي كبيرة، وفي صحن ثمة جبنة (قشقوان) قارصية قسمت إلى قطع رقيقة، وفي زبدية ثمة زيتون ميت فقد لمعانه.

جلس كا على طاولة بجانب النافذة. استغرق بالنظر إلى الزقاق المغطى بالثلج والذي يظهر له عبر انفراج الستارة الشفافة بجماله كله. ثمة أمر محزن في الزقاق الخاوي جعله يتذكر منع التجول في إحصاء النفوس والناخبين، وفي التفتيش العام، والانقلابات العسكرية التي توحّد الجميع حول الإذاعات والتلفزات التي شهدها في طفولته وشبابه. عندما كانت تنشد الأناشيد وتعلن بلاغات ومحظوراتها، الأحكام العرفية في الإذاعة كان كا يريد دائماً أن يخرج إلى الشوارع الخاوية. كان البعض يحب أيام الانقلابات العسكرية التي حدثت في طفولة كا إذ يجتمع الجميع حول موضوع واحد، ويتقارب الأعمام والخالات والجيران كلهم من بعضهم بعضاً، كما يحبون سمر رمضان. العائلات البورجوازية الكبيرة والمتوسطة التي عاش كا طفولته بينها كانت تخفي قليلاً امتنانها للانقلابات العسكرية التي تجعل حياتها أكثر طمأنينة، وتنتقد بصمت وابتسام الممارسات العبثية التي تظهر إثر كل انقلاب. طلاء أحجار أرصفة اسطنبول كلها بالكلس كما في الثكنات العسكرية، وقبض الشرطة والعسكر على طويلي الشعر واللحى والحلاقة لهم بفظاظة. . الخ)

البرجوازيون الأتراك الاسطنبوليون الكبار يخافون من العسكر كثيراً من جهة، ويستهينون بهم سراً لعيشهم كموظفين يعانون من تأمين معاشهم، ولحياتهم الانضباطية.

حين دخلت شاحنة عسكرية صاعدة من أسفل الشارع المذكر بمدينة هجرت منذ قرون، انتبه كا بكل أحاسيسه كما كان يفعل في طفولته. الرجل الداخل إلى الغرفة للتو بهيئة تجار المواشي عانق كا فجأة، وقبّله من وجنتيه.

«نورت عيوننا يا سيدي! ليكن خيراً للوطن والشعب!»

تذكر كا أنه في الأعياد الدينية قديماً، والواعون حسنو الأوضاع بعد الانقلابات العسكرية يبارك بعضهم بعضاً بهذه الطريقة. هو أيضاً تمتم للرجال بما يشبه «خير إن شاء الله» وخجل من هذا.

فُتِحَ الباب المؤدي إلى المطبخ، وشعر كا بأن الدم الذي في وجهه كله قد انسحب. خرجت إيبك من الباب. تقابلا وجهاً لوجه ولم يدر كا ما سيفعل. خطر بباله أن ينهض في تلك اللحظة، ولكن إيبك لم تبتسم له، وتوجهت نحو الرجل الذي جلس للتو. بيدها صينية عليها فنجان وصحن.

الآن تضع الصحن والفنجان على طاولة الرجل. إنها مثل نادلة.

لف كا إحساس بالتشاؤم والندم والذنب. كان يتهم نفسه لأنه لم يُلْقِ التحية على إيبك كما يجب، ولكن هذا أمر مختلف. وفهم بسرعة أنه لن يستطيع إخفاءه عن نفسه. كل شيء كان خاطئاً. ما فعله كله البارحة: طلب الزواج منها، من امرأة غريبة وبشكل مفاجئ، تبادل القبل معها (حسنٌ، هذا كان جميلاً.)، أن يصاب بالدوار إلى هذا الحد، إمساك يدها حين كانوا يأكلون معاً، والأكثر من هذا هو الانجذاب المدوخ الذي شعر به نحوها، والسِكر الذي يشعر به الرجال الأتراك العاديون، وإظهار هذا للجميع من حوله دون خجل. ولأنه الآن لم يستطع إيجاد ما يقوله لها أراد أن تبقى إيبك «نادلة» للطاولة المجاورة إلى مالا نهاية.

نادى الرجل صاحب هيئة تاجر المواشي بفظاظة: «شاي!». توجهت إيبك باعتياد وبيدها الصينية والكأس الفارغة إلى (السماور). وحين اقتربت إيبك مسرعة من طاولة الرجل في أثناء تقديمها الشاي له شعر كا بأن ضربات قلبه تضرب في أنفه.

قالت إيبك مبتسمة: «ماذا حدث؟ هل نمت جيداً؟»

خاف كا من هذا الربط بليلة البارحة، بسعادة البارحة. قال كا مستصعباً الكلام كثيراً: «يبدو أن الثلج لن يهدأ.»

تبادلا نظرة صامتة. أدرك كا أنه لن يستطيع قول شيء، وإذا تكلم فسيكون كلامه مفتعلاً. نظر إلى عينيها العسليتين الواسعتين اللتين فيهما حور

خفيف صامتاً مظهراً أن هذا كل ما يستطيع فعله. شعرت إيبك بأن كا الآن في وضع نفسي مختلف تماماً عما كان عليه بالأمس، وفهمت أنه الآن شخص آخر تماماً. شعر كا بالظلام داخل إيبك، حتى إنها قابلته بتفهم. وشعر أيضاً بأن هذا التفهم يمكن أن يربطه بهذه المرأة طوال حياته. قالت إيبك بانتباه: «يستمر هذا الثلج هكذا أكثر.»

قال كا: «لا يوجد خبز»

«آه، عذراً.» وفي لحظة ذهبت إلى (البوفيه) حيث (السماور) وتركت الصينية من يدها، وبدأت تقطع الخبز.

لقد طلب كا خبزاً لأنه لم يستطع تحمل الوضع. الآن ينظر نحو المرأة بموقف كأنه يقول: «في الحقيقة يمكنني الذهاب لتقطيعه.»

كانت ترتدي إيبك كنزة صوفية بيضاء، وتنورة طويلة بنية، فوقها حزام عريض جداً يعود طرازه إلى السبعينيات، ولم يعد أحد يضعه الآن. خصرها نحيل، ووركها مناسب. طولها مناسب لطول كا. وأعجبه رسغا قدميها، وأدرك أنه إذا لم يعد إلى فرانكفورت معها من قارص سيتذكر متألماً حتى نهاية عمره إمساكه يدها هنا، وتقبيله لها بمزيج من الجد والمزاح، وسعادته في أثناء ممازحتها.

حين توقفت ذراع إيبك التي تقطع الخبز، أدار كا رأسه جانباً قبل أن تلتفت. قالت إيبك منادية: «لأضع في صحنكم جبنة وزيتوناً.» فهم كا أنها خاطبته بـ «أنتم» لتذكره بأنهما مع آخرين في الصالة. أجاب بالصوت نفسه ملتفتاً نحو الآخرين: «نعم، لو سمحت». حين تقابلت عيونهما فهم من وجهها أنها كانت منتبهة أكثر من اللازم أنه كان يتفرج عليها حين كانت ملتفتة. فكر بأن إيبك تعرف جيداً التفاصيل الظريفة للديبلوماسية الصعبة التي لن يستطيع النجاح بها أبداً في علاقات الذكر والأنثى، لهذا فقد خاف. وهو أصلاً يخاف من أن تكون هي احتمال السعادة الوحيد في حياته.

قالت إيبك: «جلبت الشاحنة العسكرية الخبز قبل قليل» وابتسمت مع تلك النظرة الحلوة التي تسحق قلبه، وأضافت: «لأن السيدة زاهدة لم تستطع المجيء بسبب منع التجول، أنا أرعى شؤون المطبخ... حين رأيت الجنود خفت كثيراً.»

لأن الجنود من الممكن أن يكونوا قد جاؤوا لأخذ هاندا أو قديفة، وحتى أبيها أيضاً. . . .

همست إيبك قائلة: «جلبوا مستخدمي المستشفى المناوبين لمسح الدم في مسرح الشعب.» جلست إلى الطاولة: «داهموا بيت الطلبة الجامعيين، وثانوية الأئمة والخطباء، والأحزاب. .» وهناك أيضاً كان ثمة أموات. اعتقلوا مئات الأشخاص، ولكنهم تركوا بعضهم صباحاً. بدؤوها الكلام همساً بجو خاص بفترات القمع السياسي ذكّر كا بمقاصف الجامعة قبل عشرين عاماً، وحكايات التعذيب والظلم التي تحكى همساً كهذا، والبحث فيها بغضب وكدر من جهة، وبمباهاة غريبة من جهة أخرى. في تلك الأوقات كان يريد نسيان أنه يعيش في تركيا، والعودة إلى بيته وقراءة كتاب شاعراً بالذنب ومكتئباً. أما الآن فقد حضرّ عبارة: «أمر مخيف جداً، جداً!» ليساعد إيبك بإنهاء كلامها. كانت داخل فمه، ولكنه كلما أراد إخراجها يتراجع لأنه يشعر بأنها ستصدر متصنعة، ويأكل خبزه وجبنه شاعراً بالذنب.

بينما كانت إيبك تهمس له بأن السيارات المرسلة إلى القرى الكردية لجلب آباء طلاب ثانوية الأئمة والخطباء لتشخيص جثث أبنائهم قد علقت في الطرق، وأعطيت مهلة يوم واحد لتسليم الأشخاص كافة أسلحتهم للدولة، ومنعت فعاليات دورات القرآن والأحزاب السياسية، نظر كا إلى يديها، وحدقتي عينيها، والبشرة الجميلة لرقبتها الطويلة، وسقوط شعرها الخرنوبي على هذه الرقبة. هل يمكنه أن يحبها؟ في إحدى الفترات حاول أن يجسد أمام عينيه أنهما يسيران في شارع (كايزر) في فرانكفورت، وهما الآن عائدان إلى بيتهما بعد أن ذهبا إلى السينما مساءً. ولكن التشاؤم ينتشر في روحه بسرعة. انتباهه الآن إلى أن خبز المرأة الذي في السلة مقطع بسماكة كبيرة كما يُفعل في بيوت الفقراء، والأسوأ من هذا تعلق انتباهه بعمل قطع الخبز هذه على شكل هرم كما يُعمل في مطاعم المغارف الكثيرة.

قال كا بانتباه: «لطفاً، حدثيني الآن بأشياء أخرى.»

كانت إيبك تحكي عن اعتقال رجل على مبعدة بنائين إثر إبلاغ عنه حين كان ماراً من حديقتهم الخلفية، فسكتت بتفهم.

رأى في عينيها خوفاً. وفسر كا قائلاً: «البارحة كنت سعيداً جداً، تعرفين

هذا. وهذه المرة الأولى التي أكتب فيها شعراً بعد سنوات، ولكنني الآن لا أستطيع تحمل هذه الحكايات.»

قالت إيبك: «قصيده البارحة كانت جميلة جداً.»

«هل تساعدينني اليوم قبل أن تلف التعاسة كل أطرافي؟»

«ماذا أعمل لك؟»

قال كا: «الآن سأصعد إلى غرفتي. تَعَالَيْ بعد قليل، وامسكي رأسي بين يديك. مدة قليلة، ليس كثيراً.»

نهض كا وهو يقول هذا فاهماً من عيني إيبك الخائفتين أنها لن تعمل هذا. إنها ريفية، من هنا، غريبة عن كا، وطلب منها ما لا تقدم عليه غريبة. كان عليه منذ البداية ألا يطرح عليها هذا الطلب لكي لا يرى في وجهها عدم تفهم المرأة له. بينما كان يصعد الدرج مسرعاً اتهم نفسه لأنه أقنعها بأنه عاشق لها. دخل إلى غرفته، ورمى نفسه على السرير، وفكر بالخبل الذي أقدم عليه بالمجيء من اسطنبول إلى هنا بداية، ثم بالخطأ الذي ارتكبه بالمجيء من فرانكفورت إلى تركيا. لو عرفت أمه التي حاولت قبل عشرين سنة إبعاد ابنها عن الشعر والأدب لكي يعيش حياة عادية أنه في الثانية والأربعين من عمره وجد سعادته في مدينة قارص بارتباطه بامرأة «تشرف على المطبخ» وتقطع الخبز بشكل سميك فماذا كانت ستقول؟ لو عرف أبوه أن ابنه جلس على ركبتيه في قارص أمام شيخ قادم من قرية ذاكراً إيمانه بالله ماذا كان سيقول؟ كانت ندف الثلج الحزينة والكبيرة التي بدأت تندف مجدداً في الخارج تمر من أمام نافذته بطيئة.

قُرع الباب. قفز وفتحه مفعماً بالأمل. كانت إيبك، ولكن على وجهها تعبيراً مختلفاً تماماً: قالت بان سيارة عسكرية أتت، وأن شخصين أحدهما عسكري سألا عن كا، وأنها قالت لهما بأنه موجود، وأنها ستخبره.

قال كا: «حسنٌ.»

قالت إيبك: «لأنقل هذه الرسالة بعد دقيقتين إن أردت.»

سحبها كا إلى الداخل، وأغلق الباب، وقبلها مرة، ثم أجلسها على حافة السرير. وتمدد على السرير، ووضع رأسه في حضنها. وبقيا هكذا صامتين،

ونظرا إلى الغربان التي تسير على الثلج فوق سطح بناء البلدية الممتد عمره إلى مائة وعشر سنوات.

قال كا: «تمام. كفى. أشكرك.» تناول معطفه الرمادي اللون المعلق على المسمار وخرج. بينما كان نازلاً على الدرج شم معطفه الذي ذكره بفرانكفورت لحظة، وفي تلك اللحظة اشتاق إلى حياته في ألمانيا بألوانها كلها. كان ثمة بائعة ألمانية ساعدته بشرائه من (كاوفهوف) رآها مرة ثانية بعد يومين عندما عاد لتقصير المعطف. كان اسمها (هانس هانسن). وتذكر أنه قد جلبها إلى عقله في أحد فواصل نومه ليلاً لأن الأسم ألماني أكثر من المعتاد وبسبب شقرتها.

[٢١]

ولكنني لا اعرف احداً منهم

كا في غرف باردة مخيفة

أرسلوا شاحنة من نوعية (جيمس) التي لم تعد تستخدم إلا نادراً في تركيا. الرجل المدني الشاب الأبيض البشرة المنقاري الأنف الذي قابله في صالة الفندق أجلسه في مقدمة الشاحنة في الوسط. وجلس هو بجانبه، من طرف الباب. كأنه عمل هذا كي لا يفتح كا الباب ويهرب. ولكنه تصّرف بشكل مهذب جداً، وقال لكا: «يا سيدي»، واستنتج كا من هذا أن الرجل ليس من الشرطة المدنية، بل ضابط من تشكيلات المخابرات القومية، وأنهم لن يعاملوه بسوء.

عبروا من شوارع المدينة الخاوية والبيضاء الناصعة بطيئاً. مكان سائق الشاحنة العسكرية مزيّن بعدة مؤشرات لا تعمل، ولأنه مرتفع جداً كان يرى كا بصعوبة بعض البيوت من داخلها من النوافذ المفتوحة. أجهزة التلفزة مفتوحة في كل مكان، ولكن قارص كلها أسدلت ستائر نوافذها، وهي مغلقة على نفسها. كأنهم يتقدمون في مدينة غريبة جداً، وتهيأ لكا بأن الذي يظهر من زجاج الشاحنة الأمامية الذي لا تستطيع أن تمسحه المساحات إلا بصعوبة بالغة من شوارع، وبيوت روسية بلطيقية الطراز وأشجار (زعرور) مغطاة بالثلج كأنها خارجة من الأحلام، قد سَحَرت أيضاً السائق والرجل المنقاري.

توقفوا أمام مديرية الأمن. ودخلوا بسرعة لأنهم بردوا كثيراً في الشاحنة. المكان مزدحم، ويضج بالحركة نسبة إلى اليوم السابق، وعلى الرغم من معرفة كا بأنه سيكون على هذا النحو فقد خاف. كان المكان مبعثراً ويضج

بحركة خاصة بالأمكنة التي عمل بها كا مع عدد من الأتراك. تذكر كا ممرات المحاكم، وأبواب ملاعب كرة القدم، ومراكز انطلاق الحافلات. ولكن ثمة جو رعب وموت كذاك الذي يشعر به في المشافي ذات رائحة المعقم. تفكيره بأن شخصاً ما يعذب في مكان قريب منه لف روحه على شكل وخوف وإحساس بالذنب.

بينما كان يصعد الدرج الذي صعده بالأمس مع مختار مساء عمل على تأييد مواقف الأشخاص الذين يحكمون هذا المكان وتصرفاتهم المريحة. سمع طقطقة الآلات الكاتبة السريعة، والمتحدثين صراخاً عبر أجهزة اللاسلكي من الأبواب المفتوحة، والمنادين على مستخدمي عمل الشاي من الدرج. رأى شباباً مقيدين وألبستهم ممزقة، ووجوههم تطفح باللون البنفسجي يجلسون على مقاعد وطاولة أمام الأبواب منتظرين دورهم بالتحقيق. عمل على ألا تتلاقى عيناه بعيونهم.

أدخلوه إلى غرفة مشابهة للتي جلس فيها بالأمس مع مختار، وعلى الرغم من قوله لهم بأنه لم ير وجه قاتل مدير معهد المعلمين، ولم يستطع تشخيصه البارحة من الصور قالوا له لعله يستطيع تشخيصه بين الطلاب الإسلاميين الموقوفين في الطابق السفلي هذه المرة. فهم كا أن الشرطة تعمل تحت إشراف عناصر تشكيلات المخابرات القومية بعد «الانقلاب» وأن بينهما نوعاً من التنافس.

أحد عناصر المخابرات، مُدَوّر الوجه سأل كا عن المكان الذي كان فيه حوالي الساعة الرابعة.

فجأة صار وجه كا مثل الرماد، وحين كاد أن يقول: «أخبروني أنه من الأحسن أن تقابل الشيخ سعد الدين أفندي» قاطعه صاحب الوجه المدور قائلاً: «لا. قبل هذا.»

حين رأى أن كا قد سكت ذكره بأنه التقى (كحلياً). كان يتظاهر بالحزن لأنه يعرف كل شيء من البداية، ولأنه خجّل كا. حاول كا استنتاج نية حسنة من هذا الأمر. لو كان مفتش شرطة عادي لادعى مباهياً وبفظاظة بأن كا أخفى هذا اللقاء، وأن الشرطة تعرف كل شيء.

وشرح عنصر المخابرات المدور الوجه، وبجد كأنه يقول: «حمداً لله

على سلامتك.» أن (كحلياً) إرهابي مسعور، وتآمري كبير، وهو عدو غير مهادن للجمهورية تغذيه إيران. ومن المؤكد أنه قتل مذيعاً تلفزيونياً لذلك ثمة قرار غيابي بسجنه. وهو يتجول في تركيا كلها، وينظم أنصار الشريعة.

«من الذي قابلكم به؟»

قال كا: «تلميذ من ثانوية الأئمة والخطباء لا أعرف اسمه.»

قال عنصر المخابرات المدور الوجه: «الآن حاولوا تشخيصه أيضاً. انظروا جيداً. ستنظرون من نافذة المراقبة التي في الأبواب. لا تخافوا، لن يتعرفوا إليكم.»

أنزلوا كا إلى الأسفل عبر درج عريض. قبل أكثر من مائة عام حين كان هذا البناء الضيق والطويل مشفى تابعاً لوقف أرمني استخدم هذا المكان مستودعاً للحطب، ومبيتاً للخدم. فيما بعد، حين حوّل البناء إلى ثانوية للدولة في الأربعينيات، هدمت جدرانه، وصار المكان مطعماً. في السنوات اللاحقة، إذ سيتحول كثير من القارصيين إلى ماركسيين معادين للغرب في الستينيات، شربوا في طفولتهم هنا اللبن الرائب المصنوع من بودرة الحليب، وابتلعوا حبوب زيت السمك الذي تقلّب رائحته القذرة معداتهم والتي كانت ترسلها (اليونيسيف). جزء من هذا القبو العريض تحول الآن إلى ممر تطل عليه أربع عشرة زنزانة.

شرطي يبدو من حركاته أنه قام بهذا العمل قبل الآن وضع بعناية على رأس كا عمرة ضابط. قال عنصر المخابرات المنقاري الأنف الذي جلب كا من الفندق مظهراً معرفة كبيرة: «هؤلاء يخافون كثيراً من عمرات الضباط.»

حين اقترب من أول باب على اليمين فتح شرطي بحركة قاسية النافذة الصغيرة في باب الزنزانة الحديدي، وصرخ قائلاً: «انتبه، القائد!» نظر كا إلى الداخل عبر النافذة التي بقدر الكف.

رأى كا خمسة أشخاص داخل زنزانة بقدر سرير كبير. لعلهم أكثر: لأنهم كانوا فوق بعضهم بعضاً. جميعهم انحشروا عند الجدار القذر المقابل مستندين إليه. ولأنهم لم يخدموا في الجندية وقفوا وقفة استعداد بطريقة تدل على الغباء، وأغمضوا عيونهم كما علموا من قبل بالتهديد. (شعر كا بأن بعضهم نظروا إليه من بين جفونهم غير المطبقة تماماً.) على الرغم من مرور

إحدى عشرة ساعة فقط على «الانقلاب» فإن شعرهم محلوق على الدرجة صفر، ووجوههم وأعينهم مورقة. كان المكان في الداخل أكثر نوراً من الممر، ولكنّ كا شبههم جميعاً ببعضهم بعضاً.

اهتزّ: غطت داخله شفقة وخوف وخجل. فرح لأنه لم ير نجيباً بينهم.

حين رأى عنصر المخابرات القومية المنقاري الأنف بأن كا لم يستطع تشخيص أحد من النافذة الثانية والثالثة، قال: «ليس ثمة ما يخيف. أصلاً ستغادر هذا المكان حين تفتح الطرق.»

قال بعناد خفيف: «ولكنني لم أستطع التعرف إلى أحد.»

فيما بعد عرف عدة أشخاص: أحدهم يذكر جيداً أنه سمّع فوندا أسر كلاماً وهي على الخشبة، وآخر كان يردد الشعارات باستمرار. في إحدى اللحظات فكر بأنه إذا أخبر عنهم سيثبت بأنه ينوي التعاون مع الشرطة، وهكذا سيتجاهل نجيباً حين يقابله (ولأن ذنب هؤلاء مهما كان ليس خطيراً.)

لكنه لم يخبر عن أحد. في إحدى الزنزانات توسل لكا شاب ملطخ وجهه بالدماء قائلاً: «يا أفندي، لا تدعوهم يخبروا أمي».

هنالك احتمال كبير بأن الانفعال الأول «للانقلاب» جعلهم لا يستخدمون في ضرب هؤلاء الأدوات، وضربوهم بالقبضات والأحذية العسكرية. في الزنزانة الأخيرة أيضاً لم ير كا شبيهاً بالرجل الذي أطلق النار على مدير معهد المعلمين. وارتاح لأنه لم ير نجيباً بين هؤلاء الشباب الخائفين هنا أيضاً.

في الأعلى فهم أن الرجل المدور الوجه والذين يصدرون الأوامر له يريدون إيجاد قاتل مدير معهد المعلمين في أقرب فرصة ممكنة، وتقديمه للقارصيين باعتباره نجاحاً من نجاحات الانقلاب ولعلهم مصممون أيضاً على إعدامه فوراً. ثمة رائد متقاعد في الغرفة الآن. الرجل الذي وجد طريقة ووصل إلى مديرية الأمن على الرغم من منع التجول يريد إطلاق سراح قريب له. ويرجو على الأقل ألا يعذب «كي لا يخاصم المجتمع.»، وشرح بأن أمه الفقيرة سجلته في مدرسة الأئمة والخطباء لأنها صدقت الكذبة القائلة بأن الدولة توزع على التلاميذ هناك مجاناً معاطف وسترات صوفية، وأسرتهم في الحقيقة كلها جمهورية، وأتاتوركية. الرجل المدور الوجه قطع كلام الرائد المتقاعد.

قال: «يا سيدي الرائد، هنا لا يعامل أحد بسوء.» وسحب كا جانباً: لعل القاتل ورجال كحلي (شعر كا بأن الرجل يعتبر أن هؤلاء الأشخاص هم أنفسهم) هم في الأعلى بين الموقوفين في كلية البيطرة.

وهكذا ركب كا مع الرجل المنقاري الأنف الذي أخذه من الفندق في الشاحنة نفسها. كان كا طوال السفرة سعيداً بجمال الشوارع الخاوية، وبخروجه نهاية من مبنى مديرية الأمن، واستمتاعه بتدخين السيجارة. جانب من عقله يقول لنفسه بأنه فرح بخبث لحدوث الانقلاب العسكري وعدم تسليم البلد للدينيين. وهكذا لكي يريح ضميره أقسم ألا يتعاون مع الشرطة والجيش. بعد ذلك خطر بباله قصيدة جديدة بتفاؤل قوي ومدهش فقال لعنصر تشكيلات المخابرات القومية المنقاري الأنف: «أمن الممكن الوقوف عند مقهى واحتساء قدح شاي؟»

كانت غالبية مقاهي العاطلين عن العمل التي تصادف كل خطوتين مغلقة ولكنهم رأوا مقهى يعمل القائم فيها على غلي الشاي في زقاق (قنال) نائية بحيث لن تلفت شاحنة عسكرية الانتباه عند وقوفها هناك. في الداخل ثمة ولد أجير ينتظر انتهاء فترة منع التجول، وغيره هنالك في إحدى الزوايا ثلاثة أشخاص يجلسون انكمشوا حين رأوا واحداً يعتمر قبعة ضابط، ومدنيين يدخلون من الباب.

أخرج الرجل المنقاري الأنف مسدسه من داخل معطفه، وبموقف احترافي يثير إعجاب كا، أسند الشباب على الجدار المعلق عليه منظراً سويسرياً ضخماً، وفتشهم، وأخذ هوياتهم.

كا المتوصل إلى قرار بأن الأمر لن يصل إلى درجة الخطورة، جلس إلى طاولة بجانب المدفأة غير المشتعلة، وكتب القصيدة التي في عقله براحة.

كانت نقطة انطلاق القصيدة التي سيسميها فيما بعد «شوارع الحلم» هي شوارع قارص، ولكن في القصيدة المؤلفة من ستة وثلاثين شطراً الكثير من شوارع اسطنبول القديمة ومن مدينة (آني) الشبحية الباقية من عهد الأرمن، ومن المدن الرائعة الخاوية والمخيفة التي في أحلامه.

حين أنهى كا قصيدته رأى في التلفاز الأبيض والأسود أن الانقلاب في مسرح الشعب قد أخذ مكان المغني الشعبي الذي كان في الصباح. بما أن

حارس المرمى فورال قد بدأ للتو يحكي عن عشقه والأهداف التي دخلت مرماه فإنه يستطيع بعد عشرين دقيقة رؤية نفسه في التلفزيون وهو يلقي قصيدته. كان يريد أن يتذكر كا القصيدة التي نسيها دون أن يكتبها على دفتره.

دخل إلى المقهى من الباب الخلفي أربعة أشخاص آخرون. عنصر تشكيلات المخابرات القومية المنقاري الأنف سحب مسدساً نحوهم أيضاً، وصفهم على الجدار. كان الكردي الذي يدير المقهى والذي يخاطب عنصر تشكيلات المخابرات القومية بـ «يا قائدي» يشرح له بان هؤلاء الأشخاص لم يخرقوا حظر التجول، وأنهم أتوا إلى هنا عابرين من باحة الدار إلى الحديقة.

قرر عنصر تشكيلات المخابرات القومية بقرار غريزي أن يتحقق من صحة هذا الكلام. أحد الرجال لم تكن معه هويته وكان يرتجف بشدة خوفاً. طلب عنصر المخابرات منه أن يقوده إلى بيته من الطريق نفسه. وترك الشبان المسندين إلى الجدار للسائق الذي ناداه. وضع كا دفتر شعره في جيبه ولحق بهما. خرجوا من باب المقهى الخلفي إلى باحة مغطاة بثلج مثل الجليد، تجاوزوا جداراً منخفضاً، وصعدوا ثلاث درجات متجلدة، ووسط نباح كلب مربوط بجنزير نزلوا إلى قبو بناء بيتوني مُصَدّع دون طلاء مثل غالبية أبنية قارص. هنا تفوح رائحة نوم وفحم قذرة. اندسّ الرجل الذاهب في المقدمة إلى زاوية مصنوعة من صناديق كرتونية، وصناديق خضار فارغة بجانب موقد تدفئة مركزية يمور. رأى كا على فراش رث امرأة شابة جميلة بشكل يفوق المعتاد، بيضاء البشرة، وأدار وجهه بحركة غريزية. في تلك الأثناء قدم الرجل غير الحامل هويته لعنصر المخابرات المنقاري الأنف جواز سفر. كان كا لا يسمع ما يدور بين الرجلين بسبب موار موقد التدفئة المركزية. ولكنه استطاع في شبه الظلمة رؤية الرجل يخرج جواز سفر ثانياً.

كانا زوجاً وزوجة جورجيين جاءا إلى تركيا للعمل وكسب النقود. حين عادوا إلى المقهى، وأعاد عنصر تشكيلات المخابرات القومية الهويات للشباب المسندين إلى الجدار اشتكوا على الرجل فوراً: كانت المرأة مسلولة، ولكنها تعمل في الدعارة. تضاجع أصحاب مرابط المواشي وتجار الجلود الذين ينزلون إلى المدينة وزوجها مثل الجورجيين جميعاً لأنه يرضى بالعمل بنصف أجر فإذا طُلب عمل في سوق العمال المياومين كل حين وحين يأخذ هذا

العمل من يد المواطنين الأتراك. وهؤلاء فقراء وبخلاء إلى حد أنهم لا يدفعون نقوداً للفندق، ويدسون في يد مستخدم مديرية المياه خمسة دولارات، ويعيشون في شقة السخان هذه. بحسب الإشاعات فإنهما حين يعودان إلى بلدهما سيشتريان بيتاً، ولن يعملا حتى نهاية عمرهما. في الصناديق يوجد جلديات اشترياها من هنا رخيصة، وسيبيعانها في (تفلس) حين يعودان. طردا إلى خارج الحدود مرتين، ولكنهما وجدا طريقة نجحا من خلالها بالعودة إلى «بيتهما» في شقة السخان هذه. وعلى الإدارة العسكرية أن تنظف هذه المكروبات التي لم تستطع الشرطة المرتشية أن تنظفها بأي شكل.

وهكذا بينما كانوا يشربون الشاي الذي قدمه لهم صاحب المقهى بممنونية كبرى، وبتشجيع من عنصر المخابرات المنقاري الأنف، حكى الشبان العاطلون عن العمل الذين جلسوا إلى طاولته مترددين كثيراً من الشائعات على شكل إبلاغ، كما عرضوا شكواهم من السياسيين المتعفنين، وطرحوا تمنياتهم من الانقلاب العسكري: ذبح المواشي بشكل غير شرعي، والحيل التي تدور في مستودع المواد التي تحتكرها الدولة، بعض المتعهدين يجلبون من أرمينيا عمالاً بواسطة شاحنات اللحوم لأنهم أرخص، وينيمونهم في (براكات)، وبعضهم يشغلون العمال يوماً كاملاً دون دفع أجور. . . كأن هؤلاء الشبان العاطلين عن العمل لم ينتبهوا إلى أن هذا «الانقلاب العسكري» عمل ضد «الدينيين» والقوميين الأكراد الذين على وشك الفوز بالانتخابات البلدية. كانوا يتصرفون كما لو أن ما يجري في قارص منذ مساء البارحة حتى الآن هو من أجل إنهاء البطالة والتهتك الأخلاقي في قارص، وإيجاد عمل لهم.

في الشاحنة العسكرية رأى كا بطرف عينه عنصر تشكيلات المخابرات القومية يخرج جواز سفر الجيورجية، وينظر إلى صورتها. وشعر من هذا التصرف بانفعال وخجل.

شعر كا فور دخوله البناء بأن الوضع في كلية البيطرة هو أسوأ مما شاهده في مديرية الأمن. بينما كان يسير في ممرات هذا البناء المشابهة للجليد فهم فوراً أن أحداً لا يمتلك الوقت ليشفق على أحد. جُلب إلى هنا القوميون الأكراد، ومن قُبض عليه من الإرهابيين اليساريين الذين يلقون أحياناً قنبلة يميناً أو يساراً وينشرون بيانين، وكل شخص يمر اسمه في قيود تشكيلات

المخابرات القومية وبجانبه كلمة: مؤيد. ويخضع رجال الشرطة والعسكر والمدّعون العامون المشاركون في عمليات قامت بها المجموعتان السابقتان، والذين يساعدون في محاولات نزول الفدائيين الأكراد وتسللهم إلى المدينة بقسوة أكبر بكثير، ويستخدمون معهم أساليب أقسى مما يطبق على السياسيين الإسلاميين بمختلف شبهاتهم.

شرطي طويل القامة ضخم البنية تأبط كا من ذراعه كما لو أنه يساعد مشفقاً رجلاً مسناً يلاقي صعوبة بالمسير وجوله في ثلاثة صفوف تجري فيها أعمال مخيفة. سأعمل على عدم الإطالة بالحديث عما رآه في تلك الغرف كما فعل صديقي حين سجل مشاهداته فيما بعد على دفتره.

بعد أن دخل كا إلى الصف الأول ورأى حالة المشتبه بهم مدة تتراوح من ثلاث إلى خمس ثوان فكر أولاً بمقدار قصر رحلة بني الإنسان في هذه الدنيا. حين رأى المشتبه بهم الخاضعين للتحقيق تجسدت أمام عينيه بعض الخيالات العائدة لعصور أخرى وحضاراتٍ بعيدة، ودول لم يذهب أحد إليها كما لو أنها مطالب حلمية. كان كا والذين في الغرفة يشعرون بعمق الزوال كشمعة معطاة لهم وصلت إلى قعر الحياة. سيسمي كا هذه الغرفة في دفتره: الغرفة الصفراء.

استفاق في نفس كا شعور بأنه توقف في الصف الثاني مدة أقل. هنا تقابلت عيناه بعيونهم، وتذكر أنه رآهم البارحة في مقهى وهو يتجول في المدينة، وهرب بعينيه شاعراً بالذنب. والآن يشعر بأنهم في دولة حلم بعيدة جداً.

وسط الأنين والبكاء والصمت العميق المتوسع في روحه شعر كا في الصف الثالث بأن قوة تعرف كل شيء لا تعطيها هذه المعرفة محولة حياتنا في هذه الدنيا إلى تعذيب. نجح في هذه المعرفة في جعل عينيه لا تلتقيان عيني أحد. كان ينظر ولكن ليس إلى أمام عينيه. كان يرى اللون الذي في عقله. ولأن هذا اللون أشبه بالأحمر سيسمي هذه الغرفة: الغرفة الحمراء. وهنا توحد شعوره بقصر الحياة في الغرفة الأولى مع شعوره بأن الإنسان مذنب في الغرفة الثانية. وعلى الرغم من رعب المنظر الذي رآه كا فقد شعر بالراحة.

كان منتبهاً إلى أن عدم تشخيص أحد في كلية البيطرة خلقت شكاً وعدم

ثقة. عدم رؤيته نجيباً أراحه إلى حد كبير، وحين طلب المنقاري الأنف منه الذهاب إلى مشرحة مشفى التأمينات الاجتماعية، بهدف التشخيص، وأن هذه آخر زيارة، أراد كا أن يذهب إلى هناك بأسرع وقت ممكن.

في مشرحة قبو مشفى التأمينات الاجتماعية عرضوا على كا أولاً جثة الأكثر اشتباهاً به. وكان هذا هو الناشط الإسلامي الذي سقط مصاباً بثلاث رصاصات في أثناء ترديده الشعار في عملية إطلاق الجنود النار للمرة الثانية. ولكن كا لم يكن يعرفه أبداً. اندس بجانب الجثة متوفزاً، ونظر إليها باحترام وتوتر كأنه يحيّيها. الجثة الثانية الممددة على المرمر كشخص يشعر بالبرد كانت جثة مسنّ جد صغيرة. عينه اليسرى المتفتتة برصاصة، والدم النازف بعدئذ حولها إلى ثقب أسود داكن. عرضوه عليه لأنه أثار شبهة بسبب عدم استطاعة الشرطة تحديد أنه جاء من (طرابزون) لرؤية حفيده الذي يخدم في الجندية. حين اقترب من الجثة الثالثة، كان يفكر متفائلاً بإيبك التي سيراها بعد قليل. ولم يتفتت من هذه الجثة أيضاً سوى العين. للحظة اعتقد بأن هذا تم نتيجة أمر ما في المشرحة. حين اقترب ورأى وجه الشاب الأبيض عن قرب، انهارت أشياء داخله وذهبت.

إنه نجيب. الوجه الطفلي نفسه. شفتا الطفل السائل الممدودتان نفسهما شعر كا ببرودة المشفى وصمته. حبات الشاب نفسها. أنفه المدبب نفسه. سترة التلميذ الوسخة نفسها. للحظة اعتقد كا بأنه سيبكي، وسيطر عليه الارتباك. أسلاه هذا الانهماك، ولم تسل دموعه. ثمة ثقب رصاصة في الجبين الذي ضغط عليه بيده قبل اثنتي عشرة ساعة. الأمر الذي يشير إلى موت نجيب ليس بياض الوجه المزرق بشحوب، بل تمدده مثل خشبة. مر داخل كا شعور بالشكر لله لأنه بقي حياً. هذا أبعده عن نجيب. انحنى نحو الأمام، فك يديه المربوطتين إلى خلف. أمسك نجيب من كتفيه وقبله من وجنتيه. كان خداه باردين، ولكنهما ليسا قاسيين. أخضر عينه نصف المفتوحة ينظر إلى كا. استجمع كا نفسه، وقال للمنقاري الأنف بأن هذا «الصديق» هو الذي أوقفه في الطريق، وقال بأنه كاتب خيال علمي، بعد ذلك أخذه إلى كحلي. قبله لأن لهذا «الشاب» قلباً صافياً جداً.

[٢٢]

الرجل الذي سيمثل دور أتاتورك بالضبط

وضع صوناي ظائم في العسكرية والمسرح المعاصر

كُتب محضر بسرعة وذكر فيه أن كا شخّص إحدى الجثث في مشرحة مشفى التأمينات الاجتماعية ووقع. ركب كا مع الرجل المنقاري الأنف في الشاحنة العسكرية نفسها، ومروا من شوارع خاوية تماماً معلق فيها ملصقات الانتخابات ومناهضة الانتحار، وانسحبت الكلاب المتوجسة جانباً متفرجة عليهم. مع قطعهم مسافة استطاع كا رؤية الستائر المسدلة قد سحبت قليلاً، والأولادَ اللاعبين، وآباءهم الفضوليين وهم يلقون نظرة إلى الشاحنة، ولكن عقله لم يكن هنالك أبداً. كان يستحضر أمام عينيه وجه نجيب، وتمدده بشكل جامد جداً. كان يتخيل إيبك تسليه حين يصل إلى الفندق، ولكن الشاحنة بعد أن عبرت ساحة المدينة الخاوية نزلت إلى الطرف السفلي لشارع أتاتورك، وبعد شارعين من مسرح الشعب نحو الأسفل توقفت الشاحنة متجاوزة قليلاً بناءً عمره تسعون عاماً يعود إلى العهد الروسي.

هذا المكان هو البناء الأحادي الطابق الذي أحزن كا بجماله وعدم العناية به في أول مساء وصل فيه إلى قارص. وبعد أن انتقلت المدينة إلى أيدي الأتراك، وفي السنوات الأولى للجمهورية عاش هنا السيد معروف أحد تجار الجلود والأخشاب مع الاتحاد السوفييتي المشاهير مع عائلته وطباخوهم وخدمهم مدة ثلاث وعشرين سنة حياة فخمة جداً، وكان لهم عربات تزلج على الجليد تجرها الخيول، وعربات خيل. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية، وحين بدأت الحرب الباردة اتهم الأمن القومي أغنياء قارص الذين يتاجرون مع

الاتحاد السوفييتي بالتجسس، واعتقلهم وسحقهم، وهم فقدوا، ولم يعودوا أبداً، وبقي البناء خاوياً عشرين سنة بسبب عدم وجود صاحب له، ودعاوى الإرث. في أواسط السبعينيات احتل المكان تيار ماركسي يحمل أعضاؤه الهراوات بأيديهم، واستخدموه مركزاً لهم، وهنا تم التخطيط لبعض الجرائم السياسية (انقد رئيس المحامي السيد كاظم جريحاً). بعد انقلاب ١٩٨٠ العسكري فرغ البناء فجعله صاحب الدكان الصغير المجاور مستودعاً لوكالة الثلاجات والمدافئ، وبعد ثلاث سنوات عاد إلى بلده بعد أن عمل في الخياطة في اسطنبول والسعودية وجمع نقوداً فحوله المستثمر الخيالي إلى ورشة خياطة.

فور دخوله رأى كا في الضوء الناعم لورق الجدران البرتقالي المورّد آلات تركيب الأزرار، وآلات الخياطة الضخمة القديمة الطراز مثل آلات تعذيب عجيبة كما رأى المقصات الضخمة المعلقة على الجدران.

صوناي ظائم يذرع الغرفة ذهاباً ومجيئاً مرتدياً المعطف الرث الذي كان يرتديه حين رآه كا أول مرة، والكنزة، وفي قدميه حذاءً عسكرياً، وبين أصبعيه سيجارة دون فلتر. حين رأى كا أنير وجهه كأنه رأى صديقاً حبيباً وقديماً، وهرع نحوه وتحاضنا، وتبادلا القبل. وفي تبادل القبل ثمة جانب كذاك الذي شعر به في الفندق مع الرجل ذي هيئة الرعاة كأنه يقول: «ليكن الانقلاب خيراً على البلد»، وجانب إبداء صداقة زائدة استغربها كا. سيفسر كا هذه الصداقة بلقاء اسطنبوليين في مكان ناءٍ وفقير كقارص وفي ظروف صعبة، ولكنه أصبح يعرف أن قسماً من هذه الظروف أوجدها هو.

قال صوناي: «صقر القسوة المظلم يحلق في داخلي يومياً» ثم أضاف بجو محمل بالأسرار، ومباهياً: «ولكنني لا أدع نفسي تنجرف، أنت أيضاً أمسك نفسك. كل شيء سيكون على ما يرام.»

وفي ضوء الثلج الذي يسقط إلى الداخل عبر النافذة الكبيرة، رأى كا في الغرفة الواسعة التي لا تخفي أنها رأت أياماً مزدهرة من خلال الزخرفة البارزة التي في زوايا سقفها المرتفع، ومدفأتها. ومن خلال الرجال الذين يعملون بأيديهم اللاسلكيات، والمرافقين الضخمي البنية اللذين لا يزيحان أعينهما عنه، والخارطة التي على الطاولة بجانب الباب المؤدي إلى الممر،

والأسلحة، والآلات الكاتبة والملفات فهم كا بأن هذا المكان هو مركز إدارة «الانقلاب» وأن صوناي يمسك عدداً من القوى.

بينما كان صوناي يذرع المكان قال: «في زمن ما ـ وهو أسوء زمن من أزماننا ـ حين نذهب إلى المدن الأبعد، والأكثبر بؤساً وسفالة حيث لا يوجد مكان نمثل فيه مسرحياتنا، ولا نجد غرفة فندق نضع رأسنا على مخدة لننام، وحين أعلم أن صديقاً قديماً قد ترك المدينة منذ زمن تتململ بطيئاً في داخلي القسوة وهي التي يسمونها الكدر. ولكي لا أسقط بيده أركض متجولاً على الأطباء والمحامين والمعلمين باحثاً عمن يهتم بالفن المعاصر مثلنا. وحين أعلم أن أحداً غير موجود في العنوان الوحيد الذي أحمله بيدي، أو أفهم أن الشرطة لن تسمح لنا بتقديم العرض، أو أن القائمقام الذي أقصده كمحاولة أخيرة للحصول على الإذن لا يسمح لي بمجرد مقابلته أدرك خائفاً أن الظلام الذي في داخلي سيهب. عندئذ يفتح الصقر النائم في صدري جناحيه بطيئاً، ويطير لخنقي. حينئذ نمثل مسرحيتنا في مقهى بائس جداً، وأحياناً على مرتفع مدخل مركز انطلاق حافلات، وأحياناً في محطة قطار بفضل مدير المحطة الذي (يضع عينه) على إحدى الفتيات الممثلات معنا، أو في مرآب إطفاء، أو في صفوف مدرسة ابتدائية فارغة، أو في مطعم بائس يقدم الخضار المطبوخة، أو على الأرصفة، ولا استسلم للقسوة.»

حين دخلت فوندا أسر من الباب المؤدي إلى الممر بدأ صوناي يستخدم ضمير «نحن» مكان ضمير «أنا». كان ثمة تقارب بين الاثنين إلى حد عدم شعور كا بأي افتعال. قرّبت فوندا أسر جسمها الضخم على عجل وبظرافة، وصافحت كا، تهامست مع زوجها، وقالت شيئاً ما، وبجو الانشغال نفسه التفتت وذهبت.

قال صوناي: «تلك كانت سنواتنا السيئة. الجرائد كلها كتبت عن سقوطنا بأعين المخبولين في أنقرة واسطنبول، وفي أعين المجتمع. وحين التقطت أكبر فرصة في تاريخ حياتي ـ وهذا لا يحدث إلا مع المحظوظين أصحاب الدهاء ـ، نعم في اليوم الذي سأتدخل في مجرى التاريخ بفني، انسحب كل شيء من تحت قدمي، وسقطتُ وسط الوحل الأشد بؤساً. ولكنني لم أيأس هناك أيضاً، وصارعت القسوة. لم أفقد إيماني بأنني سأصل إلى الجوهر

الأعظم إلى المادة الأساسية إذا غصت أكثر في ذلك الوحل والقذارة والسفالة والجهالة مع الفقر. لماذا أنت خائف؟»

ظهر في الممر طبيب بقميص أبيض حاملاً حقيبته. أخرج مقياس الضغط بانهماك شبه مزور وبينما كان يربطه، وجه صوناي نظره نحو الضوء الأبيض المنصب من النافذة بأداء «تراجيدي» وفي هذه الأثناء تذكر كا «سقوطه في نظر المجتمع» في أوائل الثمانينيات، بعد أن أدى أفضل أدواره التي حقق فيها شهرته الحقيقية في السبعينيات. ما أبرز اسم صوناي بين العديد من الفرق المسرحية الصغيرة في تلك السنوات التي عاش فيها المسرح السياسي اليساري سنواته الذهبية هو موهبته واجتهاده بقدر خصوصيته القيادية التي وهبها له الله والتي وجدها به الجمهور في لعبه أدوار البطولة. لقد أحب المشاهدون الأتراك الشاب صوناي بأدواره لشخصيات تاريخية قوية وسلطوية، أو ثوار أمثال نابليون، لينين، روبسبير، أنور باشا، أو الأبطال المحليين المشبهين بهم. كان طلاب الثانويات، «وتقدميو» الجامعات يتفرجون إليه بعيون دامعة، ويصفقون له لتناوله همومهم بصوت عالٍ ومؤثر، ورفع رأسه مباهياً إذا تلقى صفعة على وجهه من ظالم، وقوله: «في يوم ما لابد أن نجعلكم تدفعون حساب هذا.»، وتماسكه في أحلك الظروف (لابد من سقوطه في السجن) ومنحه الأمل لرفاقه، وتمزق أحشائه عند الضرورة ولجوئه إلى العنف دون شفقة من أجل سعادة شعبه. خاصة في نهاية المسرحيات حين يصل إلى السلطة ويعاقب الأشرار فيقال إن آثار التدريب العسكري في الحزم حينئذ بادية عليه. درس في ثانوية (قولة لي)العسكرية. كان يهرب بزورق إلى اسطنبول ويمثل في مسارح (بيه أوغلو)، وفصل في الصف الأخير لأنه حاول تمثيل مسرحية عنوانها: «قبل أن يذوب الجليد»(*).

الانقلاب العسكري عام ١٩٨٠ منع المسرح اليساري السياسي هذا كله، وقررت الدولة تصوير فيلم كبير عن أتاتورك بمناسبة ذكراه المئوية يعرض في التلفزيون. قديماً لم يكن أحدٌ يفكر بأن ممثلاً تركيا يمكنه أن يجسد دور بطل التغريب الكبير هذا الشعر الأشقر والأزرق العينين. وكان يُفكر بممثلين غربيين

(*) مسرحية شهيرة للكاتب جواد فهمي باشكوت تعرض الفساد الإداري في المجتمع ٢٠٠٠م.

أمثال (لورنس أوليفيه)، (كورت جورغنس)، (شارلتون هيستون) لهذا الفلم القومي الكبير الذي لم يصور أبداً. هذه المرة تدخلت في هذا الأمر جريدة (حريت) وجعلت الرأي العام يقبل بإمكانية أن يجسد دور أتاتورك تركي. غير هذا فقد أعلنت بأن القراء سيحددون من يمثل دور أتاتورك عبر قصهم (كوبونات) وإملائها وإرسالها. ومن بين هؤلاء المرشحين الذين حددتهم لجنة التحكيم الأولية، حقق صوناي فرقاً كبيراً بتقدمه الآخرين منذ الأيام الأولى لأول اقتراع شعبي لمرحلة طويلة عُرفت نفسها بأنها ديمقراطية. على مدى سنوات مثل أدوار النجم، وقد شعر المتفرج التركي بأن صوناي الوسيم، صاحب الهيبة، الدافع إلى الثقة يمكنه تجسيد دور أتاتورك.

خطأ صوناي الأول هو أخذه على محمل الجد أكثر من اللازم انتخابه من قبل الشعب. كان له تصريحات يخاطب فيها الجميع في التلفزات والصحف. والتقطت له صور فوتوغرافية تعرض زواجه السعيد من فوندا أسر. وفتح بيته، وأعلن عن حياته اليومية ورؤاه السياسية، وحاول إثبات أنه لائق لتمثيل دور أتاتورك، وأن ذوقه وهواياته (العرق، الرقص، الأناقة، والرقي في التصرف) تشبه ذوق أتاتورك وهواياته، ووقف أمام عدسات التصوير حاملاً مجلدات خطابات أتاتورك، وأشار إلى أنه يقرؤها باستمرار. (تحرك كاتب زاوية مخرب بشكل مبكر، وحين سخر من قراءة صوناي للخطابات المختصرة والمحولة إلى تركية أصلية، تصور صوناي مع المجلدات الأصلية التي في مكتبته، ولكنه مع الأسف على الرغم من كل جهوده لم يستطع نشر تلك الصور في الجريدة نفسها.). ذهب إلى افتتاحات المعارض، والحفلات الموسيقية، ومباريات كرة القدم الهامة، وقدم تصريحات في موضوعات (أتاتورك والرسم)، (أتاتورك والموسيقى)، (أتاتورك والرياضة التركية) لمراسلين صحفيين من الدرجة الثالثة يسألون دائماً أي شخص عن أي شيء. إرادته أن يحبه الجميع غير اللائقة بالنجومية جعلته يقدم تصريحات للصحف «الدينية» المعادية للغرب. في إحداها، وفي أثناء جوابه لسؤال في الحقيقة غير استفزازي قال: «بالتأكيد يمكنني أن أمثل دور حضرة محمد يوماً ما إذا وجد الشعب أن هذا الدور لائق بي.». كان هذا التصريح التعيس أول شيء لخبط الوسط.

نشرت مجلات الإسلام السياسية الصغيرة أن لا أحد يمكنه تمثيل دور

سيدنا الرسول ـ حاشاه ـ، ودخل هذا الغضب إلى أعمدة الصحف بداية على شكل: «تصرف دون احترام لرسولنا»، ثم تحول إلى «استهانة به». وحين لم يُسكت العسكرُ السياسيين الإسلاميين وقع على عاتق صوناي إطفاء الحريق. وعلى أمل تهدئة الوضع حمل القرآن الكريم بيده وحاول الشرح للقراء المحافظين كم هو يحب رسولنا وسيدنا حضرة محمد، وأنه أصلاً حداثوي. وهذا منح الفرصة لكتاب الزوايا الكماليين الغاضبين من مواقفه باعتباره «أتاتورك المنتخب»: بدأ يُكتب بأن أتاتورك لم يداهن المتدينين، والمشعوذين في أي وقت. ونشرت مرات عديدة في الجرائد المؤيدة للانقلاب العسكري صورته بموقف معنوي حاملاً بيده القرآن، وطرح سؤال: «أهذا هو أتاتورك؟». إثر هذا تحركت الصحافة الإسلامية بدافع المدافعة عن نفسها أكثر من العمل من أجله، وبدأت الهجوم المعاكس. بدأت تنشر صوره وهو يشرب العرق، وتضع عناوين مثل: «هو أيضاً مثل أتاتورك يشرب العرق!» أو «أهذا من سيمثل سيدنا ورسولنا؟» فإن الشجار الذي ينشب في صحافة اسطنبول مرة كل شهرين بين الإسلامي والعلماني، فتح من خلاله، واستمر فترة قصيرة جداً.

في أسبوع نشرت صور لصوناي كثيرة جداً: وهو يشرب بشهية البيرة في فلم دعائي مثّله قبل سنوات طويلة، يُضرب في فيلم مثّله في فترة شبابه، وهو يعصر قبضته أمام راية المطرقة والمنجل،وهو يتفرج على زوجته تتبادل القبل مع ممثلين آخرين لضرورة الدور... وكتب بأن زوجته سحاقية أما هو فمازال حتى الآن شيوعياً، وهما يعملان في دوبلاج أفلام (البورنو)، وأنهما من أجل النقود لا يمثلان فيلم أتاتورك فقط، بل أي فيلم، وأنهما في الحقيقة مثلا مسرحيات بريشت بالنقود المحولة إليهما من ألمانيا الشرقية، وأنهما اشتكيا على تركيا بعد الانقلاب العسكري بالقول «لنساء الجمعيات السويدية القادمات من الخارج لعمل تحقيق بأنه في تركيا يوجد تعذيب.»، وكثير من الإشاعات الأخرى التي تملأ الصفحات. وفي تلك الأيام ذاتها استدعاه «ضابط ذو رتبة عالية» من الأركان وأبلغه باختصار بأن انسحابه من الترشيح للدور هو قرار الجيش كله. كان ذلك الرجل قد استدعى الصحفيين الاسطنبوليين المغرورين والمعتقدين أنهم كل شيء والمنتقدين تدخل العسكر في السياسة بشكل غير مباشر إلى أنقرة، وأنبهم بشكل حاد بداية، وحين رأى أن قلوبهم قد تحطمت

وبكوا فلم يلن ذلك الرجل الطيب القلب المتعقل الذي يكرمهم بالشيكولا، بل العسكري الأشد حزماً، والممازح نفسه من «شعبة العلاقات العامة». لم يلن حين رأى حزن صوناي وخوفه، على العكس، سخر منه بمواقف «أتاتورك المنتخب» وتقديمه آراء سياسية. قبل يومين زار صوناي بلدة مسقط رأسه زيارة قصيرة، وقوبل هناك باعتباره سياسياً محبوباً بقوافل السيارات وهتاف آلاف العاطلين عن العمل ومنتجي التبغ، وصعد إلى تمثال أتاتورك، وصافحه وسط التصفيق. إثر هذا الاهتمام، وإجابة على سؤال جماهيري واسع يطرح في اسطنبول: «هل ستنتقلون في يوم ما من التمثيل إلى السياسة؟» رد قائلاً: «إذا أراد الشعب!» وأعلنت رئاسة الحكومة أنها أجلت فيلم أتاتورك حالياً.

كان صوناي صاحب تجربة بحيث يستطيع الخروج من هذه الهزيمة دون أن يفقد توازنه، ولكن التطورات اللاحقة هي التي ضربته: ظهر كثيراً جداً في التلفزات خلال الشهر الأخير من أجل تمكين إعطائه الدور، لأن صوته المعروف للجميع يستمعون إليه باعتباره صوت أتاتورك ولكنهم لم يعطوه عمل الدوبلاج. أدارت له ظهرها شركات الإعلان التلفزيوني التي كانت تطلبه من أجل دور الأب المعقول الذي يختار المنتج الجيد والسليم لأنه سيكون مستغرباً أن يقوم أتاتورك فاشل بحمل علبة طلاء، وطلاء الجدران، أو تصريحه بأنه ممنون جداً من مصرفه. الأمر الأسوأ هو تصديق الشعب الذي يصدق ما تكتبه الصحف كله بنوع من التسليم بأنه عدو أتاتورك والدين: البعض صدق أنه لا ينبس إزاء تقبيل الآخرين لزوجته أو على الأقل يتصرف وكأن لسان حاله يقول: لا دخان من دون نار، هذه التطورات السريعة قللت عدد المتفرجين في مسرحياته، كثير من الأشخاص أوقفوه في الشارع وقالوا له: «وا أسفاه عليك!»، طالب في مدرسة الأئمة والخطباء مؤمن بأنه تطاول بلسانه على الرسول، ويريد أن يدخل الصحف داهم المسرح في إحدى ليالي العرض، وسحب سكيناً، وبصق في وجه عدة أشخاص. كل هذه الأحداث جرت في خمسة أيام. وغاب الزوج والزوجة عن الوسط.

بعد ذلك ثمة عدد كبير من الشائعات حوله: تحت اسم التعليم المسرحي في (Berliner Ensemble) البرختية ينظم الإرهاب في برلين. بموجب منحة

من وزارة الثقافة الفرنسية يقيمان في (La paix) مشفى الأمراض العقلية الفرنسي في (شيشلي) في اسطنبول. والحقيقة أنهما لجآ إلى بيت أم فوندا أسر الرسامة على ساحل البحر الأسود. ولم يستطيعا إيجاد عمل حتى السنة التالية، وهو «تحريك دمى» في فندق عادي. في الصباح يلعبان الكرة الطائرة مع البقالين الألمان والسياح الهولنديين على الشاطئ الرملي، وبعد الظهر يمتعان الأولاد بهيأتي (كركوز وحجيوات) بألمانية مكسرة.

وفي المساء يخرجان إلى الخشبة بشخصيتي السلطان وإحدى زوجاته من الحرم التي ترقص بهز البطن. وهذه كانت بداية رقص هز البطن الذي ستطوره فوندا أسر في البلدات الصغيرة على مدى عشرة أعوام وتحقق شهرة في هذا المجال. استطاع صوناي احتمال هذه المسخرة ثلاثة أشهر، وحين أراد حلاق سويسري استمرار ممازحات الخشبة المسائية من ممازحات التركي ذي الطربوش، والحرم صباحاً على الشاطئ الرملي بادئاً بمغازلة فوندا أسر، فأصيب بالذهول وضربه على مرأى من جمع السياح. إثر ذلك من المعروف أنهما عملا في أطراف (أنطاكيا) في صالات الأفراح، ومقدم حفلات في الملاهي، وراقصة و(ممثل). كان صوناي يقدم المطربين الرخيصين الذين يقلدون بتطرف مطربي اسطنبول، ولاعبي الخفة الذين يبتلعون اللهب، والكوميديين من الدرجة الثالثة. وبعد كلمات قصيرة حول مؤسسة الزواج، والجمهورية، وأتاتورك تقدم فوندا أسر رقص هز البطن، بعد ذلك يقدم الاثنان في جو انضباطي جداً مشهداً مسرحياً مثل مقتل الملك في (ماكبث) لمدة ثماني أو عشر دقائق، ويصفق لهما. وكانت تلك الأمسيات البذرة الأولى للمجموعة المسرحية التي ستجول فيما بعد في الأناضول.

وبعد أن قيس ضغطه، وصدر في هذه الأثناء أمر للحراس جاءهم بواسطة اللاسلكي لجلب قصاصة ورق، وضعت أمامه قطب صوناي عضلات وجهه كأنه قرف وقال: «كلهم يخبرون عن بعضهم بعضاً». وقال بأنه من خلال تمثيلية المسرحيات في بلدات الأناضول رأى رجال البلد كلهم قد تجمدوا بسبب الإحساس بالقسوة.

وشرح قائلاً: «يجلسون في المقاهي أياماً، وأياماً دون أن يفعلوا شيئاً. في كل بلدة مئات، وفي تركيا مئات الألوف وملايين العاطلين عن العمل،

والفاشلين، واليائسين، والجامدين، والمساكين. أخوتي ليس لديهم القوة التي تمكنهم من ترتيب هندامهم، والإرادة التي تجعلهم يزرون ستراتهم المزيتة والمبقعة، والطاقة التي تحرك أيديهم وأذرعهم، والانتباه الذي يمكنهم من الاستماع لحكاية حتى نهايتها، والحالة التي تجعلهم يضحكون لمزاح.» كما شرح بأن غالبيتهم لا تستطيع النوم نتيجة الحزن، وأنهم يستمتعون لأن التدخين سيقتلهم، وأكثرهم يدرك عدم وجود معنى للجملة التي يقولها فيقطعها في منتصفها، وأنهم لا يتابعون التلفاز للتسلية والمتعة بل يتابعونه لأنهم لا يحتملون القسوة الأخرى التي في محيطهم، وأنهم في الحقيقة يريدون أن يموتوا ولكنهم لا يجدون في أنفسهم ما يستحق الانتحار، ويمنحون أصواتهم لأسفل الأحزاب وأسفل المرشحين لكي تعاقبهم تلك الأحزاب، ويفضلون الانقلابيين العسكريين الذين يتحدثون باستمرار عن العقاب، عن السياسيين الذين يعدونهم بالأمل. وأضافت فوندا أسر التي دخلت إلى الغرفة بأن النساء أيضاً كلهن تعيسات يربين في بيوتهن أولاداً ولدنهم أكثر من اللازم، ويعملن خادمات أو عاملات تبغ أو حائكات سجاد أو ممرضات في أمكنة لا يعرفها أزواجهن من أجل كسب بضعة قروش. ولولا تلك النساء اللواتي ارتبطن بالحياة بالصراخ على أولادهن والبكاء، سيزول ملايين الرجال غير الحليقين، غير السعداء، العاطلين عن العمل، المنحوسين، ذوي القمصان القذرة المتشابهين والذين يحيطون بالأناضول إما موتاً كمتسولين متجمدين في زوايا الأزقة في ليالي الصقيع، أو كالسكارى الخارجين من الخمارات فيسقطون في حفرة مجرور، أو ضياعاً كالمسنين الخرفانين عند خروجهم من البيت بالشحاط والمنامة لجلب الخبز من عند السمان. مع أنهم مزدحمون أكثر من اللازم كما نراهم «في مدينة قارص المسكينة هذه»، والأمر الوحيد الذي يحبونه في حياتهم إيذاء زوجاتهم اللواتي يحببنهم بعشق يخجلون منه وهم مديونون.

قال صوناي دون إثارة شفقة نحوه: «لقد أنفقت عشر سنوات في الأناضول لكي يخرج أخوتي الحزينون هؤلاء من هذه القسوة وهذا الحزن. قالوا عني شيوعي، عميل للغرب، منحرف، من شهود يهوة وأدخلونا السجن مرات على أننا عاهرة وقواد، وعذبونا، وضربونا، وحاولوا الاعتداء على

عرضنا، ورمونا بالحجارة. ولكنهم تعلموا حب السعادة والحرية التي تمنحها مسرحياتنا وفرقتنا. والآن لا يمكن أن أتصرف بضعف وقد اغتنمت أكبر فرصة في حياتي.»

دخل إلى الغرفة رجلان، أحدهما مد نحو صوناي جهاز لا سلكي. سمع كا من اللاسلكي المفتوح والمسموع صوته بأن أحد الأكواخ في حي (صوقابِ) طُوِّقَ، وتطلق النار من داخله، وهنالك أحد الفدائيين الأكراد وعائلة في الداخل. كان على مصدر أوامر ينادى: «قائدي»، وعسكري. بعد قليل أعطى العسكري لصوناي معلومات حول موضوع كأنه يحدث زميله في الصف وليس قائد انقلاب، بعد ذلك طلب رأيه.

قال صوناي ملاحظاً انتباه كا: «في قارص ثمة لواء عسكري صغير. في أثناء سنوات الحرب الباردة حشدت الدولة القوات الأصلية التي ستحارب ضد هجوم روسي محتمل في (صار قمش). أقصى مهمة للذين هنا هي مشاغلة الهجوم الروسي الأول. والآن هم هنا من أجل حماية الحدود مع أرمينيا.»

حكى صوناي بأنه بعد أن نزل من الحافلة التي جاء فيها مع كا من أرضروم الليلة قبل الماضية التقى عثمان نوري تشولاق صديقه منذ أكثر من ثلاثين عاماً في مطعم (الوطن الأخضر). كان زميله في الصف في ثانوية (قولة لي) العسكرية. في ذلك الوقت كان هو الشخص الوحيد في (قولة لي) الذي يعرف من هو (بيرانديللو) أو مسرحيات (سارتر). «لم ينجح بأن يجعلهم يفصلونه من المدرسة لعدم الانضباط مثلي، ولكنه لم يتمسك بكل قواه بالعسكرية. وهكذا لم يستطع أن يصبح أركان حرب. وهمس له أن بعضهم لا يستطيعون أن يصيروا عمداء لقصر طولهم. كان غاضباً ومهموماً. ولكنني أعتقد أن الأسباب ليست مسلكية، بل لأن زوجته وابنهما تركته. إنه متضايق من الوحدة والبطالة وشائعات المدينة الصغيرة، ولكنه طبعاً هو أكثر من يشيع الشائعات. هو أول من ذكر لي الجزارين الذين يذبحون دون ترخيص والفساد في قروض المصرف الزراعي ودورات القرآن التي وضعت يدي عليها بعد الانقلاب مباشرة. ويفرط قليلاً بالشرب. فرح جداً حين رآني، واشتكى من الوحدة. وأخبرني معتذراً ومباهياً في آن معاً بأنه في تلك الليلة ستكون قيادة قارص وآمريتها بيده، لذلك يجب أن ينهض باكراً. قال بأن قائد اللواء ذهب

إلى أنقرة بسبب إصابة زوجته بالروماتزم، ومساعده العقيد استدعي إلى (صاري قمش) من أجل اجتماع عاجل، والمحافظ في أرضروم. والقوة كلها بيده. الثلج لم يهدأ بعد، ومن الواضح أن الطرق ستغلق لعدة أيام كما في كل شتاء. وفهمت فوراً أن هذه هي فرصة عمري، فطلبت لصديقي كأساً مزدوجة من العرق.»

وبحسب التحقيق الذي أجراه الرائد المرسل من أنقرة إثر الأحداث فإن الذي سمعه كا قبل قليل من جهاز اللاسلكي هو زميل صوناي في الثانوية العسكرية العقيد عثمان نوري تشولاق ـ أو تشولاق بحسب قول صوناي ـ وقد شارك في فكرة هذا الانقلاب العسكري العجيب على اعتباره نوعاً من المزاح، أو تسلية خيالية بنيت على طاولة المشروب، حتى إنه أول من قال بأن هذا الأمر يمكن إنجازه بدبابتين بنوع من السخرية. فيما بعد نتيجة إصرار صوناي، ولكي لا يلطخ شهامته، ولأن صوناي أقنعه بأن ما سيجري سيجعل أنقرة ممتنة له دخل في هذا الأمر أخيراً، وليس من أجل حقد شخصي أو غضب أو مصلحة. (بحسب تقرير الرائد فإن «تشولاق» مع الأسف قد خرق هنا المبدأ الأخير. وبسبب امرأة داهم بيت طبيب الأسنان الأتاتوركي في حي الجمهورية). لم تشارك أية قوة عسكرية غير نصف فصيل من الجنود وأربع شاحنات، ودبابتين طراز (ت ـ ١) يجب أن تُستخدما بدقة متناهية بسبب نقص قطع التبديل في الانقلاب ومداهمات البيوت والمدارس وإذا لم نعتبر (ز. دميرقول) و«وحدته الخاصة» المؤلفة من أصدقائه والتي أخذت على عاتقها «الوقائع المجهولة الفاعل» فلأن غالبية الأمور تحدث في مرحلة كهذه غير عادية فإن العناصر المجتهدة لمديرة الأمن وتشكيلات المخابرات القومية تنظم ملفات لقارص كلها، وتستخدم عشر سكان المدينة مخبرين. وعلمت هذه العناصر بأولى مخططات الانقلاب، وفي أثناء تشييعهم شائعة أن العلمانيين سيقدمون عرضاً في مسرح الشعب، كانوا فرحين إلى حد أنهم أبرقوا برقيات رسمية لأصدقائهم الذين يستخدمون إجازاتهم للعودة في أسرع وقت ممكن لكي لا يفوّتوا الحفل.

في هذه الأثناء فهم كا من أحاديث اللاسلكي بأن القتال في حي (صوقابِ) دخل مرحلة جديدة. بداية انبعث من اللاسلكي صوت ثلاث

رصاصات، بعد ذلك بثوانٍ حين سمع أصوات أسلحة مرققة لانبعاثها من سهل ثلجي قرر كا بأن الصوت الذي يبالغ به اللاسلكي هو في الحقيقة أجمل.

قال صوناي عبر اللاسلكي: «لا تكونوا ظالمين، ولكن أشعروهم بأن الانقلاب والدولة قويان، ولن يتراجعا مهما كلف الأمر». أمسك طرف ذقنه بإبهامه وسبابته في حركة خاصة على شكل مفكر، وتذكر كا بأن صوناي قد قال الجملة نفسها في مسرحية تاريخية في أواسط السبعينيات. إنه ليس وسيماً الآن كما كان في الماضي، فهو متعب ومنهك وشاحب. تناول من فوق الطاولة منظاراً عسكرياً يعود إلى الأربعينيات. ارتدى معطفه الرث السميك المصنوع من الوبر الذي يرتديه في جولات الأناضول منذ عشر سنوات، ووضع على رأسه القبعة الصوفية، وأمسك كا من ذراعه، وأخرجه. للحظة أربك البرد كا، وشعر بصغر رغبات الإنسان وخيالاته، والسياسة والأخذ والرد اليومي بجانب برد (قارص) وكم هي صغيرة وضعيفة. في اللحظة نفسها انتبه إلى أن قدم صوناي اليسرى عرجاء أكثر مما اعتقد. فراغ الشوارع الناصعة البياض وهما يسيران على الرصيف المغطى بالثلج، وكونهما الوحيدان اللذان يسيران في المدينة كلها ملأ قلبه سعادة. المدينة الجميلة وسط الثلج، والبيوت الفخمة القديمة والخاوية لا تمنح الإنسان متعة العيش ورغبة الحب فقط: كا يستمتع الآن لكونه قريباً من السلطة الآن.

قال صوناي: «هذا أجمل مكان في قارص. هذه هي المرة الثالثة التي آتي بها إلى قارص خلال جولتي المسرحية على مدى عشرة أعوام. في كل مرة، وعندما يعتم الجو مساء آتي إلى هنا تحت أشجار الحور و(الزعرور) استمع للغربان وأحزن وأتفرج على القلعة والجسر، والحمّام الممتد عمرها إلى أربعمائة سنة.»

هما الآن على الجسر فوق نهر قارص الصغير المتجلد. أشار صوناي إلى أحد الأكواخ المتفرقة عل التلة المقابلة من جهة اليسار. رأى كا تحته بقليل، وأعلى من الطريق بقليل دبابة، وإلى الأمام ثمة آلية عسكرية. قال صوناي عبر اللاسلكي «أنا أراكم» بعد ذلك نظر بالمنظار. بعد قليل تناهى إلى سمعهما صوت طلقتين عبر اللاسلكي أولاً. بعد ذلك سمعا الصوت المتردد صداه في الوادي الذي يشقه النهر. هل هذه تحية مرسلة إليهما؟ إلى الأمام

قليلاً في مدخل الجسر، ثمة حارسان ينتظرانهما. تفرجا على حي الأكواخ الفقير الذي أنشىء بعد مائة سنة على أنقاض قصور العثمانيين الأغنياء المهدمة بالمدافع الروسية، وعلى الحديقة في الطرف الآخر للنهر حيث كان بورجوازيو قارص الأغنياء يمرحون، وإلى المدينة وراءهما.

قال صوناي: «هيغل هو أول من انتبه إلى أن التاريخ والمسرح يصنعان من المادة الأولية نفسها. يذكر بأن التاريخ كالمسرح يمنح بعضه بعضاً أدواراً. وكما على خشبة المسرح لا يمكن إلا للجريئين فقط أن يصعدوا إلى خشبة مسرح التاريخ...»

اهتز الوادي كله بالانفجارات. فهم كا بأن الرشاش الآلي الذي فوق الدبابة قد بدأ الحركة. الدبابة أيضاً أطلقت ولكنها لم تصب الهدف. الأخيرة كانت القنابل اليدوية التي ألقاها الجنود. كان ثمة كلب ينبح. فتح باب الكوخ وخرج منه شخصان أيديهما مرفوعة إلى الأعلى. فجأة رأى ألسنة لهب تنبعث من نافذة مكسورة. الخارجان رافعان أيديهما في الهواء اضطجعا على الثلج. ثمة كلب أسود في أثناء هذه الحركة كلها ينبح سعيداً ويلوح بذيله، اندس بين المضطجعين على الأرض. بعد ذلك رأى واحداً يركض خلفهما، وسمع كا صوت إطلاق الجنود للنار. سقط الرجل على الأرض. بعد ذلك انقطعت الأصوات كلها. بعد ذلك بكثير صرخ أحدهم. ولكن اهتمام صوناي قد تَشَتّت.

عاد إلى مشغل الخياطة والحارسان وراءهما. وفور رؤية كا ورق جدران القصر القديم فهم أنه لن يستطيع مقاومة إلهام القصيدة التي في داخله، وانزوى جانباً.

أدخل كا إلى تلك القصيدة التي أسماها: «السلطة والانتحار» ودون أي تردد متعة السلطة التي شعر بها قبل قليل مع صوناي، والطعم الذي تذوقه بصداقته، والشعور بالذنب للفتيات المنتحرات. وفيما بعد سيعتقد بأنه وضع كل ما شهده في قارص بكل قوته ودون أي تغيير في قصيدته «السليمة» هذه.

[٢٣]

الله عادل إلى حد معرفته بأن القضية

ليست قضية عقل وإيمان، بل قضية حياة بكاملها

في مركز القيادة مع صوناي

حين رأى صوناي أن كا كتب قصيدته نهض من وراء طاولته المليئة بالأوراق، وبارك له، واقترب منه وهو يعرج. قال: «الشعر الذي ألقيته في المسرح البارحة كان حديثاً جداً أيضاً. مع الأسف أن المتفرج في بلدنا ليس بالسوية التي تمكنه من فهم الفن الحديث. لهذا السبب أستخدم في أعمالي هز البطن ومغامرات حارس المرمى فورال التي يفهمهما شعبنا. بعد ذلك أدخل (مسرح الحياة) الأحدث الذي يدخل في صميم الحياة ودون تقديم أي تنازلات. أفضّلُ عمل فن بائس أورفيع مع الشعب في اسطنبول في كوميديات الشارع التي تقلد الشعب وبدعم من بنك. والآن قل لي بصراحة لماذا لم تشخص المذنبين بين المشتبه بهم الدينيين في مديرية الأمن وكلية البيطرة؟»

«لم أستطع معرفة أحد.»

«حين فهم العسكر كم تحب الشاب الذي أخذك إلى كحلي أرادوا أن يوقفوك. مجيؤك من ألمانيا قبل الانقلاب بيوم، ووجودك في المكان الذي أطلقت النار فيه على مدير المعهد يجعلهم يشتبهون بك وكانوا يريدون تعريضك لتحقيق تعذيبي يعرفون ما في داخلك. أنا أوقفتهم، وكفلتك.»

«حتى الآن لم يفهم لماذا قبلت ذلك الشاب الذي أخذ إلى كحلي.»

قال كا: «لا أعرف. ثمة جانب فيه صادق جداً ويندفع من قلبه. كنت أعتقد أنه سيعيش قرناً.»

«هل أقرأ لك عن نجيب هذا الذي أشفقت عليه لتعرف أي نجيب هو؟» وقرأ من ورقة أخرجها بأن نجيب في شهر آذار من العام الماضي هرب مرة من المدرسة، وشارك في عملية تحطيم زجاج واجهة مشرب (المتعة) للبيرة بذريعة أنه يبيع المشروبات الروحية في رمضان، وفي فترة عمل في مركز المحافظة لحزب الرفاه بأعمال تلبية الحاجيات العادية، (كان في مركز المحافظة للحزب أكثر من مخبر) بعد ذلك طُرد من هناك، أراد على مدى ثمانية عشر شهراً بعد مجيء كحلي إلى قارص أن يقترب منه لأنه معجب به، كتب قصة وجدتها تشكيلات المخابرات القومية «غير مفهومة» وأرسلها إلى جريدة دينية تبيع خمسة وسبعين عدداً، وبعد أن قبل بشكل غريب كاتب زاوية في تلك الصحيفة هو صيدلي متقاعد خطط مع صديقه فاضل لقتله (الرسالة التي كان من المقرر تركها في مكان الجريمة والتي تبين سبب قتله سرقت من أرشيف تشكيلات المخابرات القومية ووضعت في ملفه)، وفي مختلف التواريخ تمشى مع أصدقائه في شارع أتاتورك وهم يتضاحكون، وفي إحدى هذه المرات، في شهر تشرين الأول عمل بعض الإشارات لسيارة شرطي مدني مرت من جانبهم.

قال كا: «تشكيلات المخابرات القومية تعمل هنا جيداً.»

«إنهم يعرفون أنك دخلت بيت الشيخ سعد الدين أفندي المزروع بالميكريفونات، وأنك عندما وقفت أمامه قبلت يده، وصرَّحت باكياً بأنك مؤمن بالله، وأوقعت نفسك في وضع غير لائق أمام مجموعة الجهلاء. ولكنهم لا يعرفون لماذا عملت كل هذه الأمور. في هذا البلد كثير من الشعراء اليساريين غيروا انتماءهم مرتبكين قائلين لأنفسهم: لأغدو دينياً قبل أن يصلوا إلى الحكم.»

غدا كا أحمر قانياً. وخجل أكثر لإحساسه بأن صوناي يرى هذا الخجل ضعفاً.

«أعرف أن ما رأيته هذا الصباح أحزنك. الشرطة تعامل الشباب معاملة سيئة جداً. وهنالك حيوانات تضرب لمجرد المتعة. ولكن لندع هذا الأمر جانباً الآن. . .» قدم لـ كا سيجارة. «وأنا مثلك مشيت أيام شبابي في شوارع (نيشان طاس) و(بيه أوغلو)، وتفرجت على الأفلام الغربية مثل المجانين،

وقرأت أعمال سارتر وزولا كلها، وآمنت بأن أوربا هي مستقبلنا. والآن لا أعتقد أنك يمكن أن تبقى متفرجاً إزاء تخريب هذا العالم كله، وإجبار أخواتك على وضع غطاء رأس، ومنع أشعارك لأنها مخالفة للدين كما يجري في إيران. لأنك قرأتَ فناً عالمياً، ليس ثمة من قرأ شعر(ت. س. إليوت) في قارص غيرنا.»

قال كا: «لابد أن مختار مرشح حزب الرفاه لرئاسة البلدية قد قرأه. إنه يحب الشعر كثيراً.»

قال صوناي مبتسماً: «لم يبق ثمة ضرورة لاعتقاله. أعطى لأول جندي طرق بابه ورقة موقعة بأنه انسحب من ترشيحه لرئاسة البلدية.»

حدث انفجار. ارتجف زجاج النوافذ، وإطاراتها. التفت الاثنان نحو الجهة التي أتى منها الصوت، ونظرا إلى النوافذ المتجهة نحو نهر قارص. وحين لم يريا سوى أشجار الحور المغطاة بالثلج، وسقيفة بناء عادي فارغ متجلد، اقتربا من النافذة. لم يكن ثمة أحد في الشارع غير حارس أمام الباب. كانت قارص رائعة الجمال حتى في وقت الظهيرة.

قال صوناي بتعبير مسرحي خفيف: «الممثل الجيد يمثل القوى المتراكمة داخل التاريخ على مدى سنوات وقرون، والمحاصرة في إحدى الزوايا، ولم تنفجر لتظهر إلى الوسط، ولم يعبر عنها. وطوال حياته يبحث عن الصوت الذي سيمنحه حرية حقيقية في أبعد الأمكنة، وفي الطرق الأكثر هجراً، وعلى خشبات المسارح النائية. وحين يجدها عليه أن يتابع حتى النهاية دون خوف.»

قال كا: «بعد ثلاثة أيام عندما يذوب الثلج وتفتح الطرق ستحاسب أنقرة في قضية الدماء المسفوكة هنا، لا لأنها لا تسر لإراقة الدماء. لأنهم هناك لا يسرون لسفك الدماء من قبل غيرهم. وسيكرهك القارصيون ويكرهون تمثيليتك العجيبة هذه. ماذا ستفعل عندئذ؟»

قال صوناي: «رأيت الطبيب. أنا مريض بالقلب. وقد وصلت إلى نهاية حياتي. لا يهمني. اسمع، خطر ببالي: يقولون إذا وجدنا شخصاً ـ وليكن الذي أطلق النار على مدير معهد المعلمين ـ وشنقناه فوراً، وبثثنا هذا عبر بث مباشر من التلفزيون فإن قارص كلها إثر ذلك ستغدو مثل الشمع.»

قال كا: «إن القارصيين منذ الآن مثل الشمع.»

«يقال إنهم يحضرون لعمليات تفجير انتحارية.»

«إذا شنقتم أحداً ما فإن كل شيء يغدو مخيفاً أكثر.»

قال صوناي: «هل تخشى من الخجل إذا رأى الأوربيون ما نفعله هنا؟ أتعرف كم من الرجال شنقو هم ريثما تمكنوا من تأسيس عالمهم الحديث هذا الذي تعجب به أنت؟ كان على أتاتورك أن يعلّق ومنذ اليوم الأول أمثالك صغيري العقول الليبراليين. ضع هذا في عقلك، إن طلاب مدرسة الأئمة والخطباء الموقوفين الذين رأوك اليوم حفروا وجهك في ذاكرتهم على ألا ينسوه أبداً. يمكنهم إلقاء قنابلهم في أي مكان، وعلى أي شخص، ويكفيهم إسماع صوتهم. فوق هذا، بما أنك البارحة ليلاً ألقيت شعراً فيعتبرونك جزءاً من الفخ. . . كل من غرّب ولو قليلاً، وخاصة المثقفون المتعالون، والمستهينون بالشعب بحاجة إلى جيش علماني من أجل أن يتمكنوا من التنفس في هذا البلد، وإلا فإن الدينيين سيفرمونهم مع زوجاتهم المصبوغات بسكاكين حادة قطعاً قطعاً. ولكن هؤلاء المخبولين يعتقدون أنهم أوربيون ويستخفون بشكل فج بالعسكر الذين يحمونهم. يوم يحولون هذا المكان إلى ما يشبه إيران هل تعتقد بأن أحداً سيتذكر واحداً ليبرالياً رقيق القلب مثلك ذرف دموعه من أجل أولاد مدرسة الأئمة والخطباء؟ في ذلك اليوم سيقتلونك لمجرد أنك غربت قليلاً، أو لأنك لم تنطق البسملة من الخوف، أو لأنك غريب الأطوار، أو لأنك تضع ربطة عنق، أو لأنك ترتدي هذا المعطف. من أين اشتريت هذا المعطف؟ هل يمكنني أن أرتديه في المسرحية؟»

«طبعاً.»

«لأفرز لك حارساً لكي لا يثقب المعطف. بعد قليل سأعلن في التلفاز بأن منع التجول لن ينتهي إلا بعد منتصف اليوم. لا تخرج إلى الشارع.»

قال كا: «في قارص ليس ثمة إرهابي (ديني) يُخاف منه كثيراً هكذا.»

قال صوناي: «يكفي هؤلاء. فوق هذا فإن هذه الدولة يمكن أن تدار على أكمل وجه فيما لو بُث في القلوب خوف من الدين. دائماً يظهر فيما بعد بأن هذا الخوف حق. إذا لم يخف الشعب من الدينيين ويلجأ إلى الدولة والجيش في أحضان التخلف والتخريب كما في دول الشرق الأوسط وآسيا، وبعض الدول القبلية.»

حديثه وهو منتصب القامة كأنه يصدر أوامر، ونظره مطولاً إلى نقطة خيالية فوق المتفرجين أحياناً، ذكر كا بالمواقف التي كان يتخذها على خشبة المسرح قبل عشرين سنة. ولكنه لم يضحك من هذا، وكان يشعر بنفسه أنه في مسرحية انقضى طرازها.

قال كا: «قولوا، ماذا تريدون مني؟»

«لولاي من الصعب عليك أن تطأ بقدمك هذه المدينة بعد الآن. مهما داهنت للدينيين ستجعلهم يثقبون معطفك. أنا حاميك وصديقك الوحيد في قارص. وإذا فقدت صداقتي فاعلم أنك ستدخل إلى إحدى زنزانات الطابق السفلي في مديرية الأمن، وتعذب. أصدقاؤك في جريدة الجمهورية لن يصدقوك، وسيصدقون العسكر. أعرف هذا.»

«أعرف.»

«إذن قل لي ما أخفيته هذا الصباح عن الشرطة، وما دفنته في زاوية من زوايا قلبك شاعراً بالذنب.»

قال كا باسماً: «على الأغلب أنني بدأت أؤمن بالله هنا. ويمكن أنني ما زلت حتى الآن أخفي هذا عن نفسي.»

«إنك تخدع نفسك! حتى لو آمنت فإن إيمانك وحدك لا معنى له. مثلاً الإيمان على طريقة الفقراء، وأن تكون واحداً منهم. لا يمكن أن تؤمن بإلههم حتى تأكل ما يأكلون، وتعيش بينهم، وتضحك لما يضحكون، وتغضب لما يغضبون. لا يمكنك أن تعيش حياة مختلفة وتؤمن بالله نفسه. الله عادل إلى حد معرفته بأن القضية ليست قضية عقل وإيمان، بل قضية حياة بكاملها. ولكن ما أسأل عنه الآن ليس هذا. بعد نصف ساعة سأظهر في التلفاز وأخاطب القارصيين. أريد أن أزف لهم بشارة. سأقول لهم بأن قاتل مدير معهد المعلمين قد قبض عليه. وهنالك احتمال كبير أنه قاتل رئيس البلدية. هل يمكنني القول بأنك شخصت القاتل هذا الصباح؟ بعد ذلك تظهر أنت على التلفاز وتشرح كل شيء.»

«ولكنني لم أستطع تشخيص أحد.»

أمسك صوناي ذراع كا بحركة غاضبة لم تشم رائحة المسرح، وسحبه

من الغرفة إلى الخارج. عبرا ممراً عريضاً، وأدخله في غرفة شديدة البياض تطل على الممر الداخلي. وفور إلقائه نظرة إلى الداخل أراد كا أن يدير وجهه ليس بسبب قذارة الغرفة، بل لخوفه من حرمتها. على حبل مربوط بين مزلاج النافذة ومسمار في الجدار نشرت جوارب. رأى في حقيبة مفتوحة بجانب الجدار مجفف شعر، قفازات، قمصان، صدارات كبيرة إلى حد أنه لا يمكن لأحد أن يضعها غير فوندا أسر. وعلى الكرسي المجاور لها تماماً تجلس فوندا أسر وراء طاولة مغطاة بالورق وعليها أدوات مكياج وزبدية تحتسي بالملعقة ما بداخلها ـ اعتقد كا أنه معقود، أو حساء؟ ـ ومن جهة أخرى تقرأ شيئاً ما.

قال صوناي وهو يعصر ذراع كا بقوة أكثر: «نحن هنا من أجل فن معاصر. ومرتبطان مع بعضنا بعضاً ربط الظفر باللحم.»

كأن كا لم يفهم ما أراده صوناي فراوح بين الحقيقة والمسرح.

قالت فوندا أسر: «حارس المرمى فورال مفقود. خرج صباحاً ولم يعد.»

قال صوناي: «لا بد أنه انسل إلى مكان ما.»

قالت زوجته: «إلى أين سينسل. الأمكنة كلها مغلقة. ليس ثمة خروج إلى الشوارع. بدأ الجنود البحث. يخشون من أنه خطف.»

على الرغم من فظاظة المشهد والمحكي شعَرَ كا بروح خفيفة من المزاح، وتفاهم روحي كامل. شعر نحوهما شعوراً هو مزيج بين الفرح والغيرة. في اللحظة نفسها حين التقت عيناه بعيني فوندا أسر، حيّا المرأة بدافع غريزي منحنياً نحو الأرض.

بصوت مفتعل، ولكن بإعجاب نابع من القلب قال: «كنت البارحة ليلاً رائعة يا سيدتي.»

قالت المرأة بخجل خفيف: «أرجوكم يا سيدي. في مسرحنا المهارة ليست مهارة ممثل، بل مهارة متفرج.»

التفتت إلى زوجها. وتحدثا بسرعة كزوجين ـ ملك وملكة ـ مجتهدين، مهمومين بشؤون الدولة. وأمام إعجاب كا وحيرته، بلمح البصر استعرض الزوجان اللباس الذي سيرتديه صوناي حين سيظهر في التلفاز بعد قليل وقرراه

(مدني، أم عسكري، أم لباس مسرح؟) وتحضير النص المكتوب الذي سيقرؤه (كتبت فوندا أسر جزءاً منه)، وإخبار صاحب فندق فرح قارص الذي نزلوا فيه قبل التطورات الأخيرة، وطلبه واسطة (لأنه قلق من دخول العسكر المتكرر إلى فندقه وتفتيشه، أخبر عن شابين مقيمين في فندقه.) وبرنامج بعد الظهر لتلفزيون قارص لسرهات المكتوب على ورقة علبة سجائر. (إعادة بث أمسية مسرح الشعب للمرة الرابعة والخامسة. بث حديث صوناي ثلاث مرات. أغاني البطولة سرهات، وفيلم سياحي يعرف بجماليات قارص. فيلم سينمائي محلي: غوليزار).

سأل صوناي قائلاً: «ماذا سنفعل بشاعرنا الذي عقله في أوربا، وقلبه مع ناشطي طلاب الأئمة والخطباء، وعقله ملخبط؟»

قالت فوندا أسر مبتسمة بحلاوة: «واضح من وجهه. إنه ولد طيب. سيساعدنا.»

«ولكنه يذرف الدموع من أجل أولئك الإسلاميين.»

قالت فوندا أسر: «هذا لأنه عاشق. شاعرنا في هذه الأيام مؤجج المشاعر.»

قال صوناي ظائم بالتفات مبالغ «آ... وهل شاعرنا عاشق؟ الشعراء الأكثر براءة فقط هم الذين ينشغلون بالعشق في زمن الانقلاب.»

قالت فوندا أسر: «إنه ليس شاعراً بريئاً، بل عاشقاً بريئاً.»

لعب الزوج والزوجة هذه اللعبة مدة أطول دون خطأ، فأغضبا كا من جهة، وأخرجاه عن طوره من جهة أخرى. بعد ذلك جلسا متقابلين على طرفي طاولة خياطة كبيرة، وشربا الشاي.

قال صوناي: «أقول هذا لكي تقرر بأن مساعدتنا هي العمل الأكثر عقلانية. قديفة هي عشيقة كحلي. وكحلي لم يأت إلى قارص من أجل السياسة بل من أجل العشق. إنهم لا يلقون القبض على هذا القاتل لكي يحددوا الإسلاميين الشباب الذين يقيم معهم علاقة. والآن هم نادمون. لأن البارحة مساء، قبل مداهمة مهاجع النوم فُقِد بلمح البصر. الشباب الإسلاميون في قارص كلهم معجبون ومرتبطون به. إنه في مكان ما من قارص، ولابد أن

يتصل بك مرة أخرى. يمكن أن يكون من الصعب عليك إخبارنا. وكما عمل للمرحوم مدير معهد المعلمين، نثبّت ميكروفوناً أو اثنين عليك، وإذا ربطا مع مرسل لاسلكي بمعطفك فلن يكون هنالك ضرورة لخوفك حين تلتقيه. وحين تبتعد، يلقون القبض عليه فوراً.» فهم فوراً من وجه كا أن هذه الفكرة لم تعجبه، فقال: «أنا لا أصر على هذا. ولكنك لا تظهر شيئاً، ولكن يفهم من تصرفاتك هذا اليوم أنك محتاط. أنت تعرف كيف تحمي نفسك، ولكنني على الرغم من هذا أقول لك يجب أن تنتبه من قديفة. يشكون بأنها توصل كل ما تسمعه إلى كحلي. لابد أنها توصل ما يحكى كل مساء على مائدة العشاء بين أبيها وضيوفه. وفي هذا شيء من متعة خيانة أبيها. ولكن هذا لأنها عاشقة لكحلي أيضاً. برأيك ما الذي يمكن الإعجاب به؟»

سأل كا قائلاً: «في قديفة؟»

قال صوناي غاضباً: «طبعاً في كحلي. لماذا الجميع معجبون بهذا القاتل؟ لماذا له اسم أسطوري في الأناضول كلها؟ أنت تحدثت إليه، هل يمكنك أن تقول لي هذا؟»

عندما بدأت فوندا أسر تمشّط بشفقة وعناية شعر زوجها الشاحب بمشط بلاستيكي أخرجته سكت كا بسبب تشتت تركيزه.

قال صوناي: «استمع للحديث الذي سأدلي به من التلفاز. ولنوصلك إلى فندقك بالشاحنة.»

كان هنالك مدة خمس وأربعين دقيقة حتى موعد انتهاء منع التجول. طلب كا إذناً ليعود مشياً إلى الفندق، فأعطوه. حين فتح نفسه خواء شارع أتاتورك العريض، وصمت الأزقة الجانبية تحت الثلج، وجمال البيوت الروسية القيمة المثلجة وأشجار الزعرور، انتبه لوجود أحدهم خلفه. عبر شارع خالد باشا، وانحرف يساراً نحو شارع كاظم بيك الصغير. كان التخفي الذي وراءه يحاول اللحاق به وهو يطح وينح على الثلج الناعم. وخلفه الكلب الأسود الصدوق ذو البقعة البيضاء على جبينه الذي كان يتراكض في المحطة البارحة. اختبأ كا في باب أحد دكاكين تجار القماش في حي يوسف باشا، ونظر إليهما. بعد ذلك فجأة ظهر أمام التخفي الذي يلاحقه.

«هل تلاحقونني لتعرفوا معلومات، أم لحمايتي؟»

«والله يا سيدي بحسب ما ترون حضرتكم.»

ولكن الرجل منهك ومتعب إلى حد أنه لا يستطيع حماية نفسه، فكيف سيحمي كا. كان يبدي عمر خمس وستين سنة، وجهه مجعد، صوته ضعيف، بريق عينيه مختفٍ، كان ينظر إلى كا بتوجس مثل شخص يخاف من الشرطة، وليس مثل شرطي مدني. حين رأى كا أنه ينتعل حذاء (سومر بنك) الذي ينتعله رجال الشرطة المدنيون في تركيا كلها أشفق على الرجل.

«أنتم من الشرطة. إذا كنتم تحملون هويتكم، فاجعلوا صاحب خمارة (الوطن الأخضر) التي هناك يفتحها ولنجلس قليلاً.»

ودون ضرورة لقرع باب الخمارة كثيراً فتح. شرب عرقاً مع التخفي الذي عرف أن اسمه (صفَت)، وأكلا رقائق العجين مشاركين فيها الكلب الأسود، واستمعا لحديث صوناي. لم يختلف الحديث عن أحاديث الرؤساء التي استمع إليها بعد الانقلابات العسكرية، شعر كا بالضيق منذ بدأ صوناي حديثه بأن القوميين الأكراد والدينيين الذين تدفعهم قوى خارجية، والسياسيين المنحلين طارقي أنواع الحيل كلها للحصول على أصوات الناخبين أوصلوا قارص إلى حافة الهاوية.

بينما كان كا يشرب قدحه الثاني أشار التخفي بتعبير يبدي الاحترام إلى صوناي في التلفاز. وأصلاً ذهبت ملامح التخفي الشوهاء التي كانت على وجهه، وحل محلها نظرة مواطن مسكين يقدم معروضاً. قال: «أنتم تعرفونه. أو على الأصح هو يحترمكم. لدينا معروض. يمكنكم أن تعرضوه عليه، وأنا أتخلص من حياتي الجهنمية هذه. أرجوكم، ليخرجوني من هذه التحقيقات السامة، وينقلوني إلى أي مكان آخر.»

وإزاء سؤال كا. نهض مجدداً، وأغلق باب الخمارة بالمزلاج. وجلس إلى طاولته، وحكى له عن «التحقيقات السامة.»

تبدأ الحكاية التي لم يستطع التخفي المسكين التعبير عنها، والمختلطة في رأس كا المهتز أساساً، وهذا ما جعله يسكر بعد الشرب مباشرة بأن الجيش وتنظيم المخابرات يشتبهون بسمية شراب ذي قرفة يباع في مقصف وسط المدينة يتردد عليه الجنود كثيراً ويسمى: «البوفيه الحديثة» ويبيع

السندويش وتدخن فيه السجائر. الواقعة الأولى الملفتة للانتباه حدثت مع صف ضابط مشاة اسطنبولي قبل مناورات علم أنها ستكون ذات إصابات كثيرة. بدأ صف الضابط هذا يرتجف وهو ساخن مثل النار، ويهتز بحيث لا يستطيع الوقوف على قدميه. في مستوصف القطعة العسكرية الذي حمل إليه تبين أنه مسمم، واعتقد أنه سيموت، وتحت تأثير الغضب ألقى اللوم على الشراب الساخن الذي اشتراه وشربه بفضول على أنه جديد من المقصف الذي على الزاوية بين شارعي كاظم بيك الصغير، وكاظم قرة بكر. كانت ستنسى هذه الحادثة على أنها واقعة تسمم بسيطة، ولكنها أعيدت إلى الذاكرة حين نقل، وخلال فترة قصيرة، ضابطا صف إلى مستوصف القطعة بالأعراض نفسها. هما أيضاً يرتجفان، ويتأتئان، ولا يستطيعان الوقوف من الشعور بالارتخاء، ويسقطان، ويتهمان الشراب الساخن ذا القرفة نفسه الذي شرباه أيضاً بدافع الفضول. تعدُّ هذا خالة كردية من حي أتاتورك في بيتها قائلة: «أنا وجدته»، وبدأ يباع هذا الشراب الذي أفرح الجميع في المقصف المذكور الذي يديره أبناء أختها. هذه هي المعلومات التي توصل إليها التحقيق السري في مركز القيادة العسكرية في قارص. ولكن نتيجة تحليل العينات المأخوذة سراً من الشراب، في كلية الطب البيطري لم يوجد سم في الشراب. وحين كادت تغلق القضية هكذا فتح الباشا الموضوع لزوجته، وعلم أنها تشرب كل يوم من هذا الشراب كؤوساً كؤوساً على أنه جيد للروماتزم المصابة به، وهذا ما أخافه. نعم، في الحقيقة إن كثيراً من زوجات الضباط، وكثيراً من الضباط أيضاً شربوا كثيراً جداً من الشراب نفسه على أنه مفيد للصحة، وشربوه لمجرد أنهم ضجرون أيضاً. وحين توصل تحقيق قصير إلى أن الضباط وعائلاتهم والجنود الذين يذهبون بإذن إلى السوق، وعائلات الجنود التي تأتي لزيارة أبنائها يشربون كثيراً من هذا الشراب المباع في مركز المدينة، والتسلية الوحيدة الجديدة يمرون عشر مرات على الأقل، سيطر الخوف على الباشا نتيجة هذه المعلومات وانطلاقاً من توقع أي احتمال أحال الموضوع إلى تنظيم المخابرات، ومفتشي الأركان العامة. في تلك الأيام كان الجيش الذي يحارب فدائيي حزب العمال الكردستاني حرباً شعواء، وحقق بعض الانتصارات، لهذا كانت تنتشر بين العاطلين عن العمل واليائسين الأكراد الذين يحلمون

بالانضمام إلى الفدائية أحلاماً مخيفة عن الانتقام. ومن المؤكد أن المتخفين من الاستخبارات الذين يتسكعون في المقاهي على علم بخيالات هؤلاء الغاضبة، مثل التفجير، الخطف، إسقاط تماثيل أتاتورك، تسميم مياه المدينة، نسف الجسور. لهذا السبب أخذ الموضوع على محمل الجد، ولكن بسبب حساسية الموضوع لم يقرر تعريض أصحاب المحل لتحقيق تعذيبي. وبدلاً من هذا فقد دسّ عناصر تخفي تابعة للمحافظة إلى مطبخ الخالة الكردية المسرورة جداً لتزايد المبيعات، وإلى داخل المقصف. بداية توصل عنصر التخفي الذي في الدكان إلى عدم مساس أي مسحوق غريب بالقرفية التي أوجدتها الخالة بشكل خاص، أو الكؤوس الزجاجية، أو خرق إمساك المماسك المعوجة للمغارف الصفيحية، أو صناديق قطع العملة الصغيرة، أو الثقوب الصدئة، أو أيدي العاملين في المحل. ولكنه بعد أسبوع اضطر لترك العمل بأعراض التسمم نفسها وهي الرجفان والاستفراغ. المتخفية التي دست إلى مطبخ الخالة في حي أتاتورك كانت أكثر اجتهاداً. كانت تدون في تقارير كل ما يدخل إلى البيت ويخرج (جزر، تفاح، مجفف الخوخ والتوت، زهر الرمان، ورد بري، ختمية) وتبلغ بها كل مساء. بعد فترة قصيرة تحولت هذه التقارير إلى وصفة مديح، وفتح شهية لهذا الشراب الساخن. كانت ترفع في التقارير بأنها تشرب كل يوم خمسة أو ستة أباريق، وهي لا ترى فيه ضرراً بل فائدة، وهو مفيد للأمراض، وهو مشروب جبلي حقيقي، وله وجود في ملحمة مم وزين الكردية. الخبراء المرسلون من أنقرة فقدوا ثقتهم المتخفية هذه لأنها كردية، واستنتجوا أن الشراب يسمم الأتراك، ولا يؤثر على الأكراد، ولكنهم لم يستطيعوا طرح هذا الموضوع على أحد لأنه مخالف لرأي الدولة بأن الأتراك والأكراد لا يختلفون. إثر هذا فتح الفريق الطبي القادم من اسطنبول عيادة خاصة في مشفى التأمينات الاجتماعية للتدقيق بأمر هذا المرض. ولكن امتلاء هذا المكان بالقارصيين الذين يريدون أن يخضعوا للفحص مجاناً وهم سليمون معافون أو مصابون بتساقط الشعر، أو مرض الصدف، أو الفتق، أو التأتأة من الأمراض العادية أثّر على جدِّيَةِ البحث. وهكذا أحيل أمر مؤامرة الشراب هذه التي كبرت تدريجياً، وإذا كانت صحيحة فقد أثرت على آلاف الجنود الذين سيقعون في مرض مميت إلى وحدة المخابرات في قارص، وعناصرها

المجتهدة، و(صفّت) من بينهم. لم تعد القضية تحديد كيفية وصول السم إلى القارصيين، بل فهم فيما إذا كان القارصيون قد تسمموا أم لا بشكل أكيد. وهكذا فإن عناصر التخفي يتعقبون المواطنين العسكريين والمدنيين الذين يشربون شراب القرفة بشهية، وإلى داخل بيوتهم في بعض الأحيان. ووعد كا أن يفتح هذا الموضوع لصوناي الذي ما زال يتحدث في التلفزيون لأنه نتيجة هذا العمل المضني تعب التخفي وفتح حذاءه.

لقد سرَّ التخفي من هذا كثيراً، حتى إنه حين غادر عانق كا، وقبله، وحين خرجا فتح مزلاج الباب بيده.

[٢٤]

أنا كا

ندفة الثلج المسدسة الأضلاع

مشى كا إلى الفندق يتبعه الكلب الأسود مستمتعاً بجمال الأزقة الخاوية المثلجة. أعطى لجاويت رسالة قصيرة لكي يعطيها لإيبك: «تعالي بسرعة.» رمى نفسه على سريره، وبينما كان ينتظرها فكر بأمه. ولكن هذا لم يستمر طويلاً. لأنه بعد فترة ركز عقله على إيبك التي لم تأت حتى ذلك الوقت. وخلال انتظاره إيبك مدة قصيرة حدث ما آلم كا ـ وهو أن تعلقه بها، وفي الحقيقة إن مجيئه إلى قارص ـ هو جنون. وبدأ يشعر بالندم. وقد مر وقت طويل، ولم تأتِ إيبك حتى الآن.

بعد دخول كا إلى الفندق بثمانٍ وثلاثين دقيقة جاءت إيبك. قالت: «ذهبتَ إلى بائع الفحم وخشية من تشكل دور أمام دكانه خرجت من الباحة الخلفية في الثانية عشرة إلا عشر دقائق، وبعد الثانية عشرة تسكعت قليلاً في السوق. لو عرفت لجئت فوراً.»

للحظة شعر كا بسعادة لحظة دخول إيبك جالبة معها حيوية وحياة، وارتعد خوفاً من تخريب لحظة السعادة التي يعيشها. تفرج كا على شعر إيبك اللماع الطويل، ويديها الصغيرتين المتحركتين باستمرار (خلال فترة قصيرة رتبت بيسراها شعرها، ولامست أنفها، وحزامها، وحافة الباب، ورقبتها الطويلة الجميلة، ومرة أخرى رتبت شعرها، ولامست عقدها (اليشمن) الذي انتبه كا إلى تعليقه للتو.)

قال كا: «عشقتك بشكل سيّيء جداً، وأعاني من الألم.»

«لا تخف، العشق الذي يتأجج بهذه السرعة يخبو بالسرعة نفسها.»

احتضنها كا مرتبكاً وحاول أن يقبلها. بادلته إيبك القبل براحة معاكسة تماماً لارتباكه. الإحساس بيديها الصغيرتين تمسكان كتفيه، وعيش تبادل القبل بحلاوتها كلها حول كا إلى مصروع. هذه المرة فهم بأن إيبك تريد أن تمارس معه الحب من دس جسدها به. وبفضل موهبته بالتحول السريع من حزن عميق إلى سعادة جياشة فإن كا الآن سعيد إلى حد أن عينيه وعقله وذاكرته فتحت على تلك اللحظة والعالم كله.

قالت إيبك: «أنا أيضاً أريد أن أمارس الحب معك.» ونظرت أمامها لحظة. ورفعت عينيها الحوراوين وركزتهما بتصميم في عيني كا، ثم أضافت: «ولكنني قلتُ لك. ليس حين يكون أبي هنا، تحت أنفنا.»

«متى يخرج والدك؟»

قالت إيبك: «لا يخرج أبداً.». فتحت الباب ثم قالت: «عليّ أن أذهب» وابتعدت.

نظر كا خلفها حتى اختفت نازلة من الدرج في نهاية الممر شبه المظلم. أغلق الباب، وفور جلوسه على حافة السرير أخرج دفتره من جيبه، وفتحه على صفحة نظيفة فوراً، وبدأ يكتب قصيدة أسماها: «اليأس والصعوبات.»

بعد أن أتى إلى قارص: كان هذا يمنحه شعوراً باليأس من جهة، وبالحرية من جهة أخرى. والآن يعرف أنه إذا استطاع أن يقنع إيبك بترك مدينة قارص فسيكون سعيداً معها حتى نهاية عمره. وشعر بالامتنان للثلج الذي أمَّن له ـ بقطعه الطرق ـ الزمان المناسب والمكان المشترك لإقناعها بهذا الأمر.

ارتدى معطفه وخرج إلى الشارع دون أن يُري نفسه لأحد. لم يذهب باتجاه بناء البلدية، وانعطف يساراً نازلاً عبر شارع الاستقلال القومي. دخل إلى (صيدلية العِلم) واشترى حبوب فيتامين C، ثم انعطف يساراً عبر شارع فائق بيك، وتقدم من أمام واجهات المطاعم، وانحرف نحو شارع كاظم قرة بكر. أنزلت رايات الانتخابات التي كانت تُلألئ الشارع، وفتحت الدكاكين كلها. ثمة موسيقى تنبعث من دكان صغير لبيع القرطاسية وأشرطة التسجيل. ولمجرد الخروج إلى الشوارع ملأ الأرصفة زحام يسير نحو الأعلى ونحو الأسفل يتفرج على واجهات المحلات، ويتبادل النظر. لم يأت الذين يأتون

إلى قارص بالحافلات الصغيرة من مراكز النواحي لقضاء يومهم بالتسكع في المقاهي، وبالحلاقة في دكاكين الحلاقين، فراق لكا منظر فراغ المقاهي ودكاكين الحلاقة. الأولاد الذين في الشوارع أنسوه الخوف وأسعدوه جيداً. تفرج على حركة عدد كبير من الأولاد الذين ينشقون أنوفهم ويتزلجون في مقاسم الأراضي الصغيرة الفارغة، وباحات دوائر الدولة والمدارس، وفي الطرق الصاعدة، وعلى الجسور فوق نهر قارص، ويتعاركون بكرات الثلج، ويتراكضون، ويتشاجرون متبادلين الشتائم. قليل جداً منهم يرتدي المعاطف، وغالبيتهم ترتدي سترات المدارس، وتلف رقابها بلفحات، وتضع على رؤوسها قبعات. إذا شعر كا بالبرد كثيراً وهو يتفرج على هذا الزحام المنتشي فرحاً لتعطيل الانقلاب المدارس، يدخل إلى أقرب مقهى، وحين كان التخفي (صفّت) يشرب الشاي على الطاولة المقابلة خرج كا مجدداً.

لم يخف كا من التخفي صفت لأنه اعتاد عليه. يعرف أنهم لو أرادوا ملاحقته بجدية لوضعوا خلفه تخفياً غير مرئي. والتخفي المرئي يفيد في التغطية على التخفي غير المرئي. لهذا السبب حين يفقد التخفي صفت كان يرتبك كا، ويبدأ البحث عنه. في شارع فائق بيك، وفي الزاوية التي رأى فيها الدبابة وجد (صفّت) حاملاً كيساً نايلونياً يبحث عنه وهو متلاحق الأنفاس.

قال التخفي: «البرتقال رخيص جداً، فلم احتمل.» شكر كا لأنه انتظره. وقال بأنه أثبت «حسن نيته» لعدم هروبه. «إذا قلتم إلى أين ستذهبون فلا نتعب كلانا.»

لم يكن كا يعرف إلى أين سيذهب. فيما بعد، بينما كان جالساً في مقهى فارغ ذي نوافذ متجلدة أدرك أنه في الحقيقة يريد أن يشرب كأسي عرق ويذهب إلى الشيخ سعد الدين أفندي. كان من غير الممكن له رؤية إيبك في هذه الأثناء، روحه تشعر بالضيق بين التفكير بها والخوف من التعذيب. أراد أن يفتح للشيخ الأفندي محبة الله التي في قلبه، وأن يحدثه بلباقة عن الله وعن معنى الدنيا. ولكن كان يخطر بباله زرع التكية بالميكروفونات، واستماع الذين في مديرية الأمن عليه ضاحكين.

على الرغم من هذا توقف كا قليلاً حين مر من أمام بيت الشيخ الأفندي المتواضع في شارع البيطرة. ونظر إلى الأعلى نحو النوافذ.

فيما بعد وجد أن باب مكتبة محافظة قارص مفتوحاً. دخل، وصعد الدرج الملتاث بالطين. وفي الفسحة التي يؤدي إليها الدرج ثبتت بعناية بواسطة مسامير كبس على لوحة إعلانات خشبية الجرائد المحلية السبع الصادرة في قارص. ولأنها طبعت بعد الظهر كلها مثل جريدة مدينة سرهات فلم تأتِ على ذكر الانقلاب، وهي تحكي عن النجاح الذي حققه العرض في مسرح الشعب، وعن توقع استمرار ندف الثلج.

على الرغم من تعطيل المدارس فلم يجد في صالة القراءة خمسة أو ستة طلاب، وبضع موظفين متقاعدين هاربين من برد بيوتهم. في إحدى الزوايا رأى معاجم غدت قطعاً قطعاً نتيجة قراءتها، وبين موسوعات الأطفال المرسومة الممزق نصفها وجد مجلدات (موسوعة الحياة) التي كان يحبها كثيراً في صغره. في نهاية كل مجلد من هذه المجلدات من الداخل ثمة رسوم ملونة ملصقة فوق بعضها بعضاً تفتح نحو الداخل، ومع فتحها تبدو أعضاء وأجزاء سيارة، أو رجل، أو سفينة كلوحة تشريح. بدافع غريزي بحث كا عن الأم التي في خلف جلد المجلد الرابع، والحنين المتمدد كأنه ينام داخل بيضة في البطن المنفوخ. ولكن الرسوم داخل تلك المجلدات قد نزعت، ولم ير سوى مكان نزعها.

في المجلد نفسه وفي الصفحة ٣٢٤ منه قرأ مادة بعناية:

ثلج: هو الشكل المتجمد للماء في أثناء سقوطه أو تجواله أو صعوده داخل الغلاف الجوي. بشكل عام هو على شكل بلورات نجمية جميلة بشكل سداسي الأضلاع. كل بلورة لها بنية سداسية خاصة بها. جذبت أسرار الثلج اهتمام بني الإنسان منذ العصور القديمة وإعجابهم.

في سنة ١٥٥٥ في مدينة أوبسالا السويسرية توصل الأب أولاوس ماغنوس إلى أن كل ندفة ثلج لها بنية خاصة من المسدسات كما يرى في الشكل. . . .

لن أقول كم مرة قرأ كا هذه المادة، وكم انحفرت رسوم بلورات الثلج في داخله في تلك الأثناء. في يوم ما ذهبت بعد سنوات إلى بيتهم في نيشان طاش وبعد أن تحدثنا ـ أبوه القلق والشكاك بعينيه المسنتين وأنا ـ حوله، طلبت إذناً لرؤية المكتبة القديمة. المكتبة التي كانت ببالي هي مكتبة أبيه التي

في الزاوية المظلمة من غرفة الجلوس، وليست مكتبة طفولة كا وشبابه التي في غرفته. وهنالك مجلدات الحقوق الأنيقة، وروايات الأربعينيات المترجمة والمحلية، وبين الهاتف، ودليل الهاتف رأيت (موسوعة الحياة) ذات الجلد الخاص، وألقيت نظرة على تشريح المرأة الحامل في المجلد الرابع. حين فتحت الكتاب لا على التعيين ظهرت أمامي تلقائياً الصفحة ٣٢٤. وهنالك وجدت عند مادة (ثلج) نفسها ورقة نشاف تعود إلى ثلاثين سنة.

ومثل الطالب الذي ينظر إلى الموسوعة ويعمل وظيفته أخرج دفتره من جيبه، وبدأ بكتابة القصيدة العاشرة التي ألهمت له في قارص. انطلق من خيال الجنين في بطن الأم الذي لم يجده داخل مجلد (موسوعة الحياة) ومن فرادة كل بلورة ثلج، واعتمد فيه كا على مكانه ومكانة حياته في هذه الدنيا، ومخاوفه وخصوصياته وعدم شبهه بأحد، وأسمى القصيدة: «أنا كا»

وحين وصل إلى نهاية القصيدة شعر كا بـأن أحداً جلس إلى طاولته. دهش حين رفع رأسه عن الدفتر: إنه نجيب. لم يستفز هذا في داخله الإحساس بالحيرة والرعب، بل الشعور بالذنب لإيمانه بموت من لا يموت بسهولة.

قال: «نجيب». وأراد أن يحتضنه ويعانقه.

قال الشاب: «أنا فاضل. رأيتكم في الطريق، فتبعتكم.» ألقى نظرة نحو الطاولة التي يجلس إليها التخفي صفت. «أخبروني بسرعة: هل صحيح أن نجيباً قد مات؟»

«صحيح. رأيته بعيني.»

«لماذا إذن ناديتموني: نجيب؟ على الرغم من هذا ألستم متأكدين.»

«لست متأكداً.»

للحظة صار وجه فاضل مثل الرماد، بعد ذلك استجمع قواه ضاغطاً على نفسه.

«أراد أن يُنتقم له. ومن هذا أفهم أنه مات. ولكنني أريد أن أدرس دروسي كما كنت في السابق حين تفتح المدرسة، ولا أريد الدخول في السياسة والانتقام.»

«فوق هذا فإن الانتقام أمر مخيف.»

قال فاضل: «على الرغم من هذا، فسأنتقم له إن أراد حقيقة. حدثني عنكم. وعن هجران، أي قديفة هل أعطيتموها الرسائل التي كتبها؟»

قال كا: «أعطيتها إياها» أرقته نظرات فاضل. قال لنفسه: «لو صححتُ: سأعطيها.» ولكنه تأخر. فوق هذا فإن كذبته ملأت قلبه ثقة. شعر بالقلق لتعابير الألم التي ظهرت على وجه فاضل. أغلق فاضل وجهه بيديه، وبكى قليلاً. ولكنه كان غاضباً إلى حد أن دموعه لم تذرف. «إذا كان نجيب قد مات فممن سأنتقم له؟» وحين رأى أن كا قد سكت ركز عينيه بعينيه، وقال: «أنتم تعرفون.»

قال كا: «قال لي بأنكما في اللحظة نفسها تفكران بالشيء نفسه. إذا كنت تفكر فهذا يعني أنه يعرف ما تفكر به.»

قال فاضل: «الأمر الذي أرادني أن أفكر به يملأ قلبي ألماً.» رأى كا في عينيه البريق الذي في عيني نجيب أول مرة. شعر بنفسه أنه في مواجهة شبح.

«ما الذي دفعكم للتفكير به؟»

قال فاضل: «الانتقام». وبكى قليلاً.

أدرك كا بسرعة أن الأمر الحقيقي الذي يفكر فيه هو ليس الانتقام. لأن فاضل قال هذا بعد أن رأى أن التخفي صفت نهض من وراء الطاولة حيث يراقبهما بانتباه، واقترب منهما.

قال التخفي صفت وهو ينظر إلى فاضل نظرة حادة: «هاتوا هويتكم.»

«بطاقتي المدرسية على طاولة الإعارة.»

رأى كا أن فاضلاً فهم بأن الذي أمامه شرطي مدني، وأنه يكبت خوفه. ساروا جميعاً نحو طاولة الإعارة. حين علم التخفي من البطاقة التي اختطفها من يد الموظفة الخائفة من كل شيء أن فاضلاً طالب في مدرسة الأئمة والخطباء، وجّه بداية نظرة اتهام إلى كا كأنه يقول: «كنا نعرف»، بعد ذلك وضع البطاقة في جيبه بحركات من صادر كرة طفل.

قال: «اذهب إلى مديرية الأمن وخذ بطاقة الأئمة والخطباء من هناك.»

قال كا: «يا حضرة المأمور، هذا الولد لا يتدخل في شيء، وقد عرف للتو أن أعز أصدقائه قد مات.»

ولكن صفَت لم يلن على الرغم من طلبه واسطة من كا ظهراً.

ولأن كا واثق أنه سيأخذ البطاقة من صفَت في مكان لا يراهما فيه أحد، تواعد مع فاضل على اللقاء في الساعة الخامسة عند (الجسر الحديدي). خرج فاضل من المكتبة مباشرة. دب القلق في الصالة كلها، واعتقد الجميع هناك بأنه ثمة تفتيش على الهويات. ولكن صفت غير آبه، عاد مسرعاً إلى طاولته ليقلب صفحات مجلد مجلة (حياة) الصادرة في أوائل الستينيات، ويستعرض صور الأميرة ثريا الحزينة التي اضطر شاه إيران لطلاقها لأنها عاقر، وآخر صور رئيس الحكومة الأسبق عدنان مندرس قبل إعدامه.

قرر كا بأنه لن يستطيع أخذ الهوية من التخفي فخرج من المكتبة. حين رأى جمال الشارع المثلج، ونشوة الأطفال الذين يلعبون بكرات الثلج ترك خلفه مخاوفه كلها. ثمة شيء في داخله يدفعه إلى الركض. في ساحة دار الحكومة رأى دَوْرَاً لرجال حزينين وبردانين يحملون بأيديهم أكياساً قماشية ولفات ورقية مربوطة بالخيطان. هؤلاء قارصيون محتاطون أخذوا إعلان حالة الطوارئ مأخذ الجد وجاؤوا كالخراف لتسليم أسلحتهم للدولة. ولكن لأن الدولة لا تثق بهم أبداً لم تدخل أول الدور إلى مبنى المحافظ فهم يشعرون بالبرد. أغلب سكان المدينة بعد هذا الإعلان حفروا الثلج في منتصف الليل ودفنوا أسلحتهم في الأرض المتجلدة في أمكنة لا تخطر ببال أحد.

بينما كان يسير في شارع فائق بيك تقابل مع قديفة، وصار وجهه أحمرَ قانياً. قبل قليل كان يفكر بإيبك. بدت له قديفة أمراً قريباً جداً من إيبك وجميلاً بشكل يفوق المعتاد. لولا أن يمسك نفسه لاحتضن الفتاة المغطاة الرأس وقبلها.

قالت قديفة: «يجب أن أحدثكم بسرعة، ولكن ثمة رجل يتعقبكم، ليس تحت أنظاره هل تأتون إلى الغرفة رقم ٢١٧ في الفندق الساعة الثانية؟ الغرفة الأخيرة في طرف الممر الذي فيه غرفتكم.»

«هل سنتكلم هناك براحة؟»

حملقت بعينيها: «إذا لم تخبروا أحداً، حتى إيبك فلن يعلم أحد بحديثنا.» وبحركة رسمية جداً بالنسبة للزحام الذي يتطلع إليهما صافحت كا.

«الآن انظروا خلفي دون أن تلفتوا انتباه أحد، فهل يوجد تخفٍ واحد أم اثنين؟ ستخبرونني فيما بعد.»

ابتسم كا ابتسامة خفيفة بطرف شفتيه، وبحركة من رأسه قال: «نعم» ودهش من الموقف البارد الأعصاب الذي اتخذه هو. مع أن فكرة لقائه بقديفة في غرفة وسراً عن أختها الكبيرة طيّر عقله من رأسه.

أدركَ فوراً أنه لم يرد حتى مجرد لقاء إيبك ولو مصادفة في الفندق قبل لقائه قديفة. وهكذا لكي يقضي الوقت قبل اللقاء مشى في الشوارع. لم يكن ثمة أحد له شكاية من الانقلاب العسكري، كما كان يجري في طفولته تماماً. كان ثمة جو يوحي ببداية جديدة، وتغيير في الحياة المملة.

النساء التقطن حقائبهن، وسحبن أولادهن، وبدأ الفاكهانيون بفرز فواكههم، وتسويقها، والرجال ذوو الشوارب يقفون عند الزوايا يدخنون السجائر غير المفلترة يتفرجون على القادمين والذاهبين، ويتناقلون الإشاعات. المتسول الذي يقلد الأعمى الذي كان واقفاً تحت سقيفة بناء فارغ ما بين مركز انطلاق الحافلات والسوق ورآه مرتين لم يكن موجوداً. كما أن كا لم يرَ أصحاب الشاحنات الصغيرة التي يوقفونها وسط الزقاق ويبيعون منها البرتقال والتفاح. حركة المواصلات الخفيفة أصلاً، خفّت أكثر، ومن الصعب فهم ما إذا كان هذا بسبب الانقلاب العسكري أم الثلج. رُفع عدد الشرطة المدنية في المدينة (أحدهم وضعه الأولاد الذين يلعبون كرة قدم في الطرف السفلي من شارع خالد باشا في المرمى)، وقد أجلت إلى أجل غير مسمى الفعاليات الظلامية لفندقين بجانب مركز انطلاق الحافلات يستخدمان باعتبارهما بيتي دعارة، (فندق بان، فندق الحرية) وصراع الديكة، والقصابين الذين يذبحون دون ترخيص. لا أحد يبدي أي حركة غريبة إزاء الانفجارات التي تحدث بين الحين والآخر في منطقة الأكواخ وخاصة ليلاً لأنهم اعتادوا على هذه الانفجارات وبالشعور القوي بالحرية الذي تمنحه موسيقى اللا اهتمام أخذ شراب القرفة الساخن من (البوفيه الحديثة) التي في زاوية شارعي كاظم قرة بكر، وكاظم بيك الصغير، وشربه بمتعة.

[٢٥]

زمن الحرية الوحيد في قارص

كا وقديفة في غرفة الفندق

كان كا متوتراً لخوفه من رؤية أحد له حين دخل غرفة الفندق ذات الرقم ٢١٧ . بعد ست عشرة دقيقة، ولكي يفتح موضوعاً مغايراً ومسلياً تحدث عن الشراب الذي ما زال طعمه المُر في فمه.

قالت قديفة: «في فترة مضت قيل بأن الأكراد الغاضبين يضعون في هذا الشراب سُمّاً من أجل تسميم عناصر الجيش. حتى إن الدولة أرسلت مفتشين سريين للتحقيق في هذا الأمر.»

سأل كا قائلاً: «وهل تؤمنون بهذه الحكايات؟»

قالت قديفة: «الغرباء المتعلمون، والمغرِّبون القادمون إلى قارص كلهم، فور سماعهم هذه الحكايات يذهبون لشرب هذا الشراب لإثبات أنهم لا يؤمنون بشائعات المؤامرة، ويسممون أنفسهم بغباء. لأن الأقاويل صحيحة. بعض الأكراد حزينون إلى حد أن الله بالنسبة إليهم غير موجود.»

«بعد كل هذا الوقت كيف تسمح الدولة بهذا؟»

«إنكم مثل المثقفين الغربيين كلهم تثقون بدولتنا بالدرجة الأولى دون أن تنتبهوا. تشكيلات المخابرات القومية تعرف هذا الأمر كما تعرف أننا هنا؟»

قالت قديفة باسمة: «لا تخافوا. لا تعرف الآن. في يوم ما لا بد أن تعرف، ولكننا حتى ذلك الوقت نَحن أحرار. زمن الحرية الوحيد في قارص هو زمن التحول هذا. اعرفوا أهميته، اخلعوا معطفكم لطفاً.»

قال كا: «هذا المعطف يحميني من المساوئ.» رأى في وجه قديفة تعبير خوف، فأضاف قائلاً: «والمكان هنا بارد.»

هذه نصف غرفة صغيرة استخدمت في زمن ما غرفة صندوق. ثمة نافذة ضيقة مفتوحة على الباحة الداخلية، سرير صغير يجلسان على طرفيه جفلين، رائحة غبار رطب خانق خاص بغرف الفنادق. تطاولت قديفة محاولة فتح صنبور التدفئة المركزية في طرف الغرفة، ولكنه مرصوص بشكل سيّيء. تركته. وحين رأت أن كا نهض على قدميه متوتراً حاولت أن تبتسم.

للحظة شعر كا بأن قديفة تشعر بالمتعة بوجودها معه في غرفة واحدة. وهو أيضاً كان مستمتعاً لوجوده مع فتاة جميلة في غرفة واحدة بعد سنوات وحدةٍ طويلة، ولكن متعة قديفة ليست «رخوة»، ويفهم هذا من وجهها، إنها أكثر عمقاً، وانهياراً.

«لا تخافوا لأنه لم يكن خلفكم شرطي مدني غير ذلك المسكين الذي يحمل برتقالاً في كيس. وهذا يشير في الحقيقة إلى أن الدولة لا تخاف منكم، وهي تريد أن تخيفكم. من كان خلفي؟»

قال كا خجلاً: «نسيت أن أنظر خلفكم.»

قالت: «كيف؟» ونظرت إليه بعينين كالسمّ، ثم أضافت: «إنكم عاشقون، عاشقون بشكل سيّيء جداً» ثم استجمعت نفسها وقالت: «عفوكم، إننا خائفون جميعاً» بعد ذلك أخذ وجهها تعبيراً مختلفاً تماماً، وأضافت: «اسعدوا أختي لأنها طيبة جداً.»

سأل كا وكأنه يهمس: «هل ترين أنها تحبني؟»

قالت قديفة: «تحبكم، يجب أن تحبكم، إنكم إنسان لطيف.»

حين رأت أن كا اهتز نتيجة هذه العبارة قالت: «لأنكم توأمان.» وطرحت فكرة ضرورة التواؤم بين ذكر التوأمين وامرأة أخرى. إلى جانب الهوية المزدوجة للتوائم ثمة خفة وسطية تجعلهم يسعدون للمرأة التي تأخذ كل شيء على محمل الجد، ويقرفون من هذا أيضاً. وبجو منح السلوان أضافت قائلة: «كلا كما تستحقان عشقاً سعيداً.»

«هل وصلت إلى انطباع من حديثكم مع أختكم بأنها يمكن أن تذهب معي إلى ألمانيا؟»

قالت قديفة: «إنها تجدكم وسيمين جداً، ولكنها لا تصدقكم. وتصديقها يستغرق وقتاً. لأن أمثالكم نافذو الصبر لا يفكرون بحب امرأة، بل بالحصول عليها.»

قال كا رافعاً حاجبيه: «هل قالت لك هذا؟ ليس لدينا وقت في هذه المدينة.»

ألقت قديفة نظرة على ساعتها، وقالت: «بداية أشكركم لمجيئكم إلى هنا. لقد دعوتكم من أجل موضوع هام جداً. لكم رسالة هامة من كحلي.»

قال كا: «سيلاحقونني هذه المرة ويجدونه. وسيعرِّضوننا جميعاً للتعذيب. دُوهِم ذلك البيت. وتَنصّتت الشرطة على الجميع.»

قالت قديفة: «كحلي يعرف بالتنصت. كانت تلك رسالة فلسفية لكم وللغرب عبركم. كان يقول لهم لا تحشروا أنوفكم في انتحاراتنا. تغير كل شيء الآن. لهذا السبب يريد أن يغيرّ رسالته السابقة. ولكن الأهم: لديه رسالة جديدة جداً.»

ألحّت قديفة مطولاً، وتردد كا. بعد فترة طويلة قال: «من غير الممكن للإنسان أن يذهب من مكان إلى آخر في هذه المدينة دون أن يُرى.»

«هنالك عربة خيل. كل يوم تأتي إلى الباحة عند باب المطبخ مرة أو مرتين لجلب اسطوانات الغاز أو الفحم أو زجاجات الماء. وتوزع إلى أمكنة أخرى، ومن أجل حماية البضاعة من الأمطار والثلج يفتح فوقها غطاء على قوائم، والحوذي موثوق.»

«وهل سأتخفى تحت الغطاء مثل الحرامية؟»

قالت قديفة: «أنا تخفيت كثيراً. تجول الإنسان في المدينة كلها دون انتباه أحد إليه أمر ممتع جداً. إذا نفذتم هذا اللقاء سأساعدكم بصدق في موضوع إيبك. لأنني أريد أن تتزوجوا منها.»

«لماذا؟»

«كل أخت تريد لأختها السعادة.»

لم يؤمن كا بهذه العبارة لا لأنه رأى طوال عمره كرهاً عميقاً بين الأخوة الأتراك، وتضامناً اضطرارياً، بل لأنه رأى في حالة قديفة (نهض نحو الأعلى

حاجبها الأيسر دون انتباه، ومدت شفتيها المفتوحتين قليلاً نحو الأمام كطفل على وشك أن يبكي في موقف براءة مستمد من الأفلام التركية.) شيئاً من التصنع. ولكن قديفة نظرت إلى ساعتها، وقالت إن عربة الخيل ستأتي بعد سبع عشرة دقيقة، وأقسمت أنها ستشرح له كل شيء إذا وعدها بالذهاب إلى كحلي معها فوراً. فجأة قال كا: «أعدك، ولكن قبل كل شيء قولي لي لماذا تثقون بي إلى هذا الحد.»

«أنتم رجل درويش. هذا ما يقوله كحلي. إنه مؤمن بأن الله جعلكم بريئاً منذ الولادة حتى الوفاة.»

قال كا متسرعاً: «حسنٌ. هل تعرف إيبك خاصيتي هذه؟»

«ولماذا ستعرف؟ هذا كلام كحلي.»

«لطفاً، اخبريني بكل ما تفكر به إيبك عني.»

قالت قديفة: «في الحقيقة إنني أبلغتك بكل ما تحدثنا به.» وحين رأت أن كا قد أصيب بخيبة أمل فكرت أو تصنعت أنها تفكر ـ لم يستطع كا الفصل بين الحالتين لارتباكه ـ وقالت: «تجدكم مسلياً. أنتم قادمون من ألمانيا، يمكنكم أن تحكوا عن أشياء كثيرة.»

«ماذا على أن أفعل لأقنعها؟»

«المرأة منذ اللحظة الأولى أو خلال الدقائق العشر الأولى يمكنها أن تشعر من هو الرجل، أو على الأقل ماذا يشكل بالنسبة إليها، أو هل سيحبها أم لا. ولا بد من مرور وقت لتفهم هذا الشعور. وبالنسبة إليّ فإنه ليس هنالك الكثير ليفعله الرجل في أثناء مرور هذا الوقت. إذا كنتم تؤمنون بهذا فعليكم أن تقولوا لها الأشياء الجميلة التي تشعرون بها نحوها. لماذا تحبونها؟ لماذا تريدون الزواج منها؟»

سكت كا. حين رأت قديفة نظرته عبر النافذة حزينة مثل طفل، قالت له بأنها تتخيل إمكانية أن يسعدا في فرانكفورت، وأن إيبك ستكون مرحة فور خروجها من قارص، وأنهما يتضاحكان في شوارع فرانكفورت وهما ذاهبان إلى السينما مساءً. وقالت: «أخبروني باسم سينما يمكنكم الذهاب إليها، أية سينما.»

قال كا: «فيلم فوروم هوشست»

«أليس عند الألمان أسماء سينمات مثل: الحمراء، رؤية، ماجستيك.»

قال كا: «يوجد. الدورادو!»

وبينما كانا يتابعان بأعينهما ندفة ثلج تتجول مترددة في الباحة حكت له بأنها أيام كانت تمثل في المسرح الجامعي، عرض عليها ابن عم زميل لها في الصف بشكل غير مباشر أن تمثل في فيلم من إنتاج ألماني ـ تركي مشترك، ولكنها رفضت هذا، والآن سيكون كا وإيبك في تلك الدولة سعيدين، وبأن أختها الكبرى خلقت لتكون سعيدة، ولكنها لم تستطع أن تسعد حتى الآن لأنها لم تستطع معرفة هذا، عدم إنجابها حطمها، ولكن الأمر المحزن الحقيقي هو تعاسة أختها الكبرى على الرغم أنها جميلة إلى هذا الحد، ورقيقة إلى هذا الحد، وحساسة وصادقة إلى هذا الحد (هنا انكسرت حدة صوتها)، وفي طفولتهما وشبابهما كانت أختها الكبرى مثالاً لها بطيبتها وجمالها (هنا انكسرت أكثر)، وشعرت دائماً بأنها سيئة وقبيحة بجانب تلك الطبيعة وذلك الجمال، وبأن أختها الكبرى كانت تخفي جمالها دائماً لكي لا تشعر بهذا. (الآن في النهاية تبكي). قالت قديفة وسط الدموع والشهشهة راجفة («حين كنا في اسطنبول، ولم نكن فقراء إلى هذا الحد» وقاطعها كا قائلاً: «بأنهم ليسوا فقراء الآن أيضاً.» منهياً كلامها) بأن مدرِّسة علم الأحياء مسرورة خانم حين تأخرت عن الدرس الأول في ذلك الصباح: «وهل تأخرت (أختك الذكية) أيضاً؟ وأنا أقبل دخولك إلى الصف لأنني أحب أختك فقط.». طبعاً لم تتأخر إيبك.

دخلت عربة الخيل إلى الباحة.

كانت تلك عربة خيل عادية قديمة رسم على أطرافها الخشبية ورود حمراء، وبابونج أبيض، وأوراق خضراء. ينبعث بخار من أطراف الحصان العجوز المتعب ومن منخريه. بنى الثلج على معطف الرجل عريض المنكبين المحدودب ظهره وعلى قبعته. ورأى كا خافق القلب أن غطاء العربة أيضاً مغطى بالثلج.

قالت قديفة: «احذر أن تخاف. لن يقتلوك.»

رأى كا مسدساً بيد قديفة، ولكنه لم يفهم بأنها توجهه نحوه.

قالت قديفة: «أنا لست مصابة بأزمة توتر، ولكن ثق بأنني سأطلق النار

عليك قمت بحركة تسيؤني. نحن نشتبه بالصحفيين والأشخاص كلهم الذين يذهبون إلى كحلي لأخذ رسالة منه.»

قال كا: «ولكنكم أنتم طلبتموني.»

«صحيح، ولكن لو لم تفكر أنت بهذا، يمكن لتشكيلات المخابرات القومية توقع أننا سنطلبك، ولعلهم ثبتوا عليك لواقط تنصت. أنا اشتبهت بك لأنك لم تخلع للتو معطفك العزيز عليك هذا. الآن اخلع معطفك، وضعه على حافة السرير بسرعة.»

نفذ كا ما قيل له. وبيدها الصغيرة صغر يد أختها فتشت كل جزء من أجزاء المعطف. وحين لم تجد شيئاً قالت: «اعذرني، عليك أن تخلع سترتك وقميصك، وقميصك الداخلي. لأنهم يلصقون على ظهرك أو صدرك اللاقط. لعل هنالك مائة شخص في قارص يتجولون صباحَ مساءَ وعليهم لواقط.»

بعد أن خلع كا سترته شمر قميصيه الخارجي والداخلي كطفل يري بطنه للطبيب.

ألقت قديفة نظرة، وقالت: «استدر إلى الخلف.» خيم صمت. «حسنٌ، اعتذر من أجل المسدس.. ولكن الذين عليهم لواقط يعارضون التفتيش، ولا يهدؤون.» ولكنها لم تنزل مسدسها. قالت بصوت مهدد: «اسمع هذا الآن. عليك ألا تذكر لكحلي شيئاً أبداً عما تحدثنا به الآن، ولا عن صداقتنا» كانت تتحدث مثل طبيب يحذر مريضاً بعد المعاينة «لن تذكر له أبداً إيبك، وعشقك لها. كحلي لا يحب قذارات من هذا النوع... إذا ذكرت هذا ولم يكوِ روحك، ثق بأنني سأكويها. يمكن له أن يحس بشيء ما لأنه كالجان، ويحاول أن يستدرجك بالكلام. تظاهر بأنك رأيت إيبك مرة أو اثنتين فقط. هل تفهم؟»

«تمام.»

«احترمْ كحلياً. احذر أن تحاول الاستهانة به بتباهيك بنفسك باعتبارك أكاديمياً رأيت أوربا. وإذا خطر ببالك خبل كهذا، احذر أن تضحك... لا تنس أنه لا يهتم أبداً بأمثالك الذين يقلدون أوربا بإعجاب... ولكنهم يرتعدون خوفاً من كحلي وأمثاله.»

«أعرف.»

قالت قديفة باسمة بأداء خارج للتو من الأفلام الرديئة: «ولكنني صديقتك، كن معي حميمياً.»

قال كا: «الحوذي رفع الغطاء.»

«ثق بالحوذي. مات ابنه في السنة الماضية في قتال مسلح مع الشرطة. واستمتع بسفرك.»

بداية نزلت قديفة إلى الأسفل. حين دخلت إلى المطبخ رأى كا أن عربة الخيل وقد دخلت تحت القنطرة التي تفصل الباحة الداخلية للبيت الروسي القديم عن الشارع، وبحسب ما قرراه، خرج من غرفته ونزل إلى الأسفل. ارتبك حين لم ير أحداً في المطبخ، ولكن الحوذي كان ينتظره عند الباب الموارب. اضطجع في الفراغ بين اسطوانات الغاز صامتاً إلى جانب قديفة.

استمرت السفرة التي أدرك كا فوراً أنه لن ينساها ثماني دقائق فقط، ولكن تهيأ له بأن السفرة كانت أطول. تاق لمعرفة أين كانوا في المدينة. كان يستمع إلى القارصيين المتكلمين فيما بينهم مع صوت صرير العربة، وإلى صوت تنفس قديفة المتمددة بجانبه. للحظة أربكه تعلق مجموعة من الأولاد في مؤخرة العربة، وتزحلقهم. ولكن ابتسامة قديفة الحلوة أمتعته فشعر بنفسه سعيداً بقدر سعادة أولئك الأولاد.

[٢٦]

ليس فقرنا هو سبب ارتباطنا إلى هذا الحد بإلهنا

تصريح كحلي الموجه إلى الغرب كله

بينما كان كا في عربة الخيل المهتزة عجلاتها على الثلج بشكل حلو بدأت تخطر بباله أشطر قصيدة جديدة، ولحظتئذ صعدوا مهتزين بعنف رصيفاً، وتوقفوا إلى الأمام قليلاً. بعد صمت طويل إذا أتته أشطر جديدة رفع الحوذي غطاء العربة، حينئذ رأى كا باحة خاوية مغطاة بالثلج محاطة بمصلحي السيارات وورشات اللحام، والجرارات الخربة. كلب أسود مربوط بسلسلة رأى الخارجيْن من تحت الغطاء وأطلق: عو، عو، عو.

عبرا من باب من خشب الجوز. وحين عبر كا من باب ثانٍ وجد كحلياً ينظر من النافذة إلى الساحة الثلجية. شعره الخرنوبي المائل إلى الحمرة قليلاً، والنمش في وجهه، وكحليٌّ عيناه أدهشتا كا كما في اللقاء الأول. بساطة الغرفة، وبعض الأغراض (فرشاة الشعر نفسها، حقيبة اليد المفتوحة نصف فتحة، ومنفضة السجائر البلاستيكية المرسوم على حوافها شخصيات عثمانية والمكتوب عليها (كهرباء أرسين) نفسها كادت أن تجعل كا يعتقد بأن كحلياً لم يغيّر بيته. ولكن كا رأى ابتسامة برود أعصاب تشير إلى أنه قد قبل التطورات الحادثة منذ الأمس حتى اليوم، وفهم أنه يبارك لنفسه هروبه من الانقلابيين.

قال كحلي: «لن تكتب بعد الآن عن الفتيات المنتحرات.»

«لماذا؟»

«العسكر لا يريدون أن تكتب عنهن.»

قال كا متيقظاً: «أنا لست ناطقاً باسم العسكر.»

«أعرف.»

للحظة تبادلا نظرتي توتر.

قال كحلي: «البارحة قلت لي بأنك تستطيع كتابة مادة عن الفتيات المنتحرات في الصحافة الغربية.»

خجل كا من هذه الكذبة الصغيرة.

سأل كحلي قائلاً: «في أية جريدة غربية؟ في أية جريدة ألمانية لك معارف؟»

قال كا: «في فرانكفورتر روندشاو»

«من؟»

«صحفي ديمقراطي ألماني.»

«ما اسمه؟»

قال كا ملتفاً بمعطفه: «هانس هانسن.»

قال كحلي: «لدي تصريح مناهض للانقلاب العسكري. ليس لدينا وقت. أريدك أن تكتبه فوراً.»

بدأ كا يدون ملاحظات على آخر دفتره الذي يكتب عليه الشعر. قال كحلي بأن ثمانين شخصاً على الأقل قد ماتوا منذ انقلاب المسرح حتى الآن (كان الرقم الحقيقي سبعة عشر بمن في ذلك الذين أطلق النار عليهم في المسرح.) وشرح مداهمات البيوت والمدارس، وتسعة الأكواخ التي دخلت فيها الدبابات وهدمتها (الرقم الصحيح أربعة)، والطلاب الذين يموتون تحت التعذيب، والمناوشات الدائرة في الشوارع الخلفية التي لا يعرفها كا. وبالغ قليلاً بمعاناة الأكراد التي لا يقف عندها الإسلاميون. وقال بأن الدولة هي التي قتلت رئيس البلدية ومدير معهد المعلمين لخلق جو يساعد على هذا الانقلاب. وبالنسبة إليه فإن هذا كله عُمِلَ «من أجل إعاقة نجاح الإسلاميين في انتخابات ديمقراطية.» بينما كان كحلي يشرح عن خطر الأحزاب السياسية وفعاليات الجمعيات، وما شابه ذلك من أجل إثبات هذه الحقيقة نظر كا إلى عيني قديفة المستمعة لكحلي بإعجاب، رسم على حواف هذه الصفحات التي سينزعها من دفتر الشعر فيما بعد رسوماً تشير إلى أنه يفكر بإيبك: رقبة امرأة وشعرها، في الخلف. بيت طفل ينبعث من مدخنته أطفال دخان... قبل زمن

طويل قال لي كا بأن الحقائق القوية التي يؤمن الشاعر الجيد بصحتها، ويخاف من تصديقها يجب أن تدور حوله فقط لأنها تخرب شعره، وستشكل الموسيقى السرية لهذا الدوران فنه.

أحب كا بعض عبارات كحلي إلى حد كتابته لها كلمة كلمة: «سبب ارتباطنا بإلهنا ليس كوننا فقراء إلى هذا الحد كما يعتقد الغربيون، بل هو توقنا أكثر من الجميع لمعرفة ما هو واجبنا في هذه الدنيا، وما سيحدث في الدنيا الآخرة.»

لم يشرح كحلي ماهية واجبنا في هذه الدنيا، ولم يتعمق إلى جذور هذا الفضول الذي ينهي فيه جمله، بل نادى الغرب بحركة استعراضية طارحاً سؤالاً: «يبدو الغرب مؤمناً باكتشافه الأكبر وهو الديمقراطية أكثر من إيمانه بالله، فهل سيعارض هذا الانقلاب العسكري المناهض للديمقراطية في قارص؟ أم أن المهم ليست الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، بل هو الإبقاء على تخلف العالم وتقليد الغرب كما القردة؟ هل يتحمل الغرب ديمقراطية يحققها أعداؤه الذين لا يشبهونه أبداً؟ أريد أيضاً أن أوجه نداء لبقية العالم غير الغرب: أيها الأخوة، لستم وحدكم...» بعد ذلك سكت: «ولكن صديقك في (فرانكفورتر روندشاو) هل ينشر هذا الخبر كله؟»

قال كا منتبهاً: «من غير المحبب القول: غرب، غرب. وكأنه شخص واحد، فيه رأي واحد.»

قال كحلي في النهاية: «أنا مؤمن بهذا، ولكن هنالك غرباً واحداً، ولديهم هنالك رأي واحد. نحن نمثل الرأي الآخر.»

قال كا: «ولكنهم لا يعيشون في الغرب على هذا النحو. وهناك هم على عكس الذين هنا لا يفاخرون بأنهم يفكرون كالجميع. كل شخص، حتى لو كان سماناً عادياً يتباهى بان رأياً خاصاً له. لهذا السبب يجب ألا نخاطب الغرب، ومن الأفضل أن نخاطب ديمقراطيي الغرب، وضمائر الناس هناك.»

«حسنٌ، اكتبوها كما تريدون. هل هنالك ضرورة لتصحيح آخر من أجل أن ينشر؟»

قال كا: «بالنداء الأخير صار الموضوع بياناً غريباً أكثر من كونه خبراً. وسيضعون تحتها توقيعكم. ولعل عدة عبارة تعرّف بكم...»

قال كحلي: «حضرت هذا. ليقولوا أحد الإسلاميين البارزين في تركيا والشرق الأوسط، وهذا يكفي.»

«في هذه الحالة لا يطبعها هانس هانسن.»

«كيف؟»

قال كا: «لأن نشر بيان لإسلامي تركي وحده في جريدة (فرانكفورتر روندشاو) الاشتراكية الديمقراطية يعني بالنسبة إليهم الوقوف إلى جانب طرف واحد.»

قال كحلي: «هذا يعني أن للسيد هانس هانسن نزعة التلوي حين لا يناسبه الأمر. ما الذي يجب أن نفعله كي نقنعه؟»

«لو وقف الديمقراطيون الألمان ضد انقلاب عسكري في تركيا ـ انقلاب حقيقي، وليس انقلاب مسرح ـ وعرفوا أن الذين يدعمونهم إسلاميون فهذا سيقلقهم.»

قال كحلي: «نعم، هؤلاء جميعاً يخافون منا.»

لم يدرك كا ما إذا كان قد قال هذا بمكابرة، أو خشيته من سوء فهم: «لهذا السبب إذا وقّع على هذا البيان شيوعي سابق، ليبرالي، قومي كردي، فإنه يُنشر بسهولة في فرانكفورتر روندشاو.»

«وكيف؟»

قال كا: «يمكننا تحضير بيان مشترك مع شخصين نجدهما في قارص.»

قال كحلي: «أنا لا أشرب الخمر لكي أبدوَ لطيفاً للغربيين. أنا لا أتخبط للتشبه بهم من أجل ألا يخافوا مني، ويلبون طلبي. أنا لا أتمسكن على باب السيد الغربي هانس هانسن كي يشفقوا علينا مع الملحدين. لماذا يفرض كل هذه الشروط؟ هل هو يهودي؟»

خيم صمت. رمقه كحلي بنظرة كره شاعراً بأن كا قد قال شيئاً خاطئاً قال: «اليهود هم الأكثر تعرضاً للظلم في هذا القرن. قبل أن أجري أي تغيير في تصريحي هذا أريد أن أعرف هانس هانسن هذا. كيف تعارفتما.»

«كان سينشر تحليلاً إخبارياً يتعلق بتركيا في فرانكفورتر روندشاو، وقال له أحد الاصدقاء الأتراك إنه من الضروري اللقاء بكاتب تركي.»

«لماذا لا يسأل هانس هانسن تلك الأسئلة لذلك الصديق التركي، ويسألك إياها؟»

«ذلك الصديق التركي أقل اهتماماً مني بهذه الأمور.»

قال كحلي: «لأقل لك أنا ما هي تلك الأمور: التعذيب، الظلم ظروف السجون وما شابه ذلك من أمور مهينة لنا.»

قال كا: «غالباً قتل طلاب الأئمة والخطباء في ملاطية ملحداً.»

قال كحلي: مراقباً نفسه بدقة: «لا أتذكر حادثة كهذه بقدر ما أدعياء الإسلام الذين يقتلون ملحداً مشهوراً مسكيناً للظهور في التلفزات والمباهاة هم سفلة، بقدر ما أولئك المستشرقون المضخمون قضية موت عشرة أو خمسة عشر شخصاً للإساءة للحركة الإسلامية العالمية سفلة أيضاً. إذا كان السيد هانس هانسن هكذا فلننسه.»

«سألني هانس هانسن حول الاتحاد الأوربي وتركيا. وأجبته. بعد أسبوع اتصل هاتفياً. دعاني إلى طعام العشاء في بيته.»

«أهكذا دون مناسبة؟»

«نعم.»

«أمر مشتبه به كثيراً. ماذا رأيت في بيته؟ هل عرفك بزوجته؟»

رأى كا أن قديفة الآن كلها مشدودة انتباهاً الآن وهي تجلس بجانب الستائر المغلقة تماماً.

قال كا: «عائلة هانس هانسن جميلة وسعيدة. اصطحبني (الهر)[١] هانسن من (بانهوف)[٢] مساء عند خروجه من الجريدة. بعد نصف ساعة وصلنا إلى بيت جميل مضيء وسط حديقة. عاملوني بشكل جيد جداً. تناولنا فرخ دجاج مع البطاطا مشوي في الفرن. وقالت زوجته بأنها سلقت البطاطا قبل أن تحمرها في الفرن.»

جلب كا إلى أمام عينه صورة هانس هانسن عاملة البيع في كاوفهوف:

---

(١) استخدمها الكاتب بالألمانية. تعني: السيد.

(٢) استخدمها الكاتب بالألمانية. تعني: المحطة.

«بقدر ما هانس هانسن أشقر وعريض المنكبين ووسيم، بقدر ما (إنغبورغ) وأولادها شقر وجميلون.»

«هل كان هنالك صليب على الجدار؟»

«لا أذكر. لا يوجد.»

قال كحلي: «لابد من وجوده، ولكنك لم تنتبه. الأوربيون المثقفون كلهم مرتبطون جيداً بدينهم وصليبهم على عكس ما يتصور ملحدونا المعجبون بأوربا. ولكن جماعتنا حين يعودون إلى تركيا لا يذكرون هذا، لأن همهم إثبات أن التفوق الغربي التقني هو نصر للإلحاد... احك لي عما رأيته وعما تحدثتم به.»

«على الرغم أن الهر هانسن يعمل في قسم الأخبار الخارجية في فرانكفورتر روندشاو فهو محب للأدب. فتحنا موضوع الشعر. تحدثنا في الشعر وحول الدول، وحول القصص. لم أنتبه لمرور الوقت.»

«هل كان يشفق عليك؟ ألم يشعر بالشفقة عليك لأنك تركي مسكين وحيد ومبعد سياسي فقير، ولأن الشبان الألمان السكارى الضجرين يحرقون الأتراك الذين لا أحد لهم أمثالك لمجرد التسلية؟»

«لا أعرف. لم يتماد معي.»

«إنهم لا يتمادون معك مظهرين أنهم يشفقون عليك، رغبة الشفقة هذه توجد داخل الإنسان. ثمة عشرات الآلاف من المثقفين الأتراك والأكراد حولوا هذه الرغبة إلى ثمن خبز.»

«عائلة هانس هانسن كلها بأولادها طيبة ورقيقة ولطيفة. لعلهم لم يشعروني بإشفاقهم علي بسبب رقتهم. أحببتهم. لم أعد أهتم فيما إذا كانوا يشفقون عليّ.»

«أي أن هذا الوضع لا يجرح كرامتك.»

«لعله كان يجرحها، كنت سعيداً جداً معهم في تلك الليلة. كان لمصباح الطاولة الجانبية ضوء برتقالي ممتع... الشوكات والسكاكين من نوع لم أر مثله، ولكنها لم تكن غريبة إلى حد إقلاق الإنسان... كان التلفاز مفتوحاً دائماً، وينظرون إليه بين الحين والحين، وهذا أشعرني بأنني في بيتي.

حين لم تكف ألمانيتي لفهم أمر ما يشرحونه بالإنكليزية. بعد الطعام

أخذت قطعة ثانية من الكعك بنفسي. لم ينتبه أحد لهذا، وإذا كانوا قد انتبهوا فقد قابلوا الموضوع بطبيعية، لأنني فكرت بهذا فيما بعد.»

سألت قديفة: «ما نوع الكعك؟»

«كعك فيينا بالتين والشكولا.»

خيم صمت.

سألت قديفة: «ما لون الستائر؟ كيف كانت رسومها؟»

تَصَنَّعَ كا أنه يتذكر ثم قال: «قريب من البياض أو بلون الكريم. وعليها رسوم صغيرة لأسماك وأزهار ودببة، وفواكه منوعة.»

«أي مثل قماش الأولاد.»

«لا. لأنها تعطي انطباعاً جدياً جداً أيضاً. وعليّ أن أقول هذا: كانوا سعداء ولكنهم لا يضحكون بين الحين والآخر لزم الأمر أم لا مثلنا. كانوا جديين جداً. لعل هذا هو سبب سعادتهم. الحياة بالنسبة إليهم أمر جدي يتطلب مسؤولية، وليست عملاً أعمى أو امتحاناً مؤلماً كما هي بالنسبة إلينا. ولكن هذه الجدية أمر إيجابي، ومفعم بالحيوية. كانت حياتهم ملونة كالدببة والأسماك التي على الستائر، وسعيدة بشكل متوازن.»

سألت قديفة: «ما لون غطاء الطاولة؟»

قال كا: «نسيت» وغاص في التفكير كأنه يتذكر.

قال كحلي مبدياً غضباً خفيفاً: «كم مرة ذهبت إليهم؟»

«كنت سعيداً في تلك الليلة إلى حد أنني أردت أن يدعوني مرة أخرى. ولكن هانس هانسن لم يدعني مرة أخرى.»

نبح الكلب المربوط بالسلسلة في الباحة نباحاً طويلاً. في تلك اللحظة كان كا يرى حزناً في وجه قديفة أما في وجه كحلي فغضباً ممزوجاً بالاستصغار.

حكى لهما معانداً: «كثيراً ما فكرت بطلبهم على الهاتف. أحياناً أفكر بأن هانس هانسن اتصل بي ليدعوني على العشاء ولم يجدني فأخرج من المكتبة، وبصعوبة بالغة أمسك نفسي عن الركض وأنا عائد إلى البيت. كنت أريد أن أرى مرة أخرى تلك المرآة اللبقة الجميلة، والمقاعد التي نسيت لونها

ـ غالباً أصفر ليموني ـ، وسؤالهم (جيد هكذا؟) في أثناء تقطيع الخبز على الخشبة (تعرفون أن الأوربيين يأكلون خبزاً أقل من هنا بكثير.)، ومناظر جبال الألب الجميلة على الجدران.»

رأى كا حينئذ أن كحلياً ينظر إليه بقرف واضح، فقال كا: «بعد ثلاثة أشهر حمل أحد الأصدقاء أخباراً جديدة من تركيا. وبذريعة إيصال أخبار هذا التعذيب السافل، والقمع، والظلم اتصلت بهانس هانسن. استمع إليّ متيقظاً، وكان رقيقاً ولطيفاً جداً أيضاً. ونشره في خبر صغير. لم تكن تهمني أخبار التعذيب والموت هذه. كنتُ أريد أن يتصل بي. ولكنه لم يتصل بي مرة أخرى. يخطر ببالي أحياناً أن أكتب لهانس هانسن رسالة أقول فيها: ترى أين أخطأت، ولماذا لم تتصلوا بي؟»

تمثيل كا أنه يبتسم من نفسه لم يُرح كحلي.

قال ساخراً: «الآن سيكون لديك ذريعة لتتصل به.»

قال كا: «ولكن من أجل أن ينشر الخبر في الجريدة يجب الالتزام بالمقاييس الألمانية وتحضير بيان مشترك.»

«من سيكون القومي الكردي والشيوعي الليبرالي اللذيّن يجب أن أكتب البيان معهما؟»

قال كا: «إذا كنتم قلقين من أن يكونوا من الشرطة، فاختاروهم أنتم.»

«هنالك كثير من الشباب الأكراد تمتلئ قلوبهم بالغضب مما يتعرض له زملاؤهم في ثانوية الأئمة والخطباء. ومما لا شك فيه أن القومي الكردي بنظر الصحفي الغربي ليس الإسلامي، يفضل أن يكون ملحداً. يمكن لشاب كردي أن يمثل الأكراد بهذا البيان.»

قال كا: «حسنٌ، رتبوا أمر ذلك الطالب الشاب أنتم. يمكنني القول بأن (فرانكفورتر روندشاو) ستقبل به.»

قال كحلي ساخراً: «طبعاً، كيفما كان فإنكم بيننا تمثلون الغرب.»

لم يهتم كا أبداً، قال: «الشيوعي السابق ـ الديمقراطي الجديد المناسب أكثر هو السيد طورغوت.»

قالت قديفة قلقة: «أبي؟»

حين وافق كا على هذا قالت قديفة بأن أباها لا يخرج أبداً من البيت.

وبدؤوا بالحديث جميعاً معاً. وشرح كحلي بأن السيد طورغوت في الحقيقة ليس ديمقراطياً مثل الشيوعيين السابقين كلهم، ولابد أنه يقابل الانقلاب العسكري بامتنان لأنه يُخمد الإسلاميين، يتلاعب بتظاهره معادياً له كي لا يدنس اليسارية.

قالت قديفة: «أبي ليس متلاعباً.»

من خلال الارتجاف في صوتها، والغضب الذي قدح فوراً في عيني كحلي شعر كا بسرعة أنهما على وشك إحدى المشاجرات المتكررة كثيراً بينهما. وفهم كا أنهما مثل زوجين تَعِبا من المشاجرات وقد استنفدت محاولاتهما لإخفائها عن الآخرين. ورأى في قديفة حالة التهلّل، والعزم على إطلاق الجواب مهما كلف الأمر، وهذا خاص بالنساء العاشقات، أما كحلي فتبدو عليه ملامح غرور ممزوجة بشفقة أكثر من عادية. ولكن في لحظة تغير كل شيء، وبدا تصميم في عيني كحلي.

قال كحلي: «أبوك في الحقيقة مثل الملحدين المباهين والمخبولين اليساريين المعجبين بأوربا واحد متلاعب وكاره للشعب.»

اختطفت قديفة منفضة سجائر (كهرباء إسين) وقذفتها نحو كحلي. ولكن من الواضح أنها تقصدت عدم التصويب. اصطدمت المنفضة بمنظر البندقية على التقويم المعلق على الجدار وسقطت دون صوت. قال كحلي: «غير هذا فإن أباك يتجاهل أن ابنته عشيقة سرية لإسلامي راديكالي.»

بعد أن لكمت قديفة كتف كحلي بقبضتها بشكل خفيف بدأت تبكي. وبينما كان كحلي يُجلسها على كرسي جانباً، تحدثا بصوت مفتعل إلى حد أن كا كاد يشعر بأن ما جرى كله عبارة عن مسرحية نظمت من أجل التأثير عليه.

قالت قديفة: «اسحب كلامك.»

قال كحلي مشفقاً كأنه يرضي طفلاً باكياً: «أسحب كلامي. ولإثبات هذا سأوقع بياناً مع والدك دون أن أبالي أنه شخص يروي نكات الزنادیق صباح مساءَ. ولكنني لا أستطيع الذهاب إلى فندقكم خشية أن يكون هذا الأمر فخاً نصبه لنا ممثل هانس هانسن، وابتسم لكا. هل تفهمين يا روحي؟»

قالت قديفة بصوت فتاة مدللة أدهش كا: «وأبي أيضاً لا يخرج من الفندق. فقر قارص يحطم معنوياته.»

قال كا مانحاً صوته لوناً رسمياً لم يمنحه من قبل في حديثه معها: «أقنعي أباك بأن يخرج. الثلج غطى كل شيء.» والتقت عيناه بعينيها.

تفهمت قديفة هذه المرة، فقالت: «ولكن يجب إقناع والدي أولاً بالتوقيع على بيان مع إسلامي وقومي كردي قبل إقناعه بالخروج من الفندق. من سيفعل هذا؟»

قال كا: «أنا أفعله، وأنتِ تساعدينني.»

سألت قديفة: «أين سيلتقون؟ وماذا سيحدث فيما لو اعتقل أبي المسكين بعد هذا العمر بسبب هذه الأمور التافهة، ودخل السجن؟»

قال كحلي: «ليست تافهة. إذا نشر خبر أو اثنان في جرائد أوربا، فإن أنقرة تشد الذين هنا من آذانهم، ويتوقفون قليلاً.»

قالت قديفة: «القضية هي ظهور اسمك أكثر من نشر الخبر في جرائد أوربا»

حين نجح كحلي بالابتسام لهذا بتسامح وحلاوة شعر كا نحوه بالاحترام. هذه هي المرة الأولى التي خطر بباله فيها بأنه لو نشر تصريحه في (فرانكفورتر روندشاو) فإن صحف الإسلاميين الصغيرة في اسطنبول سيترجمونه ممتدحين له ومبالغين به. وهذا يعني شهرة كحلي في تركيا كلها. خيم صمت طويل. أخرجت قديفة منديلاً، ومسحت عينيها. شعر كا بأنهما فور خروجه سيتشاجران بداية ثم يمارسان الحب. هل يريدان خروجه في أقرب وقت ممكن؟ ثمة طائرة تمر في الأعالي الشاهقة. وجه الجميع أعينهم نحو السماء التي تبدو من القسم العلوي للنافذة وأنصتوا.

قالت قديفة: «في الحقيقة إنه لا تمر طائرة من هنا.»

قال كحلي: «ثمة أمر غير عادي.» بعد ذلك ابتسم من أوهامه. وحين انتبه إلى أن كا أيضاً قد ابتسم صار عدوانياً وقال: «درجة الحرارة أكثر من عشرين تحت الصفر بكثير، ويقولون بأن الدولة تعلن أن درجة الحرارة عشرون تحت الصفر.» ونظر إلى كا كأنه يتحداه.

قالت قديفة: «كنت أريد أن تكون لي حياة عادية.»

قال كحلي: «أنت رفست حياة البورجوازية العادية، وهذا ما جعلك إنسانة استثنائية.»

«أنا لا أريد أن أكون استثنائية. أريد أن أكون مثل أي إنسان. لولا الانقلاب لعلني كنت سأكشف رأسي وأصير مثل الجميع.»

قال كحلي: «كلهن هنا يغطين رؤوسهن.»

«هذا ليس صحيحاً. في محيطي، والنساء المتعلمات مثلي أغلبهن لا يغطين رؤوسهن. إذا كانت المسألة أن أكون مثل الجميع وعادية، فإنني ابتعدت تماماً عن شبيهاتي بتغطية رأسي. وفي هذا جانب تباهٍ ولست مسرورة منه.»

قال كحلي: «إذا كشفت رأسك غداً، سيعتبر هذا الجميع انتصاراً للانقلاب العسكري.»

قالت قديفة: «الجميع يعرف أنني لا أعيش وفق ما يفكر به الجميع مثلك.» وامتقع وجهها بالحمرة متعة.

كحلي أيضاً ابتسم لهذا بشكل حلو، ولكن كا رأى هذه المرة في وجهه أنه استخدم إرادته كلها. وكحلي أيضاً رأى أن كا قد رأى هذا. وهذا استجرار إلى مكان لا يريد المجيء إليه، إلى عتبة حرمة كحلي وقديفة. وبينما كانت تعاند كحلياً بصوت شبه مشاكس ـ في الحقيقة إنها تطرح علناً الحرمة التي بينها وبينه، وهكذا فهي حين تجرحه من الجانب الضعيف فيه ـ شعرت بأن كا شهد أنها سقطت في وضع المذنبة. لماذا خطر بباله الآن رسائل العشق التي أعطاه إياها نجيب والتي ما زالت منذ الليلة الماضية في جيبه؟

وبموقف الطائشة نفسه قالت قديفة: «لا يظهر اسم أية امرأة تتعذب أو تفصل من المدرسة بسبب غطاء رأسها. وتظهر في الجرائد صور الريفيين المحتاطين شبه النائمين الإسلاميين المتحدثين مكان صور النساء اللواتي يفقدن حياتهن بسبب أغطية رؤوسهن. وإذا كانت المرأة المسلمة زوجة رئيس بلدية أو ما شابه ذلك فتظهر في الجرائد بمناسبة احتفالات الأعياد لأنها بجانبه فقط. هذا يجعل ظهورهن في الجرائد هو الذي يحزنني، وليس عدم ظهورهن. وفي الحقيقة أنني أشفق على أولئك الرجال المساكين الذين يبذلون الجهود من أجل عمل الدعاية لأنفسهم بينما نعاني نحن من مصاعب حماية حرمتنا. هذا ما يجعلني أعتقد بضرورة الكتابة عن الفتيات المنتحرات غير هذا فأنا أشعر بأنني صاحبة حق بتقديم بيان لهانس هانسن.»

قال كا دون أن يفكر أبداً: «هذا جيد جداً. يمكنك أن توقعيه باعتبارك ممثلة للمسلمات النسويات.»

قالت قديفة: «لا أريد تمثيل أحد. أريد الوقوف هناك مقابل الأوربيين بحكايتي، وحدتي، وذنوبي وتقصيراتي كلها فقط. أحياناً يريد الإنسان أن يحكي حكايته كلها لشخص لا يعرفه، وهو واثق من عدم رؤيته مرة أخرى، أن يحكي كل شيء... قديماً تهيأ لي وأنا أقرأ روايات أوربا بأن الأبطال حكوا للكتّاب بهذه الطريقة. أريد أن يقرأ بضعة أشخاص في أوربا حكايتي على هذا النحو.»

حدث انفجار في مكان قريب، فاهتز البيت كله، وارتجف الزجاج. ونهض كحلي وكا خوفاً مدة ثانية أو ثانيتين.

قالت قديفة: «لأذهب أنا وأرى.» وكانت تبدو الأكثر تماسكاً بينهم.

فتح كا ستارة النافذة قليلاً، وقال: «الحوذي غير موجود. ذهب.»

قال كحلي: «بقاؤه هنا خطر. حين تذهب تخرج من الباب الجانبي للباحة.»

شعر كا بأن هذا يعني «اذهب.» ولكنه لم يتحرك من مكانه منتظراً. تبادل الجميع نظرات الكره. تذكر كا الخوف الذي كان يشعر فيه أيام الجامعة حين يلتقي بطلاب قوميين متطرفين مسلحين في ممر فارغ ومظلم، ولكنه لم يكن هنالك في الجو توتر جنسي.

قال كحلي: «يمكن أن تكون لدي عقدة الشك، ولكن هذا لا يعني أنك لست جاسوساً للغرب. وعدم معرفتك أنك عميل، وعدم وجود نية لك كهذه لا يغيرّ هذا الوضع. الغريب الذي بيننا هو أنت. والشكوك والمواقف الغريبة التي خلقتها لدى هذه الفتاة الكاملة الإيمان دون إدراكها، دليل على هذا. لعلك ابتسمت ساخراً منا في سرك، وأطلقت علينا أحكاماً من خلال نظراتك كغربي معجب بنفسه... أنا لا أهتم لهذا، وقديفة أيضاً لم تكن لتهتم، ولكنك أدخلت بيننا وعد الأوربي بالسعادة، وخيال الاستقامة مع براءتك، ولخبطتَ عقولنا. أنا لا أغضب منك لأنك مثل الناس الطيبين تعمل السوء دون أن تدرك نفسك. ولكنني بعد أن قلتُ لك هذا ما عدت بريئاً بعد الآن.»

[٢٧]

اصمدي يا ابنتي، الدعم قادم من قارص

كا يحاول إشراك السيد طورغوت بالبيان

حين خرج كا من البيت دخل إلى السوق عبر الباحة التي تطل عليها ورشات الصيانة دون أن يراه أحد. دخل إلى دكان بيع الجوارب والقرطاسية وأشرطة التسجيل الذي سمع البارحة منه (روبيرتا) لـ (ببينو دي كابري)، وناول للشاب البائع المقطب الحاجبين الشاحب الوجه الرسائل التي كتبها نجيب لقديفة صفحة صفحة طالباً منه نسخها. ولهذا كان لابد من تمزيق المظروفات. بعد ذلك وضع الصفحات الأصلية بمظروفات رخيصة كالحة من النوع نفسه، وكتب عليها (قديفة يلضنر) مقلداً خط نجيب.

سار نحو الفندق بخطوات سريعة متجلياً أمام عينيه خيال إيبك المحارب من أجل سعادته الكاذب والمتحايل في هذا السبيل وهو يناديه. عاد الثلج إلى الندف ندفاً كبيرة. شعر كا بانهماك مهلهل محطم لمساء عادي في الأزقة. في الزاوية التي ضيقتها كومات الثلج بين زقاق طريق القصر وشارع خالد باشا سدت الطريق عربة محملة بالفحم يجرها حصان متعب. ماسحات زجاج الشاحنة خلفها تمسح الزجاج بصعوبة. ثمة حزن خاص بمساءات طفولته الرصاصية الشتوية في جو يهرع فيه الجميع حاملين بأيديهم أكياس نايلون، ولكنه شعر بنفسه مصمماً كأنه يبدأ يومه للتو.

صعد إلى غرفته فوراً. خبأ صور رسائل نجيب في قعر حقيبته. خلع معطفه وعلقه. غسل يديه بانتباه عجيب. وبدافع غريزي نظّف أسنانه(كان يفعل هذا مساء). ونظر مطولاً إلى الخارج عبر النافذة معتقداً أن قصيدة جديدة تأتيه. ومن جهة أخرى كان يستفيد من حرارة التدفئة المركزية عند طرف

النافذة. وبدلاً من الشعر خطر له بعض ذكريات طفولته وشبابه التي نسيها: «الرجل القذر» الذي لحق بأمه وبه حين خرجا في صباح ربيعي إلى (بيه أوغلو) لشراء أزرار... غياب سيارة الأجرة التي أقلت أباه وأمه إلى المطار من أجل أن يسافرا إلى أوربا عند زاوية (نيشان طاش)... ومعاناته من آلام البطن عشقاً لعدم معرفته الطريقة التي سيلتقي بها الفتاة الممشوقة ذات الشعر الطويل والعينين الخضراوين التي تعرّف إليها في حفلة في (الجزيرة الكبيرة) ورقص معها ساعات طويلة... لم يكن ثمة علاقة بين هذه الذكريات، والآن يدرك كا أن تلك الذكريات هي مجرد أحداث عادية لا معنى لها ولا علاقة بينها خارج الحياة والعشق.

نزل إلى أسفل. وبتصميم من قرر القيام بهذه الزيارة منذ سنوات، وببرودة أعصاب دهش منها هو نفسه أيضاً طرق باب قسم صاحب الفندق الأبيض الذي يفصله عن الصالة. شعر بأن الخادمة الكردية قابلته «بشبه غرابة واحترام» كما في رواية (تور غنييف). وبينما كان داخلاً إلى الصالة التي تناول فيها الطعام الليلة الماضية رأى السيد طورغوت وإيبك جالسين متجاورين على ديوانة مسندها باتجاه الباب يتابعان التلفزيون.

قال السيد طورغوت: «أين تأخرت يا قديفة، إنه بدأ.»

بدت غرفة البيت الروسي القديم الواسعة والمرتفعة السقف في ضوء الثلج الأبيض الباهت وكأنها مكان مختلف تماماً عن المكان الذي كان بالأمس.

حين أدرك الأب وابنته بأن الداخل هو كا قلقا كزوجين انتهك غريب حرمة خلوتهما. بعد ذلك مباشرة سر كا برؤيته بريق عيني إيبك. جلس على مقعد باتجاه التلفزيون المفتوح، والأب والبنت في آن واحد، ورأى مندهشاً أن إيبك أجمل مما هي عليه في ذاكرته. وهذا كان يضخم الخوف في داخله، ولكنه يجعله يؤمن بأنه في النهاية سيكون سعيداً معها.

قال السيد طورغوت خجلاً قليلاً، وبتعبير أنه لا يقدم حساباً لأحد: «أنا أتابع كل مساء في الساعة الرابعة مع ابنتي مسلسل (ماريانا).»

ماريانا مسلسل ميلودرامي مكسيكي محبوب في تركيا كلها تبثه إحدى القنوات التلفزيونية الكبرى في اسطنبول على مدى خمسة أيام في الأسبوع.

آسيا، وبأنه يمكن الدخول إلى الفندق دون الظهور لأحد لو تم الخروج من الباب الخلفي للسوق، وعُبر إلى الباحة من الباب الخلفي للدكان المجاور له.

أجابه السيد طورغوت قائلاً: «يجب أن نري العالم أن هنالك ديمقراطيين أيضاً في تركيا.» ولأن بقية المسلسل بدأت أنهى الحديث بسرعة. وقبل أن تظهر ماريانا على الشاشة نظر إلى ساعته، وسأل قائلاً: «أين بقيت قديفة؟»

تابع كا ماريانا صامتاً مثل الأب وابنته.

في إحدى اللحظات صعدت ماريانا الدرج وهي تتحرق بهموم العشق، وحين وثقت بأن أحداً لن يراها عانقت حبيبها. لم يتبادلا القبل، ولكنهما فعلا ما أثر على كا بشكل أكبر: احتضنا بعضهما بعضاً بقواهما كلها. وفي الصمت المستمر طويلاً فهم أن قارص كلها، ومن في السوق عاد إلى البيت، والأزواج مع زوجاتهم، وبنات الإعدادية مع المسنين المتقاعدين يتابعون هذا المسلسل، وأن الشوارع كلها في تركيا خاوية تماماً بسبب هذا المسلسل. وأدرك في اللحظة ذاتها أن حياته الجافة تماماً، والبعيدة عن المشاعر التي يعرضها هذا المسلسل هي بسبب حياته الثقافية الساخرة، والهموم السياسية، وادعاءات السمو الثقافي وهي نتيجة خبله. إنه في تلك اللحظة واثق أن كحلياً وقديفة بعد أن مارسا الحب جلسا في زاوية متحاضنين متمددين، ويتابعان بحب ماريانا.

حين قالت ماريانا لحبيبها: «انتظرت هذا اليوم طوال حياتي.» شعر بأن تقديم هذه الكلمة أفكاره الخاصة ليس بالمصادفة. حاول أن تلتقي عيناه بعيني إيبك. أسندت حبيبته رأسها إلى صدر أبيها، وركزت عينيها المغرورقتين بالدموع الواسعتين على الشاشة، وتركت نفسها بإرادة للمشاعر التي يقدمها المسلسل.

قال حبيب ماريانا الوسيم النظيف الوجه: «ولكنني قلق أيضاً. لن تسمح أسرتي بأن نكون معاً.»

قالت ماريانا المتفائلة: «مع حب كل منا للآخر يجب ألا يكون هنالك ما يخيفنا.»

تدخل السيد طورغوت قائلاً: «عدوك الحقيقي هذا الرجل يا ابنتي!»

قالت ماريانا: «أريدك أن تحبني دون خوف أبداً.»

حين نظر كا معانداً إلى عيني إيبك نجح بأن تلتقي نظرتاهما، ولكن

آسيا، وبأنه يمكن الدخول إلى الفندق دون الظهور لأحد لو تم الخروج من الباب الخلفي للسوق، وعُبر إلى الباحة من الباب الخلفي للدكان المجاور له.

أجابه السيد طورغوت قائلاً: «يجب أن نري العالم أن هنالك ديمقراطيين أيضاً في تركيا.» ولأن بقية المسلسل بدأت أنهى الحديث بسرعة. وقبل أن تظهر ماريانا على الشاشة نظر إلى ساعته، وسأل قائلاً: «أين بقيت قديفة؟»

تابع كا ماريانا صامتاً مثل الأب وابنته.

في إحدى اللحظات صعدت ماريانا الدرج وهي تتحرق بهموم العشق، وحين وثقت بأن أحداً لن يراها عانقت حبيبها. لم يتبادلا القبل، ولكنهما فعلا ما أثر على كا بشكل أكبر: احتضنا بعضهما بعضاً بقواهما كلها. وفي الصمت المستمر طويلاً فهم أن قارص كلها، ومن في السوق عاد إلى البيت، والأزواج مع زوجاتهم، وبنات الإعدادية مع المسنين المتقاعدين يتابعون هذا المسلسل، وأن الشوارع كلها في تركيا خاوية تماماً بسبب هذا المسلسل. وأدرك في اللحظة ذاتها أن حياته الجافة تماماً، والبعيدة عن المشاعر التي يعرضها هذا المسلسل هي بسبب حياته الثقافية الساخرة، والهموم السياسية، وادعاءات السمو الثقافي وهي نتيجة خبله. إنه في تلك اللحظة واثق أن كحلياً وقديفة بعد أن مارسا الحب جلسا في زاوية متحاضنين متمددين، ويتابعان بحب ماريانا.

حين قالت ماريانا لحبيبها: «انتظرت هذا اليوم طوال حياتي.» شعر بأن تقديم هذه الكلمة أفكاره الخاصة ليس بالمصادفة. حاول أن تلتقي عيناه بعيني إيبك. أسندت حبيبته رأسها إلى صدر أبيها، وركزت عينيها المغرورقتين بالدموع الواسعتين على الشاشة، وتركت نفسها بإرادة للمشاعر التي يقدمها المسلسل.

قال حبيب ماريانا الوسيم النظيف الوجه: «ولكنني قلق أيضاً. لن تسمح أسرتي بأن نكون معاً.»

قالت ماريانا المتفائلة: «مع حب كل منا للآخر يجب ألا يكون هنالك ما يخيفنا.»

تدخل السيد طورغوت قائلاً: «عدوك الحقيقي هذا الرجل يا ابنتي!»

قالت ماريانا: «أريدك أن تحبني دون خوف أبداً.»

حين نظر كا معانداً إلى عيني إيبك نجح بأن تلتقي نظرتاهما، ولكن

المرأة هربت بعينيها فوراً. وفي فاصل إعلاني التفتت إلى أبيها، وقالت: «أبي العزيز. أنا أرى أن ذهابكم إلى فندق آسيا خطير.»

قال السيد طورغوت: «لا تقلقي.»

«أنتم قلتم وعلى مدى سنوات طويلة بأن منع التجول في قارص يجلب دائماً سوء الطالع.»

قال السيد طورغوت: «إذا لم أذهب إلى هناك فيجب عليّ ألا أذهب بسبب مبدأ، وليس لأنني خائف.» والتفت إلى كا وأضاف: «السؤال هو: أنا الآن باعتباري شيوعياً، حداثوياً، علمانياً، ديمقراطياً، وطنياً فهل عليّ أن أؤمن أولاً بالتنوير أم بإرادة الشعب؟ إذا كنتُ مؤمناً بالتنوير والتغريب حتى النهاية فيجب عليّ أن أدعم هذا الانقلاب العسكري. أما إذا كانت إرادة الشعب قبل كل شيء، وإذا غدوت ديمقراطياً صرفاً فعلي إذن أن أوقع ذلك البيان. بأيهما تؤمنون أنتم؟»

قال كا: «قفوا إلى جانب المظلوم، واذهبوا لتوقيع البيان.»

«لا تكفي الكينونة مظلوماً، يجب أن يكون الأمر حقاً. غالبية المظلومين غير محقين إلى درجة العبثية. بماذا علينا أن نؤمن؟»

قالت إيبك: «هو لا يؤمن بأي شيء.»

قال السيد طورغوت: «كل شخص يؤمن بشيء ما. لطفاً تكلموا عما تفكرون به.»

حاول كا أن يشرح بأن السيد طورغوت إذا وقّع على البيان سيكون هنالك في قارص قليل من الديمقراطية. والآن يشعر مرتبكاً بأن هنالك احتمالاً قوياً ألا تذهب معه إيبك إلى فرانكفورت، ويخشى من عدم إقناع السيد طورغوت وإخراجه من الفندق. وشعر بداخله بالحرية المدوّخة التي يمنحها ذكره الأشياء التي يؤمن بها وكأنه غير مؤمن بها. وبينما كان يتمتم بما يعرفه كل من يؤيد البيان، والديمقراطية وحقوق الإنسان رأى في عيني إيبك إشعاعاً يدل على أنها غير مصدقة لما يقوله كله. ولكن هذا الإشعاع لم يكن معيّباً أخلاقياً، بل على العكس من ذلك فهو مثير، ومحمّل بالجنس. كانت تقول: «تقول هذا الكذب كله لأنك تريدني. أعرف هذا.» وهكذا بعد اكتشافه أهمية الحساسية الميلودرامية مباشرة، قرر أنه اكتشف حقيقة كبرى أخرى لم يفهمها

طوال حياته: يمكن أن تجد بعض النساء الرجالَ غير المؤمنين بشيء في الحياة سوى الحب جذابين جداً. . . وبانفعال هذه المعلومة الجديدة قدم حديثاً طويلاً حول حقوق الإنسان، وحرية الفكر، والديمقراطية وما شابه ذلك. وبينما كان يكرر منفعلاً باحتمال ممارسته الحب مع إيبك العبارات المستهلكة حول حقوق الإنسان التي يكررها بعض المثقفين الأوربيين الذين يبدو عليهم الخبل لحسن نيتهم الشديد، والمقلدون الأتراك لهم ركز عينيه على عينيها.

مع انتهاء الإعلانات قال السيد طورغوت: «الحق معك. أين تأخرت قديفة.»

مع استمرار المسلسل كان السيد طورغوت قلقاً. فهو يريد الذهاب إلى فندق آسيا من جهة، ويخاف من جهة أخرى. وفي أثناء متابعته لماريانا ذكر بشكل بطيء كعجوز ضاع بين ذكرياته وخيالاته ـ ذكر ـ ذكرياته السياسية، ومخاوفه من الدخول إلى السجن، ومسؤوليات الإنسان. وفهم كا بان إيبك غاضبة من جهة لأنه جره إلى هذا القلق والخوف، ومعجبة به من جهة أخرى لأنه أقنعه. ولم يهتم لهروبها بعينيها، كما أنه لم يغضب منها لاحتضانها أبيها عندما انتهت حلقة المسلسل، وقولها: «لا تذهبوا إذا لم يكن لكم إرادة. لقد عانيتم من الألم من أجل الآخرين ما يكفي.»

رأى كا على وجه إيبك شكّاً، ولكن قصيدة جديدة سعيدة خطرت بباله. جلس صامتاً على الكرسي المجاور لباب المطبخ والذي كانت تجلس عليه قبل قليل السيدة زاهدة وهي تتابع ماريانا باكية، وكتب القصيدة التي أُلهِمَ بها بتفاؤل.

وبينما كان ينهي قصيدته التي سيضع لها بعد وقت طويل عنواناً هو: «سأكون سعيداً» دون أي نقص، دخلت قديفة مسرعة دون أن تراه. قفز السيد طورغوت من مكانه، واحتضنها، وقبلها، وسألها عن سبب تأخرها، وسبب برودة يديها إلى هذا الحد. ذرفت دمعة من عينها. قالت قديفة بأنها ذهبت إلى هاندا وتأخرت بالخروج من عندها، ولأنها لم ترد تفويت ماريانا فقد تابعتها هناك. قال السيد طورغوت: «كيف حال ابنتنا؟» (يقصد ماريانا) ولكنه قبل أن يتلقى جوابها انتقل إلى الموضوع الآخر وقد لف جسده كله القلق، وكرر مسرعاً ما سمعه من كا.

لم تبق قديفة عند حدود التصرف وكأنها تسمع هذا الموضوع أول مرة، بل تصنعت أنها استغربت كثيراً وجود كا هنا حين رأته في الطرف الآخر من الغرفة. وبينما كانت تغطي رأسها المكشوف قالت: «سررت كثيراً لرؤيتي لك هنا.» ولكنها دون أن تغطيه جلست مقابل التلفزيون وبدأت تنصح أباها وكان موقف قديفة المندهش مقنعاً إلى حد تفكير كا بأنها تمثل على أبيها حين بدأت بعد ذلك بإقناعه بتوقيع البيان، وذهابه إلى الاجتماع. وبما أن كحلياً أيضاً يريد للبيان أن يغدو في حالة يمكن نشره فيها خارج البلد فإنه محق في هذا الشك، ولكنه فهم من الخوف الظاهر على وجه إيبك بأن هنالك سبباً آخر.

قالت قديفة: «أنا أيضاً سأذهب معك إلى فندق آسيا يا أبي العزيز.»

وبأداء كأنه خارج من المسلسلات التي يتفرج عليها، والروايات التي قرؤوها معاً قال السيد طورغوت: «لا أريد أبداً أن يقع لك مكروه بسببي.»

قالت إيبك: «أبي العزيز، لعل تدخلكم في هذا الموضوع سيكون بمثابة دخولكم مخاطرة لا ضرورة لها.»

بينما كانت إيبك تحدث أباها شعر كا بأنها توجه إليه بعض الأمور، وهي في الحقيقة تتكلم كلاماً مزدوج المعنى ككل من في الغرفة، وهروبها بعينيها أحياناً، وتركيز نظرها في أحيان أخرى هو من أجل إبراز المعنى المزدوج هذا. وبعد وقت طويل سينتبه إلى أن كل من قابله في قارص ـ عدا نجيب ـ يتحدث بكلام مزدوج المعنى بتناغم غريزي، وسأل نفسه عما إذا كان هذا يتعلق بالفقر أو الخوف أو الوحدة، أو بساطة الحياة. كان كا يرى في قول إيبك: «لا تذهبوا يا أبي العزيز.» استفزازاً له، وفي ذكر قديفة للبيان وارتباطها بأبيها ارتباطاً بكحلي.

بعد ذلك تدخل فيما سيسميه «الحديث المزدوج المعنى الأعمق لحياتي.». شعر بقوة أنه إذا لم يقنع السيد طورغوت الآن بالخروج من الفندق فلن يضاجع إيبك أبداً، وقرأ هذا في عيني إيبك المتحديتين، وقرر بأن هذه هي فرصته الأخيرة في الحياة ليكون سعيداً. حين بدأ الحديث أدرك فوراً أن الأفكار والعبارات الضرورية لإقناع السيد طورغوت هي في الوقت نفسه الأفكار والعبارات التي جعلت حياته تذهب هباء. وهذا أيقظ في نفسه إرادة الانتقام من المثل اليسارية لشبابه التي نسيها دون أن ينتبه لنفسه. وبينما كان

يذكر الشعور بالمسؤولية تجاه فقر البلد وهمومه، والتصميم على التحضر، ومشاعر التضامن بشكل غير واضح تماماً من أجل إقناع السيد طورغوت بالخروج من الفندق شعر بصدق غير متوقع في داخله. تذكر انفعالات شبابه اليسارية، وتصميمه على الكينونة بورجوازياً تركياً عادياً وسيئاً مثل الآخرين، وتوقه للعيش بين الأفكار والكتب. وهكذا أعاد على السيد طورغوت بانفعال عشرين سنة عقائده التي جعلته يحزن أمه التي عارضت أن يكون شاعراً وهي على حق، والتي سممت حياته كلها، وفي النهاية سببت نفيه إلى جحر فأرة في فرانكفورت. وكان يشعر بان العنف الذي في كلامه يعني قوله لإيبك: «أريد أن أمارس معك الحب بهذا العنف.» كان يفكر بأن عبارات اليسارية هذه التي جعلت حياته كلها في أرذل حال ستفيد نهاية في أمر ما، وأنه بفضل هذه العبارات سيمارس الحب مع إيبك، وهو لم يعد يؤمن بها في الوقت الذي يعتبر فيه أن السعادة الكبرى في الحياة هي احتضان فتاة جميلة وذكية، وإمكانيته كتابة قصيدة في زاوية ما.

قال السيد طورغوت بأنه سيذهب إلى فندق آسيا «فوراً الآن.» وانسحب إلى غرفته مع قديفة من أجل أن يرتدي ثيابه ويحضر نفسه.

اقترب كا من إيبك الجالسة حيث تتابع التلفاز مع أبيها قبل قليل. كانت حتى تلك اللحظة تجلس وكأنها تستند إلى أبيها. همس لها كا قائلاً: «سأنتظرك في غرفتي.»

قالت إيبك: «هل تحبني؟»

«أحبك كثيراً.»

«وهل هذا صحيح؟»

«صحيح جداً.»

سكتا برهة. تابع نظرة إيبك، ونظر عبر النافذة. كان الثلج قد بدأ يندف مجدداً. أُنير مصباح الشارع أمام الفندق، وعلى الرغم من إضاءته ندف الثلج، ولكن بسبب عدم حلول الظلام يبدو أنه منار دون جدوى.

قالت إيبك: «أنت اصعد إلى غرفتك. عندما يذهبان سآتيك.»

[٢٨]

الشيء الذي يفصل بين ألم الانتظار والعشق

كا وإيبك في غرفة الفندق

ولكن إيبك لم تأت فوراً. وهذا من أكبر التعذيبات في حياة كا. تذكر أنه خاف أن يكون عاشقاً، وبسبب الألم الساحق الذي يمنحه هذا الانتظار فور صعوده إلى الغرفة رمى بنفسه على السرير بداية، ثم نهض بسرعة ورتب نفسه. غسّل يديه، وشعر بأن الدم ينشف في عروق يديه وذراعيه وشفتيه. مشط شعره بيديه المرتجفتين، بعد ذلك نظر إلى مشهده المعكوس عبر الزجاج وخربه. ورأى أن هذا قد استغرق وقتاً قليلاً جداً فبدأ ينظر عبر النافذة إلى الخارج مرتعداً.

يجب أن يرى من النافذة أولاً خروج السيد طورغوت وقديفة. ولعلهما خرجا حين دخل كا إلى دورة المياه. ولكنهما لو خرجا في ذلك الوقت كان على إيبك أن تصعد حتى تلك اللحظة. ولعل إيبك الآن تندهن بالروائح والأصباغ التي رآها بالأمس في غرفتها محضرة نفسها ببطء شديد. كم استهلاكها خاطئ للزمن الذي سيقضيانه معاً بهذه الأمور التافهة. ألم تكن تعرف كم يحبها؟ ليس ثمة ما يستحق هذا الألم غير المحتمل مثل الانتظار في ذلك الوقت. سيقول هذا لإيبك حين تأتي. ولكنها هل ستأتي؟ كان في كل لحظة يؤمن كثيراً بأن إيبك غيرت رأيها، ولن تأتي.

رأى عربة خيل اقتربت من الفندق، وبمساعدة (جاويت) القائم على عمل الاستقبال، والسيدة زاهدة ركب السيد طورغوت الذي كان يتقدم متكئاً على قديفة، ثم سُحب الغطاء النايلوني مغطياً جوانب العربة. ولكن العربة لم

تتحرك. ندف الثلج التي تبدو أكبر مما هي عليه في ضوء مصباح الشارع تراكمت على غطاء العربة بسرعة وهي تقف هكذا. تهيأ لكا بأن الزمن أيضاً قد توقف، واعتقد أنه سيجن. فجأة جاءت زاهدة إلى العربة راكضة، ومدت نحو العربة شيئاً لم يره كا. حين تحركت العربة تسرع خفقان قلب كا.

ولكن إيبك لم تأت أيضاً.

ما الذي يفصل بين ألم الانتظار والعشق؟ ألم الانتظار كألم العشق تماماً يبدأ في مكان ما بين أعلى معدته وعضلات بطنه، ومن هذا المركز ينتشر إلى صدره وأعلى فخذيه وجبينه محتلاً لها، ويخدر جذعه كله. استمع إلى حركة الفندق الداخلية ليتوقع ما تفعله إيبك في تلك اللحظة. اعتقد أن المرأة المارة في الشارع والتي لا تشبه إيبك أبداً أنها إيبك. يالجمال الندف! يالجمال نسيان الانتظار لحظة! حين كان صغيراً، وينزل إلى صالة الطعام من أجل اللقاح، ويشمر عن ساعده وسط رائحة المعقم والقلي وينتظر في الدور كانت بطنه تؤلمه هكذا، ويريد أن يموت. يريد أن يكون في البيت، في غرفته. كان يريد أن يكون في غرفته السيئة في فرانكفورت. يالكبر الخطأ الذي ارتكبه بالمجيء إلى هنا! حتى الشعر لا يخطر له الآن. لم يكن يستطيع النظر حتى إلى الثلج النادف على الشارع الخاوي من الألم. رغم هذا جميل أن يقف خلف النافذة الدافئة في أثناء ندف الثلج. هذا الوضع أفضل من الموت. لأنه ممكن أن يموت إذا لم تأت إيبك.

قطع التيار الكهربائي.

رأى أن هذه إشارة مرسلة إليه. يمكن أن تكون إيبك لم تأت لمعرفتها بأن التيار الكهربائي سينقطع. كانت عيناه تبحثان عن حركة تتسليان بها في الزقاق المظلم تحت الثلج، عن شيء يفسّر عدم مجيء إيبك حتى تلك اللحظة. رأى هناك شاحنة. هل كانت شاحنة عسكرية؟ لا، إنها مخاتلة، والآن الأصوات المنبعثة من الدرج هكذا. لن يأتي أحد. انسحب من وراء النافذة، ورمى بنفسه على السرير مستلقياً على ظهره. تحول ألم بطنه إلى ألم قوي عميق، إلى يأس محمل بالندم، وفكر بأنه سيموت من الوحدة. ولن يجد في نفسه القوة للدخول في جحر الفأرة الصغير الذي في فرانكفورت. ما يؤلم داخله، ويقهره ليس كونه تعيساً إلى هذا الحد، بل فهمه بأنه لو تصرف

بعقلانية قليلاً لمرت حياته بسعادة أكبر بكثير. لو أن أحداً لم ينتبه إلى خوفه وتعاسته ووحدته. لو كانت قد انتبهت إيبك لصعدت دون أن تجعله ينتظر إلى هذا الحد! لو رأت أمه حالته هذه لحزنت وحدها في هذا العالم، ومسحت على شعره وخففت عنه. تبدو له الأضواء المائلة إلى اللون البرتقالي داخل البيوت، وألوان قارص الشاحبة من وراء النوافذ المتجلدة. أراد أن يندف الثلج بهذه السرعة على مدى أيام وأشهر، وليغطِ قارص بحيث لا يستطيع أحد رؤيتها مرة أخرى، وينام على هذا السرير المتمدد عليه، ويستيقظ في صباح مشمس من طفولته مع أمه.

قرع الباب. اعتقد كا أن أحدهم قادم من المطبخ. ولكنه قفز، وفتح الباب، وشعر بوجود إيبك في الظلام.

«أين تأخرت؟»

«هل تأخرت؟»

كأن كا لم يسمعها. احتضنها بقوته كلها فوراً. أدخل رأسه ما بين رقبتها وشعرها، وتوقف هكذا دون حراك. شعر بنفسه سعيداً إلى حد إدراكه بأن ألم الانتظار أمر تافه. ولكنه متعب من الألم أيضاً، لهذا لم يشعر بالانفعال كما يجب. لهذا السبب ساءل إيبك لتأخرها على الرغم من معرفته الأكيدة بأن هذا خطأ، وعاتبها. ولكن إيبك قالت بأنها جاءت فور ذهاب أبيها: آه، نعم. ذهبت إلى المطبخ، وقالت لزاهدة عن أمر أو اثنين من أجل المساء، ولكن هذا لم يستغرق أكثر من دقيقتين أو ثلاث، لهذا لم تفكر بأنها تجعل كا ينتظر. وهكذا شعر كا بنفسه أنه في الأسفل في عملية توازن القوى لأنه في بداية العلاقة أكثر هوساً وخجلاً. ولخوفه من هذا الضعف وإخفاء ألم الانتظار الذي عانى منه أوقعه في وضع غير الحميمي. مع أنه ألم يُرِدْ أن يعشق للمشاركة في كل شيء؟ أليس العشق هو إرادة البوح بكل شيء؟ فجأة حكى لإيبك بانفعال المعترف سلسلة الأفكار هذه كلها.

قالت إيبك: «انس كل هذه الأمور الآن. أتيت إلى هنا لممارسة الحب معك.»

تبادلا القبل، وبنعومة أدخلت السرور في نفس كا انقلبا على السرير. كانت تلك اللحظة لحظة سعادة إعجازية بالنسبة إلى كا الذي لم يمارس الحب

مع إحداهن منذ أربع سنوات. لهذا السبب كان مفعماً بأفكار حول جمال تلك اللحظة أكثر من منح نفسه للمتعة الجسدية. إنه كما هو في تجاربه الجنسية في سنوات شبابه الأولى في عقله أنه يمارس الحب أكثر من الممارسة ذاتها. هذا في البداية حمى كا من الانفعال المبالغ به. في الوقت نفسه بدأت تتجلى أمام عينيه تفاصيل من أفلام (البورنو) المدمن عليها في فرانكفورت بمنطق شعري لم يستطيع فك لغزه. لم يكن الحلم بمشاهدة (البورنو) لاستفزاز نفسه في أثناء ممارسته الحب، بل على العكس تماماً كأن تلك المشاهد من أفلام (البورنو) التي تأخذ مكانها في عقله على شكل حلم تبارك له في النهاية أنه استطاع أن يكون جزءاً منها. لهذا السبب فإن الانفعال الكثيف الذي عاشه كا هو ليس لإيبك بل لامرأة من أفلام (البورنو) التي في خياله، وشعر بمعجزة أن تلك المرأة هنا في السرير. خلع لها ألبستها نازعاً لها، حتى إنه لحظة عراها بقليل من الوحشية وعدم الاتقان انتبه إلى نفسه. ثدياها ضخمان. بشرتها عند كتفيها ورقبتها ناعمة، وتفوح منها رائحة غريبة مدهشة. تفرج عليها في ضوء الثلج المنبعث من الخارج، وخاف من عينيها اللتين تبرقان أحياناً. كانت عيناها واثقتين جداً، وكان كا يخشى من معرفته بأن إيبك ليست خجولة بما يكفي. لهذا السبب شد شعرها مؤلماً إياها، وحين وجد أنها تستمتع بهذا شدّ أكثر. أجبرها على أمور مناسبة لمشاهد (البورنو) التي في عقله، وتصّرف معها بقسوة مع موسيقى غريزية لم يتوقعها. وحين شعر بأنها مستمتعة بهذا أيضاً تحول شعور النصر الذي بداخله إلى أخوّة. احتضنها بقواه كلها وكأنه لا يريد إنقاذ نفسه فقط من بؤس مدينة قارص، بل إنقاذها أيضاً. قرر بأنه لم يتلق ردة الفعل الكافية فابتعد عنها. في هذه الأثناء ثمة طرف في عقله يراقب بشكل لم يكن متوقعاً سير الحركات الجنسية وتناغمها. وهكذا في لحظة عقلانية ابتعد فيها جيداً عن إيبك، اقترب بعنف من المرأة، وأراد أن يؤلمها. وبحسب بعض الملاحظات التي دوّنها كا حول هذه الممارسة للحب وأؤمن بضرورة نقلها لقرائي فإنهما بعد هذا اقتربا من بعضهما بعضاً بعنف، وما تبقى من العالم صار بعيداً جداً. وبحسب ملاحظات كا أيضاً فإن إيبك ومع اقتراب نهاية ممارسة الحب صرخت بصوت يطلب الاكتفاء. وبجوانب عقله المعقدة والمنفتحة تماماً على الخوف فكر بأنها أعطته هذه الغرفة في مكان بعيد من

الفندق منذ البداية انطلاقاً من الإحساس بالوحدة الذي يجعلهما يستمتعان بالألم الذي يمنحه كل منهما للآخر. وفجأة نزعت هذه الغرفة المتطرفة في الفندق والممر في عقله من كونها غرفة فندق، ووضعت في حي بعيد من أحياء قارص النائية. كان يندف الثلج في تلك المدينة الخاوية التي يذكر صمتها بصمت ما بعد القيامة.

تمددا في السرير معاً مدة طويلة ينظران إلى الثلج النادف في الخارج دون أن يتكلما. كان كا يرى الثلج أحياناً في عيني إيبك.

[٢٩]

النقص الذي لدي

في فرانكفورت

ذهبت إلى شقة كا في فرانكفورت التي قضى فيها آخر ثمانية أعوام من حياته، وأربعة سنوات بعد عودته من قارص ـ ذهبتُ ـ بعد اثنين وأربعين يوماً من موته. كان يوماً شباطياً ثلجياً ماطراً عاصفاً. كانت فرانكفورت التي ذهبت إليها بالطائرة من اسطنبول صباحاً مدينة أقل نكهة من تلك التي رأيتها في البطاقات البريدية التي أرسلها لي كا على مدى ستة عشر عاماً. الشوارع خاوية تماماً إلا من سيارات مظلمة تمر مسرعة جداً، وتراموايات التي تظهر وتختفي مثل الأشباح، وربات البيوت حاملات المظلات الماشيات مسرعات. كان الجو ملبداً ومظلماً إلى درجة أن مصابيح الشوارع الصفراء الميتة منارة في الشوارع ظهراً.

على الرغم من هذا فإن آثار الطاقة الخالدة التي تبقي المدن الكبيرة منتصبة موجودة على الأرصفة في محيط محطة القطار المركزية حيث بائعي (الشاورما)، ومكاتب السياحة، بائعي المثلجات، ودكاكين الجنس. بعد أن نزلت في الفندق، واتصلت هاتفياً بالشاب التركي ـ الألماني محب الأدب الذي دعاني بناء على طلبي لأقدم حديثاً في المركز الثقافي الشعبي التقيت (طارقوت أولتشون) في المقهى الإيطالي الذي في محطة القطار. أخذت رقم هاتفه من أخت كا في اسطنبول. هذا الرجل الطيب المتعب البالغ الستينيات من عمره هو الأقرب معرفة بكا خلال سنوات فرانكفورت. في التحقيق الذي أعقب موت كا قدم المعلومات للشرطة، واتصل باسطنبول، وارتبط بعلاقة مع

عائلته، وساعد بإرسال جثته إلى تركيا. اعتقدت بأن مسودة كتاب كا الشعري الذي لم ينهه إلا بعد أربع سنوات من عودته إلى فرانكفورت هو بين أغراضه التي في ألمانيا، وسألت أباه وأخته عن مصير الأغراض الباقية من بعده لأنهما ليسا بالقوة التي تمكنهما من الذهاب إلى ألمانيا، فرجوني أن أقوم بجمع أغراضه، وتفريغ شقته. جاء (طارقوت أولتشون) إلى فرانكفورت في بداية الستينيات مع المهاجرين الأوائل. وعمل معلماً ومستشاراً في الجمعيات التركية والمؤسسات الخيرية على مدى سنوات. لديه ولدان أحدهما صبي والأخرى بنت ولدا في ألمانيا، ويفاخر بأنه أرسلهما للدراسة في الجامعة، وأراني صورتهما فوراً، وله موقع محترم بين الأتراك في فرانكفورت، ولكنني على الرغم من هذا رأيتُ في وجهه ذلك الإحساس بالوحدة والهزيمة الذي لا شبيه له والذي رأيته لدى أتراك الجيل الأول الذي عاش في ألمانيا، والمنفيين السياسيين فيها.

بداية أراني طارقوت أولتشون حقيبة السفر الصغيرة التي كانت مع كا حين أطلقت النار عليه. أعطتها له الشرطة مقابل توقيعه على استلامها. فتحتُها فوراً، وقلبّتها بسرعة. وجدت فيها منامته التي اشتراها من نيشان طاش قبل ثمانية عشر عاماً، وكنزة خضراء، ومجموعة حلاقة وفرشاة أسنان، وجورباً، ولباساً داخلياً نظيفاً، والمجلات الأدبية التي أرسلتها له من اسطنبول، ولكن لم يكن بداخلها دفتر الشعر الأخضر.

فيما بعد، وبينما كنا نحتسي قهوتنا ونحن نتفرج على تركيين عجوزين يمسحان الأرض متضاحكين متبادلين الحديث وسط زحام المحطة إلى الأمام قليلاً قال لي: «سيد أورهان. كان صديقكم السيد كا شخصاً وحيداً. لم يكن هنالك في فرانكفورت ـ بمن فيهم أنا ـ يعرف شيئاً عما يفعله» وعلى الرغم من هذا وعدني بأن يحكي لي ما يعرفه كله.

بداية ذهبنا إلى البناء المجاور لشارع (غوتلاوت) حيث عاش كا آخر ثمانية أعوام من حياته بعد أن عبرنا من بين أبنية المصانع الممتد عمرها إلى مائة عام، والثكنة العسكرية خلف المحطة. لم نجد صاحبة البيت التي ستفتح لنا شقة كا وباب البناء الخارجي الذي يطل على ساحة صغيرة، وحديقة أطفال. بينما كنا ننتظر فتح الباب القديم المتساقط طلاؤه تحت الثلج الممزوج بالمطر

نظرت إلى الحديقة الصغيرة غير المعتنى بها، ودكان السمانة الذي على طرفها، وإلى واجهة دكان بيع المشروبات والصحف المظلمة إلى الأمام قليلاً التي حكى لي عنها في رسائله، وفي اتصالاته الهاتفية النادرة (لأن كا لديه عقدة الشبهة، يعتقد بأن هواتفه يُتنصت عليها فلايحب الاتصال الهاتفي بتركيا) وكأنها ذكرياتي الخاصة. المقاعد التي كان يجلس عليها كا في ليالي الصيف الحارة في حديقة الأطفال حيث الأراجيح والأحصنة المعدنية ويشرب البيرة مع العمال الإيطاليين واليوغسلاف مغطاة الآن بطبقة ثلجية مثل القماش المخرم.

سرنا نحو ساحة المحطة في الطريق الذي يسلكه كا في سنواته الأخيرة يومياً صباحاً إلى مكتبة البلدية. وكما يفعل كا الذي يسرّ من المسير وسط الناس المستعجلين للذهاب إلى أعمالهم دخلنا من أحد أبواب بناء المحطة نحو السوق تحت الأرض، وعبرنا من أمام دكاكين الجنس وأمكنة بيع الأغراض السياحية، ومحلات المعجنات والصيدليات التي في شارع (كايزر)، وتتبعنا طريق الترامواي، ومشينا إلى ساحة (هاو بتفاشه). وفي أثناء إلقاء طارقوت أولتشون التحية على بعض الأتراك والأكراد الذين يراهم في دكاكين (الشاورمة) والكباب والخضار حكى لي بأن هؤلاء الناس جميعاً يحيون كا الذي يمر كل يوم في الساعة نفسها قائلين: «صباح الخير بروفيسور» أشار إلى المخزن الكبير على طرف الساحة لأنني سألته عنه من قبل قائلاً: «كاوفهوف». قلت له بأن المعطف الذي ارتداه كا في قارص قد اشتراه من هنا. ولكنني رفضت الدخول إلى الداخل.

بناء مكتبة بلدية فرانكفورت الذي يذهب إليه كا كل يوم هو بناء حديث دون هوية. في الداخل زوار المكتبة المتميزون: ربات بيوت، مسنون يقتلون الوقت، عاطلون عن العمل، بضعة أتراك وعرب، وطلاب يتضاحكون بصوت خفيض وهم يعدون وظائفهم المدرسية والمداومون الدائمون لهذه الأمكنة: البدينون جداً، العجزة، المجنونون، والمتخلفون عقلياً. شاب يسيل اللعاب من فمه رفع رأسه عن الكتاب المصور الذي ينظر إليه، ومد لي لسانه. أجلست دليلي المتضايق من وجوده وسط الكتب في مقهى الطابق السفلي، وذهبت إلى رفوف كتب الشعر الإنكليزي، وبحثت عن اسم صديقي في بطاقات الإعارة الموجودة داخل الغلاف الخلفي: آودن، برونـنـغ،

كوليريدج... كل مرة أصادف توقيع كا تذرف عيناي من أجل صديقي الذي أفنى عمره في المكتبات.

اختصرت بحثي الذي يدفعني إلى حزن كبير. عدت مع الصديق دليلي صامتين من الشوارع نفسها في وسط شارع (كايزر)، ومن أمام دكان له اسم سخيف هو «مركز الجنس العالمي» انعطفنا إلى اليسار، وعبرنا شارعاً متجهين نحو الأسفل نحو شارع (مونخنر). رأيت هنا خضريين وباعة كباب، ودكان حلاق فارغ لأتراك. وقد فهمت منذ البداية ما سيريني إياه. بدأ قلبي يخفق بشدة، ولكن عيني تعلقتا بحرف (ك) النيوني الذي يسقط ضوؤه وسط اللون الرمادي للمساء الموشك على الحلول متلامعاً بلون زهري على برتقال و (براصا)(*) الخضري، وعلى متسول بساق واحدة، وعلى أضواء سيارة منعكسة على واجهة فندق (إدن) المغبشة.

قال طارقوت أولتشون: «هنا. وجدوا جثة كا. هنا بالضبط. نعم.»

نظرت إلى الرصيف الرطب لا ألوي على شيء. فجأة خرج ولدان من دكان الخضري أحدهما وطيء أحجار الرصيف الرطبة التي سقط عليها جسد كا متلقياً ثلاث رصاصات، وعبرا ذاهبين من أمامنا. الأضواء الحمراء لشاحنة تقف إلى الأمام قليلاً تنعكس على الإسفلت. بعد أن تلوى كا ألماً عدة دقائق فوق هذه الأحجار مات قبل وصول سيارة الإسعاف. للحظة رفعت رأسي إلى الأعلى ونظرت إلى قطعة السماء التي رآها كا وهو يموت: بدت سماء ضيقة بين الأبنية القديمة المظلمة التي تحتها بائعو الشاورمة الأتراك، وأشرطة الهاتف ومصابيح الشارع. أُطلقت النار على كا ليلاً حوالي الساعة الثانية عشرة. قال لي طارقوت أولتشون أنه في تلك الساعة لا يوجد غير بعض العاهرات اللواتي يتمشين صعوداً ونزولاً. «العهر» أساساً يمارس في الشارع العلوي، وهو شارع (كايزر). ولكن في الليالي التي فيها حركة، وفي أيام نهاية الأسبوع، وأيام المعرض تنسلّ «النساء» إلى هنا. حين رآني أنظر إلى الأسفل ونحو اليسار وكأنني أبحث عن أثر، قال لي: «لم يجدوا شيئاً. الشرطة الألمانية لا تشبه الشرطة التركية. فهي تعمل جيداً.»

(*) (براصا) نوع من أنواع الخضر يشبه البصل الأخضر، أوراقه أعرض.

ولكنني حين بدأت أدخل إلى الدكاكين المجاورة وأخرج، ساعدني بشفقة نابعة من القلب. الفتيات في دكان الحلاق عرفوا السيد طارقوت، وسألوه عن حاله، وطبعاً لم يكنّ في الدكان ساعة الجريمة، وأصلاً لم يسمعن بالحادثة نهائياً. وخارج الدكان قال لي: «الأسر التركية تعلم بناتها الحلاقة فقط. في فرانكفورت مئات الحلاقات التركيات.»

الأكراد الذين في دكان الخضري هم على علم جيد بالجريمة، وتحقيق الشرطة الذي تبعها. وعل هذا هو السبب الذي جعلهم غير مسرورين منا. نادل (بيت بيرم للكباب) الطيب ليلة الحادثة حوالي الثانية عشرة كان يمسح طاولات (الفورميكا) بقطعة القماش القذرة نفسها التي بيده الآن سمع صوت السلاح، وبعد أن انتظر برهة خرج، وكان آخر شخص رآه كا في حياته.

بعد خروجي من دكان بائع الكباب، دخلتُ مسرعاً في أول نفق عبور ظهر أمامي، ووصلت إلى باحة خلفية لبناء مظلم. وبإشارة السيد طارقوت نزلنا طابقين إلى الأسفل، وعبرنا من باب فوجدنا أنفسنا في مكان مخيف بسعة مستودع واستخدم لهذا الغرض في زمن ما. المكان هنا عالم تحت أرضي يمتد تحت البناء حتى الرصيف الآخر ويفهم من السجادات الممدودة، ومن الخمسين أو الستين شخصاً المتواجدين هناك لصلاة المغرب بأن المكان جامع. أما في محيطه فهنالك دكاكين قذرة ومظلمة كما في أنفاق المعابر التي في اسطنبول: صائغ لم ينر واجهة دكانه، خضري يكاد يكون قزماً، وبجانبه مباشرة قصاب مشغول، وسمان يبيع (السجق) المعلق قطعاً كبيرة يتابع التلفاز الذي في القهوة. هنالك جانباً صناديق عصير فواكه، ومعكرونة تركية، ومعلبات غذائية أتت من تركيا. وهنالك بسطة تباع عليها الكتب الدينية، ومقهى مزدحم أكثر من الجامع. ومن بين زحام الرجال المركز انتباهه على فيلم تركي يبثه التلفاز وسط دخان كثيف يخرج بضعه أشخاص نحو صنبور يأخذ ماءه من وعاء بلاستيكي كبير موضوع جانباً من أجل الوضوء. قال السيد طارقوت: «في صلوات الجمعة والأعياد يملأ المكان هنا ألفا شخص، ويمتد الناس حتى الباحة الخلفية عبر الدرج.» ولمجرد القيام بعمل ما فقط اشتريت مجلة (التبليغ) من بسطة الكتب والمجلات.

بعد ذلك جلسنا في مشرب بيرة على طراز ميونخ القديم يقع فوق الجامع

مباشرة. قال طارقوت أولتشون مشيراً. نحو الطابق الأرضي: «هناك جامع السليمانيين. هم دينيون، ولكنهم لايقتربون من الإرهاب. أصحاب رؤية قومية. ولاتدخل هذه الجماعة في صراع مع الجمهورية التركية (كالقبلانيين)(*).» يبدو أنه قلق من تقليبي صفحات مجلة (التبليغ) وكأنني أبحث عن دليل، ومن الشبهة البادية على عيني حكى لي عما يعرفه عن مقتل كا، وما علمه من الشرطة والصحافة.

قبل اثنين وأربعين يوماً المصادف أول سبت من العام الجديد، وفي الساعة الحادية عشرة والنصف عاد كا من هامبورغ حيث شارك بأمسية شعرية. بعد سفرة القطار المستمرة ست ساعات بدل أن يخرج من الباب الجنوبي للمحطة، ويذهب من الطريق المختصر إلى بيته بجوار شارع (غوتلاوت)، ذهب في الاتجاه المعاكس تماماً، داخلاً إلى شارع (كايزر)، وألهى نفسه هناك مدة خمس وعشرين دقيقة وسط زحام الشباب العازبين والسياح والسكارى، ودكاكين الجنس المفتوحة حتى ذلك الوقت، والعاهرات المنتظرات زبائن. بعد نصف ساعة انحرف نازلاً من عند مركز الجنس العالمي، وفور عبوره إلى الرصيف المقابل لشارع (فونشنر) أطلقت النار عليه. هنالك احتمال كبير أنه كان يريد شراء برتقال (مندلينا) من (خضري أنطاليا الجميلة) على مبعدة دكانين قبل عودته إلى البيت. وهذا الدكان هو الخضري الوحيد الذي يفتح حتى منتصف الليل، ويتذكر البائع أن كا كان يأتي ليلاً لشراء (المندلينا).

لم تجد الشرطة أحداً رأى مطلق النار على كا. نادل (بيت بيرم للكباب) سمع صوت السلاح ولكنه لم يعرف كم طلقة أطلقت بسبب ضجيج التلفاز والزبائن. الرؤية من خلال الزجاج المغبش لمشرب البيرة الذي فوق الجامع صعبة. وقول بائع الخضار والفواكه الذي يعتقد بأن كا ذهب إليه بأنه لاعلم له بأي شيء جعل الشرطة تشتبه به، فأوقفته ليلة، ولكنها لم تحقق أي نتيجة. عاهرة كانت في الشارع السفلي تدخن سيجارة منتظرة زبوناً قالت بأنها رأت رجلاً قصير القامة أسمرَ كالأتراك، مرتدياً معطفاً أسود يركض نحو شارع

(*) جماعة دينية زعيمها متين قبلان ابن مؤسسها جمال الدين قبلان، وهي تعلن الخلافة الإسلامية من ألمانيا. (المترجم).

(كايزر)، ولكنها لم تستطع تعريف الشخص الذي رأته بشكل معقول. الإسعاف القادم بعد سقوط كا على الرصيف رأى ألمانياً خرج مصادفة إلى شرفة بيته فناداه، ولكن هذا أيضاً لم ير أحداً. الرصاصة الأولى دخلت من مؤخرة رأس كا وخرجت من عينه اليسرى. الرصاصتان الأخريان قطعتا الشرايين في محيط القلب والرئتين، وثقبتا معطفه الرمادي من طرفي الصدر والظهر، وجعلتاه ملتاثاً بالدماء.

قال محقق عجوز ثرثار: «بما أنه ضرب من الخلف، فالشخص تبعه وهم مصممون على هذا.» لعله تبعه من هامبورغ. توقفت الشرطة عند احتمالات أخرى: غيرة جنسية، تصفية حسابات سياسية بين الأتراك. وما شابه ذلك. لم يكن لكا علاقة بعالم تحت الأرض في محيط المحطة. الباعة الذين نظروا إلى صورته قالوا للشرطة بأنه أحياناً يتجول على دكاكين الجنس، ويدخل إلى الغرف الصغيرة التي يشاهد فيها أفلام (البورنو). ولعدم وجود أي بلاغ صحيح أو كاذب، ولعدم مجيء ضغوط من أوساط قوية أو صحافة لإيجاد القاتل تركت الشرطة الأمر بعد فترة.

لأن المحقق العجوز الدائم السعال يهدف إلى جعل القضية طي النسيان أكثر من التحقيق فيها، يعد معارف كا ويلتقيهم، وفي أثناء التحقيق هو الذي يشرح على الأغلب. وعلم طارقوت أولتشون من هذا المحقق الأبوي والمحب للأتراك بأن امرأتين دخلتا حياة كا خلال السنوات الثماني التي سبقت ذهابه إلى قارص. كتبت رقمي هاتفي الامرأتين اللتين إحداهما تركية والأخرى ألمانية على دفتري بعناية. بعد عودة كا من قارص لم يكن له علاقة مع أية امرأة.

عدنا صامتين تحت الثلج إلى بيت كا، ووجدنا صاحبة البيت الضخمة المحببة الكثيرة الشكوى. وبينما كانت تفتح طابقاً تحت السقف لبناء بارد تفوح منه رائحة الشحار، قالت بصوت غاضب بأن الشقة على وشك أن تؤجر، وإذا لم نأخذ الأغراض التي في الداخل، وهذه القذارة كلها سترميها، ثم ذهبت. دخلت إلى الشقة الصغيرة المنخفضة السقف المظلمة التي قضى فيها كا ثماني سنوات من حياته، وحين شممت رائحته المميزة التي أعرفها منذ طفولتي اغرورقت عيناي. هذه الرائحة هي تلك التي كانت تنبعث من كنزاته

الصوفية التي حاكتها له أمه بيديها، ومن حقيبته المدرسية، ومن غرفته حين أذهب إليهم. كنت أعتقد أنها تفوح من صابون تركي لا أعرف نوعه، ولم يخطر ببالي أن أسأل عنه.

في سنواته الأولى في ألمانيا عمل كا حمالاً في سوق الهال، وبنقل مفروشات البيوت، ومعلم إنكليزية للأتراك، ودهاناً، وبعد أن قبل رسمياً «منفي سياسي» وصار يقبض «راتب لاجئ» انفصل عن الشيوعيين في أوساط المراكز الشعبية التي أوجدت له تلك الأعمال. كان الشيوعيون الأتراك الذين في المنفى يعتبرون كا انطوائياً أكثر من العادي، «وبورجوازياً». في السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة كان مصدر دخل كا الآخر هو قراءاته الشعرية في مكتبات البلدية، والمراكز الثقافية، والجمعيات التركية. ومن هذه القراءات التي يحضرها الأتراك فقط (من النادر أن يتجاوز عددهم العشرين) إذ كسب خمسمائة مارك في حال قيامه بثلاث قراءات، ولأنه يتقاضى أربعمائة مارك راتب منفي سياسي، كان يستطيع أن يمضي الشهر حتى نهايته، ولكن هذا نادراً ما يحدث. الكراسي ومنفضات السجائر مهلهلة، والمدفأة الكهربائية صدئة. لتوتري نتيجة الحاح صاحبة البيت بداية فكرت بأن أجمع أغراض صديقي أيام الثانوية، وحذاءه ماركة (باللي) الذي حكى لي عنه في إحدى رسائله مازال يستخدمه «مثل شحاط في البيت» على الرغم من ثقب مقدمته بأظافر قدميه كما كتب لي في إحدى رسائله، وفرشاة أسنانه، والكأس القذرة التي يضع فيها الفرشاة، وكتبه البالغ عددها قرابة ثلاثمائة وخمسين كتاباً، والتلفزيون القديم، والفيديو الذي لم يذكره لي أبداً، سترته البالية، وقمصانه، ومنامته التي عمرها ثمانية عشر عاماً وجلبها من تركيا، وأن أضعها في الحقيبة القديمة والأكياس التي في الغرفة. وآخذها، ولكنني حين لم أجد الشيء الذي كنت آمل بإيجاده، وفور دخولي الغرفة فهمت بأن سبب مجيئي الأساسي إلى فرانكفورت موجود على طاولة عمله فقدت برودة أعصابي.

في رسائله الأخيرة التي أرسلها إليّ من فرانكفورت كتب لي فرحاً بأنه أنهى كتابه الشعري الجديد بعد أربع سنوات من الجهد. كان عنوان الكتاب: «ثلج». أغلبه كتبه على دفتر أخضر في قارص بانفجار الإلهام الذي «أتاه» فجأة. بعد عودته من قارص شعر بأن الكتاب نظام «عميق ومحمل بالأسرار»

دون أن ينتبه إلى هذا من قبل، وقضى سنواته الأربع في فرانكفورت يكمل «نواقص» هذا الكتاب. كان هذا جهداً منهكاً يفرض معاناة. لأن الأشطر التي كانت تأتيه في قارص بسهولة وكأن أحدهم يهمس له بها في أذنه، لم يكن يسمعها في فرانكفورت.

لهذا السبب حاول إيجاد المنطق السري للكتاب الذي كتب غالبيته في قارص ملهماً، وكتب نواقصه متتبعاً هذا المنطق. كتب إلى في رسالته الأخيرة بأن هذه الجهود كلها في النهاية قد أثمرت، وسيقرأ تلك القصائد في بعض المدن الألمانية مجرباً لها، وحين يقرر أن كل شيء غدا في مكانه، فإن الكتاب الذي يحمله في دفتر واحد سيطبعه على الآلة الكاتبة، وسيرسل نسخة منه إليّ، ونسخة إلى ناشره في اسطنبول. وسألني عما إذا أمكن أن أكتب بعض العبارات على الغلاف الخلفي للكتاب، وأرسله إلى ناشر الكتاب صديقنا فاخر؟

طاولة عمل كا المرتبة بشكل غير متوقع من شاعر تطل على أسطح فرانكفورت الضائعة وسط الثلج وظلمة المساء. على الطرف الأيمن من الطاولة المغطاة بقماش أخضر رخيص الدفاتر التي تفسّر الأيام التي قضاها في قارص والأشعار التي كتبها هناك، وعلى الطرف الأيسر الكتب والمجلات التي كان يقرؤها في تلك الأثناء. وفي وسط الطاولة على خط وهمي وضع مصباحاً ذا جسم برونزي وهاتفاً على بعد متساو. وبحثت مضطرباً في الدروج، وبين الدفاتر، وفي مجموعة قاصاصات الجرائد التي يجمعها ككثير من الأتراك في المنفى، وخزانة الثياب، وداخل الفراش، وفي خزائن المطبخ والحمام الصغيرة، وداخل الثلاجة وكيس الغسيل، وفي كل زاوية من زوايا البيت التي يمكن أن تتسع لدفتر. لم أؤمن بإمكانية أن يضيع هذا الدفتر، لهذا بحثت مجدداً في الأماكن نفسها بينما كان طارقوت أولتشون يتفرج على فرانكفورت صامتاً وهو يدخن سيجارة. إذا لم يكن في حقيبة اليد الذي أخذها معه إلى هامبورغ، يجب أن يكون قد تركه هنا في البيت. كا لاينسخ أية قصيدة قبل أن يكمل كتابه الشعري، وكان يقول أن هذا يجلب النحس، ولكن الكتاب قد انتهى بحسب ما كتبه لي.

بعد ساعتين بدل أن أؤمن بأن الدفتر الأخضر الذي كتب عليه كا قصائده

في قارص قد ضاع، حاولت أن أجعل نفسي أصدق بأنه ـ أو على الأقل قصائده ـ تحت يدي في مكان ما ولكنني لم أنتبه إليه بسبب ارتباكي. حين قرعت صاحبة البيت الباب كنت قد ملأت كيساً نايلونياً بالدفاتر التي وجدتها على الطاولة وفي الدروج، والأوراق المكتوبة عليها بخط كا كلها. وبكيس تسوق كتب عليه (كاوفهوف) وضعت أشرطة (البورنو) الملقاة عشوائياً بجانب الفيديو (وهذا دليل على عدم مجيء ضيوف إليه أبداً) وكمسافر قبل انطلاقه في سفر طويل يأخذ شيئاً من الأشياء العادية للحياة بحثت لنفسي عن ذكرى من كا. ولكنني انجرفت بإحدى نوبات التردد التي أتعرض لها دائماً ولم أملأ الكيس بمنفضة السجائر التي على طاولته، وعلبة سجائره، والسكين التي يستخدمها فتاحة مظروفات، والساعة التي يضعها بجانب رأسه، والصدارة المقلمة التي تحمل رائحته لأنه يرتديها فوق منامته على مدى خمسة وعشرين عاماً، وصورته التي التقطها مع أخته على رصيف (ضولما بههتشه) بل وضعت أيضاً من الجوارب الوسخة إلى المنديل الذي في خزانته ولم يستخدمه أبداً، ومن الشوكات التي في المطبخ إلى علبة السجائر التي أخرجتها من صفيحة الزبالة كثيراً من الأشياء يعشق متحفي. في أحد لقاءاتنا الأخيرة في اسطنبول سألني كا عن الرواية الأخيرة التي سأكتبها، فحكيت له عن (متحف البراءة) التي خبأتها بانتباه عن الجميع.

انفصلت عن دليلي، وفور انزوائي في غرفة فندقي بدأت بتفحص أغراض كا. مع أنني قررت أن أنسى تلك الليلة صديقي لكي أتخلص من الحزن المهدم الذي يمنحني إياه، لم يكن ثمة فيديو في غرفة الفندق ولكنني أدركت من الملاحظات التي دونها صديقي على الأشرطة بيده بأنه يهتم بشكل خاص بنجمة (البورنو) الأمركية التي تدعى (ميليندا).

في هذه الأثناء بدأت بقراءة دفاتر كا التي درس فيها القصائد التي أتته في قارص. لماذا خبأ عني كا هذا الرعب والعشق كله الذي عاشه في قارص؟ تلقيت جواب هذا السؤال من حوالي أربعين رسالة حب كانت في ملف وجدته في درج وألقيته في الكيس. كُتبت كلها لإيبك. ولم ترسل أية واحدة منها. وتبدأ كلها بالجملة نفسها: «يا روحي، لقد فكرت كثيراً بأن أكتب لك.» وفي رسائله كلها غير ذكراه من قارص، وتفصيل آخر يبعث على ألم ويدمع العينين

حول ممارسته الحب مع إيبك ثمة مشاهدات قليلة يلخص فيها اعتيادية الأيام في فرانكفورت (كتب إلي أيضاً عن رؤيته لكلب أعرج في حديقة «فون ـ بتمان»، أو قصص التوتياء المحزنة التي في المتحف اليهودي). ويفهم من عدم طي أية رسالة من تلك الرسائل بأن كا لم يكن مصمماً حتى على وضعها في مظروف.

كتب في إحدى الرسائل: «بكلمة منكِ أذهب إلى هناك.» وفي رسالة أخرى كتب بأنه «لن يذهب أبداً إلى قارص، لأنه لن يسمح بفهم إيبك الخاطئ له مرة أخرى.» يتطرق في إحدى الرسائل إلى قصيدة مفقودة. وفي رسالة يترك انطباعاً لدى قارئها بأنها رد على رسالة من إيبك. فقد كتب كا: «مع الأسف إنك فهمت رسالتي بشكل خاطئ أيضاً.» ولأنني فتحت الأوراق التي أخرجتها من الكيس كلها في أرض غرفة الفندق وعلى السرير، وبحثت فيها جيداً كنت واثقاً من عدم وصول أية رسالة من إيبك لكا. على الرغم من هذا، حين ذهبت إلى قارص بعد عدة أسابيع، وقابلت إيبك، علمت منها إثر سؤالي بأنها لم تكتب لكا أبداً. لماذا كان كا يتصنع بأنه يجيب على رسالة إيبك في هذه الرسائل التي يعرف منذ بدئه بكتابتها بأنه لن يرسلها؟

لعلنا وصلنا إلى قلب حكايتنا. كم هو ممكن فهم ألم الآخرين وعشقهم؟ كم يمكننا فهم آلام الآخرين الأشد من آلامنا، وحرمانهم وانسحاقهم؟ إذا كان الفهم هو وضع أنفسنا مكان المختلفين عنا فهل يمكن لأغنياء العالم وحكامه أن يفهموا ملايين المساكين في الأطراف؟ كم يستطيع الروائي أورهان رؤية الظلمة في حياة صديقه الشاعر الصعبة والمؤلمة؟

كتب كا: «مرت حياتي كلها بشعور كثيف للفقدان والنقص، وشعور الألم كحيوان جريح. لو أنني لم أحتضنك بتلك القوة، ولم أغضبك إلى هذا الحد في النهاية لما عدت إلى حيث بدأت وفقدت التوازن الذي وجدته في الاثنتي عشرة سنة. الآن في داخلي ذلك الفقدان غير المحتمل، والشعور بالإهمال، وهذا يجعل كل طرف مني ينزف. أحياناً أفكر بأن النقص الذي في داخلي هو ليس أنتِ فقط، وأعتقد بانه العالم كله.» كنت أقرأ هذا، ولكنني هل أفهمه؟

حين امتلأ رأسي بالويسكي التي أخرجتها من البار المصغّر في غرفة

الفندق وشربتها، خرجت في ساعة متأخرة من المساء، ومشيت نحو شارع (كايزر) للبحث عن (ميليندا).

لها عينان واسعتان. واسعتان جداً بلون الزيتون حزينتان شهلاوان. بشرتها بيضاء. ساقاها طويلتان. شفتاها صغيرتان كما يشبههما شعراء (الديوان)(١) بالكرز، ولكنهما ممتلئتان. لها شهرة كافية: خلال بحث لمدة عشرين دقيقة في قسم أشرطة الفيديو المفتوح أربع وعشرين ساعة في مركز الجنس العالمي وجدت ستة أشرطة مكتوب عليها اسمها. فيما بعد، حين أخذتها إلى اسطنبول وتفرجت عليها شعرت بجوانب (ميليندا) التي يمكن أن تكون قد حفرت في قلب كا. مهما كان الرجل المتكور عند ساقيها بشعاً وفظاً، حين يتأوه متعة، ويغيب عن وعيه، يظهر على وجه ميليندا الشاحب تعبير حنان خاص بالأمهات. وبقدر ماهي استفزازية حين تكون مرتدية ثيابها (امرأة أعمال حريصة، ربة منزل تشتكي من ضعف زوجها الجنسي، مضيفة طيران شبقة) بقدر ما تبدو خجولة وهي عارية. وكما سأدرك هذا عندما سأذهب إلى قارص فهي تذكر كثيراً بإيبك من خلال عينيها الواسعتين، أو جذعها الضخم القوي، أو في حالتها ومواقفها.

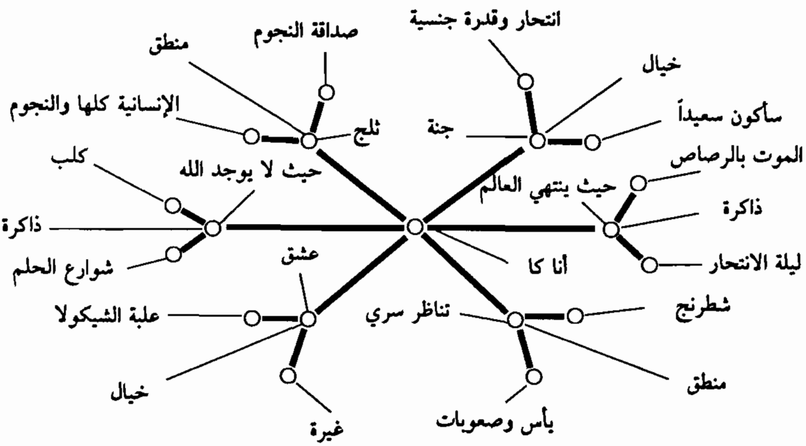
أعرف بأن قولي صديقي قضى كثيراً من وقته في أربع السنوات الأخيرة من عمره بالفرجة على هذه الأشرطة سيثير غضب الذين يريدون أن يروا في كا قديساً كاملاً عبر التعلق بالخيالية والمناقب الحسنة الخاصة بالفقراء. بينما كنت أتجول بين الرجال الوحيدين وحدة الأشباح من أجل إيجاد أشرطة أخرى لميليندا في مركز الجنس العالمي فكرت بأن الشيء الوحيد الذي يجمع الرجال المساكين هو الانزواء في زاوية والفرجة على أشرطة البورنو شاعرين بالذنب. مشاهداتي في سينمات الشارع الثاني والأربعين في نيويورك، أو في شارع (كايزر) في فرانكفورت، أو في سينمات الشوارع الخلفية في (بيه أوغلو) فإن هؤلاء المساكين بشعورهم بالخجل والبؤس والضياع، ومحاولاتهم النظر إلى بعضهم بعضاً في أثناء فرجتهم على الفيلم، أو استراحته تثبت أنهم متشابهون إلى حد إدهاش رؤى القوميين ومنظري الانتروبيولوجيا. خرجت من مركز

---

(١) شعر الديوان هو الشعر الكلاسيكي التركي.

الجنس العالمي بأشرطة ميليندا الموضوعة في كيس بلاستيكي أسود عائداً إلى فندقي تحت الثلج الذي يندف ندفاً كبيرة.

في بار الصالة المضاف بشكل قسري شربت قدحي وسكي، وانتظرت ظهور تأثيرهما ناظراً إلى الثلج النادف في الخارج عبر النافذة. اعتقدت أنني إذا ملأت رأسي قليلاً فلن أهتم هذا المساء (بميليندا) أو دفاتر كا. ولكنني فور دخولي إلى الغرفة التقطت أحد الدفاتر بشكل عشوائي. ألقيت بنفسي على السرير دون خلع ملابسي، وبدأت أقرأ. بعد ثلاث صفحات أو أربع ظهرت أمامي بلورة الثلج هذه:



[٣٠]

متى سنلتقي مرة أخرى؟

سعادة قصيرة

بعد أن مارس الحب كا وإيبك، تحاضنا مضطجعين فترة دون أن يتحركا. العالم كله صامت إلى حد، وكا سعيد إلى حد أن هذه الفترة بدت له طويلة جداً. لهذا السبب فقط نفد صبره، وقفز من السرير، ونظر من النافذة. فيما بعد سيفكر بأن ذلك الصمت الطويل كان اللحظة الأسعد في حياته، وسيسأل نفسه عن سبب إنهائه لحظة السعادة التي لا مثيل لها تلك. وسيجيب بأن السبب هو الاضطراب كأنه سيكون ثمة شيء في الطرف الآخر للنافذة، في الزقاق المغطى بالثلج، ويجب عليه أن يلحقه.

مع أنه ليس ثمة شيء خلف النافذة سوى الثلج النادف. مازال التيار الكهربائي مقطوعاً، ولكن ضوء شمعة مضاءة في المطبخ يتسلل عبر النافذة المتجلدة. ندف الثلج النادفة ببطء تنار بضوء خفيف مائل إلى البرتقالي. فيما بعد أيضاً سيفكر كا بأن قطع اللحظة الأسعد في حياته لأنه لم يحتمل سعادة أكثر. ولكنه في اللحظة الأولى لم يكن يعرف أنه سعيد إلى هذا الحد وهو بين ذارعي إيبك كان ثمة طمأنينة في داخله، وكانت أمراً طبيعياً إلى حد نسيانه بأن حياته قضاها شاعراً بحالة مابين القهر والاضطراب. هذه الطمأنينة تشبه الصمت الذي يسبق القصيدة، ولكنه قبيل مجيء القصيدة يبدو له معنى العالم كله عارياً، ويشعر بالانفعال. ولم يكن ثمة تنوير كهذا داخله لحظة سعادته، بل هنالك براءة أكثر طفلية وأبسط: كأنه سيقول معنى العالم كما يردد الطفل المتعلم الكلمات حديثاً.

خطرت بباله الكلمات التي قرأها عن بنية ندف الثلج في المكتبة بعد الظهر كلمةً كلمة. ذهب إلى المكتبة ليكون جاهزاً فيما لو خطرت بباله قصيدة جديدة عن الثلج. ولكن ليس ثمة قصيدة في عقله الآن. شبه البنية السداسية الطفلية لندف الثلج التي قرأها في الموسوعة لتناغم القصيدة التي تلهم له مفردة مفردة كندف الثلج. في تلك اللحظة فكر بأن الشعر كله يجب أن يشير إلى معنى أعمق.

في اللحظة ذاتها قالت إيبك: «ماذا تفعل هناك؟»

«أنظر إلى الثلج يا روحي.»

يشعر بأن إيبك شعرت بأنه وجد معنى يتجاوز الجمال للبنية الهندسية لندف الثلج، ولكن طرفاً آخر من عقله يعرف بأن هذا لن يكون. من جهة أخرى فإن إيبك قلقة لانشغال كا بشيء آخر عنها. ولشعوره بأنه يرغب كثيراً بإيبك، ولهذا السبب فهو أعزل من أي سلاح فقد سرُّ كا لهذا. وفهم بأن ممارسة الحب منحته قوة ولو كانت قليلة.

سألته إيبك قائلة: «بماذا تفكر».

قال كا: «بأمي» ولم يستطع فهم سبب قوله هذا فجأة، لأن أمه لم تكن في عقله على الرغم أنها ماتت حديثاً. ولكن فيما بعد، حين كان يتذكر هذه اللحظة من جديد، سيضيف أن أمه كانت دائماً في عقله عند سفره إلى قارص.

«أي شيء بأمك؟»

«في مداعبتها شعري في أثناء فرجتنا على الثلج من النافذة وهو يندف في ليلة شتوية»

«هل كنت سعيداً في طفولتك؟»

«حين يكون الإنسان سعيداً لايعرف أنه سعيد. بعد سنوات، قررت أنني كنت سعيداً في طفولتي: في الحقيقة لست كذلك. ولكنني لم أكن تعيساً كما في السنين اللاحقة. في طفولتي لم أهتم لأن أكون سعيداً.»

«متى بدأت تهتم؟»

أراد كا أن يقول: «ليس في أي وقت.» ولكن هذا ليس صحيحاً من

جهة، ومثالياً أكثر من اللازم من جهة أخرى. على الرغم من هذا خطر بباله للحظة أن يقول هذا من أجل التأثير بإيبك. ولكنه الآن ينتظر من إيبك شيئاً أعمق من التأثر.

قال كا: «بدأت التفكير بالسعادة حين لم أجد شيئاً غير التعاسة.» هل فعل حسناً بقوله هذا؟ قلقَ في الصمت. إذا حكى لها عن وحدته وفقره في فرانكفورت كيف يقنعها بالذهاب معه؟ هبت ريح مضطربة في الخارج بعثرت ندف الثلج، سيطر على كا شعور الاضطراب الذي سيطر عليه حين نهض من السرير. شعر الآن بألم العشق والانتظار الذي يؤلم بطنه بقوة أكبر. قبل قليل كان سعيداً إلى حد أن تفكيره بإمكانية فقدان هذه السعادة يذهب بعقله من رأسه. وهذا يجعله يشتبه بالسعادة. كان يريد أن يسأل إيبك: «هل ستذهبين معي إلى فرانكفورت؟» ولكنه كان يخاف من عدم تلقي الجواب الذي يريد.

عاد إلى السرير. احتضن إيبك من الخلف بقوته كلها. قال: «هنالك دكان في السوق. كان يصدر منه مقطوعة (روبريتا) القديمة جداً لببينو دي كابري. أين وجدوها؟»

قالت إيبك: «ثمة عائلات قديمة في قارص لم تستطع ترك المدينة حتى الآن. في النهاية عندما يموت الأب والأم يبيع الأولاد أغراضهم ويذهبون، وهكذا تظهر في السوق أشياء لاتتناسب مع فقر المدينة. في زمن ما كان هنالك تاجر أشياء مستعملة يأتي من اسطنبول في الخريف ويلتقط هذه الأشياء بأسعار رخيصة. حتى هذا لم يعد يأتي.»

إعتقد كا للحظة بأن السعادة الفريدة التي كانت قبل قليل قد وجدها من جديد، ولكن هذا لم يكن الشعور ذاته. فجأة نما بسرعة خوفه من عدم إيجاد لحظة السعادة تلك مرة أخرى، وتحول إلى اضطراب يجرف أمامه كل شيء. شعر خائفاً بأنه لن يستطيع إقناع إيبك بالذهاب إلى فرانكفورت.

قالت إيبك: «هيا يا روحي. لأنهض أنا الآن.»

قولها: «يا روحي» والتفاتتها وهي تنهض وتقبيلها له لم تهدئ كا.

«متى سنلتقي مرة أخرى؟»

«أنا قلقة على أبي. ممكن أن تكون الشرطة قد تعقبتهم.»

قال كا: «وأنا أيضاً قلق عليهم. ولكنني أريد الآن معرفة متى سنلتقي مرة أخرى.»

«لا آتي إلى هذه الغرفة حين يكون أبي في الفندق.»

قال كا: «ولكن الآن لم يعد أي شيء كما كان في السابق» وفكر خائفاً بإمكانية أن يكون كل شيء كما هو عليه في السابق بالنسبة إلى إيبك التي ترتدي ثيابها في الظلام بصمت ومهارة. قال: «لأنتقل إلى فندق آخر. وتأتين فوراً إلى هناك.» خيم صمت قاهر. اضطراب يتغذى بالغيرة واليأس سحب كا إلى داخله وجرفه. فكر بأن يكون لإيبك حبيب آخر. جانب من عقله يذكره بان هذه غيرة عادية لعاشق دون تجربة، ولكن إحساساً أقوى في داخله يقول له بأن يحتضن إيبك بقوته كلها وأن يهاجم العوائق التي تحول بينه وبينها. ولأنه شعر بأن ما سيقوله وما سيفعله على عجل من أجل الاقتراب من إيبك أكثر وأسرع يمكن أن توقعه في وضع صعب بقي صامتاً متردداً.

[٣١]

نحن لسنا مخبولين. نحن فقراء فقط

الاجتماع السري في فندق آسيا

كان الشيء الذي لحقت به زاهدة عربة الخيل التي ستأخذ السيد طورغوت وقديفة إلى الاجتماع السري في فندق آسيا، ولم يستطع معرفته كما في الظلام حين كان ينظر من النافذة منتظراً إيبك قفازين صوفيين. من أجل أن يقرر السيد طورغوت مايلبسه على الاجتماع فتح على السرير سترتيه السوداء والرصاصية الباقيتين من سنوات التدريس، والقبعة المدورة التي كان يضعها في احتفالات أعياد الجمهورية وأيام التفتيش، وربطة العنق ذات المربعات التي لم يعقدها منذ سنوات سوى ابن زاهدة للعب فقط. حين رأت قديفة أن أباها متردد فيما سيلبسه مثل امرأة حالمة ستذهب إلى حفلة تنكرية اختارت ما سيلبسه قطعة قطعة، وزرت قميصه بيدها، وألبسته سترته ومعطفه، وفي اللحظة الأخيرة أدخلت بصعوبة يدي أبيها في القفازات المصنوعة من جلد كلب. في هذه الأثناء تذكر السيد طورغوت قفازاته الصوفية القديمة، وعاد قائلاً: «أَوَجَدُوها». في هذه الأثناء بحثت إيبك وقديفة في الخزانة وقعر الصناديق وكل زاوية من زوايا البيت، وبعد أن وجدتاهما، ورأتا ثقوب العث فيهما رمتاهما جانباً. وعاند السيد طورغوت وهو في عربة الخيل قائلاً: «لا أذهب من دونهما» وحكى لهما بأن المرحومة زوجته حبكتهما له وأخذتهما إلى السجن عندما دخله أيام العمل اليساري. وقديفة التي تعرف أباها أكثر شعرت فوراً بأن ثمة خوف في هذا الطلب أكثر من الذكرى. وبعد أن لبس القفازات وتقدمت العربة تحت الثلج استمعت قديفة إلى ذكريات أبيها في

السجن (ذرف دموعه عند وصول رسائل زوجته، تعلمه الفرنسية بنفسه، ارتداء هذه القفازات في ليالي الشتاء ونومه) محملقة كأنها تستمع إليها أول مرة، وقالت: «أنتم إنسان جريء جداً يا أبي العزيز.» وكما يفعل كلما سمع (في السنوات الأخيرة ضعف سمعه) هذه العبارة من ابنتيه اغرورقت عيناه بالدموع، واحتضن ابنته، وقَبَّلها بخشية. لم يقطع التيار الكهربائي في الشوارع الجديدة التي دخلتها العربة.

بعد أن نزل السيد طورغوت من العربة قال: «يا لهذه الدكاكين التي فتحت هنا! توقفي لننظر إلى هذه الواجهات.» ولأن قديفة فهمت بأن قدمي أبيها تنجرّان إلى الخلف لم تضغط عليه كثيراً. وعندما قال السيد طورغوت بأنه يريد أن يشرب كأساً من (الاهلامور)(*) وهكذا إذا كان وراءهما تخفٍ فسيضعانه في موقف صعب، دخلا إلى مقهى، وجلسا صامتين يتابعان مشاهد الملاحقات في التلفاز. في أثناء خروجهما التقى السيد طورغوت بحلاقه القديم فعاد إلى الداخل وجلس. همس السيد طورغوت لابنته: «ترى هل تأخرنا، وسيكون هذا معيباً؟ ماذا لو لم نذهب أبداً؟» وتَصَنَّعَ أنه يتنصت إلى الحلاق البدين. وحين تأبطته قديفة من ذراعه لم يذهبا إلى الباحة الخلفية بل إلى دكان بيع القرطاسية، وقضى وقتاً طويلاً باختيار قلم جاف كحلي. وحين خرجا من الباب الخلفي لكهرباء أرسين، وأدوات التمديدات إلى باحة داخلية، وتوجها نحو الباب الخلفي المظلم لفندق آسيا رأت قديفة أن لون وجه أبيها قد شحب.

كان المدخل الخلفي للفندق ساكناً. اندس الأب وابنته جيداً ببعضهما بعضاً، وانتظرا. لم يكن ثمة أحد خلفهما. بعد عدة خطوات أظلم المكان في الداخل بحيث لم تستطع قديفة إيجاد الدرج المؤدي إلى الصالة إلا بمساعدة يديها. قال السيد طورغوت: «لاتشديني من ذراعي.» الصالة ذات النوافذ المرتفعة أسدلت ستائرها السميكة وهي شبه مظلمة. الضوء الشاحب المتسلل من مصباح ضعيف وقذر ينير بصعوبة بالغة وجه كاتب الاستقبال غير الحليق والمهلهل. ميزا بصعوبة شخصين أو أكثر في الصالة أو على الدرج وسط

(*) زهر شجرة تسمى بهذا الاسم ويشرب مغليها. (المترجم).

الظلام. هذا الفندق الذي كان ينزل فيه التجار الروس الأغنياء قبل ثمانين عاماً، وبعد ذلك الأتراك القادمون من اسطنبول من أجل أعمال التجارة مع روسيا، وفيما بعد ذوو الجذور الاستقراطية والعملاء الانكليز المزدوجون الذين يدخلون الجواسيس من الحدود إلى الاتحاد السوفييتي عبر أرمينيا، أما الآن فتنزل فيه نساء جورجيات وأوكرانيات يعملن في تجارة الحقيبة والدّعارة. الرجال الذين يأتون من قرى قارص بداية يفتحون غرفاً لهن. بعد ذلك يقضون معهن حياة شبه المتزوجين، وحين يعودون مساء في الحافلات الصغيرة إلى قراهم، تخرج النساء من غرفهن ويشربن في البار المظلم شاياً بالكونياك. في أثناء صعودهما الدرج الذي كان مغطى في يوم من الأيام بسجادة حمراء التقيا بشقراء متعبة من تلك النساء، وهمس السيد طورغوت لابنته: «يقال بأن فندق (غراند) الذي نزل فيه (عصمت باشا)(*) في لوزان هكذا ينزل فيه أشخاص من جنسيات مختلفة» وأخرج قلمه من جيبه ثم قال: «وأنا أيضاً سأوقع البيان بقلم جديد كما فعل عصمت باشا في لوزان.» لم تستطع تحديد ما إذا كان أبوها قد توقف مطولاً من أجل الراحة أم التأخر. وعند باب الغرفة رقم ٣٠٧ قال السيد طورغوت: «سنوقع فوراً، ونخرج».

كانت الغرفة مزدحمة بحيث اعتقدت قديفة لأول وهلة بأنها دخلت غرفة خاطئة. حين رأت كحلياً يجلس عند النافذة مع اثنين من الإسلاميين الشباب مقطباً وجهه، سحبت أباها إلى تلك الجهة وأجلسته. على الرغم من وجود مصباح في السقف، وآخر على الطاولة بشكل السمكة فالغرفة غير منارة جيداً. السمكة المصنوعة من (الباكاليت) تنتصب على ذيلها، وتمسك في فمها مصباحاً كان مخبئاً في عينها ميكروفوناً للدولة.

فاضل أيضاً كان في الغرفة. نهض على قدميه فور رؤيته قديفة، ولكنه لم يجلس مباشرة مع الآخرين الذين وقفوا احتراماً للسيد طورغوت، وبقي مدة ينظر معجباً كأنه مسحور. اعتقد بعض الأشخاص الذين في الغرفة بأنه سيقول شيئاً، ولكن قديفة لم تنتبه إليه حتى مجرد انتباه.

(*) عصمت باشا هو عصمت إينونو أول رئيس حكومة تركي، وثاني رئيس جمهورية. (المترجم)

كانت منتبهة إلى التوتر الذي يبدو منذ اللحظة الأولى على كحلي وأبيها.

اقتنع كحلي بأن القومي الكردي الذي سيوقع على البيان من أجل نشره في (فرانكفورتر روندشاو) سيؤثر في الغربيين إذا كان ملحداً. ولكن الشاب النحيل الشاحب الوجه الذي أُقنع بصعوبة اختلف مع أصدقائه في الرابطة خلافاً عميقاً حول التعابير التي ستوضع في البيان. والآن جاء الثلاثة، ويجلسون متوترين منتظرين دورهم بالكلام. ولأن هذه الروابط والتي تكون في بيت أحد أعضاء لجانها المركزية يجتمع فيها العاطلون عن العمل والغاضبون الأكراد المعجبون بالفدائيين الذين في الجبال، تحظر بين فينة وأخرى، ويعتقل إداريوها باستمرار ويضربون ويعذبون كان من الصعب إيجاد هؤلاء الشبان بعد الانقلاب. المشكلة الأخرى أن المحاربين في الجبال يتهمون هؤلاء الشبان بالإضطجاع في غرف المدينة الدافئة مستمتعين، ويمحاباة دولة الجمهورية التركية. والاتهامات بعدم إرسال مرشحين فدائيين إلى الجبال بالعدد الكافي، وبقاء بعض الأعضاء حتى الآن خارج السجن خرب معنوياتهم تماماً.

انضم إلى الاجتماع من الجيل السابق «اشتراكيان» في الثلاثينيات من عمريهما. علما من الشبان الأكراد في الرابطة بوجود بيان سيعطى للصحافة الألمانية عن طريق التفاخر، وثمة قليل من الاستشارة في فتح الموضوع. ثمة شعور بالانسحاق في هذين العنصرين اللذين يبدو عليهما التقدم في السن باكراً لأن الاشتراكيين المسلحين لم يعودوا أقوياء في قارص كما في السابق، ولايستطيعون القيام بعمليات مثل قطع طريق أو قتل شرطي، أو وضع لفة متفجرة في مكان ما دون إذن الفدائيين الأكراد ومساعدتهم. وقالا بأنه مازال في أوروبا كثير من الماركسيين جاؤوا إلى الاجتماع دون دعوة. وبجانب الاشتراكي السابق الجالس عند حافة الجدار متضايقاً ثمة شخص نظيف الوجه مريح المظهر، ويشعر بانفعال إضافي لأنه سيبلغ الدولة بتفاصيل الاجتماع. لايفعل هذا لسوء نية ولكن ليحول دون تعذيب المنظمات على يد الشرطة في حين لاضرورة لهذا. يخبر الدولة متضايقاً قليلاً بالعمليات التي يستهين بها، وفيما بعد يجدها غير ضرورية، ومن جهة أخرى يفاخر بمشاركته في هذه العمليات إرضاء لتمرد قلبه، ويتكلم بتلك المفاخرة للجميع عن حوادث

إطلاق النار، والخطف والضرب، والتفجير، والقتل.

كأن كل واحد واثق أن الشرطة تتنصت على الاجتماع، أو على الأقل هنالك بضعة مخبرين في هذا الزحام إلى حد أن أحداً لم يتكلم في البداية. المتحدثون ينظرون إلى الخارج عبر النافذة، ويقولون مازال الثلج يندف، أو ينبه أحدهم الآخر قائلاً: «لاتطفئوا سيجارتكم على الأرض» استمر الصمت حتى نهضت خالة أحد الشبان الأكراد غير الملفتة للنظر وحكت كيف فقدت ابنها (مساءَ أحد الأيام قرعوا الباب وأخذوه). قلق السيد طورغوت من الحكاية التي استمع إليها بنصف أذن. يعتبر أن اختطاف الشبان الأكراد في منتصف الليل وقتلهم عملاً مقرفاً، ولكنه يشعر بداخله أنه ليس ممكناً القول بأنه «بريء». بينما كانت قديفة تمسك بيد أبيها حاولت قراءة وجه كحلي الشاحب والساخر. يفكر كحلي بأنه وقع في فخ، ولكنه إذا خرج قلق من سخرية الجميع له فيجلس دون إرادته.

فيما بعد: ١. الشاب «الإسلامي» الجالس بجانب فاضل والذي ثبت بعد أشهر بأن له علاقة بقتل مدير معهد المعلمين عمل على إثبات أن أحد عملاء الدولة قد ارتكب هذه الجريمة. ٢. قدم الشوريون معلومات مطولة عن أصدقائهم الذين يضربون عن الطعام في السجن. ٣. الشباب الأكراد الثلاثة من الرابطة هددوا بأنهم سيسحبون تواقيعهم إذا لم ينشر البيان في (فرانكفورتر روندشاو) وقرؤوا نصاً طويلاً حول مكانة الثقافة الكردية وآدابها في التاريخ العالمي متيقظين وغاضبين.

حين سألت أم المفقود عن «الصحفي الألماني» الذي سيقبل طلبها نهضت قديفة على قديمها وحكت بصوت هادئ بأن كا في قارص، وأنه لم يأت إلى الاجتماع لكي لايوضع «حياده» بالنسبة إلى البيان موضع الشك. الذين في الغرفة غير معتادين على نهوض امرأة هكذا وتحدثها بثقة في الاجتماعات السياسية فاحترمها الجميع. أم المفقود احتضنت قديفة وبكت. ووعدت قديفة بأن تعمل كل شيء من أجل النشر في ألمانيا، وأخذت من يدها ورقة مكتوب فيها اسم ابنها.

العنصر اليساري المخبر بنية حسنة كتب في هذه الأثناء المسودة الأولى للبيان على ورقة دفتر وقرأه متخذاً موقفاً عجيباً.

كان عنوان المسودة: «بلاغ إلى الرأي العام الأوروبي حول أحداث قارص.» في هذه الأثناء ابتسم فاضل، وشرح فيما بعد لكا عما شعر به قائلاً: «شعرت لأول مرة أن مدينتي الصغيرة يمكن أن تدخل تاريخ العالم في يوم ما.» وهذا سيدخل في قصيدة كا المعنونة: «الانسانية كلها والنجوم».

هذا ما عارضه كحلي فوراً باندفاع غريزي فصرح قائلاً: «نحن لانخاطب أوروبا. نحن نخاطب الانسانية كلها، ويجب ألا يتيه أصدقاؤنا نشر بياننا في فرانكفورت وليس في اسطنبول أو قارص. الرأي العام الأوروبي ليس صديقاً لنا، هو عدونا. وهذا ليس لأننا أعداء له، بل لأنهم يستهينون بنا غريزياً»

قال اليساري الذي يكتب مسودة البيان بأن البورجوازيين الأوروبيين فقط يستهينون بنا وليست الإنسانية كلها. الفقراء والعمال أخوتنا. ولكن أحداً لم يصدقه بهذا بمن فيهم صديقه صاحب التجربة.

قال أحد الشبان الأكراد الثلاثة: «ليس هنالك في أوروبا فقير مثلنا».

سأل السيد طورغوت قائلاً: «يا ابني، هل ذهبتم إلى أوروبا؟»

«لم أجد الفرصة بعد، ولكن زوج أختي عامل في ألمانيا.»

ضُحك بشكل خفيف على هذا. نهض السيد طورغوت عن كرسيه، وقال: «على الرغم أن هذا يعني لي الكثير ولكنني لم أذهب إلى أوروبا. هذا ليس مضحكاً. ليرفع أيديهم الذين بيننا وذهبوا إلى أوروبا رجاءً».

لم يرفع يده أحد بمن فيهم كحلي الذي قضى سنوات في ألمانيا.

تابع السيد طورغوت قائلاً: «ولكننا جميعاً نعرف ما تعنيه أوروبا. أوروبا هي مستقبلنا وسط الإنسانية. لهذا السبب فإن كان حضرة السيد ـ أشار إلى كحلي ـ يستخدم الإنسانية كلها مكان أوروبا، فلنغير عنوان بياننا على ذلك النحو.»

قال كحلي باسماً: «أوروبا ليست مستقبلي. لا أفكر أبداً بالاستهانة بنفسي بتقليدهم والتشبه بهم طوال حياتي.»

قال السيد طورغوت: «الكرامة القومية ليست حكراً على الإسلاميين فقط، بل هي للجمهوريين أيضاً... إذا كتبنا الإنسانية مكان أوروبا فما الذي سيحدث؟»

قرأ كاتب النص: «بلاغ إلى الإنسانية حول أحداث قارص.» ثم أضاف: «هذه تحمل ادعاءً كبيراً.»

فكر باقتراح السيد طورغوت بوضع «الغرب» مكان «الانسانية» ولكن أحد الشابين المجاورين لكحلي المحبّب الوجه اعترض على هذا. وباقتراح أحد الشبان الأكراد الناشز الصوت بان يستخدم تعبير: «بلاغ» فقط، تم الاتفاق.

مسودة البيان كانت قصيرة على عكس ما يحدث في أوضاع كهذه. لم ينبس أحد إزاء الجمل الأولى حول ظهور أن المرشحين الإسلاميين والأكراد سيفوزون بالانتخابات التي ستجري في قارص، وهذا كان سبب الانقلاب الذي «مُثِّل»، ولكن السيد طورغوت اعترض: شرح بان استطلاع الرأي في أوروبا لايحمل ذرة أهمية، وأن الناخب هناك يغير رأيه قبل الانتخاب بليلة، حتى إنه يمكن لسبب تافه جداً أن يصوت لحزب مناقض تماماً للحزب الذي كان في عقله وهو في طريقه إلى صندوق الانتخاب، ولأن هذا أمر طبيعي جداً هناك لا يمكن القول بأن المرشح الفلاني سيكسب الانتخابات.

أجاب العنصر اليساري المخبر الذي يحضر البيان: «ولكن الجميع يعرف بأن الانقلاب حدث قبيل الانتخابات، وهو ضد نتائج الانتخابات».

قال السيد طورغوت: «في النهاية هؤلاء أعضاء فرقة مسرحية. ولأن الثلج قطع الطرق نجحوا إلى هذا الحد. خلال عدة أيام سيعود كل شيء إلى حالته الطبيعية.».

قال شاب آخر: «إذا كنتم غير معارضين للانقلاب فلماذا أنتم هنا؟»

لم يفهم ما إذا كان السيد طورغوت قد سمع هذه العبارة الخاوية من الاحترام والتي أطلقها ذو الوجه الأحمر الشمندري الجالس بجانب كحلي. في اللحظة ذاتها وقفت قديفة على قدميها (هي الوحيدة التي تقف على قدميها حين تتكلم، ولا أحد ينتبه إلى غرابة هذا الأمر بمن في ذلك هي نفسها) وقالت وعيناها تقدح شرراً بأن أباها نام في السجن سنوات بسبب فكره السياسي، وهو دائماً ضد ظلم الدولة.

جذبها أبوها من معطفها فوراً وأجلسها، ثم قال: «جوابي على سؤالكم هو أنني جئت إلى هذا الاجتماع لنثبت للأوروبيين بأن هنالك ديمقراطيين وعقلانيين أيضاً في تركيا.»

قال ذو الوجه الأحمر بنبرة ساخرة: «إذا منحتني جريدة ألمانية كبرى سطرين فلن أعمل بداية على إثبات هذا». وكان سيقول أموراً أخرى غالباً، ولكن كحلياً أمسكه من ذراعه وأجلسه.

هذا القدر كفى السيد طورغوت لجعله نادماً على المجيء إلى هذا الاجتماع. جعل نفسه يصدق بأنه دخل وهو مار من هنا. وبجو المشغول البال بأمور أخرى نهض، وخطا خطوة أو خطوتين نحو الباب، وتعلقت عيناه بالثلج النادف في الخارج على شارع (قرة باغ)، وسار نحو النافذة. تأبطت قديفة ذراعه وكأنه لايستطيع المشي دون مسند. نظر الأب والبنت مطولاً إلى عربة خيل تمر في الشارع تحت الثلج وكأنهما طفلان حزينان يريدان نسيان همومهما.

لم يستطع شاب الرابطة الكردي ناشز الصوت التغلب على فضوله، فاندس قرب النافذة، وبدأ ينظر إلى أسفل نحو الشارع مع الأب وابنته. الجمع الذي في الغرفة يتابعهما باحترام وقلق، وهنالك شعور بخوف من مداهمة أو قلق. ووسط اضطراب توصلت الأطراف إلى اتفاق على القسم المتبقي من البيان خلال فترة قصيرة.

في البيان عبارة تفيد بأن حفنة من المغامرين نفذوا الانقلاب العسكري. اعترض كحلي على هذا. وقوبلت بشبهة عبارته المقترحة المتضمنة عبارات أشمل والتي تعطي انطباعاً للغربيين بأن انقلاباً عسكرياً قد عمل في تركيا كلها. وهكذا تم الاتفاق على عبارة «الانقلاب المحلي المدعوم من أنقرة». وأفسح في المجال أيضاً لعمليات إطلاق النار على الأكراد وطلاب ثانوية الأئمة والخطباء وأخذهم من بيوتهم وقتلهم، وما تعرضوا له من ظلم وتعذيب. وعبارة «عدوان شامل على الشعب» أخذت شكلها على نحو: «عدوان على الشعب وقيمه المعنوية والدينية.» ومع التعديلات التي أجريت على الجملة الأخيرة ينادي البيان العالم كله وليس الرأي العام الأوربي فقط بإدانة دولة الجمهورية التركية. حينما كانت تقرأ العبارة التقت عينا السيد طورغوت بعيني كحلي وشعر بأنه سعيد. وشعر بندم لوجوده هنا.

قال كحلي: «إذا لم يبق لأحد اعتراض فلنوقّع لطفاً. لأنه يمكن أن يداهم هذا الاجتماع في أية لحظة.» تدافع الجميع وسط الغرفة للتوقيع في

أسرع وقت ممكن على البيان الذي صار في منتهى الفوضى من خلال التشطيب ودوائر التصحيح المشار إليها بأسهم. ولحظة انتهاء بضع أشخاص من عملهم ومحاولتهم الخروج، صرخت قديفة.

«توقفوا! أبي يريد أن يقول شيئاً.»

هذا مازاد الاضطراب. أرسل كحلي الشاب الأحمر الوجه ليمسك باب الخروج، وقال: «لا أحد يخرج. لنستمع الآن لاعتراض السيد طورغوت.»

قال السيد طورغوت: «ليس لدي اعتراض. ولكنني قبل أن أوقع أريد شيئاً من هذا الشاب» فكر لحظة، ثم أضاف: «لا أريده منه وحده، بل أريده من كل شخص هنا» وأشار إلى الشاب الأحمر الوجه الذي جادله قبل قليل، والآن يمسك بالباب كيلا يخرج أحد: «إذا لم يجبني هذا الشاب أولاً، بعد ذلك تجيبوني جميعكم فلن أوقع على البيان» والتفت نحو كحلي ليرى مدى تصميمه.

قال كحلي: «اسألوا سؤالكم لطفاً. إذا كان بيدنا أن نجيب فسنجيب بسرور.»

«قبل قليل ضحكتم مني جميعكم. والآن قولوا: إذا منحتكم جريدة ألمانية كبيرة سطرين فماذا تقولون للغربيين؟ بداية ليقل هو.»

الشاب الأحمر الوجه قوي، وصاحب ادعاء في المواضيع كلها ولكنه غير جاهز لسؤال كهذا. وبينما كان يتمسك أكثر بأكرة الباب، توسل بنظراته مساعدة من كحلي.

قال كحلي متصنعاً بصعوبة ابتسامة: «قل ما يمليه عليك قلبك ولو كان في سطرين لنذهب، وإلا فإن الشرطة ستداهم المكان هنا.»

عينا الشاب الأحمر الوجه ذهبتا بعيداً كأنه يتذكر جواب سؤال يعرفه جيداً في امتحان هام قال كحلي: «إذن لأبدأ أنا بالقول.. طز بسادة أوروبا.. كنت أقول يكفيني ألا يلقوا بظلالهم علي مثلاً.. ولكننا نعيش في ظلالهم.»

قال السيد طورغوت: «لاتساعدوه. سيقول ما يمليه عليه قلبه. أنتم ستتكلمون في النهاية» وابتسم للشاب الأحمر الوجه المتلوي في الظلام متردداً، وأضاف: «إعطاء القرار صعب جداً. لأن هذه قضية شاقة، لا تحل بالانتصاب قرب الباب.»

قال واحد من الخلف: «ذريعة، ذريعة! لايريد أن يوقع البيان.»

كل شخص انطوى على أفكاره. بضعة أشخاص ذهبوا إلى النافذة، ونظروا شاردين إلى عربة خيل تمر من شارع (قرة باغ) تحت الثلج. وحين عبر فاضل عن لحظة «الصمت الكبير» وهو يحكي هذا لكا سيقول: «غدونا أكثر قوة من أي وقت مضى في تلك اللحظة.» بداية قطع هذا الصمت هدير طائرة تمر في الأعلى، وسط الظلام. وبينما يتنصت الجميع بانتباه للطائرة، همس كحلي قائلاً: «هذه هي الطائرة الثانية التي تمر اليوم.»

صرخ أحدهم قائلاً: «أنا خارج»

كان هذا رجلاً شاحب الوجه كالح السترة، في الثلاثينيات من عمره، لم ينتبه أحد إليه. هو أحد ثلاثة أشخاص في الغرفة صاحب عمل ومشغولية. طباخ في مشفى التأمينات، وينظر بين حين وآخر إلى ساعته. دخل مع عائلات المفقودين. وبحسب ما حُكي فيما بعد فإن أخاه الأكبر المتهم بالسياسة قد أخذ إلى المخفر للإدلاء بإفادته، ولم يعد ثانية. وبحسب الإشاعات فإن هذا الرجل قد طلب من الدولة وثيقة «وفاة» ليتمكن من الزواج من زوجة أخيه الجميلة. لهذا السبب، بعد سنة من اختطاف أخيه راجع مديرية الأمن، ووكالات المخابرات السرية، والادعاء العام، والقيادة العسكرية وطرد، وخلال الشهرين الأخيرين انضم إلى أسر المفقودين ليتمكن من الحديث معهم أكثر من رغبة بالانتقام.

قال: «ستقولون من خلفي بأنني خوّاف. أنتم خوافون. الخوافون أوربيوكم، واكتبوا أنني قلت عنهم هذا.» وصفع الباب خلفه.

في هذه الأثناء سئل عن (هانس هانسن)، وعلى عكس ما كانت تخشى منه قديفة فقد أجاب كحلي بلغة مهذبة إلى أبعد حد بأنه صحفي ألماني حسن النية، يهتم بصدق «بقضايا» تركيا.

قال واحد من الخلف: «عليك أن تخاف أصلاً من حسني النية الألمان.» سأل عما إذا كانت ستنشر تصريحات خاصة أخرى أم لا. قالت قديفة بأن هذا ممكن.

قال أحدهم: «يا أصدقاء، علينا ألا ننتظر بعضنا بعضاً من أجل أخذ دورنا في الكلام مثل تلاميذ المدرسة.»

بدأ الشاب الكردي الآخر من الرابطة كلامه قائلاً: «أنا أذهب إلى الثانوية. وقد فكرت من قبل بهذا الذي سأقوله.»

«هل فكرتم بأنكم في يوم من الأيام ستدلون بتصريح لصحفي ألماني؟»

قال الشاب بصوت معقول جداً، ولكن حالته منكمشة: «نعم. هكذا بالضبط، وأنا أيضاً فكرت سراً مثلكم جميعاً بأن الفرصة ستسنح لي، وأعلن للعالم رأيي.»

«أنا لا أفكر بأمور كهذه أبداً..»

قال الشاب المنكمش: «ما أقوله بسيط جداً. لتكتب هذا جريدة فرانكفورت: نحن لسنا مخبولين! نحن فقراء فقط! ومن حقنا طلب الفصل في هذا الأمر.»

«استغفر الله.»

سئل من الخلف: «ماذا تقصدون بنحن يا سيدي؟ هل الأتراك أم الأكراد؟ أم الآذريون؟ أم الشراكس؟ أم القارصيون؟ من؟»

واستمر بالقول شاب الرابطة المنكمش: «هذه هي أكبر مخاتلة يتعرض لها الإنسان، وأكبر خديعة: دائماً هنالك خلط بين الفقر والخبل.»

«ماذا يعني الخبل؟ ليشرح هذا.»

«مع أنه في تاريخ الإنسان المشرف ثمة من انتبه إلى هذا الخلط، وكان هنالك دائماً رجال دين، وأخلاق قالوا بأن للفقراء علمهم وإنسانيتهم، وذكاءَهم، وقلوبهم. إذا رأى هانس هانسن رجلاً فقيراً فيشفق عليه، ولعله لايفكر مباشرة بأن هذا الفقير استهلك فرصة دون جدوى، وهو مخبول، دون إرادة، سكير.»

«أنا لا أعرف شيئاً عن السيد هانسن، ولكن أي شخص يفكر على هذا النحو حين يرى فقيراً.»

قال الشاب الكردي المنكمش: «لطفاً اسمعوا! لن أتكلم كثيراً. يمكن أن يشفق على الفقراء فرادى، ولكن عندما يكون هنالك قوم فقيرون فتعتقد الدنيا بأن هؤلاء القوم مخبولون، دون عقل، كسولون، قذرون، غير ناجحين، ويُشفق على هؤلاء، ويُضحك عليهم، وتعتبر ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم

مضحكة. فيما بعد يخجلون من هذه الأفكار، ويدعون الضحك، وكي لايتمرد عمال هؤلاء القوم الذين يمسحون الأرض ويعملون في أردأ الأعمال، ويجدون بأن ثقافتهم غريبة، وحتى أنهم يتصرفون وكأنهم سمعوا بها.»

«ليقل بعد هذا عن أي قومية يتكلم.»

تدخل الشاب الكردي الآخر قائلاً: «لأضف هذا أيضاً: مع الأسف لم يعد بنو الإنسان يضحكون من الذين يقتلون ويذبحون ويظلم بعضهم بعضاً. فهمت هذا مما شرحه لي زوج أختي الذي في ألمانيا عندما أتى في الصيف الماضي إلى قارص. لم يعد العالم يتحمل القوميات الظالمة.»

«هل هذا يعني أنك تهددنا باسم الغربيين؟»

وتابع الشاب الكردي المنكمش قائلاً: «وهكذا حين يصادف غربي شخصاً من قومية فقيرة يشعر غريزياً باستهانة لذلك الشخص. ويعتقد فوراً أنه فقير إلى هذا الحد لأنه ينتمي إلى قومية غبية. وهنالك احتمال كبير بأن الغربي يعتقد أن رأس هذا الشخص مليء بالخزعبلات والغباء الذي جعل قوميته كلها فقيرة وبائسة.»

«ولا يعتبر غير محق كما يبدو..»

«تحدث بصراحة! أنت أيضاً تجدنا أغبياء كما يجدنا ذلك الكاتب المعجب بنفسه. إن ذلك الملحد الذي لا إله له على الأقل، قبل أن يموت ويذهب إلى جهنم ظهر في بث حي للتلفاز، واستطاع القول بجرأة وهو ينظر بأعيننا جميعاً بأنه يجد المنتمين إلى القومية التركية كلهم أغبياء.»

«عدم المؤاخذة، ولكن الشخص الذي ظهر في البث الحي لايستطيع رؤية عيون الذين يتفرجون عليه.»

قالت قديفة: «يا حضرة السيد لم يقل: رأى. قال: ينظر.»

قال اليساري المتعاون الذي يدون الملاحظات: «لطفاً يا أصدقاء. علينا ألا نتناقش وكأننا ضد بعضنا بعضاً كما لو أننا في جلسة مفتوحة.»

«إذا لم يقل بشهامة أية قومية يقصد بكلامه، فلن أسكت. إن إعطاء تصريح يستهين بنا لجريدة ألمانية هو خيانة للوطن، ولنعرف هذا.»

قال الكردي المنكمش بعد أن نهض على قدميه: «أنا لست خائناً

للوطن. أنا أيضاً أشارككم الفكر نفسه. لهذا السبب، إذا سنحت لي الفرصة فلن أذهب إلى ألمانيا حتى لو أعطوني تأشيرة دخول، وأريد أن يكتب هذا.»

«لا أحد يعطي أمثالك العاطلين عن العمل ولايستطيعون عمل شيء تأشيرة دخول إلى أوروبا.»

«قبل تأشيرة الدخول، الدولة لاتعطيه جواز سفر.»

قال الشاب المنكمش بتواضع: «نعم، لايعطونني. وإذا أعطَوْني، وذهبت، وإذا صادف بأن أول غربي ألتقيه في الشارع رجل طيب، سأعتقد ـ ولأنه غربي فقط ـ بأنه يستهين بي حتى لو لم يستهن بي، وسأكون قلقاً. لأن الأتراك في ألمانيا يظهرون خجلين من حالتهم.. حينئذ ثمة عمل واحد لكي لايشعر المرء بالإهانة وهو أن يثبت لهم بأنه يفكر مثلهم. وهذا غير ممكن من جهة، وأمر يُحدِث شرخاً في الكرامة من جهة أخرى.»

قال الصحفي الآذري العجوز: «يا ابني. كانت بداية كلامك بشعة، ولكنك أنهيته بشكل جيد. على الرغم من هذا علينا ألا نجعل الجريدة الألمانية تكتب هذا، سيسخرون منا..» سكت لحظة، بعد ذلك طرح السؤال بمكر: «ماهي القومية التي ذكرتها؟»

حين جلس الشاب الرابطي دون أن يعطي جواباً، صرخ ابن الصحفي العجوز الجالس بجانبه قائلاً: «إنه يخاف.»

وبسرعة أجابوا: «إنه محق بالخوف»، «هو لايعمل لحساب الدولة مثلكم.» ولكن الصحفي العجوز لم يزعل من هذا، وكذلك ابنه. الحديث بشكل جماعي، والممازحات بين الحين والحين، والتعليقات ربطت الذين في الغرفة بجو مسرح ولهو. وكتب كا الذي سمع من فاضل ما جرى على دفتره بأن هذا النوع من الاجتماعات السياسية يمكن أن تستمر لساعات طويلة، لهذا فإن الشرط الوحيد لمجموعة الرجال المدخنين ذوي الشوارب المقطبي الحواجب هو اللهو دون أن ينتبهوا إلى أنهم يلهون.

قال شاب اسلامي آخر بحالة من المباهاة: «نحن لايمكننا أن نكون أوروبيين. لعل الذين يعملون على إدخالنا في قالبهم بالقوة يمكنهم أن يعملوا هذا في النهاية بِكَيٍّ أرواحنا بالدبابات والبنادق، ولكنهم لن يتمكنوا من تغيير أرواحنا أصلاً.»

قال أحدُ الشبانِ الأكراد ساخراً بصوت كأنه مأخوذ من الأفلام التركية: «يمكنكم أن تمتلكوا جسدي، ولكن من المستحيل أن تمتلكوا روحي.»

الجميع ضحك لهذا. والشاب المتحدث شاركهم الضحك بشكل متسامح.

قفز أحد الشبان الجالسين بجوار كحلي قائلاً: «وأنا أيضاً سأدلو بدلوي. على الرغم أن أصدقاءنا لايتحدثون كعديمي الكرامة مقلدي الغرب فإن هنالك جواً كأننا فيه نعتز لأننا لسنا أوروبيين» والتفت إلى الرجل الذي يدون الملاحظات ذي السترة الجلدية، وقال بأداء فتوة مهذب: «لطفاً لاتكتب ما قيل من قبل يا عزيزي. اكتب الآن: أشعر بالاعتزاز في جانبي غير الأوروبي، وأعتز بما يجده الأوروبي فيّ من طفولية وظلم وبدائية. إذا كانوا جميلين فسأكون بشعاً، وإذا كانوا أذكياء فسأكون غبياً، وإذا كانوا حداثيين فسأبقى صافياً.»

لم تحصل هذه العبارات على موافقة أبداً. ولأن كل ما قيل في الغرفة قوبل بالمزاح ابتسم قليلاً. تدخل أحدهم ودس عبارة: «أنت مخبول أصلاً.» ولكن في هذه الأثناء سيطرت على اليساريّين المسنّين قليلاً والمرتدين سترتين جلديتين موجة من العسال، ولم يعرف من قال هذه العبارة.

لحظتئذٍ قفز الشاب الأحمر الوجه، وبدأ بإلقاء قصيدة: «أوروبا، أه يا أوروبا/ قفي لنر هناك / علينا ألا نرضخ للشيطان/ في الحلم بأنفسنا» هكذا بدأت، ولكن فاضل سمع بقيتها بصعوبة كبيرة بسبب السعال، وإلقاء العبارات، والقهقهات. ولكنه لم ينقل لكا من القصيدة نفسها، ولكنه نقل ما تذكره من الاعتراضات، وكتب ثلاثة من تلك الاعتراضات على الورقة التي كتب فيها سطرين للرد على أوروبا من جهة، ودخلت قصيدة «الانسانية كلها والنجوم» التي سيكتبها فيما بعد من جهة أخرى:

١ ـ قال العنصر اليساري السابق المقترب من أواسط العمر: «علينا ألا نخاف من هناك، ليس ثمة ما يخيف هناك.»

٢ ـ الصحفي العجوز الآذري الذي يصرخ كل حين «أية قومية تقصد» وبعد أن قال: «لن نتخلى عن تركيتنا وعن ديننا» قدم تفاصيل مطولة عن الحملات الصليبية، ومجازر اليهود، والهنود الحمر المقتولين في أمريكا،

والمسلمين الذين قتلهم الفرنسيون في الجزائر، قام أحد المخربين وسط الجمع بطرح سؤال ماكر قائلاً: «أين ملايين الأرمن الذي كانوا في قارص والأناضول.» ولكن كاتب الملاحظات أشفق عليه، ولم يدون من هو على ورقته.

٣ ـ قال أحدهم «لا أحد يستطيع ترجمة قصيدة طويلة وفارغة إلى هذا الحد، ولايستطيع السيد هانس هانسن نشرها في جريدته.» وهذه كانت مناسبة لشكاية الشعراء الذين في الغرفة (كانوا ثلاثة) من نحس الشعراء الأتراك في العالم وعزلتهم.

بعد أن أنهى الشاب الأحمر الوجه قصيدته التي اتفق الجميع على تفاهتها وبدائيتها، وهو يتصبب عرقاً صفق له بضعة أشخاص بشكل ساخر. وبينما كان يقال بأنه لو نشرت هذه القصيدة في الجريدة الألمانية فإنها ستساعد على السخرية منه أكثر. اشتكى الشاب الكردي الذي يقيم زوج أخته في ألمانيا من هذا الأمر.

«إذا كتبوا هم شعراً أو غنوا أغنيات فيتحدثون فيها عن الإنسانية. هم من بني الإنسان، أما نحن فمسلمون فقط. فإذا كتبنا نحن شعراً فسيكون إثنياً.»

قال ذو السترة السوداء: «مقولتي أنا هي: إذا كان الأوروبيون على حق، وليس أمامنا مستقبل أو خلاص غير أن نتشبه بهم فإن قضاء وقتنا بترهات أن نشبه أنفسنا ليس سوى قتل أحمق للوقت.»

«وهذه هي العبارة التي تظهر للأوروبيين أننا الأغبى.»

«لطفاً قولوا أية قومية هي تلك التي ستبدو غبية.»

«هذا غير صحيح. قبل قليل قال صديقنا هذا: إنهم لو أعطوه تأشيرة لما ذهب. وأنا أيضاً لا أذهب، وأبقى هنا بكرامتي.»

«وهناك آخرون يبقون ياسادة، اعلموا هذا. لطفاً ليرفع يده من لن يذهب.»

عدة أشخاص رفعوا أيديهم جادين. وتردد بضعة شباب رأوهم. سأل ذو السترة السوداء: «لماذا سيكون دون كرامة من يذهب؟ ليوضح لنا هذا أولاً!»

قال أحدهم متخذاً موقفاً محملاً بالأسرار: «من الصعب شرح هذا لمن لم يفهمه.»

بدأ قلب فاضل يخفق سريعاً في هذه الأثناء حين رأى عيني قديفة قد توجهتا إلى ما وراء النافذة بحزن. وقال في عقله: «اللهم احم لي صفائي، واحفظني من اضطراب العقل.» خطر بباله أن قديفة ستعجب بهذه العبارات. أراد أن يملي هذه العبارة لتكتب في الصحيفة الألمانية، ولكن لن يهتم أحد بها لأن كل رأس يصدر عنه صوت.

لم يستطع أحد كبت هذا الضجيج كله سوى الشاب الكردي الناشز الصوت. لقد قرر أن يملي حلماً رآه من أجل الجريدة الألمانية. الحلم الذي حكاه وهو يرتجف في بعض الأحيان يبدأ بأنه وحيد في مسرح الشعب يشاهد فيلماً. الفيلم غريب. الجميع يتكلمون لغة أجنبية، ولكن هذا لايقلقه لشعوره أنه يفهم كل ما يقال. فيما بعد فجأة يرى نفسه داخل الفيلم الذي يشاهده. المقعد الذي في سينما الشعب هو في الحقيقة في بهو عائلة مسيحية في الفيلم. فجأة يرى مائدة كبيرة هناك. يريد أن يملأ بطنه ولكن لخوفه من القيام بحركة خاطئة يبقى بعيداً. بعد ذلك تسرع خفقات قلبه، ويلتقي امرأة شقراء جميلة جداً، ويتذكر أنه عاشق لها منذ سنوات. تتصرف المرأة بنعومة غير متوقعة وقرب من الروح. يمتدح ثيابها وهندامها، ويقبلها من خدها، ويداعب شعرها. كان سعيداً جداً. بعد ذلك تضعه المرأة في حضنها، وتريه الأطعمة التي على المائدة. حينئذ يدرك باكياً أنه مازال طفلاً لهذا السبب يعتبر محبباً.

قوبل هذا الحلم بحزن ينتهي بخوف بقدر ما هنالك ضحك وممازحات.

بدَّد الصحفي العجوز الصمت قائلاً: «لايمكن أن يكون قد رأى حلماً كهذا. لقد لفق هذا الشاب الكردي هذا الحلم ليجعلنا مهانين تماماً في عيون الألمان. لاتكتبوا هذا.»

ولكي يثبت الشاب أنه رأى هذا الحلم يعترف بأنه تجاوز تفصيلاً في البداية: قال بأنه يتذكر تلك الشقراء كلما نهض من النوم. لقد رآها أول مرة قبل خمس سنوات حين كانت نازلة من حافلة تقل السياح القادمين لرؤية الكنائس الأرمنية. وكانت ترتدي ثوباً أزرق ذا حمالتين للكتفين الذي ترتديه في الحلم والفيلم.

ضُحك لهذا أيضاً، وقال أحدهم: «نحن لم نر نساء أوروبيات، ولم نطاوع الشيطان من أجل الخيالات.» وفجأة تكوّن جو حديث غاضب وتواق

وغير مؤدب حول النساء الغربيات. شاب طويل نحيل ووسيم جداً لم ينتبه إليه أحد بشكل جيد حتى تلك اللحظة بدأ يحكي حكاية:

في أحد الأيام التقى غربي ومسلم في محطة قطار. القطار لم يأت لسبب ما. إلى الأمام، في الصالة، ثمة امرأة فرنسية جميلة جداً تنتظر القطار...

وكما يتوقع كل رجل ممن ذهب إلى ثانويات الذكور أو خدم الجندية فإن هذه الحكاية تربط بين القوة الجنسية والقومية والثقافة. لم تستخدم كلمات غير مؤدبة، وغطى الفظاظات التي فيها بالإيحاءات. ولكن خلال فترة قصيبرة خيم على الغرفة جو سيعبر عنه فاضل بالقول: «ملأ قلبي بالخجل.»

نهض السيد طورغوت على قدميه.

قال: «كفى يا ابني. هات البيان لأوقعه.»

وقع السيد طورغوت البيان بقلمه الجديد الذي أخرجه من جيبه. كان متعباً من الضجيج ودخان السجائر. فأمسكته قديفة حين حاول النهوض. بعد ذلك نهضت قديفة.

قالت: «استمعوا إليّ دقيقة. أنتم غير خجلين، ولكن وجهي أحمر مما سمعت، أربط هذا على رأسي لكي لاترون شعري، ولكن هذا يجعلكم تعانون مزيداً من الألم..»

همس صوت متواضع: «ليس من أجلنا نحن، بل من أجل الله، من أجل قِيَمِكِ المعنوية.»

«ثمة ما أقوله أنا أيضاً للجريدة الألمانية. اكتبوا هذا.» شعرت بإحساس أنه ينظر إليها بإعجاب وغضب كما ينظر إلى مسرحي. «فتاة قارصية ـ لا، اكتبوا فتاة مسلمة قارصية ـ تعتبر غطاء رأسها علماً بسبب عقيدتها، وكشفت رأسها فجأة بسبب الفرق الذي شعرت به فجأة. هذا خبر جيد يرتاح له الأوروبيون. وهكذا ينشر كلامَنا هانس هانسن. قالت وهي تكشف رأسها: اغفر لي يا ربي لأنه عليّ أن أكون وحدي. هذه الدنيا مقرفة، وتغضبني وتضعفني إلى حد...»

قفز فاضل فوراً واقفاً على قدميه قائلاً: «قديفة! احذري من كشف رأسك. نحن جميعاً، جميعاً هنا. نجيب وأنا أيضاً. إثر هذا سنموت جميعنا، جميعنا.»

فجأة اضطرب الجميع. ثمة من قال: «لاتهذين»، «عليها ألا تكشف رأسها طبعاً.» ولكن الغالبية كانوا ينظرون منتظرين آملين ظهور سفالة أو مشكلة، والبعض الآخر يحاول استنتاج ماهية الاستفزاز الذي يحدث، ولعبة من هذه.

قال فاضل: «لدي جملتان أريد أن تنشرا في الجريدة الألمانية» ارتفع ضجيج في الغرفة «لا أتكلم باسمي فقط، بل باسم صديقي نجيب الذي استشهد غدراً ليلة الانقلاب: نحن نحبك كثيراً يا قديفة. إذا كشفت رأسك سأنتحر. احذري من كشفه.»

بالنسبة إلى البعض فإن فاضل لم يقل «نحبك.» بل قال «أحبكِ.» ويمكن أن يكون هذا قد لفقه كحلي من أجل تفسير تصرفه اللاحق.

صرخ كحلي بقوته كلها قائلاً: «لا أحد يأتي على ذكر الانتحار في هذه المدينة!» بعد ذلك خرج من غرفة الفندق دون أن يوجه حتى نظرة نحو قديفة. وهذا أنهى الاجتماع فوراً. ولم يبق في الغرفة من لزم الصمت وتفرقوا مسرعين.

[٣٢]

طالما هناك روحان في داخلي فلن أستطيع عمل هذا

تحول العشق، والتفاهة، وفقدان كحلي

خرج كا من فندق ثلج بالاس في الساعة الخامسة إلا ربعاً قبل عودة السيد طورغوت وقديفة من اجتماع فندق آسيا. ثمة خمس عشرة دقيقة لموعد لقائه بفاضل، ولكنه أراد أن يسير في الشوارع سعيداً. انحرف يساراً من شارع أتاتورك وهو يتمشى ناظراً إلى الجموع في المقاهي، والتلفزيونات المفتوحة، ودكاكين السمانة والمصورين إلى أن وصل إلى نهر قارص. صعد إلى جسر الحديد مدخناً سيجارتي مارلبورو دون اهتمام بالبرد متخيلاً السعادة التي سيعيشها مع إيبك في فرانكفورت. ثمة ظلمة مخيفة في الحديقة التي كان يتفرج فيها أغنياء قارص في زمن ما على المتزلجين على الجليد على الضفة الأخرى من النهر.

للحظة شبه كا فاضلاً القادم إلى جسر الحديد متأخراً بنجيب. دخلا معاً إلى (مقهى الأخوة المحظوظين) وحكى فاضل عن اجتماع فندق آسيا واصلاً إلى أدق التفاصيل. حين وصل إلى المكان الذي شعر فيه بأن مدينته الصغيرة دخلت التاريخ العالمي أسكته كا وكأنه يغلق مذياعاً، وكتب قصيدته المعنونة: «الانسانية كلها والنجوم.»

بحسب الملاحظات التي دونها كا فيما بعد فإن هذه القصيدة تتعلق ببداية الأفلام الهوليودية التي أحبها كلما شاهدها في طفولته أكثر من تعلقها بمدينة منسية، وكدر العيش خارج التاريخ. بعد انتهاء (جينيريك)(*) الفيلم تعرض

(*) مقدمة الفيلم التي تعرض أسماء المشاركين في الفيلم من ممثلين وفنيين. (المترجم).

الكاميرا العالم البعيد جداً الدائر ببطء شديد، وتقترب منه ببطء وفجأة تري البلد. في فيلم كا الخاص الذي يصوره عن حياته منذ طفولته فإن هذا البلد طبعاً هو تركيا، بعد ذلك المكان الذي قضى فيه كا طفولته وهو نيشان طاش، وشرطي المرور الذي في شراع (تشويكية)، وزقاق الشاعر (نيغار) والأسطح والأشجار(يا لجمال رؤيتها من الأعلى) بعد ذلك، الغسيل المنشور، وإعلان كونسروة (طاملِك) ومرازيب المطر الصدئة، والجدران الجانبية المطلية بالزفت، وتبدو ببطء نافذة كا. وبعد أن تقوم الكاميرا الداخلة إلى الغرفة بجولة على الكتب والأغراض، والغرف المليئة بالسجاد والغبار تظهر كا الجالس وراء طاولة أمام النافذة الأخرى وهو يكتب. وتأتي الكاميرا إلى رأس القلم الأزرق الناشف الذي يضع الحروف الأخيرة على ورقة أمامه: عنواني الذي دخلت منه تاريخ الشعر العالمي: الشاعر كا ـ زقاق الشاعر بيغار ـ ١٦/٨ نيشان طاش ـ اسطنبول ـ تركيا. وسيتوقع القراء المنتبهون بأن هذا العنوان سيتخذ مكاناً له على بلورة الثلج في محور المنطق في الأعلى في مركز سحب قوة الخيال.

في نهاية حكايته كشف فاضل عن همه الحقيقي: إنه الآن قلق إلى أبعد حد لقوله بأنه سينتحر فيما لو كشفت قديفة رأسها «لست قلقاً لأن الانتحار يعني فقدان الإنسان لإيمانه فقط، بل لأنني غير مؤمن بهذا. لماذا قلت ما لا أؤمن به؟» بعد أن قال فاضل بأنه سينتحر إذا كشفت قديفة رأسها قال: «التوبة» ولكنه حين التقت عيناه بعينيها عند الباب ارتجف مثل الورقة.

سأل كا قائلاً: «هل تعتقد قديفة بأنني عاشق لها؟»

«هل أنت عاشق لقديفة؟»

«أنت أيضاً تعرف بأنني كنت عاشقاً للمرحومة تسليمة. وصديقي المرحوم عاشق لقديفة. أنا خجل من شعوري بالعشق للفتاة نفسها قبل مرور يوم على وفاته. وأعرف أن لهذا الأمر تفسيراً واحداً، وهو يخيفني. احك لي كيف تمكنت من الوثوق بأن نجيباً قد مات!»

«أمسكته من كتفيه، وقبلت جثته من الجبين الذي اخترقته رصاصة.»

قال فاضل: «هنالك احتمال بأن روح نجيب تعيش في داخلي. اسمع: أنا البارحة مساء لم أهتم بالمسرح ولا تابعت التلفاز. نمت باكراً. فهمت في

أثناء نومي بأن نجيباً وقع له أمر مخيف. ولم يبق لدي شك في هذا الأمر حين داهم الجنود مهاجع نومنا. حين رأيتك في المكتبة عرفت بأن نجيباً قد مات. لأن روحه دخلت جسدي. حدث هذا في الصباح الباكر. لم يمسني الجنود الذين أفرغوا مهاجع النوم، وقضيت ليلتي في بيت صديق أبي من أيام الجندية في (قارطولو). بعد ست ساعات من نوم نجيب، في الصباح الباكر شعرت به في داخلي. شعرت بدوار في رأسي وأنا في الفراش الذي استضفتُ فيه، بعد ذلك شعرت بغنى وعمق. كان صديقي بجانبي وفي داخلي. وبحسب ما تقول الكتب القديمة فإن الروح تغادر جسد الإنسان بعد ست ساعات من موته. والروح في تلك اللحظة شيء متحرك كالزئبق، وكما يصفها السيوطي يجب أن تنتظر في البرزخ حتى يوم القيامة. ولكن روح نجيب دخلت إلى داخلي. أنا واثق من هذا. وأخاف أيضاً لأنه لايوجد شيء كهذا في القرآن. ولكن لايمكن أن أعشق قديفة بهذه السرعة بطريقة أخرى. لهذا السبب فإن الانتحار ليست فكرتي. هل ترى بأنه من الصحيح أن روح نجيب تعيش فيّ؟»

قال كا بانتباه: «إذا كنت تؤمن بهذا؟»

«أقول هذا لك وحدك. كان نجيب يفضي إلي بأسراره التي لايفضي بها لأحد. أتوسل إليك. قل لي الحقيقة: لم يخبرني نجيب في أي وقت بولادة شكوك إلحادية داخله. ولكن يمكن أن يكون قد أفضى لك بهذا. هل أخبرك نجيب بأنه شك بوجود الله ـ حاشاه ـ؟»

«لم يقل شكاً كما قلت أنت، إنما قال شيئاً آخر. كما يشعر الإنسان بالمتعة من الكدر، وذرف الدموع حين يفكر بموت أبيه وأمه، فإن الإنسان يفكر بعدم وجود الله الذي يحبه كثيراً جداً شاء أم أبى.»

قفز فاضل قائلاً: «هذا ما يحدث لي الآن. وليس لدي شك بأن روح نجيب قد أدخلت هذا الشك إلى داخلي.»

«ولكن هذا الشك لايعني إلحاداً.»

قال فاضل مكدراً: «ولكنني الآن أعطي الحق للفتيات المنتحرات أيضاً. وقبل قليل قلت بأنني سأنتحر. لا أريد أن يقال عن المرحوم نجيب إنه ملحد. ولكنني الآن أسمع صوت ملحد في داخلي، وأخاف من هذا. هل أنتم

هكذا، لا أعرف، ولكنكم وُجِدتم في أوروبا، وعرفتم هؤلاء الناس المثقفين، وشاربي المشروبات الكحولية، ومتعاطي المخدرات. لطفاً قولوا هذا مرة أخرى، كيف يشعر الملحد؟»

«ليس ثمة شعور مستمر لدى الإنسان بالانتحار.»

«ليس بشكل مستمر، ولكن أحياناً أريد أن أنتحر.»

«لماذا؟»

«لأنني أفكر بقديفة دائماً، وليس ثمة شيء آخر في عقلي! دائماً تتجلى أمام عيني. في أثناء دراستي، ومتابعتي التلفاز، وانتظاري المساء، وفي أبعد الأمكنة عن هذا الأمر كل شيء يذكرني بقديفة، وأعاني من ألم شديد. وكنت أشعر بهذا قبل موت نجيب. وفي الحقيقة إنني لم أحب تسليمة، بل أحببت قديفة دائماً. ولكنني دفنت هذا العشق في داخلي لأنه عشق صديقي. ولكثرة حديث نجيب عن قديفة فقد ألقى هذا العشق في داخلي. حين داهم الجنود مهاجع النوم أدركت أن نجيباً من الممكن أن يكون قد مات، ونعم سررت. لم أشعر بالحقد على نجيب لأنني صرت أتمكن من التعبير عن عشقي لقديفة، بل لأنه سكب هذا العشق في داخلي. الآن مات نجيب، وصرت حراً، ولكن هذا لم يؤد إلى نتيجة غير أنني أكثر عشقاً لقديفة. أنا أفكر بها منذ الصباح، وبالتدريج لم أعد أستطيع التفكير بشيء آخر. ماذا عليّ أن أفعل يا إلهي؟»

غطى فاضل وجهه بكلتا يديه وبدأ يبكي مُنشِّقاً. أشعل كا سيجارة مارلبورو، وعبر بداخله شعور عدم اهتمام أناني. وداعب رأس فاضل مطولاً.

التخفي صفّت الذي ينظر بعين إلى التلفاز وبعين إليهما، اقترب منهما في هذه الأثناء، وقال: «على الشاب ألا يبكي، لم أوصل هويته إلى المركز، إنها معي.» وحين لم يهتم فاضل، أخرج الهوية من جيبه، وقدمها له. مد يده كا وأخذها. قال التخفي بتوق نصفه، ونصفه الآخر إنساني: «لماذا يبكي؟» قال كا: «عشقاً.» وفجأة أراح التخفي كثيراً. وتابعه كا بنظره حتى خرج من المقهى ذاهباً.

فيما بعد سأل فاضل عن كيفية جذب اهتمام قديفة. وفي هذه الأثناء قال له بأن قارص كلها تعرف بأن كا عاشق لإيبك أخت قديفة الكبرى. بدا لكا أن تعلّق فاضل يائسٌ وغير ممكن إلى حد خوفه من أن يكون العشق الذي يشعر

به يائساً إلى هذا الحد. وأعاد على فاضل الذي هدأت شهقاته اقتراح إيبك دون إلهام: «كن نفسك.»

قال فاضل: «ولكن طالما هنالك روحان في داخلي فلن أستطيع القيام بهذا. فوق هذا فإن روح نجيب الملحدة تسيطر علي قليلاً قليلاً. بعد تفكيري على مدى سنوات بأن أصدقائي الطلاب المهتمين بالسياسة يرتكبون أخطاء، أريد الأن أن أفعل شيئاً ما مع الإسلاميين ضد هذا الانقلاب العسكري. ولكنني أشعر بأنني سأفعل هذا من أجل أن أملأ عين قديفة. يخيفني عدم وجود شيء آخر غير قديفة في عقلي. لا لأنني لا أعرفها أبداً، بل لأنني لا أؤمن بغير العشق والسعادة مثل الملحدين تماماً وأرى هذا.»

بينما كان فاضل يبكي تردد كا بالقول له بأن عليه ألا يصرح بعشقه لقديفة أمام الجميع، وأن عليه أن يخاف من كحلي. ولكنه لو عرف هذا كان يجب ألا يعشق قديفة نهائياً بسبب الرتبية السياسية.

قال فاضل بحرص عجيب: «نحن فقراء وتافهون. هذه هي المشكلة كلها. ليس ثمة مكان لحياتنا البائسة في تاريخ الإنسانية. في النهاية فإننا نحن الذين نعيش في مدينة قارص البائسة هذه سنموت يوماً ما. لا أحد سيتذكرنا، ولا أحد سيهتم بنا. وسنبقى أشخاصاً تافهين نغرق في صراعاتنا التافهة والصغيرة، ونمسك بخناق بعضنا بعضاً من أجل أن تغطي نساؤنا رؤوسهن. سينسانا الجميع. حين أرى أننا سنذهب عابرين دون ترك أي أثر مستمرين بحياتنا الغبية هذه في الدنيا، أدرك بحرص بأنه ليس ثمة شيء في هذه الحياة غير العشق. حينئذ فإن الشيء الذي أشعر به نحو قديفة، وهو حقيقة أنه يمكنني سلوان نفسي في هذه الدنيا باحتضان قديفة يمنحني ألماً أشد، ولايغيب عن عيني.»

قال كا دون شفقة: «نعم، هذه أفكار تليق بملحد.»

بكى فاضل من جديد. أما كا فلم يذكر ما تحدثا به بعد ذلك، ولم يكتبه على أي دفتر. في ممازحات الكاميرا المعروضة في التلفزيون يسقط الأطفال الأمريكيون الصغار عن الكراسي، وتنشرخ أحواض السمك، ويُسقط في الماء، ويداس على طرف الثوب ويُسقط على الوجه، ويبث كل هذا مرافقاً لصوت قهقهة مفتعل. ونسي كا وفاضل كل شي وتابعا باسمين مع الزحام

الذي في المقهى مطولاً الأطفال الأمريكيين.

حين دخلت زاهدة الى المقهى كان كا وفاضل يتابعان في التلفاز شاحنة تتقدم بشكل غرائبي في غابة. أخرجت زاهدة ظرفاً أصفر لم يهتم به فاضل نهائياً، وأعطته لكا، فتحه كا، وقرأ الملاحظة التي في داخله. كانت من إيبك. تريد إيبك وقديفة رؤية كا في محل الحياة الجديدة للمعجنات بعد عشرين دقيقة، أي في الساعة السادسة تماماً. وعرفت زاهدة بأنه في (مقهى الأصدقاء المحظوظين) من صّفت.

قال فاضل: «ابن اختها في صفنا. وله حب مخيف للقمار. لا يفوّت صراع الديكة، وصراع الكلاب للمراهنات.»

أعطاه كا هويته الطلابية التي أخذها من الشرطي. وقال له: «إنهم ينتظرونني على الطعام.» ونهض. سأل فاضل يائساً: «هل سترى قديفة؟» خجل من تعبير الملل والشفقة الذي على وجه كا. صرخ من خلف كا الذي كان خارجاً من المقهى: «أريد أن أقتل نفسي. إذا رأيتها قل لها بأنني سأنتحر إذا كشفت رأسها. ولكنني لن أفعل هذا لأنها ستكشف رأسها، بل سأفعل هذا من أجل الاستمتاع بأنني أقتل نفسي من أجلها.»

لأن هنالك وقتاً حتى يحين الموعد في محل المعجنات انحرف كا إلى الأزقة الجانبية. عندما رأى المقهى الذي كتب فيه صباحاً قصيدة «شوارع الحلم» وهو يمشي في شارع القناة دخل. لم يكن في عقله كتابة قصيدة جديدة كما أراد، ولكن خطر بباله أن يخرج من الباب الخلفي للمقهى شبه الفارغ الذي يعج بدخان السجائر. عبر الباحة المغطاة بالثلج، وتجاوز الجدار المنخفض الذي أمامه في الظلام. صعد ثلاث درجات، ثم نزل إلى القبو وسط نباح الكلب نفسه المربوط بسلسلة.

هنالك مصباح شاحب منار. في الداخل شم كا غير رائحة الفحم والنوم رائحة (عرق). بجانب مرجل التدفئة المركزية الهادر ثمة ظلال عدة أشخاص. لم يدهش حين رأى بين صناديق الكرتون عنصر تشكيلات المخابرات القومية المنقاري الأنف، والمرأة الجيورجية المسلولة وزوجها جالسين يشربون العرق. هم أيضاً يبدو أنهم لم يدهشوا من وجود كا. رأى كا على رأس المرأة المريضة قبعة حمراء أنيقة. قدمت المرأة لكا بيضة مسلوقة وخبزاً وبدأ زوجها

بتحضير قدح عرق من أجل كا. بينما كان كا يقشر البيضة غير الناضجة تماماً بإظفره، قال عنصر تشكيلات المخابرات القومية بأن شقة حراق التدفئة المركزية هذه هي أدفأ زاوية في قارص، وهي جنة.

وفي الصمت اللاحق كان عنوان القصيدة التي كتبها كا دون التعرض لأي حادث، أو هروب أي كلمة منها هو: «جنة». ووضع كا لها في مكان بعيد عن مركز بلورة الثلج وفي محور الخيال تماماً من خلال تذكره. في السنوات اللاحقة عندما يتذكر كا هذه القصيدة، يعدّد بعض ذكرياته واحدة واحدة: عطل الصيف في طفولته، أيام هروبه من المدرسة، دخوله مع أخته إلى السرير الذي ينام عليه أبوه وأمه، بعض الرسوم التي رسمها حين كان طفلاً، الفتاة التي تعرف إليها في حفلة المدرسة ولقاءه بها فيما بعد وتقبيلها.

في أثناء مشيه إلى محل معجنات الحياة الجديدة كانت هذه الأمور في عقله بقدر ما إيبك في عقله. وجد إيبك وقديفة تنتظرانه في محل المعجنات. كانت إيبك جميلة إلى حد اعتقاده بأن عينيه ستدمعان فرحاً (بتأثير العرق الذي شربه على معدة فارغة). الجلوس إلى طاولة مع اختين لطيفتين والحديث معها منح كا إضافة إلى السعادة غروراً: أراد كا أن يرى البائعون الأتراك الساهمون المبتسمون له محيين كل صباح في فرانكفورت هاتين الامرأتين معه، ولكن لم يكن في محل المعجنات هذا الذي قتل فيه مدير معهد المعلمين بالأمس غير النادل المسن نفسه. بينما كانت إيبك وقديفة تجلسان في محل الحياة الجديدة للمعجنات ـ حتى ولو كانت إحداهما ذات غطاء رأس ـ لم تغب عن ذهنه أبداً صورتهم فيما لو التقطت لهم من الخارج، أو منظرهم كأنه يُرى من مرآة سيارة عاكسة.

لم تكن الامرأتان الجالستان مقابل كا مطمئنتين أبداً. ولأن كا أخبرهما بعلمه بما جرى في الاجتماع الذي عقد في الفندق اختصرت الموضوع إيبك.

بدأت الكلام إيبك كأخت كبرى تبحث عن حل لمشكلة أختها قائلة: «ترك كحلي الاجتماع غاضباً. وقديفة نادمة جداً على ما قالته هناك. أرسلنا زاهدة إلى حيث يختبئ، لم يكن هناك. لم نستطع إيجاد كحلي.» ولكنها الآن لاتبدو قلقة كثيراً.

«إذا وجدتموه فماذا ستطلبون منه؟»

قالت إيبك: «نريد أولاً الوثوق من عيشه أو عدم إلقاء القبض عليه.» ثم ألقت نظرة نحو قديفة التي تبدو أنها ستبكي فيما لو لمستها، وأضافت: «اجلب لنا منه خبراً. قل له بأن قديفة ستعمل كل مايطلب منها.»

«أنتم تعرفون قارص أفضل مني بكثير.»

قالت إيبك: «نحن امرأتان في ظلمة المساء. أنت عرفت المدينة. اذهب إلى مقهيي (أي دة دة) و (نورأول) في شارع خالد باشا حيث يتردد عليهما طلاب الأئمة والخطباء، والطلاب الإسلاميون. الآن يغلي المكان هنا بالشرطة المدنية، ولكن هؤلاء أيضاً ينقلون الشائعات. إذا كان قد وقع شيء سيّيء لكحلي فستعلم به.»

أخرجت قديفة منديلها لتمسح أنفها. إعتقد كا للحظة بأنها ستبكي.

قالت إيبك: «اجلب لنا خبراً من كحلي. إذا تأخرنا سيقلق أبي. وهو ينتظرك على طعام العشاء.»

وبينما كانت قديفة تنهض قالت: «ألقوا نظرة على المقاهي التي في حي بيرم باشا أيضاً.»

كانت الفتاتان وهما قلقتان وحزينتان فيهما شيء جذاب فلم يستطع كا أن يتركهما لذلك سار معهما حتى منتصف الطريق بين محل المعجنات وفندق ثلج بالاس. كان يربطه بهما شعور سري بالذنب مشترك ـ تفعلان أمراً تخفيانه عن أبيهما ـ بقدر ما يربطه خوفه من فقدان إيبك. خطر بباله بأنه سيذهب إلى فرانكفورت مع إيبك، وستزورهما قديفة، وسيسير الثلاثة في شارع (برلينر) وهم يدخلون إلى المقاهي هنا ويخرجون منها، ويتفرجون على واجهات المحلات.

كان غير مؤمن أبداً بإمكانيته القيام بالمهمة الموكلة إليه. كان مقهى (آي دة دة) الذي وجده دون صعوبة بسيطاً وعادياً إلى حد أنه كاد أن ينسى سبب مجيئه، وتابع التلفاز فترة طويلة وهو يجلس وحده. كان هنالك في الأطراف عدة أشخاص بعمر الطلاب، ولكن على الرغم من محاولاته فتح حديث ـ حكى حول مباراة كرة القدم التي في التلفاز ـ فلم يقترب منه أحد. مع أن كا حضّر علبة سجائره من أجل الضيافة كما وضع قداحته على الطاولة لعل أحدهم يستأذن باستخدامها. وحين أدرك أنه لن يعلم شيئاً من الأجير الواقف

خلف البسطة خرج، وذهب إلى مقهى (نورأول) القريب. وهنا أيضاً رأى بضعة من شبان يتابعون المباراة نفسها من تلفزيون أسود وأبيض. ولو لم ير قصاصات الجرائد المعلقة على الجدار، وجدول مباريات فريق قارص لهذا العام لما تذكر أنه تحدث مع نجيب هنا البارحة عن وجود الله ومعنى العالم. حين رأى بجانب القصيدة التي قرأها بالأمس معارضة شعرية كتبها شاعر آخر وعلقها بجانبها بدأ ينقلها على دفتره:

صار واضحاً، لن تخرج آمناً من الجنة وتأتي، وتحتضننا بذراعيها. ولن يدعها أبونا دون ضرب في أي وقت. ولكن على الرغم من هذا ستدفئ قلوبنا، وتحيي أرواحنا لأنها القدر في الخراء الذي سنغوص فيه سنتذكر مدينة قارص كأنها الجنة.

سأل الولد من وراء البسطة المقابلة: «هل تكتب الشعر؟»

قال كا: «أحسنت هل تستطيع القراءة بالمقلوب أنت؟»

«لا يا أخي الكبير، أنا لا أستطيع القراءة حتى بالصحيح. أنا هربت من المدرسة. وكبرت قبل أن أفك الحرف. وكله راح سدى.»

«من كتب القصيدة الجديدة هذه التي على الحائط؟»

«نصف الشباب الذين يأتون إلى هنا شعراء.»

«لماذا هم غير موجودين اليوم؟»

«البارحة جمعهم العسكر. بعضهم في السجن، وبعضهم الآخر مختبئ. اسأل الذين هناك إن أردت، أنهم شرطة مدنية يعرفون.»

في المكان الذي أشار إليه ثمة شابان يتابعان مباراة كرة القدم بحماس شديد. لكن كا خرج من المقهى دون أن يقترب منهما ويسألهما عن أي شيء.

استمتع برؤية الثلج وقد عاد إلى الندف. لم يكن مؤمناً بأنه سيجد أثراً لكحلي في مقاهي بيرم باشا. في داخله الآن سعادة ممزوجة بالحزن الذي شعر به مساء مجيئه إلى قارص. مر من أمام الأبنية البيتونية الفقيرة والقبيحة، ومرائب السيارات تحت الثلج، والواجهات المتجلدة للمقاهي والحلاقين والسمانين، والباحات من عهد الروس وفيها كلاب تنبح، والدكاكين التي تبيع

قطع تبديل الجرارات ولوازم عربات الخيل والجبنة ببطء كما في الحلم منتظراً أن يلهم بقصيدة جديدة. كان يشعر بأن ما يراه كله من ملصقات حزب الوطن الأم الانتخابية، ونافذة صغيرة أسدلت ستائرها بإحكام، وإعلان صيدلية العِلم «وصل لقاح الكريب الياباني» المعلق على واجهتها المتجلدة قبل أشهر، والملصق المناهض للانتحار المطبوع على ورق أصفر، لن يخرج من عقله حتى نهاية حياته. هذا الوضوح للتلقي الأقوى من المعتاد أن يشعر به نحو تفاصيل اللحظة التي يعيشها، وهذا تأجج في داخله بشعور «أي شيء في هذه اللحظة له علاقة بكل شيء، أما هو فجزء لايتجزأ من هذا العالم العميق والجميل» معتقداً بأن قصيدة جديدة تُوحى إليه، فدخل أحد المقاهي في شارع أتاتورك ولكن القصيدة لم تأت إلى عقله.

[٣٣]

ملحد في قارص

الخوف من الضرب بالنار

فور خروجه من المقهى التقت عيناه بعيني مختار تحت الثلج. رآه مختار المسرع إلى مكان ما وهو سارح، ولكن كأنه لم ينتبه إلى أن هذا كا للحظة تحت الثلج الكثيف والكبير الندف، وكا ايضاً أراد بداية الهروب منه. كلاهما ناور مباشرة، وتعانقا كصديقين قديمين.

قال مختار: «هل نقلت ما قلتُه لإيبك؟»

«نعم.»

«ماذا قالت؟ تعال لنجلس في هذا المقهى، واحكِ لي.»

لم يبد مختار متشائماً على الرغم من الانقلاب العسكري، والضرب الذي ناله في مديرية الأمن، وفشل رئاسته للبلدية. وبينما كان يجلس في المقهى قال: «لماذا لم يعتقلوني؟ ليتوقف الثلج، وتفتح الطرق وينسحب الجنود، ستجري الانتخابات البلدية. قل هذا لإيبك!» وبيّن كا بأنه سيقول لها هذا. سأله عما إذا كان لديه خبر عن كحلي.

قال مختار مباهياً: «أنا أول من دعاه إلى قارص. قديماً كان ينزل عندنا كلما أتى إلى قارص. ولكن منذ أن قدمته صحف اسطنبول إرهابياً لم يعد يتصل بنا حين يأتي لكي لايضر بحزبنا. وأنا آخر من يعلم بما يفعله. بماذا ردت إيبك على ماقلته؟»

قال كا بأن إيبك لم ترد برد خاص على تكليف مختار بالزواج منها من جديد. اتخذ مختار موقفاً ذا معنى وكان هذا جواباً خاصاً جداً، وقال بأنه يريد

لكا أن يعلم كم أن زوجته السابقة حساسة ورقيقة ومتفهمة. والآن هو نادم جداً لتصرفاته الخاطئة معها في فترة تعيسة من حياته. بعد ذلك قال:

«حين تعود إلى اسطنبول ستسلم القصائد التي أعطيتك إياها بيدك لفاخر، أليس كذلك؟»

حين حصل على الموافقة من كا، ظهر على وجهه تعبيرُ عمّ مشفق وحزين. حل محل الشعور بالخجل من مختار شعور ألم ممزوج بالقرف، وفي هذه اللحظة رأى كا أن مختاراً يخرج جريدة من جيبه. قال مختار مستمتعاً: «لو كنت مكانك لما تجولت في الشوارع بهذه الراحة كلها.»

قرأ كا عدد الغد من جريدة سرهات الذي اختطفه من يد مختار ولم يجف حبره بعد وكأنه يبتلعه: «نجاح المسرحيين الثوريين. أيام الطمأنينة في قارص. الانتخابات تأجلت. المواطن ممتن للانقلاب..»

بعد ذلك قرأ الخبر الذي أشار إليه مختار بإصبعه على الصفحة الأولى:

ملحد في قارص

وجود دعي الشعر كا في مدينتنا في أيام الاضطراب

القارصيون يحتجون على نشرنا البارحة تعريف دعي الشعر هذا

في وسط المسرحية الأتاتوركية التي قدمها الفنان الكبير صوناي ظائم وزملاؤه وبحضور جياش للجماهير، والتي جلبت إلى قارص كلها السلام والطمأنينة، قرأ كا الدعي أنه شاعر قصيدة غير مفهومة وخالية من الذوق عكرت مزاج الجماهير، وقد سمعنا منه عدداً من المقولات. في هذه الأيام التي تحاول فيها القوى الخارجية أن تقودنا إلى قتال الأخوة، وتقسم مجتمعنا تقسيماً مصطنعاً إلى علماني وديني أو كردي وتركي وآذري، وأحيت ادعاءات المجازر الأرمنية التي صار من الواجب أن ننساها نحن القارصيين المتقاسمين الروح نفسها، ونعيش متداخلين على مدى سنوات طويلة، فإن ظهور هذا الشخص المشبوه بيننا كجاسوس وكان قد هرب من تركيا وعاش في ألمانيا سنوات طويلة، فتح لدى الشعب تساؤلات. تُرى هل صحيح أنه التقى قبل يومين في محطة القطار بشباب مدرسة الأئمة والخطباء المنفتحين مع الأسف لأنواع الاستفزاز كلها وقال لهم: «أنا ملحد، أنا لا أؤمن بالله، ولكنني لا

أنتحر. وأصلاً إن الله ـ حاشا ـ غير موجود.»؟ هل حرية الفكر في أوروبا هي انكار وجود الله والقول: «إن عمل المثقف هو من المساس بمقدسات الأمة.»؟ أكلك من مال الألمان لايعطيك الحق بأن تدوس بقدميك على معتقدات هذه الأمة! أم أنك تخجل من كونك تركي فتخفي اسمك الحقيقي، وتلتزم بتقليد الأجانب فتستخدم اسم كا؟ وبحسب الهواتف التي جاءتنا من قرائنا فإن عديم الإيمان مقلدَ الغرب هذا جاء في هذه الأيام الصعبة لزرع الفتنة بيننا، وذهب إلى أحياء الأكواخ في مدينتنا، وطرق أبواب البيوت الأفقر وحرض الشعب على التمرد، حتى إنه حاول أن يتطاول بلسانه على أتاتورك الذي منحنا هذا الوطن وهذه الجمهورية. قارص كلها تشك بأسباب مجيء مُدّعي الشعر هذا الذي يقيم في فندق ثلج بالاس. إنه ينقل تهديد الكفار (S.A.S.) منكري الله ونبينا

قال مختار: «قبل عشرين دقيقة، كان ابنا السيد سردار قد بدآ للتو بطباعة الجريدة» وبدا عليه كمن سُرّ لفتح موضوع مسلٍ أكثر من مقاسمته مخاوفه وهمومه.

شعر كا بأنه وحيد تماماً، وقرا الخبر مرة أخرى بانتباه.

في زمن ما، حين كان يفكر بمكانته الأدبية اللامعة المستقبلية، اعتقد كا بأنه سيتعرض للنقد والهجوم الكثير بسبب التجديد الحداثي الذي سيأتي به إلى الشعر التركي (يبدو له الآن أن هذا المفهوم القومي مضحك ومسكين) وأن تلك العداوات، وعدم التفهم ستمنحه إمكانية التباهي. لأن هذه الانتقادات العدائية لم تكتب أبداً في السنوات اللاحقة بعد أن اشتهر قليلاً. توقف كا الآن عند تعبير «دعيُّ الشعر.»

قال له مختار بأن عليه ألا يتجول هكذا مثل هدف، وبعد أن تركه وحيداً في المقهى، انحفر في قلب كا الخوف من الضرب بالنار. خرج من المقهى. سار شارداً تحت ندف الثلج الكبيرة التي تسقط ببطء يذكر بالعرض البطيء في الأفلام.

في سنوات شبابه الأولى كان كا يعتبر أن الموت في سبيل هدف ثقافي أو سياسي، وتقديم الإنسان حياته في سبيل ما يكتبه إحدى المراتب المعنوية الأسمى التي يمكن أن يصل إليها. وحين قارب الثلاثين من عمره، وفقد عدداً

من أصدقائه ومعارفه إما مسلمين الروح تحت التعذيب في سبيل مبادئ غبية وحتى سيئة، أو قتلاً في الأزقة على يد عصابات سياسية، أو في أثناء تبادل إطلاق النار عند سرقة مصرف، أو بشكل أسوأ من كل هذا وهو انفجار القنبلة التي يحضرها بين يديه، وعبثية الحياةأبعدت كا عن هذه الفكرة. وقضاؤه سنوات طويلة منفياً في ألمانيا لأسباب سياسية لم يعد يؤمن بها جعلته يقطع في عقله العلاقة بين السياسة، وتضحية الإنسان بنفسه، ورميها جانباً. حين كان يقرأ في الجرائد التركية وهو في ألمانيا أن كاتب الزاوية الفلاني قتل على يد الاسلاميين السياسيين ـ باحتمال كبير ـ لأسباب سياسية كان كا يشعر بالغضب من الحادثة، والاحترام للميت، ولكن لم يكن يخطر بباله إعجاب خاص بالكاتب الميت.

على الرغم من هذا، ففي الزاوية بين شارعي خالد باشا وكاظم قره بكر تخيل سبطانة خيالية تمتد من ثقب متجلد في جدار مصمت تستهدفه، وأنه قد ضرب بالنار ومات فوق الرصيف الثلجي، وحاول استنتاج ما ستكتبه جرائد اسطنبول. هنالك احتمال كبير أن المحافظة وتشكيلات المخابرات القومية المحلية ستغطي على البعد السياسي للحادث كي لايكبر، ولكي لاتظهر مسؤوليتهم عن الحادثة، وجرائد اسطنبول غير المنتبهة إلى أنه شاعر يمكن أن تنشر الخبر أو لا تنشره. وإذا حاول أصدقاؤه الشعراء والذين في جريدة (الجمهورية) إظهار البعد السياسي للقضية يمكن أن ينشروا تقييماً عاماً لقصائده (من يكتب هذه المقالة؟ فاخر؟ أورهان؟) وهذا سيقلل أهميتها أو سيُنشر خبر موته في الصفحة الثقافية التي لايقرؤها أحد. لو كان هنالك صحفي حقيقي اسمه هانس هانسن، وكان كا يعرفه من الممكن أن تنشر الخبر جريدة (فرانكفورتر روندشاو) ولكن الخبر لن تنشره جريدة غربية أخرى. وعلى الرغم من تخيله ترجمة قصائده إلى الألمانية ونشرها في مجلة (آكتسنت) كان كا يرى أن مقتله بسبب مقالة نشرت في جريدة مدينة سرهات هو «الذهاب في طريق الخراء» بكل معنى الكلمة. وكان أكثر ما يخيفه هو الموت حين ظهر أمل لسعادته مع إيبك في فرانكفورت.

على الرغم من هذا فقد تجلى أمام عينيه بعض الكتاب الذين قتلوا برصاص الإسلاميين السياسيين في السنوات الأخيرة: واعظ سابق صار ملحداً

فيما بعد حاول إظهار «المتناقضات» في زواياه من الفتيات المغطيات رؤوسهن بالإشاربات، والنساء المغطيات مطلقاً عليهن لقب «الفاطمات السود» (رشوه بالرصاص صباحاً مع سائقه)، أو عزيمة كاتب زاوية أشار إلى علاقة الحركة الإسلامية في تركيا مع إيران (حين أدار مفتاح التشغيل طار في الهواء مع سيارته) وجدهم سطحيين حتى لو مر بداخله شعور محبة بهم تدمع العيون. ومما هو أبعد من الشعور بأي اهتمام لصحافة اسطنبول والغرب بهؤلاء الكتاب الناريين أو الصحفيين الذي أطلقت النار على رؤوسهم في شارع فرعي لمدينة نائية لأسباب مشابهة، فقد شعر بالغضب لنسيان هؤلاء إلى ما لانهاية بعد فترة قصيرة من الوقوف عند موضوع من أطلق النارعليهم، وهذا ما جعله يرى معجباً جداً عقلانية الانزواء بسعادة في زاوية.

حين وصل إلى مكتب جريدة مدينة سرهات في شارع فائق بيك رأى عدد الغد قد عُلِّق على زاوية الواجهة الزجاجية من الداخل بعد أن أزيل عنها الجليد. قرأ من جديد الخبر المكتوب عنه، ثم دخل. كان الأكبر بين ولدي السيد سردار النشيطين يربط قسماً من الجرائد المطبوعة بخيط نايلوني. وبحركة لجذب الانتباه لدخوله رفع قبعته وأخذ ينفض بها أماكن تراكم الثلج على معطفه.

قال الولد الأصغر القادم من الداخل حاملاً الخرقة التي يمسح بها الآلة: «أبي غير موجود هل تريدون شاياً؟»

«من كتب الخبر عني الذي سيصدر في عدد الغد؟»

قال الولد الأصغر رافعاً حاجبيه: «هل هنالك خبر عنكم؟»

قال أخوه الأكبر صاحب الشفتين المكتنزتين نفسهما مبتسماً بسعادة: «موجودياه، الأخبار كلها كتبها اليوم أبي.»

قال كا: «إذا وزعتم هذه الجريدة صباحاً.» فكر لحظة ثم تابع: «يمكن أن يحدث لي سوء.»

قال الولد الكبير: «لماذا؟» كانت بشرته ناعمة، وينظر بصفاء داخلي، وله عينان بريئتان إلى حد لايصدّق.

أدرك كا أن بإمكانه الحصول على معلومات منهما في حال طرحه أسئلة

بسيطة في جو ودي إلى أبعد الحدود. وهكذا علم من الولدين السبعين أنه حتى الآن لم يشتر الجريدة سوى السيد مختار، وولد جاء من مركز المحافظة لحزب الوطن الأم، ومعلمة الأدب المتقاعدة السيدة نورية التي تمر كل مساء، وأن الجرائد التي ستسلم للحافلة من أجل إرسالها إلى أنقرة واسطنبول فيما لو كانت الطرق مفتوحة موجودة مع لفة البارحة تنتظر، وأن الجرائد المتبقية سيوزعها الولدان في قارص غداً صباحاً، ومن المؤكد أنهما يستطيعان عمل طبعة ثانية حتى صباح الغد فيما لو طلب أبوهما، وأن أباهما خرج قبل قليل من الجريدة، ولن يأتي إلى البيت لتناول طعام العشاء. قال بأنه لن يستطيع الانتظار لشرب الشاي، واشترى جريدة، وخرج إلى ليل قارص البارد والقاتل.

حالة الولدين غير المبالية والبريئة هَدّأت روع كا، وبينما كان يسير بين ندف الثلج النازلة ببطء سأل نفسه عما إذا كان قد أبدى خوفاً زائداً، وشعر بالذنب. ولكن زاوية أخرى من عقله تعرف أن كثيراً من الكتاب المنحوسين قد امتلأت رؤوسهم وصدورهم بالرصاص، أو اعتقدوا بأن الطرد الذي وجدوه في صندوق البريد هو علبة (حلوى لقمة القاضي) جاءت من أحد القراء المعجبين وحين فتحوها لأنهم دخلوا في مأزق الغرور والجرأة اضطروا لوداع الحياة. مثلاً الشاعر نور الدين المعجب بأوروبا، وغير المهتم بمواضيع كهذه كتب مقالة شبه «علمية» في موضوع الفن والدين، ووصفتها الصحافة الاسلامية بالهراء في غالبيتها، وحين نشرت تلك الصحافة قائلة: «شتم ديننا»، تبنى أفكاره القديمة بحرارة كي لايقع في موقع الجبان، وتحولت مبالغات الصحافة العلمانية والكمالية النارية المدعومة عسكرياً إلى مكانة بطولية راقت له، وبانفجار القنبلة الموضوعة في كيس نايلوني مربوط بالعجلة الأمامية لسيارته تفتت إلى أجزاء صغيرة لامتناهية العدد لهذا سارت الجموع وعراضة الجنازة الاستعراضية خلف تابوت فارغ. يعرف كا من الأخبار غير المثيرة والصغيرة في الصحف التركية التي يجدها في مكتبة فرانكفورت بأن الصحفيين المحليين اليساريين السابقين أو الدكاترة الماديين، أوناقدي الدين المدعين المنجرفين وراء استفزازات الجرأة في المدن النائية الصغيرة، أو الاضطراب لقول: «الرحمة يجب أن لا يقولوا عني جباناً.» أو خيالات: «علني ألفت

أنظار العالم مثل سلمان رشدي.» لا يذهبون ضحية قنبلة صممت بدقة كما في المدن الكبيرة، ولا حتى باستخدام مسدس عادي، بل يُخنق ضحايا المتدينين الشباب الغاضبين بالأيدي المجردة في زقاق معتم أو طعناً بالسكاكين. وبينما كان يحاول إيجاد ما يمكن كتابته فيما لو منحته جريدة مدينة سرهاد فرصة الرد من أجل ألا يعرض معطفه للثقب برصاصة، وإنقاذ كرامته في آن واحد (أنا ملحد، ولكنني بالتأكيد لم أشتم الرسول؟ ـ أنا غير مؤمن ولكنني لا أحتقر الدين؟) وسمع صوت قدمي أحدهم تغوصان في الثلج وتخرجان مقتربتين منه التفت خائفاً. كان هذا مدير شركة الحافلات الذي رآه بالأمس في مثل هذا الوقت في تكية حضرة الشيخ سعد الدين. فكر كا بأن الرجل يمكن أن يشهد بأنه غير ملحد، وخجل.

سار عبر شارع أتاتورك نازلاً متباطئاً في زوايا الأرصفة المتجلدة شاعراً بنوع من التكرار العادي والسحري معجباً بجمال ندف الثلج الكبيرة غير المعقول. من سيرى جمال الثلج في قارص وهو يسير ذاهباً آيباً على الأرصفة بعد سنوات سيسأل نفسه لماذا هذه المناظر التي رآها (ثلاثة أولاد يدفعون زلاجة في الطريق الصاعد نحو الأعلى، كان المصباح الأخضر لشارة المرور الوحيدة في قارص والمنعكس على واجهة قصر تصوير آيدن المظلمة) مناراً. سيبقى حاملاً لها دائماً مثل بطاقات بريدية حزينة لا تنسى.

عند باب ورشة الخياطة القديمة التي يستخدمها صوناي قاعدة رأى شاحنة عسكرية وحارسين. وإذا كان كا قد قال للجندي الواقف في عتبة الباب ليحمي نفسه من الثلج بأنه يريد رؤية صوناي، وأعاد عليه هذا مرات، فإنه أبعد كا كأنه يدفع قروياً مسكيناً جاء من قريته لتقديم طلب إلى قائد الأركان العامة. كان في عقله لقاء صوناي لإيقاف توزيع الجريدة.

بعد هذا يجب عليه أن يقيّم الاضطراب والغضب الذي سيطر عليه مع هذا الإحساس باليأس. ثمة خاطر في داخله يدفعه للعودة إلى الفندق راكضاً وسط هذا الثلج، ولكن قبل وصوله إلى أول زاوية دخل إلى مقهى الوحدة. جلس وراء الطاولة التي تقع ما بين المدفأة والمرآة المعلقة على الجدار، وكتب قصيدته المعنونة «الموت ضرباً بالنار.»

في هذه القصيدة التي بناها على أساس «الخوف» بحسب ملاحظاته

سيضعها على بلورة الثلج المسدسة ما بين شعبة الذاكرة وذراع الخيال، وسيمرّر الكهانة التي تتضمنها القصيدة بتواضع.

حين خرج من (مقهى الوحدة) عائداً إلى فندق ثلج بالاس بعد أن أنهى قصيدته كانت الساعة تشير إلى السابعة والثلث. سيلقي بنفسه على السرير وفي ضوء مصباحِ الزقاق وحرف (ك) الزهري، وسيتفرج على ندف الثلج النادفة ببطء متخيلاً السعادة التي سيشعر بها مع إيبك في ألمانيا ليهدئ من اضطرابه.

بعد عشر دقائق حين نزل شاعراً بإرادة لا تقاوم لرؤية إيبك في أسرع وقت ممكن رأى بسعادة العائلة كلها متحلقة مع ضيف حول مائدة وسطها قدر الحساء الذي وضعته زاهدة للتو، كما رأى بريق شعر إيبك الخرنوبي. حين كان يجلس حيث أشاروا له بجانب إيبك شعر مباهياً بأن الذين حول المائدة كلهم يعرفون عشقه لإيبك، ولحظتئذ انتبه إلى أن الضيف الجالس مقابله هو السيد سردار صاحب جريدة مدينة سرهات.

مع ابتسامة حميمية مدّ نفسه السيد سردار وصافحه، وهذا ما جعل كا يشك للحظة بأنهم قد قرؤوا الجريدة التي في جيبه. مد طبقه وأخذ حساءه، ووضع يده على حضن إيبك وقرّب رأسه من رأسها شاعراً برائحتها ووجودها وهمس بأذنها أسفاً بأنه لم يتلق خبراً عن كحلي. بعد ذلك مباشرة التقت عيناه بعيني قديفة الجالسة بجانب السيد سردار، وفهم بأن إيبك قد نقلت إليها الخبر خلال هذه المدة القصيرة. قلبه ممتلئ بالغضب والاضطراب ولكنه على الرغم من هذا استطاع الاستماع إلى شكاية السيد طورغوت حول اجتماع فندق آسيا: قال السيد طورغوت بأن الاجتماع كله عبارة عن استفزاز، وأضاف بأنه لا بد أن الشرطة تعرف كل شيء. قال: «ولكنني لستُ نادماً من المشاركة في هذا الاجتماع التاريخي. أنا سعيد لرؤيتي فقر المادة السياسية لمحبي السياسة في قارص شيباً وشباباً. لا يمكن العمل بالسياسة مع هؤلاء الأكثر غباء ومسكنة وعدم توازن في المدينة. وفي هذا الاجتماع الذي ذهبت إليه لمعارضة الانقلاب العسكري شعرت بأن العسكر قد فعلوا حسناً بعدم ترك مستقبل المدينة لهؤلاء النصابين. أنا أدعوكم جميعاً وقديفة في مقدمتكم بأن تعيدوا النظر بتفكيركم قبل العمل بالسياسة في هذا البلد. غير هذا، فإن الجميع في أنقرة قبل خمس وثلاثين سنة يعرفون بأن هذه المطربة الهرمة والمصبّغة التي

تدور القرص في برنامج (عجلة الدنيا) كانت عشيقة وزير الخارجية الأسبق الذي أعدم (فاتن رشتو زورلو.)»

حين أخرج كا جريدة مدينة سرهات من جيبه، وأراها لمن حول المائدة قائلاً بأن فيها مقالة عنه كان قد مضى أكثر من عشرين دقيقة على جلوسه إلى الطعام، والصمت مخيّم على الرغم من التلفزيون المفتوح.

قال السيد سردار: «أنا أيضاً كنت سأخبركم به، ولكنني لم أستطع اتخاذ القرار خشية أن تفهموا الأمر خطأً، وتتخذوا مني موقفاً.»

قال السيد طورغوت: «سردار، يا سردار.. أي أمر تلقيت وممن؟ أليس هذا العمل بحق ضيفنا مؤسفاً؟ اعطه إياها ليقرأ ما تخبط في.»

بينما كان يأخذ سردار الجريدة التي مدها إليه كا قال: «أريدكم أن تعلموا بأنني غير مؤمن بأية كلمة مما كتبته. إذا اعتقدتم بأنني مصدق له فستكسرون خاطري. أخبره أنت أيضاً يا سيد طورغوت بأن هذا الأمر غير شخصي، وأن صحفياً في قارص مضطر لكتابة مقالات من هذا النوع بناء على طلب.»

قال السيد طورغوت: «سردار دائماً يتلقى أوامر من المحافظة، فيلوث سمعة البعض. اقرأ هذا لنر.»

قال السيد سردار مفاخراً: «ولكنني غير مؤمن بشيء منها. وقراؤنا أيضاً لا يصدقون. لهذا فإنه ليس ثمة ما يخيف.»

قرأ السيد سردار الخبر الذي كتبه ضاحكاً مقدماً في بعض الأماكن مواقف تمثيلية وساخرة. بعد ذلك قال: «كما يُرى ليس ثمة ما يخيف.»

سأل السيد طورغوت كا: «هل حضرتكم ملحد؟»

قالت إيبك غاضبة: «بابا، ليس هذا هو الموضوع. إذا وزّعت هذه الجريدة سيضربونه بالنار في الشارع غداً.»

قال السيد سردار: «لن يحدث شيء يا سيدتي. العسكر جمعوا الإسلاميين السياسيين والرجعيين كلهم.» ثم التفت نحو كا مضيفاً: «أفهم من عينكم بأنكم لم تزعلوا، وبأنكم تدركون أنني أقدر فنكم وإنسانيتكم. لا تدينوني وفق بعض القواعد الأوربية التي لا تناسبنا أبداً! إن المخبولين في قارص الذين يعتقدون بأنهم في أوربا، تطلق عليهم النار هنا في زاوية ما خلال

ثلاثة أيام ـ كما يعرف السيد طورغوت أيضاً ـ ويذهبون في النسيان. صحافة شرق الأناضول تعاني من مصاعب كبيرة. المواطن في قارص لا يشتري جريدتنا ويقرؤها. دوائر الدولة في قارص مشتركة بجريدتي. ومن المؤكد أننا سننشر الخبر الذي يريد قراءته مشتركنا. في العالم كله، حتى في أمريكا تنشر الجرائد أولاً الخبر الذي يريده قراؤها. إذا كان قارئك يريد خبراً كاذباً فلا يمكنك أينما كنت في العالم أن تخفض نسبة مبيعاتك بنشر الخبر الصحيح. لو كان الخبر الصحيح يزيد المبيعات فلِمَ لا أنشره! غير هذا فإن الشرطة لا تسمح لنا بنشر الخبر الصحيح. لدينا مائة وخمسون قارئاً قارصياً في أنقرة واسطنبول. ونحن نبالغ بغناهم ونجاحهم هناك، ونبهره وننشره لكي يجددوا اشتراكاتهم. ها!، فيما بعد يصدقون هذا الكذب.» وأطلق قهقهة.

قال السيد طورغوت: «من طلب هذا الخبر؟ قل.»

«يا سيدي. من المعروف أن أهم قاعدة في الصحافة الغربية هي عدم إعلان مصدر الخبر.»

قال السيد طورغوت: «لقد أحبت ابنتاي هذا الضيف. إذا وزعت هذه الجريدة غداً فلن تغفرا لك. وماذا لو ضرب الحمقى الدينيون صديقنا بالنار؟ ألن تشعر بالمسؤولية؟»

ابتسم السيد سردار لكا، وقال: «هل تخافون إلى هذا الحد؟ إذا كنتم تخافون إلى هذا الحد فلا تخرجوا غداً إلى الشارع أبداً.»

السيد طورغوت: «بدل أن يختفي هو، فلتختف الجريدة. لا توزّع الجريدة.»

«هذا يجعل مشتركيّ يقاطعونني.»

قال السيد طورغوت ملهماً: «اعط الجريدة للذي طلب منك الخبر. والغ الخبر الكاذب والاستفزازي هذا الذي يستهدف ضيفنا، واطبع جريدة جديدة.»

أيدت إيبك وقديفة هذا الاقتراح. قال السيد سردار: «أخذ جريدتي مأخذ الجد إلى هذا الحد أمر يدعو إلى الافتخار. ولكن من سيسدد تكاليف الطبعة الجديدة هذه؟ عليكم أن تخبروني بهذا أيضاً.»

قالت إيبك: «أبي سيدعوك مع ولديك في مساء يوم ما إلى مطعم (الوطن الأخضر).»

قال السيد سردار: «ممكن إذا جئتما أنتما أيضاً. بعد أن تفتح الطرق، وتنقلع هذه الفرقة المسرحية من هنا والآنسة قديفة أيضاً ستأتي معنا. هل تقدمين لنا يا آنسة قديفة تصريحاً مؤيداً لانقلاب المسرح من أجل الفراغ الذي سيحدث مكان هذا الخبر؟ سيُعجب قراؤنا كثيراً بهذا.»

قال السيد طورغورت: «لاتقدم، لاتقدم. ألم تعرف ابنتي بعد؟»

«ألا يمكن أن تصرّحي يا آنسة قديفة باعتقادك أن الانتحارات ستقلّ في قارص بعد انقلاب المسرحيين؟ هذا سيروق لقرائنا. فوق هذا إنك تعارضين انتحار الفتيات المسلمات.»

قالت قديفة لا مبالية: «لم أعد معارضة للانتحار.»

إذا كان السيد سردار قد حاول فتح باب نقاش جديد بقوله: «ولكن ألا يضعك هذا موضع الملحدة؟»

فقد كان الذين حول المائدة يقظين إلى حد عدم توجيه نظرة سرور له.

قال: «حسنٌ. أعدكم. لن أوزع الجريدة.»

«هل ستعملون طبعة أخرى؟»

«فور خروجي من هنا وقبل ذهابي إلى البيت.»

قالت إيبك: «نشكرك.»

خيّم صمتٌ طويل وغريب. سرّ كا من هذا: كان يشعر لأول مرة منذ سنوات طويلة أنه جزء من أسرة يدرك أن ما تدعى أسرة تؤسس على متعة العناد اليائس للاجتماع على الرغم من الحزن والمشاكل، ويشعر بالسعادة لأنه فوّت هذا الأمر في الحياة. هل يمكن أن يسعد مع إيبك حتى نهاية عمره؟ ليست السعادة ما يبحث عنه. شعر بهذا جيداً بعد قدح العرق الثالث. حتى إنه يمكن القول بأنه فضل التعاسة. المهم هو ذاك الاجتماع اليائس، وتأسيس مركز لشخصين يبقى العالم خارجه. وكان يشعر بأنه يمكن أن يؤسسه بممارسة الحب مع إيبك لشهور دون توقف. أسعد كا بشكل أكثر من عادي الجلوس مع هاتين الأختين اللتين مارس الحب مع إحداهما، والشعور بوجودهما ونعومة بشرتيهما، ومعرفته بأنه لن يكون وحيداً حين يعود مساء إلى البيت، والوعد الجنسي هذا والإيمان بأن الجريدة لن توزع.

لسعادته الزائدة لم يستمع للحكاية والإشاعات المروية على المائدة كما يسمع أخبار الكوارث، بل كما يستمع لسطور مخيفة من حكاية قديمة: أحد العاملين في المطبخ حكى لزاهدة بأن عدداً كبيراً من المعتقلين جلبوا إلى ملعب كرة القدم الذي يغطي الثلج نصف مرمييه، وتركوا في الخارج طوال اليوم لكي يمرضوا تحت الثلج، أو يتجمدوا ويموتوا، وأطلق النار على بضعة منهم عند أبواب غرف المشالح ليكونوا عبرة للآخرين. ولعل شهود الإرهاب الذي عصف بالمدينة طوال اليوم على يد ز. دميرقول وأصدقائه يروون حكايات مبالغ فيها: دوهمت رابطة الرافدين التي يعمل فيها بعض الشباب القوميين الأكراد في «الفن الشعبي والأدب»، وعند ما لم يجدوا أحداً فيها غير الرجل المسن الذي يحضّر الشاي فيها، ولا علاقة له بالسياسة أبداً ضربوه ضرباً مبرحاً. الحلاقان والعاطل عن العمل الذين حقق معهم بتهمة صب ماء مجرور مصبوغ على تمثال أتاتورك في مدخل بناء أتاتورك التجاري ولم يعتقلوا اعترفوا بذنبهم بعد أن ضربوا حتى الصباح وبالعمليات الأخرى المعادية لأتاتورك في المدينة (كسر أنف تمثال أتاتورك الذي في باحة الثانوية المهنية الصناعية، كتابة عبارات قبيحة على صورة أتاتورك المعلقة على جدار مقهى أونبشليلر، التخطيط لتخريب تمثال أتاتورك المواجه لمبنى الحكومة بواسطة البلطات.) قتل أحد الشابين الكرديين اللذين ادّعيَ بأنهما كتبا شعارات مناهضة لانقلاب المسرح على جدران شارع خالد باشا رمياً بالرصاص، أما الآخر فقد ضرب حتى غاب عن الوعي. حين حاول الهرب الشاب العاطل عن العمل الذي جيء به ليمحو الشعارات المكتوبة على جدران ثانوية الأئمة والخطباء أطلقت النار على ساقيه. جميع الذين قالوا كلاماً بشعاً بحق العسكر والمسرحيين، ونشروا الإشاعات غير الصحيحة بفضل المخبرين الذين في المقاهي. ولكن على الرغم من هذا فإن هنالك أقاويل وشائعات مبالغ فيها تسري من مكان إلى آخر كما يحدث دائماً في زمن الكوارث والجرائم، فيحكى عن شبان أكراد ماتوا مفجرين القنابل بأيديهم، وفتيات إشاربات انتحرن احتجاجاً على الانقلاب، وشاحنة محملة بالديناميت أوقفت وهي تقترب من مخفر (إينونو) للشرطة.

لأن كا قد سمع قبل هذه المرة بهجوم انتحاري بواسطة شاحنة محملة

بالمتفجرات شغل باله بالإحساس بطمأنينة الجلوس إلى جانب إيبك طوال الليل، مع توجيه انتباهه في إحدى الفترات نحو ذلك الموضوع.

في ساعة متأخرة حين نهض السيد طورغوت وابنتاه بعد الصحفي السيد سردار للذهاب إلى غرفهم خطر ببال كا أن يدعو إيبك إلى غرفته، ولكنه انسحب إلى غرفته دون أدنى إشارة خشية أن يرفض فتلقى الظلال على سعادته.

[٣٤]

قديفة أيضاً لا تقبل

وســيط

بينما كان كا ينظر إلى الخارج من نافذة غرفته دخن سيجارة. لم يعد يندف الثلج. ثمة سكون في الشارع الخاوي المغطى بالثلج تحت ضوء مصباح الشارع الشاحب يمنح الإنسان طمأنينة. يدرك كا جيداً أن سبب الطمأنينة التي يشعر بها هو العشق والسعادة أكثر من كونه جمال الثلج. غير هذا فقد أراحه أن يكون هنا في تركيا ملتفاً بمجموعة أناس يشبهونه ومتساوين معه. وهو الآن سعيد إلى حد اعترافه لنفسه بأن شعور هؤلاء الناس تلقائياً بتفوقه لأنه قادم من ألمانيا واسطنبول طمأنه راحته أكثر.

قرع الباب حين رأى إيبك أمامه، اندهش كا.

حين دخلت إيبك، قالت: «أفكر فيك دائماً، لا أستطيع النوم.»

فهم كا فوراً بأنهما سيمارسان الحب حتى الصباح دون أن يهتما للسيد طورغوت. الأمر الذي لا يصدق هو إمكانية احتضان إيبك دون شعور بألم الانتظار. وبينما كان كا يمارس الحب مع إيبك طوال الليل فهم أن هنالك ما هو أبعد من السعادة، وأن تجربته في الحياة والعشق حتى الآن لم تساعده على الإحساس بذلك لأنه أبعد من الزمان والرغبة. إنها المرة الأولى في حياته التي شعر فيها بهذه الراحة. بينما كان يمارس معها الحب نسي ما كان يحتفظ به في عقله حين يمارس الحب عادة من خيالات جنسية وما تعلمه من بث البورنو وأفلامه. بينما كان جسده يمارس الحب مع إيبك اكتشف فيه موسيقى يختزنها من قبل دون علمه، وهو يتقدم على نغمتها. كانت تأتيه عنوة أحياناً.

يرى في حلمه أنه يركض في أحلام محملة بأجواء جنة لرحلة صيفية، وأنه خالد، يأكل تفاحة لا تنتهي وهو في طائرة تسقط، ثم يشعر برائحة إيبك التفاحية ودفء بشرتها فيستيقظ. وفي ضوء خفيف مائل إلى الصفرة ولون الثلج القادم من الخارج يرى إيبك تنظر إلى داخل عينيه عن قرب شديد. وحين يرى أن المرأة مستيقظة، وتتفرج عليه صامتة، يشعر بأنهما حوتان يتمددان مرتاحين متجاورين في ماء غير عميق، وينتبه حينئذ إلى أن أيديهما متشابكة.

في إحدى المرات التي استيقظ، ورأى فيها عينيها، قالت إيبك: «سأتحدث مع أبي، سأذهب معك إلى ألمانيا.»

لم يستطع كا النوم. كأن حياته كلها فيلماً سعيداً يتفرج عليه.

حدث انفجار في قلب المدينة. فجأة اهتز السرير، والغرفة والفندق. سُمعت أصوات رشاشات آلية بعيدة. الثلج المغطي المدينة يخفف الصوت. تحاضنا، وانتظرا صامتين.

حين استيقظ فيما بعد كانت أصوات الأسلحة قد اختفت. خرج كا من السرير الدافئ مرتين ودخّن سيجارة شاعراً في بشرته المتعرقة ببرودة هواء قادم من النافذة مثل الجليد. لم يلهم بشعر أبداً. وكان سعيداً إلى حد لم يشعر بمثله في حياته.

استيقظ صباحاً على صوت قرع الباب. لم تكن إيبك بجانبه. لم يستطع تذكر متى نام آخر مرة، وما كان آخر حديث بينه وبين إيبك، ومتى انقطعت أصوات الأسلحة.

الذي كان عند الباب هو جاويت القائم على شؤون الاستقبال. قال بأن ضابطاً جاء إلى الفندق، وأعلمه بأن صوناي ظائم يدعوه إلى مقر القيادة، وهو الآن ينتظر في الأسفل. لم يستعجل كا. وحلق ذقنه.

وجد شوارع قارص الخاوية أجمل وأكثر سحراً بالنسبة إلى صباح الأمس. رأى في نهاية الصعود لشارع أتاتورك بيتاً تفتت بابه، وتحطم زجاج نوافذه، وجبهته مثقبة.

في ورشة الخياطة قال صوناي بأنه نفذ هجوم انتحاري على ذلك البيت. قال: «دخل المسكين إلى أحد الأبنية التي في الأعلى ولم يدخل إلى هنا

خطأ. تمزق قطعاً. لم يفهموا حتى الآن ما إذا كان إسلامياً أم من حزب العمال الكردستاني.»

كان كا يرى أن في موقف صوناي ذلك الموقف الانفعالي للممثلين المشهورين الذين يأخذون أدوارهم على محمل جدي جداً. حليق الذقن، ويبدو نظيفاً ونشيطاً، قال ناظراً إلى قلب عيني كا: «قبضنا على كحلي.»

بدافع غريزي أراد كا إخفاء السعادة التي شعر بها من الخبر، ولكن هذا لم يغب عن صوناي. قال: «إنه إنسان سيّيء. من المؤكد أنه وجه لقتل مدير معهد المعلمين. ينشر بأنه ضد الانتحار من جهة، وينظم الشباب المساكين الأغبياء من أجل عمليات انتحارية من جهة أخرى. الأمن القومي واثق من أنه جاء إلى قارص بكمية من المتفجرات تكفي لتدمير المدينة. كلها أخفى أثره ليلة الانقلاب، واختبأ في مكان لا يعرفه أحد. أنت على علم بخبر ذلك الاجتماع المضحك المنعقد في فندق آسيا طبعاً.»

هز كا رأسه بأداء مفتعل كأنه في تمثيلية.

قال صوناي: «همي في الحياة ليس معاقبة هؤلاء المجرمين والرجعيين والإرهابيين. هنالك مسرحية أردت طوال عمري أن أمثلها، ولهذا أنا هنا اليوم. هنالك كاتب إنكليزي يدعى (توماس كيد). شكسبير سرق منه (هملت). اكتشفت مسرحية لكيد تدعى (تراجيديا إسبانيا) لم تنل حقها، ونسيت. إنها تراجيديا ثأر وانتقام، وثمة مسرحية داخل المسرحية. فوندا وأنا نتحيّن فرصة كهذه من أجل تمثيل هذه المسرحية منذ خمس عشرة سنة.»

حيّا كا فوندا إسر الداخلة إلى الغرفة تحية مفتعلة منحنياً إلى طاقين، ورأى أن المرأة التي تدخن سيجارة بمشرب طويل جداً قد سُرّت لهذا. لخص الزوجان المسرحية دون أن يطلب منهما كا.

قال صوناي فيما بعد: «غيرت المسرحية وبسطتها بشكل يستمتع بها شعبنا ويتعلم منها. حين ستعرض غداً على مسرح الشعب سيتابعها المتفرجون جميعاً في قارص في المسرح وعبر البث الحي.»

قال كا: «وأنا أيضاً أريد أن أراها.»

«نريد أن تلعب قديفة أيضاً دوراً في المسرحية. ستكون فوندا منافستها

الشريرة. . . ستظهر قديفة على الخشبة مغطاة الرأس. بعد ذلك ستتمرد على التقاليد البالية المتسببة لقضية ثأر كاشفة رأسها فجأة أمام الجميع.» ورمى صوناي بحركة انفعالية واستعراضية غطاء رأس خيالي عن رأسه.

قال كا: «ستحدث أحداث مرة أخرى.»

«أنت لا تشغل بالك بهذا لدينا إدارتنا العسكرية الآن.»

قال كا: «قديفة أساساً لا تقبل»

قال صوناي: «نحن نعرف أن قديفة تعشق كحلياً. إذا كشفت قديفة رأسها سأترك كحليها فوراً. يهربان معاً إلى مكان بعيد عن الأنظار، ويسعدان.»

ظهر على وجه فوندا إسر تعبير شفقة الحامية الخاص بالخالات حسنات النوايا الفرحات لسعادة العشاق الهاربين مع بعضهم بعضاً كما في أفلام الميلودراما المحلية. للحظة تخيل كا أن المرأة تتطلع إلى عشقه لإيبك بالمحبة نفسها.

فيما بعد قال: «أنا أشك بإمكانية أن تكشف قديفة رأسها في البث الحي.»

قال صوناي: «فكرنا بسبب وضعك بأنك الوحيد الذي يمكن أن يتمكن من إقناعها. مساومتنا تعني بالنسبة إليها المساومة مع الشيطان الأكبر. ولكنها تعرف أنك تعطي الحق لفتيات الإشاربات. وأنت عاشق لأختها الكبيرة.»

قال كا: «ليست قديفة وحدها من يجب إقناعها، بل يجب إقناع كحلي أيضاً. ولكن يجب أن يحكى مع قديفة أولاً.» ولكن عقله ركز على بساطة قوله عبارة: «أنت عاشق لأختها الكبيرة» وفظاظتها.

قال صوناي: «يمكنك أن تفعل هذا كما تريد. وأنا لهذا أمنحك كل الصلاحيات مع آلية عسكرية. ويمكنك المساومة باسمي كما تريد.»

خيم صمت. انتبه صوناي لشرود كا.

قال كا: «لا أريد الدخول في هذا الأمر.»

«لماذا؟»

«لعله لانني جبان. أنا الآن سعيد جداً. لا أريد أن أصير هدفاً للدينيين.

سيقولون إن هذا الرجل الملحد أقنع قديفة بكشف رأسها، وأمن فرجة الطلاب عليها. حتى لو هربتُ إلى ألمانيا سيطلقون عليّ النار في ليل يوم ما في شارع فرعي ما ويقتلونني.»

قال صوناي مغروراً: «سيضربونني بالنار أولاً. ولكنني سررت لقولك بأنك جبان. وأنا أيضاً واحد خواف. صدقني في هذا البلد لا يبقى على أقدامهم سوى الجبناء. ولكن الإنسان يتخيل دائماً ـ مثل الجبناء جميعاً ـ أنه في يوم ما سيقوم بعمل بطولي، أليس كذلك؟»

«أنا سعيد جداً الآن. لا أريد أن أكون بطلاً أبداً. خيال البطولة هو سلوان التعساء. أصلاً أمثالنا باسم القيام ببطولة إما أن يقتلوا أشخاصاً ما، أو يقتلوا أنفسهم.»

قال صوناي معانداً: «ألا تدرك بزاوية من زوايا عقلك بأن هذه السعادة لن تستمر طويلاً؟»

قالت فوندا إسر: «لماذا تخوّف ضيفنا؟»

قال كا حذراً: «ليس ثمة سعادة تستمر طويلاً. ولكن لا نية لي لجعل الآخرين يقتلونني للقيام ببطولة بسبب احتمال تعاسة مسبق.»

«إذا لم تدخل في هذا العمل فلن يقتلوك في ألمانيا، بل هنا. هل رأيت جريدة اليوم؟»

قال كا باسماً: «هل نشرت بأنني سأموت اليوم؟»

أرى كا صوناي العدد الذي رآه مساء البارحة من جريدة مدينة سرهات.

قرأت فوندا إسر باستعراض مبالغ: «ملحد في قارص.»

قال كا واثقاً: «هذه طبعة البارحة الأولى. فيما بعد قرر السيد سردار عمل طبعة ثانية لتصحيح الوضع.»

قال صوناي: «وزّع هذا الصباح الطبعة الأولى دون أن ينفذ قراره هذا. عليك ألا تثق أبداً بوعود الصحفيين. ولكننا نحميك. الدينيون الذين لا تمكنهم قوتهم من الوصول إلى العسكر يريدون في أول عمل يقومون به إطلاق النار على ملحد خادم للغرب.»

سأل كا: «أأنت طلبت من السيد سردار أن يكتب ذلك الخبر؟»

وكشريف تعرض للإهانة قلب صوناي طرف شفته، ورفع حاجبيه، وألقى نظرة الحردان، ولكن كا يستطيع أن يرى فيه الشخص السعيد أكثر من السياسي الذي يحيك ألاعيب صغيرة.

قال كا: «إذا وعدتني بالحماية حتى النهاية سأقوم بالوساطة.»

وعد صوناي، ولأنه رضي الانضمام إلى صف الطيبين، احتضنه وبارك له، وقال له بأن رجلين من رجاله سيرافقانه دون أن يتركاه أبداً.

وأضاف منفعلاً: «سيحميانك من نفسك إن اضطر الأمر.»

جلسوا لمناقشة تفاصيل الوساطة والإقناع وهم يشربون شاي الصباح الذي تفوح منه رائحة ذكية. كانت فوندا إسر ممتنة وكأن ممثلاً مشهوراً ولامعاً قد انضم إلى فرقتها المسرحية. تحدثت قليلاً عن (تراجيديا إسبانيا)، ولكن عقل كا لم يكن معها، كان ينظر إلى الضوء الأبيض الذي يسقط إلى الداخل عبر النوافذ العالية.

عندما غادر كا ورشة الخياطة شعر بخيبة أمل حين رأى أن جنديين ضخمين مسلحين رافقاه.

أراد أن يكون أحدهما على الأقل ضابطاً أو مدنياً. ذات مرة رأى كاتباً شهيراً ظهر في التلفاز في زمن ما وقال بأن القومية التركية غبية، وأنه لا يؤمن بالإسلام أبداً ـ رآه ـ في سنواته الأخيرة بين حارسين أنيقين مهذبين فرزتهما الدولة له. ولم يحملا حقيبته فقط بل فتحا له الباب، ويتأبطان ذراعيه في الدرج ويبعدانه عن معجبيه الفضوليين جداً وأعدائه بعظمة يؤمن كا بأن كاتباً شهيراً ومعارضاً يستحقها.

أما الجنديان الجالسان بجانب كا في الآلية العسكرية فقد كانا يتصرفان ليس كأنهما يحميانه، بل كأنهما يعتقلانه.

فور دخوله إلى الفندق شعر مجدداً بالسعادة التي كانت تلف روحه كلها صباحاً. على الرغم أنه خطر بباله رؤية إيبك فوراً، كان يريد رؤية قديفة أولاً لأن إخفاء شيء ما عنها يعني خيانة لعشقهما ولو كانت هذه الخيانة صغيرة. ولكنه حين رأى إيبك في الصالة نسي نيته هذه.

قال لإيبك وهو ينظر إليها معجباً: «أنت أجمل مما أذكره عنك. طلبني صوناي. يريد أن أكون وسيطاً.»

«في أي موضوع؟»

قال كا: «البارحة مساء قبضوا على كحلي. لماذا يدور وجهك: ليس ثمة خطورة بالنسبة إلينا. نعم، ستحزن قديفة. ولكن صدقيني لقد ارتاح قلبي.» وحكى لها مسرعاً ما سمعه من صوناي، وشرح لها الانفجار الذي سمعاه ليلاً وأصوات الأسلحة. «ذهبتِ صباحاً دون أن توقظيني. لا تخافي، سأحل كل شيء، ولن يدمى أنف أحد. سنذهب إلى فرانكفورت ونكون سعداء. هل حدثتِ أباك؟» وقال لها بأن مساومة ستحدث، لهذا السبب سيرسله صوناي إلى كحلي، ولكنه أخبره بأنه لابد من الحديث مع قديفة أولاً. القلق الزائد الذي رآه في عيني إيبك، يعنى أنها قلقة عليه، وهذا ما أمتعه.

قالت إيبك: «سأرسل قديفة إلى غرفتك بعد قليل» وذهبت.

حين صعد إلى غرفته وجد أن السرير قد رُتِّب. الأغراض ومصباح الطاولة الشاحب، والستائر الكالحة التي قضى بينها أسعد ليلة في حياته هي الآن وسط ضوء ثلج وصمت مختلفين تماماً، ولكنه ما زال يستطيع أن يشم الرائحة المتبقية من ممارستهما الحب. بعد أن رمى نفسه على ظهره فوق السرير حاول أن يستنتج البلاء الذي يمكن أن يقع له فيما لو لم يستطع إقناع قديفة وهو ينظر إلى السقف.

فور دخول قديفة، قالت: «ماذا تعرف عن الإمساك بكحلي؟ احك! هل عذبوه؟»

قال كا: «لو كانوا قد عذبوه لما أخذوني إليه. سيأخذونني بعد قليل. أمسكوا به بعد اجتماع الفندق بقليل، ولا أعرف أكثر من ذلك.»

نظرت قديفة عبر النافذة إلى الخارج، إلى الشارع المثلج، وقالت: «الآن أنت سعيد، وأنا صرت تعيسة. تغير كل شيء بعد لقائنا البارحة في غرفة الصندوق.»

تذكر كا لقاءهما في الغرفة ذات الرقم ٢١٧، وسحب قديفة سلاحها قبل

خروجهما من الغرفة، وجعله يخلع ثيابه كأنها لحظة قديمة جداً وحلوة تربطهما ببعضهما بعضاً.

قال كا: «هذا ليس كل شيء يا قديفة. المحيطون بصوناي أقنعوه بأن لكحلي إصبعاً في مقتل مدير المعهد. غير هذا فقد وصل إلى قارص ملف يثبت بأنه قد قتل المذيع التلفزيوني الإزميري.»

«من هؤلاء المحيطون به؟»

«عدد من عناصر المخابرات القومية الذين في قارص.. واحد أو اثنان من العسكر على علاقة بهم. ولكن صوناي ليس تحت تأثيرهم الكامل. لديه أهداف فنية هذه كلماته هو. يريد تمثيل مسرحية على مسرح الشعب هذا المساء، وأن يعطيك دوراً فيها. لا تقطبي وجهك، اسمعي! وسينقلها التلفزيون مباشرة، وتتابعها قارص كلها. إذا قبلتِ التمثيل، وإذا أقنع كحلي طلاب الأئمة والخطباء وجاؤوا وتفرجوا على المسرحية صامتين، وصفقوا حيث يجب بتهذيب، سينسى كل شيء، ولن يدمى أنف أحد. واختارني وسيطاً.»

شرح لها كا عن (توماس كيد) و(تراجيديا إسبانيا) وأخبرها بأنه غيّر المسرحية وأعدها «بمفهوم المزج الذي قدمه على مدى سنوات في جولات الأناضول بين (كورنيل) و(شكسبير) و(بريشت) وبين رقص هز البطن والأغنيات غير المؤدبة.»

«وأنا على أية حال سأكون على الخشبة المرأة التي يعتدى على عرضها لكي يبدأ الثأر.»

«لا، ستكونين مثل سيدة إسبانية حين يكون رأسك مغطى، ستملين، ستكونين الفتاة المتمردة التي تكشف عن رأسها في لحظة غضب.»

«التمرد هنا يتطلب وضع غطاء رأس وليس إلقاءه.»

«هذه مسرحية يا قديفة. ولأنها مسرحية يمكنك أن تكشفي رأسك.»

«فهمت ما تريده مني. لن أكشف رأسي حتى ولو كانت مسرحية، أو مسرحية داخل مسرحية.»

«اسمعي يا قديفة! بعد يومين يتوقف الثلج،وتفتح الطرق، وينتقل

المحكومون الذين في السجن إلى أيدي من لا يرحمون. حينئذ لن تستطيعي رؤية كحلي في حياتك. هل فكرت بهذا جيداً؟»

«أخشى أن أقبل بهذا فيما لو فكرت فيه.»

«غير هذا يمكنك وضع شعر مستعار تحت غطاء رأسك. لا أحد يرى شعرك.»

«لو كنت سأضع شعراً مستعاراً، كنت سأضعه من أجل الدخول إلى الجامعة كما فعلت الأخريات.»

«القضية الآن ليست إنقاذ كرامة على باب الجامعة. ستفعلين هذا من أجل إنقاذ كحلي.»

«وهل سيقبل كحلي الخلاص الذي سيحققه له كشف رأسي؟.»

قال كا: «سيقبل، كشفك لرأسك لا يؤثر على كرامة كحلي، لأن أحداً لا يعرف علاقتكما.»

فهم أنه لامس نقطة ضعف قديفة من خلال الغضب الذي رآه في عينيها، بعد ذلك رآها كا تبتسم بشكل غريب، وخاف من هذا. لف قلبه خوف وغيرة. كان يخشى أن تقول له قديفة ما هو هدام بحق إيبك. قال شاعراً بالخوف الغرائبي نفسه: «ليس لدينا وقت طويل يا قديفة. أعرف أنك ذكية وحساسة إلى حد إمكانيتك الخروج بلطف من هذا الأمر. أقول هذا باعتباري شخصاً عاش سنوات طويلة في المنفى السياسي. اسمعيني: لا تعاش الحياة من أجل المبادئ بل من أجل السعادة.»

قالت قديفة: «ولكن لا أحد يسعد دون مبادئ وإيمان.»

«صحيح. ولكن من الغباء أن يقضي الإنسان على حياته في سبيل معتقداته في دولة ظالمة لا تعطي قيمة للإنسان. المبادئ والمعتقدات العظيمة هي من أجل أناس الدول الغنية.»

«على العكس تماماً. في دولة فقيرة ليس لدى الإنسان ما يتمسك به غير معتقداته.»

لم يقل كا ما خطر بباله وهو: «ولكن معتقداته غير صحيحة!»، وقال: «ولكنك يا قديفة لست من الفقراء. أنت قادمة من اسطنبول.»

«لهذا السبب أفعل ما أؤمن به. لا أعمل تقية. إذا كشفت رأسي فأكشفه بجد.»

«حسنٌ، ماذا تقولين عن هذا: لا يُدخل أحد إلى صالة المسرح. يتابع القارصيون الحادثة عبر التلفاز فقط. حينئذ تعرض الكاميرا امتداد يدك نحو غطاء رأسك في لحظة غضب، بعد ذلك نحدث قطعاً، ونعرض انفلات شعر واحدة غيرك تشبهك.»

قالت قديفة: «هذا عمل أمكر من وضع الشعر المستعار. بالنتيجة فإن الجميع سيعتقدون بأنني كشفت رأسي بعد الانقلاب العسكري.»

«هل المهم أمر الدين أم ما يفكر به الجميع؟ بهذه الطريقة لا تكشفين شعرك أبداً. أما إذا كان همك ما يقوله الجميع، فيمكنك بعد انتهاء هذه الترهات أن تخبري الجميع بأن هذا مونتاج لفيلم. وحين يظهر أنك أقدمت على هذه الحكاية كلها من أجل إنقاذ كحلي سيحترمك شباب الأئمة والخطباء أكثر من السابق.»

قالت قديفة بحالة مختلفة تماماً: «حين تعمل على إقناع أحد ما بقواك كلها هل فكرت بأنك في الحقيقة تقول أشياء غير مؤمن بها أبداً؟»

«يحدث هذا، ولكنني لا أشعر به الآن.»

«بعد أن تنجح بإقناع ذلك الشخص تشعر حينئذ بالذنب لأنك خدعته. أليس كذلك؟ لأنك تركته مأزوماً.»

«ما ترينه الآن يا قديفة ليس الأزمة. باعتبارك إنسانة ذكية ترين أنه لا يوجد غير هذا لعمله. الذين حول صوناي يشنقون كحلياً دون أن ترتجف لهم يد، وأنت لا يمكن أن تقبلي بهذا.»

«لنفترض أنني كشفت رأسي أمام الجميع، وقبلت الهزيمة. من أين لنا معرفة أنهم سيتركون كحلياً؟ لماذا أصدق وعد هذه الدولة؟»

«معك حق. عليّ أن أكلمهم بهذا.»

«مع من ستتكلم؟ ومتى؟»

«سأعود إلى صوناي بعد أن أتحدث مع كحلي.»

سكتنا مدة. وهكذا بدا أنه قَبِل شروط قديفة بشكل عام. ولكي يتأكد كا من هذا نظر إلى ساعته مبدياً هذا لقديفة.

«هل كحلي بين أيدي تشكيلات المخابرات القومية أم بين أيدي العسكر؟»

«لا أعرف. ليس هنالك فرق كبير على أية حال.»

قالت قديفة: «ممكن ألا يعذبه العسكر.» سكتت قليلاً ثم قالت: «أريدك أن تعطيه هذه.» ومدت نحو كا قداحة مغطاة بالصدف، ذات حجر من طراز قديم، وعلبة سجائر مارلبورو حمراء.

«القداحة لأبي. يستمتع كحلي بالإشعال بواسطتها.»

أخذ كا علبة السجائر، ولم يأخذ القداحة. «إذا أعطيته القداحة سيفهم كحلي أنني مررت عليك أولاً.»

«ليفهم.»

«حينئذ سيفهم أنني حكيت معك، وسيدفعه الفضول معرفة قرارك. مع أنني لن أقول له بأنني مررت عليك، وبأنك رضيت بشكل ما أن تكشفي رأسك لإنقاذه.»

«ألأنه لن يقبل بهذا؟»

«لا. كحلي ذكي ومنطقي إلى حدٍ يمكنه فيه الفهم أنك ستبدين نفسك تكشفين رأسك من أجل تخليصه من الموت، وهذا تعرفينه أنت أيضاً. الأمر الذي لن يستطيع قبوله هو عدم سؤاله، وتوجيه السؤال لك أولاً.»

«ولكن هذا الموضوع ليس سياسياً فقط، فهو في الوقت نفسه موضوع شخصي. وسيتفهم كحلي هذا الأمر.»

«في الحقيقة إنك تعرفين يا قديفة بأنه سيطلب أن يكون صاحب الكلمة الأولى. هو رجل تركي. فوق هذا فهو سياسي إسلامي. لا يمكنني الذهاب إليه وقول: قررت قديفة أن تكشف رأسها لكي يطلق سراحك. عليه أن يعتقد بانه هو الذي اتخذ القرار. وسأفاتحه بموضوع التقية بوضعك الشعر المستعار، والحل الوسيط بالمونتاج التلفزيوني. وسيقنع نفسه بأنكِ ستنقذين كرامته، وأن هذا حل. لن يقبل حتى بتخيل تلك المناطق المظلمة بين مفهومك للكرامة غير

القابل بأية لعبة، ومفهومه العملي للكرامة. كما إنه لا يريد أبداً سماع أنك ستكشفين رأسك بصدق، ودون أية لعبة.»

قالت قديفة: «إنك تغير من كحلي، وتكرهه. إنك لا تريد مجرد رؤيته كإنسان. أنت كالعلمانيين ترى غير المغربين بدائيين، عديمي أخلاق، طبقة دنيا، وتفكر بتأديبهم بالضرب. رضوخي للقوة العسكرية من أجل إنقاذه أسعدك. حتى إنك لا تستطيع إخفاء سعادتك غير الأخلاقية هذه.» بدا على عينيها الكراهية «طالما أن كحلياً من يجب أن يعطي القرار، فلماذا جئت أيها الرجل التركي الآخر ـ الذي هو أنت ـ إليّ أنا فور مغادرتك من عند صوناي، ولم تذهب إلى كحلي مباشرة؟ أأقول لك؟ لأنك تريد بداية أن تراني وقد رضخت بإرادتي. وهذا سيمنحك تفوقاً على كحلي حين تلتقيه.»

«صحيح أنني أخاف من كحلي. ولكن الأمور الأخرى التي قلتِها غير صحيحة. لو أنني ذهبت بداية إلى كحلي، وجلبت لك قراره بضرورة كشف رأسك كأمر، فلن تقبلي بهذا القرار.»

«لم تعد وسيطاً. إنك شخص تتعاون مع الظالمين.»

«أنا لا أؤمن بشيء غير الخروج من هذه المدينة سالماً يا قديفة. وعليك أنت أيضاً ألا تؤمني بشيء. لقد أثبتِ لقارص كلها بما يكفي بأنك ذكية وجريئة وصاحبة كرامة. نحن فور تخلصنا من هذا الأمر سنسافر أختك وأنا إلى فرانكفورت. لكي تكون سعيدة هناك. وأنا أقول لك أعمل ما هو ضروري لتكوني سعيدة. يمكنك الخلاص من هنا مع كحلي، والعيش في مدينة أوربية في وضع لجوء سياسي. أنا واثق أن أباك سيلحق بك. لهذا عليك أولاً أن تثقي بي.»

حين ذكر السعادة ذرفت دمعة كانت تملأ عين قديفة على خدها. ابتسمت ابتسامة أخافت كا وهي تمسح الدمعة براحة كفها بسرعة. «هل أنت واثق من مغادرة أختي لقارص؟»

قال كا: «واثق» على الرغم من عدم ثقته.

قالت قديفة بأداء يبدي غروراً وتسامح أميرة: «أنا لا أصرّ على إعطائك القداحة له، وقولك له بأنك جئت إليّ أولاً. ولكنني أريد أن أكون واثقة من

إطلاق سراح كحلي فيما إذا كشفت رأسي. لا تكفي كفالة صوناي أو غيره. نحن جميعاً نعرف الدولة التركية.»

قال كا: «أنت ذكية جداً يا قديفة. أنت الإنسانة الأحق بالسعادة في قارص.» للحظة أراد القول: «ونجيب أيضاً.» ولكنه نسيه بسرعة. «اعطني القداحة أيضاً. لعلني إذا وجدت مناسبة أعطيها لكحلي. ولكن ثقي بي.»

بينما كانت تقدم له قديفة القداحة، تعانقا بشكل غير متوقع. للحظة شعر كا بالشفقة نحو جسد قديفة النحيل والخفيف. أمسك بنفسه كي لا يقبلها. وفي اللحظة ذاتها حين قرع الباب بعنف قال لنفسه: «حسنٌ أنني أمسكت نفسي.»

إيبك هي التي قرعت الباب. قالت بأن آلية عسكرية جاءت لأخذ كا. ولكي تفهم ما جرى في الغرفة وجهت نظرها مطولاً بلطف وتفكير إلى عيني كل من كا وقديفة. خرج كا دون أن يقبلها. وحين عاد من نهاية الممر شاعراً بالنصر والذنب وألقى نظرة، رأى الأختين متعانقتين.

[٣٥]

أنا لست عميل أحد

كا وكحلي في الزنزانة

خيال إيبك وقديفة المتعانقتين في طرف الممر لم يبرح كا مدة طويلة. حين توقفت الآلية العسكرية التي يركب فيها كا بجانب السائق في الزاوية بين شارعي أتاتورك وخالد باشا مقابل إشارة المرور الوحيدة في قارص، ومن مقعده المرتفع رأى خلال لحظة ـ كمتجسس دقيق ـ تفاصيل اجتماع سياسي سري عبر فرجة ستارة يحركها هواء خفيف ومصراع نافذة غير مطلية مفتوح للهواء النظيف في طابق ثان لبناء أرمني قديم، وحين كانت يد امرأة بيضاء مرتبكة تغلق النافذة وتسدل الستارة توقع ما يجري في الغرفة المضيئة بشكل صحيح إلى حد مدهش: ثمة عنصران خبيران من المراتب المتقدمة بين القوميين الأكراد في قارص يقنعان أجير المقهى المتصبب عرقاً بجانب المدفأة بسبب أربطة الشاش من ماركة (غازو) الملفوفة على جذعه والمقتول أخوه الأكبر في مداهمات الأمس بأنه من السهل جداً أن يدخل من الباب الجانبي لمديرية الأمن في شارع فائق بيك ويفجر القنبلة المربوطة به. على عكس توقع كا لم تنعطف الشاحنة العسكرية من شارع أتاتورك نحو مديرية الأمن المذكورة أعلاه، ولا نحو مركز الأمن القومي الفخم الذي يعود للسنوات الأولى من عصر الجمهورية، وعبرت شارع فائق بيك، ودخلت إلى مبنى القيادة العسكرية في مركز المدينة. والأرض المخطط لها في عام ١٩٦٠ أن تكون حديقة كبيرة أحيطت إثر انقلاب ١٩٧٠ بالجدران، وحولت إلى سكن عسكري محاط بأشجار الحور التي يلعب وسطها بالدراجات الهوائية أولاد نحيلون، وأبنية

قيادة جديدة، وساحات تدريب، وبهذا كما كتبت جريدة (حريت) المقربة من العسكر ـ أنقذ البيت الذي نزل فيه بوشكين حين زار قارص، والاصطبلات التي أمر ببنائها القيصر بعد تلك الزيارة بأربعين سنة من أجل مغامراته في بلاد (القاظاق).

الزنزانة التي كان يقيم فيها كحلي بجوار هذه الاصطبلات التاريخية تماماً. أنزلت الشاحنة العسكرية كا أمام بناء حجري محبب وقديم تحت شجرة زعرور هرمة تتمطى من ألم البطن. في الداخل ثمة رجلان مهذبان توقع كا أنهما عنصران من تشكيلات المخابرات القومية، وكان توقعه صحيحاً لفّا بواسطة لفة شاش ماركة (غازو) على صدره جهاز تسجيل يعتبر بدائياً نسبة إلى التسعينيات، وأشارا له إلى زر التشغيل. وبأداء غير ساخر أبداً نبهاه لأن يتصرف وكأنه حزين لسقوط الموقوف في الأسفل في هذا المكان، ويريد أن يسعده ليجعله يعترف بالجرائم التي ارتكبها أو خطط لها، ويسجل له اعترافه. لم يفكر كا أبداً بأن هذين الرجلين لا يعرفان أبداً السبب الأصلي لمجيئه إلى هنا.

في الطابق السفلي للبناء الحجري الصغير الذي كان يستخدم في زمن قيصر روسيا مقراً للفرسان والذي ينزل إليه عبر درج حجري بارد ثمة زنزانة كبيرة نسبياً دون نافذة يعاقب فيها مخالفو الانضباط. وجد كا هذه الزنزانة التي استخدمت مستودعاً فترة من عصر الجمهورية، وفي عام ١٩٥٠ ملجأ نموذجياً في حال هجوم ذري، ـ وجدها ـ مريحة ونظيفة أكثر مما توقع.

على الرغم من أن الزنزانة مُدفأة جيداً بواسطة سخان كهربائي ماركة (آرتشيلك) أهداها في زمن ما مختار وكيل هذه الماركة في المنطقة للعسكر من أجل أن تسير أموره بشكل جيد، إلا أن كحلياً يغطي نفسه ببطانية عسكرية وهو متمدد على السرير يقرأ كتاباً. حين رأى كا نهض من السرير، ولبس حذاءه المنزوع ربّاطه، وصافحه بموقف رسمي ولكنه باسم، وبتصميم الجاهز لحديث العمل أشار نحو طاولة (فورميكا) موجودة جانباً. جلسا على كرسيين متقابلين في جهتي الطاولة الصغيرة. حين رأى كا منفضة السجائر المصنوعة من (الشينكو) مملوءة تماماً بأعقاب السجائر أخرج علبة المارلبورو من جيبه، وأعطاه إياها، وقال له بأنه يبدو مرتاحاً. قال كحلي إنه لم يتعرض للتعذيب،

ثم أشعل بثقابه سيجارة كا أولاً ثم سيجارته. سأله باسماً بشكل محبب: «لصالح من تتجسسون هذه المرة يا سيدي؟»

قال كا: «تركتُ التجسس. أعمل الآن وسيطاً.»

«هذا أسوأ. الجواسيس غالباً يحملون معلومات تافهة لا تفيد شيئاً مقابل نقود. أما الوسطاء فيدسون أنوفهم بغباء في بعض الأعمال متخذين هيئة المحايدين. ما هي مصلحتك؟»

«الخروج سالماً من مدينة قارص اللعينة هذه.»

«اليوم لا يمكن أن يمنح هذه الضمانة لملحد جاء من الغرب للتجسس سوى صوناي.»

وهكذا فهم كا بأن كحلياً قد رأى العدد الأخير من جريدة مدينة سرهات. شعر بالكره لضحكة كحلي تحت الشاربين. كيف يمكن لعنصر نصير الشريعة هذا أن يكون هادئاً ومنتشياً بعد سقوطه بيد الدولة التركية التي طالما اشتكى من ظلمها، خاصة أنه محملٌ بملفين لجريمتين؟ ويستطيع كا الآن فهم سبب عشق قديفة له إلى هذا الحد. لقد وجد كحلياً وسيماً أكثر من أي وقت.

«ما موضوع الوساطة؟»

قال كا: «إطلاق سراحك.» ولخّصَ له بهدوء اقتراح صوناي. ولكي يترك مجالاً للمساومة لم يفاتحه بموضوع وضع قديفة شعراً مستعاراً، أو طرق أحد أبواب حيل البث المباشر حين ستكشف قديفة رأسها. وحين شرح له صعوبة الظروف، وقال له بأن الظالمين الذين يضغطون على صوناي يريدون شنقه في أقرب فرصة، شعر بأنه مستمتع، لهذا شعر بالذنب فأضاف بأن صوناي مصروع، وأن الأمور ستعود إلى طبيعتها حين يذوب الثلج وتفتح الطرق. فيما بعد سأل نفسه عما إذا كان قد قال هذا ليبعث السرور في نفس عناصر تشكيلات المخابرات القومية.

قال كحلي: «يفهم من هذا بأن خلاصي الوحيد هو في رأس صوناي المصروع.»

«نعم.» «قل له إذن: أنا أرفض اقتراحه. وأشكرك لتحملك مشقة المجيء إلى هنا.»

اعتقد كا للحظة بأن كحلياً سينهض، ويصافحه، ويريه الباب. خيم صمت.

كان كحلي يتكئ مطمئناً على قائمتي كرسيه الخلفيتين. «إذا لم تستطع الخروج سليماً من مدينة قارص اللعينة هذه لفشلك في الوساطة فهذا ليس ذنبي، بل سيكون هذا بسبب إطلاقك الكلام جزافاً، وتباهيك بالإلحاد. لا يمكن للإنسان أن يفاخر بإلحاده في هذا البلد إلا إذا كان يستند إلى العسكر.»

«لست أحد المفاخرين بإلحادهم.»

«حسنٌ إذن.»

سكتا من جديد، ودخنا سيجارتيهما. شعر كا بأنه ليس أمامه سوى الخروج والذهاب. فيما بعد سأله: «ألا تخاف من الموت؟»

«إذا كان هذا تهديداً، لا أخاف. إذا كان فضولاً لصديق: نعم، أنا خائف. ولكن مهما فعلت بعد الآن سيشنقني هؤلاء الظالمون. ليس هنالك ما يمكن عمله.»

ابتسم كحلي بنظرة حلوة قهرت كا. كانت تقول نظراته: «انظر. أنا في وضع أصعب من وضعك بكثير، ولكنني على الرغم من هذا فأنا أريح منك.» شعر كا خجلاً بأن اضطرابه وقلقه يتعلق بأمل السعادة الذي يحمله كوجع لذيذ في بطنه منذ عشق إيبك. ألم يكن لكحلي أمل كهذا؟ قال لنفسه: «سأعد إلى تسعة ثم أنهض ذاهباً: واحد، اثنان...» وحين وصل إلى «خمسة» قرر بأنه إذا لم يستطع خداع كحلي فلن يستطيع أخذ إيبك إلى ألمانيا.

بإلهام ما تحدث مدة أحاديثَ عامة. تحدث عن وسيط منحوس في فيلم أمريكي أسود وأبيض شاهده حين كان صغيراً؛ وعن إمكانية نشر البيان الصادر عن اجتماع فندق آسيا في ألمانيا لو شُذّب؛ وعن اتخاذ الإنسان في حياته قراراتٍ خاطئة في لحظة عناد أو تعلق بشيء ما، وندمه كثيراً بعد ذلك؛ وعن اتخاذه قراراً كهذا حين ترك فريق كرة السلة يوم كان في المدرسة الثانوية في لحظة غضب وعدم عودته إلى الفريق، وذهابه في ذلك اليوم إلى ساحل البوسفور وفرجته مطولاً على البحر، وعن جمال خليج (ببك) في أمسيات الربيع، وأحاديث كثيرة غير ذلك. عمل على ألا يسحق تحت نظرات كحلي الباردة له، وعدم السكوت، وشبه هذا اللقاء كله بلقاء ما قبل الإعدام.

قال كحلي: «هؤلاء لا يفون بوعدهم حتى لو عملنا المستحيل الذي يطلبونه.» وأشار إلى مجموعة أوراق وقلم على الطاولة، «يريدون مني أن أكتب قصة حياتي، ذنوبي، كل ما أريد. يدعون بأنني يمكن أن أستفيد من قانون الندم إذا أبديت نية حسنة، ويمكن أن يطلق سراحي. لقد أشفقت دائماً على المخدوعين بهذه الأكاذيب والمرتدين عن قضاياهم في أيامهم الأخيرة، وخائني حياتهم كلها. طالما أنني سأموت فأريد أن يعرف الناس من بعدي بعض الأمور الصحيحة حولي.» سحب إحدى الأوراق المكتوبة التي على الطاولة. ارتسمت على وجهه تعابير الجدية الزائدة التي كانت حين قدّم تصريحاً للصحافة الألمانية:

«أريد القول بأنني غير نادم لأي شيء فعلته للضرورة السياسية منذ العشرين من شباط تاريخ حكمي بالإعدام حتى اليوم. أنا الولد الثاني لأبي الكاتب المتقاعد من مديرية مالية اسطنبول. مرت فترة طفولتي وشبابي في عالم الصمت والتواضع لأبي الذي كان يداوم سراً على تكية جراحية. في شبابي تمردت عليه وصرت يسارياً دون دين، وفي الجامعة سرت خلف الشباب الميليشي ورميت بالحجارة البحارة النازلين من حاملة الطائرات الأمريكية. في تلك الأثناء تزوجت، وانفصلت، وعشت حالة من اليأس. لم أظهر في مكان على مدى سنوات. احترمت الثورة الإيرانية نتيجة غضبي من الغرب. صرت مسلماً من جديد. وآمنت بفكر الإمام الخميني: حماية الإسلام اليوم أهم من الصلاة والصيام. استلهمت ما كتبه (فرانتز فانون) حول العنف، وأفكار (سيد قطب) حول الهجرة وتغيير المكان في مواجهة الظلم، و(علي شريعتي). ولكي أهرب من الانقلاب العسكري لجأتُ إلى ألمانيا. عدتُ مجدداً. أعرج على قدمي اليمنى بسبب إصابة أصبت بها في أثناء الحرب ضد الروس مع الشيشان في غروزني. ذهبتُ إلى البوسنة في أثناء الحصار الصربي. وعادت معي إلى اسطنبول (مرزوقة) الفتاة البوشناقية التي تزوجتها هناك. وبسبب فعالياتي السياسية، وإيماني بفكر الهجرة لم أبق في أي مدينة أكثر من أسبوعين، وهذا جعلني أنفصل عن زوجتي الثانية. وبعد أن قطعتُ علاقتي بالمجموعات الإسلامية التي أخذتني إلى الشيشان والبوسنة تجولت في تركيا شبراً شبراً. على الرغم من إيماني بضرورة قتل أعداء الإسلام لم أقتل أحداً، أو أدفع أحداً لقتل

أحد حتى اليوم. لقد قتل رئيس بلدية قارص السابق حوذي كردي مجذوب غاضب من قرار إلغاء (الحنطورات) من المدينة. أنا جئت إلى قارص بسبب الفتيات المنتحرات. الانتحار أكبر المحرمات. أريد أن تنشر قصائدي لتبقى ذكرى من بعد موتي. كلها لدى مرزوقة. هذا كل شيء.»

خيم صمت.

قال كا: «لست مضطراً لأن تموت. ولهذا السبب أنا هنا.»

قال كحلي: «إذن سأحكي لك أمراً آخر.» أشعل سيجارة جديدة ليتأكد من سماعه بانتباه. هل كان منتبهاً لجهاز التسجيل المربوط على بطن كا والذي يعمل مثل ربة بيت ماهرة؟

قال كحلي: «حين كنت في ميونخ كان هنالك سينما رخيصة تعرض فيلمين معاً بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً. هنالك إيطالي صور فيلماً يعرض ظلم الفرنسيين في الجزائر باسم (حرب الجزائر). عرضوا آخر أفلامه (queimada). يتناول الفيلم المكائد التي نصبها المستعمر الإنكليزي والثورات التي رتبها في إحدى جزر الأطلسي المنتجة لقصب السكر، بداية يتدبرون قائداً زنجياً، ويؤججون تمرداً ضد الفرنسيين، بعد ذلك يسكنون الجزيرة ويسيطرون عليها. يهب الزنوج نتيجة عدم نجاح تمردهم الأول ويتمردون مرة أخرى ضد الإنكليز هذه المرة، ولكنهم يهزمون عندما يحرق الإنكليز الجزيرة كلها. أُلقي القبض على الزنجي قائد المتمردين وفي صباح اليوم الذي سيشنق فيه دخل إلى خيمته المأسور فيها مارلون براندو الذي وجده في البداية، وحفزه للتمرد، والمرتب كل شيء طول سنين، والذي قمع التمرد الثاني لحساب الإنكليز، وقطع أربطته وأطلقه.»

«لماذا؟»

توتر كحلي قليلاً: «لماذا سيكون؟ لكي لا يعدموه! يعرف جيداً أنه لو أُعدم سيغدو أسطورة، وسيجعل المحليون اسمه راية للتمرد على مدى سنوات. ولكن الزنجي رفض إطلاق سراحه، والهرب لأنه فهم أن مارلون قد قطع أربطته لهذا السبب.»

سأله كا: «هل شنقوه؟»

قال كحلي: «نعم، ولكن لم يُعرض شنقه. وبعد أن اقترح العميل

مارلون براندو على الزنجي الحرية، كما تفعل أنت الآن لي، وكان على وشك مغادرة الجزيرة قتله أحد المحليين طعناً بالسكين.»

قال كا منجرّاً وراء غضب لم يستطع السيطرة عليه: «أنا لستُ عميلاً.»

«يجب ألا يتعلق عقلك بكلمة عميل: أنا أيضاً عميل للإسلام.»

قال كا دون شعور بالضيق من زعله هذه المرة: «أنا لست عميلاً لأحد.»

«ألم يضعوا داخل هذه المارلبورو علاجاً خاصاً يسممني أو يرخي إرادتي؟ أفضل ما قدمه الأمريكيون للعالم هذه المارلبورو الحمراء. يمكنني تدخين المارلبورو حتى نهاية حياتي.»

«لو تصرفت بشكل معقول يمكنك تدخين المارلبورو أربعين سنة أخرى.»

قال كحلي: «هذا بالضبط ما أقصده بقولي: عميل. من أعمال العميل أيضاً زحلقة عقل الإنسان.»

«لا أريد هنا سوى أن أقول لك بأن من غير الحكمة أن تُقتل على يد الفاشيين الملتاثة أيديهم بالدماء والعميان غضباً. غير هذا فإن اسمك لن يكون راية لأحد. هذا الشعب الذي يشبه الحملان متعلق بدينه، ولكنه في النهاية ينفذ أمر الدولة وليس أمر الدين. إن رجال الدين المتمردين أولئك كلهم، والذين هبوا صارخين بأننا نفقد الدين، والعناصر الميليشية المدربة في إيران إذا كان اسمهم قد شاع قليلاً مثل (سعيدي نورسي) فإنه لن يبقى خلفهم حتى قبر. الذي يحتمل أن يكون اسمه رايه من القيادات الدينية في هذا البلد توضع جثته في طائرة ويُرمى في البحر من مكان مجهول. أنت تعرف هذا كله. مقبرة جماعة حزب الله المتحولة إلى مزار في (باطمان) زالت عن الوجود في ليلة واحدة. أين تلك القبور الآن؟»

«في قلب الشعب.»

«كلام فارغ. عشرون بالمائة فقط من هذا الشعب تعطي أصواتها للإسلاميين. وهذا الحزب معتدل.»

«إذا كان معتدلاً لماذا يخشى جانبه ويُنفذ انقلاب عسكري. أجب عن هذا إذن! هذه هي وساطتك الحيادية كلها.»

قال كا رافعاً صوته بدافع غريزي: «أنا وسيط محايد.»

«لستَ كذلك. أنت عميل للغرب. أنت عبد الأوربيين الذي لا يقبل العتق، وكالعبيد كلهم لا تعرف أنك عبد. لأنك تأوربت قليلاً في (نيشان طاش) وتعلمت الاستهانة من قلبك لدين الشعب وتقاليده ترى نفسك سيد هذا الشعب. الطريق الذي يجعلك جيداً وأخلاقياً بالنسبة إليك ليس هو طريق الله، وطريق مشاركة الشعب حياته، بل هو طريق تقليد الغرب. لعلك تطلق عبارتين ضد الظلم المطبق على الإسلاميين والأكراد، ولكن قلبك يؤيد سراً الانقلاب العسكري.»

«يمكنني أن أرتب لك هذا: تضع قديفة تحت غطاء رأسها شعراً مستعاراً، وهكذا عندما تكشف رأسها فلا أحد يرى شعرها.»

رفع صوته كحلي قائلاً: «لا يمكنكم أن تسقوني خمراً. أنا لن أكون أوربياً، ولا مقلداً له. أنا سأعيش تاريخي، ونفسي. أنا أؤمن بأن الإنسان يمكن أن يكون سعيداً دون تقليد الأوربيين، والعبودية لهم. هنالك عبارة يستخدمها معجبو الغرب كثيراً من أجل الاستهانة بالشعب ياه: على الشخص أن يكون فرداً قبل كل شيء ليكون غربياً، ولكن ليس هنالك فرد في تركيا. وهذا هو معنى إعدامي. أنا أعارض الغرب باعتباري فرداً، ولأنني فرد لن أقلّدهم.»

«يؤمن صوناي بهذه المسرحية إلى حد كبير يمكنني من ترتيب هذا الأمر: سيبقى مسرح الشعب فارغاً. وتعرض كاميرا البث المباشر يد قديفة وهي تمتد إلى غطاء رأسها بدايةً. بعد ذلك يعرض شعر واحدة أخرى ترفع غطاء رأسها بواسطة حيلة مونتاج.»

«تلهفك إلى هذا الحد لإنقاذي أمر يدعو إلى الريبة.»

قال كا شاعراً بالذنب كمن يكذب: «أنا سعيد جداً. لم أسعد إلى هذا الحد في حياتي كلها. أريد حماية سعادتي هذه.»

«ما الذي يسعدك؟»

لم يقل كا كما لو كان سيفكر كثيراً: «لأنني أكتب شعراً.» ولم يقل: «لأنني أؤمن بالله.» قال باندفاع: «لأنني عشقت. وستذهب حبيبتي معي إلى فرانكفورت.» شاعراً بالفرح لأنه فاتح شخصاً غير مهتم بعشقه.

«من هي حبيبتك؟»

«إيبك أخت قديفة.»

رأى كا أن كحلياً قد اضطرب. ندم فوراً لإظهاره انجرافه بالانفعال. بدا صمت.

أشعل كحلي سيجارة مارلبورو أخرى: «من ألطاف الله أن يكون الإنسان سعيداً إلى حد مشاركة إنسان ذاهب إلى الإعدام. لنفترض أنني قبلت الاقتراح الذي جلبته لكي تخرج من المدينة دون أن تمس سعادتك هذه بسوء، وأن قديفة أخذت مكانها في المسرحية بشكل مناسب بحيث لا تمس كرامتها بسوء لكي لا تخرب سعادة أختها، كيف سنعرف أنهم سَيَفُون بوعدهم ويطلقونني؟»

قال كا منفعلاً: «أعرف أنك ستقول هذا.» سكت لحظة. نقل إصبعه إلى شفتيه مشيراً لكحلي بمعنى: «اسكت، وانتبه.» فك أزرار سترته، وأوقف جهاز التسجيل متلمساً له من فوق كنزته. قال: «أنا أكفل هذا. بداية يتركونك. وتخرج قديفة إلى خشبة المسرح بعد أن ترسل لها خبر إطلاق سراحك. ولكن من أجل أن نجعل قديفة تقبل بهذا عليك أن تكتب رسالة تقول فيها بأنك قبلت بهذه الاتفاقية، وتسلمني إياها.» كان يفكر بتلك التفاصيل كلها في تلك اللحظة. همس له قائلاً: «سأؤمن لك الشروط التي تريدها، ووضعك في المكان الذي تريده. يمكنك الاختباء في مكان لا يعرفه أحد حتى فتح الطرقات. واعتمد عليّ بهذا.»

مد كحلي نحوه إحدى الأوراق التي على الطاولة: «اكتب أنك أنت كا وسيط وكفيل إطلاق سراحي وخروجي سليماً من قارص مقابل ظهور قديفة على الخشبة وكشفها رأسها دون المساس بشرفها. ما هو عقاب الكفيل إذا لم تفِ بوعدك، وإذا أوقع بي؟»

قال كا: «ما يحل بك يحل بي.»

«اكتب هذا إذن.»

كا أيضاً مد نحوه ورقة «اكتب انك قبلت بهذه الاتفاقية التي اقترحتُها، وأن خبر الاتفاق سينقل إلى قديفة بواسطتي، وان القرار ستتخذه قديفة. إذا رضيت قديفة تكتب هذا على ورقة وتوقعها، ويطلق سراحك بشكل مناسب قبل أن تكشف رأسها. اكتب هذا أيضاً. أما كيف سيطلق سراحك وأين

فعليك أن تحله مع شخص آخر تثق به أكثر مني في هذا الأمر. ولهذا الموضوع أقترح عليك فاضلاً المتآخي مع نجيب بالدم.»

«وهل هذا الولد عاشق قديفة والمرسل الرسائل لها؟»

قال كا: «كان ذاك نجيباً. مات. كان إنساناً خاصاً أرسله الله. وفاضل مثله إنسان جيد.»

قال كحلي: «إذا كنت أنت الذي تقول هذا فأثق به» وبدأ بالكتابة على الورقة التي أمامه.

أنهى كحلي كتابته أولاً. وحين أنهى كا نصَّ كفالته رأى كحلياً قد ابتسم بنظرته الساخرة بشكل خفيف، ولكنه لم يهتم. كان سعيداً بشكل أكثر من طبيعي لأنه وضع الأمور في نصابها، وسيستطيع الخروج مع إيبك من المدينة. تبادلا الأوراق صامتين. ولأن كا رأى كحلياً قد طوى الورقة التي أعطاه إياها ووضعها في جيبه دون أن يقرأها فعل مثله. وبشكل يستطيع كحلي رؤيته ضغط على زر جهاز التسجيل، وشغله مجدداً.

خيم صمت. تذكر آخر العبارات التي قالها قبل إغلاق جهاز التسجيل. قال: «أعرف أنك ستقول هذا. ولكن إذا لم تثق الأطراف ببعضها بعضاً فلن تعقد أية اتفاقية. عليك أن تؤمن بأن الدولة ستصدق بوعدها الذي تعدك به.»

نظر كل منهما إلى عيني الآخر، وابتسما. فيما بعد وعلى مدى سنوات كلما تذكر كا تلك اللحظة سيشعر بالندم لأن سعادته حالت دون رؤيته غضب كحلي. لو أنه شعر بذلك الغضب سيعتقد بأنه لن يسأله هذا السؤال:

«هل ستقبل قديفة بهذه الاتفاقية؟»

أجاب كحلي والحدة تتدفق من عينيه: «ستقبل»

سكتا قليلاً أيضاً.

قال كحلي: «طالما أنك تريد عقد اتفاقية تربطني بالحياة فحدثني عن سعادتك.»

قال كا: «لم أحب إحداهن هكذا في حياتي.» كان يجد عبارته ساذجة وغبية، ولكنه على الرغم من هذا فقد تحدث: «ليس هنالك إمكانية لسعادتي غير إيبك.»

«ما هي السعادة؟»

قال كا: «إيجاد عالم تنسى فيه هذا الزوال والانسحاق كله. وتمسك إحداهن كأنك تمسك العالم كله...» كان سيتحدث أكثر، ولكن كحلياً نهض فجأة.

في تلك اللحظة بدأت قصيدة «شطرنج» تتوارد إلى عقل كا. ألقى نظرة نحو كحلي الواقف على قدميه، وأخرج دفتره من جيبه، وبدأ يكتب بسرعة. وبينما كان يكتب أشطر القصيدة التي تحكي عن السعادة والسلطة، الحكمة والجشع، نظر كحلي إلى الورقة من فوق كتف كا محاولاً معرفة ما يجري. بعد ذلك رأى أن الأمر الذي توحي به هذه النظرة دخل إلى القصيدة. كان ينظر إلى يده التي تكتب الشعر وكأنها يد غيره. فهم بأن كحلياً لن يستطيع تمييز هذا. فأراد أن يشعر كحلياً بأن قوة أخرى تحرك يده. ولكن كحلياً جلس على طرف السرير مثل محكوم حقيقي بالإعدام، يدخن سيجارة وهو مقطب الوجه.

فيما بعد أراد كا أن يفتح له قلبه مسيطرة عليه جاذبية لم يفهمها، وسيفكر فيها كثيراً.

قال: «لم أكتب الشعر منذ سنوات. والآن فتحت الطرق التي تؤدي إلى الشعر كلها في قارص. أربط هذا بمحبة الله التي شعرت بها هنا.»

قال كحلي: «لا أريد أن أكسر بخاطرك، ولكن محبتك لله هذه تشبه تلك التي تخرج من الروايات الغربية. ستكون مضحكاً إذا آمنت بالله كأوربي هنا. حينئذ لا يؤمن الإنسان بأنك مؤمن. أنت لا تنتمي إلى بلد، كأنك غير تركي. قبل كل شيء جرب أن تكون مثل الجميع، بعد ذلك تؤمن بالله.»

شعر كا بعمق بأنه لم يُحب. طوى عدة أوراق من التي على الطاولة، وأخذها. قرع باب الزنزانة قائلاً بأنه من الضروري أن يلتقي قديفة وصوناي بأسرع ما يمكن. حين فتح الباب، التفت نحو كحلي، وسأله عما إذا كان له رسالة خاصة لقديفة. ابتسم كحلي. قال: «انتبه كي لا يقتلك أحد.»

[٣٦]

لن تموتوا حقيقة، أليس كذلك يا سيدي؟

المساومة بين الحياة والمسرحية، وبين الفن والسياسة

في الطابق العلوي بينما كانت عناصر تشكيلات المخابرات القومية يفكون ببطء اللاصق الذي ثبت به جهاز التسجيل على صدره مقتلعين شعره،ساير كا مواقفهم الساخرة وادعاء المعرفة بدافع غريزي، واستهان بكحلي. وهكذا لم يتوقف أبداً عند الموقف العدائي الذي اتخذه من كحلي.

طلب من سائق الشاحنة العسكرية أن يأخذه إلى الفندق، وينتظره. عبر الجنديان الحارسان له الموقع العسكري من أوله إلى آخره سيراً على الأقدام في الساحة الواسعة المغطاة بالثلج التي يطل عليها سكن الضباط. كان الأولاد يلعبون تحت أشجار الحور بكرات الثلج محدثين صخباً. ثمة فتاة نحيلة جانباً ترتدي معطفاً صوفياً ذكرَّه بالمعطف الأحمر والأسود الذي اشتري له حين كان في الصف الثالث الابتدائي، على مبعدة منها صديقان يدحرجان كرة ثلجية ضخمة ويصنعان رجلَ ثلج. الجو براق والشمس بدأت تدفئ الأمكنة أول مرة بعد عاصفة متعبة.

في الفندق وجد إيبك فوراً. كانت في المطبخ ترتدي سترة دون أكمام وصدارة كانت ترتديها في زمن ما بنات الثانوية كلهن في تركيا. نظر إليها كا سعيداً، وأراد أن يعانقها، ولكنهما ليسا وحدهما: لخص لها ما جرى معه منذ الصباح، وشرح لها بأن الأمور تسير على نحو جيد بالنسبة إليهما وبالنسبة إلى قديفة أيضاً. قال بأن الجريدة وزعت، ولكنه لم يخف من القتل! كان سيتحدث بالمزيد، ولكن زاهدة دخلت إلى المطبخ وذكرت الجنديين

الحارسين اللذين عند الباب. طلبت منها إيبك أن تدخلهما، وتقدم لهما الشاي. وبلمح البصر تواعدت مع كا على اللقاء في غرفته. فور صعود كا إلى غرفته خلع معطفه، وعلقه، وبدا ينتظر إيبك ناظراً إلى السقف. على الرغم من معرفته جيداً بأن إيبك ستأتي دون دلال لوجود أمور كثيرة سيتحدثان بها ترك نفسه تنجرف في التشاؤم فترة. بداية تخيل بأن إيبك لم تستطع المجيء لأنها قابلت أباها، بعد ذلك بدأ يفكر خائفاً بأنها لا تريد المجيء. شعر مرة أخرى بذلك الألم المنتشر من بطنه إلى جسمه كله كالسمّ. إذا كان هذا ما يسميه الآخرون ألم العشق، فهذا يعني أنه ليس ثمة ما يمنح السعادة فيه. إنه منتبه إلى سرعة بدء إحباط اللائقة والتشاؤم مع تعمق عشقه لإيبك. اعتقد أن ما يدعى عشقاً هو هذا الشعور باللائقة، والخوف من الخديعة والفشل، ولكن بما أن الجميع يذكرون هذا الأمر بالإيجابية، وفي بعض الأحيان بالتباهي وليس بالهزيمة والبؤس فإن وضعه مختلف قليلاً. الأسوأ من هذا فإنه مع الانتظار يصل إلى الانجراف وراء أفكار عقدية (لن تأتي إيبك، إيبك أساساً لا تريد المجيء، إيبك ستأتي من أجل حبك لعبة أو من أجل هدف سري، جميعهم ـ قديفة ـ السيد طورغوت ـ إيبك ـ يتحادثون فيما بينهم ويرون كا عدواً يجب نبذه) وهو يفكر بأن هذه الأفكار، أفكار مرضية وعقدية. فوراً، وفي الوقت نفسه ينجرف وراء فكرة عقدية، فيعتقد شاعراً بالألم بأن إيبك حبيبة شخص آخر، ويتجلى هذا أمام عينيه، ولكن طرفاً آخر من عقله يفكر بأن ما يعتقده هو أمر مرضي. ولكي يهدأ ألمه، وتمحي المشاهد السيئة من أمام عينيه (مثلاً يمكن أن تكون إيبك قد عادت عن قرارها بالمجيء، والذهاب إلى فرانكفورت) أدخل الجزء الأكثر منطقية من عقله الذي لم يختل توازنه حيز الفاعلية (طبعاً هي تحبني، لو لم تحبني فلماذا تهتاج هكذا؟) فيتخلص من عدم الثقة بالنفس، والأفكار المخيفة، ولكنه بعد فترة قصيرة يتسمم بأرق جديد.

حين سمع وقع أقدام في الممر فكر بأن أحداً قادم للقول بأن إيبك لن تأتي. حين رأى إيبك بالباب نظر إليها نظرة سعيدة من جهة، ومعادية من جهة أخرى. انتظر اثنتي عشرة دقيقة بالضبط، وكان متعباً من الانتظار. رأى بسعادة أن إيبك قد وضعت مكياجاً على وجهها، وطلت شفتيها بأحمر الشفاه.

قالت إيبك: «تحدثت مع والدي، وقلت له بأنني سأذهب إلى ألمانيا».

كان كا قد ترك نفسه للصور المتشائمة التي في عقله، فشعر للوهلة الأولى بالحزن. لم يستطع أن يهب نفسه لما قالته إيبك. وهذا وَلّد لدى إيبك الشك بأن الخبر الذي جاءت به لم يقابل بفرح. والأكثر من هذا فقد أدى تحطم الأحلام هذا لدى إيبك إلى تراجعها. ولكن جزءاً من عقلها يعرف بأن كا يعشقها بقوة، وهو منذ الآن مرتبط بها مثل طفل في الخامسة من عمره لا مناص أمامه ولا يمكنه أبداً الانفصال عن أمه. وتعرف أيضاً أن أحد أسباب رغبة كا بأخذها إلى المانيا هو أنه بقدر ما يشعر بأن البيت الذي يشعر فيه بالسعادة هو في فرانكفورت، والأكثر من هذا أمله بأن يمتلك إيبك كلها هناك بعيداً عن العيون كلها.

«يا روحي، مالك»؟

في السنوات التالية سيذكر كا آلاف المرات النعومة والحلاوة في سؤال إيبك هذا وهو يتلوى بآلام العشق. شرح لإيبك بالتفصيل قلقه ومخاوفه من الترك، والمواقف المخيفة المتجلية أمام عينيه.

«بما أنك تخاف مسبقاً إلى هذا الحد من ألم العشق يجب أن تكون هنالك امرأة جرعتك الألم كثيراً.»

«عانيت من الألم قليلاً، ولكن الألم الذي يمكن أن تذيقيني إياه يخيفني منذ الآن».

قالت إيبك: «لن أذيقك الألم أبداً. أنا أعشقك، سأذهب معك إلى ألمانيا. سيكون كل شيء على ما يرام».

اندسّت في حضن كا بكل قوتها، ومارست الحب مع كا براحة لاتصدق. واستمتع كا من التصرف معها بقسوة، واحتضانها بقوته كلها، وببياض بشرتها الرقيقة، ولكنهما منتبهان معاً بأن ممارستهما الحب لم تكن عميقة وعنيفة كالليلة الماضية.

كان عقل كا في مخططات الوساطة. آمن بأنه سيكون سعيداً أول مرة في حياته، وإذا تصرف بقليل من الذكاء، وخرج من قارص مع حبيبته سالماً يمكن أن تستمر هذه السعادة. عقله في الحسابات، اندهش حين شعر بأن قصيدة جديدة تأتيه وهو يدخن سيجارة أمام النافذة. كتب القصيدة بسرعة كما

أُلهمت له بينما كانت إيبك تنظر إليه بحب وإعجاب. فيما بعد قرأ كا هذه القصيدة التي أسماها: «عشق» ست مرات خلال قراءاته الشعرية في ألمانيا ـ أخبرني الذين استمعوا إليها بأن العشق المتناول في القصيدة مستمد من التوترات ما بين الطمأنينة والوحدة، أو الأمن والخوف أكثر من الحب، ونابع من ظلمات حياة كا التي لم يفهمها بقدر ما هي نابعة من الشعور بعلاقة خاصة نحو امرأة. (ثمة شخص واحد فقط سألني فيما بعد عن هذه المرأة) مع أن كا يذكر عبر الملاحظات التي دونها فيما بعد عن هذه القصيدة ذكرياته مع إيبك، والشوق الذي اشتاقه إليها، والمعاني الجانبية الصغيرة لألبستها وحركاتها الصغيرة. وأحد أسباب تأثري بإيبك في لقائي الأول معها هو قراءاتي لهذه الملاحظات مرات عديدة.

ارتدت إيبك ثيابها على عجل، وقالت بأنها سترسل أختها، وبعد أن خرجت، جاءت قديفة ومن أجل أن يهدئ كا اضطراب قديفة المحملقة عينيها الواسعتين شرح لها بأنه ليس ثمة ما يقلق وأنه لم يعامل كحلياً بسوء. وقال لها بأنه بذل جهداً كبيراً لإقناع كحلي بالاتفاقية، وآمن بأنه شخص جريء جداً، وبدأ بإلهام فوري بتطوير تفاصيل الكذبة التي كان قد حضّرها مسبقاً: بداية قال بأن الأمر الأصعب هو إقناع كحلي بأن قديفة قبلت بهذه الاتفاقية وأن الاتفاقية المعقودة معه هي عدم احترام لقديفة، وبأنه قال إن الاتفاقية يجب أن تعقد مع قديفة أولاً. وبينما كانت قديَفة ترفع حاجبيها إلى الأعلى، ولكي تمنح لهذا الكلام عمقاً وواقعية قالت إنها تعتقد أن كحلياً لم يكن مخلصاً بكلامه هذا. في هذه النقطة أضاف بأن كحلياً جادله كثيراً من أجل كرامة قديفة حتى لو كان هذا نوعاً من التلاعب، واتخاذ موقف: «ضع الاتفاقية في جيبي الصغير» فإن هذا شيء إيجابي من أجل كحلي (أي الاحترام الذي أبداه لقرار امرأة). في مدينة قارص الغبية هذه تعلم كا ولو متأخراً بأن الحقيقة الوحيدة في هذه الحياة هي السعادة، وهو الآن مسرور لتمكنه من تلفيق هذه الأكاذيب وتمريرها مستمتعاً على هؤلاء الناس المنحوسين الذين وهبوا أنفسهم لهذه الصراعات السياسية الفارغة. ولكنه من جهة أخرى يشعر بالحزن لتصديق قديفة الأجزاء والأكثر تضحية منه هذه الأكاذيب، وبأنها ستكون في النهاية تعيسة. لهذا السبب قطع حكايته بكذبة أخيرة غير مضرة: أضاف هامساً بأن كحلياً مسلم

على قديفة، ثم أعاد عليها تفاصيل الاتفاقية، وسألها عن رأيها.

قالت قديفة: «سأكشف رأسي كما أريد».

لشعور كا بأنه من الخطأ عدم التطرق لهذا الموضوع فقد قال بأن كحلياً وجد أن لجوء قديفة إلى وضع شعر مستعار، أو أمور أخرى مشابهة أمر معقول، ولكنه سكت حين وجد أن قديفة قد احتدت. بحسب الاتفاقية فإن كحلياً سيطلق سراحه بداية، وسيختبئ في مكان آمن، بعد ذلك ستكشف قديفة رأسها بأسلوبها الخاص. هل كانت قديفة مستعدة لكتابة أنها تعرف هذا، وهي مستعدة للتوقيع عليه؟ مدّ كا نحوها الورقة التي أخذها من كحلي لتقرأها بتركيز، وتتخذها مثالاً. حين رأى كا بأن مجرد رؤية قديفة لخط يد كحلي قد أجج انفعالاتها سرت بداخله محبة نحوها. بينما كانت قديفة تقرأ الرسالة شمت الورقة لحظة دون أن تري نفسها لكا. ولأن كا شعر بترددها قال لها بأنه سيستخدم الورقة لإقناع صوناي والعسكر الذين حوله بإطلاق سراح كحلي. لعل العسكر ومنسوبي الدولة غاضبون من قديفة بسبب قضية الإشارب، ولكنهم يثقون بوعدها وشهامتها كأهالي قارص كلهم حين قدم لها كا الورقة وبدأت تكتب باندفاع تفرج عليها برهة. لقد تقدمت قديفة في السن منذ الليلة قبل الماضية حين سارا في شارع القصابين وتحدثا عن توقعات الأبراج بعد أن وضع كا الورقة التي أخذها من قديفة في جيبه، قال لها إن المشكلة فيما لو اقتنع صوناي هي إيجاد مكان آمن يختبئ فيه كحلي. هل كانت قديفة جاهزة لتقديم العون لكحلي؟

أشارت قديفة إشارة وقورة «نعم».

قال كا: «لاتقلقي. سنكون جميعاً في النهاية سعداء».

قالت قديفة: «القيام بالعمل الصحيح لايسعد الإنسان دائماً».

قال كا: «الصحيح هو ما يسعدنا». كان كا يتخيل أن قديفة ستذهب إلى فرانكفورت بعد فترة قصيرة، وترى سعادته مع أختها. وستشتري إيبك لقديفة معطفاً أنيقاً من (كاوفهوف): بعد ذلك وسيأكلون (سوسيس) ويشربون بيرة في أحد مطاعم كايزر.

بعد خروج قديفة فوراً ارتدى كا معطفه، ونزل. ركب الشاحنة العسكرية. كان الجنديان الحارسان يجلسان خلفه مباشرة. سأل نفسه عما إذا

كان التفكير بتعرضه لاعتداء فيما لو مشى وحده هو خوف. لم تكن شوارع قارص التي يشاهدها من مكان سائق الشاحنة مخيفة أبداً. رأى نساء خرجن إلى السوق حاملات شباك التسوق، ونظر إلى الأولاد الذين يلعبون بكرات الثلج، والمسنين المتمسكين ببعضهم بعضاً كيلا يتزحلقوا وتخيل أنه مع إيبك في فرانكفورت يمسك كل منهما يد الآخر ويشاهدان فيلماً في دار سينما.

كان صوناي مع صديقه الانقلابي العقيد (عثمان نوري تشولاق). تحدث كا إليهما منحته إياه خيالات السعادة: قال لهما بأنه تم ترتيب كل شيء، وأن قديفة رضيت بأخذ دور في المسرحية وكشف رأسها، وأن كحلياً يتوق لاطلاق سراحه مقابل هذا. شعر كا بأنه لدى صوناي والعقيد تفهماً خاصاً بالناس المعقولين الذي قرؤوا الكتب نفسها في فترة الشباب. وبلغة حذرة ولكنها غير خجولة قال لهما بأن القضية التي بين أيديهم مخجلة جداً. قال: «لقد استثرت كرامة قديفة أولاً، بعد ذلك كرامة كحلي.» وقدم الورقتين اللتين أخذهما منهما لصوناي. وبينما كان صوناي يقرأ الورقتين شعر كا بأنه قد شرب قبل أن يحل وقت الظهيرة. قرب رأسه لحظة من فم صوناي ليتأكد من رائحة العرق.

قال صوناي: «يريد هذا الرجل أن يطلق سراحه قبل أن تخرج قديفة إلى خشبة المسرح وتكشف رأسها إنه واعٍ جداً.»

قال كا: «قديفة أيضاً تريد الأمَر نفسه. لقد بذلت جهداً كبيراً، ولكنني أوصلت المساومة إلى هذا الحد.»

قال العقيد عثمان نوري تشولاق: «لماذا نحن باعتبارنا دولة نثق بهما؟».

قال كا: «هما أيضاً فقدا ثقتهما بالدولة. إذا استمر عدم الثقة فلن يتحقق شيء.»

قال العقيد: «ألم يخطر ببال كحلي أبداً أنه يمكنني شنقه ليكون عبرة، وتقع الواقعة على رأسه بقول إن هذا انقلاب مسرحي سكير وعقيد مستاء؟»

«يعرف جيداً كيف يتصرف وكأنه لايخاف من الموت. لهذا السبب لاأستطيع فهم تفكيره الحقيقي. وألمح إلى أنه يريد أن يتحول إلى قديس، وإنسانُ رايةٍ بشنقه.»

قال صوناي: «لنفترض أننا أطلقنا سراح كحلي. كيف سنثق بكلام قديفة بأنها ستمثل في المسرحية؟»

«لأنها ابنة السيد طورغوت الذي أساء لحياته في زمن ما لأنه أسسها على الارتباط بقضية وكرامة فيمكن الوثوق بكلامها أكثر من الوثوق بكلام كحلي على الأقل. ولكنك لو قلت لها الآن بأنك أطلقت سراح كحلي فهي لاتعرف ما إذا كانت مساء ستظهر على خشبة المسرح أم لا. ثمة جانب فيها يعيش على الغضب والقرار اللحظيين.»

«ماذا تقترح؟»

قال كا: «أعرف أنكم لم تقوموا بهذا الانقلاب العسكري من أجل السياسة فقط بل من أجل الجمال والفن أيضاً. وأستنتج من حياة السيد صوناي كلها بأنه يعمل بالسياسة من أجل الفن. والآن إذا أردتم أن تنهجوا سياسة عادية فقط يجب عليكم ألا تطلقوا كحلياً وتخاطروا. ولكنكم بالتأكيد تعرفون بأن كشف قديفة رأسها أمام قارص كلها سيكون فناً من جهة، وسياسة عميقة جداً من جهة أخرى.»

قال عثمان نوري تشولاق: «إذا كشفت رأسها نطلق كحلياً. ونجمع المدينة كلها من أجل مسرحية المساء».

عانقه صوناي، وقبل صديق الجندية القديم. بعد أن خرج العقيد، قال «أريد أن تحكي كل هذه الأمور لزوجتي أيضاً.» وأمسكه من يده وأخذه إلى غرفة في الداخل. بموقف استعراضي تقرأ فوندا أسر النص الذي بيدها في غرفة باردة دون أغراض يُعمل تدفئتها بواسطة مدفأة كهربائية. رأت كا وصوناي يتفرجان عليها من الباب المفتوح، ولكنها استمرت بالقراءة دون أن تعدّل وضعها. تعلق نظر كا بالأصبغة المحيطة بعينيها وحمرة الشفاه الغليظة والكثيفة، واللباس المفتوح الذي يكشف صدرها. فلم يتمكن من الانتباه لما تقوله.

قال صوناي مفاخراً: «إنه الخطاب التراجيدي للمرأة المنتقمة المعتدى على شرفها في (تراجيديا إسبانيا) لـ (كيد). أجريت عليه تعديلات استمددتها من قوة خيالي ومن (إنسان سيزوان الطيب) لبريشت.» بينما تقرؤه فوندا تمسح قديفة دموع عينيها بطرف غطاء رأسها الذي لم تتجرأ على نزعه بعد.

قالت فوندا أسر: «إذا كانت قديفة جاهزة فلنبدأ بالتمرينات مباشرة.»

صوت المرأة المفعم بالرغبة لم يذكر كا بعشقها للمسرح بل بادعاء

السحاقية الذي يكاد يكرره الذين يريدون سحب دو رأتاتورك من صوناي. وبموقف المنتج المسرحي المكابر أكثر من العسكري الانقلابي وضح صوناي بأن «أخذ قديفة الدور» لم تحل بعد، وحينئذ قال العسكري الحاجب بأنه قد جلب السيد سردار صاحب جريدة مدينة سرهات. حين رأى كا الرجل أمامه سيطر عليه دافع لم يشهده منذ سنوات طويلة قبل أن يغادر تركيا، وخطر بباله للحظة أن يسدد لكمة على وجهه. ولكنهما وُجها إلى مائدة حضّرت بعناية قبل وقت طويل وعليها عرق وجبنة بيضاء، فتناولوا طعامهم وشربوا شرابهم بشعور الثقة والراحة الداخلية والظلم الذي انتقل إليه من أصحاب السلطة الذين يرون أن التحكم بأقدار الآخرين أمر طبيعي، وتحدثا بأعمال الدنيا.

نتيجة طلب صوناي أعاد كا أمام فوندا أسر ما قاله قبل قليل حول الفن والسياسة. عندما أراد الصحفي تدوين هذه العبارات التي قابلتها فوندا أسر بانفعال لينشرها في جريدته أنبه صوناي بفظاظة. وعد سردار كا بتحضير خبر إيجابي جداً سينسي قراء قارص كثيري النسيان الانطباع السيّيء بحقه، وينشره في الصفحة الأولى.

قالت فوندا أسر: «ولكن العنوان الرئيس يجب أن يكون حول مسرحيتنا التي سنمثلها هذا المساء.»

قال السيد سردار بأنه سينشر في جريدته الخبر المطلوب بالقياس المطلوب بالتأكيد. ولكن معلوماته حول المسرح الكلاسيكي والمعاصر شحيحة. وسأل عما سيجري في المسرحية، وقال بأنه لو أملى عليه السيد صوناي الخبر فسينشر في الصفحة الأولى من عدد الغد صباحاً دون أخطاء. وذكر بشكل مهذب إمكانية تقديم الخبر بالشكل الأصح لأنه اعتاد في حياته الصحفية على كتابة كثير من الأخبار قبل حدوثها.

وبما أن ساعة تحويل الجريدة إلى المطبعة تغيرت إلى الرابعة بسبب ظروف الانقلاب فإنه هنالك أربع ساعات من أجل هذا العمل.

قال صوناي: «لن أجعلك تنتظر كثيراً من أجل ما سيحدث هذا المساء.» وانتبه كا إلى أنه كرع قدحاً من العرق فور جلوسه إلى المائدة. وبينما كان يشرب الثاني بسرعة أكبر رأى في عينيه ألماً وإصراراً.

بينما كان ينظر صوناي إلى السيد سردار كأنه يهدده، صرخ قائلاً: «اكتب

يا صحفي العنوان الرئيس: موت على خشبة المسرح. (فكر قليلاً) العنوان الثاني تحت الرئيس: (فكر قليلاً) في أثناء عرض الليلة الماضية قتل الممثل الشهير صوناي ظائم بإطلاق نار. عنوان فرعي آخر.»

كان يتحدث بتركيز أثار إعجاب كا، وبينما كان يستمع باحترام لصوناي ودون ابتسام، يساعد الصحفي في الأمكنة التي لم يفهمها.

استغرق صوناي بإملاء الخبر كاملاً مع العناوين، والترددات، وفواصل العرق ما يقارب الساعة. وحين ذهب إلى قارص بعد سنوات أخذ الخبر كاملاً من السيد سردار صاحب جريدة مدينة قارص.

موت على خشبة المسرح

في أثناء عرض الليلة الماضية

قتل الممثل الشهير صوناي ظائم بإطلاق نار

في أثناء العرض التاريخي الذي قدم الليلة الماضية في مسرح الشعب كشفت رأسها فتاة الإشارب قديفة مدفوعة بلهيب التنوير، بعد ذلك أطلقت سلاحها الذي وجهته نحو صوناي ظائم الذي يجسد دور الرجل السيّيء. وقد خيمت الدهشة على القارصيين الذين يتابعون الحادثة عبر البث المباشر للتلفزة.

في مسرحيتهم الثانية ليلة البارحة أدهشن القارصيين صوناي ظائم وفرقته المسرحية الذي جاء إلى بلدنا قبل ثلاثة أيام والذي جلب نور التنوير والنظام إلى قارص كلها بتمثيلياته المبدعة والانقلابية بنقلها من المسرح إلى الحياة.

في هذا العمل المعد عن(كيد) الكاتب الإنكليزي المغبون حقه والذي أثر حتى في شكسبير وصل صوناي ظائم إلى نتيجة مطلقة بعد أن قضى عشرين عاماً يجوب على بلدان الأناضول المنسية وعلى خشبات المسرح الفارغة، وفي المقاهي بعشقه المسرحي التنويري. وبانفعال الدراما التي تهز من الداخل والمعاصرة الحاملة آثار مسرح البرجوازية الصغيرة الفرنسية والانكليزية كشفت قديفة قائدة فتيات الإشاربات العنيدة رأسها بقرار لحظي على المسرح، وأفرغت رصاص السلاح الذي بيدها أمام أعين القارصيين الحائرة في رجل

المسرح العظيم صوناي ظائم المغبون حقه مثل كيد تماماً وهو يمثل دور الرجل السيّيء. وقد عاش القارصيون الشعور بالرعب بإحساس أن صوناي ظائم قد أطلق عليه النار بجد متذكرين أن أسلحة حقيقية قد أطلقت في العرض قبل يومين. شُوهد المسرحي التركي العظيم على خشبة المسرح بعنف أكبر من الحياة ذاتها. والمتفرج القارصي الذي أدرك من خلال المسرحية تحرر الإنسان من التقاليد والدين، لم يدرك ما إذا كان قد مات حقيقة صوناي ظائم المؤمن إلى ما لا نهاية بالتمثيلية التي يمثلها والرصاص ينغرز في جسده وهو يتخبط بدمائه. ولكنهم فهموا عبارات المسرحي الأخيرة قبيل موته وتقديم حياته لفنه بحيث لن ينسوا هذا أبداً.

قرأ السيد سردار الخبر للمرة الأخيرة على الذين حول المائدة بعد أن أخذ شكله الأخير مع تصحيحات صوناي. قال: «أنا سأنشر هذاالخبر كما هو في جريدة الغد كما أمرتم. ولكن هذه المرة الأولى التي أكتب فيها خبراً قبل أن يحدث وأدعوا ألا يتحقق! في الحقيقة لن تموتوا ياسيدي أليس كذلك؟».

قال صوناي: «أعمل على إيصال الفن الحقيقي إلى حيث يجب أن يصل، على الوصول إلى الأسطورة. غير هذا عندما تذوب الثلوج غداً صباحاً، وتفتح الطرق فلن يبقى أي معنى لموتي لدى القارصيين».

للحظة التقت عيناه بعيني زوجته. لقد تبادلا النظر زوجاً وزوجة بتفهم عميق أشعر كا بالغيرة منهما، هل سيستمر بحياة سعيدة مع إيبك متقاسمين التفهم العميق نفسه؟

قال صوناي: «يا سيد صحفي. بات عليكم أن تذهبوا، وتجهزوا جريدتكم للنشر. ليقدم لكم حاجبي العسكري (كليشيه) لصورتي من أجل هذا العدد التاريخي» فور ذهاب الصحفي ترك اللغة الساخرة المساعدة للعرق، وقال: «أقبل شروط كحلي وقديفة». وشرح لفوندا أسَرْ التي رفعت حاجبيها بأنه سيطلق كحلي بداية نتيجة وعد قديفة بكشف رأسها في المسرحية.

قالت فوندا أسَرْ «قديفة خانم شخصية شهمة. أعرف أننا سنتفاهم في التدريبات.»

قال صوناي: «تذهبان معاً إليها. ولكن يجب أن يطلق كحلي، ويختبئ في مكان ما، ويضيع أثره، ويبلغ قديفة بهذا.»

وهكذا بدأ صوناي بمناقشة طرق إطلاق سراح كحلي مع كا دون تناول طلب فوندا ببدء التدريبات مع قديفة على محمل الجد. واستنتج من ملاحظات كا أنه آمن إلى حد ما بصدق صوناي. أي أنه بالنسبة إلى كا لم يكن لدى صوناي مخطط لمراقبة كحلي بعد إطلاق سراحه، وتحديد مكانه، والقبض عليه مجدداً بعد أن تكشف قديفة رأسها على الخشبة. هذه كانت فكرة طورتها عناصر المخابرات التي تحاول جذب العقيد نوري تشولاق إلى صفها وهم على علم كبير بالحادثة عبر فهم ما يحدث من الجواسيس المزدوجين، والميكريفونات المزروعة هنا وهناك. لم يكن لدى المخابرات القوة العسكرية التي تمكنهم من تسلّم الانقلاب من صوناي، والعقيد الزعلان، وبضعة الضباط أصدقائه، ولكنهم يعملون بواسطة رجالهم الموزعين في كل مكان على وضع حد لصراعات صوناي «الفنية». ولأن السيد سردار قرأ الخبر الذي كتبه على مائدة العرق لأصدقائه في شعبة قارص لتشكيلات المخابرات القومية فاضطربوا في موضوع سلامة عقل صوناي والثقة به. أما حول نيه صوناي بإطلاق سراح كحلي فلا أحد يعرف عنها حتى اللحظة الأخيرة.

اليوم أعتقد أن هذه التفاصيل ليست مهمة جداً بتأثيرها على نهاية حكايتنا. لهذا السبب لن أدخل مطولاً في تطبيق مخططات إطلاق سراح كحلي. قرر صوناي وكا بأن يتركا حل هذا الأمر لحاجب صوناي العسكري (السيواسي)(*) وفاضل، بعد عشر دقائق من أخذ عنوان فاضل من المخابرات جلبته الشاحنة العسكرية التي أرسلها صوناي. خرج الذي يبدو أنه خائف وهو قليلاً ولا يذكر بنجيب هذه المرة مع حاجب صوناي العسكري من الباب الخلفي لورشة الخياطة للتخلص من التخفي الذي وراءهما أثناء ذهابهما إلى قيادة الموقع العسكري. على الرغم من شك المخابرات القومية بإمكانية قيام صوناي بعمل عبثي فلم يكونوا مستعدين لزرع رجالهم في كل مكان. وسيعلم كا بأن كحلياً سيؤخذ من زنزانته، ويركّب في الشاحنة العسكرية اعتماداً على تنبيه صوناي: «احذروا من لعبة».، وأوقف الحاجب العسكري (السيواسي)(*)

(*) نسبة إلى مدينة سيواس في تركيا. (المترجم).

الشاحنة وفق ما حدده فاضل بشكل مسبق على الجسر الحديدي فوق نهر قارص، ونزل كحلي من الشاحنة، وكما قيل له، دخل دكان سمان يعرض في واجهته كرات بلاستيكية، ومسحوق غسيل، ودعايات (السجق)، وتمدد في عربة الخيل المحملة اسطوانات الغاز والمغطاة بغطاء المقتربة من خلف دكان السمان، ونجح بالاختباء. أما عن المكان الذي أخذته إليه عربة الخيل فليس لدى أحد معلومات عنه سوى فاضل.

ترتيب هذا العمل وتنفيذه استغرق ساعة ونصف، حوالي الساعة الثالثة والنصف تبددت ظلال أشجار الزعرور والكستناء، وبينما كانت تحل ظلمة بداية المساء على شوارع قارص الفارغة جلب فاضل إلى قديفة خبر أن كحلياً يختبئ في مكان آمن. عند الباب الخلفي للفندق الذي يفتح على المطبخ قديفة كانت تنظر إلى فاضل كأنها تنظر إلى شخص قادم من الفضاء، ولكنها لم تنتبه إليه كما لم تنتبه إلى نجيب من قبله. ارتعشت قديفة لحظة من الفرح، وهرعت إلى غرفتها. في هذه الأثناء كانت إيبك منذ ساعة في الأعلى في غرفة كا، ولم تخرج. وأريد تناول هذه الساعة التي أعتقد صديقي أنه سعيد فيها موعوداً بالسعادة التي ستحقق فيما بعد بداية فصل جديد.

[٣٧]

النص الوحيد لهذا المساء هو نص شعر قديفة

التحضيرات الأخيرة للمسرحية

تطرقت إلى أن كا من الناس الذين يخافون من السعادة خشية المعاناة من الألم. نعرف أنه يشعر به أكثر ليس في اللحظة التي يسعد فيها، بل حين يشعر أنه لن يضيّع تلك السعادة. حين نهض كا عن مائدة صوناي ذات العرق عائداً إلى فندق (ثلج بالاس) وخلفه جنديّا الحراسة كان سعيداً لأنه مازال مؤمناً بأن الأمور تسير في نصابها، وسيرى إيبك من جديد، ولكن الخوف من فقدان هذه السعادة يتحرك في داخله بقوة. ومادام الأمر على هذا النحو فعلي أن أضع نصب عيني حالته النفسية المزدوجة هذه حين أتحدث عن القصيدة التي كتبها صديقي في غرفة الفندق يوم الخميس حوالي الساعة الثالثة. ربط كا هذه القصيدة المسماة «كلب» بالكلب الفحمي اللون الذي رآه في أثناء عودته من ورشة الخياطة. دخل إلى غرفته بعد أن رأى الكلب بأربع دقائق، وكتب القصيدة في أثناء انتشار ألم العشق في جسده كالسمّ وهو ما بين حالة انتظار سعادة كبرى، والخوف من ضياعها. في القصيدة ثمة آثار لخوفه من الكلاب حين كان صغيراً، وملاحقة كلب أغبر له في حديقة (ماتشكا) عندما كان في السادسة من عمره، وصديق حيه السيّيء الذي كان يطلق كلبه على الجميع. فيما بعد فكر بأن خوفه من الكلاب هو عقوبة ماقبل ساعات السعادة التي عاشها في طفولته. ثمة فكرة ناشزة هنا جذبت اهتمامه: متع الطفولة مثل لعب كرة القدم في الأزقة، وجمع التوت، أو جمع صور لاعبي كرة القدم التي تخرج من العلكة، والمقامرة عليها كانت أكثر جاذبية بسبب الكلاب تحوّل تلك الأمكنة إلى جهنم.

بعد أن علمت إيبك بمجيء كا إلى الفندق بسبع أو ثماني دقائق صعدت إلى غرفته. ولأن هذه الفترة معقولة لتستطيع معرفة ما إذا كان قد عاد، ولتفكيرها بإرسال خبر إليه، ولعله كان أسعد لأنه لم يكن هنالك فرصة للتفكير بأنها تأخرت أو لإعطائها قراراً بتركه. فوق هذا كان ثمة تعبير سعادة على وجه إيبك لن يخرب ببساطة. قال لها كا بأن الأمور كلها تسير على ما يرام، وهي أيضاً قالت لكا هذا. وإثر سؤال إيبك، قال كا إن كحلياً سيطلق بعد قليل. وهذا أسعد إيبك ككل شيء آخر وكالأزواج السعداء بشكل كبير والخائفين بأنانية من تأثر سعادتهم بمساوئ أحزان الآخرين وتعاستهم لم يتوقفا عند إقناع نفسيهما بأن الأمور تسير على ما يرام، بل شعرا بوقاحة جاهزيتهما لنسيان هذه الآلام والدماء المسفوكة كلها. مرات عدة تعانقا وتبادلا القبل بتسرع شديد، ولكنهما لم يقلبا على السرير ويمارسا الحب. قال كا بأنه يستطيع الحصول على تأشيرة دخول إلى ألمانيا من أجلها في يوم واحد، وأن أحد معارفه يعمل في القنصلية، وليس ثمة ضرورة لزواجهما فوراً من أجل التأشيرة، وأن بإمكانهما الزواج في فرانكفورت على راحتهما، كما تحدثا عن إمكانية ترتيب السيد طورغوت وقديفة أمورهما هنا، وذهابهما إلى فرانكفورت، ودخلا في تفاصيل هذا الأمر وصولاً إلى الفندق الذي سينزلان فيه. انفلتت أحاديثهما إلى بعض التفاصيل الخيالية جداً بحيث من المخجل مجرد التفكير بها تحت تأثير جوع السعادة وإغمائها. وفي تلك اللحظة تحدثت إيبك عن مخاوف أبيها السياسية، وإمكانية القاء جماعة ما قنبلة إلى مكان ما، وضرورة عدم خروج كا بعد الآن، وتواعدا على الخروج من المدينة في أول واسطة تخرج من المدينة. وأمسك كل منهما يد الآخر، وتطلعا إلى الطرق الجبلية المثلجة.

حكت له إيبك بأنها بدأت بتجهيز حقيبتها. طلب منها كا بداية ألا تأخذ معها شيئاً. ولكن ثمة أشياء تحملها معها إيبك منذ طفولتها، وتشعر بنقص فيما لو ابتعدت عنها. وفي اثناء وقوفهما وراء النافذة ونظرهما إلى الشارع الثلجي (ظهر الكلب منبع إلهام قصيدة كا ثم غاب فجأة) ونتيجة إلحاح كا عددت إيبك تلك الأشياء التي لاتستغني عنها: ساعة يد لعبة اشترت أمها اثنتين منهما، واحدة لها وأخرى لقديفة، واكتسبت قيمة أكبر في نظرها لأن

قديفة أضاعت ساعتها، كنزة زرقاء فاتحة جيدة من صوف (أنغورا) لم تستطع ارتداءها في قارص لأنها مطاطة وضيقة جلبها لها خالها من ألمانيا منذ مدة طويلة. غطاء طاولة طلبته لها أمها من أجل جهاز عرسها مطرزاً بخيوط الفضة، لم تمده على الطاولة لأن مختاراً في أول استخدام له نقّط فوقه معقوداً؛ سبع عشرة زجاجة مشروب وعطر صغيرة بدأت بجمعها دون هدف، وفيما بعد تحولت في نظرها إلى ما يشبه الخرز الذي يحميها من عين الحاسد، لذلك لم تعد تستطيع التخلي عنها. صورها في اثناء الطفولة في حضن أبيها وأمها (رغب كا برؤيتها كثيراً في تلك اللحظة)؛ ثوب سهرة من المخمل الجيد اشترته من اسطنبول مع مختار ولكنه لم يسمح لها بارتدائه إلا في البيت لأنه يكشف الظهر كثيراً؛ وشال حريري مشغولة أطرافه بالإبرة اشترته لتقنع مختاراً بأنه يغطي ما تحت الإبطين؛ وحذاء من الجلد الرقيق لم تطاوعها نفسها بانتعاله خشية أن يتلفه طين قارص؛ وعقد (يشم) حباته كبيرة، ولأنه كان معها في تلك الأثناء أخرجته وأرته إياه.

إذا قلتُ إنني بعد أربع سنوات من ذلك اليوم رأيت في رقبة إيبك التي كانت تجلس مقابلي في وليمة دعا إليها رئيس بلدية قارص عقد (يشم) ذا حبات كبيرة فوق شريط أسود من الساتان يجب ألا يعتقد بأنني خرجتُ عن الموضوع. على العكس تماماً فإننا الآن بالضبط ندخل إلى قلب الموضوع: كانت إيبك حتى هذه اللحظة جميلة إلى حد عدم إمكانيتي تخيل جمالها كما لايمكنكم أنتم الذين تتابعون هذه الحكاية عن طريق تخيله. رايتها أول مرة في تلك الوليمة وشعرت بغيرة شديدة ولفني تخبط، واضطرب عقلي. حكاية ضياع دفتر صديقي الشعري المقطعة والمقسمة إلى مقاطع تحولت فجأة إلى حكاية أخرى تبرق بتعلق عميق في عيني. لابد أنني قررت كتابة هذا الكتاب الذي بين أيديكم في تلك اللحظة الصاعقة. لم أكن أعلم بأن روحي قررت هذا في تلك اللحظة لأنني كنت منجرّاً إلى أمكنة ما، وجمال إيبك يسيطر علي تماماً. أدركت جيداً أن محاولة الجمع الذي في الوليمة قول عبارة أو عبارتين للروائي القادم إلى بلدهم، وأن الإشاعات التي يتداولها القارصيون هي عبارة عن ذريعة من أجل إخفاء الموضوع الأساسي والوحيد عبر كلماتهم الفارغة تلك عني وعن أنفسهم. من جهة أخرى كانت تأكل قلبي غيرة مركزة جداً

خفت أن تتحول إلى عشق. أردت أن أعيش حالة عشق مع امرأة جميلة كهذه مثل ما عاشه صديقي الميت! تحول إيماني الخفي بأن السنوات الأخيرة من حياة صديقي قد ذهبت هباء إلى فكرة: «هل أستطيع الإيقاع بإيبك لأخذها إلى اسطنبول؟» كنت سأقول لها بأنني سأتزوجها. وتبقى حبيبتي السرية حتى تسوء الأمور كلها، ولكنني وددت لو أموت معها! لها جبين عريض ومصمم، وعينان واسعتان مغرورقتان تشبهان تماماً عيني (مليندا) وفم ظريف لم أستطع النظر إليه. . . ترى بماذا كانت تفكر حولي؟ وقبل أن أنهي قدحي أخذ عقلي قلبي وذهب. في لحظة رأيت أن قديفة تركز نظرها علي بحرص، عليّ أن أعود إلى حكايتي.

بينما كانا واقفين أمام النافذة، أخذ كا عقد (اليشم)، وعلقه في رقبتها، وقبلها بشكل جميل، وأعاد دون تفكير بأنهما سيكونان سعيدين جداً في ألمانيا. في هذه الأثناء رأت إيبك فاضلاً يدخل مسرعاً من باب الباحة. انتظرتْ لحظة، ونزلت، وصادفت أختها عند باب المطبخ: وهناك يجب أن تكون قديفة قدمت لأختها بشارة إطلاق سراح كحلي. انزوت الاختان في غرفتهما. لا أعرف ما تحدثتا به، أو ما فعلتاه. كان كا في غرفته ممتلئاً بالسعادة التي صار واثقاً منها، وبقصائده الجديدة فترك لأول مرة زاوية من عقله لحركة الأختين في فندق (ثلج بالاس).

علمت فيما بعد من وثائق الأرصاد الجوية بأن الجو في تلك الأثناء قد صار ألطف بشكل واضح. أرخت الشمس طوال اليوم الجليد المتدلي عن السقوف وأغصان الأشجار. وقبل أن يحل الظلام بكثير شاعت في المدينة مقولة أن الطرق ستفتح هذه الليلة، وأن انقلاب المسرحي سينتهي. ذكرني الذين لم ينسوا تفاصيل الأحداث حتى بعد سنوات طويلة بأن تلفزيون سرهات قارص بدأ في تلك الدقائق بدعوة القارصيين إلى المسرحية الجديدة التي ستقدمها فرقة صوناي ظائم على مسرح الشعب. بسبب الذكرى الدموية للقارصيين العائدة إلى يومين ماضيين أعلن (هاقان أوزغة) المذيع الشاب المحبوب جداً بأنه لن يُسمح لأي انفلات نحو المتفرجين، وأن قوات الأمن ستتخذ التدابير اللازمة عند اطراف الخشبة، ولن تقطع تذاكر، ويمكن للقارصيين المجيء إلى هذه المسرحية التعليمية عائلات. ولكن هذا لم ينتج

عنه سوى زيادة الخوف، وخواء الشوارع في وقت مبكر. شعر الجميع بأن عنفاً وجنوناً سيحدثان في مسرح الشعب، لهذا فضل القارصيون، عدا مغيبي الوعي الذين يريدون أن يشهدوا الأحداث مهما حدث (علي أن أقول هنا بأنه يجب ألا يستهان بعدد الشباب العاطلين عن العمل، واليساريين المتضايقين الميالين إلى العنف، وأصحاب العقد الذين يرغبون برؤية الإنسان وهو يقتل، والمسنين أصحاب أطقم الأسنان المستعارة، والأتاتوركيين المعجبين بصوناي وتابعوه في التلفاز كثيراً) متابعة الأمسية في التلفاز إذ ستبث على الهواء بحسب الإعلان. في هذه الأثناء التقى صوناي وعثمان نوري تشولاق، ولشعورهما بإمكانية أن يبقى مسرح الشعب خاوياً أمر بجمع طلاب الأئمة والخطباء بشاحنات عسكرية وجلبهم، وإجبار عدد من الموظفين والطلاب من الثانوية ومن بيت المعلمين ودوائر الدولة مرتدين السترات وربطات العنق للحضور إلى بناء المسرح.

الذين رأوا صوناي بعد ذلك في ورشة الخياطة شهدوه نائماً في غرفة صغيرة مغبرة على قصاصات قماش وأوراق صرّ وصناديق مقوى فارغة. ولم يكن هذا بسبب المشروب. لأن صوناي مؤمن بأن الفرش الناعمة تفسد الجسد، فهو يلقي بنفسه قبل المسرحيات الكبيرة التي يهتم بها على فراش قاس وينام، واعتاد هذا الأمر منذ سنوات طويلة. قبل أن ينام تحدث صراخاً مع زوجته حول النص الذي لم يأخذ شكله النهائي، بعد ذلك أرسلها إلى (ثلج بالاس) بواسطة شاحنة عسكرية لتبدأ التدريبات مع قديفة.

يمكنني تفسير صعود فوندا أسر إلى غرفة الأختين فور دخولها إلى فندق ثلج بالاس بأداء السيدة المعتبرة العالم كله بيتها، وبدءها بحديث النساء بلغة دون تكليف بصوتها المجلجل بموهبة التمثيل التي طورتها خارج خشبة المسرح. من المؤكد أن قلبها وعينيها على جمال إيبك الصافي، ولكن عقلها على قديفة ودورها هذا المساء. حكمت على أهمية هذا الدور من القيمة التي يعطيها زوجها له. لأن لفوندا أسر هدفاً واحداً من ظهورها بأدوار المرأة المغتصبة على مدى عشرين سنة في الأناضول: إثارة الرجال جنسياً بموقف الضحية! ولأنها ترى أن زواج المرأة أو طلاقها، كشف رأسها أو تغطيته هي أدوات عادية من أجل الإيقاع بالمرأة في وضع المسحوقة والجذابة، لايمكن

القول بانها فهمت المسرحيات الأتاتوركية والتنويرية التي مثلتها كلها، ولكن الكتاب ليسوا أعمق منها بكتابة هذه الأدوار للبطلات الخارجة من قالب واحد في موضوع الجنس والمهمات الاجتماعية. كانت تضيف فوندا أسر جوانب المشاعر التي من النادر أن يضعها الكتّاب الرجال إلى حياتها خارج خشبة المسرح بدافع غريزي. وقبل أن يمر وقت طويل على دخولها إلى الغرفة اقترحت على قديفة كشف رأسها والبدء بالتدريبات من أجل المساء. حين كشفت قديفة عن شعرها دون دلال أطلقت فوندا إسر بداية شهقة، بعد ذلك قالت بأن شعرها لماع جداً وحيوي لذلك لم تستطع تحويل عينيها عنه. جلست قديفة مقابل المرآة، وبينما كانت تمشّط شعرها لمدة طويلة بواسطة مشط (مايكا) تقليد عاج الفيل شرحت لها أن المهم في المسرح هو المشهد وليس الكلام. وقالت: «اتركي شعرك يتكلم كما يريد، ويجنن الرجال» ثم قبّلت شعر قديفة المضطرب رأسها وأراحتها. وهي ذكية إلى حد معرفتها بأن هذه القبلة قد حركت بذور السوء السرية داخل قديفة، وهي صاحبة تجربة أيضاً إلى حد تمكنها من جذب إيبك إلى هذه المسرحية أيضاً: أخرجت من حقيبتها زجاجة كونياك جيبية، وبدأت تصب منها على فناجين الشاي التي جلبتها زاهدة. حين عارضت قديفة، استفزتها قائلة: «ولكنك ستكشفين رأسك أيضاً هذا المساء!» وعندما بدأت قديفة بالبكاء بدأت تقبلها بعناد من خديها ورقبتها ويديها قبلاً صغيرة. بعد ذلك لكي تسلي الأختين بدأت بترديد المقطوعة الجماعية للعمل الذي أسمته «رائعة صوناي غير المعروفة» وهو بعنوان (المضيفة البريئة)، ولكن هذا أحزن الاختين أكثر مما أفرحهما. عندما قالت قديفة: «أريد أن أعمل على النص». قالت بأن النص الوحيد هذا المساء سيكون بريق شعر قديفة الطويل والجميل الذي سينظر إليه القارصيون كلهم بإعجاب. والأهم من هذا فإن النساء سيرغبن بملامسة شعر قديفة مع شعور بالغيرة والعشق. من جهة أخرى هنالك إيبك التي تصب الكونياك قليلاً قليلاً في فنجانها. قالت بأنها ترى في وجه إيبك سعادة، وفي نظرات قديفة جرأة وحرصاً، أما من هي الأجمل فهذا لم تستطع تحديده. استمر جيشان فوندا إسر هذا حتى دخول السيد طورغوت إلى الغرفة محمراً ومزرقاً.

قال السيد طورغوت: «أعلن التلفزيون قبل قليل بأن قديفة قائدة

فتيات الإشاربات ستكشف رأسها هذا المساء في أثناء المسرحية، هل هذا صحيح؟».

قالت إيبك: «دعنا نتابع هذا في التلفاز!».

قالت فوندا إسر: «ياسيدي، لأعرفك بنفسي. أنا فوندا إسر زوجة صوناي ظائم المسرحي الشهير، ورجل الدولة الحديث. بداية أبارك لك تربيتك هاتين الفتاتين الرائعتين النخبويتين. وأنصحكم بألا تخافوا أبداً من قرار قديفة الجريء هذا.».

قال السيد طورغوت: «مشعوذو الدين في هذه المدينة لن يغفروا أبداً لابنتي.».

انتقل الجميع إليغرفة الطعام لمتابعة التلفاز. هنا أمسكت فوندا إسر يد السيد طورغوت وباسم زوجها حاكم المدينة وعدته بأن كل شيء سيكون على ما يرام. في هذه الأثناء نزل كا إلى الأسفل سامعاً الجلبة في غرفة الطعام، وعلم بإطلاق سراح كحلي من قديفة السعيدة. ودون أن يسأل كا قالت له قديفة بأنها ملتزمة بالوعد الذي قدمته صباحاً، وأنها ستعمل مع السيدة فوندا من أجل مسرحية المساء. في الدقائق الثماني أو العشر التي تلت بينهما كانت فوندا إسر تتدبر أمور السيد طورغوت بشكل حلو كي لايعيق خروج ابنته إلى خشبة المسرح، والجميع في الغرفة يتكلمون معاً وهم ينظرون إلى التلفاز المفتوح اعتبر كا أن هذه الدقائق هي من أسعد الدقائق في حياته، وسيتذكرها مرات عديدة. كان يؤمن متفائلاً دون أية شبهة بأنه سيكون سعيداً، ويتخيل بأنه جزء من عائلة ممازحة وكثيرة العدد. لم تكن الساعة قد أشارت إلى الرابعة بعد. ولكن بينما كان كا ينزل إلى غرفة الطعام القديمة والمغطاة جدرانها بورق داكن مثل ذاكرة طفولية، نظر مطولاً إلى عيني إيبك وابتسم.

حين رأى كا في تلك اللحظة تماماً فاضلاً عند الباب المفتوح على المطبخ، أراد دفعه إلى المطبخ كي لايخرب نشوة أحد، ويأخذ الكلام منه. ولكن الشاب لم يسمح لكا بإمساكه من يده وجره: اتخذ موقف الناظر سارحاً إلى مشهد في التلفاز المفتوح، وانتصب في المكان الفاصل بين العتبة والمطبخ وألقى نظرة على الجمع المنتشي بعينين تحملان نصف إعجاب ونصف تهديد. حين استطاع كا في النهاية جره إليالمطبخ رأتهما إيبك وتبعتهما.

قال فاضل مظهراً متعة إفساد اللعبة: «يريد كحلي الحديث معك مرة أخرى. لقد غيّر رأيه في أحد المواضيع.».

«أي موضوع؟».

قال: «سيخبرك به. بعد عشر دقائق ستأتي إلى الباحة عربة الخيل التي ستأخذك إليه» وخرج من المطبخ إلى الباحة.

بدأ قلب كا يخفق بسرعة: لم يكن خائفاً لأنه لم يرد أن يخرج اليوم من الفندق فقط، بل خائفاً بسبب جبنه.

قالت إيبك: «احذر، لاتذهب». ثم أضافت مخاطبة مشاعر كا: «لابد أنهم حددوا عربة الخيل، سيكون كل شيء سيئاً.».

قال كا: «لا. سأذهب.»

لماذا قال إنه سيذهب على الرغم أنه لايريد الذهاب أبداً؟ لقد حدث في حياته أن رفع إصبعه إثر سؤال طرحه المعلم ولايعرفه، أو اشترى كنزة ليست هي التي يريدها بل أسوأ منها وبالنقود نفسها على الرغم من معرفته هذا الأمر. لعل هذا بسبب الفضول، أو بسبب الخوف من السعادة. أراد كا أن يخفي أمره عن قديفة، وأن تقول له إيبك كلاماً ما في أثناء صعودهما إلى الغرفة، أو تفعل شيئاً مبدعاً يجعله يتراجع عن كلامه ويبقى في الفندق مرتاح الضمير. ولكن في أثناء وقوفهما في الغرفة مقابل النافذة، كررت إيبك الفكرة نفسها تقريباً، والكلمات نفسها أيضاً فقط: «لاتذهب، لاتخرج من الفندق بعد الآن، لاتلقِ بسعادتنا إلى التهلكة.. الخ. ألخ.».

نظر كا إلى الخارج سارحاً بأفكاره مستمعاً إليها كقربان. عندما دخلت عربة الخيل إلى الباحة، اضطرب منسحقاً قلبه بسوء الحظ. خرج من الغرفة دون تقبيل إيبك، ولكنه لم يهمل معانقتها مودعاً. عبر صالة الفندق دون أن يراه «جنديا الحراسة» اللذان يقرآن الجرائد، ودخل عربة الخيل التي يكرهها والمغطاة بغطاء، وتمدد.

على قرائي ألا يعتقدوا من هذا المدخل بأنني أحضّرهم لاعتبار أن سفرة عربة الخيل هذه ستغيّر حياة كا كلها بشكل لايمكن العودة منه، وأن دعوة كحلي هي نقطة انعطاف في حياته. أنا لا أفكر بهذا أبداً: ستظهر أمام كا فرص كثيرة يمكنه من خلالها أن يدير رأسه إلى الجهة المعاكسة للقادمين إلى

سدة حكم قارص، وأن يجد الشيء الذي يسميه «سعادة». ولكن لامفر من الأحداث، فكر بأنه سيعود عن قرار الذهاب إلى كحلي لو كانت إيبك قد قالت الكلام الصحيح وهما واقفان أمام النافذة في غرفته. أما عن الكلام الذي يجب أن تكون قد قالته إيبك فلا علم له به أبداً.

اختباء كا في عربة الخيل يشير إلى ما سيحدث أكثر مما يشير إلى تفكيرنا بأنه طأطأ لقدره. كان نادماً لوجوده هناك، وغاضباً من نفسه ومن العالم. شعر بالبرد، وخاف من المرض، ولم يكن ينتظر شيئاً جيداً من كحلي. وكما فعل في سفرته الأولى بعربة الخيل فقد فتح عقله جيداً لأصوات الشوارع والناس، ولكنه غير مبتهج أبداً بمكان وجود العربة.

عندما توقفت عربة الخيل، خرج من تحت الغطاء إثر نهر الحوذي له. ودون أن ينتبه إلى مكان وجوده دخل بناءً سيئاً لا لون له نتيجة القدم والتصدع، ورأى مثله كثيراً. بعد أن صعد درجاً ضيقاً وملتوياً طابقين (سيتذكر في زمن نشوة أنه رأى عيني ولدٍ مشاغب ينظر إليه من فرجة باب صفّت الأحذية أمامه) دخل من باب مفتوح، ورأى أمامه هاندا.

قالت هاندا باسمة: «قررت ألا أنفصل عن تلك الفتاة التي هي أنا».

«المهم أن تكوني سعيدة».

قالت هاندا: «عملي ما أريد هنا يسعدني. لم أعد أخاف من حلمي بأنني صرت واحدة أخرى.»

قال كا: «أليس خطراً وجودك هنا؟»

قالت هاندا: «نعم، ولكن الإنسان لايستطيع التركيز على الحياة إلا عندما تكون هنالك خطورة. فهمت بأنني لن أكون مركزة على شيء لا أؤمن به، أي على كشف رأسي. أنا الآن سعيدة حقاً لمشاركتي السيد كحلي هنا القضية. هل تستطيعون كتابة الشعر هنا؟»

لقد ابتعد الآن تعارفهما على مائدة الطعام قبل يومين، وهذا جعل كا ينظر إليها كأنه قد نسي كل شيء. كم يريد إبراز تقارب هاندا وكحلي؟ فتحت الفتاة باب الغرفة المجاورة، ودخل كا، ورأى كحلياً يتابع تلفازاً أسود وأبيض.

قال كحلي ممتناً: «لم يكن لدي شك بمجيئك.»

قال كا: «لا أعرف لماذا جئت.»

قال كحلي متخذاً موقفَ العارف كثيراً: «بسبب القلق الذي في داخلك».

نظر كل منهما إلى الآخر بكره. كحلي مسرور بشكل واضح وكا نادم، وهذا لم يغب عن عيني كل منهما. خرجت هاندا من الغرفة، وأغلقت الباب.

قال كحلي: «أريدك أن تقول لقديفة ألا تخرج إلى تلك السفالة هذا المساء».

قال كا: «كان يمكنك إرسال هذا الخبر مع فاضل.» وفهم من وجه كحلي بأنه لم يستنتج من هو فاضل «طالب الأئمة والخطباء الذي جلبني إلى هنا.».

قال كحلي: «ها.. لن تأخذه قديفة مأخذ الجد. لن تأخذ أحداً غيرك على محمل الجد. لايمكن لقديفة إدراك مدى تصميمي في هذا الموضوع إلا منك. ولعلها قد اتخذت بنفسها قرار عدم كشف رأسها. وهذا يمكن أن يكون قد حدث بعد أن أعلن في التلفاز مستخدمينه بشكل مقرف.»

قال كا بمتعة لم يستطع إخفاءها: «حين تركت الفندق كانت قديفة قد بدأت التدريبات.» «ستقول لها بأنني أعارض هذا الأمر بشدة! لم تتخذ قديفة قرار كشف رأسها بإرادتها الحرة، بل اتخذته لإنقاذ حياتي. لقد أجرت مساومة مع الدولة التي أخذت معتقلاً سياسياً رهينة، ولكنها لم تعد مضطرة للوفاء بوعدها.».

قال كا: «أنا سأقول لها هذا، ولكنني لا أعرف ما ستفعله».

«تقول بأنك لست مسؤولاً فيما إذا فعلت قديفة ما في رأسها، أليس كذلك؟» سكت كا «إذا خرجت قديفة إلى المسرح هذا المساء، وكشفت رأسها، ستكون مسؤولاً عن هذا أيضاً. أنت من قام بتلك المساومة.».

هذه أول مرة شعر فيها كا بأن ضميره مرتاح ومطمئن منذ مجيئه إلى قارص: الرجل السيّيء في النهاية يتكلم بشكل سيّيء مثل الرجال السيئين، ولم يعد هذا يلخبط عقله. ومن أجل تهدئة كحلي قال كا: «صحيح أنهم أخذوك رهينة.» وحاول استنتاج طريقة تصرف يخرج فيها دون إغضابه.

مد كحلي نحوه ظرفاً، وقال: «أعطها هذه الرسالة. يمكن أن لا تصدق

قديفة رسالتي الشفوية.» أخذ كا الظرف: «وإذا وجدت طريقة تعود بها إلى فرانكفورتك، لابد أنك ستنشر ذلك البيان الذي غامر كل هؤلاء الأشخاص من أجل توقيعه».

«طبعاً.»

رأى في نظرات كحلي عدم تصديق كامل، وعدم اطمئنان. حين كان في الزنزانة صباحاً مثل محكوم بالإعدام بدت عليه الطمأنينة أكثر. أما الآن فقد أنقذ حياته، ولكن معرفته بأنه لن يفعل في هذه الحياة شيئاً سوى الغضب فتبدو عليه تعاسة واضحة مسبقة. وقد شعر كحلي متأخراً بأن كا منتبه إلى هذه التعاسة.

قال كحلي: «ستعيش غير مرغوب بك هنا أو في حبيبتك أوروبا وأنت تقلدها.»

«يكفيني أن أكون سعيداً.»

قال كحلي صارخاً: «اذهب، هيا اذهب. لايمكن أن يسعد من يكتفي بالسعادة. أعرف هذا.»

[٣٨]

نيتنا الا نحزنك ابداً

استضافة إجبارية

سرّ كا لابتعاده عن كحلي، ولكن بعد ذلك مباشرة شعر بأن رابطاً ملعوناً يربطه به: كان ذلك رابطاً أعمق من التوق والفضول البسيطين. وفور خروجه من الغرفة شعر كا نادماً بأنه سيشتاق لكحلي. الآن يشعر بهاندا المقتربة منه متصنعة الطيب ورجاحة العقل ـ بأنها ـ ساذجة تماماً وغبية، ولكن حالتها المغرورة تلك لم تستمر طويلاً. حدقت هاندا وسلّمت على قديفة. أرادت أن ينقل إليها بأن قلبها معها، كشفت راسها أم لم تكشفه هذا المساء في التلفزيون (نعم، لم تقل المسرح، قالت مباشرة التلفزيون)، غير هذا شرحت لكا كيف يجب أن يسلك الطريق فور خروجه من البناء كي لايجذب انتباه الشرطة المدنية.

خرج كا مستعجلاً ومضطرباً من الشقة. وحين بدأ يلهم بقصيدة في الطابق الأدنى جلس على الدرجة الأولى أمام الباب المصفوفة أمامه الأحذية، وأخرج دفتره من جيبه وكتبها.

هذه هي القصيدة الثامنة عشرة من القصائد التي بدأ بكتابتها في قارص. ولولا الملاحظات التي دونها بنفسه لن يفهم أحد بأنها تطال مختلف الرجال الذين دخل معهم في حياته بعلاقات الحب والكره: حين درس المرحلة المتوسطة في ثانوية (الترقي) في (شيشلي) كان هنالك ولد مدلل جداً بطل البلقان لسباق الخيل لعائلةمتعهد غني جداً، ولكنه مستقل إلى حد استطاعته اجتذاب كا؛ ابن روسية بيضاء زميلة أمه في الثانوية نشأت دون أب أو أخ،

بدأت تتعاطى المخدرات في الثانوية، وكان ذلك الشاب منفلتاً تماماً، وبشكل ما يعرف كل شيء، أبيض الوجه مثيراً للفضول؛ في أثناء تدريبه العسكري في (طوزلا) كان هنالك شخص وسيم وصامت وكافٍ نفسه بنفسه، يخرج من الصف الجانبي ويعمل بعض المضايقات لكا (اخفاء قبعته). في تلك القصيدة يوحّد بين شعوره بالحب الخفي والكره البارز الذي يربطه بهؤلاء كلهم، ويعمل بواسطة كلمة «غيرة» التي عنون بها قصيدته على تخفيف اللخبطة التي في عقله، ولكنه يشير في القصيدة بأن القضية أكثر تعقيداً: شعر كا فيما بعد بأن أرواح هؤلاء وأصواتهم قد دخلت إلى أعماقه بعد فترة.

لم يفهم أين هو من قارص حين خرج من البناء، ولكنه بعد فترة قصيرة من نزوله أحد الطرق رأى أنه وصل إلى شارع خالد باشا. وبدافع غريزي التفت إلى الخلف وألقى نظرة إلى المكان الذي اختبأ فيه كحلي.

في أثناء عودته إلى الفندق شعر بالقلق لعدم وجود الجنديين الحارسين. توقف حين اقتربت منه سيارة مدنية وفتح بابها أمام بناء البلدية.

«ياسيد كا، لاتخافوا. نحن من الأمن. اركبوا لنوصلكم إلى فندقكم.»

بينما كان كا يحسب أي الحالتين أكثر أمناً، العودة إلى الفندق تحت رقابة الشرطة، أم رؤيته وسط المدينة وهو يركب سيارة شرطة، فجأة فتح الباب. ثمة رجل ضخم البنية كأنه رآه من قبل في مكان ما (رجل كان يناديه في اسطنبول: ياعم، نعم، إنه العم محمود) جذب كا إلى داخل السيارة بحركة فظة وقوية لم تتناسب مع تهذيبه السابق. حين تحركت السيارة نزلت على رأس كا لكمتان. هل ضرب رأسه بالسيارة في أثناء دخوله إلى السيارة؟ كان خائفاً جداً. في داخل السيارة ظلمة غريبة لم يكن العم محمود، شخص يجلس في المقدمة يشتم بشكل سيّء جداً. في طفولته كان هنالك رجل في شارع الشاعر نيغار يشتم بهذا الشكل حين تسقط الكرة في حديقة بيته.

سكت كا، وفكر بأنه طفل. وغاصت السيارة (يتذكر الآن: لم تكن رينو مثل سيارات الشرطة المدنية في قارص، بل كانت (شيفروليه) ٥٦ عريضة وفخمة) في شوارع قارص المظلمة وخرجت من أجل معاقبة الولد الزعلان. وبعد جولة ولجت إلى باحة داخلية. قالوا له: انظر أمامك. أمسكوه من ذراعيه وأصعدوه درجتين. حين وصلوا إلى الأعلى كان كا متأكداً أن

الأشخاص الثلاثة هؤلاء بمن فيهم السائق ليسوا إسلاميين (من أين لأولئك سيارة كهذه؟).

ليسوا من تشكيلات المخابرات القومية أيضاً. لأن أولئك ـ أو قسماً منهم على الأقل ـ متعاونون مع صوناي. فُتح باب، وأُغلق باب، ووجد كا نفسه أمام نوافذ بناء أرمني قديم مرتفع السقف يطل على شارع أتاتورك. رأى تلفزيوناً مفتوحاً في الغرفة، وطاولة عليها صحون وسخة وبرتقالٌ وجرائد؛ وبعد ذلك رأى أداة قطبية فهم أنها للتعذيب بالكهرباء، جهازاً أو جهازي لاسلكي، مسدسات، مزهريات، مرايا... اعتقد أنه وقع بين أيدي الفرقة الخاصة فخاف، ولكنه ارتاح حين التقت عيناه بعيني (ز. دميرقول): وجه مألوف ولو كان قاتلاً.

ز. دميرقول يقوم بدور الشرطي الطيب. كان حزيناً لجلب كا بهذا الشكل. ولتوقعه بأن العم محمود سيقوم بدور الشرطي السيّيء ركّز اهتمامه على ز. دميرقول وسأله.

«ماذا يريد أن يعمل صوناي؟»

شرح له كل شيء مبهراً بأدق التفاصيل بما في ذلك تراجيديا إسبانيا لكيد.

«لماذا أطلق ذلك المصروعُ كحلياً؟»

شرح له كا بأن السبب هو أن يجعل قديفة تكشف رأسها في المسرحية والبث المباشر. سيطر عليه إلهام فاستخدم مصطلحاً شطرنجياً: لعل هذه تضحية جريئة جداً تفرض التهليل. ولكنها حركة ستخرب معنويات الإسلاميين السياسيين في قارص أيضاً!

«ما الذي يضمن أن تفي الفتاة بوعدها؟»

قال كا بأن قديفة قد قالت بأنها ستخرج إلى الخشبة، ولكن لايمكن أن يكون أحد واثقاً من هذا الأمر.

سأل ز. دميرقول: «أين المكان الجديد الذي يختبئ فيه كحلي؟»

قال كا بأنه لايعرف.

سألوه أيضاً عن سبب عدم وجود الجنديين الحارسين معه حين جاءت به السيارة وعن المكان الذي عاد منه.

قال كا «من المسير المسائي» وحين أصرّ على هذا الجواب، ترك ز. دميرقول الغرفة صامتاً كما توقع، ووقف العم محمود أمامه بنظراته السيئة. وهذا أيضاً مثل الجالس في مقدمة السيارة يعرف شتائم لم يسمع بها أحد. وتُدس هذه الشتائم بين العبارات غير الغريبة عن كا حول الانفراجات السياسية، والمصالح العليا للبلد والتهديدات وبشكل كبير مثلما يصب الأطفال (الكتشب) على كل لقمة دون التمييز بين حلو ومالح.

قال العم محمود: «ماذا تعتقد أنك فاعل بإخفاء مكان إرهابي إسلامي ملتاثة يداه بالدماء يأخذ الأموال من إيران؟ إذا وصلوا إلى الحكم ماذا سيفعلون بأمثالك الليبراليين رقيقي القلوب الذين رأوا أوروبا؟ إنك تعرف هذا أليس كذلك؟» في الحقيقة إن كا قال له بأنه يعرف، ولكن على الرغم من هذا فإن العم محمود شرح له وبالتفصيل الممل كيف أحرق رجال الدين في إيران الديمقراطيين والشيوعيين المتعاونين معهم، وعملوا منهم كباباً بعد وصولهم إلى الحكم: وضعوا الديناميت في فتحات الشرج وفجروهم، وأطلقوا النار على العاهرات واللوطيين، أحرقوا الكتب غير الدينية كلها، حلقوا شعر المثقفين أمثال كا ثم أخذوا كتبهم وأدخلوها في... قال أشياء غير مؤدبة، وعلى الرغم من هذا سأله مبدياً الملل عن المكان الذي يختبئ فيه كحلي، وعن المكان الذي عاد منه في وقت المساء هذا. حين أعطى كا الأجوبة السطحية نفسها، وضع العم قيداً حديدياً في معصمي كا وعلى وجهه التعبير الممل نفسه. وقال له: «انظر ما سأفعله بك الآن». ووجه إلى وجهه صفعات ولكمات دون غضب أو انفعال شديد، وضربه قليلاً.

في الملاحظات التي دونها فيما بعد، هنالك خمسة أسباب تشير إلى أن كا لم يغضب كثيراً من هذا الضرب، وآمل أن كتابتي لها بصدق لايغضب قرائي:

١ ـ بحسب مفهوم السعادة الذي في عقل كا فإن مجموع ما يصيبه من أمور حسنة يساوي مجموع ما يصيبه من أعمال سيئة، والضرب الذي يتعرض إليه الآن يعني أنه سيذهب مع إيبك إلى فرانكفورت.

٢ ـ وبشعور وضع نفسه موضع الطبقة الحاكمة، فإن محققي الفرقة الخاصة يفصلون بينه وبين الناس العاديين في قارص والمجرمين والمساكين،

لذلك توقع كا بأنهم لن يعرضوه لتعذيب وضرب أكثر من هذا يترك آثاره وآثار الغضب بشكل أكبر.

٣ ـ اعتقد على حق بأن الضرب سيزيد من شفقة إيبك نحوه.

٤ ـ حين رأى وجه مختار قبل يومين مساء الثلاثاء في مديرية الأمن ملتاثاً بالدم اعتقد بشكل غبي بأن الضرب الذي يضربه إنسان عند الشرطة يطهره من الشعور بالذنب لبؤس بلده.

٥ ـ كان مفعماً بشعور التباهي لوقوعه موقع المعتقل السياسي الذي لايعترف بمكان الشخص المختبئ على الرغم من الضرب.

السبب الأخير هذا كان يمكن أن يُسعد كا أكثر قبل عشرين سنة، ولكنه الآن يجده غبياً لانقضاء موضته. الطعم المالح الذي يشعر به بطرف شفته للدم النازف من أنفه ذكره بطفولته. متى نزف أنفه آخر مرة؟ حين نسيه العم محمود والآخرون في زاوية شبه مظلمة من الغرفة ملتمين أمام التلفاز تذكر كا إغلاق النافذة على أنفه في طفولته، وكرة القدم التي صدمت أنفه، واللكمة النازلة على أنفه في أثناء تدافع ولكز أيام الجندية، حين بدأ الجو يُظلم، التمّ ز. دميرقول وأصدقاؤه أمام التلفاز وتابعوا (ماريانا)، وكان مسروراً من نسيانه هناك مثل طفل مدمى الأنف، مضروب، مهان. اضطرب فترة خشية أن يجدوا رسالة كحلي في جيبه. تابع ماريانا مدة طويلة مع الآخرين صامتاً شاعراً بالذنب متخيلاً أن السيد طورغوت وابنتيه يتابعانها في هذه الأثناء.

في أحد الفواصل الإعلانية نهض ز. دميرقول عن كرسيه، وتناول جهاز المجال الكهربائي، وأراه لكا وسأله عما إذا كان يعرف لماذا يستخدم. وعندما لم يتلق جواباً، أخبره. وسكت قليلاً مثل أب يخيف ابنه بالعصا.

حين بدأ المسلسل من جديد سأله قائلاً: «هل تعرف لماذا أحب ماريانا؟ لأنها تعرف ما تريد. اما أمثالك المثقفون فيمرضونني لأنهم لايعرفون ما يريدون. تطالبون بالديمقراطية، بعد ذلك تتعاونون مع أنصار الشريعة. تنادون بحقوق الإنسان وتقومون بالوساطة مع المجرمين وتدعمون الرجال الذين يغطون رؤوس النساء. كما أنك لاتستطيع التصرف انطلاقاً من فكرك وضميرك، وتقول لنفسك سأتصرف كما يتصرف الأوروبي! ولكنك لاتستطيع حتى أن تكون أوروبياً! هل تعرف ما يفعله الأوروبيون؟! إذا نشر هانس هانسن

بيانكم الغبي ذاك وإذا أخذه الأوروبيون مأخذ الجد، وأرسلوا هيئة إلى قارص، ستبارك تلك الهيئة للعسكريين لأنهم لم يسلّمو البلد للإسلاميين السياسيين، ولكنها طبعاً عندما تعود إلى أوروبا، تشتكي تلك المجموعة المنيوكة لأنه لايوجد ديمقراطية في قارص. وأنتم تتذمرون من الجيش، بعد ذلك تستندون إلى الجيش كي لايقطعكم الإسلاميون قطعة قطعة. لن أعذبك لأنك رأيت هؤلاء.»

فكر كا بأن الدور الآن «للعمل الجيد»، سيتركونه بعد قليل، وسيتمكن من متابعة نهاية ماريانا مع السيد طورغوت وابنتيه.

قال ز. دميرقول: «ولكن قبل أن أرسلك لتعود إلى حبيبتك في الفندق أريد ان أقول لك بعض الأمور عن القاتل الإرهابي الذي قمت بالمساومة من أجله بداية، بعد ذلك حميته لتكون هذه الأمور قرطاً في أذنك. ولكن قبل كل شيء ضع هذا في عقلك جيداً: أنت لم تأت إلى هذا المكتب أبداً. ونحن أصلاً سنفرغه خلال ساعة. مكاننا الجديد هو الطابق الأخير من مهاجع نوم ثانوية الأئمة والخطباء. نحن بانتظارك هناك. لعلك تتذكر أين خبأت كحلياً، أو أين عملت «مشوار المساء» قبل قليل وتريد مشاركتنا بهذه المعلومة.

لابد أن صوناي قد أخبرك حين كان عقله مايزال في راسه بأن بطلك الوسيم ذا العينين الكحليتين قد قتل دون شفقة مذيعاً تلفزيونياً صغير العقل تطاول بلسانه على نبينا، ورتب عملية قتل مدير معهد المعلمين الذي وصلت إلى متعة الفرجة على قتله بعينيك. ولكن هنالك بعض الأمور وصفتها بالتفصيل عناصر التنصت المجتهدة في تشكيلات المخابرات القومية، ولكي لايكسروا خاطرك لم يبلغك أحد بها، وفكرنا أنه من الأفضل أن تعلم بها.».

الآن وصلنا إلى النقطة التي بقي كا على مدى أربع سنوات حين يسترجع حياته مثل بكرة شريط سينمائي إلى الخلف يقول فيها لو جرت الأمور على نحو مختلف.

قال ز. دميرقول بصوت ناعم: «كانت السيدة إيبك التي تفكر بالهرب معها إلى فرانكفورت لتسعد هناك في زمن ما عشيقة كحلي. وبحسب الملف الذي أمامي فإن علاقتهما قد بدأت قبل أربع سنوات. في تلك الأثناء كانت السيدة إيبك متزوجة من السيد مختار الذي انسحب بإرادته من ترشيحه

لمنصب رئاسة البلدية، وكان ذا نصف عقل، اليساري السابق، الشاعر ـ عدم المؤاخذة ـ يستضيف كحلياً في بيته معجباً به لأنه سينظم الإسلاميين الشباب. وبينما هو يبيع المدافئ الكهربائية في دكانه دخل كحلي في علاقة قوية مع زوجته في البيت، ومع الأسف لم يكن يعلم بشيء أبداً.»

قال كا لنفسه: «هذه جمل حُضّرَت مسبقاً، ليست صحيحة.»

«أول من انتبه لهذه العلاقة ـ طبعاً بعد عناصر التنصت في المخابرات ـ هي قديفة. تذرعت السيدة إيبك، التي كانت علاقتها بزوجها سيئة، بمجيء أختها لتبدأ الدراسة في الجامعة وخرجت معها إلى بيت آخر. في هذه الأثناء كان يأتي كحلي إلى قارص أحياناً من أجل تنظيم الشباب الإسلامي، وكان ينزل عند مختار المعجب به أيضاً. وحين تذهب قديفة إلى المعهد كان العاشقان المعميان يلتقيان في ذلك البيت. استمر هذا الأمر إلى حين مجيء السيد طورغوت إلى المدينة، وسكن الأب والبنتان في فندق ثلج بالاس. بعد ذلك أخذت قديفة المنضمة إلى فتيات الإشاربات مكان الأخت الكبرى. وبين أيدينا أدلة تثبت بأن كازانوفا ذا العينين الكحليتين تدبر أموره مع الأختين في مرحلة انتقالية.»

استخدم كا إرادته كلها ليهرب بعينيه المغرورقتين من عيني ز. دميرقول، وركزهما على المصابيح الحزينة والمرتجفة لشارع أتاتورك الذي يبدو مغطى بالثلج بطوله كله من حيث يجلس.

وكعناصر الفرقة الخاصة كلهم كلما أساء ز. دميرقول أكثر، كلما انطلق لسانه أكثر. قال: «أقول لك هذا لإقناعك بالخطأ الفادح الذي ترتكبه باخفائك مكان هذا الوحش القاتل بسبب رقة قلبك فقط. لا أنوي أبداً أن أحزنك. لعلك بعد أن تخرج من هنا ستعتقد أن ما قلته لك ليس معلومات تم الحصول عليها بجهود وكالة تنصت زرعت قارص كلها بمايكروفونات على مدى أربعين سنة، وأنه مجرد هراء لفقته أنا. ويمكن أن تدفعك السيدة إيبك على اقناعك بأن كل هذا كذب لكي لاتتعكر سعادتكما في فرانكفورت. أنت رقيق القلب، يمكن ألا يحتمل قلبك، ولكن لكي لايبقى لديك أدنى شك بصحة كلامي، سأقرأ لك ـ بعد إذنك ـ بعض مكالمات العشق التي انفقت دولتنا نفقات ضخمة عليها، وكتّبتها للكتاب بواسطة الآلات الكاتبة.

مثلاً في يوم ٦/ آب الصيفي الحار قبل أربع سنوات قالت: يا روحي، يا روحي الأيام التي تمر من غيرك لاتعد معاشة.. لعل هذا في الفترة الأولى لانفصالهما.. بعد شهرين جاء كحلي إلى المدينة لتقديم محاضرة حول موضوع (المحرم والإسلام) اتصل بها من دكاكين السمانين والمقاهي ثماني مرات بالضبط في يوم واحد، وعبر كل منهما عن مقدار حبه للآخر. بعد شهرين في الفترة التي فكرت السيدة إيبك بالهرب معه، ولم تقرر بعد، قالت له: لكل شخص في الحياة حبيب واحد، وإنه حبيبها. وفي مرة أخرى لأنها تغار من زوجته مرزوقة التي في اسطنبول، قالت له بأنها لن تمارس معه الحب حين يكون أبوها في البيت. وفي النهاية، في اليومين الأخيرين اتصل بها ثلاث مرات! ويمكن أن يكون اليوم قد اتصل بها. ليس لدينا تفريغ المكالمات الأخيرة هذه، ولكن غير مهم يمكنك أن تسأل السيدة إيبك عما تحدثا به. أنا آسف جداً، أرى أن هذا يكفي، لطفاً لاتبكِ. ليفك الشباب قيدك. اغسل وجهك، وليوصلوك إلى الفندق إن أردت.

[٣٩]

متعتهما بالكباء معاً

كا وإيبك في الفندق

أراد كا أن يمشي في طريق عودته. غسّل الدم النازف من أنفه إلى شفتيه وذقنه بكثير من الماء. وكمن جاء إلى زيارة برضاه قال بنية حسنة لقطاع الطرق والمجرمين الذين في الشقة «أستودعكم الله»، وخرج. بدأ يمشي متمايلاً نحو اليمين، ونحو اليسار تحت الأضواء الميتة لشارع أتاتورك. انعطف دون تفكير نحو شارع خالد باشا، وبعد سماعه أن دكان الهدايا قد شغل مقطوعة (بيبنو دي كابري) «روبيرتا» بدأ يبكي منشّقاً. في هذه الأثناء التقى بالقروي النحيل الوسيم الذي كان يجلس بجانبه في حافلة أرضروم ـ قارص، وسقط رأسه وهو نائم إلى حضنه. بينما قارص مازالت تتابع ماريانا، التقى كا في شارع خالد باشا بداية المحامي السيد مظفر، بعد ذلك حين انعطف إلى شارع كاظم قرة بكر التقى وجهاً لوجه بمدير شركة الحافلات وصديقه المسن اللذين رآهما حين ذهب أول مرة إلى تكية الشيخ سعد الدين. ومن نظرات هؤلاء الناس فهم أن عينيه مازالتا تذرفان. صار يعرف الشرطة المدنيين الذين في زاوية شارعي كاظم قرة بكر، وقرة ضاغ حتى لو لم يرهم في أثناء مسيره طوال هذه الأيام في هذه الشوارع صعوداً ونزولاً ماراً من أمام الواجهات الزجاجية المتجلدة، والمقاهي المملوءة حتى أبوابها، ودكاكين المصورين التي تظهر أن هذه المدينة قد شهدت يوم عز، ومصابيح الشوارع المرتجفة، وواجهات دكاكين السمانين حيث تعرض اسطوانات جبنة (القشقوان).

هدأ الجنديين الحارسين اللذين التقاهما قبيل دخوله إلى الفندق بقوله بأن

كل شيء على مايرام. صعد إلى غرفته دون أن يري نفسه لأحد. وفور رميه بنفسه على السرير بدأ يبكي منشّقاً. بعد أن بكى مدة طويلة سكت تلقائياً. وبعد تمدده وهو يستمع إلى أصوات المدينة مدة دقيقتين مرتا طويلتين بطول انتظاراته غير المنتهية في طفولته، قُرع الباب. كانت إيبك. علمت من الشاب الكاتب أن كا في وضع غريب، فجاءت بسرعة، حين رأت وجه كا في ضوء المصباح الذي أنارته، خافت، وسكتت. خيم صمت طويل.

قال كا هامساً: «علمت بعلاقتك مع كحلي.»

«هل أبلغك هو بهذا؟»

أطفأ كا المصباح، وقال هامساً: «لقد اختطفني ز. دميرقول وأصدقاؤه. مكالماتكم الهاتفية متنصتٌ عليها منذ أربع سنوات» رمى بنفسه مرة أخرى على السرير، وقال: «أريد أن أموت.» وبدأ يبكي.

يد إيبك المداعبة شعره أبكته أكثر. كان يشعر بداخله براحة أولئك الذين قرروا بإحساسهم الداخلي أنهم لن يكونوا سعداء في أي وقت أبداً. تمددت إيبك على السرير، وجعلته يحتضنها. بكيا معاً فترة، وهذا ربطهما أكثر.

في ظلمة الغرفة، ومع أسئلة كا حكت إيبك حكايتها. قالت بأن مختاراً هو سبب كل شيء: لم يكتف بدعوة كحلي إلى قارص واستضافته، فقد أراد أن يحصل على موافقة السياسي الإسلامي بأن زوجته مخلوقة رائعة، وهو معجب بها. فوق هذا كان مختار يعامل إيبك معاملة سيئة جداً، ويلقي اللوم عليها بعدم الإنجاب. وكما يعرف كا فإن لدى كحلي الذي يتقن الحديث كثيراً مما يمكن أن يسلي امرأة تعيسة، ويدير رأسها. بعد أن بدأت علاقتهما بذلت إيبك الكثير من أجل ألا تقع في موقع سيّيء! كان هذا بداية لكي لايلاحظ الأمر مختار الذي تكن له المحبة ولا تريد أن تحزنه. فيما بعد، لكي تتخلص من عشقهما المتزايد حرارة. الأمر الذي جذبها إلى كحلي في البداية هو تفوقه على مختار. حين يتكلم مختار في الموضوعات السياسية التي لاعلم له بها كلاماً هراء كانت تخجل منه إيبك.

في غياب كحلي يمتدحه دائماً، ويحكي عن ضرورة مجيئه أكثر إلى قارص، ويؤنب إيبك من أجل أن تتصرف معه بشكل أفضل وأكثر حرارة. وحين خرجت مع قديفة إلى بيت آخر لم ينتبه مختار إلى الوضع، وإذا لم

يخبره أمثال ز. دميرقول حتى الآن فلن يعلم بشيء أبداً. مع أن قديفة الواعية جداً فهمت الأمر في اليوم الأول لمجيئها إلى قارص. واقتربت من فتيات الإشاربات من أجل أن تكون قريبة من كحلي فقط. شعرت إيبك بأن قديفة اهتمت بكحلي بسبب حرصها الذي تعرفه بها منذ كانت صغيرة. وحين وجدت أن كحلياً مسرور بهذا الاهتمام بردت نحوه. واعتقدت بأنها ستتخلص من كحلي فيما لو اهتم بقديفة. وقد نجحت بالابتعاد عن كحلي بعد أن أتى أبوها. كان من الممكن أن يؤمن كا بهذه الحكاية التي تنزل علاقة إيبك بكحلي إلى سوية خطأ في الماضي، ولكن إيبك جاشت في لحظة، وقالت: «في الحقيقة إن كحلياً يحبني لي وليس لقديفة» وبعد هذه العبارة التي لم يرد كا سماعها أبداً، سألها عما تفكر به نحو هذا «الرجل السيّيء»، فقالت إيبك إنها لاتريد أن تتحدث في هذا الموضوع بعد الآن، وأن كل شيء بات ماضياً، وإنها تريد الذهاب إلى المانيا مع كا. في ذلك الوقت تذكر كا بأنها تحدثت هاتفياً مع كحلي خلال مجيئه الأخير هذا. وردت إيبك على هذا الكلام بأنه لايمكن أن يكون هنالك اتصال كهذا، لأن لكحلي تجربة سياسية تجعله يفكر بأن اتصالاً كهذا سيكشف مكانه. حينئذ قال كا: «لن نكون سعداء في أي وقت» وقالت له إيبك وهي تجعله يحتضنها أكثر: «لا. سنذهب إلى فرانكفورت، وسنكون هنالك سعداء!» وبحسب إيبك فإن كا صدّق هذه العبارة، بعد ذلك عاد إلى البكاء ثانية.

إيبك ايضاً احتضنته بقوة أكبر، وبكيا معاً. فيما بعد سيكتب كا بأن البكاء مع العناق، والتجول معاً في المنطقة القلقة مابين الهزيمة والحياة الجديدة تمنح المتعة بقدر الألم، وأن إيبك يمكن أن تكون قد اكتشفت هذا أول مرة. ولأنهما يستطيعان العناق والبكاء فقد عشقها كا أكثر. بينما كان كا يحتضن إيبك وهو يبكي، هنالك زاوية أخرى من عقله تعمل على إيجاد ما يجب أن يفعل بعد هذا، وبدافع غريزي يتنصت إلى الأصوات المنبعثة من داخل الفندق، ومن الشارع. كانت تقترب الساعة من السادسة: فرغ من طباعة عدد الغد من جريدة مدينة سرهات. آليات إزالة الثلج منكبة على العمل بغضب لفتح طريق (صاري قمش)؛ ركبت فوندا أسر الشاحنة العسكرية بشكل لطيف مصطحبة قديفة إلى مسرح الشعب، وبدأت هنالك مع صوناي بالتدريبات.

لم يستطع كا إبلاغ أيبك بوجود رسالة معه من كحلي لقديفة إلا بعد نصف ساعة وخلال هذه الفترة تعانقا وبكيا. وبقيت محاولة ممارسة الحب التي بدأها كا غير مكتملة بسبب الخوف والتردد والغيرة. في هذه الأثناء بدأ كا بسؤال إيبك عن زمن آخر لقاء لها بكحلي، وتكرار أنها تتكلم سراً مع كحلي كل يوم، وتلتقيه، وتمارس معه الحب. بداية ردت إيبك بردود غاضبة على هذه الأسئلة والادعاءات لأنها لاتُصدق، بعد ذلك وضعت في حسبانها التأثير العاطفي لكلمات كا وليس المضمون المنطقي فتصرفت معه بشفقة أكثر. وبينما كانت هي أيضاً تستمتع بهذه الشفقة سيتذكر كا بأن إيبك تستمتع بالألم الذي تشعر به نتيجة هذه الادعاءات والأسئلة. وكا الذي قضى وقتاً طويلاً من سنوات عمره الأربع الأخيرة بالندم والشعور بالذنب اعترف لنفسه بأنه استخدم طوال عمره ميوله بإيلام الآخرين بالكلام مقياساً لقوة الحب التي يشعر بها نحوه شخص ما. وبينما كان يقول بشكل عقدي لإيبك بأنها تحب كحلياً أكثر، وأنها في الحقيقة تحب كحلياً، كان كا يتوق لمعرفة مقدار الصبر عليه أكثر مما يتوق لمعرفة أجوبتها.

قالت إيبك: «إنك تعاقبني بهذه الأسئلة لأن لي علاقة به.»

قال كا: «أنت تريدينني كي تستطيعي نسيانه.» ورأى بخوف في وجه إيبك أن هذا صحيح، ولكنه لم يبك. يمكن أن يكون قد شعر باستجماع قوة في داخله بسبب بكائه الزائد. قال: «هنالك رسالة من حيث يختبئ كحلي إلى قديفة. يريد أن تنكص قديفة بوعدها، وألا تخرج إلى خشبة المسرح، وألا تكشف راسها. وهو مصر جداً.»

قالت إيبك: «علينا ألا نقول هذا لقديفة.»

«لماذا؟»

«هكذا يحمينا صوناي حتى النهاية من جهة، وهذا جيد بالنسبة إلى قديفة من جهة أخرى. لأنني أريد إبعاد أختي عن كحلي.»

قال كا: «لا. تريدين أن توقعي بينهما» كان يرى أن الغيرة تسقطه بعين إيبك، ولكنه لم يستطع السيطرة على نفسه.

«حسابي مع كحلي قطع منذ زمن طويل.»

فكر كا بأن أجواء الخشونة في نبرة إيبك ليس من قلبها. ولكن أمسك

نفسه، وقرر ألا يقول لإيبك هذا. ولكن بعد لحظة وجد نفسه يقول هذا وهو أمام النافذة. رؤيته أن الغيرة والغضب خارج سيطرته وتتحرك على الرغم منه كدره أكثر. يمكنه أن يبكي، ولكنه عقله عند الجواب الذي ستجيبه إيبك.

قالت إيبك: «نعم، في زمن ما كنت أعشقه كثيراً. ولكن الآن راح معظمه. أنا الآن جيدة. أريد الذهاب معك إلى فرانكفورت.»

«كيف كنت تعشقينه كثيراً؟»

قالت إيبك: «كنت أعشقه كثيراً.» وسكتت مصممة.

«اشرحي لي كيف عشقته كثيراً» وعلى الرغم من فقدانه برودة أعصابه شعر كا بأن إيبك تمر بحالة من التردد فيما بين قول الحقيقة وتهدئته، ومابين مشاركته ألم العشق الذي يعيشه في داخله واغضابه بقدر ما يستحق. فيما بعد قالت إيبك مشيحة بعينيها: «عشقته بشكل لم أعشق أحداً مثله.»

قال كا: «لعل هذا لأنك لم تعرفي أحداً غير زوجك.»

ندم في أثناء قوله هذا، لأنه شعر بأن إيبك ستجيبه جواباً قاسياً.

«لعلها لم تسنح لي فرصة الاقتراب من الرجال كثيراً في الحياة لأنني فتاة تركية. ولكن لابد أنك عرفت كثيراً من الفتيات الحرائر الأوروبيات. لا أسألك عن أي واحدة منهن. ولكنني كنت أعتقد أنهن علمنك تحمل الأحباء السابقين لحبيبتك.»

قال كا: «أنا تركي.»

«في أغلب الأحيان تستخدمون الكينونة تركياً من أجل الإساءة، أو الاعتذار، أو الذريعة.»

قال كا: «لهذا السبب سأعود إلى فرانكفورت» دون أن يؤمن بما قال.

«أنا أيضاً سأذهب معك، وسنكون سعداء.»

«تريدين الذهاب إلى فرانكفورت من أجل ان تنسيه.»

«إذا استطعنا الذهاب إلى فرانكفورت معاً، سأعشقك بعد مدة. أنا لست مثلك أعشق في يومين. إذا صبرت عليّ، ولم تكسر قلبي بغيرتك التركية سأحبك كثيراً.»

قال كا: «ولكنك لاتحبينني الآن. مازلت تحبين كحلياً. ما الذي يجعله خاصاً إلى هذا الحد؟»

«أنا مسرورة لإرادتك معرفة هذا، ولكنني أخاف من ردة فعلك على الجواب الذي سأجيبه»

قال كا دون إيمان بقوله: «لاتخافي. أحبك كثيراً.»

«وأنا لا أستطيع العيش إلا مع رجل سيبقى يحبني بعد أن يستمع إلى ماسأقوله.» سكتت إيبك لحظة، وأشاحت بعينيها عن كا نحو الشارع الثلجي. قالت بصوت دافئ جداً: «كحلي حنون جداً، وحكيم جداً، وكريم. لايريد السوء لأحد. ذات مرة بكى طوال الليل من أجل جروي كلب ماتت أمهما. صدقني، إنه لايشبه أحداً.»

قال كا يائساً: «أليس قاتلاً؟»

«من يعرفه بمقدار عشر ما أعرفه أنا يدرك أن هذا هراء، ويضحك منه. هو لايستطيع قتل أحد، إنه طفل، يستمتع باللعب والتخيل، ويقوم بتقليد الآخرين، ويحكي حكايات من الشاه نامة والمثنوي ويُخرج منها بالتتابع أناساً مختلفين كالأطفال. قوي الإرادة جداً، وحكيم جداً، ومصمم جداً، وقوي جداً، ومرح جداً أيضاً... آه. أنا آسفة. لاتبك يا روحي. كفى، لاتبك.»

قطع كا البكاء لحظة، وقال بأنه غير مؤمن بأنهما يمكن أن يذهبا إلى فرانكفورت. خيم على الغرفة صمت طويل وعجيب ينقطع أحياناً بنشقات كا. اضطجع على السرير، وأدار ظهره إلى النافذة، وانثنى طاقين كطفل. بعد قليل اضطجعت إيبك بجانبه واحتضنته من الخلف.

أراد كا بداية أن يقول لإيبك: «اتركيني». بعد ذلك همس قائلاً: «احتضنيني بقوة أكبر.»

كان كا يستمتع لشعوره بخديه برطوبة المخدة بالدموع. وشعوره بأن إيبك تحتضنه أيضاً جميل. غط في النوم.

حين استيقظا كانت الساعة تشير إلى السابعة، وشعرا في تلك اللحظة بإمكانية أن يسعدا. لم يستطع أحدهما النظر إلى وجه الآخر. ولكن كل منهما كان يبحث عن ذريعة للمصالحة.

قالت إيبك: «لاتهتم يا روحي. هيا، لاتهتم.»

لم يستطع كا للحظة استنتاج ما إذا كان هذا يشير إلى اليأس، أم الشعور

بالثقة بأن الماضي سينسى. اعتقد أن إيبك ذاهبة، كان يعرف جيداً أنه إذا عاد إلى فرانكفورت دون إيبك فإنه لن يستطيع البدء حتى بحياته اليومية التعيسة السابقة.

قال منهمكاً: «لاتذهبي. اجلسي قليلاً.»

بعد صمت غريب ومقلق تعانقا.

قال كا: «يا الله، يا الله. ماذا سيحدث؟»

قالت إيبك: «كل شيء سيكون جيداً. صدق، وثق بي.»

كان كا يشعر بأنه لايستطيع الخروج من هذا الكابوس إلا باستماعه لعبارات إيبك مثل طفل.

قالت إيبك: «تعال لأريك الأغراض التي سأضعها في الحقيبة التي سآخذها إلى فرانكفورت.»

خروج كا من الغرفة جعله في حالة جيدة. لم يترك يد إيبك التي أمسك بها في أثناء نزولهما الدرج إلا قبيل دخولهما إلى جناح السيد طورغوت، ولكنهما شعرا بأنه يُنظر إليهما كزوجين في اثناء مرورهما من صالة الفندق، وهذا ما جعله يشعر بالغرور. ذهبا مباشرة إلى غرفة إيبك. أخرجت الكنزة الضيقة الزرقاء الفاتحة التي لم تستطع ارتداءها في قارص من درجها، وفتحتها. ونفضت عنها النفتالين، ووقفت أمام المرآة ووضعتها على جذعها.

قال كا: «البسيها»

عندما خلعت إيبك الكنزة الصوفية الواسعة التي ترتديها، وارتدت فوق (البلوز) الكنزة الجديدة، أعجب كا مجدداً بجمالها.

قال كا: «هل ستحبينني إلى نهاية حياتك؟»

«نعم.»

«والآن البسي ثوب السهرة المخملي الذي لم يسمح لك مختار بارتدائه إلا في البيت فقط.» فتحت إيبك الخزانة، وأخرجت الثوب المخملي الأسود عن علاقته، ونفضت عنه النفتالين، وفتحته بعناية، وبدأت بارتدائه.

حين التقت عيناها بعيني كا في المرآة، قال: «نظرتك إليّ هكذا تمتعني كثيراً.»

نظر كا إلى ظهر المرأة الطويل والجميل، وإلى ذلك المكان الحساس

الذي ينساب إليه شعرها، وآثار فقرات الظهر إلى أسفل قليلاً، الحفرة التي ظهرت على كتفيها حين رفعت يديها وشابكتهما على شعرها، بانفعال يملأ قلبه نشوة، وبغيرة، وكان يشعر بنفسه سعيداً من جهة، وفي حالة سيئة جداً من جهة أخرى.

دخل السيد طورغوت إلى الغرفة قائلاً: «أووو، ما هذا الثوب؟ هذا تحضير لأي حفل؟» ولكن لم يكن على وجهه تعابير الفرح. فسر هذا كا بغيرة الأب، وهذا ما أمتعه.

قال السيد طورغوت: «ازدادت هجومية الإعلانات في التلفاز بعد أن ذهبت قديفة. ستكون مشاركة قديفة بهذه المسرحية خطأ كبيراً.»

«أبي العزيز اشرح لي لطفاً سبب رفضك كشف قديفة رأسها.»

ذهب الجميع إلى البهو، مقابل التلفاز. أعلن المذيع الذي ظهر بعد قليل على الشاشة بأنه في هذه الليلة وعبر البث المباشر ستنتهي اليوم مأساة شلت حياتنا الاجتماعية والمعنوية، وأن القارصيين سيتخلصون بحركة درامية هذا المساء من الأحكام الدينية المسبقة التي تبعدنا عن الحداثة، والمساواة بين الرجل والمرأة. ستعاش واحدة من تلك اللحظات التاريخية الساحرة التي لاتتكرر والتي توحد بين الحياة والمسرح على الخشبة. ليس ثمة ضرورة لشعور القارصيين بالقلق هذه المرة، لأن الدخول إلى المسرح مجاني وقد اتخذت مديرية الأمن وإدارة الطوارئ كل أنواع التدابير في أثناء العرض. ظهر على الشاشة السيد قاسم معاون مدير الأمن في لقاء من الواضح أنه أعد مسبقاً. شعره الذي كان أشعثَ جداً ليلة الانقلاب ممشط الآن، وقميصه مكوي، وربطة عنقه في مكانها. وقال بأن القارصيين يمكنهم المجيء إلى العرض الفني الكبير هذا المساء دون تردد. ومنذ الآن جاء عدد كبير من طلاب الأئمة والخطباء إلى مديرية الأمن، ووعدوا قوى الأمن بأنهم سيصفقون منضبطين ومنفعلين في المشاهد الضروية من المسرحية كما في الدول الحداثية وفي أوروبا، ولن يسمح «هذه المرة» بأي خروج عن الحدود، والتزاحم، والصراخ، ومن المؤكد أن القارصيين الممثلين لمخزون ثقافي يمتد لآلاف السنوات يعرفون كيف يتفرجون على عرض مسرحي.

بعد ذلك ظهر المذيع نفسه وتحدث عن التراجيديا التي ستمثل هذا

المساء، وشرح كيف حضّر بطل هذه المسرحية صوناي ظائم سنوات طويلة من أجل هذه المسرحية. وظهرت على الشاشة ملصقات مجعلكة لمسرحيات البورجوازية الصغيرة التي مثلها صوناي قبل سنوات طويلة مثل (نابليون، روبسبير، لينين، كما ظهرت صور صوناي بالأسود والأبيض (كم كانت فوندا أسر نحيلة في زمن ما!) وبعض ذكريات المسرح الأخرى التي اعتقد كا أن الزوجين يحملانها في حقيبتهما (تذاكر قديمة، برامج، قصاصات جرائد من أيام تفكير صوناي بلعب دور أتاتورك. ومشاهد مؤلمة من أيام مقاهي الأناضول) في هذا الفيلم التعريفي جانب ممل يذكر بالبرامج الفنية الوثائقية التي تعرضها تلفزة الدولة، ولكن صورة صوناي التي تظهر بين حين وأخر يبدو أنها التقطت حديثاً، واتخذ فيها موقفاً مباهياً يذكر بمواقف رؤساء دول الستارة الحديدية وطغاة الشرق الأوسط وأفريقيا التي يبدون فيها مهلهلين ولكنهم أدعياء. . والذين يسكنون في قارص صدقوا بأن صوناي الذي يرون صوره على الشاشة من الصباح حتى المساء صدقوا منذ الآن بأنه جلب الطمأنينة إلى بلدهم وبدؤوا يشعرون كأنهم مواطنوه وبالثقة من مستقبلهم بشكل ممتلئ بالأسرار. كما يظهر على الشاشة بين فترة وأخرى علم الدولة التي أعلنها الأتراك قبل ثمانين سنة بعد انسحاب الجيوش العثمانية والروسية من المدينة، وقتل بعضهم بعضاً الأتراك والأرمن، ولايعلم أحد من أين جاؤوا بذلك العلم. مشهد العلم المليء بثقوب العث والبقع هو أكثر المشاهد التي أقلقت السيد طورغوت.

«هذا الرجل مجنون. سيأتي بالبلاء على رؤوسنا جميعاً، يجب أن تحذر قديفة من الصعود إلى خشبة المسرح.»

قالت إيبك: «نعم، عليها ألا تخرج. ولكننا إذا قلنا أن هذا رأيكم فأنتم تعرفون قديفة يا أبي العزيز، حينئذ ستصعد وتكشف رأسها عناداً.»

«حسنٌ، ماذا سنعمل إذن؟»

التفتت إيبك نحو كا رافعة حاجبيها، وقالت: «ليذهب كا فوراً إلى المسرح، ويقنع قديفة بعدم الصعود إلى الخشبة.»

اضطرب كا الذي بقي فترة طويلة يشاهد إيبك وليس التلفاز دون إدراك سبب هذا التغيير في الرأي.

قال السيد طورغوت لكا: «إذا أرادت أن تكشف رأسها فلتكشفه في البيت بعد أن تهدأ الأحداث. من المؤكد أن صوناي سيعمل استفزازاً ما على خشبة المسرح. أنا نادم جداً لأنني خدعت بفوندا أسر وسلمت قديفة لأولئك المجانين.»

«يذهب كا إلى المسرح، ويقنع قديفة يا أبي العزيز.»

«لا أحد يمكنه الوصول إلى قديفة غيركم، لأن صوناي يثق بكم. ماذا جرى لأنفكم يا بنيّ؟»

قال كا شاعراً بالذنب: «سقطتُ على الجليد.»

«يبدو أنكم ضربتم جبهتكم أيضاً. فهي مزرقة أيضاً.»

قالت إيبك: «لقد مشى كا في الشوارع طوال اليوم.»

قال السيد طورغوت: «اسحبوا قديفة جانباً دون أن تُشعروا صوناي. ولاتخبروا قديفة بان هذا رأينا، كما يجب على قديفة ألا تزلق لسانها بقول إن هذا الرأي رأيكم. عليها ألا تتجادل مع صوناي، ولتلفق عذراً. الأفضل أن تقول: إنني مريضة، سأكشف رأسي غداً في البيت، ولتعدهم. قولوا لها بأننا نحبها جميعاً. ياصغيرتي..»

فجأة ذرفت عينا السيد طورغوت.

قالت إيبك: «هل يمكنني أن أحكي مع كا وحدنا؟» وسحبته إلى جوار طاولة الطعام. وجلسا عند جانب طاولة طعام المساء التي فتحت زاهدة غطاءها فقط.

«قل لقديفة بأنك تريد منها هذا لأن كحلياً في موقف صعب.»

قال كا: «قولي لي أولاً سبب تغيير رأيك.»

«آه ياروحي. ليس هنالك ما يدعو إلى الشك. صدقني. وجدت أن أبي على حق فيما قاله فقط، وهذا كل شيء. يبدو لي أن إبعاد قديفة عن بلية هذا المساء أهم من كل شيء.»

قال كا بانتباه: «لا. هنالك ما جعلك تغيّرين رأيك.»

«لايوجد ما يخيف. إذا أرادت قديفة أن تكشف راسها، فلتكشفه فيما بعد في البيت».

قال كا بانتباه: «إذا لم تكشف قديفة راسها هذا المساء فلن تكشفه في البيت بجانب أبيها أبداً. أنت أيضاً تعرفين هذا.»

«المهم قبل كل شيء هو مجيء أختي سليمة إلى البيت.»

قال كا: «أخاف من أمر ما، من أمر تخفينه عني.»

«لايوجد أمر كهذا يا روحي. أنا أحبك كثيراً. إذا أردتني فسأذهب معك فوراً إلى فرانكفورت. وعندما ستراني مع الوقت كيف أتعلق بك وأعشقك، ستنسى هذه الأيام، وتحبني بثقة.»

وضعت يدها على يد كا الرطبة والحارة. كان كا ينظرغير مصدق عبر مرآة (البوفيه) إلى جمال إيبك، وجاذبية ظهرها البادي عبر حمالتي الثوب المخملي، وعينيها الواسعتين وقربهما الشديد من عينيه.

قال فيما بعد: «إنني واثق بأن شيئاً سيئاً سيحدث.»

«لماذا؟»

«لأنني سعيد جداً. كتبتُ في قارص ثماني عشرة قصيدة بشكل غير متوقع. إذا كتبت واحدة جديدة سيتكوّن كتاباً بشكل تلقائي. أنا مؤمن بأنك تريدين الذهاب معي إلى ألمانيا، وأشعر بأن أمامي سعادة أكبر. إن هذا القدر من السعادة يفيض عن الحد، لذلك اشعر بأنه لابد من حدوث أمر سيّيء.»

«سوء مثل ماذا؟»

«مثلاً لقاؤك بكحلي فور خروجي من هنا لإقناع قديفة.»

قالت إيبك: «آه، هراء. أنا لا أعرف حتى مكانه.»

«لقد ضربت لأنني لم أبح بمكانه.»

قالت إيبك، مقطبة حاجبيها: «احذر من البوح به لأحد. وسنفهم عبثية مخاوفك.»

نادى السيد طورغوت قائلاً: «إيه، ماذا حدث؟ ألن تذهبوا إلى قديفة؟ بعد ساعة وربع تبدأ المسرحية. والتلفاز يعلن بأن الطرق على وشك أن تفتح.»

همس كا قائلاً: «لاأريد الذهاب إليالمسرح، ولا أريد الخروج من هنا.»

قالت إيبك: «صدقني إننا لا نستطيع الهرب من هنا تاركين قديفة حزينة.

حينئذ لن نكون نحن أيضاً سعداء. اذهب، وحاول إقناعها على الأقل كي يرتاح بالنا.»

قال كا: «قبل ساعة ونصف حين جلب لي فاضل خبراً من كحلي كنتِ تقولين لي لاتخرج.»

قالت إيبك: «كيف يمكنني أن أقنعك بعدم هروبي من هنا عندما تذهب إلى المسرح؟ قل بسرعة.»

ابتسم كا، وقال: «تأتين معي إلى غرفتي في الأعلى، وأقفل عليك الباب، وآخذ المفتاح معي مدة نصف ساعة.»

قالت إيبك منتشية: «حسنٌ.» ثم نهضت، وقالت: «أبي العزيز، أنا سأصعد إلى غرفتي مدة نصف ساعة، ولاتقلقوا على كا، سيذهب إلى المسرح ليتكلم مع قديفة... لاتنهضوا من مكانكم. لدينا عمل مستعجل في الأعلى.»

قال السيد طورغوت: «الله يرضى عليك.» ولكنه مضطرب.

أمسكت إيبك كا من يده، واصطحبته إلى الأعلى مارة من بهو الفندق، وصاعدة الدرج دون أن تتركه.

قال كا: «رآنا جاويت. بماذا فكر؟»

قالت إيبك منتشية: «لاتهتم.» وفي الأغلب فتحت الباب بالمفتاح الذي أخذته من كا، ودخلت، مازالت رائحة ممارسة الحب من الليلة الماضية باقية بشكل غير واضح، أضافت: «سأنتظرك هنا، انتبه لنفسك. لاتصطدم بصوناي.»

«هل أقول لقديفة بأن طلب عدم صعودها إلى خشبة المسرح هو طلبنا وطلب أبيها، أم أقول بأنه طلب كحلي؟»

«طلب كحلي.»

سأل كا: «لماذا؟»

«قديفة تحب كحلياً كثيراً، وهذا هو السبب. إنك تذهب إلى هناك لحماية أختي من الخطر. انس الغَيْرَة من كحلي.»

قالت إيبك وهي تلف ذراعيها حول رقبة كا: «سنكون سعداء جداً في ألمانيا. إلى أية سينما سنذهب. قل لي.»

قال كا: «في متحف الأفلام توجد سينما تعرض في ساعة متأخرة من مساء كل سبت أفلام فنية أمريكية دون دوبلاج. سنذهب إلى هناك. وقبل الذهاب سنتناول (الشاورمة) والمخلل الحلو في مطعم مجاور لمحطة القطار. وبعد السينما سنتسلى بتقليب محطات التلفزة. ولأننا سنكتفي براتب اللجوء السياسي الذي أتقاضاه، وتعويضات قراءاتي الشعرية لكتابي الأخير هذا فلن يكون لديناعمل غير أن يحب كل منا الآخر.»

سألته إيبك عن عنوان كتابه، وأخبرها به كا.

قالت إيبك: «جميل. هيا يا روحي، وإلا فإن ابي سيقلق، وسيذهب بنفسه.»

احتضن إيبك بعد أن ارتدى كا معطفه.

قال كاذباً: «لم أعد خائفاً. ولكن تحسباً لأي لخبطة، إذا حدث أمر ما فأنا سأنتظرك مع انطلاق أول قطار.»

قالت إيبك ضاحكة: «إذا استطعت الخروج من هذه الغرفة.»

«انظري من النافذة حتى انعطف عند الزاوية، ممكن؟»

«ممكن.»

قال كا وهو يغلق الباب: «أخاف كثيراً من عدم رؤيتك مرة أخرى.»

اقفل الباب، ووضع المفتاح في جيب معطفه. تقدم عدة خطوات عن الجنديين الحارسين ليستطيع الالتفات إلى الخلف، والنظر إلى نافذة إيبك. وفي نافذة الغرفة رقم ٢٠٣ من الطابق الأول لفندق ثلج بالاس رأى إيبك تنظر إليه دون حركة. كان ضوء مصباح الطاولة المائل إلى البرتقالي يسقط على كتفيها العسليين اللذين بدآ يرتعشان من البرد في الثوب المخملي، وهذا لن ينساه كا أبداً، وسيبقى في ذاكرته كرابط للسعادة على مدى السنوات الأربع الباقية من حياته.

لم ير كا بعد ذلك إيبك أبداً.

[٤٠]

يجب ان يكون التجسس المزدوج صعباً

الفصل غير المكتمل

حين كان كا ماشياً نحو مسرح الشعب كانت الشوارع خاوية تماماً. أنزلت أبواب الدكاكين كلها. ماعدا مطعماً أو اثنين، وبينما كان آخر زبائن المقاهي ينهضون بعد يوم طويل قضوه مع السجائر والشاي، لايبعدون أعينهم عن التلفاز. رأى كا أمام مسرح الشعب ثلاث سيارات شرطة أضواؤها تُنار وتُطفأ، وظل دبابة في أسفل الطريق تحت أشجار الزعرور. كان قد بدا برد المساء يضغط، ويسيل الماء من الجليد المتدلي من السقيفات إلى الرصيف. حين عبر من تحت كابل البث المباشر المشدود بين طرفي شارع أتاتورك داخلاً المسرح أمسك براحة يده المفتاح الذي في جيبه.

الجنود ورجال الشرطة المصفوفون بشكل منتظم عند الأطراف يستمعون إلى صدى التدريب الذي على الخشبة تعكسه الصالة الخاوية. جلس كا على أحدالمقاعد، وتابع الكلمات التي يلفظها صوناي واحدة واحدة بصوته الجهوري، وأجوبة قديفة المغطاة الرأس الضعيفة والمترددة، وكلمات فوندا أسر المتدخلة أحياناً في التدريبات (يا عزيزتي قديفة، انطقي كلماتك من قلبك) في أثناء تركيب الديكور (شجرة، طاولة مكياج ذات مرآة).

بينما كانت فوندا أسر وقديفة تتدربان معاً رأى صوناي كا في ضوء سيجارته، فجاء وجلس بجانبه. قال: «هذه أسعد ساعات حياتي.» كانت تفوح من فمه رائحة العرق، ولكنه غير سكران «مهما قمنا بتدريبات، فإن كل شيء سيتحدد على الخشبة بما نشعر به في تلك اللحظة. ولدى قديفة موهبة الارتجال المسرحي أصلاً.»

قال كا: «جلبت لها من أبيها رسالة شفوية، وخرزة حسد. هل يمكنني أن أكلمها جانباً؟»

قال صوناي: «نحن منتبهون إلى أنك ضللّت حارسيك، وفُقِدْتَ فترة. يقال بان الثلج يذوب، والسكة الحديد على وشك أن تفتح. ولكن قبل كل هذا سنمثل مسرحيتنا.»

ثم سأله مبتسماً: «هل اختبأ كحلي في مكان جيد؟»

«لا أعرف.»

ذهب صوناي قائلاً بأنه سيرسل قديفه، وانضم إلى التدريبات على خشبة المسرح. في الوقت نفسه أنيرت أضواء خشبة المسرح. شعر كا بجذب شديد بين الأشخاص الثلاثة الذين على المسرح. ولوج قديفة مسرعة إلى حرمة هذا العالم المفتوح إلى الخارج وعلى رأسها غطاء أخاف كا. شعر بأنه سيقترب من قديفة أكثر لو كان رأسها مكشوفاً، ولم ترتدِ ذلك المعطف السيّيء الذي ترتديه الفتيات المغطيات، وارتدت تنورة تظهر قليلاً من ساقيها كما ترتدي أختها، ولكنها حين نزلت عن الخشبة، وجلست بجانبه شعر بالسبب الذي جعل كحلياً يترك إيبك، ويعشقها.

«قديفة، رأيتُ كحلياً، تركوه، واختبأ في مكان ما، إنه لايريد أن تصعدي إلى الخشبة وتكشفي رأسك. وأرسل لك رسالة.»

ولكي لايلفت كا انتباه صوناي، وكمن يغشُشُ في الامتحان فتحت قديفة الرسالة وهي تريه إياها بعد أن ناولهاإياها من تحت يده، وقرأتها. قرأتها مرة أخرى، وابتسمت.

بعد ذلك رأى كا في عيني قديقة الغاضبتين دموعاً.

«هذا رأي والدك أيضاً يا قديفة. بقدر ما هو صحيح قرارك بكشف راسك، بقدر ما هو عبثي لو أقدمت على تنفيذه هذا المساء أمام طلاب ثانوية الأئمة والخطباء الغاضبين. سيستفز صوناي الجميع مرة أخرى. لاضرورة لبقائك هنا هذا المساء. قولي بأنك مريضة.»

«لاضرورة للذريعة. قال لي صوناي إنه بإمكاني أن أعود إلى البيت إن أردت.»

أدرك كا بأن الغضب والشعور بتبدد الأحلام الذي يبدو على وجهها أعمق بكثير من ذاك الذي يبدو على فتاة شابة لم يسمح لها في الدقيقة الأخيرة بالمشاركة في المسرحية المدرسية.

«هل ستبقين هنا يا قديفة؟»

«سأبقى هنا لأمثل في المسرحية.»

«هذا سيزعل أباك كثيراً، أتعرفين ذلك؟»

«أعطني خرزة الحسد التي أرسلها والدي.»

«أنا لفقت أمر الخرزة من أجل أن أتحدث معك وحدنا.»

«يجب أن يكون التجسس المزدوج صعباً.»

رأى كا في وجه قديفة إحباطاً، ولكن بعد ذلك مباشرة شعر متألماً بأن عقل الفتاة في مكان آخر. أراد أن يجذب قديفة من كتفها، ويحتضنها، ولكنه لم يفعل شيئاً.

قال كا: «حكت لي إيبك عن وضعها السابق مع كحلي.»

أخرجت قديفة بهدوء سيجارة من علبة، ووضعتها في فمها ببطء، واشعلتها.

قال كا مبدياً تباهياً فاشلاً: «أعطيته سجائرك وقداحتك.» سكتا قليلاً. «هل تفعلين هذا لأنك تحبين كحلياً كثيراً؟ مالذي أحببته به إلى هذا الحد يا قديفة، قولي لي.»

سكت كا لإدراكه بأنه يتكلم دون جدوى، وأنه كلما تحدث أكثر، غرق أكثر.

نادت فوندا أسر قديفة من فوق الخشبة قائلة لها بأن دورها قد جاء.

نظرت قديفة إلى كا بعينين دامعتين ثم نهضت. في اللحظة الأخيرة تعانقا. تابع كا المسرحية فترة شاعراً بوجود قديفة ورائحتها. ولكن عقله لم يكن هناك، لم يفهم أي شيء. في داخله ثمة نقص وغيرة وندم يجعل منطقه وثقته بنفسه في منتهى اللخبطة، كان يستنتج سبب ألمه بشكل تقريبي، ولم يستطع فهم حدة ألمة وشدته.

دخن سيجارة وهو يشعر بأن السنوات التي سيقضيها في فرانكفورت مع

إيبك ـ طبعاً إذا نجح باصطحابها معه إلى فرانكفورت ـ ستطبع بهذا الألم الساحق والقاهر.

كان عقله في منتهى الاضطراب. ذهب إلى دورة المياه التي التقى فيها بنجيب قبل يومين. دخل إلى القسم الصغير نفسه. فتح النافذة العالية ونظر إلى السماء وهو يدخن.

في الخارج لم يصدق بداية بأن قصيدة جديدة تلهم له. أخرج دفتره الأخضر منفعلاً ودوّن القصيدة التي رآها سلواناً وأملاً. حين أدرك أن الإحساس القاهر نفسه بقوته كلها ينتشر في داخله خرج من مسرح الشعب مضطرباً.

بينما كان ماشياً على الرصيف المثلج اعتقد للحظة بأن الجو البارد سيفيده. الجنديان الحارسان معه، وعقله أكثر اضطراباً. لكي تفهم حكايتنا بشكل أفضل لننه هذا الفصل في هذه النقطة، ونبدأ فصلاً جديداً. ولكن هذا لايعني بأن كا لم يفعل شيئاً آخر في هذا الفصل. عليّ أولاً أن أنظر إلى مكان هذه القصيدة الأخيرة المعنونة: «حيث ينتهي العالم» التي كتبها كا على دفتره الذي يحمله دائماً من الكتاب المسمى (ثلج).

[٤١]

لكل شخص بلورته الثلجية

الدفتر الأخضر الضائع

قصيدة «حيث ينتهي العالم» هي القصدية التاسعة عشرة والأخيرة التي ألهمت له في قارص. ونحن نعرف أن ثماني عشرة قصيدة منهاكتبها كما ألهمت له كلمة كلمة ـ على الرغم من بعض النواقص ـ على دفتر أخضر كان يحمله دائماً. القصيدة التي ألقاها ليلة الانقلاب فقط هي التي لم يكتبها. في رسالتين من الرسائل التي كتبها في فرانكفورت لإيبك ولم يرسل أياً منها يقول بأنه لم يتذكر هذه القصيدة التي أسماها «حيث لايوجد الله» بأي شكل، ولابد له من إيجاد هذه القصيدة لكي يكمل كتابه، وسيكون سعيداً جداً لو نظرت إلى تسجيلات الفيديو في تلفزيون قارص سرهات من أجل هذا الأمر. شعرتُ من جو هذه الرسالة التي قرأتها في غرفة فندقي يقلقه، وأنه حاول كتابة رسالة غرام لها بذريعة القصيدة وتسجيلات الفيديو.

في الليلة ذاتها حين عدت إلى غرفتي وأنتشيتُ قليلاً بالخمر، وجدت في دفتر فتحته لا على التعيين بلورة الثلج التي وضعتها في نهاية الفصل التاسع والعشرين من هذه الرواية. ومع قراءتي الدفاتر في الأيام التالية اعتقدت بأنني فهمت قليلاً وضع كل قصيدة من القصائد التي ألهمت له في قارص على تسع عشرة نقطة من بلورة الثلج.

فهم كا من الكتب التي قرأها فيما بعد، بأن هنالك وسطياً من ثماني إلى عشر دقائق بين تبلور بلورة الثلج بشكل نجمي في ستة أذرع في السماء حتى نزولها إلى الأرض وفقدانها شكلها، وأنها تتشكل تحت تأثير ظروف عديدة

مليئة بالأسرار مثل الريح، والبرد، وارتفاع الغيوم. وشعر بأن علاقة ما تربط بين بلورات الثلج والناس. واعتقد بأن القصيدة المعنونة «أنا كا» التي كتبها في مكتبة قارص مفكراً ببلورة الثلج هي نفسها بلورة الثلج التي في مركز كتابه الشعري المعنون «ثلج».

بعد ذلك، وانطلاقاً من المنطق نفسه، أشار إلى وجود مكان للقصائد المعنونة: «جنة»، «شطرنج»، «علبة الشوكولا» على بلورة الثلج المفترضة نفسها. لهذا السبب استفاد من الكتب التي نشرت أشكال بلورات الثلج في رسم بلورته الثلجية، وموضع القصائد التي ألهمت له في قارص على تلك البلورة. وهكذا وضع ما كوّنه كله باعتباره كا على بلورة الثلج بقدر ما وزع كتابه الشعري الجديد. يجب أن يكون لكل إنسان بلورة ثلج تمثل خريطة حياته الداخلية كلها. استمد كا مَوْضِعَ قصائده على شعب بلورة الثلج المدعوة: ذاكرة، خيال، منطق، من الشجرة التي صنف بواسطتها (باكون) معلومات الإنسان، وناقش مطولاً النقاط التي وضع عليها قصائده على شعب النجمة الثلجية في اثناء تفسيره لتلك القصائد.

لهذا السبب يجب رؤية غالبية الملاحظات التي كتبها في فرانكفورت، والتي ملأت ثلاثة دفاتر حول قصائده التي كتبها في فرانكفورت بأنها تقدم رؤية حول معنى حياة كا نفسها بقدر معنى بلورة الثلج. مثلاً إذا كان يناقش موضع القصيدة المعنونة «الموت ضرباً بالنار» فإنه يفسر الخوف الذي تناوله في القصيدة أولاً، ويبين السبب الذي جعله يموضعها قريباً من شعبة الخيال. وبينما كان يفسر وضع القصيدة المدعوة «حيث ينتهي العالم» فوق شعبة الذاكرة وفي مجال جذبه، فهو يؤمن بأدوات كثيرة من الأشياء المفعمة بالأسرار. وبالنسبة إلى كا فإنه ثمة خريطة وبلورة ثلج كهذه خلف حياة أي شخص، وإن الناس بقدر ما يبدون متشابهين من بعيد فهم مختلفون وغير مفهومين وغريبون ويمكن إثبات هذا في أثناء تفسير بلورة الثلج لكل منهم.

لن أتحدث أكثر من الضروري لروايتنا هذه حول كتاب كا الشعري، والصفحات المملوءة حول بنية نجمته الثلجية (ماذا يعني وضع القصيدة المعنونة «علبة الشوكولا» على شعبة الخيال؟ كيف تُشكل قصيدة «الانسانية كلها والنجوم» في نجمة كا؟ الخ. الخ.) كان كا يسخر في شبابه من الشعراء

الذين يعطون أنفسهم أهمية، ويشدون أنفسهم مثل التماثيل التي لاينظر إليها أحد وهم على قيد الحياة لاعتقادهم بأن كل هراء يكتبونه سيكون في المستقبل موضوع بحث.

ثمة أعذار عدة لتفسيره قصائده التي كتبها بنفسه في السنوات الأربع الأخيرة من عمره بعد أن كان يستهين طوال حياته بالشعراء المخدوعين بأسطورة الحداثة الذين يكتبون أشعاراً غير مفهومة. حين تُقرأ ملاحظات كا بدقة يفهم بأنه لم يكتب القصائد التي ألهمت له في قارص كلها. كان يؤمن بأن تلك القصائد «أتت» من مكان بعيد عنه، وأنه مجرد أداة فقط لكتابتها (ذكرها باعتبارها مثالاً). كتب كا في عدة أمكنة أن ملاحظاته من أجل تغيير وضعه «المنفعل»، وفكفكة معاني القصائد التي كتبها، وتناظرها. وهناك يكمن العذر الثاني لقيام كا بتفسير أشعاره: لايمكن لكا إكمال قصيدته المعنونة «حيث لايوجد الله» التي ضيعها، والأشطر غير المكتملة، ونواقص كتابه إلا إذا فكك معاني القصائد التي كتبها في قارص. لأن كا لم يلهم بأية قصيدة بعد عودته إلى فرانكفورت.

يفهم من ملاحظات كا حول إنهاء كتابه، ومن رسائله بأنه لهذا السبب يفسّر منطق قصائده التي ألهمت له في سنواته الأربع الأخيرة، بينما كنت أقلب الأوراق والدفاتر التي أخذتها من شقته وأنا أشرب المشروب في الفندق في فرانكفورت حتى الصباح، أتخيل بأن قصائد كا في مكان ما منها، وأنفعل تلقائياً، وابدأ مجدداً بتقليب الأدوات التي بين يدي. غططت في النوم وأنا أقلب دفاتر صديقي، ومنامته القديمة، وأشرطة مليندا وربطات عنقه، وكتبه، وقداحته (وهكذا انتبهتُ إلى أنني أخذت القداحة التي أرسلتها قديفة لكحلي مع كا، ولم يعطه إياها) وأنا أرى كوابيسَ، وأحلاماً مليئة بالتوق، والخيالات.

لم أستطع الاستيقاظ إلا في الظهيرة، وقضيت ما تبقى من اليوم في شوارع فرانكفورت الثلجية الرطبة دون مساعدة (طارقوت أولتشن) بحثاً عن معلومات حول كا. وبسرعة قبلت الامرأتان اللتان أقام معهما كا علاقة خلال ثماني السنوات التي سبقت ذهابه إلى قارص اللقاء معي (قلت لهما بأنني أكتب سيرة صديقي الشخصية). حبيبة كا الأولى ليست على علم بكتابه الشعري الأخير، وهي لاتعرف بأنه كان يكتب الشعر.

متزوجة وتستثمر مع زوجها دكاني (شاورمة) ومكتباً سياحياً. وبينما كنا نتحدث وحدنا، بعد أن قالت لي بأن كا صعب ومشاكس وقلق وخجول بشكل كبير، بكت قليلاً (كانت حزينة على شبابها الذي ضحت به من أجل حياتها اليسارية أكثر من حزنها على كا).

الحبيبة العزباء الثانية (هيلديغارد) لاتعرف شيئاً عن قصائده الأخيرة التي كتبها ولا عن كتابه الشعري المعنون «ثلج» كماتوقعت. وموقفها التمثيلي والمحاول للاجتذاب خفف عني الشعور بالذنب لتعريفي كا أنه شاعر أكثر مما هو عليه من شهرة بكثير من تركيا. حكت لي بانها تخلت عن فكرة الذهاب إلى تركيا في عطلة الصيف بعد كا، وإن كا كثير المشاكل، وذكي جداً، وشاب يشعر كثيراً بالوحدة، وأنه بسبب قلقه من التطلع إلى الأم ـ الحبيبة لن يجده أبداً، سيفقده إذا وجده، وبقدر ما عشقه سهل بقدر ما الكينونة معه صعبة. لم يأت كا على ذكر أمها أبداً (لا أدري لماذا سألتها هذا السؤال، وذكرت هذا هنا). الأمر الذي لم أنتبه إليه طوال لقائنا المستمر ساعة وربع الساعة هو عدم وجود عقدة أصبع السبابة الأولى ليدها اليمنى النحيلة الرسغ الجميلة الطويلة الأصابع. أرتني إياها (هيلديغارد) في اللحظة الأخيرة بينما كنا نتصافح، واضافت بان كا سخر من إصبعها الناقصة هذه في لحظة غضب.

كما فعل كا قبل طباعة كتبه الأخرى، بعد أن أنهى كتابه خرج جولة لإلقاء القصائد قبل أن يرقنه على الآلة الكاتبة، وينسخه: كاسل، برانشوايغ، هانوفر، أوسنابروك، بريمن، هامبورغ. وأنا أيضاً نظمت جولة «أمسيات» في هذه المدن بمساعدة المركز الشعبي الذي دعاني و (طارقوت أولتشون). وكما بيّن كا في إحدى قصائده، أنا أيضاً أجلس بجانب نوافذ القطارات الألمانية المعجب بنظافتها وراحتها (البروتستانتية)، واتفرج حزيناً على السهول المنعكسة على الزجاج، والقرى الوادعة ذات الكنائس الصغيرة النائمة في قعر الوديان، والأطفال ذوي حقائب الظهر، والمعاطف المطرية الملونة؛ وأقول للتركيين المنتظرين في المحطة وهما يدخنان بأنني أريد أن أعمل ما عمله كا حين جاء إلى هنا قبل سبعة أسابيع من أجل الأمسية. وكما كان يفعل كا في كل مدينة أيضاً، بعد أن أعمل قيدي في فندق صغير رخيص، وأتحدث في مطعم تركي مع الداعين لي في السياسة، وعدم اهتمام الأتراك بالثقافة ـ مع

الأسف ـ، وآكل رقائق العجين بالسبانخ، ، و(الشاورمة)، أتجول في شوارع المدينة الباردة والخاوية متخيلاً كا الذي يمشي في هذه الشوارع من أجل نسيان ألم إيبك، ومساءً في الاجتماعات «الأدبية» التي يأتي إليها خمسة عشر أو عشرين شخصاً من المهتمين بالسياسة والأدب أو الأتراك، وبعد أن أقرأ عليهم بضع صفحات دون روح من روايتي الأخيرة، أنقل الحديث فوراً إلى الشعر، وأقول لهم بأنني صديق مقرّب جداً من الشاعر الكبير كا المقتول في فرانكفورت، وأسالهم: «ترى هل هنالك من يذكر شيئاً من قصائده الأخيرة التي جاء لإلقائها هنا قبل فترة قريبة؟».

أغلب الحاضرين يكونون غير حاضرين في أمسية كا الشعرية، وفهمت بأن القادمين إما قدموا لطرح أسئلة سياسية أو بالمصادفة من تذكرهم لمعطفه الرمادي الذي لم يخلعه أبداً، وشحوب بشرته، وشعره غير الممشوط، وحركاته المتوترة أكثر من تذكرهم لشعره. وخلال فترة قصيرة أدرك أن الجانب الدافع إلى الاهتمام هو ليس جانب حياته وشعره، بل موته. واستمعت إلى فرضيات كثيرة حول مقتله منها: الإسلاميون، المخابرات السرية التركية، الأرمن، القرعان الألمان، الأكراد، أو القوميون الأتراك. على الرغم من هذا يظهر دائماً بعض الأذكياء والنبهاء الحساسين بين الحضور الذين انتبهوا حقيقة إلى كا. ولم أعلم من محبي الأدب المنتبهين هؤلاء غير أن كا قد أنهى كتاباً شعرياً جديداً، وأنه ألقى قصائد عناوينها: «شوارع الحلم»، و «كلب»، و «علبة الشيكولا»، و «عشق»، وأنهم وجدوا هذه القصائد غريبة جداً جداً. صرح كا في عدة أمكنة بأنه كتب هذه القصائد في قارص، وفسر هذا الأمر بمحاولته مخاطبة المستمعين الذين يعيشون الغربة والحنين إلى البلد. بعد الأمسية هنالك امرأة مطلقة لها ولد واحد، في الثلاثينيات من عمرها اندست بكا (بعد ذلك بي) تذكرت بأنه ذكر اسم قصيدة عنوانها «حيث لايوجد الله»: وبالنسبة إليها، فإن هنالك احتمالاً كبيأر أن كا لم يقرأ سوى رباعية واحدة من هذه القصيدة كي لايتعرض لردود فعل سلبية. وعلى الرغم من محاولاتي بالإلحاح عليها فإن مُحِبَة الشعر هذه لم تتذكر سوى: «منظر مخيف جداً.» وقالت هذه المرأة التي تجلس في الصف الأول من اجتماع هامبورغ بأن كا قرأ قصائده من دفتر أخضر.

عدت ليلاً من هامبورغ إلى فرانكفورت بواسطة القطار الذي عاد به كا. خرجتُ من المحطة، ومشيت في شارع (كايزر) مثله، وقضيت بعض الوقت في دكاكين الجنس. (وصل شريط جديد لمليندا خلال هذا الأسبوع)، وعندما وصلت إلى المكان الذي أطلقت النار فيه على صديقي وقفت، وصرحت لنفسي أول مرة بالشيء الذي قبلتُ به دون أن أنتبه. يجب أن يكون القاتل قد أخذ الدفتر الأخضر من حقيبة كا بعد أن سقط على الأرض، ثم هرب. وخلال رحلتي إلى المانيا على مدى أسبوع قرأت الملاحظات التي دونها كا حول قصائده، وذكرياته في قارص مرات عديدة ولساعات طويلة ليلاً. سلواني الوحيد الأن هو تخيلي أن إحدى قصائد الكتاب الطويلة تنتظرني في أرشيف الفيديو لأحد الاستديوهات التلفزيونية.

قضيت فترة بعد عودتي إلى اسطنبول أتابع كل ليلة في أخبار ختام بث تلفزيون الدولة حالة الطقس في قارص، وتخيلت كيف سأقابل في المدينة. إذا قلت بأنني وصلت إلى قارص مساء بعد رحلة في الحافلة دامت يوماً ونصفاً كرحلة كا تلك، ونزلت في غرفة في فندق ثلج بالاس الذي قصدته مرتعشاً حاملاً حقيبة (ليس هنالك أختان مليئتان بالأسرار، ولا أبوهما) وسرت مطولاً على الأرصفة الثلجية كما فعل كا قبل أربع سنوات. مطعم «الوطن الأخضر» تحوّل إلى مشرب بيرة بائس) يجب ألا يجعل قراء هذا الكتاب يعتقدون بأنني أتحول ببطء إلى ظلٍ لكا. ليس نقص الحزن والشعر لدي فقط ما يفرقنا عن بعضنا بعضاً فقط كما أشار كا في بعض الأحيان، بل تفرقنا ايضاً مدينة قارص المكدرة عن قارص الفقيرة التي رأيتها. ولكن عليّ الآن أن أتحدث عن الشخص الذي يشبّهنا ببعضنا بعضاً.

حين رأيت إيبك أول مرة في الوليمة التي دعا إليها رئيس البلدية في ذلك المساء على شرفي. كم أردت أن أؤمن بأن الدوران الذي شعرت به في رأسي حين رأيتها كان تحت تأثير شرب العرق: ولهذا فقدت صوابي واحتمال عشقي لها عبارة عن مبالغة، وأن الغيرة التي شعرتُ بها نحو كا غير ضرورية! من يعلم كم مرة سألت نفسي عن عدم استنتاجي جمال إيبك إلى هذا الحد من الملاحظات التي دونها صديقي. وأنا أمام النافذة في فندق (ثلج بالاس) حين كان يندف ثلجاً مائعاً أقل شاعرية من الذي تحدث عنه كا في منتصف الليل.

بدافع غريزي، وبتعبير كان يخطر لي كثيراً في تلك الأيام، فإن ماكتبته على دفتر أخرجته حينئذ «مثل كا تماماً» يمكن أن يكون بداية الكتاب الذي تقرؤونه: أتذكر أنني بدأت الحديث عن كا، والعشق الذي عشقه لها وكأنها حكايتي. في زاوية في عقلي المنتشي اعتقدت بوجود طريق مكتسب من التجربة للابتعاد عن العشق يتم بالانجراف وراء كتابة المعاناة الداخلية. وعلى عكس ما يُعتقد فإن الإنسان يمكنه أن يبتعد عن العشق.

ولهذا يجب أن تتخلصوا من تلك المرأة التي سلبتكم عقولكم، وشبح ذلك الشخص الثالث الذي يستفزكم بذلك العشق. مع أنني تواعدت مع إيبك ومن زمن على اللقاء في اليوم التالي في محل الحياة الجديدة للمعجنات لنتحدث عن كا. أو أعتقد أنني عرضت عليها بأنني أريد التحدث عن كا. وبينما كان يعرض التلفاز الأسود والأبيض نفسه عاشقين متعانقين أمام جسر البوسفور شرحت لي إيبك بأنه ليس من السهل أبداً أن تتحدث لي عن كا. لايمكنها الحديث عن الألم وتحطم الأحلام إلا أمام شخص يمكنه الاستماع إليها صابراً، وكون هذا الشخص صديقاً قريباً يأتي حتى إلى قارص من أجل قصائده أمر يريحها. لأنهاإذا أقنعتني بأنها لم تظلم كا ستتخلص ولو قليلاً من الأرق الذي تشعر به في داخلها. ولكنها قالت حذرة بأن عدم تفهمي سيزعجها. كانت ترتدي تنورة بنية طويلة، وحزاماً عريضاً قديم الطراز فوق كنزة وهذا ما كانت ترتديه صباح «الانقلاب» حين كانت تقدم طعام الإفطار لكا. (عرفتها فوراً لأنني قرأت عنها في ملاحظات كا حول القصائد) أما على وجهها فهنالك تعبير يمتزج بين الاستفزاز والكدر يذكر بملبندا. استمعت إليها مطولاً وبانتباه.

[٤٢]

ساحضر حقيبتي

بعين إيبك

حين كان كا ذاهباً إلى مسرح الشعب وراء الجنديين الحارسين، وتوقف، ونظر إليها للمرة الأخيرة، كانت إيبك مؤمنة بتفاؤل أنها ستحبه كثيراً جداً. ولأن إيمان إيبك بإمكانية أن تحب أحداً بالنسبة إليها شعور يتجاوز حبه حقيقة، وحتى أكثر إيجابية من العشق، فقد جهزت نفسها وشعرت بأنها على عتبة حياة جديدة، وسعادة ستستمر طويلاً.

لهذا السبب لم تقلق في الدقائق العشرين التي تلت ذهاب كا: كانت مسرورة أكثر مما هي قلقة من إقفال الغرفة عليها على يد حبيب غيور. كانت تفكر بحقيبتها. تريد أن تحضرها في أسرع وقت ممكن، وبدا لها أنها إذا قضت وقتها بالأغراض التي لاتستطيع التخلي عنها حتى نهاية حياتها فيمكنها أن تترك أباها وأختها بسهولة أكثر من جهة، وستخرج مع كا من قارص دون عثرة أو بلية من جهة أخرى.

عندما لم يعد كا بعد نصف ساعة من غيابه، أشعلت إيبك سيجارة. كانت تشعر بنفسها مخبولة لأنها اعتقدت بأن كل شيء سيكون على ما يرام: وجودها في غرفة مقفلة يؤجج هذا الشعور، ويغضبها من نفسها ومن كا. حين رأت جاويت عامل الاستقبال خارجاً من الفندق راكضاً، أرادت أن تفتح النافذة وتناديه، ولكن الشاب قد ذهب حين أعطت قرارها. وسلّت نفسها بالتفكير بإمكانية عودة كا في أية لحظة.

بعد ذهاب كا بخمس وأربعين دقيقة، ضغطت إيبك على النافذة المتجلدة

فاتحة لها، ورجت شاباً ماراً على الرصيف ـ طالب سارح من طلاب الأئمة والخطباء لم يؤخذ إلى مسرح الشعب ـ بأن يخبر الذين في مدخل الفندق بأنها بقيت في الغرفة رقم ٣٠٢ مقفولاً عليها. قابلها الشاب بشبهة، ولكنه دخل، بعد قليل رنّ الهاتف.

قال السيد طورغوت: «ماذاتفعلين هناك؟ إذا كان قد قفل عليك فلماذا لاتتصلين؟» بعد دقيقة فتح والدها الباب بالمفتاح الاحتياطي. قالت إيبك للسيد طورغوت بأنها أرادت أن تذهب إلى مسرح الشعب مع كا، ولكنه أقفل عليها باب غرفته لكي لايرمي بها إلى المخاطر، واعتقدت بأن هواتف الفندق لاتعمل بسبب انقطاع الهواتف التي في المدينة.

قال السيد طورغوت: «هواتف المدينة صارت تعمل.»

قالت إيبك: «مضى زمن طويل على ذهاب كا، قلقت. لنذهب إلى المسرح ونرى ما حدث لقديفة وكا.»

على الرغم من أنهماكهما كله فقد استغرق خروج السيد طورغوت من الفندق وقتاً طويلاً. بداية لم يجد قفازيه، بعد ذلك قال بأن صوناي يمكن أن يفهمه خطأ إذا لم يربط ربطة عنق. وفي الطريق كان يطلب من إيبك أن تبطيء مسيرها لأن قوته لاتساعده من جهة، ولكي تستمع إلى نصائحه بدقة من جهة أخرى.

قالت إيبك: «احذر أن تعارض صوناي. ولا تنس أنه بورجوازي صغير حصل على قوة خاصة جداً.»

عندما رأى السيد طورغوت عند باب المسرح جموع الفضوليين، والطلاب المجلوبين بالحافلات، والباعة المتحسرين على جمع كهذا منذ فترة طويلة، والشرطة، والجيش، تذكر الانفعال الذي كان ينفعله أيام شبابه في هذا النوع من الاجتماعات السياسية. وبينما كان يمسك بذراع ابنته بقوة أكبر، تلفت فيما حوله بنظرة نصفها سعادة ونصفها خوف جاعلاً من نفسه جزءاً من هذه الحركة للفصل بين إفساح المجال لجدال حولها أو التمسك بها. عندما شعر بأن الجمع غريب جداً زاحم، ودفع بفظاظة أحد الشبان الذين يسدّون الباب، وخجل فوراً مما عمله.

لم تكن الصالة قد امتلأت بعد ولكن إيبك شعرت بأن المسرح سيكون

بعد قليل مثل يوم الحشر، وأن الذين تعرفهم كلهم هم وسط هذا الزحام كالحلم. قلقت عندما لم تر قديفة وكا. سحبهما نقيب إلى طرف.

تدخل السيد طورغوت بصوت متماسك قائلاً: «أنا والد قديفة يلضدز بطلة المسرحية. عليّ أن ألتقيها في أقرب فرصة ممكنة.»

تصرف السيد طورغوت كأب يتدخل في اللحظة الأخيرة في أمر ابنته التي تلعب دور البطولة في مسرحية للمرحلة الدراسية الثانوية، وانهمك النقيب مثل معلم أعطى الحق للأب فيريد مساعدته. بعد ان انتظرا في غرفة علقت على جدرانها صور أتاتورك وصوناي، ورأت إيبك أختها داخلة وحدها إلى الغرفة فهمت بأن أختها ستصعد إلى الخشبة هذا المساء مهما فعلا.

سألت إيبك عن كا. قالت قديفة بأنه عاد إلى الفندق بعد أن تحدث معها. قالت إيبك بأنهما لم يلتقيا به في الطريق، ولكنها لم تتوقف عند هذا الموضوع. لأن السيد طورغوت بدأ يتوسل لقديفة ألا تصعد إلى خشبة المسرح بعينين تذرفان.

قالت قديفة: «في هذا الوقت، وبعد كل هذه الاعلانات فإن عدم صعودي إلى خشبة المسرح أكثر خطورة من صعودي يا أبي العزيز.»

«تعرفين يا قديفة كيف سيغضب طلاب الأئمة والخطباء، وكم سُيكن لك من حقد عندما ستكشفين رأسك، أليس كذلك؟»

«بصراحة يا أبي العزيز يتهيأ لي بأن قولكم لي بعد هذه السنوات: لاتكشفي رأسك! كأنه نوع من المزاح.»

قال السيد طورغوت: «ليس هنالك مزاح يا عزيزتي قديفة. قولي لهم بأنك مريضة.»

«لستُ مريضة..»

بكى السيد طورغوت قليلاً. شعرت إيبك في إحدى زوايا عقلها بأنها لم تصدق دموع أبيها لأنه يذرفها كلما أراد التركيز على جانب عاطفي يجده للموضوع. كان ثمة جانب في عيش السيد طورغوت لألمه سطحي وصادق أشعر أيبك أن بإمكانها أن تذرف الدموع لسبب معاكس له تماماً. إن هذه الخصوصية التي تجعل أباهما طيباً ومحبباً «حقيقة» إلى حد الخجل بجانب الموضوع الذي يريدون التحدث فيه.

سألت إيبك هامسة: «متى خرج كا؟»

قالت قديفة بالانتباه ذاته: «يجب أن يكون قد وصل إلى الفندق منذ زمن.»

نظرت كل منهما إلى عيني الأخرى بخوف.

بعد أربع سنوات قالت لي إيبك في محل الحياة الجديدة للمعجنات بأنهما كانتا تفكران بكحلي وليس بكا، وفهمتا هذا من نظرتيهما، وخافتا، أما بالنسبة لأبيهما فلم تعيراه اهتماماً أبداً. فسرتُ اعترافات إيبك هذه بأنها محاولة للاقتراب مني، وأشعر أنه لامفر من رؤيتي للحكاية من منظورها.

خيّم صمت بين الأختين.

قالت إيبك: «أخبرك بأن كحلياً أيضاً لايريد هذا، أليس كذلك؟»

ألقت قديفة نظرة إلى أختها بمعنى: «سمع أبي». نظرتا إلى أبيهما، وفهمتا أن السيد طورغوت تابع همس ابنتيه بانتباه وهو يذرف الدموع، وأنه سمع كلمة: كحلي.

«أبي العزيز، نريد أن نتحدث هنا أخت وأختها مدة دقيقتين.»

قال السيد طورغوت: «عقلكما دائماً يفوق عقلي.» وخرج من الغرفة، ولكنه لم يغلق الباب خلفه.

قالت إيبك: «هل فكرت جيداً يا قديفة؟»

قالت قديفة: «فكرتُ جيداً.»

قالت إيبك: «أعرف أنك فكرت جيداً، ولكن يمكن ألا ترينه مرة أخرى.»

قالت قديفة: «لا أعتقد. أنا غاضبة جداً منه.»

استحضرت إيبك أمام عينيها تاريخاً طويلاً ذا حرمة عبر الغضب والمصالحة والتمرد والهبوط والصعود بين قديفة وكحلي. كم سنة؟ لم تستطع حساب هذا تماماً. لم تكن تريد أن تسأل نفسها أبداً عن المدة التي أدار بها كحلي كلهيما هي وقديفة. وللحظة فكرت بحب كا الذي سينسيها كحلياً في ألمانيا.

في إحدى لحظات الشعور الخاص المتطور بين الأختين شعرت قديفة

بما تفكر به أختها، فقالت: «كا يغار من كحلي كثيراً، ويعشقك كثيراً.»

قالت إيبك: «لم أكن أؤمن بأنه يمكن أن يعشقني هكذا في فترة قصيرة كهذه. ولكنني الآن أؤمن.»

«اذهبي معه إلى ألمانيا.»

قالت إيبك: «نعم، سأحضر حقيبتي فور عودتي. هل تؤمنين حقيقة بإمكانية أن أسعِد كا وأنا في ألمانيا؟»

قالت قديفة: «أؤمن. ولكن عليك بعد الآن ألا تخبري كا بالماضي. إنه منذ الآن يعرف الكثير، ويشعر بوجود الأكثر.»

شعرت إيبك بالكره لموقف قديفة المنتصر والمبدي أنها تعرف الحياة أكثر من أختها. قالت: «تتكلمين وكأنك لن تعودي إلى البيت أبداً.»

قالت قديفة: «أنا طبعاً سأعود، ولكنني أعتقد بأنك ستذهبين فوراً.»

«هل لديك فكرة حول المكان الذي من الممكن أن يذهب إليه كا؟»

حين تبادلتا النظر شعرت إيبك بأنهما تخافان مما خطر ببالهما كليهما.

قالت قديفة: «عليّ أن أذهب. يجب أن أعمل مكياجاً.»

قالت إيبك: «أنا فرحة لأنك ستتخلصين من معطفك المطري البنفسجي أكثر من كشفك لرأسك.»

طيّرت قديفة أطراف معطفها المطري القديم النازل إلى قدميها مثل غطاء كامل بحركتين راقصتين..

تعانقت الأختان اللتان رأتا أنهما جعلتا السيد طورغوت ينظر إليهما من فرجة الباب وتبادلتا القبل.

يجب أن يكون السيد طورغوت قد قبل منذ زمن صعود قديفة إلى خشبة المسرح. هذه المرة لم يذرف الدموع، ولم يقدم النصائح. احتضن ابنته، وقبلها، وأراد أن يخرج من زحام صالة المسرح في أقرب فرصة ممكنة.

كانت إيبك عند باب المسرح المزدحم، وفي طريق العودة مفتحة عينيها عشرة على عشرة لعلها ترى كا، أو من تستطيع أن تسأله عنه، ولكن لم يلفت نظرها شيء على الأرصفة، فيما بعد قالت لي: «بالطريقة التي يتشاءم بها كا

تحسباً لما يمكن حدوثه، وأنا كنت للأسباب العبثية نفسها على الأغلب متفائلة جداً على مدى الدقائق الخمس والأربعين التالية.»

جلس السيد طورغوت مباشرة أمام التلفاز، وبينما كان ينتظر البث المباشر المعلن عنه بشكل دائم حضرت إيبك حقيبتها التي ستأخذها إلى ألمانيا. وبدل أن تفكر بالمكان الذي يمكن أن يكون كا فيه، بدأت تتخيل كيف ستكون سعيدة في ألمانيا في أثناء انتقاء ألبستها وأغراضها من خزانتها. وغير الذي فكرت بأخذه معها إلى ألمانيا، كانت تدس في حقيبتها جواربها وألبستها الداخلية على الرغم من اعتقادها بوجود «أفضل منها بكثير في ألمانيا»، وبدافع داخلي في أثناء ذلك نظرت عبر النافذة فرأت الشاحنة العسكرية التي أتت أكثر من مرة لأخذ كا تقترب من الفندق.

نزلت إلى الأسفل. كان أبوها عند الباب قال عنصر حليق منقاري الأنف تراه أول مرة: «طورغوت يلضنر» وناول إياه ظرفاً مغلقاً.

حين فتح السيد طورغوت الظرف بيدين مرتجفتين، ووجه مثل الرماد، ظهر مفتاح في داخله. حين عرف أن الرسالة التي يقرؤها هي لابنته، أنهاها ثم ناولها لإيبك.

بعد أربع سنوات أعطتني إيبك تلك الرسالة لتدافع عن نفسها من جهة، ولأنها تريد صادقة أن تقدم الحقيقة فيما سأكتبه عن كا.

الخميس ـ الساعة الثامنة

السيد طورغوت. أخرجوا إيبك من غرفتي بواسطة هذا المفتاح، وإذا أعطيتموها هذه الرسالة سيكون الأمر جيداً لجميعنا. أرجو أن تعذروني يا سيدي. مع احترامي.

روحي. لم أستطع إقناع قديفة. لقد جلبني الجنود إلى هنا، إلى المحطة لحمايتي. فتح طريق إرضروم. إنهم يبعدونني إجبارياً في القطار الأول المنطلق في التاسعة والنصف، يجب أن تحضري لي حقيبتي وتأتي بها وبحقيبتك أيضاً. ستأتي السيارة العسكرية في التاسعة والربع لأخذك. إحذري من الخروج إلى الشارع. تعالي.

أحبك كثيراً. سنكون سعداء.

قال ذو الأنف المنقاري بأنه سيأتي بعد التاسعة، وذهب.

سأل السيد طورغوت: «هل ستذهبين؟»

قالت إيبك: «أتوق لمعرفة ما حدث له.»

«العسكر يحمونه. لن يحدث له شيء. هل ستتركيننا وتذهبين؟»

قالت إيبك: «أنا مؤمنة بأنني سأكون معه سعيدة. وقديفة أيضاً قالت هذا.»

وكأن دليل السعادة هناك في الرسالة التي بيدها. قرأتها مجدداً، وبعد ذلك بدأت تبكي. ولكنها لم تستنتج تماماً سبب ذرفها للدموع. قالت لي بعد سنوات: «لعل السبب هو أنني سأترك أبي وأختي.» رأيت أن إيبك تربط حكايتها الذاتية بإحساسي بأنها تحكي ما شعرت به في تلك اللحظة وبتفاصيله كلها. بعد ذلك قالت: «ولعلني كنت خائفة من الشيء الآخر الذي في عقلي.»

بعد أن صبّبت إيبك دموعها، ذهبت مع أبيها إلى غرفتها، وألقيا نظرة أخيرة على الأغراض التي ستوضع في حقيبتها. بعد ذلك ذهبا إلى غرفة كا، ووضعا أغراضه كلها في حقيبته اليدوية الكبيرة بلون الكرز الحامض. هذه المرة يأتي الاثنان على ذكر المستقبل بتفاؤل. كانا يتبادلان الحديث حول إمكانية إنهاء قديفة معهدها بسرعة ـ إن شاء الله ـ بعد ذهاب إيبك، وأن السيد طورغوت سيذهب مع إبنته إلى فرانكفورت لزيارة إيبك.

حين جهزت الحقيبة، نزلا، وجلسا مقابل التلفاز لمتابعة قديفة.

قال السيد طورغوت: «أرجو من الله أن تكون المسرحية قصيرة، فترين قبل ركوبك القطار أن الأمر قد انتهى دون بلاء أو حادث.»

جلسا أمام التلفاز دون أن يتكلما بأي شيء. وفعلا ما يفعلانه دائماً أثناء متابعتهما لماريانا مندسين ببعضهما بعضاً جيداً. ولكن إيبك لم يكن عقلها فيما تتابعه في التلفاز. لم يبق في عقلها من ربع الساعة الأولى التي تابعاها من البث المباشر بعد هذه السنوات كلها سوى ظهور قديفة على الخشبة مغطاة الرأس مرتدية ثوباً أحمرَ طويلاً جداً، وقولها: «كما يريدون يا أبي العزيز.» ولأنها أدركت بأنني أتوق لمعرفة ما كانت تفكر به في تلك الأثناء، قالت:

«بالطبع كان عقلي في مكان آخر.» وحين كررت عليها سؤالي عن ذلك المكان، فحدثتني عن سفر القطار الذي ستسافره مع كا، وبعد ذلك، عن خوفها. ولكنها لم تقل لي عن سبب خوفها بالضبط، لن تستطيع أن تشرح لي هذا بالضبط بعد هذه السنوات كلها. تفتحت نوافذ عقلها كلها، وتتلقى ماحولها كله خارج شاشة التلفاز، وهي تنظر وكأنها عائدة من سفر طويل، وترى مندهشة بأن غرفتها غريبة وصغيرة ومختلفة وقديمة، وتنظر مندهشة أيضاً إلى الأغراض من حولها والطاولة الصغيرة، وثنيات الستائر. وقالت لي بأنها سمحت لحياتها بأن تذهب إلى مكان مختلف تماماً اعتباراً من تلك الليلة، وفهمت هذا من خلال نظرها إلى أغراض بيتها كغريبة. وكما شرحت لي هذا في محل الحياة الجديدة للمعجنات، فإنه بالنسبة إلى إيبك دليل أكيد على أنها قررت الذهاب إلى فرانكفورت مع كا.

حين قرع باب الفندق هرعت إيبك، وفتحته، لقد جاءت السيارة العسكرية التي ستأخذها إلى المحطة باكراً. ذهبت راكضة، وجلست بجانب أبيها، وعانقته بقوتها كلها.

قال السيد طورغوت: «هل جاءت السيارة؟ إذا كانت حقيبتك جاهزة، فهنالك وقت.»

نظرت إيبك مدة إلى صوناي الظاهر في الشاشة سارحة. لم تستطع الثبات في مكانها، فركضت. إلى الداخل، وبعد أن ألقت شحاطها، وحقيبة الخياطة ذات السحاب الموجودة في النافذة في حقيبتها، جلست لدقائق على حافة السرير، وبكت.

بحسب ما شرحته لي فيما بعد، فقد كانت قد قررت بشكل أكيد ترك قارص مع كا حين عادت. ولأنها رمت من داخلها سم الشك والتردد فقد كانت مرتاحة. وكانت تريد أن تقضي دقائقها الأخيرة في المدينة بجانب أبيها تتابع التلفاز.

حين قال جاويت العامل في الاستقبال بأن أحدهم بالباب لم تضطرب إيبك أبداً. وكان قد طلب السيد طورغوت من ابنته أن تخرج زجاجة كوكا كولا من الثلاجة، وأن تجلب كأسين ليتقاسماها.

قالت لي إيبك بأنها لن تنسى أبداً وجه فاضل الذي رأته عند باب

المطبخ. كانت عيناه تقولان بأن كارثة كبرى قد حدثت من جهة، وأمراً آخر لم تشعر به إيبك من قبل، وهو أن فاضلاً يرى نفسه واحداً من أفراد الأسرة، وقريباً جداً من جهة أخرى.

قال فاضل: «قتلوا كحلياً وهاندا» شرب نصف قدح الماء الذي قدمته له زاهدة، وأضاف: «لا أحد غير كحلي يمكنه أن يمنعها.»

بينما كانت إيبك تنظر دون أن تتحرك، بكى فاضل قليلاً. وقال بأنه ذهب إلى هناك بدافع داخلي، وبأن كحلياً كان مختبئاً مع هاندا، وفهم من مشاركة عدد من الجنود بأن المداهمة تمت بموجب بلاغ. إن لم يكن بلاغاً لما ذهب الجنود بذلك العدد. لايمكن أن يكونوا تتبعوه. لأن فاضلاً حين وصل إلى هناك كان كل شيء قد انتهى. وقال فاضل بأنه رأى مع الأولاد القادمين من البيوت المحيطة جثة كحلي تحت أنوار البروجكتورات العسكرية.

قال فيما بعد: «هل يمكنني البقاء هنا؟ لا أريد الذهاب إلى مكان آخر.»

أخرجت له إيبك كأساً أيضاً. وفتحت دروجاً بالخطأ، وخزائن لاعلاقة لها بالأمر وهي تبحث عن فتاحة الزجاجات. تذكرت أنها وضعت (البلوز) المزهر التي كانت ترتديه حين رأت كحلياً أول مرة في الحقيبة. أدخلت فاضلاً. وأجلسته على الكرسي المجاور لباب المطبخ الذي جلس عليه كا مساء الثلاثاء وكتب قصيدة تحت أنظار الجميع. بعد ذلك توقف الألم المنتشر كالسم فجأة، واستمعت مثل المريض: وبينما كان فاضل يتابع قديفة على الشاشة صامتاً ومن بعيد قدمت له إيبك قدح كوكا كولا أولاً ثم قدمت قدحاً آخر لأبيها. جانب من عقلها يرى ما تفعله هذا كله كآلة تصوير ترصدها من الخارج.

ذهبت إلى غرفتها. وقفت دقيقة في الظلام.

أخذت حقيبة كا من الطابق الأعلى، خرجت إلى الشارع الجو بارد في الخارج. وقالت للعنصر المدني الذي في السيارة العسكرية المنتظرة عند الباب بأنها لن تترك المدينة.

قال العنصر: «كنا سنأخذك لتركبي في القطار.»

«تراجعت. لن آتي. أشكركم. أعطوا هذه الحقيبة للسيد كا لطفاً.»

بعد أن جلست بجانب أبيها مباشرة سمعوا هدير السيارة العسكرية.

قالت إيبك لأبيها: «أنا أرسلتهم. لن أذهب.»

احتضنها السيد طورغوت. وتابعا المسرحية المعروضة على الشاشة فترة دون فهم شيء. وبينما كان الفصل الأول على وشك النهاية، قالت إيبك: «لنذهب إلى قديفة. لدي ما أقوله لها.»

[٤٣]

النساء ينتحرن من أجل الكرامة

الفصل الأخير

الشيء الذي استمده صوناي بإلهام من مسرحية توماس كيد المعنونة (تراجيديا إسبانيا) متأثراً بتأثيرات أخرى كثيرة حول اسمه في اللحظة الأخيرة. لم ينتبه غالبية المتجمهرين الذين في المسرح والقادمين بعضهم بالحافلات تحت إشراف الجيش، وبعضهم مؤمن بإعلانات التلفاز وطمأنة الإدارة العسكرية، وبعضهم يريد أن يرى ما يحدث بأعينهم (راجت في المدينة شائعة بأن البث «المباشر» في الحقيقة مسجل، وهذا التسجيل قد جاء من أمريكا)، وغالبيتهم من الموظفين القادمين إجبارياً (هذه المرة لم يجلبوا عائلاتهم) ـ لم ينتبهوا ـ إلى هذا الاسم. وحتى لو انتبهوا فإنهم كغالبية سكان المدينة المتفرجين دون فهم أي شيء من الصعب أن يربطوه «بالمسرحية».

من الصعب تلخيص الفصل الأول من (تراجيديا في قارص) التي أخرجتها من أرشيف فيديو تلفزيون قارص سرهات بعد أربع سنوات من عرضها الأول والأخير. ثمة قضية ثأر في بلدة «متخلفة، وفقيرة، وغبية» ولكن لا تشرح سبب قتل الناس بعضهم بعضاً، ولا الأمر الذي يتقاتلون من أجله، ولايسأل القتلة، والمقتولون مثل الذباب سؤالاً حول هذا الموضوع. صوناي فقط يغضب من الشعب لأنه منجرف وراء أمر متخلف هو الثأر، ويتنازع مع زوجته حول هذا الأمر، ويبحث عن مفهومه في امرأة ثانية شابة: (قديفة). صوناي يمثل شخصية غنية ومثقفة وصاحبة سلطة، ولكنه يرقص لشعبه، ويمازحه، ويناقش بعلم معنى الحياة، وبنوع من المسرحية داخل مسرحية يمثل لهم مشاهد من شكسبير، وفيكتور هيغو، وبريشت، غير هذا وزع في

أمكنة مختلفة من المسرح بعدم انتظام طبيعي مشاهد قصيرة عن المرور في المدينة، وآداب المائدة، والخصوصيات التي لم يستطع الأتراك والمسلمون التخلي عنها، وجيشان الثورة الفرنسية، وفوائد اللقاح، والواقي الجنسي، مشروب العرق، ورقص هز البطن للعاهرات الغنيات، وأن الشامبو، والمواد التجميلية ليست سوى ماء مصبوغ.

كان أداء صوناي المتعلق بالتمثيل بشكل كبير جداً هو الأمر الوحيد الذي يربط المتفرجين القارصيين بالخشبة، ويجمع المسرحية الملخبطة جداً لكثرة دخول التفريدات والارتجالات. وفي الأماكن التي تصير فيها المسرحية ثقيلة يغضب فجأة عبر المواقف التي يتذكرها من أفضل لحظات حياته المسرحية، ويطلق ما يأتي على لسانه على الذين أوقعوا البلد والشعب في هذه الحال، وبينما يمشي وهو يعرج من طرف الخشبة هذا إلى طرفها ذاك يحكي عن ذكريات شبابه، وماكتبه مونتاين حول الصداقة، ومقدار الوحدة التي عاشها في الحقيقة أتاتورك. وجهه يتصبب عرقاً. شرحت لي المعلمة السيدة نورية المتعلقة بالمسرح والتاريخ، والتي تفرجت عليه بإعجاب أيضاً قبل ليلتين بأن رائحة العرق التي تفوح من فم صوناي تُشَمُّ جيداً من الصف الأول، وبالنسبة إليها فإن هذا لايعني أنه ثمل بل يعني أنه منتشٍ. قال موظفو الدولة المتوسطو العمر، والنساء الأرامل، والأتاتوركيون والمغامرون والتواقون إلى السلطة الشابة الذين تفرجوا على مشاهده في التلفاز منذ الآن مئات المرات بأن نوراً شعّ منه على الصفوف الأولى وأنه من المستحيل النظر إلى عينيه مدة طويلة.

قال مسعود أحد طلاب ثانوية الأئمة والخطباء المجلوبين إلى مسرح الشعب بواسطة الشاحنات العسكرية (وهو يعارض دفن الملحدين والمؤمنين في مقبرة واحدة) بعد سنوات بأنه شعر بتلك الجاذبية التي لدى صوناي. لعله استطاع الاعتراف بهذا لأنه عمل داخل مجموعة إسلامية تقوم بعمليات مسلحة أربع سنوات في أرضروم وبعد أن شعر بخيبة أمل عاد إلى قارص، وبدأ يعمل في مقهى. بالنسبة إليه فإن هنالك شيئاً من الصعب تفسيره يربط شباب ثانوية الأئمة والخطباء بصوناي. كان صوناي صاحب سلطة مطلقة يريدها هؤلاء، ولعل هذا هو الشيء، أو لعله خلصهم من هم التمرد الخطير بالقوانين التي وضعها، قال لي: «في الحقيقة إن الجميع يفرحون سراً إثر الانقلابات العسكرية

كلها». وبالنسبة إليه أيضاً فإن صوناي على الرغم من امتلاكه تلك القوة كلها فإن صعوده إلى الخشبة، وتقديم نفسه بهذا الصدق كله أثّر على الشباب.

ولكنني بعد سنوات في أثناء متابعتي لتسجيل الفيديو لتلك الأمسية في تلفزيون قارص سرهات، شعرت بأن التوتر بين الأب والابن، وبين السلطة والمذنب قد نُسي، ودفن كل شخص بذكرياته المخيفة وخيالاته وسط صمت عميق، وبوجود الإحساس بـ «نحن» الساحر الذي لايمكن لأحد فهمه سوى الذين يعيشون في دول قومية متطرفة مليئة بالقمع. بفضل صوناي وكأنه لم يبق «غريب» في الصالة، كل شخص ارتبط بالآخر بواسطة حكاية مشتركة.

كانت قديفة التي لم يعتد القارصيون بأي شكل على وجودها على الخشبة هي التي تخرب هذا الشعور. مع أن مصور البث المباشر على ما يبدو شعر بهذا، ففي اللحظات الجياشة كان يركز على صوناي، ولايقترب من قديفة أبداً. كان متفرجو قارص يرونها مجرد قائمة على الخدمة للأقوياء صانعي الأحداث في الكوميديا الشعبية. مع أن المتفرج يتوق كثيراً لما ستفعله قديفة لأنه أُعلن منذ ساعات الظهيرة بأنها ستكشف عن رأسها في مسرحية المساء. انتشرت شائعات كثيرة حول أن قديفة ستقوم بهذا العمل تحت ضغط العسكر، وأنها لن تصعد إلى الخشبة أو ماشابه ذلك، وحتى الذين سمعوا بنضال فتيات الإشاربات ولم يسمعوا باسمها أبداً فقد عرفوا قديفة خلال نصف يوم. لهذا السبب فقد خاب أملهم في البداية من ضعفها على الخشبة، وظهورها مغطاة الرأس حتى ولو كانت ترتدي ثوباً أحمر طويلاً.

بعد عشرين دقيقة من بدء المسرحية فهموا بأن أموراً تنتظر من قديفة من حوار يتطور بينها وبين صوناي: في أثناء بقائهما وحدهما على الخشبة في إحدى اللحظات سألها صوناي عما إذا كانت «مصممة أم لا». وقال لها: «أنا أجد أنه لايمكن قبول قتلك نفسك نتيجة غضبك من الآخرين.»

قالت قديفة: «الرجال في هذه المدينة يقتلون بعضهم بعضاً مثل الحيوانات، وبينما يقولون بأنهم يفعلون هذا من أجل سعادة المدينة، من يستطيع التدخل بقتلي لنفسي.» ثم ابتعدت عن فوندا أسر الداخلة إلى الخشبة كأنها تهرب.

بعد أربع سنوات كنت أستمع لكل شخص استطعت التحدث معه حول

ما حدث في ذلك المساء ماسكاً ساعة، وبينما كنت أرتب الأحداث دقيقة دقيقة، حسبت بأن هذا المشهد الذي قالت فيه قديفة هذه الجملة هو آخر مشهد رآه كحلي. لأنه بحسب الجيران الذين حكوا لي عن المداهمة، وعناصر الأمن الذين مازالوا يعملون في قارص، فإنه حين طرق الباب كان كحلي وهاندا يتابعان التلفاز. وبحسب التصريحات الرسمية فإن كحلياً حين رأى أمامه قوى الأمن والجنود هرع إلى الداخل وتناول سلاحه، وبدأ بإطلاق النار. أما بالنسبة إلى الجيران وبعض الإسلاميين الشباب الذين جعلوا من كحلي اسطورة خلال فترة قصيرة فإنه صرخ قائلاً: «لاتطلقوا النار!» وأراد بهذا إنقاذ هاندا، ولكن الفرقة الخاصة بقيادة ز.دميرقول خلال دقيقة واحدة لم تترك مكاناً دون ثقب ليس في كحلي وهاندا فقط، بل في البيت كله، وعلى الرغم من الصخب الهائل فلم يهتم أحد من الجيران بالأمر غير بضعة أولاد فضوليين. وهذا ليس بسبب اعتياد القارصيين على مداهمات من هذا النوع ليلاً فقط، بل لأن أحداً من القارصيين لايمتلك إمكانية الاهتمام بغير البث المباشر من مسرح الشعب. الأرصفة كلها فارغة، أبواب الدكاكين كلها مغلقة، المقاهي مغلقة عدا القليل جداً منها.

معرفة صوناي بأن العيون كلها في المدينة تتطلع إليه منحته ثقة وقوة غير عاديتين. ولشعور قديفة بأنها لاتستطيع أن تأخذ مكاناً على الخشبة إلا بالقدر الذي يسمح به صوناي فقد كانت تندس به أكثر، وكانت تشعر بأنها لاتستطيع أن تفعل شيئاً إلا مستفيدة من همس صوناي. ولأنها فيما بعد ـ على عكس أختها ـ هربت من الحديث عن تلك الليلة، فمن غير الممكن معرفة ما كان يخطر ببالها. لقد بدأ القارصيون تدريجياً بالتفاعل مع قديفة خلال ثلاثة أرباع الساعة حين برز تصميمها في موضوع الانتحار وكشف رأسها. ومع بروز قديفة في المسرحية كانت المسرحية تتحول من الانفعال التعليمي والانتقادي الساخر نحو دراما أكثر جدية. شعر الجمهور بأن قديفة تمثل فتاة جريئة جاهزة للإقدام على أي شيء لأنها سئمت الضغوط. وعلى الرغم من عدم نسيان هوية «قديفة فتاة الإشارب» فإن الشخصية الجديدة التي مثلتها في تلك الليلة قبلتها من قلبها، وهذا ما قاله كثير من الأشخاص الذين تحدثت معهم، وحزنوا من أجل قديفة طوال هذه السنين. عندما تظهر قديفة على الخشبة

يحدث صمتٌ عميق، والأولاد الذين يتابعون التلفاز في البيوت يسألون بعضهم بعضاً بعد حوارها: «ماذا قالت، ماذا قالت؟»

في واحدة من فترات الصمت هذه سُمِعَ صوت صفير أول قطار يغادر المدينة بعد أربعة أيام. عندما رأى صديقي الحبيب بأن إيبك لم تكن في السيارة العسكرية، ولم تأت سوى حقيبته، ألح كثيراً على الجنود الذين يحمونه من أجل أن يلتقيها، وعندما لم يستطع الحصول على هذا الإذن أقنعهم بعودة السيارة مرة أخرى إلى الفندق، وحين عادت السيارة فارغة توسل للضباط بأن يؤخروا القطار خمس دقائق أخرى، وعندما لم تظهر إيبك، وأطلقت صافرة القطار بدأ كا يبكي، عند تحرك القطار كانت عيناه الدامعتان تبحثان في زحام صالة المحطة، وعند بابها الآخر المطل على تمثال كاظم قرة بكر عن امرأة طويلة نسبياً يتخيل أنها حاملة حقيبة وتسير نحوه.

أطلق القطار المتسارع صافرته مرة أخرى. في تلك الأثناء كانت إيبك والسيد طورغوت قد خرجا من فندق ثلج بالاس ويسيران نحو مسرح الشعب. قال السيد طورغوت: «القطار ينطلق.» قالت إيبك: «نعم الطرق ستفتح قريباً، ويعود المحافظ وقائد الموقع إلى المدينة.» وأضافت بأن الانقلاب العسكري العبثي هذا سينتهي قريباً، وسيعود كل شيء إلى حاله. ولكنها لم تقل تلك العبارات لأنها مهمة، بل لاعتقادها بأنها إذا صمتت فإن والدها سيعتقد بأنها تفكر بكا. حتى هي نفسها لاتعرف بالضبط المقدار الذي انشغل فيه عقلها بكا، والمقدار المنشغل بموت كحلي. كان في عقلها غضب قوي من كا، وفي قلبها ألم شديد أكثر من فرصة سعادة مفوتة. بعد أربع سنوات لديها شك قليل جداً بأسباب الغضب الذي شعرت به. وبينما كانت تناقش معي تلك الأسباب دون إرادة وإثر إبدائي شكوكاً قالت لي بأنها ستكون قلقة، وقد أكدت بأنه من المستحيل أن تستطيع حب كا مرة أخرى بعد تلك الليلة. وحين كان القطار الذي يأخذ كا يطلق صفيره مغادراً قارص، لم يكن لدى إيبك نحوه سوى شعور بقلب مكسور، ولعلها تشعر أيضاً بقليل من الحيرة. همها الأساسي حينئذ هو مشاركة قديفة آلامها.

شعر السيد طورغوت بأن ابنته قلقة من الصمت، فقال: «كأن المدينة مهجورة.»

ولمجرد أن ترد إيبك قالت: «مدينة أشباح.»

عبرت قافلة عسكرية مؤلفة من ثلاث آليات من أمامهما بعد انعطافها من الزاوية. قال السيد طورغوت بأن هذه الآليات استطاعت المجيء لأن الطرق قد فتحت. ولمجرد تمضية الوقت نظر إلى أضواء القافلة العابرة من أمامهما، والضائعة في الظلام، وبحسب البحث الذي قمت به فيما بعد فإنه كان في (الجيمس) الوسطى جثتا كحلي وهاندا.

رأى السيد طورغوت في ضوء سيارة الجيب القادمة من الخلف أن عدد الغد من جريدة مدينة سرهات معلق على واجهة مكتب الجريدة. توقف وقرأه: «موت على خشبة المسرح. الممثل التركي الشهير صوناي ظائم قتل ضرباً بالنار في أثناء عرض الليلة الماضية.»

بعد أن قرأ الخبر مرتين سارا مسرعين نحو مسرح الشعب. عند باب المسرح كانت هنالك سيارات الشرطة نفسها، وإلى الأمام قليلاً ظل الدبابة نفسه أيضاً.

فُتشا حين دخلا. قال السيد طورغوت بأنه «والد بطلة المسرحية». كان الفصل الثاني قد بدأ. وجد مقعدين فارغين في الصف الأخير، وجلسا.

في هذا الفصل مازال هنالك مشاهد من الممازحات والتسليات التي قضى صوناي عمره بالعمل عليها: تسخر فوندا إسر مما فعله، حتى إنها تهز خصرها قليلاً. ولكن جو المسرحية صار جدياً، وحل الصمت على المسرح، وكثيراً ما صارت تظهر قديفة وصوناي وحدهما على الخشبة.

قال صوناي: «على الرغم من هذا، يجب أن تصرحي لي عن السبب الذي جعلك ستنتحرين؟»

قال قديفة: «الإنسان لايمكن أن يعرف هذا بالضبط.»

«كيف؟»

قالت قديفة: «لو استطاع الإنسان معرفة سبب انتحاره بالضبط، وحدد ذلك السبب بشكل واضح فلن ينتحر.»

قال صوناي: «لا. الأمر ليس على هذا النحو أبداً. بعضهم ينتحر من أجل العشق، وبعضهن لعدم احتمال ضرب أزواجهن، أو لأن الفقر يحز رقابهن كالسكاكين.»

قالت قديفة: «إنك تنظر إلى الحياة بشكل ساذج جداً. بدل أن يقتل نفسه الإنسان من أجل العشق ينتظر قليلاً، فيخف تأثير العشق. والفقر أيضاً ليس سبباً كافياً للانتحار. يمكن تجريب سرقة نقود من مكان ما قبل ذلك، والتي ستنتحر بسبب زوجها تتركه.»

«حسنٌ، ما السبب الرئيس»

«طبعاً، تشكل الكرامة سبباً رئيساً للانتحارات كلها. أو على الأقل فإن النساء ينتحرن لهذا السبب.»

«ألأن كرامتهن أهينت بالعشق؟»

قالت قديفة: «إنك لاتستطيع أن تفهمني. لاتنتحر المرأة بسبب إهانة كرامتها، بل لتري كم هي صاحبة كرامة.»

«ألهذا السبب تنتحر صديقاتك؟»

«أنا لا أتحدث عنهن. لكل شخص أسبابه الخاصة. ولكنني كلما فكرت بقتل نفسي، أشعر بأنهن فكرن مثلي. ولحظة الانتحار هي اللحظة التي تفهم فيها النساء بالشكل الأمثل بأنهن وحيدات وأنهن نساء.»

«هل دفعت صديقاتك إلى الانتحار بهذه العبارات؟»

«انتحرن بقرارهن الحر.»

«ولكن الجميع يعرف بأنه ليس لأحد قرار حر، ويتحرك الجميع من أجل الهرب من الضرب، وللذهاب إلى الجنة لحماية الذات. اعترفي يا قديفة بأنك تفاهمت معهن سراً، ودفعتهن إلى الانتحار.»

قالت قديفة: «ولكن كيف يحدث هذا؟ بانتحارهن صرن أكثر وحدة، بعضهن رفضهن آباؤهن لأنهن انتحرن وحتى إنه لم تُقم صلاة الجنازة على بعضهن.»

«وهل ستقتلين نفسك الآن لإثبات أنهن لسن وحدهن، وأن هذه حركة جماعية؟ إنك تسكتين يا قديفة... ولكنك إذا قتلت نفسك دون أن تبيني سبب فعلتك ألن تفهم رسالتك بشكل خاطئ؟»

قالت قديفة: «لا أريد أن أقدّم رسالة بانتحاري.»

«على الرغم من هذا فإن هنالك كل هذا العدد من الناس يتفرجون

عليك، ويتوقون لمعرفة هذا قولي ما يخطر ببالك الآن على الأقل.»

قالت قديفة: «تنتحر النساء على أمل تحقيق النصر. أما الرجال فيفعلون هذا عندما لايبقى لديهم أمل بالنصر.»

قال صوناي: «هذا صحيح.» وأخرج من جيبه مسدساً ماركة (قرق قلعة). انشد انتباه الصالة كلها على بريق المسدس: «حين أدرك أنني هزمت تماماً، هل تطلقين النار علي بهذا؟»

«أنا لا أريد السقوط في السجن.»

قال صوناي: «ولكن كيفما كان ألن تنتحري فيما بعد؟ وبما أنك ستذهبين إلى جهنم حين تنتحرين يجب عليك أن تكوني غير خائفة من عقاب هذه الدنيا أو تلك.»

قالت قديفة: «المرأة تقتل نفسها من أجل هذا بالضبط. لكي تهرب من أنواع العقاب كلها.»

قال صوناي بموقف استعراضي ملتفتاً نحو المتفرجين: «أريد أن تكون نهايتي على يد امرأة كهذه في لحظة شعوري بالهزيمة.» سكت قليلاً. وبدأ يحكي حكاية حول شبق أتاتورك في اللحظة التي شعر بأن الجمهور بدأ يتململ.

حين انتهى الفصل الثاني خرج السيد طورغوت مع إيبك إلى الكواليس، ووجدا قديفة. الغرفة الواسعة التي حضرها في يوم ما لاعبو الخفة القادمون من موسكو، وبطرسبورغ، والممثلون الأرمن الذين يمثلون موليير، والراقصات والموسيقيون الخارجون إلى أرجاء روسيا، هي الآن باردة مثل الجليد.

قالت قديفة لإيبك: «كنت أعتقد بأنك ستذهبين.»

قال السيد طورغوت: «أنا أفخر بك يا روحي. كنت رائعة.» واحتضنها «لو كان قد أعطاك المسدس قائلاً: أطلقي النار علي، كنت سأنهض قاطعاً المسرحية، وسأصرخ: احذري يا قديفة، لاتطلقي النار.»

«لماذا؟»

قال السيد طورغوت: «يمكن أن يكون السلاح محشواً!» وحكى لها عن

الخبر الذي قرأه في جريدة مدينة سرهات. وقال: «لست خائفاً لأن الأخبار التي يكتبها السيد سردار على أمل أن تحدث فإنها تحدث. أغلب تلك الأخبار تظهر بأنها خاطئة. ولكنني قلق لمعرفتي بأن خبراً فيه ادعاء كهذا لايمكن أن يكتبه سردار دون موافقة صوناي. من الواضح أن صوناي جعله يكتبه. ويمكن ألا يكون دعاية. لعله يريد أن يجعلك تقتلينه على الخشبة. ابنتي، روحي، احذري من إطلاق المسدس قبل التأكد أنه فارغ! احذري من كشف رأسك من أجل هذا الرجل. إيبك لن تذهب. سنعيش مدة أطول في هذه المدينة، فلا تغضبي المتدينين دون سبب.»

«لماذا تخلت إيبك عن الذهاب؟»

قال السيد طورغوت ممسكاً بيدي قديفة: «لأنها تحب أباها، وتحبك، وتحب أسرتها أكثر».

قالت إيبك: «أبي العزيز، هل يمكننا أن نتحدث وحدنا مرة أخرى؟» وفور قولها هذا رأت خوفاً قد غطى وجه قديفة. وبينما كان السيد طورغوت يندس بصوناي وفوندا أسر الداخلين من الطرف الآخر للغرفة المرتفعة السقف والمغبرة، احتضنت إيبك بقوتها كلها قديفة. رأت أن حركتها هذه استفزت مخاوف الأخت الصغيرة، فأمسكتها من يدها، وسحبتها إلى فاصل خاص مفصول بستارة. خرجت من هنا فوندا أسر حاملة زجاجة كونياك وكؤوساً.

قالت: «كنت جيدة جداً يا قديفة. خذا راحتكما.»

أجلست إيبك قديفة المتبددة آمالها تدريجياً. جذبت بؤبؤي عينيها إلى بؤبؤي عيني أختها، ونظرت إليها نظرة تقول بأن لديها خبراً سيئاً، فيما بعد قالت: «قتل كحلي وهاندا في مداهمة.» للحظة انسحب نظر قديفة إلى داخلها. قالت: «هل كانا في البيت نفسه؟ من أخبرك؟» ولكنها سكتت حين رأت تعبير الحزم على وجه إيبك.

«أخبرنا فاضل من شباب الأئمة والخطباء، وصدقته فوراً. لأنه رآهما بعينه. . .» انتظرت قليلاً لتتقبل قديفة الخبر بعدما صار وجهها شاحباً، وتابعت بسرعة: «كان كا يعرف مكان كحلي. لم يعد إلى الفندق بعد أن قابلك، أعتقد بأن كا قد أخبر جماعة الفرقة الخاصة بمكان كحلي. لهذا السبب لم أذهب معه إلى ألمانيا.»

قالت قديفة: «من أين لك معرفة هذا؟ لعله ليس هو. لعل آخراً بلغ عنه.»

«ممكن. فكرت بهذا. ولكنني أشعر بأن كا أبلغ عنه إلى حد أنني لن أستطيع إقناع نفسي بأنه لم يخبر عنه. ولم أذهب إلى ألمانيا لإدراكي بأنني لن أستطيع أن أحبه.»

لقد وصلت القوة التي استجمعتها قديفة للاستماع إلى إيبك إلى نهايتها. رأت إيبك أن أختها الآن قد تلقت خبر مقتل كحلي بشكل كامل.

غطت قديفة وجهها بيديها، وبدأت تبكي منشّقة. احتضنتها إيبك، وبكت أيضاً. وبينما كانت إيبك تبكي صامتة شعرت بأنها لا تبكي مع أختها للسبب نفسه. عدة مرات بكت الأختان حين لم تستطيعا التخلي عن كحلي، وتنافستا بشكل كبير، وشعرتا إثر هذا بالخجل. شعرت إيبك بأن شجارهما قد انتهى نهائياً الآن: لم تكن تستطيع مغادرة قارص. فجأة شعرت بأنها كبرت قليلاً. الابتعاد مع الكبر في السن يعني الحكمة بحيث لاتطلب شيئاً من الدنيا: شعرت بإمكانيتها عمل هذا. هي الآن قلقة من أجل قديفة الباكية بقوة. كانت ترى بأن أختها تعاني من ألم أقوى وأعمق من ألمها. شعرت للحظة بالامتنان لأنها ليست في وضع أختها ـ أو بطعم الانتقام ـ وخجلت فوراً. وضع شريط التسجيل نفسه الذي يوضع في الاستراحات عادة لأنها تزيد من مبيعات المياه الغازية، والحمص المحمص: كانت تذاع أغنية: «Come closer, baby closer to me» التي سمعتها في اسطنبول أيام شبابها الأولى. في تلك الأيام كلاهما كانتا تريدان تعلم الانكليزية، وكلاهما لم تستطيعا النجاح بهذا. شعرت إيبك بأن أختها قد بكت أكثر حين سمعت الموسيقى. ومن فرجة الستارة رأت أباها في الطرف الآخر المظلم من الغرفة يحادث صوناي، واقتربت منهما فوندا أسر حاملة زجاجة الكونياك، وتملأ الكؤوس.

عسكري متوسط العمر فتح الستارة بفظاظة، قال: «ياقديفة خانم، أنا العقيد عثمان نوري تشولاق.» وبحركة خارجة من الأفلام، انحنى حتى الأرض محيياً، وأضاف: «كيف يمكنني تخفيف حزنك يا خانم؟ إذا كنت لا تريدين العودة إلى الخشبة، فيمكنني أن أقدّم لك هذه البشارة: فتحت الطرق. والقوات العسكرية ستدخل بعد قليل إلى المدينة.»

فيما بعد، سيستخدم عثمان نوري تشولاق هذه العبارات في المحكمة العسكرية دليلاً على أنه كان يعمل على حماية المدينة من أصحاب هذا الانقلاب العسكري العبثي.

قالت قديفة: «أنا جيدة من كل النواحي. أشكركم يا سيدي!».

من خلال حركات قديفة شعرت إيبك بأن مواقف فوندا أسر المفتعلة قد انتقل شيء منها إليها. من جهة أخرى كانت معجبة بالجهد الذي أبدته لاستجماع نفسها. ضغطت قديفة على نفسها ونهضت على قدميها، شربت كأساً من الماء، وسارت رواحاً مجيئاً في غرفة الكواليس كشبح.

مع بداية الفصل الثالث أرادت إيبك أن تبعد أباها دون أن تجعله يلتقي بقديفة، ولكن السيد طورغوت اندس بها في اللحظة الأخيرة. قال: «لاتخافي. إنهم أناس عصريون» قاصداً صوناي وأصدقاءه.

في مطلع الفصل الثالث قدمت فوندا أسر أغنية المغتصبة. وهذا ما ربط المتفرجين المسرحية التي يجدونها «ثقافية» أكثر من الحد، وغير مفهومة. وكما تفعل فوندا أسر دائماً، تذرف الدموع وتشتم معشر الرجال من جهة، وتحكي ما جرى معها بشكل معسول من جهة أخرى.

وبعد اغنيتين، ومشهدٍ إعلاني يضحك الأولاد على الأكثر (يبين بأن أسطوانات «آي غاز» تملأ بالفساء) أظلمت الخشبة، وظهر جنديان يذكران بالمشهد الأخير من المسرحية التي مثلت قبل يومين. جلبا مشنقة، ووضعاها، وسط الخشبة. وخيم على الصالة كلها صمت متوتر. وسار صوناي عارجاً بشكل واضح مع قديفة إلى تحت المشنقة.

قال صوناي: «لم أكن أعتقد بأن الأحداث ستتطور بهذه السرعة.»

قالت قديفة: «هل هذا اعتراف بعدم نجاحكم بما كنتم تريدون عمله، أم أنكم تقدمتم في السن، وتبحثون عن ذريعة لتموتوا؟»

شعرت إيبك بأن قديفة بذلت مجهوداً كبيراً لتتمكن من لعب دورها.

قال صوناي: «أنت ذكية جداً يا قديفة.»

قالت قديفة: متوترة ومنفعلة: «وهل هذا يخيفكم؟»

قال صوناي بشبق: «نعم!»

قالت قديفة: «أنتم لا تخافون من ذكائي، بل من كوني صاحبة شخصية. الرجال في مدينتنا لايخافون من ذكاء المرأة، بل يخافون من إصدارها أوامر فوق رؤوسهم.»

قال صوناي: «على العكس تماماً. لقد عملت هذا الانقلاب لكي يكون صوتكن من رؤوسكن مثل الأوروبيات لهذا السبب أريد الآن أن تكشفي رأسك.»

قالت قديفة: «سأكشف رأسي، ولكي أثبت أنني لم أفعل هذا تحت ضغطكم، ولا تقليداً للأوروبيات، سأشنق نفسي بعد ذلك.»

«ولكنك تعرفين جيداً بأن الأوربيين لن يصفقوا لك لأنك تتصرفين فردياً. أليس كذلك ياقديفة؟ لم يغب عن الأنظار أنك تصرفت بحرص شديد من أجل تقديم تصريح للجريدة الألمانية في ذلك الاجتماع الذي تسمونه سرياً. يقال بأنك كما تنظمين الفتيات المغطيات رؤوسهن، تنظمين الفتيات المقدمات على الانتحار.»

«هنالك فتاة واحدة تناضل من أجل غطاء الرأس وانتحرت، وهي تسليمة.»

«والآن ستكونين الثانية.»

«لا. أنا سأكشف رأسي قبل قتل نفسي.»

«هل فكرت جيداً.»

قالت قديفة: «نعم. فكرت جيداً.»

«إذن يجب أن تكوني قد فكرت بهذا أيضاً. المنتحرون يذهبون إلى جهنم. هل ستقتلينني مرتاحة البال لأنني كيفما كان سأذهب إلى جهنم؟»

قالت قديفة: «لا، أنا أؤمن بأنني سأذهب إلى جهنم فيما لو انتحرت. وسأقتلك لكي أنظف ميكروباً عدواً للشعب والدين والمرأة.»

«إنك يا قديفة جريئة وصريحة. ولكن الانتحار ممنوع في ديننا.»

قالت قديفة: «أمرنا القرآن في سورة النساء بألا نقتل أنفسنا. ولكن هذا لا يعني بأن الله القادر على كل شيء لن يغفر لأولئك الفتيات الشابات، ويرسلهن إلى جهنم.»

«هذا يعني أنك تذهبين إلى تأويل كهذا.»

قالت قديفة: «حتى إن العكس صحيح. بعض الفتيات في قارص قتلن أنفسهن لأنهن لم يستطعن تغطية رؤوسهن كما يردن. الله جل جلاله عادل، ويرى العذاب الذي عانين منه. طالما أن حب الله هذا في قلبي فإنه ليس لي مكان في مدينة قارص، فلذلك سأزيل نفسي مثلهن تماماً.»

«وتعرفين أن هذا سيغضب رجال ديننا الكبار والوعاظ الذين تجشموا عناء المجيء في هذا الثلج إلى مدينة قارص الفقيرة هذه كي يحولوا دون انتحار النساء اليائسات، أليس كذلك يا قديفة؟.. مع أن القرآن...»

«أنا لا أناقش ديني مع الملحدين، ولا مع المتظاهرين بالإيمان من الخوف. غير هذا، لننه هذه المسرحية.»

«معك حق. وأنا فتحت الموضوع ليس من أجل لخبطة حالتك المعنوية، بل خشية من عدم ضربي بالنار مرتاحة البال خوفاً من جنهم.»

«لاتقلقوا أبداً، سأقتلكم مرتاحة البال.»

قال صوناي مبدياً حالة من الزعل: «جميل، وأنا سأقول لك أهم نتيجة استنتجتها من حياتي المسرحية على مدى خمس وعشرين سنة. متفرجنا لايمكن أن يتحمل حواراً طويلاً كهذا في أية مسرحية. لنتحرك دون أن نطيل الحكي.»

«حسنٌ.»

أخرج صوناي المسدس (قرق قلعة) نفسه، وأراه لقديفة وللجمهور في آن واحد. «ستكشفين رأسك الآن، بعد ذلك سأعطيك هذا السلاح، وتضربينني بالنار... ولأن هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها شيء كهذا في بث مباشر يجب أن نوضح لمشاهدينا مرة أخرى..»

قالت قديفة: «لا تطلها. سئمت من كلام الرجال الذين يبينون أسباب انتحار الفتيات الشابات.»

قال صوناي وهو يلعب بالسلاح الذي بيده: «معك حق. على الرغم من هذا أريد أن أقول بعض الأشياء وهذا لكي لايخاف الذين يقتنعون بالأخبار التي يقرؤونها في الصحف، والقارصيون الذين يتابعوننا عبر البث المباشر.

انظري ياقديفة إلى مخزن المسدس. إنه فارغ كما ترين.» اخرج المخزن، وأراه لقديفة، وأعاده إلى مكانه. ثم قال مثل لاعب خفة: «هل رأيتم أنه فارغ؟»

«نعم.»

قال صوناي: «على الرغم من هذا لنتأكد.» أخرج المخزن مرة أخرى. وكلاعب الخفة الذي يخرج الأرنب من القبعة عرضه مرة أخرى على الجمهور، ثم أعاده إلى مكانه «للمرة الأخيرة أتحدث باسمي: قبل قليل قلتِ بأنك ستضربينني بالنار مرتاحة البال. لابد أنك تقرفين مني لأنني قمت بانقلاب عسكري. وأطلقت النار على الشعب لأنه لايشبه الغربيين. ولكنني أريدك أن تعرفي بأنني عملت هذا من أجل الشعب.»

قالت قديفة: «حسنٌ. أنا الآن سأكشف رأسي. لينظر الجميع لطفاً.»

فجأة ظهر على وجهها تعبير إحساس بالألم، وبحركة بسيطة بيدها نزعت غطاء رأسها.

ليس ثمة نبس في الصالة. وكأن هذا شيء غير متوقع نظر صوناي إلى قديفة مندهشاً. كلماتهما معاً بعد ذلك موجهة إلى الجمهور مثل ممثلين مبتدئين.

قارص كلها تفرجت معجبة على شعر قديفة الطويل الخرنوبي الجميل. مدة طويلة. استجمع المصور قوته كلها واقترب بعدسته أول مرة من قديفة. على وجه قديفة تعبير خجل لامرأة كشفت ثيابها. ويبدو من حالتها كلها بأنها تعاني من ألم شديد.

قالت قديفة نافذة الصبر: «هات السلاح لطفاً.»

قال صوناي: «تفضلي.» مدّه نحو قديفة ممسكه من سبطانته «ستضغطين على الزناد من هنا.»

حين أمسكت قديفة المسدس ابتسم صوناي. قارص كلها كانت تعتقد بأن الحديث سيطول أكثر. وغالباً صوناي أيضاً كان مؤمناً بهذا، فقال: «شعرك جميل جداً يا قديفة. وأنا أيضاً سأشعر بالغيرة من الرجال الآخرين.» وفي تلك اللحظة ضغطت على الزناد.

سمع صوت سلاح. وقارص كلها دهشت لاختلال توازن صوناي حقيقة كأنه ضرب بالنار أكثر من دهشتها من الصوت.

قال صوناي: «كم كان هذا كله خبلاً. ولايفهمون الفن المعاصر، ولايمكن أن يصيروا حداثيين.»

لحظة انتظار المتفرجين منولوجاً طويلاً من صوناي، قرّبت قديفة المسدس جيداً، أطلقت أربع طلقات أخرى. ومع كل طلقة كان جسد صوناي يهتز، وينط، بعد ذلك سقط على الأرض كأنه غدا أثقل.

المتفرج الذي كان ينتظر من صوناي جملة مسرحية ذات معنى عن الموت أكثر من انتظار تجسيد الموت حين رأى مع الطلقة الرابعة وجه صوناي ملتاثاً بالدم قطع أمله هذا. السيدة نورية المعجبة بالنص المسرحي بقدر ما تعطي أهمية لواقعية الأحداث نهضت من مكانها، وبينما كانت على وشك التصفيق لصوناي، خافت من الوجه الملتاث بالدم، وجلست مكانها.

قالت قديفة للمتفرجين: «يبدو أنني قتلته.»

صرخ أحد طلاب الأئمة والخطباء من الصفوف الخلفية قائلاً: «حسناً فعلت.»

لقد سرحت قوات الأمن بالجريمة التي على الخشبة إلى حد أنها لم تستطع تحديد مكان الطالب الذي خرق الصمت، ولم تتابع الموضوع. حين بدأت بالبكاء نشقات السيدة نورية المتابعة بإعجاب صوناي في التلفزيون على مدى يومين، والقادمة إلى المسرح آخذة بعين الاعتبار أية صعوبات لتجلس في الصف الأول لم يشعر الذين في الصالة فقط بأن الأحداث التي على الخشبة واقعية أكثر من اللازم، بل شعرت بهذا قارص كلها.

جنديان راكضان نحو بعضهما بعضاً على خشبة المسرح بخطوات غريبة ومضحكة أسدلا الستارة الخشبية سحباً.

[٤٤]

اليوم لا أحد يحب كا هنا

في قارص بعد أربع سنوات

بعد إسدال الستارة مباشرة اعتقل ز. دميرقول وأصدقاؤه قديفة، و«من أجل أمنها الشخصي» اختطفوها من الباب الخلفي المفتوح على شارع كاظم بيك الصغير، ووضعوها في سيارة عسكرية، وأخذوها إلى الملجأ القديم في قيادة الموقع العسكري الذي استضيف فيه كحلي في اليوم الأخير. بعد عدة ساعات حين فتحت الطرق المؤدية إلى قارص كلها. دخلت الوحدات العسكرية القادمة إلى قارص من أجل قمع الإنقلاب دون أية مقاومة. عزل معاون المحافظ، وقائد السرية، والقادة الآخرون لإهمالهم خلال الأحداث. واعتقل بعض عناصر تشكيلات المخابرات القومية، والجنود المتعاونون مع «الانقلابيين» على الرغم من اعتراضهم بأن ما فعلوه هو من أجل «الدولة والشعب.» لم يستطع السيد طورغوت وإيبك زيارة قديفة إلا بعد ثلاثة أيام. أدرك السيد طورغوت بأن صوناي قد مات حقيقة على المسرح، وحزن جداً، ولكن على الرغم من هذا تحرك لأخذ ابنته والعودة إلى البيت آملاً بأن شيئاً لن يحدث لها. وعندما لم ينجح تأبط ذراع ابنته الكبرى بعد منتصف الليل بكثير، وعاد إلى البيت عبر الشوارع الخاوية. وبينما كان يبكي فتحت إيبك حقيبتها، وأعادت ما بداخلها إلى الخزانة.

فهم أغلب القارصيين المتابعين ما يجري على الخشبة بأن صوناي مات حقيقة فوراً دون نزاع روح طويل حين قرؤوا جريدة مدينة سرهات صباحاً. الزحام الذي ملأ مسرح الشعب تفرق بعد إسدال الستارة شاكاً ولكنه صامت،

أما التلفزيون فلم يتطرق إلى ما جرى خلال الأيام الثلاثة الأخيرة. القارصيون المعتادون على مطاردة الدولة أو الفرقة الخاصة «للارهابيين» في الشوارع، وتنظيم المداهمات، وإصدار البيانات منذ أيام الأحكام العرفية، بعد فترة قصيرة تركوا التفكير بهذه الأيام الثلاثة معتبرينها زمناً خاصاً جداً. اعتباراً من صباح اليوم التالي بدأت رئاسة الأركان العامة تحقيقاً إدارياً، وتحركت هيئة تفتيش رئاسة الحكومة، وبدأت قارص كلها بمناقشة بعد القضية الفني والمسرحي وليس البعد السياسي.

كيف يمكن لقديفة أن تطلق النار بالمسدس نفسه على الرغم من وضع صوناي ظائم مخزناً فارغاً أمام أعين الجميع فيه؟

تقرير الرائد المفتش الذي أرسلته أنقرة للتحقيق في «انقلاب المسرح» بعد أن عادت الحياة إلى طبيعتها ساعدني في هذا الموضوع الذي يبدو ـ كما في كثير من مواضيع كتابي ـ ليس موضوع خفة يد فقط، بل كأنه إعماء للعيون. ولأن قديفة بعد ذلك اليوم رفضت الحديث في هذا الموضوع مع أبيها وأختها القادمين لزيارتها، ومع النيابة العامة، ومع المحامي الذي سيدافع عنها في المحكمة على الأقل، عمل الرائد المفتش ما عملته أنا بعد أربع سنوات. تحدث (بتعبير أصح: أخذ إفادة) مع كثير من الأشخاص، وهكذا استعرض الاحتمالات والادعاءات كلها.

أبطل الرائد المفتش الرؤى حول قتل قديفة لصوناي ظائم على الرغم من صوناي ظائم بإظهاره عدم تطابق مقولات أن المرأة الشابة قد أخرجت بلمح البصر مسدساً آخر من جيبها، أو وضعت مخزناً مملوءاً مع الحقائق. وإذا كانت قد بدت تعابير الدهشة على وجه صوناي حين أطلقت النار عليه، فإن التفتيش الذي قامت به قوى الأمن فيما بعد، ومما وُجد مع قديفة، ومن تسجيل الفيديو ثبت أنه تم استخدام سلاح واحد ومخزن واحد. أما الرؤية التي أحبها أهالي قارص جداً وهي أنه قد أطلقت النار على صوناي ظائم من زاوية أخرى ومن قبل شخص آخر فقد ثبت أنها خاطئة من التقرير البالستي المرسل من أنقرة ونتيجة تقرير الطبيب الشرعي التي أثبتت أن الرصاصات التي في جسد الممثل قد خرجت من المسدس (قرق قلعة) الذي كان بيد قديفة. رأى الرائد المفتش أن آخر جملة قالتها قديفة: (يبدو أنني قتلته) والتي أسطرتها

في عيون غالبية القارصيين باعتبارها بطلة من جهة، وضحية من جهة أخرى - رآها - دليلاً على أنها لم ترتكب الجريمة عمداً، وفسر بشكل مفصل الفرق الفلسفي بين معنيي الجريمة عمداً والنية السيئة، وشرح بأن العبارات المقالة خلال المسرحية قد حُفِّظت لها، أو أنطقت بها من خلال مختلف المناورات، وبهذا يكون مُخَطِّطُ الحادثة هو المتوفى صوناي ظائم. لقد خدع صوناي ظائم القارصيين كلهم، وقديفة أيضاً بقوله مرتين بأن المخزن فارغ وإعادته إلى المسدس. حين التقيت الرائد المفتش المحال على التقاعد المبكر في بيته في أنقرة، وإثر إشارتي لكتب آغاتا كريستي التي على الرفوف، وبعد إخباري بأنه معجب بشكل خاص بعناوين الكتب، قال لي: «كان المخزن مملوءاً». إظهار المخزن المملوء فارغاً لم يكن خفة يد قام بها رجل مسرح بمهارة: العنف الحاد الذي طبقه صوناي ظائم وأصدقاؤه بذريعة الأتاتوركية والتغريب على مدى ثلاثة أيام (عدد الذين قتلوا بمن فيهم صوناي تسع وعشرون) جعل القارصيين يائسين إلى حد استعدادهم جميعاً لاعتقاد أن كأس الماء الفارغة مملوءة. لهذا السبب لم تكن قديفة وحدها جزءاً من هذه اللعبة المتجلية بفرض قتله على الخشبة على الرغم من إعلانه مسبقاً بل كان القارصيون الذين يتفرجون مستمتعين على أن هذه لعبة - كانوا - جزءاً منها. رد تقرير الرائد على ادعاء أن قديفة قتلت صوناي انتقاماً لكحلي بأنه لايمكن اتهام الشخص المعطى سلاحاً مملوءاً على أنه فارغ بذريعة أخرى.

كما رد على مديح الإسلاميين بأن قديفة تصرفت بمكر فقتلت صوناي، ولكنها لم تنتحر، واتهامها بهذا من قبل العلمانيين الجمهوريين بضرورة عدم خلط الفن بالحقيقة. أما الرأي القائل بأن قديفة خدعت صوناي بأنها ستنتحر، وبعد أن قتلته تراجعت عن الانتحار فقد أبطل بإثبات معرفة كل من قديفة وصوناي أن المشنقة التي على الخشبة من المقوى.

قيّم القضاة والنائب العام العسكري في قارص باحترام بالغ التقرير المفصل الذي أعده الرائد النشيط الذي أرسلته الأركان العامة. وهكذا لم تحكم قديفة بالقتل لأسباب سياسية، بل حكمت بعقوبة السجن مدة ثلاث سنوات وشهر لتسببها بالقتل نتيجة عدم الحيطة والانتباه، ونامت عشرين شهراً، وخرجت. أما العقيد عثمان نوري تشولاق فقد حكم بعقوبة كبيرة جداً

وفق المادتين ٣١٣ و٤٦٣ من قانون العقوبات التركي، وهما تنصان على تشكيل عصابة للقتل، وقتل أشخاص لم يعرف منفذو هذا القتل، وأفرج عنه بعد ستة أشهر بحكم قانون عفو. وعلى الرغم من تخويفه كي لايحكي شيئاً عن الأحداث، فإنه في السنوات التالية كان يلتقي مع أصدقائه العسكريين القدامى في نوادي الجيش، وفي الليالي التي يشرب جيداً يقول بأنه تجرأ «على الأقل» على عمل ما يكمن داخل كل عسكري أتاتوركي، ودون أن يتمادى يتهم أصدقاءه بالخوف من الدينيين، وبالكسل والجبن.

الضباط والجنود والعناصر الآخرون المشاركون بالأحداث حكموا ـ على الرغم من اعتراضاتهم بأنهم مأمورون، ووطنيون ـ في المحكمة العسكرية بالشكل نفسه بتهم تشكيل عصابة، وقتل، واستخدام أموال الدولة دون إذن، واستفادوا من العفو نفسه وأطلق سراحهم. من هؤلاء هنالك ضابط برتبة مرشح يباهي بنفسه على أنه إسلامي وذكي، بعد أن خرج من السجن بدأت جريدة اسلامية بنشر مذكراته مسلسلة، وقال فيها: «وأنا أيضاً كنت بورجوازياً صغيراً.» وقد أوقف الجيش النشر على أنه فيه استهانة به. وبعد الانقلاب مباشرة ظهر أن حارس المرمى فورال يعمل لصالح تشكيلات المخابرات القومية المحلية. قالت المحكمة إن المسرحيين الآخرين «فنانون بسطاء».
أصيبت فوندا أسر بنوبة عصبية إثر مقتل زوجها، وهاجمت الجميع غاضبة، واشتكت على كل شخص لكل شخص وأخبرت عنه، فوضعت تحت المشاهدة في القسم النفسي لمشفى عسكري في أنقرة مدة أربعة أشهر. بعد سنوات من خروجها من المشفى قالت لي بأن البلد كله كان يعرفها من صوتها في أداء دور الساحرة في مسلسل أطفال شهير جداً وأنها مازالت حزينة لسحب دور أتاتورك من زوجها بسبب الافتراءات والغيرة، وأن زوجها مات في حادثة عمل على الخشبة، وسلوانها الوحيد اليوم أنهم يعتمدون على مواقف زوجها نموذجاً في عمل تماثيل أتاتورك. وفي تقرير الرائد المفتش جاء بأنه قد دعي كا إلى المحكمة باعتباره شاهداً ـ وهذا حق ـ لتبيان دوره في الأحداث، وبعد تغيبه عن الجلستين الأولى والثانية صدر قرار بإلقاء القبض عليه.

كان يذهب السيد طورغوت وإيبك كل سبت لزيارة قديفة التي تقضي

عقوبتها في قارص. وفي أيام الربيع والصيف عندما يكون الطقس جميلاً يمدون غطاءً أبيضَ كبيراً تحت شجرة التوت الضخمة في باحة السجن بإذن من مدير السجن المتسامح، وتأكل محشي الفلفل الذي تعده زاهدة، وتقدم للمحكومات الأخريات من (الكفتة) قطعة قطعة، وفي أثناء نقر البيض المسلوق ببعض قبل تقشيره تستمع إلى مقدمات الأعمال الموسيقية لشوبان من مسجلة فيلبس صغيرة أخذها السيد طورغوت إلى التصليح لهذه الغاية. ولكي لايعيش السيد طورغوت خجلاً من حكم ابنته، ينظر إلى السجن كمدرسة داخلية يجب أن يذهب إليها كل مواطن شريف، وأحياناً يصطحب معه أحد المعارف مثل الصحفي السيد سردار. رافقهم فاضل في إحدى الزيارات، وأراد أن يزورها في مرات أخرى، وبعد إطلاق سراحها تزوجت من هذا الشاب الذي يصغرها بأربع سنوات.

في الأشهر الستة الأولى سكن فاضل في إحدى غرف فندق ثلج بالاس الذي عمل فيه موظفاً في الاستقبال. حين جئت إلى قارص كانا قد انتقلا إلى شقة منفصلة مع طفلهما، وقديفة تأتي إلى الفندق كل صباح مع طفلها (عمرجان) ابن الأشهر الستة، وبينما تطعم إيبك وزاهدة الطفل، ويلعّب السيد طورغوت حفيده، تهتم هي قليلاً بأمور الفندق. ولكي يكون فاضل مستقلاً عن حميه فقد عمل في (قصر أيدن للتصوير) من جهة، وفي تلفزيون قارص سرهات، وهذا العمل بحسب ما قاله لي مبتسماً: «اسمه معاون معد برامج، وفي الحقيقة أعمال خدمية عادية.»

في اليوم التالي لوصولي إلى قارص، والمأدبة التي دعا إليها رئيس البلدية على شرفي التقيت فاضلاً في شقته الجديدة في شارع (خلوصي أيتن) ظهراً. بينما كنت أنظر إلى الثلج النادف ندفاً كبيراً على القلعة، ونهر قارص، اعتقدت أنه فتح موضوع إيبك التي دوختني في مأدبة رئيس البلدية بالأمس حين سألني بنية حسنة عن سبب مجيئي إلى قارص، فاضطربت، وشرحت له مبالغاً بأنني جئت من أجل قصائد كا التي كتبها في قارص، وأنني أريد أن أكتب كتاباً عنها إن أمكنني ذلك.

قال بود: «إذا لم تكن القصائد موجودة، كيف يمكنكم كتابة كتاب عنها؟»

قلت: «أنا أيضاً لا أعرف. يجب أن تكون هنالك قصيدة في أرشيف التلفزيون؟»

«سنجدها مساءً، ونخرجها. ولكنك تجولت في قارص هذا الصباح شارعاً شارعاً. لعلك ستكتب رواية عنا.»

قلت مؤرقاً: «ذهبت إلى الأمكنة التي ذكرها كا في قصائده.»

«ولكنني أفهم من وجهك أنك تريد أن تحكي عن فقرنا الشديد، واختلافنا الكبير عن الناس الذين يقرؤون رواياتكم. ولكنني لا أريد أن تدخلني في رواية كهذه.»

«لماذا؟»

«إنك لاتعرفني! وحتى لو عرفتني، وكتبت عني كما أنا فإن قراءك الغربيين لن يروا حياتي بسبب الإشفاق علي لفقري. مثلاً كوني أكتب رواية خيال علمي إسلامية يضحكهم. لا أريد أن يحكى عني باعتباري شخصاً يُحبّ للاستهانة به والضحك منه.»

«حسنٌ»

قال فاضل: «أعرف أنك حزنت. أرجو ألا تزعل من عباراتي، فأنت إنسان جيد. ولكن صديقك أيضاً كان إنساناً جيداً، وأراد أن يحبنا، ولكنه فيما بعد عمل أكبر سوء.»

لم أجد حديث فاضل حول أنه يعتبر إخبار كا عن كحلي هو إخبار عنه شخصياً لأنه استطاع الزواج من قديفة بسبب موت كحلي، ولكنني سكتُ.

بعد وقت طويل: «كيف يمكنك الوثوق بهذا الإدعاء؟»

قال فاضل بصوت رقيق يكاد يكون مشفقاً: «هذا ما تعرفه قارص كلها.»

رأيت داخل عينيه نجيباً. أخبرته بأنني جاهز لرؤية رواية الخيال العلمي التي كتبها: سألني عماإذا كنت سأطلع على ما كتبه، ولكنه لن يستطيع إعطائي ما كتبه، وقال بأنه يريد أن يكون بجانبي وأنا أقرؤها. وجلسنا إلى الطاولة التي يتناولان الطعام عليها وهما يتابعا التلفزيون هو وقديفة كل مساء. وقرأنا صامتين الصفحات الخمسين الأولى من رواية الخيال العلمي التي تخيلها نجيب قبل أربع سنوات.

سأل فاضل لمرة واحدة، وكأنه يعتذر: «كيف؟ هل هي جيدة؟ إذا مللت منها فلنتركها.»

قلت: «لا. جيدة» وقرأت بإرادة.

فيما بعد، بينما كنا نسير في شارع كاظم قرة بكر المغطى بالثلج، قلت له بشكل صميمي مرة أخرى بأنني وجدتُ الرواية ممتعة جداً.

قال فاضل سعيداً: «لعلك تقول هذا لتفرحني. ولكنك عملت معي عملاً جيداً. وأنا أيضاً سأرد لك الجيمل. يمكنك أن تأتي على ذكري إذا كنت تريد كتابة رواية. ولكن شريطة أن أقول لقرائك أمراً بشكل مباشر.»

«ماهو؟»

«لا أعرف. إذا وجدت ما سأقوله وأنت في قارص سأخبرك به.»

افترقنا على أن نلتقي مساءً في تلفزيون قارص سرهات. حين كان فاضل ذاهباً إلى دكان (قصر آيدن للتصوير) راكضاً نظرتُ إليه من الخلف. كم كنتُ أرى نجيباً الذي في داخله؟ أما زال يشعر بأن نجيباً في داخله كما قال لكا؟ كم يمكن للإنسان أن يسمع صوت إنسان آخر في داخله؟

حين كنتُ أتجول في قارص شارعاً شارعاً، وأتحدث مع الناس الذين تحدث إليهم كا، وأجلس في المقاهي التي جلس فيها حدث في كثير من الأحيان أنني شعرت بأنني مثل كا. جلست باكراً في مقهى «الأخوة المحظوظون» التي كتب فيها «الإنسانية كلها والنجوم.»، وتخيلت مكاني في هذا العالم كصديقي الحبيب. حتى إن جاويت العامل في استقبال فندق (ثلج بالاس) أنني آخذ مفتاحي على عجل «مثل السيد كا تماماً.». وبينما كنت ماشياً في أحد الشوارع الفرعية، ثمة بقال ناداني قائلاً: «هل حضرتكم الكاتب القادم من اسطنبول؟» وبينما كان يطلب مني بأن أكتب بأن الأخبار التي نشرت في الصحف عن انتحار ابنته تسليمة قبل أربع سنوات هي خاطئة كلها، تحدث معي كما تحدث مع كا، وقدم لي زجاجة كوكا كولا أيضاً. كم تشكل المصادفة من هذا، وكم يشكل خيالي؟ حين أدركت بأنني أسير في شارع البيطرة، نظرتُ إلى نافذة تكية الشيخ سعد الدين، ولكي أشعر بما شعر به كا حين جاء إلى التكية صعدت الدرج العمودي الذي تحدث عنه مختار في قصيدته.

بما أنني وجدت القصائد التي أعطاها مختار لكا بين أوراقه في فرانكفورت، فهذا يعني أنه لم يرسلها إلى فاخر. مع أن مختاراً في الدقيقة الخامسة لتعارفنا، وبعد أن قال لي عن كا «يا لهذا الإنسان كم هو محترم.»، شرح لي مادحاً بأنه أعجب بقصائده حين كان في قارص وبأنه أرسلها إلى ناشر كبير الأنف في اسطنبول. كان مسروراً من أعماله، ولديه آمال بأن ينتخب لرئاسة البلدية في الانتخابات القادمة عن الحزب الإسلامي المؤسس حديثاً (كان قد حظر حزب الرفاه). وبفضل شخصية مختار الذي يتصرف بشكل جيد مع الجميع وليونته، وتصالحيته قُبلنا في مديرية الأمن (لم يسمح لنا بالنزول إلى الطابق الأسفل) وفي مشفى التأمينات الاجتماعية حيث قبل كا جثة نجيب. بينما كان يريني مختار ما تبقى من مسرح الشعب، وغرفه التي حولها إلى مستودع للأدوات المنزلية الكهربائية اعترف بأنه مسؤول «قليلاً» عن هدم البناء الممتد عمره إلى قرن، ولكنه قال: «إنه غير تركي أصلاً، فهو بناء أرمني.» محاولاً التخفيف عني. وبتوق رؤية كا مرة أخرى لإيبك وقارص أراني مختار الأمكنة التي تذكرها، وسوق الجملة للخضار والفواكه المغطى بالثلج، ودكاكين البيطاريين المصطفة، ثم عرفني على مُعارضه السياسي في سوق خليل باشاالمحامي السيد مظفر، وذهب. وبعد أن استمعت لرئيس البلدية السابق حول تاريخ قارص الجمهوري كما فعل مع كا تماماً، وبينما كنا نسير في ممر السوق المظلم والقاسي، قال لي صاحب منشأة تربية مواشي غني عند باب جمعية محبي الحيوانات «سيد أورهان.» وأدخلني، وبذاكرة مدهشة حكى لي كيف دخل كا إلى هنا قبل أربع سنوات عند إطلاق النار على مدير معهد المعلمين، وكيف جلس في زاوية من زوايا صالة صراع الديكة، وغاص بأفكاره.

لم يواتيني الاستماع إلى تفاصيل اللحظة التي أدرك فيها كا بأنه عاشق لإيبك قبل أن ألتقيها. ولكي يذهب عني التوتر، وأتخلص من مخاوف انجراري نحو العشق ذهبت إلى مشرب (الوطن الأخضر) للبيرة، وشربتُ قدحاً من العرق قبل ذهابي إلى محل الحياة الجديدة للمعجنات. ولكنني حين جلست مقابل إيبك في محل المعجنات أدركت بأن تدابيري تركتني أعزلَ أكثر من السابق.

ولكن العرق الذي شربته على معدة فارغة لخبط عقلي أكثر مما أراحني. لها عينان واسعتان ووجه مطاول كما أحب. وبينما كنت أعمل على فهم جمالها الذي وجدته أعمق مما تخيلته بشكل مستمر من البارحة، أردت يائساً أن أجعل نفسي تؤمن بأن الأمر الذي سلبني لبي هو العشق الذي عاشته مع كا، وأعرف تفاصيله كلها. لكن هذا ذكرني بألم بجانب ضعيف من جوانبي، وكما شعر به كا بشكل تلقائي مقابل كونه شاعراً حقيقياً يستطيع عيش ذاته فإنني روائي بسيط الروح أكثر أعمل في ساعات محددة كل صباح ومساء مثل كاتب. ولعل هذا هو السبب الذي جعلني أحكي عن حياة كا اليومية المنظمة في فرانكفورت، واستيقاظه كل يوم في الساعة نفسها صباحاً، ومروره من الشوارع نفسها: وعمله جالساً إلى الطاولة نفسها في المكتبة نفسها.

قالت إيبك: «أنا كنتُ قد قررت الذهاب معه إلى فرانكفورت» وصرحت لي عن كثير من التفاصيل باعتبارها أدلة على قرارها هذا وصولاً إلى تحضير حقيبتها. وقالت: «ولكن الآن يصعب علي تذكر كم أن كا إنسان لطيف. مع أنني أريد المساعدة في الكتاب الذي ستكتبونه احتراماً لصديقكم.»

قلت لها محاولاً استفزازها: «لقد كتب كا في قارص كتاباً رائعاً بفضلك. تذكر كل دقيقة من دقائق تلك الأيام الثلاثة، ودونها على دفاتره. ولايوجد نقص سوى الساعات الأخيرة التي سبقت مغادرته المدينة.»

وبصراحة مدهشة، ودون إخفاء أي شيء، مستصعبة بعض اللحظات لأنها تفصح عن حرمتها، وبصدق حيرني حكت لي عما عاشته وخمنته دقيقة دقيقة.

قلتُ لها محاولاً اتهامها: «لم يكن لديك أي دليل حقيقي يجعلك تتخلين عن الذهاب إلى فرانكفورت.»

«هنالك أشياء يفهمها الإنسان بقلبه.»

قلتُ: «أنت أول من تكلم عن القلب.»، وبما يشبه الاعتذار بأنني فهمت من الرسائل التي كتبها لها، ولم يرسلها، واضطررت لقراءتها من أجل كتابي بأن كا طوال السنة الأولى بعد ذهابه إلى ألمانيا لم يستطع النوم لتفكيره بها، ولهذا كان يتناول قرصي منوم كل ليلة، وأنه كان يعتقد كل امرأة يراها في

أثناء مسيره في شوارع فرانكفورت هي إيبك، ويستحضر لحظات السعادة التي عاشها معها كل يوم لساعات طويلة لتمر أمام عينيه كأنها عرض سينمائي بطيء، وأنه كان يشعر بسعادة غامرة حين يستطيع نسيانها ولو لمدة قصيرة لاتتجاوز الدقائق الخمس، ولم يقم علاقة مع أية امرأة حتى نهاية حياته، وبعد أن فقدته رأيت فيه «شبحاً وليس أنساناً حقيقياً.» وحين رأيت تعبير الشفقة الذي على وجهها، ونظراتها التي تقول: «أرجوك، كفى.»، وارتفاع حاجبيها كأنهما في مواجهة سؤال لجوج، أدركت خائفاً بأنني لم أحك عن هذا كله لتقبل صديقي، بل لتقبلني.

قالت: «ممكن أن يكون صديقكم قد أحبني كثيراً ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله يجرّب المجيء إلى قارص ولو لمرة واحدة.»

«هنالك قرار للقبض عليه.»

«هذا لم يكن مهماً. كان يمكن له أن يأتي إلى المحكمة، ويتكلم. لاتفهموني خطأً. فعل حسناً بعدم مجيئه. ولكن كحلياً جاء مرات عديدة إلى قارص سراً ليراني على الرغم من وجود (أمر بإطلاق النار عليه).»

حين ذكرت «كحلياً» رأيت بريقاً في عينيها الشهلاوين، وعضت قلبي تعابير كدر حقيقي ظهرت على وجهها.

قالت وكما لو أنها تسليني: «ولكن خوف صديقكم لم يكن من المحكمة، لأنه فهم بأنني أعرف ذنبه الحقيقي، ولهذا السبب لم أذهب إلى المحطة.»

قلت: «لم تثبتي هذا الذنب في أي وقت.»

قالت بذكاء: «أتفهم جيداً شعوركم بالذنب بسببه.» ولتبدي أن لقاءنا قد انتهى وضعت سجائرها وقداحتها في حقيبتها. بذكاء: لأنني فور قولها عبارتها هذه شعرت مهزوماً بأنني أغار من كحلي وليس من كا. ولكنني بعد ذلك قررت بأن إيبك لم تقصد هذا، وأنني غصت أكثر من اللازم بشعور الذنب، نهضت. كانت طويلة قليلاً، وكل شيء فيها جميل. ارتدت معطفها.

كان عقلي متشابكاً تماماً، فقلت لها مضطرباً: «سنلتقي من جديد. هذا المساء، أليس كذلك؟» ولم يكن ثمة ضرورة لهذه العبارة.

قالت: «طبعاً. والدي بانتظاركم.» وذهبت بمشيتها الخاصة الحلوة.

قلتُ لنفسي: يحزنني إيماني من قلبي بأن كا «مذنب». ولكنني كنت أخدع نفسي. ما أردته حقيقة هو الحديث بشكل حلو عن كا، وبسحب تعبيرها «الصديق الحبيب المقتول.»، وتدريجياً إظهار نقاط ضعفه، وعقده، و«ذنبه»، وهكذا مقابل ذكره كقديس نركب معاً في السفينة نفسها، وننطلق في سفرتنا الأولى. حلم الليلة الأولى بذهاب إيبك معي إلى اسطنبول هو الآن بعيد جداً، وفي داخلي ما يدفعني لإثبات أن صديقي «بريء». وكم يعني هذا بأنني لا أغار من كا، بل من كحلي وكلاهما ميتان؟

مسيري في شوارع قارص المثلجة عند حلول الظلام كدرني أكثر. انتقل تلفزيون قارص سرهات إلى بناء جديد في شارع (قرة ضاغ) مقابل محطة الوقود. خلال سنتين حفرت أثار قذارة قارص وطينها وظلمتها، وقدم جوها ممرات هذا البناء التجاري ذي الطوابق الثلاثة الذي يعتبره القارصيون دليلا عَلى التطور.

استقبلني فاضل فرحاً في استديو الطابق الثاني، وبعد أن عرفني متفائلاً على الأشخاص الثمانية العاملين في التلفزة فرداً فرداً، قال: «يريد الأصدقاء حواراً صغيراً من أجل أخبار اليوم.»

وفكرت بإمكانية أن يسهل هذا عملي في قارص. وفي أثناء التصوير البالغة مدته خمس دقائق للقاء أجراه معي (هاقان أوزغة) مقدم برامج الشباب حين قال: «سمعنا بأنك تكتب رواية تجري أحداثها في قارص.» ولعله عرف هذا من فاصل، اضطربت، وصرت أكرر بعض الكلمات. لم نتحدث بكلمة واحدة حول كا.

دخلنا إلى غرفة المدير، ومن التواريخ المدونة على أشرطة الفيديو المخبأة على الرفوف بحسب القانون، وجدنا تسجيل أول بثين مباشرين من مسرح الشعب، وأخرجناهما. وفي غرفة صغيرة خانقة جلسنا أمام تلفاز قديم وتابعت وأنا أشرب الشاي بداية «تراجيديا في قارص» التي ظهرت فيها قديفة على الخشبة. أعجبت كثيراً «بالمشاهد النقدية» لصوناي ظائم وفوندا أسر، وسخريتهما من بعض الأفلام الدعائية التي كانت محبوبة قبل أربع سنوات. أما المشهد الذي بعد أن كشفت فيه قديفة رأسها، وأظهرت شعرها، أطلقت النار على صوناي، لففته إلى الخلف وتابعته عدة مرات. كان يبدو موت صوناي

جزءاً حقيقياً من المسرحية. لم يكن من الممكن أن يرى المتفرجون عدا الذين في الصف الأول ما إذا كان المخزن مملوءاً أو فارغاً.

وفي أثناء متابعتي للشريط الآخر: «الوطن أو الإشارب» فهمت بداية أنه عبارة عن مشاهد مسرحية، وبعض التقليد، ومغامرات حارس المرمى (فورال)، ورقص هز بطن لفوندا أسر، والمتع التي تكررها الفرقة المسرحية في كل عرض. وما كان في الصالة من صراخ، وترديد شعارات، وضجيج، جعلت الحوارات في هذا التسجيل الذي بات قديماً غير ممكن فهمها. ولكن على الرغم من هذا أعدت عرض الشريط مرات عديدة واستمعت إليه، وكتبت على ورقة كانت بيدي قسماً كبيراً من القصيدة التي ألقاها كا، والتي عنوانها: «حيث لايوجد الله.». ولحظة سؤال فاضل عن سبب نهوض نجيب، وقوله شيئاً ما، أعطيته ما استطعت كتابته على الورقة من القصيدة ليقرأه.

تابعنا إطلاق الجنود النار على المتفرجين مرتين.

قال فاضل: «تجولت في قارص كثيراً. أنا الآن أريد أن أريك مكاناً.» وبخجل، ولكن بحركة مفعمة بالأسرار قال لي بأنه يمكنني أن أدخل نجيباً إلى كتابي لذلك سيريني مهاجع ثانوية الأئمة والخطباء المغلق الآن والذي قضى فيه نجيب سنواته الأخيرة. بينما كنا نسير تحت الثلج في شارع (الغازي أحمد مختار) رأيت كلباً أسود كالفحم، وعلى جبينه بقعة بيضاء مدورة، وحين أدركت بأنه الكلب الذي كتب كا عنه قصيدة، اشتريت من دكان سمان خبزاً، وبيضة مسلوقة، وقشرتها بسرعة، وقدمتها للحيوان الذي يهز ذيله بسعادة.

رأى فاضل أن الكلب لم يتركنا، فقال: «هذا كلب المحطة. لم أخبرك بهذا خشية ألا تأتي: مهاجع المبيت القديمة فارغة. أغلقت بعد ليلة الإنقلاب بدعوى أنها مأوى للإرهاب والرجعية. وليس فيها أحد منذ ذلك الوقت لهذا جلبت هذا المصباح من التلفزيون.» حين أنار مصباح اليد، ووجهه نحو عيني الكلب الأسود الملاحق لنا الحزينتين هز ذيله. كان مقفلاً باب باحة بناء مهاجع المبيت سابقاً، وهو في الأصل قصر أرمني تحوّل بعد ذلك إلى سكن للقنصل الروسي وكلبه. أمسكني فاضل من يدي، وجعلني أقفز من فوق جدار منخفض. أشار إلى نافذة مرتفعة مكسورة الزجاج قائلاً: «كنا نهرب من هنا ليلاً» ودخل منها بمهارة، وأضاء المكان بواسطة المصباح، وسحبني إلى

الداخل. قال: «لاتخف. لايوجد غير الطيور.» بعض النوافذ لاتمرر الضوء من الوسخ والجليد، وبعضها أغلق بواسطة الخشب، وداخل البناء وهواؤه مظلم، ولكن فاضلاً يصعد الدرج براحة كمن أتى إلى هنا من قبل، وينير طريقي بواسطة المصباح كالذين يدخلون المتفرجين إلى السينما في الظلام. رائحة الغبار والعفن تفوح من كل مكان. عبرنا من باب مكسور باق من ليلة الانقلاب قبل أربع سنوات. سرنا بين الأسرة الطابقية الحديدية الصدئة والفارغة منتبهين إلى آثار الرصاص على الجدران، وزوايا سقف الطابق العلوي المرتفع، وخفقان أجنحة الحمام المضطربة البانية أعشاشها في زوايا مداخن المدافئ. قال فاضل مشيراً إلى سريرين علويين من الأسرة الطابقية متجاورين، قائلاً: «هذا لي، وهذا لنجيب. كنا نتمدد في سرير واحد أحياناً ليلاً كي لا يستيقظ أحد من همسنا، ونتبادل الحديث ناظرين إلى السماء.» من زجاج مكسور لنافذة علوية، وفي ضوء مصباح الشارع كان يبدو الثلج نادفاً ببطء شديد، تفرجت بانتباه واحترام.

بعد وقت طويل قال فاضل مشيراً إلى دهليز ضيق في الأسفل: «هذا هو المنظر الذي يبدو من سرير نجيب.» رأيت خارج الباحة مباشرة ممراً بعرض مترين لايُعد شارعاً وهو محصور بين الجدران الجانبية الصماء للمصرف الزراعي، والجدار الخلفي الخاوي من النوافذ لبناء مرتفع. ومن الطابق الأول للمصرف الزراعي يسقط على أرض الممر الطينية ضوء نيون بنفسجي. ولكي لايعتقد بأن الدهليز زقاق فقد وضعت في منتصفه شارة «ممنوع الدخول» الحمراء. وفي نهاية الزقاق الذي أسماه فاضل بوحي من نجيب «هذه نهاية العالم» شجرة عارية مظلمة، وفي أثناء نظرنا نحوها تحولت إلى لون أحمر قانٍ. همس لي فاضل قائلاً: «المصباح الإعلاني الأحمر لقصر آيدن للتصوير خربة منذ سبع سنوات. أحياناً ينار الضوء الأحمر ويطفأ، وتبدو شجرة الزعرور من سرير نجيب وكأنها اشتعلت. يتفرج نجيب على هذا المنظر حتى الصباح سارحاً في خيالاته. وأطلق على الشيء الذي رآه: «هذا العالم.» وفي صباح اليوم الذي يتأرق فيه طوال الليل يقول لي (تفرجت على هذا العالم طوال الليل). جئت بك إلى هنا لأنني فهمته في أثناء رؤيتي لشريط الفيديو. ولكن تسمية صديقك لقصيدته: (حيث لايوجد الله) هو احتقار لنجيب.

قلت: «حكى المرحوم نجيب عن هذا المنظر الذي رآه لكا على أنه (حيث لايوجد الله.). أنا واثق من هذا.»

قال فاضل: «لاأؤمن بأن نجيباً مات ملحداً. لديه شكوك في هذا الأمر فقط.»

سألته قائلاً: «أما زلت تسمع صوت نجيب بداخلك؟ وهل هذا يثير فيك مخاوف التحول ببطء إلى ملحد كالرجل الذي في الحكاية؟»

لم يُسر فاضل لعلمي بالشكوك التي أباح بها لكا قبل أربع سنوات. قال: «أنا الآن متزوج ولدي ولد. لم أعد متعلقاً بهذه المواضيع كما في السابق. حزن فوراً لتصرفه معي وكأنني قادم من الغرب وأريد جذبه إلى الإلحاد. وبصوت حلو قال: «نتحدث فيما بعد. حماي ينتظرنا من أجل الطعام. علينا ألا نتأخر. ممكن هذا.»

على الرغم من هذا، قبل أن ننزل أراني الغرفة الواسعة التي كانت في زمن ما مكتب القنصل الروسي، وفي زاويتها طاولة، وحطام زجاج عرق، وكراسي «بقي ز. دميرقول والفرقة الخاصة هنا عدة أيام بعد فتح الطرق مستمرين بقتل القوميين الأكراد والإسلاميين.»

أخافني هذا التفصيل الذي نجحت بنسيانه حتى تلك اللحظة. لم أرد التفكير بالساعات الأخيرة لكا في قارص.

الكلب الفحمي اللون الذي كان ينتظرنا عند باب الباحة لحق بنا في أثناء عودتنا إلى الفندق.

قال فاضل: «تعكر مزاجك. لماذا؟»

«هل تأتي إلى غرفتي قبل الطعام؟ سأعطيك شيئاً.»

عندما كنت آخذ المفتاح من جاويت رأيت من باب جناح السيد طورغوت الجو البرّاق، والمائدة الجاهزة، وسمعت حديث الضيوف، وشعرتُ بأن إيبك هناك. كانت في حقيبتي صور رسائل الغرام التي كتبها نجيب لقديفة قبل أربع سنوات، وصورها كا في قارص، أعطيتها لفاضل في غرفتي. وفكرت فيما بعد ذلك بوقت طويل بأنني قمت بهذا لأنني أردت أن يقلق من شبح صديقه الميت مثلي.

وبينما كان فاضل جالساً على حافة سريري يقرأ الرسائل أخرجت من حقيبتي أحد دفاتر كا، ونظرت مرة أخرى إلى النجمة الثلجية التي رأيتها أول مرة في فرانكفورت.

وهكذا رأيت بعيني الأمر الذي عرفته في زاوية من زوايا عقلي منذ زمن طويل. لقد وضع كا القصيدة المعنونة: «حيث لايوجد الله» فوق ذراع الذاكرة مباشرة. وهذا يعني أنه ذهب إلى مهاجع المبيت المفرغة التي استخدمها ز. دميرقول، ونظر من نافذة نجيب، واكتشف المصدر الواقعي لمنظر نجيب قبل أن يغادر قارص. القصائد التي وضعها كا على طرفي ذراع الذاكرة يتطرق فيها إلى ذكرياته الخاصة من قارص أو من طفولته فقط. وهكذا صرت واثقاً مما تعرفه قارص كلها، وهو أن صديقي عندما لم يستطع إقناع قديفة في مسرح الشعب، وبينما كانت إيبك مقفولاً عليها في غرفته ذهب إلى مهاجع المبيت حيث ينتظره ز. دميرقول ليخبره بمكان كحلي.

على كل حال لم يكن وجهي في حالة أفضل من وجه فاضل الملخبط. كان ينبعث من الأسفل صوت أحاديث الضيوف غير الواضحة، ومن الشارع تأوهات مدينة قارص الحزينة. ضعنا ـ فاضل وأنا ـ صامتين بين ذاكرتينا وأصلنا الحقيقي الأعقد والأكثر اضطراباً، وسرحنا.

نظرت إلى الخارج عبر النافذة، إلى الثلج النادف، وقلت لفاضل بأننا يجب أن نذهب لتناول الطعام. بداية ذهب فاضل منكمشاً على نفسه كأنه ارتكب ذنباً. تمددت على السرير وتخيلت متألماً ما فكر فيه كا بينما كان يسير من باب مسرح الشعب حتى مهاجع المبيت، وكيف كان يهرب بعينيه وهو يكلم ز. دميرقول، وكيف ركب السيارة نفسها مع المداهمين من أجل أن يدلهم على العنوان الذي لايعرفه، وكيف أشار من بعيد إلى البناء الذي يختبئ فيه كحلي وهاندا قائلاً: (ها هو). متألماً؟ أنا «الكاتب» كنت مستمتعاً بشكل سري، سري جداً بتفكير صديقي الشاعر، لهذا غضبت من نفسي، وعملت على ألا أفكر بهذه المواضيع.

في الأسفل، وفي وليمة السيد طورغوت جعلني جمال إيبك أنهار أكثر. أريد أن أمر بسرعة على هذه الليلة الطويلة التي عاملني فيها جيداً السيد رجائي

مدير الهاتف المثقف الهاوي قراءة الكتب والذكريات، والصحفي السيد سردار، والسيد طورغوت والجميع، وأنا ثملت كثيراً جداً. كلما نظرت إلى إيبك الجالسة أمامي كانت تنهار أشياء في داخلي. تابعت اللقاء الذي أُجري معي في الأخبار خجلاً من حركات يدي وذراعي المتوترة. وبواسطة المسجلة التي حملتها دائماً في قارص سجلت موضوعات حول تاريخ قارص، والصحافة في قارص، وذكريات ليلة الانقلاب قبل أربع سنوات وحوارات أجريتها مع أصحاب البيت وضيوفهم كصحفي شارد غير مؤمن بما يعمله. وبينما كنت أحتسي حساء العدس الذي أعدته زاهدة شعرت بنفسي أنني جزء من رواية ريفيه تجري أحداثها في الأربعينيات! وصلت إلى حكم بأن السجن أنضج قديفة وجعلها هادئة. لا أحد يأتي على ذكر كا، ولا حتى موته. وهذا كان يقطّع قلبي أكثر. في وقت ما دخلت إيبك وقديفة إلى الغرفة الداخلية لإلقاء نظرة إلى (عمرجان) الصغير. أردت أن أذهب وراءهما، ولكن كاتبكم «شرب كثيراً كالفنانين» وسكر إلى حد عدم استطاعته الوقوف على قدميه.

على الرغم من هذا ثمة أمر من الليل أذكره جيداً. في ساعة متأخرة جداً قلت لإيبك بأنني أريد أن أرى الغرفة رقم ٢٠٣ التي نزل فيها كا. سكت الجميع والتفتوا إلينا.

قالت إيبك: «حسنٌ. تفضل.»

أخذت المفتاح من الاستقبال وصعدتُ خلفها. في الغرفة المفتوحة ثمة ستائر، ونافذة وثلج. ثمة رائحة صابون، ورائحة غبار خفيفة. باردة. وبينما كانت ترمقني إيبك بطرف عينها شاكة ومتفائلة جلست على حافة السرير الذي أمضى عليه صديقي أسعد ساعات حياته وهو يمارس الحب معها. لو مت هنا يا ترى؟ أو أعلن حبي لإيبك؟ أم أنظر عبر النافذة إلى الخارج؟ نعم، ينتظروننا جميعاً حول الطاولة. نجحت بإطلاق بعض عبارات الهراء التي أمتعت إيبك، وجعلتها تبتسم. وعندما ابتسمت لي بشكل حلو قلت لها تلك العبارات التي خططت لقولها بشكل مسبق والتي أذكر أنها باعثة على الخجل في أثناء قولها.

«لاشيء في هذه الحياة غير العشق يسعد الإنسان. لا الروايات التي يكتبها ولا المدن التي يراها. أنا وحيد جداً في الحياة. ماذا تقولين إذا قلت

لك بأنني أريد أن أعيش هنا، في هذه المدينة، بقربك حتى نهاية حياتي؟».

قالت إيبك: «سيد أورهان، أردت كثيراً أن أحب مختاراً. ولم يحدث. أحببت كحلياً كثيراً، ولم يحدث، آمنت بإمكانية أن أحب كا، ولم يحدث. أردت كثيراً أن يكون لي ولد، ولم يحدث، لا أعتقد أن بإمكاني أن أحب أحداً بعشق. أريد تربية ابن أختي (عمرجان) فقط. أشكركم، ولكنكم أصلاً غير جِدّيين.»

شكرتها كثيراً لأنها أول مرة لم تقل «صديقكم» بل قالت: «كا». هل يمكننا أن نلتقي غداً في محل الحياة الجديدة للمعجنات ظهراً للحديث عن كا فقط؟

مشغولة مع الأسف، ولكنها ولكي لا تحزنني، وكمضيفة جيدة وعدتني بالذهاب مع الجميع إلى المحطة لوداعي.

شكرتها كثيراً، واعترفت لها بأنني لا أستطيع العودة إلى مائدة الطعام (وكنت خائفاً أن أبكي) وألقيت بنفسي على السرير، ونمت فوراً.

ودون أن يراني أحد خرجت إلى الشارع صباحاً، وتجولت في قارص كلها بداية مع مختار، وبعد ذلك مع الصحفي السيد سردار وفاضل. ظهوري في التلفاز خلال أخبار المساء أراح القارصيين قليلاً لهذا كنت أجمع بسهولة كثيراً من التفاصيل اللازمة من أجل نهاية حكايتي. عرفني مختار بصاحب أول جريدة سياسية إسلامية هي (رمح) التي تبيع خمساً وسبعين نسخة، والصيدلي المتقاعد مدير تحرير الجريدة الذي أتى إلى اجتماعنا متأخراً قليلاً. وبعد أن علمت منهما بتراجع حركة الإسلام السياسي في قارص نتيجة الإجراءات اللاديمقراطية، ولم تعد هنالك رغبة بمدارس الأئمة والخطباء كما في الماضي، تذكرت كيف خطط نجيب وفاضل لقتل هذا العجوز الصيدلي لأنه قبّل نجيب مرتين بشكل غريب، صاحب فندق قارص السعيدة الذي كان يخبر عن زبائنه لصوناي ظائم يكتب الآن في الجريدة نفسها، وعندما فتح الحديث عن الأحداث الماضية ذكرني بتفصيل كدت أنساه: لله الشكر لم يكن قاتل مدير معهد المعلمين قبل أربع سنوات قارصياً. وفهم من التسجيل الذي تم في أثناء الجريمة بأن الرجل يدير مقهى في طوقاط، وكذلك من السلاح الذي ارتكبت بواسطته جريمة أخرى، وإلقاء القبض على صاحبه الأصلي وثبت هذا

من التقرير (البالستي) القادم من أنقرة. اعترف الرجل بأن كحلياً دعاه إلى قارص، وعندما حصل على تقرير بأن قواه العقلية متخلفة نام ثلاث سنوات في مشفى الأمراض العقلية في (بكركوي) في اسطنبول، وخرج. فيما بعد فتح في اسطنبول مقهى (فرح طوقاط) وأصبح كاتب زاوية في جريدة (العهد) يدافع عن فتيات الإشاربات. وإذا كانت هنالك محاولات لإعادة مقاومة فتيات الإشاربات التي كسرت بكشف قديفة رأسها، فإنه لم يصبح كما حصل في اسطنبول بعد أن فصلت الفتيات المتمسكات بقضيتهن من الجامعات، وذهابهن إلى جامعات أخرى. رفضت أسرة هاندا الحديث معي. بعد أن لاقت أغنيات الإطفائي صاحب الصوت الجهوري رواجاً صار نجم برنامج «أغاني سرهات الشعبية» الأسبوعي في تلفزيون قارص سرهات. وصديقه المقرب هاوي الموسيقى بواب مشفى قارص، وأحد المداومين على تكية الشيخ سعد الدين يرافقه بالعزف على الطنبور ويسجلان البرنامج مساء كل ثلاثاء ليبث مساء الجمعة. عرفني الصحفي السيد سردار على الولد الذي ظهر على خشبة المسرح ليلة الانقلاب، لم يسمح له أبوه بعد ذلك اليوم بالمشاركة حتى في مسرحيات المدرسة، وهو يلقب «النظارة»، وصار رجلاً، ومازال يوزع الجرائد. وبفضله يقرأ الاشتراكيون ما يصدر في الصحف في اسطنبول، وعلمت بما يعمله الآن: مازال يحترم من قلبه الصراع الذي يخوضه الإسلاميون والقوميون الأكراد ضد الدولة. ولايعمل شيئاً مؤثراً غير المباهاة بكتابة بيان لم يقرأْهُ أحد، وبطولات وتضحيات ماضية. لدى كل شخص تحدث معي انتظارٌ لإنسان بطل مضحٍ يخلص الجميع من البطالة والفقر والفساد والجرائم. ولأنني روائي معروف قليلاً فقد أشعروني باستهجانهم لتقييمي لهذا الرجل العظيم الذي سيأتي يوماً ما وفق أبعاده الخيالية، ولكثير من تقصيراتي المعتادة في اسطنبول، وشرودي، وتشتتي، وتركيزي على عملي وحكايتي، وتسرعي. عليّ أن أجلس في مقهى الوحدة واستمع إلى قصة حياة الخياط معروف كلها، وأن أذهب إلى بيته وأتعرف على ابن أخيه، وأشرب قدح مشروب، وأن أبقى في المدينة يومين آخرين لحضور الندوة التي يقيمها الأتاتوركيون الشباب مساء الأربعاء، وأن أدخن السجائر المقدمة لي بحميمية، وأشرب أقداح الشاي كلها (وعملت غالبية هذه الأمور). حكى لي صديق والد

فاضل من (فارطو) بأن العديد من القوميين الأكراد إما قتلوا أو سجنوا قبل أربع سنوات: لم يعد ينضم أحد إلى الفدائية، لم يعد أحد من الشباب الأكراد الذين حضروا اجتماع فندق آسيا موجود في المدينة. أدخلني قريب زاهدة المقامر والمحبب إلى زحام صراع الديكة الذي يعمل مساء كل أحد، وشربت مستمتعاً قدحين من أقداح العرق المقدمة في أقداح الشاي.

حل المساء. ولكي أخرج من الفندق دون أن يراني أحد عدت إلى غرفتي في الفندق قبل ساعة انطلاق القطار بكثير ماشياً ببطء تحت الثلج وحيداً كمسافر تعيس، وحضرت حقيبتي.

تعرفّت بالتخفي صفت وهو خارج من باب المطبخ إذ مازالت زاهدة تقدم له طبق حساء كل يوم. تقاعد. عرفني لأنني ظهرت في التلفاز مساء الأمس. لديه ما يحكيه لي. عندما جلسنا في مقهى الوحدة حكى لي أنه مازال يعمل للدولة بالقطعة على الرغم من تقاعده. قال لي بأن التخفي لايمكن أن يتقاعد في قارص في أي وقت، وبأن المخابرات في المدينة تتوق كثيراً لمعرفة ما سأنبش به في المدينة (حوادث «الأرمن» القديمة، المتمردون الأكراد، المجموعات الدينية، الأحزاب السياسية؟)، وأبلغني بصدق باسماً بأنني إذا أخبرته بهذا يمكن أن يكسب بعض النقود.

ذكرت له كا متردداً، وذكرته بانه لاحق صديقي خطوة خطوة، وسألته عنه.

قال: «كان إنساناً طيباً جداً يحب الناس والكلاب. ولكن عقله في ألمانيا. كان انطوائياً. اليوم لا أحد يحبه هنا.»

سكتنا فترة طويلة. وانطلاقاً من احتمال وجود ما يعرفه سألته متردداً عن كحلي. وعرفت منه أن شخصاً جاء من اسطنبول إلى قارص وسأل عنه كما جئت أنا للسؤال عن كا تماماً! حكى لي صفت بأن الإسلاميين الشباب هؤلاء، أعداء الدولة، بذلوا جهوداً كبيرة من أجل معرفة قبر كحلي. عادوا خالِي الوفاض لأن هنالك احتمالاً كبيراً بأن نعشه ألقي من طائرة إلى البحر لكي لا يغدو قبره مزاراً. وقال فاضل الذي كان يجلس معنا بأنه سمع بمقولات كهذه وأن أحد زملائه القدامى من ثانوية الأئمة والخطباء حكى له أن

الإسلاميين الشباب تذكروا «هجرة» كحلي في يوم ما، فهربوا إلى المانيا، وأسسوا في برلين مجموعة إسلامية متطرفة تتنامى باستمرار، وفي العدد الأول من مجلة «الهجرة» التي يصدرونها كتبوا بأنهم سينتقمون من المسؤولين عن موت كحلي. وتوقعنا بأنهم قتلوا كا. نظرت لحظة إلى الثلج النادف في الخارج وأنا أفكر بأن مخطوط شعر صديقي المعنون (ثلج) الوحيد بين يدي أحد المهاجرين الكحليين في برلين.

شرطي آخر جلس معنا في هذه الأثناء حكى لي بأن الشائعات التي دارت حوله كلها كاذبة. قال: «أنا لست صاحب عين معدنية.» ولم يعرف ماذا يعني تعبير عين معدنية. وقال بأنه عشق المرحومة تسليمة، ومن المؤكد أنه كان سيتزوجها لو لم تنتحر. في تلك الأثناء تذكرتُ بأن صفت قد صادر هوية فاضل الطلابية في المكتبة قبل أربع سنوات. ولعلهما قد نسيا منذ زمن طويل هذه الحادثة التي دونها كا على دفتره.

عندما خرجنا إلى الشارع ـ فاضل وأنا ـ سار معنا الشرطيان لا أدري إن كان هذا من أجل الصداقة، أم الدافع المهني، واشتكيا من الحياة، وفراغها، وألم العشق، والتقدم في السن. لم يكن لدى أحدهما قبعة، وكانت ندف الثلج تبقى على شعرهما الأبيض الخفيف دون أن تذوب.

وإثر سؤالي عما إذا كانت المدينة خلال السنوات الأربع قد فقرت، وخوت أكثر، قال فاضل بأن الناس في الفترة الأخيرة يتابعون التلفاز، وصار العاطلون عن العمل يجلسون في بيوتهم لمتابعة التلفاز بدلاً من ذهابهم إلى المقاهي. لمتابعة أفلام العالم كله مجاناً. كل شخص يوفر نقوداً، ويشتري هوائياً أبيض بقدر غطاء قدر ويضعه على طرف نافذة بيته، وهذا هو التجديد الوحيد في نسيج المدينة بعد أربع سنوات.

تناول كل منا واحدة من المعمول بالجوز الرائع التي دفع حياته مدير معهد المعلمين ثمناً لها في محل الحياة الجديدة للمعجنات بديلاً عن العشاء. تركنا الشرطيان عندما عرفا أننا متجهين نحو محطة القطار، ومشينا سامعين وقع أقدامنا من أمام أبواب الدكاكين المغلقة، والمقاهي الخاوية، والبيوت الأرمنية المتروكة، والواجهات المنارة المتجلدة، وتحت أغصان أشجار الحور والكستناء المغطاة بالثلج، في الشوارع الحزينة التي تنيرها أضواء النيون القليلة

المتناثرة. ولأن الشرطة لم تلاحقنا انحرفنا نحو الشوارع الفرعية. ولعدم وجود أحد في الشوارع، ولتأثير شعور تركي لقارص المؤلم، شعرت بالذنب وكأنني سأترك فاضلاً وحده في هذه المدينة الخاوية، انطلق عصفور من ستارة مثقبة صنعتها أغصان شجرتي زعرور جافة متداخلة مع الجليد النازل منها بعيداً، ومن بين ندف الثلج الكبير البطيئة عبر فوقنا. كانت الشوارع التي غطتها طبقة جديدة وناعمة من الثلج الجديد صامتة إلى حد أننا لم نسمع غير وقع أقدامنا، وصوت أنفاسنا المتسرعة مع ازدياد تعبنا. هذا الصمت في شارع تصطف البيوت والدكاكين على جانبيه يجعل الإنسان كأنه تحت تأثير الحلم.

فجأة وقفت وسط الشارع، وتابعت عيناي ندفة ثلج تعلقتا بها حتى سقوطها على الأرض، وفي الوقت نفسه أشار فاضل إلى مكان مرتفع قليلاً من مقهى (نورأول) إلى ملصق كالح لأنه معلق في المكان نفسه منذ أربع سنوات:

الإنسان إبداع الله

الانتحارُ كفر

قال فاضل: «لم يلمس أحد الملصق لأن الشرطة تأتي إلى هذا المقهى.»

سألته قائلاً: «هل ترى نفسك إبداعاً؟»

«لا. نجيب فقط كان بدعة الله. بعد أن أخذ الله روحه ابتعدت عن مخاوف الإلحاد التي في داخلي، كما ابتعدت عن عشقي لحب الله أكثر. اللهم اغفر لي.»

سرنا بين ندف الثلج التي تبدو معلقة في الهواء إلى محطة القطار دون أن نتكلم. هدم بناء المحطة الحجري الجميل العائد إلى عصر الجمهورية الأول، والذي أتيت على ذكره في رواية «الكتاب الأسود» وأقاموا مكانه شيئاً بيتونياً قبيحاً. وجدنا مختاراً والكلب الفحمي ينتظراننا في المحطة. وقبل انطلاق القطار بعشر دقائق جاء السيد سردار أيضاً. أعطاني الأعداد القديمة من جريدة مدينة سرهات المتضمنة أخبار كا، ورجاني ألا أسيء للمدينة وأهلها حين أتحدث في كتابي عن قارص وهمومها. وحين رأى مختار أنه قدم هديته، قدم لي هو الآخر وكأنه يرتكب ذنباً، في كيس نايلوني زجاجة (كولونيا)، واسطوانة جبنة قشقوان قارصية، ونسخة موقعة من كتابه الشعري الذي طبعه

في أرضروم على نفقته، اشتريت سندويشة للكلب الفحمي اللون الذي كتب عنه صديقي الحبيب قصيدة، ولنفسي تذكرة. وبينما كنت أطعم الكلب الذي يهز ذيله المحني سعادة مبدياً مودة جاء السيد طورغوت وقديفة راكضين. علما من زاهدة في اللحظة الأخيرة بأنني ذهبت ـ تحدثنا بجمل قصيرة عن التذكرة، والطريق والثلج. قدم لي السيد طورغوت خجلاً نسخة من طبعة جديدة لرواية (تورغينيف) وهي بعنوان (العشق الأول) ترجمها عن الفرنسية أيام السجن. داعبت (عمرجان) في حضن قديفة. كانت تسقط عن أطراف إشاربها الاسطنبولي الأنيق الذي تغطي به رأسها ندف الثلج.

التفت إلى فاضل الذي خفت من النظر أكثر إلى عيني زوجته الجميلتين، وسألته عما يريد أن يقوله للقارئ في رواية عن قارص إذا كتبتها يوماً ما.

قال مصمماً: «لاشيء.»

عندما وجدني قد تكدرتُ، ضعف، وقال: «هنالك أمر ببالي، ولكنه لايعجبكم... إذا وضعتموني في رواية تجري أحداثها في قارص، أريد أن أقول للقارئ ألا يصدق شيئاً مما تقوله عنا. لا أحد يستطيع فهمنا من بعيد.»

«لا أحد يصدق رواية كهذه أصلاً.»

قال منفعلاً: «لا. يصدقون. من أجل أن يروا أنفسهم أذكياء، ومتفوقين، وإنسانيين يريدون تصديق أننا محبّون ومضحكون، وسيفْهِموننا بحالتنا هذه أنهم يحبوننا. أما إذا وضعتم جملتي هذه فسيتولد شك لديهم.»

وعدت بأن أضع عباراته في روايتي.

حين رأتني قديفة أتطلع إلى مدخل المحطة، اقتربت مني، وقالت: «سمعنا أن لديك ابنة صغيرة جميلة اسمها رؤية. لم تأت أختي، ولكنها تسلم على ابنتك. فأنا أيضاً جلبت لك هذه الذكرى من مكانتي المسرحية غير المكتملة: صورة لها مع صوناي ظائم في مسرح الشعب.»

أطلق موظف الحركة صافرته. يبدو أنه ليس هنالك من سيركب القطار غيري. عانقتهم جيمعاً. في اللحظة الأخيرة، وضع نجيب بيدي كيساً نايلونياً فيه أشرطة فيديو، وقلم حبر جاف عائد لنجيب.

صعدت بصعوبة إلى المقطورة المتحركة محملاً بالهدايا. جميعهم

واقفون في الصالة يلوحون لي بأيديهم، وأنا مددت نفسي من النافذة ولوحت لهم بيدي. في اللحظة الأخيرة رأيت الكلب الفحمي اللون، مطلقاً لساناً زهرياً ضخماً إلى الخارج يركض سعيداً بجانبي طوال الرصيف. بعد ذلك غاب الجميع وسط الثلج النادف ندفاً أكبر وبشكل أكثف.

جلست، ونظرت إلى الأضواء البرتقالية لآخر بيوت الأحياء المتطرفة البادية وسط الثلج، والغرف المهلهلة التي يُتابع فيها التلفاز، والدخان الرفيع المتماوج المنطلق من مداخن واطئة على أسقف مغطاة بالثلج، وبدأت أبكي.

نيسان ١٩٩٩ ـ كانون الأول ٢٠٠١

الفهرس

هـذا الكتـاب

كان الرجل الجالس وراء سائق الحافلة مباشرة يفكر بصمت الثلج. يقول لو كان / صمت الثلج / الذي يشعر به في داخله بداية قصيدة.
لحق بالحافلة التي ستأخذه من أرضروم إلى قارص في اللحظة الأخيرة. بعد سفر دام يومين في حافلة وسط عاصفة ثلجية من اسطنبول وصل إلى كراج أرضروم. وبينما كان يمشي في الممرات القذرة والباردة يحمل حقيبته، محاولاً معرفة المكان الذي تنطلق منه الحافلات التي ستقلّه إلى قارص، قال له أحدهم ثمة حافلة على وشك الانطلاق، ولأن المعاون على حافلة الموديل القديم (ماغيروس) لا يريد فتح (الباكاج) الذي أغلقه مرة أخرى، قال له: «مستعجلين» لهذا السبب حمل معه حقيبة اليد الكبيرة ماركة (باللي)، الكرزية الداكنة الموضوعة الآن بين رجليه.